

متابعة حواء

الناشر



رئيس مجلس الإدارة

أسامة إبراهيم

المدير التنفيذي

سماح الجمال

إشراف في

أحمد جابر

تدقيق لغوي

غادة أحمد

تصميم الغلاف

أحمد صادق

التصميم الداخلي

محمد عبدالفتاح

الكتاب: متاهة حواء

المؤلف: برهان شاوي

عدد الصفحات: 656

الطبعة الثالثة

1438 هـ - 2017 م

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: 19756 / 2017

ISBN: 978 - 977 - 838 - 019 - 4

دار النخبة

33 شارع الستين - الحي الأول

مدينة الشيخ زايد - الجزيرة - مصر

تليفون: 38511969 - 00202

002 - 01288688875

E-mail: alnokhoba@gmail.com

متاهة حواء

EVA'S LABYRINTH

رواية

NOVEL

بُرْهان شَاوي

BURHAN SHAWI

النخبة
للطباعة والنشر والتوزيع

الإنسان ذاهبٌ إلى بيته الأبدِيّ، والنادبون يَطُوفونَ في السوق.

سفر الجامعة الإصحاح الثاني عشر

إِنَّ حَيَاتِي إِنَّمَا هِيَ رِيحٌ، وَعَيْنِي لَا تَعُودُ تَرَى خَيْرًا. لَا تَرَانِي عَيْنُ نَاطِرِي.
عَيْنَاكَ عَلَيَّ وَلَكَسْتُ أَنَا. السَّحَابُ يَضُمُّجِلُ وَيَزُولُ، هَكَذَا الَّذِي يَنْزِلُ إِلَى
الْهَاطِوَةِ لَا يَصْعَدُ. لَا يَرْجِعُ بَعْدُ إِلَى بَيْتِهِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مَكَانُهُ بَعْدُ.

سفر أيوب الإصحاح السابع

”إِنِّي أَفْضَلُ الْحَيَوَانَ عَلَى الْأَحْمَقِ، وَأَفْضَلُ الرَّجُلِ الرَّقِيقِ الشُّعُورِ عَلَى
الرَّجُلِ الْمَرْهَفِ الْعَقْلِ. وَأَفْضَلُ الْمَرْأَةِ الْحَنُونِ عَلَى الْمَرْأَةِ الذَّكِيَّةِ، وَأَفْضَلُ
السَّذَاجَةِ عَلَى التَّصْنَعِ، وَأَفْضَلُ الْقَسْوَةِ عَلَى التَّمَلُّقِ، وَأَفْضَلُ بِلِّ وَأَحَبُّ قَبْلَ
كُلِّ شَيْءٍ وَفَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ الْبَسَاطَةُ وَالطَّبِيعَةُ، وَلَا سِيَمَا الطَّبِيعَةُ؛ فَهِيَ الْفَضِيلَةُ
الَّتِي يَجِبُ أَنْ يَتَحَلَّى بِهَا الْجَمِيعُ، فَالطَّبِيعَةُ هِيَ مَحَبَّةُ الرُّوحِ، وَبِهَذِهِ الْفَضِيلَةِ
نَحْبُ كُلِّ مَا يَتَأَلَمُ وَكُلِّ مَا هُوَ تَعِيسٌ.”

ستندال، من كتاب (حياة روسيني)

كوايس آدم المحروم

أفاق آدم المحروم من غفوته مرعوبًا، فوجد نفسه غارقًا في عتمة الغرفة بشقته التي تقع في الطابق الثاني من بيتٍ قديم في شارع «أبو نواس». لا يتذكر آدم المحروم كيف ومتى نام! فجأة، قفز من الصوفا وكأنه تذكر شيئًا، مشى نحو الباب حيث ضغط هناك على زر الكهرباء فأضاء الغرفة مصباح شاحب، فتش عن الحقيبة الجلدية التي تضم مخطوطات صديقه المغدور آدم البغدادي، لكنه انتبه إلى أنه قد اتكأ عليها كوسادةٍ له.

حاول استذكار ما حدث منذ دخوله إلى الغرفة، فتداعت الصور في ذهنه، نعم، لقد دخل وضغط على الريموت كونترول، شاهد الأخبار العاجلة عن اكتشاف جثة الكاتب آدم البغدادي في مطبخ شقته، وقد اخترقت رصاصتان رأسه من الخلف. تذكر أنه أغلق التلفزيون وجلس مفكرًا بما شاهده، لا يدري بعد ذلك ما حدث، وها هو قد استيقظ.

جلس آدم المحروم على الصوفا، كانت صورة جثة صديقه آدم البغدادي وهي منكبة على وجهها وبقعة الدم المتجمد قرب الرأس تطفئ على ذاكرته، انفجر بنوبة بكاء هستيري، بكاء حاد، بصوت عالٍ، وبحرقٍ شديدة؛ بكاء امتزج فيه الحزن على قتل صديقه الكاتب المبدع بهذه الطريقة الوحشية مع مشاعر خوف على النفس من أن تلاقي المصير ذاته، إذ بدا أن هؤلاء الحكام الجدد لا يختلفون كثيرًا عمّن سبقهم؛ فالسلطة هي السلطة في أي زمان ومكان.

وبطريقة مفاجئة توقف عن البكاء، هيمنت عليه بشكل غريب فكرة أنه مستهدف أيضًا؛ فهو صديقه الحميم، وربما كانت السلطة تنصت على هاتف

صديقه القتيل، وربما عرفوا أنه اتصل به ليلة أمس واتفق معه على اللقاء؛ فماذا عليه أن يفعل؟ هل عليه أن يختفي؟ هل عليه تغيير مكان سكنه؟ هل عليه السفر إلى النجف عند أهله وأعمامه؟ أمن المعقول أن يؤذوه وهو من عائلة نجفية معروفة؟ كيف ذلك وهو من المشاركين في الانتفاضة الشعبية الشعبانية في بداية التسعينات ضد الحكم السابق؟ لا، لا، عليه الحذر؛ فهؤلاء، من أجل البقاء في السلطة، قد زوّروا التاريخ كله، بل إنهم على استعداد لارتكاب أبشع الجرائم من أجل أن يبقوا جالسين على كراسيهم المربعة.

أحسّ بقطرات عرق بارد تتجمع على جبينه، وبطريقة لا إرادية مَدَّ يده إلى الحقيبة الجلدية التي تضم مخطوطات صديقه الكاتب القتيل آدم البغدادي، فتحتها، سحب منها مغلفاً كبيراً، فتحه فقرأ عنواناً كبيراً يتصدر الصفحة: «مِثاقُ حواء وادي الظلمات»، قلب الصفحة فوقعت عيناه على نص مقتبس من كتاب (حياة روسيني)، للكاتب الفرنسي (ستندال)، موضوع بين قوسين: «إِنِّي أَفْضَلُ الحيوان على الأحمق، وَأَفْضَلُ الرجل الرقيق الشعور على الرجل المرهف العقل. وَأَفْضَلُ المرأة الحنون على المرأة الذكية، وَأَفْضَلُ السذاجة على التصنع، وَأَفْضَلُ القسوة على التملق، وَأَفْضَلُ بل وأحب قبل كل شيء وفوق كل شيء البساطة والطيبة، ولا سيما الطيبة؛ فهي الفضيلة التي يجب أن يتحلّى بها الجميع، فالطيبة هي محبة الروح، وبهذه الفضيلة نحب كل ما يتألم وكل ما هو تعيس».

بقي آدم المحروم عند هذه الصفحة ولم يغادرها، فكّر في صديقه القتيل، وتساءل مع نفسه: لماذا اختار هذا النص لستندال ليفتح به روايته؟ هل لهذا الأمر علاقة بأبطال الرواية الجديدة، أو أن النص يكشف عن عذابات صديقه الروحية في عالم ساد فيه الأوغاد والسفلة على كل شيء؟ عالم تمّ تزيف كل شيء فيه.

وضع آدم المحروم المخطوطة على الصوفا إلى جانبه ومد يده إلى باطن الحقيبة فسحب مخطوطة أخرى، قلب صفحتها الأولى فقرأ عنواناً يتوسط الصفحة: (متاهة قابيل). ألقى نظرة في داخل الحقيبة فوجد دفترًا سميكًا،

أخرجه من الحقيقة وأخذ يتصفحه، فقرأ في صفحته الأولى عنواناً بارزاً: (متاهة الأشباح)، وتحت هذا العنوان ثمة عنوان فرعي، هو: (في البحث عن الجمال المفقود والمرأة المستحيلة).

أحسّ برعشة خوف تسري في جسده؛ لقد عرف أن صاحبه كان يريد أن يكشف بشكل روائي عن هؤلاء السفلة الذين حولوا حياة الناس إلى دوامة من العنف والظلام والذل والرعب المستديم، عرف أن هذه المخطوطات مهمة جداً، لكن عليه ألا يبقى في هذا البيت، فهو لا يعرف ماذا سيحدث، ولديه شعور غامض خفي بأنه سيكون مطارداً!

وضع المخطوطات داخل الحقيقة، بقي للحظات صامتاً، مرتبكاً، ثم بشكلٍ لا إرادي أخذ الريموت كونترول وضغط عليه فانطلقت شاشة التلفزيون لتكشف عن محطة اتخذت من مقتل صديقه الكاتب آدم البغدادي موضوعاً رئيساً لها، وكرّست شريطها الإخباري لنقل تفاصيل مقتله، وتصريحات المسؤولين، واحتجاجات القوى السياسية التي أرادت استخدام مقتل صديقه للنيل من الحكومة، التي كانت ليست بعيدة عن دائرة الشك والانتهاك.

أحسّ آدم المحروم بأن للجدران عيوناً وأذاناً، وبشكل عفوي رفع رأسه ليتأمل جدران الغرفة، فجأة، أطفأ بث التلفزيون ثم قام من مكانه، أغلق الحقيقة الجلدية، وحملها على كتفه، ألقي نظرة سريعة إلى أرجاء شقته الصغيرة وخرج.

حين صار آدم المحروم في الشارع أحسّ أنه تخلص من كابوس صغير ليلقي بنفسه في كابوس أكبر، أخذ يلتفت بين فترة وأخرى إلى الوراء، وأخذ يُحدّق إلى الوجوه التي تواجهه، ويفسر كل نظرة إليه من الآخرين بهواجس تزيد من قلقه وارتباك. لم يكن يدري إلى أين يذهب.

لا إرادياً وجد نفسه متجهاً إلى المقهى الذي كان مكاناً للقائهم الاعتيادي، وما إن دلف من الباب حتى وجد المقهى شبه خالٍ، إلا من ثلاثة أشخاص،

أحدهم من أصدقائه، أما الرجلان الآخران فلم يعرفهما، فهما ليسا من وجوه المقهى وروادها الاعتياديين.

وجد صديقه آدم المطيري، الذي كان يعمل مقدماً لأحد البرامج التلفزيونية المشاكسة، ساكناً، شاحباً، ومليناً بالخوف أيضاً، وكأنه قد لاذ إلى المقهى هارباً من بيته أيضاً، وما إن شاهد أحدهما الآخر حتى دبّت الحياة فيهما، صافح آدم المحروم صديقه بصمت وجلس قربه قائلاً بما يشبه الهمس:

- أين البقية؟

- أجب الآخر بنفس النبوة شبه الهامسة:

- لا أدري، لقد اختفوا جميعاً.

- اختفوا؟ أين ذهبتم أمس بعدما خرجتم من اتحاد الأدباء؟

- جئنا إلى بيت الشهيد آدم البغدادي، فوجدنا الشرطة ورجال الحرس الوطني قد ملأوا الشارع، دخل بعضنا إلى الشقة، وبعضنا تجنب ذلك. بعد ذلك تفرقنا، وقد صار الاتفاق بآلاً نتواجد مجتمعين، وأن نتجنب الأحاديث التليفونية، فمن المؤكد ستقوم الجهات الأمنية بمراقبتنا جميعاً.

صمت آدم المحروم لحظة ثم سأل:

- لكن هل هناك أخبار عن الجريمة؟ هل هناك معلومات أو تسريبات وتخمينات عن القاتل؟

تلقت آدم المطيري وكأنه يخاف أن يسمعه أحد، وقال:

- ليست هناك أي معلومات. يبدو أن القاتل من معارفه، لأنه ليست هناك أي دلائل عن عنف أو صراع، ودليل ذلك أن الجريمة حدثت في المطبخ، وهناك دورق زجاجي يبدو كان مليئاً بعصير البرتقال، وأن القاتل قد جاء من الخلف فأطلق رصاصتين على رأسه.

- هذا الوصف صحيح لأنني دخلت المطبخ ورأيت منكباً على وجهه، وقد ثقب الرصاص رأسه من الخلف، لكن ليس بالضرورة أن القاتل من معارفه،

فربما كان شخصاً من جهة أمنية دخل عليه بشكل رسمي كاشفاً عن هويته ومنصبه الأمني أو الحكومي، وقد استقبله المرحوم آدم البغدادي بشكل طبيعي، ثم قام إلى المطبخ ليضيّفه ويقدم له العصير، لكن القاتل لم يستطع الصبر فأراد استعجال المهمة، فدخل خلفه وأطلق الرصاص على رأسه بسرعة. انتبه الآخر لما قاله آدم المرحوم. صمت للحظات، ثم عقب:

- لا أدري، كل شيء جائز، ربما ما تقوله صحيح أيضاً. لكن ما الفائدة الآن؟ فأنت تعرف أن آدم البغدادي كان مستقلاً من الناحية السياسية، ولا ينتمي إلى أي جهة، وسيضيع دمه بين القبائل كما يُقال؛ لأن المزايدات السياسية أخذت تملو من هذا الطرف أو ذاك، ألم تشاهد التلفزيون؟

- بلى، لقد تابعت بعض الأخبار. وأنت ماذا ستفعل؟

- لا أدري يا آدم، فأنا خائف جداً، أنت تعرف أنني أقدم برنامجاً تلفزيونياً مشاكساً، أكشف فيه مكامن الفساد في الدولة، وأتحدث من خلاله بجرأة لا تعجب المسؤولين، ولولا تفهّم إدارة القناة لما استطعت أن أقدم البرنامج، كما أنك تعرف بأنني تلقيت تهديدات واصلتني عبر رسائل الهاتف، وحينما أردنا معرفة المرسل كانت شركات الهاتف تَجِيننا بأن هذا الرقم غير مسجل لديها. وأنا الآن، وأقولها بصراحة، خائف جداً، فيبدو أن قتل آدم البغدادي هو رسالة لنا جميعاً بأننا سنلاقي المصير نفسه، أليس كذلك؟

صمت آدم المرحوم للحظات مفكراً بمخاوف صديقه، ثم قال مؤيداً كلامه:

- ربما أنت محق، ربما هذه هي الرسالة حقاً!

- سأختفي، وسوف أتوقف عن بث البرنامج، وربما سأسافر إلى بيروت لفترة حتى تهدأ الأوضاع!

قال ذلك ثم قام بشكل مفاجيء خارجاً دون أن يصافح صديقه، تاركاً آدم المرحوم وحده، مذهولاً من تصرفه، وكمية الخوف التي تهيمن عليه.

كان الرجلان الآخران ينظران إليهما وهما يتناقشان، وحين خرج آدم المطيري تاركًا المقهى قام أحدهما ليتبعه، ففسّر آدم المحروم بأن الرجل الذي خرج هو مخبر جاء خصيصًا لهذه المهمة؛ حيث تعرف الأجهزة الأمنية أن هذا المقهى يلتقي فيه المثقفون، وربما أن الرجل الآخر مخبر أيضًا، ومن المؤكد ستكون مهمته متابعته.

لم يكن آدم المحروم قد شرب أي شيء بعد، بالرغم من أن صبي المقهى جاء بإستكان الشاي ووضعه أمامه. كان جلّ اهتمامه هو كيفية مغادرة المقهى دون أن يتبعه الرجل المخبر؟ فكر مع نفسه: «ليس مهمًا إلى أين سأتوجه، فأنا لا أعرف حقًا إلى أين سأتوجه، المهم الآن ألا يتبعني هذا المخبر». بقي جالسًا على مقعده دون أن يمسّ الشاي، فجأة قام الرجل الآخر ليذهب إلى المرافق الصحية، أحسّ آدم المحروم وكأن هذا الأمر هبة إلهية، فما إن اختفى الرجل في المرافق الصحية حتى قام هو خارجًا من المقهى وكأنه يهرول، دون أن يدفع ثمن الشاي، ولم يسأله صاحب المقهى عن أي شيء، فقد كانوا يعرفونه.

لم يكن يدري إلى أين يذهب، فكل ما كان يهيمن على كيانه هو أن يخرج من المقهى دون أن يتمكن الرجل الذي ظنه مخبرًا من أن يتبعه، وكان له ما أراد، وها هو قد قطع شوطًا من الدرب في الزقاق الجانبي. فجأة توقف، ثم التفت فلم يجد أثرًا لأي شخص يتبعه، سأل نفسه متسائلًا إن كان الرجل مخبرًا حقًا، وليس توهمًا منه بأنه كذلك؟ ألا يمكن أن يكون ذلك الشخص ليس سوى رجلٍ عابرٍ جلس في المقهى ليشرب الشاي، أو لينتظر أحدًا، أو أنه رجل هارب من كوابيسه مثله؟

لا يدري إلى أين يذهب، أحس بالكآبة تقبض على روحه، والوحشة، وانقباض النفس يهيمنان عليه، وزادت فذارة الشوارع الموحلة التي يسير فيها، وتلك البيوت الآيلة للانهدام على من فيها، والأزقة القذرة والمليئة بالأوساخ والحفر والوحل، من شعوره بالحصار والاختناق!

انهمرت الأسئلة في أعماقة: «أترى هذه هي بغداد التي يعشقها من كل أعماقه؟ أهذه هي المدينة التي تتمطى مثل نَعاسٍ لذيذ في ذاكرة التاريخ؟ أهذه هي مدينة الأحلام والأساطير وقصص ألف ليلة وليلة؟ لقد كانت بغداد مدينة خائفة في زمن الطاغية وحزبه، لكن هؤلاء رحلوا وجاء ضحاياهم، فلماذا لم تتخلص المدينة من حزنها ولم تتألق؟ لماذا تحول الضحايا بعد جلوسهم على الكراسي إلى قتلة شرسين؟ كم كان شكسبير محققاً في كشفه عن وجه السلطة البشع».

لم يستطع آدم المحروم أن يسترسل في أفكاره الحزينة وتأملاته الموحجة، إذ أعادته إلى الواقع رؤية صديق آخر من الذين كانوا في اتحاد الأدباء لحظة نقل خبر مقتل آدم البغدادي. كان اللقاء مفاجئاً لكليهما، وقد بدا واضحاً لكليهما بأنهما لم يرغبا بهذا اللقاء المفاجيء، لكنهما لم يستطيعا تجاهله، فسلّما على بعضهما اضطرازا، كان واضحاً أن كلا منهما يريد إنهاء اللقاء، لذلك اكتفيا بالمصافحة الباردة، نظر كلاهما إلى الآخر وكأنه يريد أن يقرأ أفكاره، تتمم كلا منهما للآخر بكلمات جوفاء، تكشف عن تأثرهما بما حدث، لكنه تأثر يشوبه الخوف والشك، وكأن كلا منهما يقول للآخر علينا الاختفاء خلال هذه الفترة، والأفضل أن يمضي كل منا لحال سبيله! صافح كلا منهما الآخر بحرارة وهو يودعه، وكأن كلا منهما يشكر الآخر لتفهم الوضع وسارا في اتجاهين متعاكسين.

لم يكن آدم المحروم يعرف إلى أين يذهب بعد، كان مشتت الذهن، تتلاطم الأفكار في ذهنه أمواجاً، لم يكن يركز على فكرة محددة، فكل ما يتمناه الآن هو أن يكون وحده في مكان بعيد عن الأنظار.

لا يدري كيف راودته ذكريات عن هروبه أيام الانتفاضة الشعبية في بداية التسعينات، حيث كان طالباً في كلية الآداب في بغداد، لكنه هرب منها إلى النجف، وهناك وجد نفسه يشارك المنتفضين ثورتهم ضد الطاغية، وكيف أنه بعد الهجوم على الثوار اختفى في السرايب والمقابر التي تشتهر بها تلك

المدينة المقدسة. وكيف أنه هرب بعد فترة إلى إحدى القرى القريبة التي آوته لمعرفتهم العائلية بأهله، ولم يكن هؤلاء يعرفون أنه مطارّد، وكيف أنه ترك القرية بعد أيام متوجّهاً إلى بغداد حيث صادفته دورية عسكرية يقودها عريف ألقت القبض عليه، حينما كان ماشياً وحده على الطريق المتجه إلى العاصمة، يتذكر كيف أوقفوه، وكيف أنهم حينما قدموه إلى مسئول تلك الدوريات العسكرية، وكان ضابطاً كبيراً في السن، بدا التعب والسهر والغم على وجهه الوسيم، والذي سأل العريف إن كانوا قد قبضوا عليه مسلحاً، أو أنه كان في وضع مشبوه، وكيف أن العريف أجاب بأنه كان ماشياً على قدميه، وأنهم يشتبهون به لأن الإنسان المسالم الطبيعي لا يمشي على قدميه من النجف إلى بغداد؟ وكيف أن الشجاعة التي كانت أقرب إلى التهور قد واثته فأوضح للمسئول بكل صراحة بأنه طالب في كلية الآداب في بغداد، قدم في زيارة إلى أهله إلا أن الفوضى عمّت المدينة، فأراد الرجوع إلى بغداد، فهو أيضاً يعمل صحافياً لإحدى المجلات التابعة للحزب الحاكم، وكيف حينما ذهب إلى كراج السيارات وجد المكان مطوقاً بالدبابات وبرجال القوات الخاصة، وما بين الشك واليقين، وربما نتيجة للتعب والإرهاق الشديد والحر، بل وربما الضجر، أمر المسئول العسكري بحركة من يده بإخلاء سبيله، بل أمر العريف بتوصيله مع السيارات العسكرية إلى بغداد.

لا يعرف آدم المحروم لماذا تذكر كل هذه التفاصيل التي مر عليها عقدين من الزمان الآن وهو في هذا الوضع الكابوسي!

وجد آدم المحروم نفسه قرب ساحة الطيران. انتبه لنفسه، وسألها: كيف وصلت إلى هنا؟ من أي الأزقة مررت؟ رفع رأسه متأملاً السماء بنظرة بانورامية، وحينما أعاد بصره إلى مستوى النظر واجهته لافتة أحد الفنادق الصغيرة التي تحمل اسم الفندق (الركن الهادئ). وبدون أن يأخذ وقتاً للتفكير وجد نفسه يدخل إليه، حيث وجد في باحته الداخلية رجلاً أربعينيّاً

يقف وراء الطاولة التي هي بمثابة مكتب إدارة الفندق، سأل إن كانت هناك غرفة فارغة؟ تأمله صاحب الفندق لثوانٍ ثم أخبره بوجود غرفة فارغة، لكنه طلب منه وثائقه الرسمية فأعطاه هويته الجامعية، واستلم مفتاح الغرفة. صعد إليها على مهل وبخطوات هادئة كي لا يثير شك صاحب الفندق.

دخل آدم المحروم الغرفة، دار ببصره في أنحائها، كانت هناك نافذة ضيقة تطل على حائط لفندق أو مبنى آخر، وكانت المسافة بين النافذة والحائط أقل من نصف متر، لا يدري لماذا فكر لحظتها مفتشاً عن سبب ترك البتائن هذا الفراغ بين الحائط والنافذة؟ نظر إلى زوايا الغرفة من الأعلى، فلربما نُصبت كاميرات مراقبة أو أجهزة تنصت، وحينما اطمأن إلى خلو الغرفة من أي أجهزة للتنصت أو التصوير، أخذ يتأمل موجودات الغرفة، فانتبه إلى السرير المتهترئ الذي تغطيه بطانية قذرة؛ كانت الغرفة شبه عارية.

جلس على حافة السرير الذي كاد ينهار عند جلوسه عليه، ألقى بالحقيبة الجلدية إلى جانبه، فجأة، سمع طرقاً خفيفاً على الباب. انتبه متوجساً للحظات، ثم قام فاتحاً إياه، فوجد فتى في الخامسة عشر يحمل بيده شرسفاً نظيفاً، ابتسم الفتى ودون أن يستأذن دخل الغرفة، وقبل أن يفعل شيئاً أخذ آدم المحروم الحقيقية الجلدية عن السرير، فقام الفتى بتبديل شرسف السرير وأخذ القديم معه، ودونما أي كلام ابتسم لآدم المحروم مرة أخرى، وخرج.

ما إن خرج الفتى، عامل الخدمة، حتى قام آدم المحروم فأغلق الباب بالمفتاح من الداخل، ثم تمدد على السرير وكأنه يبحث عن راحة مفقودة، بقي لدقائق على استرخائه ذاك دون أن يفكر بشيء وكأن التفكير كان قد أرهقه! أفاق من استرخائه، فسحب مخطوطة الرواية «متاهة حواء وادي الظلمات»، التي قرأ صفحاتها الأولى فقط. دفعته رغبة حقيقية في أن يتواصل مع صديقه القتل من خلال روايته ليعرف أسرار موته، وبدأ يقرأ:

متاهة حواء وادي الظلمات

«إنني أفضّل الحيوان على الأحمق، وأفضّل الرجل الرقيق الشعور على الرجل المرهف العقل. وأفضّل المرأة الحنون على المرأة الذكية، وأفضّل السذاجة على التصنع، وأفضّل القسوة على التملق، وأفضّل بل وأحب قبل كل شيء وفوق كل شيء البساطة والطيبة، ولا سيما الطيبة؛ فهي الفضيلة التي يجب أن يتحلّى بها الجميع، فالطيبة هي محبة الروح، وبهذه الفضيلة نحب كل ما يتألم وكل ما هو تعيس».

ستندال، من كتاب (حياة روسيني)

بداية ما بعد النهاية حواء، البداية الجديدة

سمعت حواء المؤمن صوت باب الشقة الصغيرة يُصَفَق بقوة وغضب، حتى أن جدران شقة آدم اللبناني المصنوعة من الخشب المكبوس مع مواد صناعية ضاغطة قد اهتزت، كَوَّرَتْ نفسها بعد أن اعتدلت في جلستها، ولملم آدم اللبناني نفسه، وجلس إلى جانبها حائراً، مذعوراً، وفي داخله انكسار وخجل من المشهد المشين والداعر الذي شاهده فيه جارهم الدكتور آدم التائه مع زوجته.

سمعا خطوات آدم التائه وهو يهبط السلم بخطوات أشبه بالقفز، بل تناهى إلى آذانهم صوت تدرجه على السلم، لكن يبدو أنه تماسك، ثم ابتعدت الخطوات التي انتهت بصوت ارتطام الباب الخارجي وهو يغلق بقوة.

شعر آدم اللبناني بخجل وانكسار، وتألّم، وكأن مرايا هشمت في داخله وجرحته بشظاياها، فهو يكنّ احتراماً ومودة لشخص الدكتور آدم التائه، فقد سمع عنه من بعض أصدقائه العرب اللاجئين في هذه المدينة بأنه أديب، وأستاذ جامعي، إنسان طيب ومحترم، وكم كان يتحسّن الفرصة كي يتعرف إليه عن قرب، لكن الظروف لم تسمح له، بالرغم من أنه جاره ويسكنان في شقتين متقابلتين لا يفصل بينهما سوى فسحة تمتد لمتراً واحداً تقريباً، بل كان يفكر في مشروع روايته أن يكتب عن سكان المبنى الذي يسكنه، ومن بينهم الدكتور آدم التائه وزوجته حواء المؤمن، وعن رحلته هو من لبنان إلى ألمانيا، وما جرى معه هنا في ألمانيا، وها هو يتقابل معه في مشهد مشين

مثل هذا. أحس بعدم ارتياح وغضب خائق من نفسه ومن حواء المؤمن التي انجرت معه إلى مثل هذه المغامرة المكشوفة.

- نظر إلى حواء المؤمن فوجدها تبكي بصمت، الدموع تنزل من عينيها دونما صوت لبكاء، لم يكن يعرف ماذا يفعل، نظر إليها متأملًا، فجأة، أحس بدفق من الحنان نحوها، فكر مع نفسه: «ماذا ستفعل هذه المسكينة؟ إلى أين ستذهب؟ من المؤكد أنه لن يسمح لها بالسكن معه؟» ومرق خاطر مرعب في ذهنه فأحس بالخوف وسأل نفسه: «أمن الممكن أن يتهور الدكتور آدم التائه تحت ضغط التقاليد والأعراف والشعور بالإهانة فيقتلها، أو في أحسن الأحوال إيذاؤها جسديًا؟ وماذا لو جاء باحثًا عنها عنده لينتقم منها؟ وهذه المرأة التي منحتة نفسها بشبق، لماذا فعلت ذلك؟ هل ترى هو يحبها فعلاً أو أنه يشتهيها مثله فقط؟ ثم كيف سيثق هو بها وهي التي عقلها بين فخذيها؟ ألا يمكن أنها ستكون مع غيره مثلما كانت معه؟ أيمن له أن يشاهدها في مثل هذا المشهد الذي شاهدها فيه زوجها اليوم؟ ماذا عليه أن يفعل الآن؟ أيرتبط بها كما اتفق معها؟ ثم، أليس من الأفضل أن يعيشا هكذا بدون زواج؟ لكنها اليوم حدثته عن حملها منه؟ كيف له أن يتأكد من أن الجنين الذي في بطنها منه هو وليس من زوجها؟ وإذا اتضح بأن كلامها كان صحيحًا كيف له أن يتركها وحيدة لمصيرها؟» ظل ينظر إليها بحيرة وتعاطف، ثم سألها بقلق:

- ماذا سنفعل الآن؟

تمتت هي قائلة دون أن تنظر إليه:

- لا أدري، لكن شكرًا لك.

- شكرًا؟ شكرًا على ماذا؟ سأل مستغربًا.

- شكرًا، لأنك قلت ماذا نفعل ولم تقل ماذا ستفعلين.

فقال بتعاطف وحرارة:

- كيف تقولين هذا؟ هل أنا من النذالة بحيث أتركك في مثل هذا الموقف؟ بالرغم من أنه موقف، بصراحة، لم أشأ أن أجد نفسي فيه أبداً، ثم هناك حكاية الحمل، وبالمناسبة، أنتِ لم تروِ لي التفاصيل!

نظرت إليه بترقب وسألت:

- أي تفاصيل؟ ماذا تريد أن تعرف؟

فقال دون أن ينظر إليها:

- كيف لي أن أعرف بأن الجنين مني وليس منه؟

نظرت إليه وكأنها كانت تنتظر مثل هذا السؤال، وكأنها أيضاً أعدت الجواب، فقالت دونما غضب أو استفزاز:

- زوجي لا يستطيع أن يكون أباً؛ لأنه عقيم.

فوجئ آدم اللبناني بجوابها الحاسم، بهت للحظات ثم سأل:

- هل يعرف هو أنك حامل؟

- لا.

- لا؟

نظرت إليه لتحسم شكوكه، فقالت:

- لا طبعاً، لا، وحتى لو كان يستطيع أن ينجب، فهو لم يقترب مني منذ أكثر من ثلاثة شهور تقريباً، ناهيك أنه قد مضت سنوات عدة على زواجنا ولم أحمل منه.

نظر إليها وكأنه يوازن بين المنافع التي سيجنيها من زواجه منها، وبين نفوره من فكرة الزواج، لا سيما بعد هذه الفضيحة، فسألها:

- كيف سنحلّ هذه المصيبة الآن؟

نظرت إليه لحظة متأملة أن تدرك ما يدور في ذهنه، ثم قالت:

- لا أدري، علينا أن نتزوج؟

- نتزوج!
- نعم، نتزوج، فلقد سمعت أنت بنفسك أنه ألقى علي يمين الطلاق، علمًا أنه سيسافر إلى الخليج، فلقد استلم اليوم رسالة من إحدى الجامعات هناك لإجراء المقابلة، ومن المؤكد أنه سيسافر، بل إنه قبل أن نكون معًا قد خرج لشراء بطاقات السفر، ولا أدري كيف رجع إلى البيت.

حين تحدثت هي كان هو يفكر في فوائد الزواج منها، فقال لها:

- لكني لا أملك أي أوراق رسمية كي أقدمها للألمان هنا.

- أليس لديك ورقة رسمية بالبقاء في ألمانيا؟

- نعم لدي.

فأخذت تشرح له بهدوء لا يتناسب مع الحالة التي هما فيها:

- أنا لدي جواز السفر الخاص باللاجئين، وأنا وزوجي أمام القانون الألماني لسنا متزوجين؛ فزواجنا ديني، إسلامي، وعشنا المشترك قانونيًا ليس كزوجة وزوجة، وإنما كصديق وصديقة. نحن قد حصلنا على الاعتراف بنا كلاجئين سياسيين، وهذا يعني أنه بإمكاننا أنا وأنت أن نتزوج، وعندها سيعطونك إقامة رسمية مرتبطة بإقامتي، وبعد سنوات سنحصل على الجنسية الألمانية.

كان آدم اللبناني يستمع إليها بانتباه والفرحة تغمره، فقال:

- ياه، لم أكن أعرف أنك عملية لهذه الدرجة، فهل فكرت بهذا الآن أم فكرت به سابقًا؟

- لا ليس الآن، فكّرت به سابقًا، بعد أن عرفت أنني حامل، وبعد أن قررت أن أعيش معك، لأنني لا أريد لابني أن يكون ابن حرام، فحتى لو لم يحصل الذي حصل اليوم، فإني قد فكّرت بأن أطلب الطلاق.

تأملها متفحصًا، وقال بنبرة فيها ارتياح:

- عجيب أمرك! وكأنك خططت لكل هذا.

انتبهت لنبرة صوته، فقالت محاولة أن تدافع عن نفسها بشكل غير مباشر:
- أبدًا، أقسم لك أنني لم أخطط لأي شيء، الأشياء هي التي جرت وكأن
هناك من خطط لها، لكنني بعد أن عرفت بأنني حامل أخذت أفكر مع نفسي
بكل هذه التفاصيل. أنا كنت أحلم أن يكون لي طفل، لكنني أيضًا لم أكن
أحلم وأفكر بأن يكون من غير زوجي وثمره علاقة خاطئة!

ألقي عليها نظرة غامضة فيها دهشة وعدم تصديق وقال:

- عجبني أمركن أيتها النساء! أنتِ يا حواء تتحدثين عن الحلال والحرام،
بينما أنت تفقدين سيطرتك على نفسك حينما يمسك الرجل، أي رجل.

نظرت إليه بتساؤل وحنق مفاجيء وقالت:

- أنا لستُ عاهرة يا آدم، صحيح أنا قبلت هذه العلاقة معك، ورغم أنك
أعجبتي من أول لحظة رأيته فيها، لكنني لم أجئك طائعةً؛ فلقد اغتصبتني
في المرة الأولى!

أحس هو بالحنق من تبريرها، وقال:

- أنتِ من دفعني لكي أغتصبك، بل إنك لا تحبين الرجل إلا حينما
يغتصبك، لقد لاحظت أنك تستمتعين بذلك.

برقت عيناها وقالت له بدلال:

- لولا حبي لك لما استمتعت معك، ثم هل أفهم من كلامك أنك بدأت
تتهرب مني، وتريد أن تلقي اللوم عليّ؟

- لا، لا، دعينا الآن من كل هذا، علينا الآن أن نفكر بالمصيبة التي نحن
فيها، هل لديك الآن مكان تذهين إليه؟

كان سؤاله وكأنه صفة انتبهت بعدها إلى الوضع الذي آلت إليه، فقالت
بارتباك:

- أبدًا، أنا لا أعرف أحدًا هنا.

- يمكنك البقاء معي إلى أن ندبر أمرنا، لكن ألا تريد أن تتفاهمي معه، فلربما يتراجع عن موقفه؟
- فقالت بخوف وحياء:
- أبدًا، لا أستطيع أن أخطو خطوة واحدة في بيته.
- صمت هو للحظات، ثم قال بانفعال:
- لكن الوضع هكذا غير مريح، فنحن جيران، والباب مقابل الباب، وهذا يعني أننا سنتقابل بدون شك، والأفضل أن نغيب عن نظره إلى أن تتضح الأمور.
- كيف نغيب عن نظره؟
- نذهب إلى مدينة إيسن، هناك لدي بعض الأصدقاء والأقارب، يمكننا أن نبقى هناك لأيام حتى نعرف كيف نتخذ الخطوة التالية!
- صمتت لحظة ثم قالت باستسلام:
- الرأي رأيك.
- قالت ذلك باستسلام ظاهر، لكنها كانت في أعماقها منفعلة، بدا أن قرار آدم اللبناني بالسفر إلى مدينة إيسن القريبة قد أربكها، ولأول مرة من بعد مواجهة زوجها لهما في هذه الغرفة شعرت بالضيق والته، بينما سألهما آدم اللبناني وهو يتجه إلى المطبخ الذي يقع إلى جانب إحدى زوايا الغرفة:
- هل تشربين معي القهوة أم أعمل لك الشاي؟
- أريد شايًا لأن رأسي سينفجر، لكن دعني أنا أقوم بذلك.
- أنا اليوم في خدمتك، لا فرق بيننا، قال لها بلطف.
- طيب لشرب كلانا القهوة.
- طيب.
- اتجه آدم اللبناني بنشاط نحو المطبخ الذي يشكل ما يشبه الممر الصغير الذي يستقطع جانبًا من غرفته الصغيرة، وكأنه يود التخلص من حوار ثقيل.

في زاوية المطبخ البعيدة عن أنظار حواء المؤمن كان آدم اللباني يعد القهوة ويفكر في المكاسب التي سيجنيها من هذا الزواج، فكّر للحظات بالإقامة الدائمة التي سيحصل عليها استناداً إلى إقامتها، وبالتالي إمكانية السفر إلى لبنان لزيارة الأهل والأصدقاء ولقاء حبيبته حواء الحلو، ناهيك عن التحسن الذي سيطرأ على وضعه المادي، لا سيما إذا ما ولد الطفل، إذ إن المساعدات الاجتماعية ستتضاعف، إلى جانب أن بعض الكنائس تعطي منحة لمدة سنة ونصف للعائلات التي يولد لديها طفل جديد، كل ذلك جرى بعملية حسابية في ذهنه خلال أقل من دقيقة من الوقت.

حينما عاد حاملاً صينية صغيرة فيها فنجانان من القهوة كان في مزاج مختلف، فلقد اختفت حيرته وذهوله ومزاجه كان رائعاً، وبدأ في حالة نفسية أقرب للفرح الخفي.

جلس إلى جانبها مقرباً منها جداً، أخذ يتأملها وهي ترتشف القهوة، فبدت له مثيرة وشهية، وعلى غير توقع، ودون أن يمد يده إلى فنجان قهوته مد يده لاحتضانها مقرباً وجهها من وجهه. نظرا لبعضهما، بقيا في هذا الوضع للحظات وكأن كلاً منهما يريد أن يعرف ماذا يدور في ذهن الآخر، لكنه أنهى الوضع بأن أطبق على شفيتها مُقبلاً إياها بحرارة وشبق، فوجئت للحظة، لكن أسعدها ما قام به فاستجابت له، وأبدت له استعدادها الكامل لاستقباله في داخلها، ولم يحتج الأمر إلا لحركة بسيطة منه حيث ألقاها على ظهرها، فاتحاً إياها، كاشفاً عن كنزها الذي صار مشاعاً له، داخلًا فيها بقوة وعنف.

لحظتها كان كل منهما يحس بالفوز، فقد أحست حواء المؤمن أنها فازت به بعد أن خسرت زوجها الدكتور آدم التائه، بينما أحس هو بأنه فاز بالإقامة الدائمة في ألمانيا وبامرأة مثيرة يمكن أن يتخلص منها عندما يرتب كل أموره الرسمية ويحصل على الجنسية الألمانية.

آدم البغدادي: هذا الفصل له علاقة مباشرة برواية (متاهة آدم)، ففي تفاصيل تلك الرواية نتعرف على نشوء العلاقة بين حواء المؤمن وآدم اللبناني. لكن هل ترى أن اسم (متاهة حواء وادي الظلمات) مناسب لهذه الرواية؟ لماذا لا أترك العنوان الرئيسي وأكتفي بالعنوان الجانبي (وادي الظلمات)؟ ولكن لماذا (وادي الظلمات)؟ هل هو تنويع على اسم (وادي الرافدين)؟ ثم ألا يتشابه هذا مع عنوان للروائي عبد الرحمن منيف في إحدى روايات خماسيته عن الجزيرة العربية باسم (بادية الظلمات)؟ لا، لا؛ فالظلام يعم العالم كله. هو تحدث عن مكان ما وأنا أتحدث عن مكان آخر. أنا أتحدث عن الوديان التي يسير بين جنباتها البشر، وبالتحديد أبناء (وادي الرافدين) الذي هو بحق (وادي الظلمات)، لكن كيف يسرون؟

سأل آدم المحروم نفسه معلقاً على هامش صديقه: لا أدري لماذا ترك صديقي آدم البغدادي أبطاله يتحدثون بالفصحى؟ ألم يكن أفضل لو تركهم يتحدثون لهجاتهم، أي أن آدم التائه وحواء المؤمن يتحدثان باللهجة العراقية، وآدم اللبناني باللهجة اللبنانية، ألم يكن ذلك أفضل؟

خطوات قبل الهاوية

حين صار آدم الثائ في الشارع، أحس بحرارة تصعد إلى وجهه، وبطبقة من العرق البارد تغطي جبينه، رفع رأسه إلى السماء الرصاصية المكفهرة وانتبه لقطرات المطر التي بدأت تهطل خفيفة أول الأمر لكنها أخذت تتسارع، توقف لحظة، فكّر بأن المسافة إلى المكتب السياحي ليست قصيرة، رجع ثانية إلى الشقة كي يأخذ المظلة.

كان باب الشقة شبه مفتوح، لم يجد زوجته في البيت بعد أن تركها قبل دقائق قليلة! ولأن باب جاره آدم اللبناني مقابل لبابه ويبعد عنه في حدود المتر، فقد سمع آهات شبقة تأتي من الشقة المقابلة، شعر لثوانٍ بأنه على شبه يقين بكارثة ما ستحل عليه!

تردد للحظات في أن يفتح باب شقة جاره، لكن انفعالاته كانت من القوة بحيث منحتة الجراءة في أن يقوم بتصرف متهور لا يليق به، لكن انفعالاته كانت أقوى من تردده، ولم يعد يهمه كيف عليه لحظتها أن يبرر فعله! وفتح الباب، وواجه ذلك المشهد المرعب بين زوجته وجاره اللبناني، ولحظتها لم يكن بحاجة لتبرير اقتحامه الشقة بهذه الطريقة! لم يكن أمامه من هول المشهد سوى أن يبصق عليها، ويلقي عليها يمين الطلاق، ثم هرب من ذلك الموقف المرعب، ومن شدة انفعاله لم يأخذ المظلة التي جاء من أجلها، وكأنما كان مقدراً له أن يرجع ليرى زوجته في ذلك الوضع الجنسي الفاضح مع جاره.

حين صار في الشارع ثانية، كان المطر يهطل بشدة، لم يفكر في هدفه بالذهاب إلى المكتب السياحي الذي كان ينوي الذهاب إليه قبل رجوعه لأخذ المظلة. الآن يحس بالتيه، لا يعرف إلى أين يذهب! قطع الشارع متجهاً إلى الجانب المقابل للبيت، وأخذ يمشي تحت وابل المطر المدرار، رأى بعض السابلة يمشون حاملين مظلاتهم، إلا هو فقد كان أجرد الرأس من أي غطاء يقيه المطر، وكان قد ابتل بالفعل، بعض السابلة الألمان، رغم هطول المطر وسيرهم السريع إلى مقاصدهم، كانوا يلتفتون إليه وينظرون باستغراب لهذا الأجنبي الذي يسير كالتائه تحت وابل المطر الذي يهطل من سماء مكفهرة غاضبة.

لا يدري آدم التائه كيف انبثقت أمام مخيلته في تلك اللحظات، وهو تحت وابل المطر، أحداث روايته «متاهة آدم أو المرأة المجهولة» التي أنجزها، والتي قرأتها زوجته حواء المؤمن سرّاً، وأعجبت بها، حتى أنها أقامت الفاتحة على روح بطلها آدم المطرود وصحبه الذين أعدموا بشكلٍ وحشيٍّ لأسباب غير معروفة! تذكر الحياة الجنسية الفاضحة لبطلتيه حواء كوناى وحواء اللهيبي، لكن لم يطرأ في ذهنه أنه سيواجه في الحياة الواقعية شخصية مزدوجة وغريبة مثل زوجته حواء المؤمن! حاول مع نفسه أن يفهم لغز تصرفها الشائن معه؛ فهي قد تحجبت وبدأت بالصلاة وقراءة القرآن، لكنها مع ذلك خانته وزنت مع جارهم، ويا لها من علاقة، لقد سمعها بأذنيه تصرخ متوسلة به أن يدخله كله فيها، بينما كانت معه صامته تتجاوب بحياء، لماذا؟ ألم يكن يشبعها؟ ثم كيف تستقيم صلاتها مع الزنا؟ أحس الدكتور آدم التائه بأنه لا يعرف شيئاً عن النساء، بينما كان يظن نفسه خبيراً بهن وبنفوسهن. كان آدم التائه مستغرقاً في أفكاره، مبتلاً بطريقة تثير الشفقة لدى الناظر إليه، لكنه برغم ذلك انتبه إلى أنه قد وصل إلى سوق المدينة المركزي، حيث يوجد أكبر مكتب للسياحة، وبدون أيما تفكير، وبشكلٍ لا إرادي، وجد نفسه يدخل إلى المكتب.

المكتب كان خاليًا من المراجعين، بل وحتى من الموظفين الثلاثة الذين كان يراهم من خلال الواجهة الزجاجية كلما مرّ من هناك، وما إن دخل حتى فُتح باب في عمق المكتب خرجت منه إحدى الموظفات التي بدا أنها كانت في مكان استراحة الموظفين التابع للمكتب.

كانت الموظفة امرأة في نهاية الثلاثينات أو بداية الأربعينات من العمر، شقراء، أنيقة، ناضجة الجسد، ذات شخصية محببة، أنوثتها طاغية دون ابتذال، اقتربت وعلى وجهها ابتسامة ودودة، وقالت بالألمانية مستفهمة:

- نهارك سعيد، هل أستطيع أن أخدمك؟

ارتبك آدم التائه، إذ فوجئ بحضورها الأنثوي البهي، فقال بلغة ألمانية مرتبكة قليلًا، لكنها مفهومة وبسيطة التشكيل:

- نهارك سعيد، أنا أريد السفر إلى إحدى دول الخليج.

ابتسمت له بمودة وأشارت إلى كرسي المحادثة قائلة:

- تفضل بالجلوس.

توجهت هي لتجلس على كرسي حول الطاولة، وخلف قطعة نحاسية تحمل اسم (إيفا بيرغمان)، وما إن استقرت على كرسيها حتى قالت له بلطف:

- هل تسمح لي بجواز سفرك؟

مد آدم التائه بجواز سفره الألماني الذي حصل عليه مؤخرًا بعد الاعتراف به وبزوجته كلا جئين سياسيين وسلمه لها، فأخذت تنظر فيه وتتفحصه، بينما كان هو بالرغم من حالته النفسية الصعبة يتأمل وجهها الجميل وصدرها المثير وتفاصيل جسدها الأخرى، متخيلاً إياها عارية. فكّر مع نفسه: هل هي مثل زوجته سهلة ويمكن أن تمنح نفسها لكل من يريد؟

رفعت رأسها فجأة فانتبهت لنظراته إليها، تلك النظرة التي تطفح بالإعجاب والرغبة والتردد الممزوج بالخجل الرجولي الجميل، والتي تملأ

المرأة زهوًا وكبرياءً أنثويًا، وتمنحها دفقات من الفرح الخفي، حتى وإن كانت تلك النظرات تأتي من شخص لا يروق لها، ارتسمت على وجهها ابتسامة خفيفة مع شعور بالرضا، نظرت إليه، نظرت في وجهه مباشرة، وكأنها تريد أن تعرف هذا الرجل الذي أبدى لها كل هذا الإعجاب، والذي أثارت فيه كل هذه الرغبة، وسألته:

- إلى أي بلد خليجي تريد السفر؟
- إلى الإمارات العربية المتحدة.
- هل لديك تأشيرة دخول؟
- لا، لكنني أعتقد بأنني لا أحتاج إلى تأشيرة دخول فجواز سفري ألماني.
- لا، جواز سفرك هذا هو الجواز الذي يُمنح للاجئين السياسيين في ألمانيا، أي أنك لست مواطنًا ألمانيًا بعد، لذا أعتقد أنك تحتاج إلى تأشيرة دخول إلى الإمارات.

كان وقع كلماتها عليه قاسيًا جدًّا، فقد أحس بأن جميع آماله بالخلاص قد تلاشت. فكّر مع نفسه: «أي لعنة تلاحقني، وماذا ينتظرني خلال هذا اليوم التعيس». نظرت المرأة الألمانية إليه بتعاطف، إذ أحست بعمق الخيبة التي ارتسمت على ملامحه، فقالت له وكأنما تريد مواساته:

- سأستفسر لك أكثر من خلال الاتصال بمركز مكتبنا الرئيسي، لا يمكنني أن أعطيك جوابًا قاطعًا الآن، انتظرني لحظة لأستفسر.

نظر إليها وكأنه يتوسل أن تمنحه شيئًا من الأمل، أخذت سماعة وراحت تضغط على الأرقام. كان هو يجلس أمامها كالتائه، وقبل أن تتحدث مع الطرف الآخر نهض واقفًا وسألها:

- هل بإمكانني التدخين خارجًا؟
- طبعًا.

خرج من المكتب وهو يمد يده لجيبه، بينما سمعها تحيي الشخص على الطرف الآخر من خط الاتصال.

أشعل سيجارته، وأخذ نفساً عميقاً، مرت امرأة ألمانية عجوز، ربما قد تجاوزت السبعين، وهي تنحني على عكازها، وقفت لبرهة، نظرت إليه، ظلت للحظات تنظر إليه بتركيز حتى أنه انتبه لنظرتها، وأراد أن يفسر سبب وقوفها وتحديقها إليه، هل هي نظرات تائهة لامرأة هرمة لا تدري لأي شيء تنظر، أو أنها نظرات امرأة عجوز لا تحب الأجانب، أو امرأة تشفق على الأجانب؟ لم يكن يفهم مغزى وقوفها ونظرتها الطويلة إليه. أحس بصوت داخلي يقول له: ألم أقل إن هذا اليوم لن يمر بسلام؟ ولكي يضع حداً لهذا الوضع، لم يكمل سيجارته وإنما ألقاها إلى الأرض وسحقها بقدمه، ثم دخل إلى المكتب السياحي، فسمع الموظفة تنطق بتحية الوداع للشخص الذي على الطرف الآخر من التليفون.

تقدم وجلس على الكرسي أمامها، وكان واضحاً أنها لا تحمل أخباراً طيبة، لكنها لم تشأ أن تحبطه، فقالت له محاولة تسهيل الأمر:

- كما قلت لك، هذا الجواز يتيح لك التنقل بين دول الاتحاد الأوروبي فقط، بل حتى بعض هذه الدول تحتاج إلى تأشيرة دخول، أما البلاد البعيدة خارج الاتحاد؛ كالدول العربية ودول الخليج، فلا يمكن دخولها بسهولة. هناك حل وحيد هو أن تقدم على تأشيرة دخول من خلال سفارة الإمارات في برلين، أو إحدى قنصلياتهم في بون.

كان آدم التائه يحاول جاهداً أن يتابع كلامها ويفهمه، فلغته الألمانية ليست جيدة كما ينبغي، وكان يستجمع الكلمات في ذاكرته ليقول جملة بلا أخطاء:

- وهل سيعطونني تأشيرة الدخول؟

نظرت إليه المرأة باهتمام وقالت له:

- لا أدري. لكن يمكنك أن تجرب، فلربما يقتنعون، إذا ما قدمت لهم مبرراً لسفرك، دعوة أو أي شيء مماثل، لا أستطيع أن أقول لك شيئاً أكيداً، لكن يجب أن تحاول.

- أنا أستاذ جامعي، ولدي دعوة لإجراء مقابلة في إحدى الجامعات.

- قال ذلك ومد يده إلى باطن سترته وأخرج رسالة الدعوة التي وصلته من الإمارات لإجراء المقابلة. ما إن سمعت الموظفة الألمانية بأنه أستاذ جامعي حتى صارت أكثر انتباهاً للموضوع، وأحسّت بأهمية أن يسافر إلى هناك. قدّم آدم التائه إليها بطاقة الدعوة وكانت باللغتين العربية والإنكليزية. أخذت الرسالة، ألقت نظرة على النص العربي وابتسمت، ثم نظرت للنص الإنكليزي وقرأته، أرجعت الرسالة له وقالت:

- لو كنت مكانك لما ترددت في أن أقدم طلباً للحصول على تأشيرة الدخول، لا سيما وأن لديك دعوة من إحدى جامعاتهم.

انتبه إلى أنها قرأت النص الإنكليزي فخمن أنها تعرف الإنكليزية فسألها مباشرة وبالإنكليزية:

- هل تتحدثين الإنكليزية؟

نظرت إليه وفي عينيها ابتسامة غامضة، وكأنها تتباهى بمعرفتها هذه اللغة، فقالت:

- نعم، طبعي أن أعرف الإنكليزية.

فقال بحرارة وكأنه صار حراً من خلال القدرة على التعبير اللغوي:

- إذن سأحاول الاتصال بالسفارة!

وبالرغم من أن فرحاً خفياً سرى في أعماقه كون هذه المرأة الفاتنة تتحدث الإنكليزية، وهذا سيسهل إمكانية التواصل معها، إلا أنه أحس، في الوقت نفسه، بأن أمله بالسفر قد أعدم، فأخذ يللم نفسه، وبدا وكأنه

صار كالحلزون الذي ينسحب إلى أعماق قوقعته، وقبل أن يختفي كلياً في قوقعته، نهض مستعداً للخروج، فبادرته قائلة:

- لماذا لا تتصل بسفارة دولة الإمارات الآن وتستفسر منهم، بل وتشرح لهم وضعك بالكامل؟

أحس وكأن هناك من ألقى إليه بطوق النجاة بعد أن أخذت الدوامة تسحبه إلى الأسفل، نظر إليها نظرةً بلهاء، نظرةً مرتبكة، فبادرت هي قائلة:

- اجلس، سأتصل أنا بهم.

جلس هو كالمسحور، بينما مدّت هي يدها ورفعت السماعة، وباليد الأخرى فتحت أمامها دفترًا وأخذت تتصفحه، ففهم أنها كانت تبحث عن رقم السفارة، وبدأت بالضغط على أزرار الأرقام.

نظر آدم التائه إليها وكأن مصيره متعلق بين أصابعها وبما ستقوله لرجال السفارة، لكن لا أحد كان يجيب على اتصال هذه المرأة التي صارت بالنسبة إليه وكأنها ملاك الخلاص. لاحظ بعض ملامح الغضب بدأت تتسرب إلى وجهها المثير، فقد انتبه إلى أنها طلبت رقم السفارة لثلاث مرات دون أن يرفع أحدهم السماعة في الطرف الآخر. حاولت مرة أخرى، وأخرى، وأخرى، دون جدوى. ومع كل محاولة كانت معنوياته ترتفع وتنخفض. وأخيراً وضعت سماعة الهاتف وقالت له بنبرة مليئة بالخيبة والغضب من نفسها بأنها لم تستطع مساعدته:

- لا أحد يجيب على الهاتف، لا أعرف السبب!

قالت ذلك ونظرت إلى ساعتها، ثم عقّبت:

- لا أدري، ربما أن دوامهم قد انتهى!

لم يقل هو شيئاً، كان الغضب والحنق من نفسه ومن حظه العائر قد حنقه، حتى أنه لم يستطع الكلام بسهولة فتحشّرت الكلمات في فمه وقال بالإنكليزية السليمة والواثقة، وهو ينهض مستعداً للخروج:

- شكرًا لك، لقد كنت طيبة معي جدًا، شكرًا لك.

فقالت له بنبرة متعاطفة:

- لا شكر على الواجب؛ هذا هو عملي، ويؤسفني أنني لم أستطع أن أساعدك، لكنني أنصحك أن تتصل بالسفارة، ويمكنك أن تأتي غدًا لنحاول الاتصال بهم مرة أخرى.

شعر وكأن نسمة طيبة هبت عليه وسط هواء خائق، فقال لها بلهفة:

- شكرًا لك. شكرًا لك، متى يمكنني المجيء؟

نظرت إليه بتركيز وكأنها تستقرئ ملامحه، وقالت بلطف:

- في أي وقت، بعد العاشرة صباحًا، هل يلائمك هذا الوقت؟

- طبعًا، طبعًا.

وبدون أيما تفكير مد يده إليها مصافحًا ومعبرًا لها عن شكره، ترددت

لثوانٍ مستغربة حركته، لكنها ابتسمت ثم مدت يدها وقالت مبتسمة:

- إلى الغد.

- إلى الغد.

قال ذلك وخرج من المكتب، بينما ظلت هي تنظر إليه يختفي عن نظرها،

وما إن صار بعيدًا عن واجهة المكتب حتى قامت وتوجهت إلى مكان

استراحة موظفي المكتب، وأغلقت الباب خلفها.

لم يكن يعرف إلى أين يذهب، كانت المدينة بالنسبة له ضيقة جدًا، وهو أشبه بالضائع في متاهة، أو كمن أصيب بفقدان الذاكرة، فقد أحس بشلل في التفكير، أحس وكأنه مثل طبل أجوف، لم يكن لديه اتجاه محدد يقصده.

انتبه لنفسه، فقبل لحظات أثارت الموظفة الألمانية المشيرة، برغم وضعه

المأساوي، أمواج الرغبة التي أخذت تتلاطم على ساحل أعماقه الغامضة،

لكن كل ذلك انطفأ فجأة حينما خرج من المكتب. فجأة انبثق سؤال ساذج في ذهنه: لماذا تريد هذه المرأة مساعدته؟ هل أعجبها؟ شعر أنه ليس في حالة نفسية تسمح له أن يخوض أي مغامرة مع امرأة، فيكفي ما جرى له منهن، وردد مع نفسه: النساء؟ آخ من النساء!

وجد نفسه لا إرادياً يمشي باتجاه البيت، ولا إرادياً أخذ يخاطب نفسه: «أنا لا أريد الرجوع إلى البيت، لا أريد أن أرى تلك المرأة التي أهانتني بشكل لم أتوقعه منها يوماً ما قط».

أخذت الأسئلة تزدهم في ذهنه: «لماذا جرى الذي جرى؟ منذ متى وهي على علاقة مع جارنا اللبناني؟ ولماذا؟ لماذا؟ ألم أكن طيباً معها؟ ألم أكن كريماً معها؟ ألم أكن أشبع جسدها؟ أعرف أن النساء يكرهن الرجل البخيل، أترى كنتُ بخيلاً معها؟ هل أنا قبيح، وأن جارنا أجمل مني؟ صحيح أن جارنا اللبناني وسيم، لكنني أيضاً رجل وسيم! ربما جاري أكثر شباباً، لكنني لستُ عجوزاً في كل الأحوال! ثم، ألم تكن تصلي الفرائض يومياً، وتصوم رمضان؟ فكيف ينسجم هذا الأمر مع ما فعلت؟ لقد سمعته وهي تلهث وتطلب منه أن يدخله كله فيها ولا يترك منه شيئاً، لقد سمعته بأذني! بينما كانت معي خرساء لا تنطق بأي كلمة، بل كنت أجبرها على أن تتفوه ببعض الكلمات الجنسية، فكانت ترددها على استحياء، فكيف جرى الذي جرى؟ أنا لا أصدق ما رأيتُ عيناى، وما سمعتُ أذناى! هل كانت تمثل دور العفيفة والطاهرة والمتدينة معي، بينما هي تكاد تكون كعاهرة رخيصة مع جاري اللبناني؟» كانت الأسئلة تزدهم، وكل سؤال كان يأتي بسيلٍ من الألم والوجع النفسي.

أحس بأن نبضات قلبه بدأت تتضاءل، وثمة عرق بارد بدأ يغطي جبينه، وغمامة سوداء بدأت تغطي على بصره، ولم يعد يستطيع الوقوف، فجلس على جانب الطريق، لكنه أحس بأنه ينهار وينهدّ، ويغرق بشكل سريع في اللا شيء، ثمة غمامة بيضاء تغطي بصره، ولم يعد يذكر شيئاً.

في ذلك الوقت نفسه كانت حواء المؤمن مع آدم اللبناني يجلسان وكأنيهما في مأتم. كان آدم اللبناني يحاول أن يقنعها بالسفر معه إلى حيث يعيش أقرباؤه ومعارفه في مدينة إيسن، إلا أن حواء المؤمن كانت كالمحمومة، تنتقل من حالة نفسية إلى أخرى بنزق؛ مرة توافق على السفر لكن بعد لحظات تراجع عن موافقتها، ومرة تقرر إنهاء كل شيء مع زوجها الذي ألقى عليها يمين الطلاق، ومرة أخرى تجد نفسها مذنبه بحقه، وبالتالي عليها أن تعتذر من زوجها وتتوسل إليه أن يعفو عنها ويغفر لها، تارة تفكر بحملها وتارة أخرى تقرر الإجهاض، تارة تستغفر ربها على ما اقترفته من ذنوب وبعدها بلحظات تهجم على آدم اللبناني لتقبله بشبق وتتوسل إليه بالآلا يتركها وحدها. ثم فجأة التفتت إليه وقالت:

- كيف أسافر وكل ملابسي وأدوات زينتي هناك؟
وأشارت إلى جهة الشقة الأخرى حيث شقتها.
فقال لها بعفوية وببساطة:
- يمكنك أن تذهبي الآن وتحملين ما تستطيعين من الثياب وحاجاتك الأخرى.
نظرت إليه وفي عينيها خوف واضح وقالت:
- لا لن أدخل بيته بعد الآن، كيف أدخل بعد فضيحتي معه؟
نظر هو إليها مستغرباً وقال بنبرة مشوبة بعصبية:
- لكنه غير موجود الآن!
قالت بتردد وخوف:
- وإذا ما جاء فجأة؟
صمت لحظة لكنه قال وكأنه وجد حلاً:
- طيب. أنا سأنزل وأقف في الشارع، وإذا ما لمحتة فسأسرع كي أضغط على الجرس من الأسفل، حينها ستعرفين بأنه قد وصل، فتخرجين من الشقة بسرعة، أوكي؟

فكرت هي للحظة ثم نهضت بشكل مفاجئ قائلة:

- انزل الآن وقف في الشارع!

- قالت ذلك وخرجت متوجهة لشقتها، بينما نزل هو ليقف عند ناصية الشارع الذي ينعطف على مبناهم، مترقبًا وصول الدكتور آدم التائه.

امرأة ألمانية تقود دراجة هوائية مع ابنتها الصغيرة لمحتا الدكتور آدم التائه وهو ينهار على جانب الطريق، نزلتا عن دراجتيهما واقتربتا منه بهدوء وحذر، نظرت المرأة إليه فعرفت أنه في حالة سيئة جدًا، قالت له:

- ما بك؟ هل أنت بخير؟ أأطلب لك سيارة الإسعاف؟

نظرت المرأة الألمانية إلى وجهه الشاحب جدًا وشفتيه اللتين ازرققتا، فتحت حقيبتها وأخرجت هاتفها النقال طالبة سيارة الطوارئ.

وصلت سيارة الإسعاف، نزل منها طبيب ومعاوناه، حاملين معهم السرير النقال. توقف بعض السابلة عندما رأوا سيارة الإسعاف، اقترب الطبيب منه، أخذ يده ووضع إصبعه على أعلى كفه ليقيس النبض، ثم مديده ورفع جفنيه، ثم وضع جهاز قياس الضغط على ذراعه وأخذ يضغط على الكرة المطاطية التي تنفخ الهواء في الزئبق، كانت حالة آدم التائه حرجة كما يبدو لأن الطبيب قام مباشرة وطلب من المساعدين حمله على السرير النقال، قائلاً:

- بسرعة، ضغطه منخفض جدًا، علينا الإسراع لنقله إلى العناية المركزة.

ثم التفت إلى المتجمهرين وسأل:

- هل هناك من رأى حالته؟ ومن ترى الذي اتصل بالمستشفى؟

فتقدمت المرأة الألمانية التي اتصلت بالمستشفى، وقالت:

- أنا التي اتصلت بكم، وقد كنتُ مع ابنتي قادمة من مركز المدينة، ومن بعيد رأيته يجلس، لكننا حينما صرنا قريبتين منه وجدناه في هذه الحالة فاتصلنا بالطوارئ.

- على أي حال شكرًا لكما، فلولاكما لربما كان سيفقد الحياة، لقد تعرض إلى هبوط حاد في الضغط، وربما إلى ذبحة قلبية، لقد جئنا في الوقت المناسب، عليه أن يشكرِك فلولاكِ لفقد حياته.

حمل المساعدان آدم التائه على السرير النقال وأدخلاه إلى سيارة الطوارئ، ثم علقا كيسًا من المواد المغذية وربطوها به من خلال زرقه بإبرة في معصمه. صعد الطبيب إلى السيارة التي انطلقت بسرعة وهي تعلن صفيرها المزعج.

حين دخلت حواء المؤمن إلى غرفة نومها في شقتها لم تستطع أن تمسك نفسها، إذ ألقت بنفسها على السرير منهاراً وانطلقت في نوبة بكاء هستيري. ظلت تبكي بحرقه؛ كانت تبكي على نفسها وعلى قدرها التعيس، وعلى الخيبات التي مرت بها، وعلى ضعف مقاومتها أمام شهوتها وتعطشها للحب والمغامرات العاطفية التي دمّرت حياتها بعد أن وجدت الاستقرار في زواجها الثاني من الدكتور آدم التائه، التي كانت فخورة مع نفسها وأمام الآخرين إلى أن زوجها أستاذ جامعي.

بكت نفسها على فقدانها لزوجها آدم التائه، أحسّت أنها تحبه، وأنه لا يستحق منها أن تُسبب له هذه الفضيحة المجلجلة، فقد كان يحترمها، وكان كريماً معها، بل إنه، في الفترة الأخيرة، اقترب منها كثيراً، لكن ماذا كان جزاؤه منها؟ لقد لطخت شرفه، وأهانته حينما رآها بعينه في وضع حيواني مشين! أخذت تشتم نفسها في أعماقها وهي تردد مع ذاتها بأنها ساقطة وقحبة وعاهرة رخيصة لا تستحقه زوجاً لها، لقد ضيعت الحياة العائلية الآمنة والشريفة التي وفرها لها. لا يليق بها، إلا أن تنتقل من يد إلى أخرى، وعليها أن تتحمل نتائج سقوطها وشهوتها الدنيئة؛ إنها عاهرة، نعم، هي تحس في أعماقها بأنها عاهرة.

مرت ربع ساعة من الوقت، أحسّت حواء المؤمن بالتعب، توقفت عن البكاء، ظلت للحظات ممددة على السرير. فجأة وكأنما تذكرت شيئاً، نهضت عن السرير، فتحت باب خزانة الملابس وسحبت حقيبةً جلديةً سوداء كانت في داخلها، ألقت بالحقيبة على السرير فاتحة إياها، ثم أخذت تسحب قطع الملابس وتضعها في الحقيبة دونما أي تدقيق في نوعية الملابس. فجأة، مسكت القرآن، الذي كانت تحفظه في الخزانة بين طباطب الملابس وكأنها تمسك على الجمر، ألقت به على السرير، ثم أخذت فوطة سوداء وغطت يديها بها وأمسكت القرآن لتضعه في الحقيبة أيضاً، أغلقت الحقيبة الجلدية، وجلست عند حافة السرير. كانت لا تدري ماذا تفعل، بقيت على تلك الحالة لدقائق؛ نظراتها كانت غريبة، وكأنها تنظر في الفراغ. نهضت متجهةً إلى المطبخ.

فتحت جاروًّا وأخرجت سكيناً كبيرةً، وبدون تردد مررتُ نصلَ السكين على يدها، فنفر الدم بقوة، لكنها ما إن رأت الدم حتى فزعت وأحست بالرعب وكأنها أدركت خطورة ما فعلت بنفسها.

عند ناصية الشارع كان آدم اللبناني ينتظر، مر وقت طويل نسبياً ولم يأتِ آدم النائه إلى البيت، فكّر مع نفسه بأن هذا الوقت كان كافياً لحواء المؤمن بأن تلملم كل ما تحتاجه من ثيابٍ وأشياء أخرى، بل ربما هي الآن في شقته، لذا أخذ يصعد الدرج إلى شقته.

حين دخل آدم اللبناني شقته لم يجد أي أثر لحواء المؤمن، استغرب الأمر؛ فكّر أنها ما تزال إذن في شقتها، توجه إلى هناك، كان الباب مفتوحاً، نادى عليها بصوتٍ خفيض، لم يسمع أي إجابة وإنما تنهى إلى سمعه حشرةً وأنيباً يأتي من جهة المطبخ، فتجراً بأن خطأ نحو الداخل، وحينها هاله ما رأى، كانت حواء المؤمن تجلس شاحبة شبه مغمى عليها في إحدى زوايا المطبخ مضرجة بالدم، وبدت له أنها حاولت أن توقف نزيفها بثوبها، كان الرعب يشع من عينيها وهي تنظر إلى كفها التي كانت قد نزفت بغزارة.

ركض آدم اللبناني إلى شقته وتناول ما كان أمامه من مناديل وعاد إليها مسرعاً، شدّ على يدها الجريشة أحد المناديل، تلوث المنديل بالدم دون أن يستطيع أن يوقف النزيف، فجأة، نزع حزامه الجلدي عن بطناله وشد على ساعدها بقوة مانعاً الدم من التدفق، أنهضها، كانت بالكاد تستطيع الوقوف. فكّر أول الأمر بأن يأخذها إلى شقته لكنه وخلال ثوانٍ داهمه هاجس الخوف من تبعات الأمر، وربما التحقيق الرسمي في الأمر. ألغى فكرة أخذها إلى شقته، وإنما أدخلها غرفة الاستقبال في شقتها، ومددها على الصوفا هناك، ثم أخذ الموبايل واتصل بالطوارئ مبلغاً عن حالة الانتحار.

لم تمض سوى عشر دقائق حتى سُمع صوت صافرة سيارة الإسعاف يشق الهواء مقترباً من البيت، وبعد قليل سمع خطوات متداخلة تصعد السلم الخشبي، فخرج هو من شقة حواء ونزل السلم مستقبلاً رجال الإسعاف، وقدّم نفسه قائلاً:

- أنا الذي اتصلت بكم، حاولت أن أوقف النزيف بربط يدها بالحزام.
- حسناً فعلت، لندخل لنرى الأمر، هل هي زوجتك؟
- لا، إنها جارتني.
- هل تعرف لماذا انتحرت؟
- لا طبعاً، لكنني كنت أطبخ واحتجت للملح فرأيت الباب مفتوحاً، وحينما ناديت على مَنْ في البيت سمعتُ حشرجة في المطبخ فدخلت فرأيتهَا وقد قطعت شرايين يديها.
- دخل الطبيب ومعه اثنان إلى الشقة، بينما تجمهر بعض الجيران عند أسفل السلم متسقطين جملاً من الحوار الذي دار بين الطبيب وآدم اللبناني، لكنهم انتبهوا إلى اثنين من مرافقي الطبيب نزلاً بسرعة خارجين من البيت، وبعد دقائق دخلا حاملين السرير النقال.

بعد فترة ليست بالطويلة خرج رجال الإسعاف وهم يحملون حواء المؤمن على السرير النقال، هبطوا السلم الخشبي بحذرٍ شديدٍ يتبعهم آدم اللبناني، وحينما صاروا خارج البيت، أصدعوا حواء المؤمن إلى السيارة، بينما بقي آدم اللبناني واقفًا وهو ينظر إلى وجه حواء المؤمن الشاحب، كان في حالة تردد وارتباك أمام الجيران في أن يصعد السيارة ذاهبًا معها إلى المستشفى. أغلق أحد المساعدين باب السيارة الخلفي على حواء، ثم صعدوا جميعهم إلى السيارة التي انطلقت ومعها تعالى صوت الصافرة.

ظل آدم اللبناني واقفًا في مكانه وهو يرى السيارة تتحرك، إلى أن اختفت عن نظره، بينما أخذ الجيران يسألونه عما جرى، لا يدري آدم اللبناني لماذا أحس وكأنه تخلص من عبءٍ ثقيلٍ جدًّا، أو كأنه خرج من كابوسٍ أفاق منه الآن فجأة. أخذ يسرد للجيران نفس القصة التي رواها للطبيب مع تفاصيل أخرى.

دخل آدم اللبناني إلى شقته، لم يكن يدري ماذا يفعل، أحس أنه كاد يقع في مشكلة كبيرة من وراء جنون حواء المؤمن، جلس على تلك الصوفا التي شهدت آخر مشهد له معها. كان رأسه يضحج بالأسئلة المتناقضة، سأل نفسه مستغرباً: "إذا كانت هي تحب زوجها إلى هذه الدرجة فلماذا خانتة معي؟ ثم أنها امرأة سهلة جدًّا، بالرغم من أن ملامحها رصينة، وتوحي بشخصية محترمة؛ لقد انهارت في أول لمسة لي لفرجها، بل تحولت إلى امرأة شبهة جدًّا! غريب أمر هذه المرأة. كانت تأتي إليّ متحججةً بطلب أي شيء، وكنت أعرف أنها تقوم بهذه الحركات لتغطي على شبقها، وأنها تريد أن أضاجعها. بل دعيتني، مرة، إلى أن أضاجعها في سرير نومها لأنها تريد أن تتذكر هذا المشهد ليلًا كل ما ذهبت للنوم، لكنني ترددت ولم أوافق! وها هي تتحرر ندمًا، ربما سأكتب قصتها التي أنوى أن أبدأ بها، راويًا أيضًا قصة رحلتي من بيروت إلى ألمانيا". كانت الأفكار والتساؤلات والأحداث قد أرهقته، لم

يكن منتبهًا لمرور الوقت، أحس بتعبٍ شديد لم يألّفه من قبل، وشيئًا فشيئًا غرق في سبات لم يكن قادرًا على دفعه عنه.

حينما أفاق من سباته مد يده ليعرف الوقت من خلال ساعته الفسفورية، كانت الساعة تشير إلى الثانية بعد منتصف الليل، كيف نام كل هذا الوقت، ماذا يفعل الآن؟ ظل مستيقظًا للحظات. لا يدري متى، وكيف، غرق في لجة النوم والظلام.

آدم البغدادي: هل علي أن أغير من أسلوبِي في هذه الرواية، لكي أميزها عن رواية (متاهة آدم السقوط إلى الأعلى)؟ لكن، لماذا علي أن أميزها عن تلك؟ أنا لا أحب الروايات الإنشائية، الغارقة بالأوصاف والاستطراد والشطحات الشعرية والاستعارات المائعة. أحب الاقتصاد في الوصف والدخول في قلب الحدث.

لكن لماذا اقتبستُ نصًّا من (ستندال) كموجه للرواية في البداية؟ صحيح أنا أحب (ستندال) كثيرًا، أحسه قريبًا مني، بالرغم من أنني لم أقرأه بلغته، وإنما تعرّفت عليه من خلال اللغة العربية. هل تُرى هذا النص الذي اخترته سيوجه الخطاب الأخلاقي لأبطال النص، أم تُرى أنها رغبتِي الشخصية وإعجابي بالنص هو الذي دفعني لأخذه؟ سنرى. لا أعرف شيئًا عن مصائر الأبطال، فربما ستكون لهم علاقة خفية بروح النص، لا أدري.

سأل آدم المحروم نفسه عن سبب كتابة صديقه الكاتب المغدور هامشًا على روايته؟ هل هو يحاول أن يمارس عملية (التطهير الإبداعي) من خلال محاولته تفكيك مصادره واستعاراته وطبيعة شخصياته؟ ماذا يترك للنقاد إذن؟ ربما لا يهمه ذلك، وإنما الكتابة هي طقسه الإبداعي والروحي، ومن خلالها يحاول أن يعرف نفسه أكثر، لذا فهو يفكك النص بعد إنجاز كل فصل.

راهبات الليل

ظلامٌ كثيفٌ يمور كأمواج هادرة بصمت في قاعٍ سحيقٍ. إحساس بالانجذاب للأسفل والسقوط إلى قاع هاوية بلا قرار، بينما ثمة قوة غامضة تحركت من الأعماق السحيقة للنفس لترتفع وترتفع، تصعد إلى الأعلى، ومثل غريق يتم إنقاذه من الغرق المؤكد ليصل إلى سطح الماء، هكذا، فجأة، فتحت حواء المؤمن عينيها، فأحسّت أن كل الظلمة الجاذبة إلى القاع الذي بلا قرار قد اختفت، لقد تخلّصت من كابوس رهيب، لكن أين هي الآن؟

ظلت للحظات ساكنة تريد أن تستوعب الوضع الذي هي فيه، ثمة مصباح نيون يسطع بلونٍ أبيض حليبي يميل إلى الزرقة يتوسط سقف الغرفة، حركت رأسها إلى الجانب فرأت نافذة عريضة مغلقة بستارةٍ من الألمنيوم. أدركت أنها في مستشفى، وخلال ثوانٍ تذكّرت أنها حاولت الانتحار، انتبهت إلى أن إحدى يديها مشدودة إلى كيس المغذي المعلق على حمالة طبية إلى جانب السرير، والأخرى مشدودة بلفاف طبي.

شيئاً فشيئاً حاولت أن تحرك جسدها ساحبةً إياه إلى الأعلى، فاعتدلت في جلستها، بالرغم من أن كيس المغذي المشدود إلى يدها قد أعاق حركتها قليلاً. كانت الغرفة واسعة، ألقت نظرة إلى الألمنيوم الذي علقوا إليه كيس المغذي فأدركت أن الكيس قد أوشك على الانتهاء، بهدوءٍ شديدٍ سحبت الإبرة المغروزة في معصمها وفكت الرابط الذي يشدها، فتحرّرت يدها. شيئاً فشيئاً جذبت نفسها إلى الأعلى ثم استوت جالسةً على السرير، مدت رجلها إلى الأرض، ألقت نظرة إلى الساعة المعلقة على الحائط التي كانت تشير إلى الثانية بعد منتصف الليل.

بدأت حواء المؤمن تذكر اللحظات الأخيرة قبل أن تغرق في ظلمة الإغماء البيضاء، حضر إليها وجه آدم اللبناني وهو يناديها: حواء افتحي عينيك، حواء، حواء. ولا تدري لماذا حضر وجه الدكتور آدم التائه وهو يصبق عليها؟

لم تذكر سوى تلك اللحظات، حاولت أن تستوعب الأحداث؛ أجبرت نفسها على التذكر، فأخذت تعصر ذاكرتها كي تذهب في ذكرياتها أبعد، لكن ثمة حالة غريبة من البرود واللامبالاة كانت تهيمن على نفسها، كانت شبه خالية من المشاعر والأحاسيس. هل هذه هي حالة الإنسان الذي يعود إلى الحياة بعد أن حاول عبور حاجزها إلى الجهة الأخرى؟ وهل هي الآن حية فعلاً أم أنها ميتة، وأن ما يجري لها هو من تفاصيل العالم الآخر؟

نهضت واقفة فأحسّت بدوار شديد مفاجئ، فجلست على السرير خوفاً من الوقوع. بقيت للحظات ساكنة، ثم حاولت الوقوف ثانية وبهدوء شديد، فلم تشعر بالدوار كما في المرة السابقة، تحركت ببطء نحو النافذة، أدركت أنها في غرفة بالطابق الثاني. رأت من خلال أشرطة الألمنيوم التي تشكل الستارة، الظلمة التي تلف حديقة المستشفى، بالرغم من وجود أعمدة المصابيح التي تلقي ضوءاً شاحباً يغطي دائرة صغيرة حول العمود.

انتبهت لشبح أبيض يمر مختفياً خلف مصطبة خشبية في الطرف الآخر من الحديقة حيث بعض أشجار تنتظم هناك، فكرت ربما إحدى الممرضات مضت إلى هناك، لكنها سألت نفسها: "ما الذي يدفع بممرضة أن تذهب إلى الحديقة لتختفي خلف مقعد تخفيه الأشجار وظلام الليل في مثل هذه الساعة من الوقت؟"، فكّرت مع نفسها أيضاً بأن هذه المرأة ربما تواعدت مع رجل ما سيلتحق بها، ظلت لدقائق لا تفكر بأي شيء سوى حالة ترقب ظهور رجل ما سيلتحق بالمرأة التي اختفت خلف الأشجار، لكن لم يظهر أي رجل في الحديقة. فكّرت مع نفسها أنها ربما قد توهمت أصلاً وجود تلك المرأة.

اتجهت نحو باب الغرفة، فتحتها، توقفت مطلة برأسها في الممر الفارغ، خرجت إلى الممر وأغلقت الباب بهدوء كي لا تحدث ضجة فتوقظ المرضى

الراقدين، كان الممر خاليًا، أحسْتُ بخوف من هذا السكون الطاغي، ومن جمود المشاعر والفراغ يسري في أعماقها، لكنها صارت خوفها من أجل المكان الذي وجدت نفسها فيه، فربما هي في حلم ما.

فجأة وعند نهاية الممر الذي يتقاطع مع ممر آخر، مرت امرأة مسنة في ملابس الراهبات بسرعة خاطفة دون أن تلتفت إليها، أسرع حواء المؤمن خطوها قليلًا لتصل إلى تقاطع الممرين وتلحق بالراهبة، حينما وصلت التقاطع وجدت نفسها في ممر طويل جدًا، ممر فارغ من أي إنسان، ولا أثر للراهبة في الممر! سألت حواء المؤمن نفسها مستغربة: أين ذهبت الراهبة التي مرت منذ لحظات؟

تقدمت في الممر الذي سارت فيه الراهبة ماشية على مهل، رأت على جانبي الممر غرفًا مكشوفةً، ومعزولةً بجدران زجاجية، تُمكن الناظر رؤية مَنْ في داخلها. خمنت أن هذه الغرف للحالات الحرجة والعناية الخاصة، نظرتُ من خلال الزجاج إلى غرفة ترقد فيها امرأة هرمة، بدت من خلال عينيها المفتحتين على سعتيها أنها صاحبة، حين صارت حواء المؤمن في مواجهة الجدار الزجاجي، تمتمت المرأة العجوز بكلمات صامتة ماتت على شفيتها، لم تفهم حواء المؤمن شيئًا، كان منظر المرأة الهرمة مخيفًا، وكأنها ساحرة من العالم الآخر أو شخصية هربت من بعض أفلام الرعب التي تشاهدها من خلال التلفزيون.

مشت متقدمة في الممر وهي تتلفت يمينًا ويسارًا لترى المرضى الراقدين في تلك الغرف وهم في البرزخ ما بين الحياة والموت. فجأة، توقفت مرعوبةً إذ لمحت في إحدى تلك الغرف زوجها الدكتور آدم التائه وهو نائم على سريريه الطبي، والأنابيب المطاطية الشفافة في أنفه، ويده مشدودة إلى كيس المادة المغذية المعلقة على حمالة من الألمنيوم وإلى جانبها قنينة الأوكسجين الكبيرة.

اقتربتُ من الحاجز الزجاجي، وقفت تتأمله غير مصدقة، اجتاحتها حزن عميق جداً، أحسّت بدفقات من الحب تجاهه، شعرت بالذنب، خمّنت أنها السبب في ما وصل إليه، لكنها لا تعرف ماذا حصل معه، وكيف هو هنا في غرفة العناية المركزة والحالات الخطرة؟

بهدوء، وبطريقة آلية، فتحت الباب ودخلت غرفته، اقتربت منه، راودتها رغبة في أن تلقي بنفسها على صدره باكية، وأن تطلب عفوه ومغفرته، إنها لا تحتاج إلا لعفوه ومغفرته، تريد أن يمنحها السلام والاطمئنان النفسي بغفرانه لها وعفوه عنها. فكّرت مع نفسها بأن لا أحد لديها في هذا العالم غيره، فهو زوجها وأبوها وأموها وأخوها، وكل ماضيها وذكرياتهما، فهي تنتمي إليه، لكنها دمرته، ولم يستحق منها ما فعلته به!

كانت بحاجة إلى أن توقظه لتتحدث إليه، بحاجة إلى غفرانه، ودونما إرادة منها مدّت يدها وتلمست كفه المسترخية على جانب السرير. أخذت كفه بين يديها، تحركت كفه لتقبض بضعف واضح على كفّها، فجأة، فتح آدم التائه عينيه، نظر إليها نظرات غائمة وكأنما يعرفها ولا يعرفها، ظل ينظر إلى وجهها للحظات، تفرقت الدموع في عينيه، صارت صورتها غائمة في نظره، فلم يستطع أن ينظر إليها أكثر، لذا أدار رأسه إلى الجهة الأخرى.

شعرت بالخذلان. جلست على الأرض ماسكةً بكفه، ملقيةً وجهها على حافة السرير. بغتة، وجدت نفسها تنفجر ببكاء مرّ وشديد. استمرت لدقائق وهي تندب نفسها وحظهما، ها هما غريبان مدمران، في مستشفى غريب، في مدينة غريبة. لا أحد لهما غير بعضهما، لكنهما مدمران. فجأة، انتبهت إلى كفه وهي تمسّد شعرها مثل طفلة صغيرة وكأنه يواسيها. لم ترفع رأسها، استمرت في بكاء صامت.

أمسكتُ الراهبة المسنة كتفيها برفق شديد، وبدون أي كلام خرجتا من الغرفة. مشيت حواء المؤمن، ساكنة الملامح، كالسائر في النوم. الراهبة

المسنّة لم تنطق بأي كلمة، وإنما احتضنتها برفق وحنان وأخذتها إلى غرفتها، أرقدتها على سريرها، غطتها بالبطانية.

كانت حواء المؤمن ممدّة على سريرها، وتنظر كالمذهولة إلى سقف الغرفة. وقفتُ الراهبة المسنّة قرب الباب ناظرةً إليها، ثم مدت يدها إلى زر الكهرباء فأطفأت النور، خرجت غالقّة الباب، غرقت حواء المؤمن في الظلام، لكنها ظلت تحديق في العتمة بعيونٍ مفتوحة.

آدم البغدادي: ما الذي دفعني لكي أجعل آدم التائه يسقط هكذا بذبحه صدرية ويُنقل إلى المستشفى، وكذا أترك حواء تقدم على الانتحار؟ هل لأحاول أن أكشف عن طيبة حواء المؤمن وهي في جحيمها ذاك؟ أم أنا أتعاطف مع آدم التائه وبالتالي أحاول أن أرسم له صورة البريء المخدوع؟ ولماذا جعلته، بالرغم من كل ما جرى له، يغفر لتلك الخاطئة بحقه؟ وما الداعي لذلك؟ هل لأنني رجل وأتعاطف معه دون إرادتي، ومن منبع الكبرياء الذكورية؟ هل هذه هي مهمتي ككاتب؟ لا أعتقد ذلك! ثم لماذا أحاول أن أقدم الدكتور آدم التائه وكأنه البريء، والضحية، أليست حواء المؤمن هي ضحية أيضًا، ثم لماذا الراهبات؟

فكر آدم المحروم مع نفسه بأن الرواية أخذت تبث الخوف والترقب فيه، هو لا تعنيه تبريرات وتعليقات صديقه الكاتب القليل، ما يعنيه الآن هو الحكاية التي أخذت طريقًا غرائبيًا مشوقًا.

اغتيال آدم البغدادي

ألقي آدم المحروم المخطوطة جانباً، أحسّ ببراعة صديقه القتيل آدم البغدادي في تتبع تحولات النفس البشرية والتقاطه لتناقضاتها في أشد المنعطفات حدة، لكن كآبة سوداء غمرت عالمه الداخلي، أحس برغبة في البكاء على نفسه وعلى صديقه القتيل. فكر مع نفسه سائلاً: أي خراب ينتظر هذه البلاد على أيدي هؤلاء الأوغاد؟ وواصل أفكاره: يبدو أن صديقي كان أعمق مني في فهمه لآلية هذه السلطة الجديدة، فبعد مرور كل هذه السنوات على سقوط النظام السابق تحول الضحايا إلى جلادين جدد، ويبدو أن صديقي آدم البغدادي قد استشعر ما سيحدث، فليس عبثاً أن كل مخطوطاته الروائية تحمل عنوان «المتاهة»؟! وبدون إرادة منه انهمرت ذكرياته كالشلال في قاع مخيلته.



كان صوت سيارة الإسعاف يتصاعد بقوة وهو يقترب من المقهى الذي كان آدم المحروم ينتظر صديقه الكاتب آدم البغدادي فيه، لقد مضت نصف ساعة على الموعد ولم يأتِ آدم البغدادي، على الرغم من أن المقهى يقع في الجهة المقابلة للزقاق الذي يسكن في شقة بإحدى بناياته الواطئة.

فكر آدم المحروم في سبب تأخر صديقه، وعلل ذلك بانشغاله في تنقيح رواياته ومخطوطاته العديدة، لا سيما روايته التي حدثه عنها كثيراً، حيث أسماها (متاهة حواء وادي الظلمات)، والتي أخبره ليلة أمس عندما هاتفه بأنه فيها واصل مصير أبطال روايته، وأنه سيضع لمساته الأخيرة عليها، ولم يجد سبباً آخر للتأخير، إذ ليس من عادته أن يخلف أي موعد، لا سيما

وأن شقته قريبة من المقهى. أخرج هاتفه النقال، اتصل به، لا أحد يجيب، فالهاتف كان يرنّ على الجانب الآخر.

طلب آدم المحروم الشاي للمرة الثالثة لإشغال نفسه بشيء ما، استمع إلى رواد المقهى الذين كانوا منشغلين بأخبار الانفجار الذي هزّ منطقة الصالحية في جانب الكرخ من بغداد صباح هذا اليوم، أحدهم قال: بأن السفارة الإيرانية التي تقع هناك هي التي كانت مستهدفة، وآخر قال: بأن مبنى محافظة بغداد كان هدف التفجير الإرهابي، وثالث قال: لا هذا ولا ذاك، وإنما وزارة الخارجية هي التي كانت مستهدفة، رابع قال: إن مجمع الصالحية السكني كان هو المقصود بالتفجير الإرهابي، آخر قال: كل هذه لا تعني شيئاً فليس مكان الانفجار هو المهم لأن الشعب العراقي هو المستهدف الأول والأخير من كل هذه التفجيرات، فالمسؤولون على اختلاف مللهم ومذاهبهم وقومياتهم يعيشون في المنطقة الخضراء المحصنة ولا يمسهم أي ضرر.

ومع أن آدم المحروم قد شاهد بعض التقارير عن الانفجار من خلال شاشات التلفزيون إلا أن جميع الأخبار كشفت عن تخبط هائل للحكومة وتضارب في الآراء يشي بهشاشة مربية للوضع العام في البلاد، وفوضى تشير المخاوف عن مستقبل هذه المدينة التي وكأنما كُتب عليها البلاء الأبدي.

بعد مرور نصف ساعة على الموعد ارتاب آدم المحروم في أمر تأخر صديقه، وبدأ يستذكر ما دار بينهما ليلة أمس حينما تحدث معه عبر الهاتف، حيث أكّد له بأنه سيكون خلال الساعة الرابعة في المقهى، وها هي الساعة قد تجاوزت الرابعة والنصف ولم يأت بعد.

انتبه لهدير صافرة سيارة الإسعاف التي كان واضحاً أنها تقترب من المقهى جدّاً، بقية رواد المقهى قطعوا حوارهم السياسي وخرجوا ليروا ما يجري، حتى أنه وبشكل لا إرادي قام أيضاً وخرج من المقهى ليتأكد كالأخريين مما يحصل، فشهد أن سيارة الإسعاف قد انعطفت إلى الزقاق الذي يسكنه صديقه آدم البغدادي.

انقبض قلبه، وتصاعد عرق بارد إلى جبينه، وأحس برعشة مست ساقبه وصعدت إلى ظهره، وانتابه شعور غامض بأن كارثة ما ستقع، لا سيما حينما رأى سيارة الإسعاف تقف عند باب البناية الواطئة التي يعيش صديقه في إحدى شققها.

بعض رواد المقهى غادره متجهًا نحو الزقاق، دفع الناس يدفعهم فضولهم، إلى الزقاق حيث وقفت سيارة الإسعاف. ذهب هو أيضًا، عند باب البناية الواطئة سمع أحد سكان البناية يتحدث عن جريمة قتل، في تلك اللحظة شعر آدم المحروم بشعريرة تسري في أنحاء جسده، وحالة من الارتجاف الواضح سيطرت على ساقبه، وتخشب عضلات وجهه، أحس أنه لا يستطيع المشي، لكن ذلك جرى خلال أقل من دقيقة فقط، إذ وجد نفسه مأخوذًا بقوة مفاجئة وكأن يدًا ما انتشلت من هوة بلا قرار، بل وسرى في جسده تيار من الطاقة النفسية والجسدية، فدخل البيت، وصعد السلم راكضًا حيث الطابق الذي يسكن فيه صديقه الكاتب آدم البغدادي، كان يهيمن عليه وهو يصعد درجات السلم إلى الطابق الثاني يقينًا بأن شيئًا ما قد حدث لصديقه، وأنه ضحية جريمة القتل التي سمع الحديث عنها قبل قليل. وصل إلى الطابق الثاني وقف لثوان أمام الباب، رأى رجال الإسعاف يدخلون شقة صديقه آدم البغدادي وهم يحملون السرير النقال، ورأى بعض الجيران يدخلون، أو هكذا خمن، فدخل الشقة مع الداخلين.

مع أول خطوة له في الشقة، انتبه إلى أن دفع الطاقة الذي سرى في جسده ونفسه قبل لحظات قد اضمحل واختفى، إنه يشعر الآن وكأنه محموم. فكرر مع نفسه بأن عليه أن يتصرف بانتباه، أن يرى كل شيء، بالتفاصيل المملة، وأن يحتفظ بها في ذاكرته بسرعة هائلة.

دخل مع رجال الإسعاف إلى المطبخ فرأى جثة صديقه منكبة على وجهها، وبالقرب من الرأس ثمة بقعة متجمدة من الدماء، وثمة دورق زجاجي فيه بقايا عصر يرتقال قد تهشم على الأرض.

برقت في ذهنه فكرة أن يفتش عن مخطوطات صديقه القليل ورواياته التي لم تُنشر بعد، فانسحب بطريقة لا تثير الريبة مستغلًا ذهول الواقفين

في المطبخ وارتباكهم، فدخل إلى غرفة النوم بسرعة. هناك رأى السرير مغطى بلحاف صوفي، وثمة كتب متناثرة على الأرض عند جهة الرأس، ودولاب ملابس مفتوح، ورأى حقيبة جلدية متوسطة الحجم مع حزامها الرافع عند الطرف الآخر من السرير، ففتحتها بسرعة فائقة ليتأكد مما في داخلها، فرأى دفاتر وكراسات وحزم الورق المستخدم في الكتابة، فعرف أنها من مخطوطات صديقه المغدور. لم يكن لديه الوقت الكافي ليفتش أكثر فحملها بخفة ووضع حزامها على كتفه، وخرج من الغرفة متجهًا إلى المطبخ حيث رجال الإسعاف، فلم ينتبه إليه أحد.

كان رجال الإسعاف يتناقشون في ما بينهم بضرورة انتظار الشرطة قبل أي مساس للجثة. سمع أحدهم، والذي يبدو أنه الذي انتبه للجريمة، واتصل بالشرطة ومستشفى الطوارئ، يروي كيف سمع وقوع شيء ثقل على الأرض في شقة المرحوم آدم البغدادي، وأنه جاء ليستفسر عن ذلك، فرأى باب الشقة مفتوحًا بالكامل، وأنه نادى على جاره مرات عديدة فلم يجبه فتجراً ودخل، إذ كانت بينهما علاقة طيبة، وأحيانًا كانا يسهران معًا، وحينما انعطف إلى المطبخ رآه ملقى على الأرض دون حراك، ورأى دائرة الدم عند رأسه، فناداه، ولما لم يجبه خاف من تبعات الأمر، فخرج مسرعًا ليتصل بالشرطة والإسعاف.

لم ينتظر آدم المحروم طويلاً لحين وصول الشرطة، فانسلّ بهدوء من الشقة، وما إن وصل الباب الخارجي لها حتى أخذ يقفز درجات السلم بسرعة، وحينما قابل بعض الجيران وهم يصعدون خفف من حركته كي تبدو طبيعية. ما إن صار آدم المحروم في الشارع حتى أدرك هول ما حدث، فصديقه الكاتب آدم البغدادي تم اغتياله وتصفيته من قبل جهات في السلطة، لأنه كثيرًا ما كان يبدي رأيه في الوضع وتوجهات البلاد بعد احتلالها من قبل الأميركيين وبعد سقوط النظام الدموي السابق.

أوقف سيارة تاكسي طالبًا من السائق التوجه إلى اتحاد الأدباء في ساحة الأندلس. كان جسده قد تعرّق بالكامل، وأحس لأول مرة بالرعب، ليس من الإرهابيين وإنما من السلطة، لذا حينما توقف التاكسي مقابل مقر اتحاد الأدباء خرج منه متلفتًا بخوفٍ وحذر، فلربما هناك مَنْ يتبعه.

دخل قاعة نادي اتحاد الأدباء، وجد بعض أصدقاء القتيل آدم البغدادي وهم يلتفون حول طاولة، يتحدثون عن واقع المسرح في العراق. وقف دون أن يلقي بالتحية، نظروا إليه، انتبهوا لشحوب وجهه والرعب في أعماق عينيه ونظراته القلقة، وقبل أن يسأله أي منهم، قال جملة التي أربكتهم:

- لقد قتلوا آدم البغدادي.

لم يسمع سوى صرخات عالية:

- ماذا؟

- وطفى عليهم جميعًا صمت أعمى استمر لثوانٍ ثقيلة جدًا، فقال كَمَن يتلو رسالة أو تبليغًا رسميًا:

- لقد جئت الآن من شقته، سيارة الإسعاف هناك، وربما وصلت الشرطة أيضًا. أطلقوا عليه الرصاص من الخلف في مؤخرة رأسه. رأيت مضرّجًا بدمه ومنكبًا على وجهه في المطبخ.

لم يكمل كلامه، إذ تقافز الأصدقاء مغادرين القاعة بسرعة أشبه بالهرولة، بقي هو متجمدًا في مكانه.

حينما غادر باحة مقر الاتحاد وصار عند البوابة الخارجية المطلة على الشارع سأله أحد رجال الحراسة، عمّا جرى، ولماذا خرج الجميع وهم مرعوبون، فاستوقفوا أكثر من سيارةٍ وذهبوا؟ فأجابه بقليلٍ واضح:

- لقد اغتالوا الكاتب آدم البغدادي.

فتساءل الحارس ببساطة:

- ومن هو آدم البغدادي هذا؟

لم يجد آدم المحروم أي جواب، وإنما نظر للحظة في وجه الحارس وقال له بحزن:

- إنه لا أحد!

أوقف سيارة تاكسي. حين سأله السائق عن المكان الذي يقصده احتار للحظات، ثم قال: أريد الذهاب إلى البيت. نظر السائق إليه مندهشاً، فانتبه آدم المحروم لجوابه على سؤال السائق فقال له: اطلع للبتاوين.

دخل آدم المحروم إلى شقته التي تقع في الطابق الثاني من مبنى قديم، والمكونة من غرفة واحدة مع ملحقاتها؛ كالحمام والمطبخ الصغير. بادر بلهفة لتشغيل جهاز التلفزيون، الذي كشفت شاشته عن إحدى القنوات التي كانت تبث خبراً عاجلاً عن جريمة قتل الكاتب آدم البغدادي. خلال لحظات انتشر خبر اغتيال الكاتب آدم البغدادي في وسائل الإعلام العراقية، وتناقلته بعض القنوات العراقية التي تبث من خارج العراق بشكل عاصف. ألقى بنفسه على الصوفا وكأنه تل من الرمال انهدمت سرّباً إلى هاوية.

جسيم باريوس

سمع صوت انفتاح باب الغرفة المجاورة. توقف سبل ذكرياته فجأة. أنصت متوجسًا. رفع رأسه وكشفه عن السرير. سمع صوت أكياس توضع على الأرض. وصوت صرير لسرير، فخمن جلوس شخص ما عليه. تلاشت الأصوات للحظات، بعدها سمع حركة تأتي من الممر، وصوت فتح الباب مرة أخرى، لكن صاحبها هذه المرة صوت فتى الفندق وهو يتحدث للشخص الموجود في الغرفة:

- المدير يسأل: كم يوم ستبقين في الفندق؟ إنك خرجت اليوم صباحًا ولم ترجعي إلا الآن، بينما البارحة قلت إنك ستغادرين صباحًا.

عرف آدم المحروم أن الشخص الآخر في الغرفة المجاورة هي امرأة. بعد ثوانٍ سمعها تجيب عامل الفندق قائلة:

- سأبقى لثلاثة أيام أخرى. لديّ معاملة في دائرة التقاعد وحتى الآن لم تنته. مضت أربعة أشهر وأنا أروح وأرجع من محافظتي، وكل مرة يقولون لي ستنتهي، لكن كما يبدو سأنتهي أنا قبل أن تنتهي هذه المعاملة.

- يعني ستبقين ثلاثة أيام أخرى؟

- نعم.

سمع آدم المحروم صوت إغلاق الباب، فأدرك أن الصبي قد ذهب، غالبًا باب الغرفة خلفه. انتبه إلى وجود باب خشبي يفصل بين الغرفتين، لكنه باب بلا مقبض. باب يبدو قد خُلع مقبضه كي لا يمكن أن يُفتح على الغرفة

الأخرى. وبدون إرادةٍ منه اعتدل في جلسته على سريره، ومدّ رجله إلى الأرض. بقيَ على هذا الوضع لبعض الوقت. كان يفكرُ بنفسه، بالوضع الذي هو فيه. ثم، وبدون إرادةٍ منه أخذ يفكرُ بالمرأة التي في الغرفة المجاورة. أشفق مع نفسه عليها، كيف لهذه المرأة التي جاءت من محافظة بعيدة أن تلهث وراء إنجاز معاملة التقاعد دون جدوى؟ فجأة، سمع صوت دندنة لأغنية مشهورة لمطربة لبنانية يأتي من الغرفة المجاورة. قام من مكانه مقترباً من فتحة المفتاح الموجودة في الباب الوسطي، تفرّص في جلسته ومد إحدى عينيه لينظر من خلال الفتحة إلى ما يدور في الغرفة المجاورة. تذكر لحظتها رواية (الجحيم) لهنري باربوس، والتي تتحدث عن شخص كان في الفندق يراقب ما يجري في الغرفة المجاورة من خلال ثقب في الجدار. ذلك الشخص كان يستمع لكل ما يدور في الغرفة من أحاديث وأشياء ويرى ما يدور أيضاً دون أن يعرف به أحد!

لم يرَ آدم المحروم شيئاً. شعر وكأن الغرفة فارغة وليس هناك أي امرأة. فكر لحظتها: «ربما استلقت على السرير ونامت. لا، فالسرير في مواجهة وليس عليه أحد». فجأة مرَّ ظلٌّ أمام عينيه. ارتبك، وتجمّد في مكانه. فهذا يعني أنها كانت تتنصت لغرفته أيضاً، لكنها لم تنظر من ثقب الباب، وإنما ربما وضعت أذنها لتتنصت على مَنْ في غرفته! ابتعد الظلّ. لمح قوام فتاة ربما بدت في نهاية العشرينات. ومن قوامها الرشيق خَمَّن أنها جميلة برغم أنه لم يكن بإمكانه رؤية وجهها. تراجع إلى الوراء قليلاً. وقف بهدوء شديد، ثم مضى على أطراف قدميه إلى زر الكهرباء فأطفأ النور في الغرفة. رجع بنفس الحذر مقررصاً أمام فتحة الباب ليوصل مراقبته لما يدور في الغرفة المجاورة. فكر مع نفسه في بطل رواية (الجحيم) لهنري باربوس كيف أنه كان يتساءل مع نفسه عن الحقيقة. الحقيقة؟ يا تُرى ما الذي يعني بالحقيقة؟ وها هو الآن في هذه الغرفة الغريبة، في هذا الفندق المريب، في هذه المدينة المرعبة، هارب من أشباح مجهولة بعد مقتل صديقه الكاتب آدم البغدادي،

وبالرغم من هذا كله فهو يجد متعته الآن في أن يراقب هذه المرأة من ثقب الباب. باحثًا بشكلٍ غامضٍ عن الحقيقة!

ظل جالسًا القرفصاء لدقائق بدت له طويلة جدًا، واضعًا عينه على فتحة الباب الفاصل بينه وبين غرفة المرأة المجهولة. سأل نفسه: أأظل هكذا جالسًا منتظرًا؟ وماذا أنتظر؟ ربما ستعري؟ ربما سيأتي شخص ما ويضاجعها كما جرى في الغرفة الأخرى في الرواية الفرنسية؟ لكن لا شيء حدث مما كان في تلك الرواية، بل سمع نسيجًا خفيًا أول الأمر ثم تعالى النسيج حتى صار مسموعًا جدًا.

كانت المرأة تبكي بمرارة شديدة. ظلت المرأة تبكي وهي في سريرها، وظل هو جالسًا القرفصاء، متسمّرًا في مكانه، إلى أن توقفت المرأة، بل تعبت من البكاء والنسيج. بهدوء شديد قام هو وعاد إلى السرير مستلقيًا عليه ثانية. ظل لدقائق ممدّدًا على السرير، عاجزًا عن التفكير بشيءٍ محدد، ثم بهدوء شديد مدّ يده ليمسك بمخطوطة (متاهة حواء وادي الظلمات) ليواصل القراءة.

صباح الأوهام

أفاقتُ حواء المؤمن على صوت هدير سيارة إسعاف كانت قادمةً إلى المستشفى. فتحت عينيها بصعوبة. نظرت إلى الساعة الجدارية التي كانت تشير إلى الثامنة صباحًا. انتبهت إلى كيس المادة المغذية المعلق على حمالة من الألمنيوم إلى جانب السرير. تتبعت الأنبوب الذي بإبرة مغروزة بمعصمها. فكّرت مع نفسها: «كيف حدث هذا؟ ألم تسحب ليلة أمس الإبرة الموصلة لهذا الكيس من معصمها؟ ألم تخرج ليلة أمس إلى ممرات المستشفى؟ ألم تجد زوجها في غرفة العناية المركزة؟» وأثناء انشغال حواء المؤمن بهذه التساؤلات دخلت إحدى الممرضات الغرفة وهي تبتسم وتقول لها بالألمانية:

- صباح الخير. كيف الحال؟

- صباح الخير. أجابت هي.

اقتربت الممرضة منها وقالت لها:

- أريد تغيير البياضات والشراشف، فهل تقدرين على الحركة قليلاً؟
يمكنك الجلوس على الكرسي ريثما أقوم بذلك.

وبدون أن تجيئها جلست حواء المؤمن على حافة السرير. مسكت حامل كيس المادة المغذية المستند على قاعدة ثلاثية بعجلات صغيرة ودفعته أمامها. نهضت من مكانها وأخذت تمشي ببطء إلى أن وصلت المقعد القريب من النافذة فجلست عليه. أخذت تنظر إلى المرأة التي قامت بنزع الشراشف وتبديلها. انتبهت الممرضة لها وقالت:

- إنك ما زلت شابة وجميلة، والحياة أجمل من أن تنهيها في مثل هذا العمر. لم تفهم حواء المؤمن كل ما قالته الممرضة. لكنها فهمت الإشارة إلى أنها شابة وجميلة. اكتفت بالابتسام للممرضة ابتسامة شاحبة. لم تواصل الممرضة الحديث، إذ شعرت بأن ذلك قد يُعدّ تدخلاً في الشؤون الشخصية للآخرين. ما إن أنهت الممرضة تغيير الأغذية وترتيبها بانتظام، حتى دخلت ممرضة أخرى تحمل بيدها صينية الفطور. ألقت تحية الصباح. أجابت حواء المؤمن والممرضة رادتين التحية في الوقت نفسه. بعد لحظات خرجت الممرضة الأولى التي أعدت السرير، بينما انتهت الثانية إلى جلوس حواء المؤمن قرب النافذة فسألت:

- هل أحمله إليك أو تجلسين على سريرك؟

أشارت حواء المؤمن إلى الطاولة التي أمامها. وضعت الممرضة الصينية أمامها. نظرت إليها وكأنها تدرس هذه المرأة الجميلة التي أقدمت على الانتحار. خرجت الممرضة وبقيت حواء وحدها.

نظرت حواء إلى صينية الفطور أمامها. أخذت كأس عصير البرتقال ورشفت منه قليلاً. دب انتعاش سرى في جسدها، وما إن همت بتناول الفطور حتى فُتح الباب ودخل آدم اللبناني الغرفة وهو يتسّم لها:

- صباح الخير. لا. لا. ما شاء الله أنت في صحّة جيدة.

اندهشت حواء المؤمن أول لحظات دخول آدم اللبناني، لكنها فجأة استذكرت كل شيء. كل شيء. راودها للحظة ضيق لا تعرف مصدره، لكنه زال حينما واجهها آدم بابتسامته المشرقة ووجهه الباسم الوسيم. راح عنها الضيق بل أحست بشيء من الارتياح.

كان آدم اللبناني يحمل كيساً من النايلون بيد وكتاباً بيد أخرى. اقترب منها ووضع الكيس على طرف الطاولة التي أمامها. مديده وأخرج منه كيساً آخر، مزق جانباً منه فبدت فيه حبات فلافل. أخرج لفّة من الشاورما المغطاة بورق السيلوفان، وعلبة من اللبن التركي، وكتاباً باللغة العربية، وقال مبتسماً:

- فكَرْتُ بأن أكل المستشفى لن يعجبك، لذلك مررت على المطعم اللبناني وجلبتُ لكِ الشاورما والفلافل.
- نظرت إليه بكل امتنان قائلة:
- شكرًا لك. الفطور لا بأس به هنا.
- فقال بمرح وكأنه يدللها:
- لا. لا. لا يجوز. لا بد أن تأكلي جيدًا فلقد نزلت كثيرًا.
- ولم تكن تعرف كيف تبدأ الحديث معه، فأخذت تتحدث عن وضعها في المستشفى:
- لقد علقوا أكياس المغذي فوق رأسي وربطوها بإبرة زرقوها في معصمي.
- ما إن ينتهي كيس حتى يضعوا كيسًا آخر.
- هذا ضروري جدًّا، لكن ألم يقولوا لكِ متى تخرجين؟
- لا.
- سكتت حواء المؤمن فجأة. انتبه آدم اللبناني إلى أنها شردت بتفكيرها إلى مكان آخر، فسألها:
- ما بكِ؟ إلى أين سرح فكري؟
- صمتت للحظات ثم قالت:
- الدكتور آدم. زوجي. هنا أيضًا.
- صُدم آدم اللبناني لما سمع، وقال بدهشة واستغراب:
- ماذا؟
- ليلة أمس تجولت في الممرات فوجدته في غرفة العناية المركزة. و...
- و؟ و. وماذا؟
- قالت وكأنها تسترجع ما رأيته البارحة:

- لقد دخلت عليه في غرفة العناية لكن يبدو أنه لم يعرفني أو وكأنه لم يتوقع وجودي في المستشفى.

فقال هو بلهفة:

- لكن ما الذي جرى له؟ ليلة أمس لم يأتِ إلى الشقة. كنت أنتظر في غرفتي وأذني على السلم. لم أسمع وقع خطواته وهو يصعد إلى الشقة. ظننت أنه عند أصحابه. انتظري. سأسأل عنه في الاستعلامات، لكن هل أنت متأكدة مما تقولين؟ ربما تخيلت ذلك، ربما كنتِ تحلمين؟

انتبهت لكل كلمةٍ قالها. لا سيما قوله أنه لم يبتِ الليل في الشقة، ثم قالت بانفعال:

- كيف أتخيل ذلك؟ هل لا أعرف زوجي؟ أعتقد أنني اشتبهت بشخصٍ آخر أو أنني حلمت؟ لدي شاهد على ما أقول.
نظر إليها بتعجب وسأل:

- شاهد؟

- نعم شاهد. كانت هناك راهبة كبيرة في السن نوعاً ما. لقد دخلتُ غرفة العناية المركزة وسحبتي من هناك وجاءت بي إلى غرفتي.
سأل بانتباه:

- في أي قسمٍ قلت؟

- في قسم العناية المركزية.

- سأذهب لأستطلع الموضوع. سأرجع إليك بعد قليل.

خرج آدم اللبناني من الغرفة مسرعاً. ظلت حواء المؤمن ساكنةً للحظات وهي تسترجع ما رآته ليلة أمس. وشيئاً فشيئاً رجعت إلى عالم الغرفة، فمدت يدها إلى لفة الشاورما وأزاحت الورق الذي يلفها، وبدأت تمضغ الطعام.

مضى ما يقارب الساعة على خروج آدم اللبناني ليستفسر عمّا روته حواء المؤمن عن أحداث ما بعد منتصف الليل. ظلت حواء المؤمن في حالة انتظار، فهي تريد أن تعرف ما الذي جرى للدكتور آدم التائه؟ ولماذا هو في غرفة العناية المركزة؟ سألت نفسها عن سبب تأخر آدم اللبناني كل هذا الوقت. فكّرت، ربما انشغل بمغامراته النسائية، فربما صادف إحدى الممرضات وبدأ محاولاته للتعرف عليها، كمعظم الشبان العرب في ألمانيا ممن لا يرون في النساء سوى فريسة عليهم اصطيادها.

همّت بالخروج إلى الممرات بنفسها، إذ صار غياب آدم اللبناني كل هذه الفترة يقلقها، وبينما هي في لجة قلقها دخل آدم اللبناني الغرفة وعلى وجهه علامات استفهام وشرود يحاول أن يخفيه. نظرت إليه وسألت:

- هل وجدت الدكتور آدم؟ ما به؟ هل عرفت لماذا جاءوا به إلى هنا؟ ولماذا تأخرت كل هذا الوقت؟

نظر آدم اللبناني إليها محدّقاً في وجهها بتركيز، وكأنه طبيب نفساني يدرس حالة مريضه، وقال:

- لا يوجد في كل هذا المستشفى شخص باسم آدم التائه، بل لا يوجد فيها أي أجنبي غيرك هنا، وليس في هذا المستشفى أي قسم للعناية المركزة، وإنما، كما أوضحتوالي، يتم نقل الحالات الخطرة إلى المستشفى الكبير في الطرف الآخر من المدينة.

فقاطعت حواء المؤمن بقلق وهي تقول:

- أقول لك إنني رأيته ليلة أمس، ودخلت غرفته!

فردّ سريعاً وفي صوته نبرة غضب خفي وإصرار:

- وأنا أقول لك بأنه لا يوجد قسم للعناية المركزة في هذا المستشفى. كما لا يوجد أي شخص بالاسم والمواصفات التي تطابق زوجك السابق، لقد أكّدوالي ذلك.

فقاطعته ثانية، وهي تحتد قليلاً:

- وماذا عن الراهبة التي أخرجتني من الغرفة محتضنة إياي وجاءت بي إلى غرفتي؟

صمت آدم اللبناني للحظات. خمنت أنها أخرجته بحجتها هذه، لكنه أجابها بهدوء شديد:

- من المؤسف أن أقول لك بأنه لا توجد أي راهبة في هذا المستشفى. وقد استغربوا من كلامي حينما حدثتهم عن زوجك وعن الراهبة التي أرجعتك إلى غرفتك! ويؤسفني أن أقول لك قد أكدوا لي بأن كل هذا مجرد رؤيا أو أوهام.

ارتسمت علامات الغضب على وجه حواء المؤمن، وقالت:

- هل أنا مجنونة؟ هل كنت أحلم؟ لا أبداً. لقد رأيت كل ما رويته لك، ولا بد لي من الاستفسار عن هذا الموضوع فأنا لست مجنونة!

لم يشأ آدم اللبناني أن يثير غضبها، لكنه كان متأكداً من أنها ليست في حالة نفسية طبيعية، وفسر ذلك بأن عقلها الباطن هيا لها كل هذه الرؤيا نتيجة صدمة ما جرى بينها وبين زوجها، فسكت دون رغبة بالنقاش عن صحة ما روته له. غضبت هي من سكوته واعتبرت ذلك استهانة بما هو يقين لديها، فقالت بصوت عالٍ:

- أنا لست مجنونة، ولم أتخيل كل ما رويته لك. كيف لي أن أثبت لك صحة ما أقول؟

قال لها وفي نبرة صوته شيء من المواساة:

- أنا لم أقل لك إنك تتوهمين، وإنما قلت لك إنني سألت في مكتب الاستعلامات، ثم ذهبت لإدارة المستشفى أيضاً للتيقن، وجميعهم أكدوا لي ما قلته لك، وأعيده مرة أخرى: لا يوجد في هذا المستشفى أي قسم للعناية المركزة، ولا يوجد فيها مريض باسم آدم التائه، ولا يوجد فيها أي أجنبي

- غيرك؛ بل ولا يوجد في هذا المستشفى أي راهبة. فالراهبات يتواجدن في المستشفيات التابعة للطوائف الدينية المسيحية وللكنائس بشكل عام!
- أرادت أن تجيبه، لكن في هذه اللحظة دخلت إحدى الممرضات لرفع صينية الطعام، ما إن ألقت نظرة على وجبة الطعام حتى علقت قائلة:
- لم تأكلي شيئاً! هل أرفع الصينية أم أتركك تأكلين على راحتك؟
 - لا. لا. ارفعيها. لقد أكلت الفلافل والشاورما.
- قالت ذلك ونظرت إلى آدم اللبناني نظرة دافئة. وما إن همّت الممرضة برفع الصينية حتى بادرتها حواء المؤمن بالسؤال مرتبكة:
- رجاء، لديّ سؤال!
- رفعت الممرضة الصينية وابتعدت قليلاً، ثم قالت:
- تفضلي.
 - هل توجد في هذا المستشفى؟
 - نظرت الممرضة إليها وكأنها تخمّن سؤالاً سمعته مراراً، وقالت وعلى وجهها ابتسامة:
 - ماذا؟
 - لم تكن تعرف كلمة الراهبة بالألمانية، فالتفتت إلى آدم اللبناني وسألته:
 - ما هي كلمة راهبة بالألمانية؟
 - عرف آدم اللبناني بأن حواء المؤمن تريد أن تسأل عن وجود راهبات في المستشفى لتتأكد بنفسها، فسأل هو بدلاً عنها لأنه كان يجيد الألمانية إلى حدٍّ ما:
 - تريد أن تسألني، هل يوجد في هذا المستشفى راهبات؟
 - قالت الممرضة وهي تتبادل النظرات بينهما:
 - لا. لا توجد أي راهبة هنا، لماذا؟

نظر آدم اللبناني إلى حواء المؤمن وكأنه يستسمحها بمواصلة الأسئلة بدلاً منها كي تتيقن بنفسها مما قاله هو لها، فنظرت إليه بما يوحي أنها موافقة على مواصلة الحديث في هذا الأمر، فقال للممرضة:

- السيدة حواء المؤمن رأت ليلة أمس راهبة، وقامت هذه الراهبة بتوصيلها إلى غرفتها.

نظرت الممرضة إليه ثم انتقلت بنظرها إلى حواء وسألت:

- هل رأت هي أيضًا وجود راهبة في المستشفى؟

- ماذا تقصدين؟ هي أيضًا؟ سأل آدم اللبناني.

قالت الممرضة بهدوء وبنبرة جادة ووثاقة:

- هناك بعض المرضى من رأى أيضًا وجود راهبات يتجولن في الممرات بعد منتصف الليل.

فقال آدم اللبناني بصوت عالٍ أشبه بالصرخة:

- ماذا؟ ماذا تقولين؟ يعني هناك أشباح؟

نظرت المرأة إليهما وقالت بهدوء وهي تنسحب من الحوار، وكأنها قالت شيئًا لم يكن مسموحًا بالبوح به:

- لا أدري، لكنني سمعت ذلك عشرات المرات. هناك راهبات يتجولن في الممرات، واحدة منهن كبيرة في السن نوعًا ما، وأخرى شابة في الثلاثين من عمرها. لكن لا أحد يعرف هل هما من أوهام المرضى أو أرواح تائهة. لقد سمعت أنهما تواسيان المرضى. تأتيان بعد منتصف الليل لمساعدة المرضى. وقد وصل الأمر إلى أسماع الإدارة، لكنها كانت ترد بأن هذه جزء من أوهام المرضى.

خرجت الممرضة. نظر آدم اللبناني إلى حواء وعلى وجهه علامات الخوف، بينما كانت حواء المؤمن تقرأ بعض الأدعية وكذلك سورة "الناس"

من القرآن بصوتٍ خافت. مرت لحظات صمت بينهما. نظرت إليه وفي صوتها نبرة المنتصر:

- ألم أقل لك بأني رأيت الراهبة وهي التي قادتني إلى هنا؟
نظر إليها بخوف وقال بريية:

- لكن مَنْ يصدق ذلك؟

فقالت له بثقة اليأس:

- أنا أصدقه لأنني رأيت ذلك بنفسي ولم أسمعه من أحد.

خفض آدم اللبناني رأسه وقال وكأنه يحدث نفسه:

- لكن العقل لا يصدق ذلك!

فقالت بنبرة مشوبة بعصبية:

- ولماذا العقل لا يصدق ذلك؟

رفع رأسه إليها وقال بنبرة وكأنه يتجنب الشجار معها:

- طيب إذا قلنا إن وجود الراهبات صحيح وواقع وبعض المرضى رأى

الراهبتين في الممرات، فماذا عن قسم العناية المركزية الذي ليس له وجود

في هذا المستشفى أصلاً؟

فقالت بنبرة شك، وبتساؤل:

- لا بد من وجود هذا القسم، فإذا كانت الراهبات موجودات فالقسم

موجود أيضاً.

صمت هو للحظات. امتد صمته. نظرت إليه وسألت:

- بماذا تفكر؟

نظر إليها بارتباك، ثم قال:

- يجب أن تخرجي من هذا المستشفى بسرعة. فهي كما يبدو مسكونة

بالأشباح أو بالأرواح التائهة!

- صمتت للحظات ثم قالت بنبرة خائفة:
- لكن، الأطباء يقررون متى أخرج وليس أنا!
 - هذا صحيح، لكنني سأحدث مع رئيس القسم بحيث يعملون الأشياء الضرورية لتخرجني بسرعة.
 - قال ذلك وهو يهم بالخروج. سألته:
 - متى سترجع؟
 - لا أدري. ربما مساءً أو غداً. وربما سأتي غداً لأخذك من المستشفى.
 - نظرت إليه بحنان ثم سألته:
 - هل خفت؟
 - ظل هو واقفاً قرب الباب. لم يخرج. أحس وكأن سؤالها كشف ما يشعر به، فقال بانفعال واضح:
 - أنا؟ أنا أخاف من هذه القصص؟ لقد شاهدت عشرات الأفلام التي تروي مثل هذه القصص، فكيف أخاف؟
 - ابتسمت بحزن وقالت بصوت ضعيف:
 - لكنها هنا ليست كما في الأفلام. هنا وجودها حقيقي. ولم أكن أنا الوحيدة التي شاهدت ذلك، فهناك العديد من المرضى أكدوا رؤيتهم للراهنيتين.
 - لم يرغب آدم اللبناني بمواصلة الحوار، حاول أن ينهيه فقال:
 - على أي حال. سأذهب الآن. هل تحتاجين شيئاً؟
 - نظرت إليه بمودة وقالت:
 - لا أحتاج لشيء. شكرًا لك على مجيئك.
 - فجأة انتبهت لوجود الكتاب فسألته:
 - هل هذا الكتاب لي؟

انتبه هو للكتاب فجأة، وأدرك أنه قد نسيه، فأراد أن يداري الموقف فقال:

- هذه مجموعة أشعار مترجمة لشاعر فرنسي، هل تحبين القراءة؟
- نعم أحب القراءة، لكنني نادراً ما أقرأ الشعر. أحب الشعر الذي يُكتب بالعامية، نسميه الشعر الشعبي، لكن أحياناً أقرأ لنزار قباني.
- حسناً سأتركه عندك لتقرأه، فبودلير شاعر عظيم.
- لكنني لا أحب الشعر المترجم كثيراً.
- كما تشائين. إذا لم تريدي قراءته سأأخذه معي.
- لا. لا. ربما سأقرأ فيه.

نظر هو إليها وعلى وجهه ابتسامة حزينة، مشوبة بخوف خفي، وقال وهو يفتح الباب:

- انتبهي لنفسك. أوكي؟
 - أوكي.
- خرج آدم اللبناني غالقاً الباب خلفه. ظلت هي جالسة في موضعها. نظرت إلى غلاف الكتاب، وقرأت:
- بودلير أزهار الشر، قدّم له جان بول سارتر، نقله إلى العربية: محمد عيتاني.

مدت يدها للكتاب، أخذته، وبدأت تتصفحه. وقعت عيناها على القصيدة ٥٦، والمعنونة: (أغنية الخريف)، وقرأت بصمت، لكن صوتاً ما مسموعاً كان يتردد في أعماقها.

لم تكمل قراءة القصيدة. لم تفهمها بالكامل لكنها أحسّت أن هذا الشاعر يتحدث عن ألم الروح الثقيل. سألت نفسها إن كان هذا يسمى شعر حقاً. أخذت تقلب الصفحات وتقرأ الأسطر الأولى من القصائد دون أن تكمل أي قصيدة إلى النهاية. إذا أعجبها النص تستمر في قراءة بضعة أسطر منه، توقفت عند القصيدة المرقمة ٥١ وعنوانها (الهر)، وقرأت بصوتها الصامت:

في رأسي يخطر ويطوف
كما لو أنه في بيته
هو جميل، قوي، ناعم، وفاتن
حين يموء يكاد لا يُسمع.

لم تكمل القراءة، فقلبت الصفحات من البداية إلى النهاية وبالعكس. أحست أنها لم تفهم شيئاً من هذا الذي يُسمى شعراً. انتبهت لعدد من القصائد جميعها تحمل عناوين لها علاقة بالقطط، فهذه قصيدة عنوانها (القطط)، وتلك قصيدة عنوانها (القط)، وهذه عنوانها (الهر). ابتسمت في أعماقها من شاعر القطط هذا؛ فما معنى أن يكون هناك قط يموء في الرأس؟ أُلقت الكتاب جانباً.

قامت من مكانها وهي تدفع حامل كيس المواد المغذية أمامها. جلست على السرير، ثم استلقت عليه وغطت نفسها بالبطانية. راودتها رغبة في النوم، لكنها وجدت نفسها لا إرادياً تفكر بكلام آدم اللبناني. فما معنى أنه لا يوجد قسم للعناية المركزة في المستشفى؟ أليست هي أيضاً ضمن حالات العناية المركزة؟ وما معنى رؤيتها لزوجها بينما أكد هو لها بأنه لا يوجد مريض يحمل اسمه ولقبه، بل إنها الأجنبية الوحيد بين مرضى المستشفى؟ هي على يقين بأنها رأت الراهبة التي قادتها من الغرفة التي كان زوجها فيها إلى غرفتها الحالية. فما معنى حديث الممرضة التي جاءت بها بالطعام بأن بعض المرضى رويوا قصصاً عن رؤيتهم للراهبين في هذا المكان؟

فكرت مع نفسها بالجنبي الأزرق الذي ظهر لها في غرفة النوم بشقتهم التي كانت تسكن فيها مع زوجها. أين هو الآن؟ لماذا لم يظهر لها مرة أخرى؟ لقد قال لها بأنها ملكه، لكنه اختفى. لا. إنها تريد أن ترى وتتأكد من وجود الراهبة، وإنها ستظل الليلة يقظة!

بينما كانت هي مستغرقة في أفكارها دخلت الممرضة الغرفة وهي تدفع أمامها عربة صغيرة عليها عدة التضميد كاملة فسحبت حواء المؤمن نفسها من السرير وجلست متكئة على الوسادة. ابتسمت الممرضة لها وهي تقول:

- كيف حالك اليوم؟ سئى التآم الجرح؁ ونضمّده ثانية. لا شىء يقلق لذك. جرحك كان بسيطاً ولم يكن يحتآ لكثير من التقطيب. عقدتان فقط. ربما ستخرجين غداً!

لم تجبها حواء المؤمن. اقتربت الممرضة منها وهي تدفع عربتها إلى محاذاة السرير. أخذت يد حواء الجريحة وبسطتها على مسند جانبي مرتبط بالسرير. فكّت الضماد وقالت وهي تنظر إلى يد حواء المؤمن:

- الجرح ملتئم تقريباً.

أخذت تمسح على الجرح بالقطن الذي بللته بمادة كيماوية؁ ثم ربطت معصمها بقماش الشاش النظيف. بينما كانت حواء المؤمن تنظر إليها وفي نفسها أن تسألها عن غرف العناية المركزة وعن الراهبة التي قابلتها؁ لكنها ترددت قليلاً بسبب عدم تمكنها من الحديث بحرية بالألمانية.

لم تنزعج الممرضة من صمت حواء المؤمن إذ أدركت أنها أجنبية وربما لا تعرف الألمانية لذا لم تسترسل معها في الكلام أكثر. أنجزت الممرضة عملية تنظيف الجرح وتعقيمه وربطه ثانية. ابتسمت لحواء المؤمن ثم جرّت عربتها خارجة؁ وهي تلقي عليها كلمة الوداع الألمانية الشهيرة:

- وداعاً. (تشوس)

- وداعاً.

تمددت حواء مرة أخرى على السرير وغطت نفسها حتى الرأس بالبطانية وأغمضت عينها لتبتعد عن التفكير بكل ما جرى لها.

دخل آدم اللبناي البناية التي فيها شقته ذات الغرفة الواحدة. وما إن وصل منعطف الدرج الذي يوصل إلى شقته وشقة جارهم آدم التائه حتى أحس بارتباك وخوف لم يعتد عليه. ازدحمت الأسئلة في ذهنه: هل تُرى عاد

زوجها إلى شقته؟ وماذا عن الشخص الذي تحدثت عنه حواء المؤمن في المستشفى؟ ماذا سيحصل لو أنهما تقابلا الآن؟

نظر إلى باب شقة جاره فوجدها مغلقة. صعد الدرجات المتبقية بسرعة. فتح باب شقته ودخلها مسرعًا. أقفل الباب خلفه. وقف عند الباب من الداخل وهو يتنفس بسرعة. خطأ بضع خطوات ملقيًا بنفسه على سرير النوم الذي يحتل جانبًا من الغرفة.

كان نصف جسده الأعلى متمدّدًا على السرير بينما طرفاه السفليان على الأرض وعيناه إلى السقف. ظل يحرق إلى سقف الغرفة. ضج رأسه بالأفكار المتداخلة وغير المترابطة. كان يفكر بحواء المؤمن وأوهامها التي بثت الخوف في نفسه. أحس أنه تورط معها. ربما هي مجنونة! ما معنى أنها ترى راهبة مسنة بعد منتصف الليل؟ وأنها دخلت إلى ممرات وغرف غير موجودة أصلاً؟ وما معنى أن ترى زوجها في العناية المركزة؟ هل هي تشعر بالذنب؟ أو أنها تعبّر عن رغبتها الدفينة في موته؟ أو أنها تحبه وتعبر عن رغبتها العميقة بالرجوع إليه من خلال تخيله مريضًا وهي تذرف دموع الندم على كفه المسبلة؟ كيف له أن يتخلص من هذه الورطة؟ لكن ماذا عن الإقامة الدائمة التي سيحصل عليها بمجرد زواجه منها؟

كان يفكر بصوت عالٍ. استوى على السرير جالسًا. تعالى صوت أناه الداخلية في ذهنه: "لا. لا. لا. عليّ أن أعيد ترتيب أوراقي فأنا لا أعرف عنها الكثير. أنا شاعر وكاتب وأريد أن أفرغ للكتابة. صحيح أنا أغويتها، لكنها كانت شبة جدًّا واستسلمت بسهولة. لقد كنت أنوي الكتابة عنهما؛ هي وزوجها، لكن ماذا سأكتب الآن؟ لقد أردت أن أربط مصيرهما بمصير أبطالي، برحلي العجيبة، بقصصي عن منطقة الفاكهاني أيام الثمانينات، بمقاهيها، بمراكز القوى السياسية الفلسطينية والعربية التي كانت تعد منطقة الفاكهاني جمهوريتها التي تختزل الوطن العربي كله. أردت الكتابة عن تلك

المرأة صاحبة المقهى الذي كان يرتاده المثقفون العرب. أكتب عن ذلك الشاعر الجميل ذي الشعر الأبيض والذي أصدر مجموعته الغريبة: ”عواء الذئب“، وقتل برصاصة قناص. أكتب عن الشعراء الصعاليك. عن الشعراء الذين كانوا يسرقون الكتب من المكتبات ويبيعونها لبعض المثقفين والقراء من أجل أن يشتروا وجبة طعام وقنينة من عرق توما، أكتب عن الشعراء الأتقيين من رواد مقهى الجندول في كورنيش المزرعة.

أردت أن أكتب عن جارتني الأربعينية المثيرة التي كانت تغير ثيابها في غرفتها أمامي متعمدة أن تترك الشباك المقابل لغرفتي مفتوحًا. أكتب عن الناس في مخيم برج البراجنة. أكتب عن صديقتي التي كانت تعمل في جريدة النداء الشيوعية. أكتب عن فقداني لإيماني بالثورات وبالتهجير. أكتب عن سقوط المقدسات الثورية في بالوعة القذارة السياسية والصفقات التجارية، عن المناضلين الذين يمولون ثوراتهم من الحشيش، عن المال العربي الذي يحرق صاحبه، عن الفتيات المراهقات اللاتي هربن من بيوتهن تحت وطأة الجوع الجسدي ليلتحقن بالثورات المغدورة منذ لحظة ولادتها، أكتب عن أبي الذي كان يخون أمي مع صديقتها، وعن أختي التي كانت تخون زوجها مع صديقي. أكتب عن بيروت التي حملت صليها وحدها وسارت به إلى أقاصي الجحيم. أكتب عن خيبتني وبأسني وهزيمتي الفكرية. أكتب عن ذلك القائد الثوري الذي كان لا يستمتع إلا ببرامج الطبخ في التلفزيون. أكتب عن صناعة النجم الشاعر، والنجم الثوري. أكتب عن الشاعرات اللواتي سطعن نجمهن من خلال إبداعات فروجهن. أكتب عن أجهزة المخابرات العربية التي كانت تغتال الشرفاء بمساعدة الأحزاب والمنظمات الثورية في بيروت. أكتب عن أصدقائي الذين سقطوا في قلعة الشقيف في الجنوب. أكتب عن صديقي اليساري العراقي الذي كان يتدرب في أحد المعسكرات في الجنوب، والذي كان في إجازته يسكن عندي في بيروت فيروي لي عن

حببته اليسارية في بغداد، وخوفه عليها من أجهزة المخابرات هناك. أكتب عن كل هذا، لكن كيف؟ كيف لي أن أكتب الآن وأنا خرجت من سجن لأجد نفسي في سجن آخر بلا جذران؟ أنا مشوش جداً“.

كانت هذه التداعيات قد ملأت روحه بالحزن الكثيف. نهض من مكانه واتجه إلى طاولة الطعام التي كان يستخدمها للكتابة أيضاً. كانت على الطاولة صينية فيها كؤوس فارغة. أخذ الصينية واتجه بها إلى الزاوية التي صارت بمثابة مطبخ. عاد إلى الطاولة وجلس حولها على كرسي بدا لا يتناسب مع قامته الفارعة والفتية.

لم يستقر في مكانه فقام متجهاً نحو السرير مرة أخرى. انحنى ليرفع الشرف قليلاً وليسحب من تحت السرير حقيبة سفر جلدية كبيرة الحجم. فتح الحقيبة فبين فيها كتب عديدة، وكمية من الورق الأبيض المخصص للطباعة، وأقلام حبر جاف. أخذ بعض الكتب، دون أن يتقصد في اختيارها، ووضعهما على الطاولة، ثم عاد فأخذ كمية الورق الأبيض ومجموعة من الأقلام فوضعهما على الطاولة أيضاً. وجلس حول الطاولة. وبالرغم من أنه لم يفرغ حقيبته من الكتب كلها، إلا أن الطاولة بدت وكأنها مكتبة صغيرة.

أخذ قلمًا وكمية من الورق الأبيض، وضعها أمامه. أراد بشكل مفاجئ وغير مخطط له أن يبدأ مشروعه الروائي. كتب في أعلى الصفحة: ”نشيد المتاهة“. لم يستطع أن يكتب أي شيء آخر. بقي لدقائق صامتًا، يفكر في أن يكتب شيئًا، لكنه لم يستطع. نهض من مكانه وذهب إلى زاوية المطبخ ليعد لنفسه القهوة. لقد كان في حالة دفعته إلى أن يمسك القلم والورق ليخط شيئًا، أو على الأقل أن يبدأ مشروعه الروائي.

بعد دقائق عاد إلى طاولته ويده كوب مليء بالقهوة. جلس على الكرسي، لكنه هذه المرة أخذ ورقة منفصلة وبدأ يرسم مخططاً لروايته وأبطالها وشخصياتها. أحس بصعوبة البدء بالكتابة. من أين يبدأ؟ من أي مكان وزمان؟

وأى الشخصيات ستبدأ أحداث الرواية؟ ما هي الفترة الزمنية التي ستتحرك ضمنها الأحداث؟ لم يستطع أن يقرّر أي شيء. ألقى القلم من يده. كانت ثمّة أسئلة بدأت تحبّ في ذهنه كما الجياد، كيف يمكن أن تُكتب الرواية؟

نهض يائساً. خطا نحو السرير ملقياً نفسه عليه بحزن. مد كامل جسده على السرير. لم يخلع ملابسه، تمدد على بطنه. أخذ الوسادة مغطياً رأسه بها، طاوياً الشرف والبطانية على بقية جسده، مفكراً بروايته التي تستعصي عليه. باحثاً عن بداية لها.

آدم البغدادي: هل أنا عاقل حقاً؟ إلى أين أنا أتجه يا تُرى؟ إلى أين ستقودني هذه الرواية؟ ما معنى وجود الراهبات في الليل بينما المستشفى بدون راهبات؟! بل وما معنى وجود قسم للعناية المركزة هو بالأساس موجود في الجانب الآخر من المستشفى الأخرى في المدينة؟ إلى أين سيوصلني ذلك؟ ما الذي أريد إيصاله من خلال ذلك؟ ما هذا التداخل بين الغرائبي والواقعي الذي يكاد يكون تسجيلياً في تفاصيله؟ ولماذا تركت هذا المقطع من قصيدة بودلير داخل النص الروائي؟ ولماذا هذه الترجمة بالذات بينما توجد ترجمات أخرى لبودلير؟ ما الذي أريد أن أقوله من خلال ذلك؟ أنا شخصياً لستُ أعرف كيف سيتم فهم ذلك وتقبله؟ لكن بالرغم من ذلك أجد أن ملاحظة حواء المؤمن عن قطط بودلير ذكية وفيها نبرة من المرح، لكن أليست هذه محاولة قسرية مني لإعادة كتابة نص آخر يكتبه هذا البطل اللبناني؟ لا أدري.

حينما انتهى آدم المحروم قال نفسه: لم أكن أعرف أن آدم البغدادي يحاسب نفسه ونصه بهذه الدقة، إذن فهو يرصد ما هو وليد لحظة التجلي الإبداعي، وما هو وليد فكره ومخططة الروائي السابق. حلّو. ووجد في نفسه الرغبة في معرفة ماذا سيجري من أحداث، فواصل القراءة:

لقاء مع راهبات الليل

الساعة الآن قد تجاوزت الواحدة بعد منتصف الليل. حواء المؤمن في غرفتها جالسة على سريرها. الطبيب الخفر الذي زارها مساء بعد استلامه لخفارتة قال لها بأنها ستخرج صباح اليوم التالي، لذا لم يضعوا لها كيس المادة المغذية لأنها تجاوزت الخطر. لذلك قررت أن تتأكد من أمر جناح العناية المركزة، ووجود زوجها الدكتور آدم التائه قبل خروجها من هذا المكان.

الغرفة كانت مضاءة بمصباح منضدي شاحب الضوء موجود على الطاولة الصغيرة من جهة الرأس. نظراتها كانت تائهة في اللامكان. نظرات غامضة ومرتبكة.

قررت أن تتأكد مما رأيته ليلة أمس. أرادت أن تذهب ثانية إلى الممر الذي تقع فيه غرف العناية المركزة. فكّرت مع نفسها بأنه كلما تأخر الوقت كلما كان أفضل لها، لذا كانت تنتظر أن تحين الساعة الثانية وهو الوقت الذي خرجت فيه ليلة البارحة.

مرت أكثر من نصف الساعة وهي على جلستها لم تتحرك. فجأة. نهضت ببطء شديد مقتربة من النافذة. أزاحت الستارة بيدها قليلاً، نظرت محدقة إلى الحديقة الأرضية التي بدت سوداء. انتهت لمرور امرأة تلبس الأسود وعلى رأسها شال أبيض. سارت قرب المصطبات الخشبية في أقصى الحديقة، ثم اختفت خلفها. ما الذي يجري لها، هل هي تحلم؟

ظلت واقفة أمام النافذة لفترة طويلة، وحينما انسحبت من مكانها كانت الساعة تشير إلى الثانية إلا خمس دقائق بعد منتصف الليل. "إذن حان وقت

الخروج“ قالت لنفسها. وحين تحرّكت متجهة نحو باب الغرفة أحست برجفة تسري في أنحاء جسدها، لا خوفًا بل رهبة.

فتحت الباب فصارت في الممر. سارت على طول الممر بحذر شديد. شعرت بالهواء البارد يتغلغل بين ثيابها. حين وصلت إلى منتصف الممر رأت امرأة بلباس الراهبات تمر بهدوء في الممر الذي يتقاطع مع الممر الذي هي فيه. وقفت الراهبة قليلًا، التفتت نحوها، ابتسمت لها بطيبة، ثم أخذت طريقها إلى الجهة الأخرى من الممر الذي هي فيه. انتبهت حواء المؤمن إلى أن هذه الراهبة ليست تلك التي رأتها ليلة أمس، فهذه الراهبة امرأة على مشارف الأربعين، شقراء، مشيرة الوجه والقوام وكأنها ممثلة سينمائية، بينما الراهبة التي رأتها البارحة كانت مسنة، ربما في منتصف الستين من عمرها، ذات مسحة جمال هادئ يكلل وجهها الذي يفيض طيبة.

رفعت حواء المؤمن يدها مشيرة إلى الراهبة الشابة بأن تتوقف، إلا أن الراهبة مضت في طريقها دون أن تنبّه للإشارة. مشّت حواء المؤمن بسرعة كي تلحق بها. حين وصلت إلى الممر الذي مضت فيه الراهبة وجدت أن الممر فارغ، تضيئه مصابيح نيون بيض، يميل شعاعها إلى الأزرق.

أخذت تسير قلقة ومتوترة الأعصاب. انتبهت لوجود قسم العناية المركزة في هذا الجانب من الممر. قالت لنفسها: “ها هو قسم العناية المركزة، بينما هم نفوا وجوده أصلاً، فلماذا يا ترى أنكروا وجوده؟“. مرّت من جانب الغرفة التي كان زوجها يرقد فيها فوجدت السرير خاليًا. اقتربت من الحاجز الزجاجي الذي يفصل الغرفة عن الممر. وضعت رأسها على الزجاج كي ترى تفاصيل الغرفة، فلربما زوجها الآن في الحمام. بقيت واقفة لدقائق، لكن أملها خاب، إذ أن الغرفة كانت خالية من أي إنسان، والسرير كان مفروشًا بطريقة تدل أنه لا يوجد أي مريض راقد على السرير في تلك الغرفة. فجأة، انتبهت لحركة أحد الأبواب في نهاية الممر. التفتت بسرعة. رأت الراهبة الشابة تخرج من إحدى الغرف، لتدخل بسرعة إلى الغرفة المقابلة لها.

اقتربت حواء المؤمن من تلك الغرفة التي دخلتها الراهبة الشابة ونظرت من خلال الحاجز الزجاجي الذي يفصلها عن الممر. اقتربت ملتصقة بالحاجز الزجاجي لترى ما في الغرفة. استغربت حين رأت الغرفة فارغة أيضًا. إذًا، إلى أين ذهبت تلك الراهبة؟ لا أثر لأي مريض في تلك الغرفة، ولا أثر للراهبة التي دخلت قبل قليل إليها!

تناهى إلى سمعها وقع خطوات تمشي في الممر. التفتت بسرعة فلم تر شيئًا. كان الممر خاليًا من أي مخلوق بالرغم من أن وقع الخطوات صار يُسمع بوضوح أكثر، سرت رعشة خوف في أعماقها، خمنت مع نفسها أن هذه الخطوات تأتي من الممر الجانبي الذي تقع فيه غرفتها، لذا أسرع راجعة إلى منطقة تقاطع الممرين.

نظرت إلى الممر الذي تقع فيه غرفتها فوجدته خاليًا من أي أثر لمخلوق يمشي. فجأة، صار صوت وقع الخطوات يأتي من جهة الممر التي خلفها، ممر قسم العناية المركزة الذي كانت فيه قبل لحظات. التفتت فلم تجد أحدًا. سمعت أنينًا يأتي من الغرفة الفارغة التي دخلتها الراهبة الشابة قبل قليل، والتي اختفت فيها. أحست برجفة تسري في جسدها. سألت نفسها بخوف: هل اختفت الراهبة الشابة حقًا، أم أنها لم تنتبه لوجودها في الغرفة جيدًا؟ ومن تراه يتن في تلك الغرفة التي كانت قبل لحظات فارغة؟

بينما كانت حواء المؤمن تدور في دوامة تلك التساؤلات، خرجت الراهبة المسنة التي قابلتها ليلة أمس من إحدى الغرف القريبة. انتهت الراهبة لوجود حواء المؤمن وهي تقف مذهولة وسط الممر في مثل هذه الساعة بعد منتصف الليل. ظللتا للحظات تنظران لبعضهما بدهشة وتأمل، قطعتة الابتسامة الحنونة للراهبة المسنة التي اقتربت من حواء المؤمن خطوتين، لكنها ظلت بالرغم من ذلك على مسافة وقالت بصوت حنون لكنه حازم:

- لماذا تقفين هنا يا ابنتي في مثل هذه الساعة. ألا يأتيك النوم؟

ظلت حواء المؤمن للحظات جامدة لا تعرف ماذا تقول. فجأة، وجدت في نفسها القدرة والشجاعة على الحديث، فقالت بلغة ألمانية تفاجأت هي نفسها من سلاستها وسلامتها لأنها أعلى من قدرتها اللغوية:

- منذ ليلة أمس لم أنم. هل لك أن تجيبيني على سؤالِي رجاء: أين نحن الآن؟ نظرت الراهبة المسنة إليها وأجابت بسؤال أيضًا، وعلى وجهها ابتسامة خفية:
- أين نحن كما تعتقدين؟
- لا أدري.

- ابتسمت الراهبة المسنة بطيبة وقالت بهدوء:
- لا تدرين! كيف لا تدرين؟ نحن في قسم العناية المركزة يا ابنتي. سكتت حواء المؤمن للحظات وقالت بنبرة مشوبة بالشك:
- لكن صباحًا عندما سألنا في مكتب الاستعلامات قالوا لنا بأنه لا يوجد قسم للعناية المركزة في هذا المستشفى أبدًا.
- ابتسمت الراهبة المسنة مرة أخرى وقالت:

- مَنْ قال ذلك؟
- الإدارة.
- الإدارة؟
- نعم. الإدارة. بل حتى إنهم قالوا لا وجود لراهبات أيضًا!
- هم قالوا ذلك؟
- نعم.
- نظرت الراهبة المسنة إليها بمودة للحظات وسألتها بطيبة:
- وأنتِ ماذا تقولين؟
- لا أدري.

- كيف لا تدرين؟ أين أنتِ الآن واقفة؟
- كما يبدو في قسم العناية المركزة.
- كما يبدو؟ ألسنت متأكدة من ذلك؟
- لا أدري حقًا. لقد قالوا صباحًا إنه لا يوجد قسم عناية مركزة في هذا المستشفى، ولا توجد راهبات أيضًا.
- نظرت الراهبة المسنة إليها وكأنها تريد من خلال نظراتها أن تبث الأمان في نفس حواء المؤمن، وبعد لحظات قالت:
- لكن الراهبات موجودات كما ترين!
- نعم. بل رأيت واحدة أخرى شابة دخلت إلى تلك الغرفة.
- إذن نحن موجودات. أليس كذلك؟
- نعم. موجودات.
- وقسم العناية المركزة أيضًا موجود، أليس كذلك؟
- بلى. موجود.
- إذن؟
- إذن ماذا؟
- إذن نحن موجودات رغم قولهم بأننا لسنا موجودات.
- بلى. لكن إحدى الممرضات قالت بأنه لا يراكن أحد سوى بعض المرضى، وإنكن إما أوهام في رأس المريض وإما أرواح تائهة؟
- لم تفاجأ الراهبة المسنة بما سمعته لكنها سألت وكأنها تتقصد السؤال:
- أوهام أم أرواح تائهة؟
- نعم.
- أنا أتحدث معكِ الآن؛ فهل أنا وهم؟

- لا.
- هل أنا حقيقة؟
- نعم. كما أعتقد.
- ولو كنت أنا وَهْم، وأنتِ تتحدثين معي الآن فهذا يعني أنكِ واهمة أو أنكِ مجنونة، أليس كذلك؟
- نعم.
- فهل أنتِ واهمة أو مجنونة؟
- لا أدري. لا أعتقد ذلك.
- يعني أنا حقيقة بالنسبة لك؟
- نعم.
- يعني نحن لسنا أوهام؟
- نعم.
- وكذلك لسنا أرواحًا تائهة؟
- لا أدري.
- ابتسمت الراهبة المسنة لها وسألتها:
- هل يبدو عليّ أنني تائهة؟
- لا.
- هل هناك من يتيه في هذا المستشفى؟
- ارتبكت حواء المؤمن وقالت بحزن:
- نعم. أنا تائهة.
- نظرت الراهبة المسنة إليها بلطف ورقة وقالت مواسية وموضحة:
- أنتِ لستِ تائهة، وإنما أنتِ تبحثين عن شيءٍ ما.

- أبحثُ عن شيءٍ ما؟ سألت حواء المؤمن بتعجب.
- نعم تبحثين.
- ربما. فأنا أبحث عن زوجي الذي رأيته ليلة أمس راقداً في إحدى غرف قسم العناية المركزة، بينما مررت على غرفته الليلة فلم أجده! أريد أن أعرف أين هو الآن؟! ولماذا جاءوا به إلى المستشفى، وما الذي جرى له؟
- صمتت الراهبة المسنة للحظات وهي تنظر إليها بتركيز، ثم قالت وعلى وجهها ابتسامة طيبة:
- ليس هذا ما تبحثين عنه بالضبط!
- ليس هذا ما أبحث عنه، ماذا تقصدين؟ سألت حواء المؤمن باستغراب.
- نظرت الراهبة إليها صامتة للحظات، وقالت لها:
- إنك تبحثين عن نفسك.
- أبحث عن نفسي؟ ولماذا أبحث عنها، هل أنا تائهة، أم أنا لستُ أنا؟
- ليس دائماً نكون نحن كما نعتقد نحن عن أنفسنا!
- لا أفهم معنى كلامك.
- ربما ستفهمين ذلك في ما بعد.
- متى؟
- حينما تعرفين.
- أعرف ماذا؟
- حين تعرفين السر.
- السر؟ أي سر؟
- في اللحظة التي أرادت الراهبة المسنة أن تجيب موضحة خرجت الراهبة الشابة من الغرفة المجاورة لهما. توجهت نحوهما مبتسمة، فقالت

لها الراهبة المسنة مشيرة إلى حواء المؤمن التي شعرت بارتياح استمدته من جمال وجه الراهبة الشابة وابتسامتها الحنون التي منحتها الأمان:

- هذه هي حواء المؤمن. قالوا لها اليوم صباحًا بأنه ليس هناك قسم للعناية المركزة ولا راهبات في هذا المستشفى. أليس هذا مثير للشفقة والرتاء أيتها الأخت إيفا بيرغمان؟

ابتسمت الراهبة الشابة لهما وتوجهت بنظراتها إلى حواء المؤمن وقالت لها والابتسامة الحنون تشع ثقةً وأمانًا من وجهها الجميل:

- دعيهم يقولون ما يقولون يا أخت حواء. ها أنتِ تريتنا. نحن نزور المرضى الذين على البرزخ ما بين الحياة والموت، نساعدهم في اللحظات العاصفة، نمنحهم الأمان والسلام النفسي. نحرص أن نسهر الليل معهم كله. إنهم يحتاجون إلينا لذا نحن نكون عندهم خاصة في أعماق الليل والظلام. ففي الليل تعم الوحشة الوجود كله.

كانت حواء المؤمن تشعر بالافتتان نحو هذه الراهبة الشابة، حتى أنها شعرت برغبة دفينية في احتضانها بمودة لكنها أمسكت نفسها، وقالت:

- عادةً أنا أتكلم الألمانية بشكل سيئ، لكني لا أعرف لماذا أحس بتدفق الكلام الألماني الصحيح من لساني حينما أتحدث معكما. أردت أن أقول إن الإدارة تروّج بأنه لا راهبات في المستشفى، بل ولا يوجد قسم للعناية المركزة أصلاً.

- دعيهم يقولون ذلك!

نظرت حواء المؤمن إلى كلتا الراهبتين وقالت سائلة:

- لماذا لا تخرجان صباحًا حتى يصدّق الجميع أنكما موجودتان؟

نظرت الراهبتان لبعضهما البعض ثم التفتتا إلى حواء المؤمن، وبادرت الراهبة المسنة قائلة:

- هل تشكين أنتِ بوجودنا؟
- لا.
- فلماذا نظهر صباحاً؟
- حتى تعترف الإدارة أن الراهبات موجودات ولا تنفي وجودكم أصلاً!
- ابتسمت الراهبة إيفا بيرغمان بطيبة وقالت:
- ليس مهمّاً أن تعترف الإدارة بوجودنا، وإنما المهم أن يعترف المرضى بوجودنا، ونحن لا نخدم هنا إلا بعد منتصف الليل لنزور المرضى الذين يعانون من حالات خطيرة، أي هؤلاء الذين يكونون في المنطقة الرمادية بين الحياة والموت كما قالت الأخت الكبيرة إيفا مارتا. ثم نحن لسنا وحدنا فهناك أخوات أخريات يعملن أيضاً ويتناوبن السهر معنا.
- هل هذا يعني بأن الإدارة لا تعلم بوجودكم؟
- نظرت الراهبتان لبعضهما، ثم قالت الراهبة الشابة:
- يمكن للأخت الكبيرة إيفا مارتا أن تشرح لكِ كل هذا إذا كنتِ ترغين.
- أستمع منكما العذر، عليّ الذهاب إلى مريض في إحدى الغرف أحس أنه في حاجة قصوى لحضوري إلى جانبه الآن.
- قالت ذلك وواصلت طريقها في الممر ثم انعطفت إلى الممر الذي تقع فيه غرفة حواء المؤمن. تتبعت حواء المؤمن الراهبة الشابة بنظراتها إلى أن اختفت في منعطف التقاطع بين الممرات. شعرت بوخزة من الشك في كل ما تراه. راودها شك غامض وسوس لها بأن ما تراه ليس حقيقة. كانت الراهبة المسنة تحديقاً بأمعان في وجه حواء المؤمن وكأنها تقرأ ما يدور في ذهنها وما يساورها من شك، فقالت لها:
- بدأتِ تشكين فينا، أليس كذلك؟
- ارتبكت حواء المؤمن من قدرة الراهبة على قراءة ما يجول في ذهنها.
- فتمتمت قائلة:

- لا أبدًا. لكنني أسأل لماذا لا تعملن في الصباح أيضًا، حتى تكف الإدارة عن نفي وجودكم؟

نظرت الراهبة إيفا مارتا إليها وابتسمت قائلة وهي تقترب منها:

- ربما أنت محقة في هذا، يبدو أنك تعبت الليلة، لماذا لا تذهبين إلى النوم يا عزيزتي؟

- غداً سأخرج من المستشفى، لقد قال لي طبيب الخفر ذلك. لكنني أردت أن أتأكد من وجودكن ووجود قسم العناية المركزة، فقد زارني صديق لي صباح هذا اليوم وأخبرته عن القسم وعن رؤيتي لزوجي في إحدى الغرف، فجاء يبحث عنه، ثم سأل الإدارة أيضًا فقالوا له بأنه لا يوجد أي قسم للعناية المركزة في هذا المستشفى، بل وليس هناك أي أجنبي بين المرضى سواء، و. و.

فقاطعتها الراهبة إيفا مارتا باسمه، وهي تقودها بحنان نحو غرفتها، قائلة:

- وثم أخبرتهم عن لقاءك معي فقالوا لك إنه لا وجود لراهابات في هذا المستشفى، أليس كذلك؟

- بلى.

- لا ضير. لا ضير. دعيهم يقولون ما يقولون. المرضى في حاجة دائمة لنا، فلا يعني ما يقولون عنا، أرواح المرضى القلقة أهم لدينا من كل ثمرات الإدارة.

كانتا قد اقتربتا من غرفتها. ظلتا تمشيان صامتتين، وفي ذهن كل منهما أسئلة وأجوبة. وصلتا إلى الغرفة. فتحت الراهبة إيفا مارتا الباب وأخذت حواء المؤمن إلى السرير وأرقدتها عليه، ثم سحبت الغطاء حتى صدرها. كل ذلك مرّ بصمت وبشكل آلي كما جرى في الليلة الفائتة. كانت حواء المؤمن مرتبكة، ومشوشة، تريد أن تخلص نفسها لتفكر بكل ما جرى لها.

نظرت الراهبة إيفا مارتا بحنان إلى حواء وقالت لها قبل أن تغادر:

- إنك إنسانة معذبة، وستعذبين طويلاً، ستمرين من بوابات العذاب جميعها. ليباركك الرب ويرشدك إلى طريق ملكوته ويمنح روحك الطمأنينة.

ما إن أنهت هذه الكلمات حتى التفتت ناحية الباب وخرجت بسرعة، دون أن تترك لحواء المؤمن فرصة للكلام أو لمواصلة الحوار. أطفأت النور ثم أبطقت الباب خلفها بهدوء.

في العتمة المطبقة على الغرفة كانت حواء المؤمن مندهلة مما جرى لها، ومن جملة الراهبة الأخيرة، بأنها إنسانة معذبة، وأنها ستتعذب كثيراً. وتمنت لها أن يباركها الرب ويرشدها إلى طريق ملكوته. لم تفهم عبارة طريق ملكوته، لكنها فهمت بقية الكلام. ظلت تقلب هذه الجمل في ذهنها وتسترجع ما رآته في قسم العناية المركزة وما دار بينهم من حوار.

لم يَمْضِ على نوم حواء المؤمن إلا ساعات قليلة جداً، حينما استيقظت على صوت أليف يناديها من أعماق النوم. أفاقت، فتناهى لسمعها صوت أذان الفجر يأتي واضحاً. ظنّت لثوانٍ أنها ما زالت في النوم، وهي تحلم بأنها أفاقت على صوت أذان الفجر. لكنّها انتبهت بعد ذلك لنفسها بأنها ليست نائمة فعلاً، بل هي يقظة تماماً، وأن صوت أذان الفجر يأتي واضحاً، وصريحاً، وهو حقيقي.

مدّت يدها في الظلمة لزر المصباح المنضدي القريب من رأسها فضغطته. توهجت الغرفة بضوء شاحب لكنه يكفي كي يرى الإنسان الأشياء حوله. رفعت نصف جسدها قليلاً إلى الأعلى متكئة على الوسادة، وهي تردد مع صوت الأذان المهيّب القادم إليها من جهة النافذة:

الله أكبر الله أكبر

أشهد أن لا إله إلا الله

نهضت من سريرها وتوجهت إلى النافذة وفي روحها لمسات خشوع وإيمان، فتحت النافذة، اندهشت. كانت منارة مسجد مضيئة تعلو فوق الأشجار المحيطة بالمستشفى. منارة كبيرة وعالية وبيضاء. راودها إحساس

بأن ما تراه ليس حقيقياً، وأنها ما تزال نائمة بلا شك. فهي لا تعرف في هذه المدينة أي مسجد بهذا الاتساع، بل إن المسجد الوحيد الذي تعرفه هو للأتراك وهو أشبه بيت للسكن، ويقع بعيداً جداً عن المستشفى، قريباً من تلك الأحياء التي يسكنها الأتراك والعرب في أطراف المدينة! ظلت واقفة لدقائق عند الشباك. كانت منبهة بجمال منارة المسجد المضيئة البيضاء والتي يزينها شريط من المصابيح الخضراء.

سرت نسيمات باردة فلامست وجهها. شعرت بالانتعاش. ظلت واقفة عند الشباك إلى حين انتهاء أذان الفجر، أغلقت الشباك، وذهبت إلى غرفة الحمام الصغيرة والملحقة بالغرفة. فتحت حنفية الماء وبدأت تتوضأ بحذر، إذ أنها لا تستطيع غسل يدها المجروحة. خرجت من الحمام متوجهة إلى السرير. أخذت البطانية وفرشتها على الأرض متجهة بها ناحية المسجد، وبدأت بصلاة الفجر بخشوع وإيمان عميق. كان قلبها يرتجف خشوعاً والدموع تترقق في عينيها وهي تردد ما حفظته من قصار السور. شعرت وهي في تهادجها وعمق صلاتها بهالة من الضوء تحيط بها، ضوء فضي يميل إلى الزرقة والاختضار يحيط بها، لكن شعاعه تجاوزها ليضيء الغرفة أيضاً. راودها شعور في أنها تتطهر من كل ذنوبها، تغتسل من آثامها وخطاياها. وخلال تلك اللحظات فكّرت بالراهبة التي باركتها. وشعرت بمعنى كلماتها: ليباركك الرب ويرشدك إلى طريق ملكوته ويمنح روحك الطمأنينة.

حينما انتهت من الصلاة انتبهت لاختفاء هالة النور. وبنشوة سامية تملأ روحها. وثمة نغاس لذيد يسري في أوصالها مع دمها. ودون أن تعيد البطانية إلى السرير ألقت بنفسها عليه ساحبة الشرشف الأبيض. غطت في نوم هادئ وعميق، تاركة ضوء المصباح الشاحب مضاءً.

آدم البغدادي: إلى أين سأمضي؟ لا أعرف. وربما لا أحد يصدق بأنني لا أعرف إلى أين سأمضي مع الراهبتين، ومع هذا الوجود غير المكاني؟ ما

الذي أريد أن أقوله من خلال ذلك؟ هل هناك طبقات للوجود المتعدد، ربما لا نرى نحن سوى واحدة منها، السطحي والشائع، والبارز للعيان؟ ما هي المسافة بين الواقع واللاواقع؟ الراهبتان موجودتان فعلاً، وقد تحدثتا مع حواء المؤمن؟ كيف يمكننا فهم هذا؟

كيف ظهر لها المسجد فوق الأفق، وسمعت الأذان، بينما لا يوجد هناك أي مسجد في تلك المنطقة؟! هل أنا آدم البغدادي أو من بالأرواح؟ لا أعتقد. لكن ما معنى ما كتبت؟ أنا ربما مثل حواء المؤمن أبحث عن نفسي دون أن أدري!

حينما انتهى آدم المحروم من قراءة الفصل وتعليق صديقه الكاتب المغدور قال لنفسه: إنني أكتشف وجهًا جديدًا لصديقي القليل. لم أكن أعرف أنه روحاني إلى هذا الحد!

أشباح وأرواح

استيقظ آدم اللبناني من نومه على رنين جرس الباب الخارجي. نظر إلى ساعته اليدوية التي كانت تشير إلى الثامنة والنصف. كان ضوء النهار يتسرب من خلال النافذة الصغيرة على سقف الغرفة المنحني. خَمَّن أنه ساعي البريد يضغط على الجرس، فليس هناك من يأتي غيره في مثل هذه الساعة من الصباح. تكاسل، مفكرًا بأنه سيضع البريد في الصندوق المخصص له. لم يكن يرغب بمواصلة النوم، فقد رقد ساعات طويلة منحت جسده شعورًا بالاكتهاء والراحة. نهض من سريره بتكاسل. لم يكن يعرف أي شيء يفعل بالضبط. هل يعد قهوته أم يذهب إلى الحمام أولاً؟ اتجه نحو إحدى زوايا الصوفا حيث كان هناك مسجل راديو وإلى جانبه بعض أشرطة الكاسيت الصوتية. أخذ شريطًا، أدخله في موضعه المخصص، وضغط على زر التشغيل فتعالى صوت فيروز:

أديش كان في ناس

عالمفرق تنظر ناس

وتشتي الدني

ويحملوا شمسية

وأنا بأيام الصحو

ما حدا نظرنني

صار لي مية سنة

مشلوحة بها الدكان
ضجرت مني الحيطان
ومستحيي تقول
وأنا عيني عالجلي
والحلي عالطرقات
غنيلو غنيات
وهو بحالو مشغول
نطرت مواعيد الأرض
وما حدا نطرنى

كان صوت فيروز يأتيه شجياً، ندياً، مترعاً بالحنين والرومانسية، ترقرت الدموع في مقلتيه، ارتعشت أعماقه، وغمره الأسى على كل هذه الانتظارات الخاسرة. توجه إلى زاوية المطبخ. وضع الماء في المغلاة، ولم ينتظر أن يغلي وإنما توجه إلى الحمام ليغتسل. بينما كان المسجل يبث أغاني فيروز من الكاسيت.

أفاقت حواء المؤمن إثر طرقات خفيفة على الباب. قبل أن تنطق شيئاً دخلت الممرضة دخلت عليها ويدها صينية الفطور. وقفت الممرضة للحظة وهي تنظر إلى البطانية المفروشة على الأرض وسط الغرفة. لم تقل شيئاً. توجهت نحوها ووضعت الصينية على الطاولة المتحركة قرب السرير، وهي تقول:

- صباح الخير أيتها الجميلة. هذا فطورك. كيف تشعرين اليوم؟ أعتقد أن عليك أن تغادري المستشفى بعد الفطور وقبل التاسعة في كل الأحوال.

لم تقل حواء المؤمن شيئاً، فالممرضة لم تقف لتسمع أي تعليق على كلامها، وإنما ابتسمت لها بتكلف وخرجت. نهضت ببطء لتستقر في وضع الجلوس بعد أن مدت ساقها من جانب السرير. سحبت الطاولة المتحركة

نحوها. أخذت كوب القهوة. ارتشفت منه رشقات سريعة. فجأة تذكرت أذان الفجر، دفعت الطاولة قليلاً ونهضت على عجل كادت على أثره تسقط ومعها صينية الفطور. رأت البطانية التي صلّت عليها. توجهت إلى النافذة بلهفة، دفعت شرائح ستارة الألمنيوم بقوة فانكشف مشهد الحديقة الصباحي الندي أمامها. ذهلت جداً حتى أن أنفاسها بدأت تضيق عليها، وأحسّت بما يشبه الاختناق وتوقف التنفس؛ إذ لم تكن هناك أي منارة أو مسجد في الأفق الذي يعلو الأشجار. كان الأفق رصاصياً مائلاً للسود، والغيوم الكثيفة تغطيه، والأشجار تحجب كل شيء خلف سور المستشفى!

تراجعت قليلاً حتى كادت تتعثر، فتشبّثت بشرائح الستارة التي انقلعت من مكانها وتهاتوت على الأرض. تراجعت وهي مليئة بالخوف من نفسها، ومرتاعة من دوي سقوط شرائح الألمنيوم، ومنذهلة مما رأت الآن في الأفق. سألت نفسها بخوف: “أين المسجد؟ وأين المنارة التي كان أذان الفجر يتعالى منها شجياً، وخاشعاً، منادياً الأرواح المظلمة والعطشى للإيمان، وملامساً تلك الأرواح الندية بالنور؟ أين كل ما رأيته عند الفجر؟ أكان كل ذلك حلمًا؟ لكن البطانية ما تزال على الأرض، هذا يعني أنني فعلاً سمعتُ أذان الفجر ورأيت منارة المسجد وأقمت صلاة الفجر! لا. إن ما يجري معي ليس طبيعياً أبداً!”

ابتعدت عن النافذة. شعرت بأن ساقها ترتجفان وأنها ستتهاوى. أسرعت إلى السرير جالسة على حافته. الحيرة تنسج خيوطها العنكبوتية على الزوايا المعتمة في أعماقها. ظلت لدقائق على تلك الحالة من التشويش والرهبة مما يجري معها.

نظرت إلى الصينية لكنها لم تواصل فطورها. فقدت شهيتها، وشعرت برغبة طاغية في مغادرة المكان، بل فكرت بأن عليها الخروج من المستشفى بأقصى السرعة. همهمت مع نفسها بأنها ستجنّ لو بقيت في هذا المستشفى ليوم آخر!

توجهت إلى الدولاب الصغير الملتصق بالحائط. فتحته آخذة ثيابها التي جاءت فيها إلى المستشفى، دخلت غرفة الحمام لتبدل ثيابها، نزع ثوب المرضى الذي ألبسوها إياه، ارتدت ثيابها على عجل وكأنها سجين عليه تبديل ثيابه والإسراع في مغادرة زنزانه. التفتت ملقية نظرة سريعة في أرجاء الغرفة، انتهت إلى أنها نسيت كتاب الأشعار المترجمة، رجعت، أخذت الكتاب، خرجت دون أن تلتفت مرة أخرى.

حين خرجت من الغرفة راودها خاطر في أن تذهب إلى قسم العناية المركزة، لتتأكد من وجوده حقاً، فلربما كل رؤيتها بعد منتصف ليلة البارحة كانت مجرد أوهام أو أحلام.

توجهت نحو الممر المتقاطع، وما إن انعطفت إلى قسم العناية المركزية الذي زارته بعد منتصف ليلة البارحة حتى جمدت في مكانها. توقفت عن السير وكأنها تحولت فجأة إلى تمثال! فالمرء الذي وجدت نفسها فيه، واعتقدت أنه قسم العناية المركزية، لم يكن هناك أي ممر، وإنما بوابة عريضة مغلقة ومكتوب عليها "المخزن".

وقفت للحظات جامدة في مكانها. فكَرَّت مع نفسها: "ربما قد أخطأت الاتجاه، فمن غير المعقول أنه لا يوجد ممر هنا. كيف يوجد هنا "المخزن" دون أن أراه أو أنتبه له؟ لكنني متأكدة من أنني كنت هنا البارحة والليلة التي قبلها؟ هل أنا مجنونة؟".

التفتت إلى العجزة الأخرى المعاكسة للبوابة لتتأكد من أنها سلكت الطريق الصحيح كما في الليلة البارحة. نعم، إنها في المكان الصحيح، وهذا ما زاد من حيرتها. لم تكن تعرف ماذا تفعل الآن؟ ولا تدري لمن تتوجه بالسؤال والاستيضاح؟ كانت في حالة صدمة كبيرة بثت الخوف في نفسها.

- اذهبي إلى مكتب الاستعلامات قبل الخروج ليسجلوا معلوماتك رجاءً.

أفاقت من ذهولها على صوت الممرضة التي كانت تطبئها يومئاً، وبدون أن تنطق بكلمة توجهت نحو جهة المصعد. كانت وهي في طريقها تنظر إلى اليمين وإلى اليسار عسى أن ترى شيئاً يؤكد بأن المكان هو قسم العناية المركزة! لا. لا جدوى، فهنا في هذا الممر لا توجد الكثير من الغرف أساساً. هنا زاوية واسعة نسبياً جمعوا فيها بعض الأسرة النقاله، وهنا بوابة المخزن العريضه. وتلك لوحة تشير لوجود مرافق للنساء والرجال. لا، «ثمة شيء غير طبيعي في هذا المستشفى»، هكذا فكرت مع نفسها. لم تنتظر المصعد، وإنما أسرع هابطة إلى الطابق الأرضي عبر الدرج الجانبي القريب من المصعد. كانت تسرع الهبوط وكأنها تهرب من شيء مخيف!

وقفت عند حاجز الاستعلامات الخشبي. سألتها الموظفة عن اسمها وعنوانها وضمانها الصحي فأخبرتها بما أرادت وأوضحت أنها لاجئة سياسية، وأن دائرة اللاجئين في البلدية هي التي تتكفل مصاريف علاجها. سجّلت الموظفة كل المعلومات اللازمة إدارياً، وطلبت منها التوقيع أسفل الاستمارة فوقعت، وقبل أن تذهب نصحتها الموظفة بأن تتبّه لنفسها، وأن لا تؤذي نفسها، فالحياء برغم مصاعبها ومشاكلها جميلة، ثم تمّنّت لها كل الخير. شكرتها هي بدورها على كلماتها الطيبة وعلى حسن الخدمة، وخرجت إلى الشارع.

عبرت الطريق مسرعة وكأنها لم تصدق أنها خرجت من ذلك الكابوس. عبرت الشارع، وحين صارت في الجهة المقابلة للمستشفى نظرت إلى المبنى نظرة غريبة، وكأنها تودع عالماً غريباً مليئاً بالأسرار والألغاز المحيرة. سألت نفسها والحيرة تغمرها: “تُرى هل ما رأيته كان حقيقة أم وهمًا؟ هل الراهبتان كانتا حقيقتين؟ بلى. لقد تحدثت بوضوح مع الراهبتين حول حقيقة وجودهما، وعن حقيقة وجود قسم العناية المركزة، وقد تأكدت

بنفسي من ذلك، فكيف اختفى كل شيء؟ كيف ظهرت المنارة والمسجد في الأفق ثم اختفى كل ذلك في الصباح؟“.

كانت غارقة في تساؤلاتها حينما جاءت الصدمة الأخرى لها، إذ لمحت، في الجهة المقابلة لها، الراهبة الشابة إيفا بيرغمان تقبل من جهة اليمين، من ناحية الشارع العام، متجهة نحو بوابة المشفى ويدها باقة من الزهور الصفراء. وقبل أن تدخل البوابة نظرت الراهبة إيفا بيرغمان إلى حواء المؤمن. ابتسمت لها ولوحت لها بباقة الزهور، رفعت حواء المؤمن يدها بصعوبة وكأنها ترفع يداً مشلولة؛ فقد كانت هي في حالة ذهول، بقيتا للحظات تنظران إلى بعضهما البعض، كانت نظرات الراهبة إيفا بيرغمان مليئة بالألغاز وكأنها كانت تقرأ ما كان يدور في أعماق تفكير حواء المؤمن! ظلت تنظر إلى حواء المؤمن نظرات ثابتة وكأنما تريد أن تقول لها: أتسكين فيّ وها أنا أمامك صباحاً؟

توجهت الراهبة إيفا بيرغمان إلى داخل المستشفى، ظلت حواء المؤمن تتابعها بنظراتها المتسائلة. دخلت الراهبة البوابة، لكن هناك بالضبط حدث شيء غريب كادت حواء المؤمن تصرخ بأعلى صوتها من الرعب عند حدوثه! فقد اختفت الراهبة إيفا بيرغمان فجأة، وكأنها لبست طاقة الإخفاء! حدث ذلك عند بوابة المستشفى بالضبط، وعند أول خطوة لها في الداخل، وكأنها ظلّت تلاشى فجأة!

“ما الذي يجري معي؟ هل أنا مجنونة؟ هل بدأت بالهلوسة؟ ألم أر الراهبة قبل لحظات ولوّحت لي بباقة الورد؟ كيف اختفت فجأة؟“. كانت حواء المؤمن خائفة من نفسها جداً، كانت تسأل نفسها: “هل جنّنت؟ هل أنا خرجت من المستشفى فعلاً أم أنني أحلم بأنني خرجت منها؟ وهل أنا في المشفى أصلاً أم أنني أحلم بأنني كنت في المستشفى، وأن خروجي منها هو امتداد لهذا الكابوس؟ أين هي الحقيقة؟ أين الوهم وأين الواقع؟ هل أنا التي

رأت المنارة حقًا؟ هل صليتُ وأنا محاطة بهالة من النور السماوي حقًا؟ وهل هذه أنا نفسي التي أقف الآن كالمنسوسة بالأرواح أمام بوابة المستشفى؟“.

مرّ على وقوفها أكثر من ربع الساعة. بعض العمال عند بوابة المستشفى اعتقدوا أنها تنتظر مجيء أحد من أهلها ليقبّلها بسيارته. كانت حواء المؤمن تائهة في أعماق روحها، تشعر برهبة وخوف لا تعرف مصدره، لم تكن تعرف إلى أين تذهب! وجدت نفسها تتجه، بدون إرادة منها، نحو الشارع الذي يقود إلى بيتها الذي لا يبعد كثيرًا عن المستشفى.

كانت تمشي كالسائر في النوم. تقودها غريزتها على الدرب نحو البيت. السماء الغاضبة بدأت تنشق عن أغصان من البرق المصحوب برعد تقشعر له الأبدان. بدأ مطر مفاجئ يهطل بغزارة. وكانت حواء المؤمن تسير دون أن تحمل مظلة أو أي شيء يقيها من البلل. بعض السابلة كانوا يلفتون إليها مستغربين هذا الهدوء في السير تحت وابل هذا المطر المدمر. كان المطر قد بللها بالكامل، لكنها ظلت تمشي وكأنها ليست من أبناء وبنات هذا العالم. لم تكن تحسّ بشيء. توقفت امرأة ألمانية بيدها مظلة، كانت على الجهة الثانية من الشارع، أشارت إليها تدعوها للانضمام إليها ما دامتا مضيان في الاتجاه نفسه، إلا أنها لم ترد على إشارات المرأة التي واصلت مشيها وعلى وجهها بعض علامات الاستياء من هؤلاء الأجانب غير المهذّبين، الذين لا يشكرون من يريد مساعدتهم، والذين يستهترون بكل شيء، بدءًا من القوانين وانتهاءً بصحتهم!

لا تدري حواء المؤمن كيف هطلت الدموع من عينيها. دموع اختلطت بالمطر الذي كان يغسل الأشجار والحيطان والشوارع والنفوس! كانت تمشي وحيدة في الشارع الفرعي الذي يقود إلى البيت، وكان المطر يهطل بشدة. كانت تمشي وحيدة في الشارع تحت وابل المطر. كانت السماء تنشق عن بروق مرعبة وتهتز الأرض من شدّة الرعد.

في المستشفى الذي يقع في الجانب الآخر من المدينة، وفي غرفة من غرف قسم العناية المركزية، أفاق آدم التائه من غفوته على صوت الرعد الذي كان يهز المستشفى، انتبه إلى الأنابيب المطاطية الملصقة بأنفه لتسمح بمرور الأوكسجين النقي لرئتيه، وإلى كيس المواد المغذية المعلق على حامل من الألومنيوم ينتصب قرب السرير إلى جانب قنينة الأوكسجين الكبيرة.

كان الأطباء قد أدخلوه إلى قسم العناية المركزية بعد أن تعرض وهو في الشارع إلى ذبحة قلبية؛ لكنه حين أفاق لم يتذكر أي شيء مما جرى له، ولا كيفية وصوله إلى المستشفى، لقد أفاق قبل ذلك، لكنه كان ضعيف القوى، يحس بتعب شديد فنام طويلاً وكأنه قد هوى في بئر مظلمة. تذكر أنه فتح عينيه ذات مرة فوجد أشباح رجل وثلاثة أشخاص آخرين، لكنه لم يذكر شيئاً بعد ذلك!

بعد لحظات من إفاقته، وبعد أن استوعب أين هو الآن. بدأ يتذكر ما جرى له شيئاً فشيئاً إلى أن اتضحت له الرؤيا. هو يتذكر الآن بوضوح أنه ذات ليلة أحس بقطرات ماء دافئ تبلل كفه. وبصعوبة شديدة التفت إلى تلك الجهة التي تبللت كفه فيها، فرأى زوجته حواء المؤمن تجلس القرفصاء عند سريره، ماسكة بيده والدمع يهطل من مآقيها. كانت تبكي بحرقة، وكأنها كانت تريد أن تغسل عارها، وتنظف الوسخ والإثم الذي اقترفته بحقه! لم يصدق ما رأت عيناه حينذاك. ربما كان يحلم؟ ربما أنه يريد منها أن تعبر عن ندمها، فتخيل هذا المشهد؟

يتذكر الآن بأنه أحسّ ليلة البارحة بوجود راهبة شابة ذات فتنة خاصة، كانت الراهبة تقف عند جانب السرير من جهة الرأس! تمسك كتاباً سميّاً من القطع الصغير بيدها. خمنَ ربما هو الكتاب المقدس!

حين فتح عينيه، حينها، ابتسمت الراهبة الشابة له ابتسامة مليئة بالحنان وبالتعاطف الإنساني والمودة. حرّك كفه فأمسكت بها برقة. شعر أنها

بلمستها لكفه منحتة سلامًا وهدوءًا روحياً كان يتعطش إليه، انسلَّ بهدوء، على إثرها، إلى مملكة النوم الغامضة.

عند ساعات الفجر الأولى أفاق، فتح عينيه بصعوبة، ليتأكد من وجود الراهبة الشابة، فرأى راهبة أخرى مسنة! كانت جالسة على كرسي قرب سريره تقرأ كتابًا. حاول أن يقول شيئًا لكن الحروف ماتت على شفتيه، أخذ ينظر إلى سقف الغرفة، وحينما رفع رأسه نحو الراهبة لم يكن هناك أحد! كان الكرسي فارغًا. فكّر حينها أنه يهلوس. وربما هو نائم أصلاً. وما جرى، وما يجري الآن إن هو إلا جزء من حلم أو هلوسات يراها!

لم يستغرق آدم التائه في مراجعة كل ما رآه في ليالي هذا المستشفى الغريب، إذ دخل عليه الطبيب المختص يتبعه ثلاثة أشخاص، طبيب شاب وطبيبة ذات شعر أسود فاحم وممرضة شقراء. تقدم الجميع منه. أخذ الطبيب المختص اللوحة التي تخصه والمتضمنة تطور حالته الصحية ونتائج تحليلاته. صمت للحظات، ثم رفع رأسه مبتسمًا وهو ينظر إليه قائلاً:

- جيد جدًا. النتائج طيبة. لقد تجاوزت مرحلة الخطر. لقد كانت ذبحة قلبية غير خطيرة، لكن عليك الحذر مرة أخرى، لا تدخين، لا شرب، يجب ممارسة الرياضة، المشي كثيرًا، الإكثار من الخضراوات. أوكي؟ ربما ستخرج غدًا صباحًا.

لم يستطع آدم التائه أن يتكلم، لكنه فهم كل ما قاله الطبيب. أومأ برأسه موافقًا. ابتسم الجميع له وخرجوا مثلما دخلوا بطريقة احتفالية.

ما إن خرجوا حتى عاد آدم لأفكاره وتدايعاته. إذن لقد أصيب بذبحة قلبية، ونُقل على أثرها إلى هذا المستشفى؟ لكن كيف حدث كل ذلك وأين؟ ومن نقله إلى المستشفى؟ وما قصة الراهبتين اللتين رآهما خلال لياليه هنا؟ كيف ظهرتَا واختفيتَا؟ ولماذا لا تأتيان إلا في الليل؟ وما معنى وجود زوجته حواء المؤمن هنا؟ لماذا كانت تبكي هكذا بحرقة؟ هل كانت تطلب الغفران

حقًا؟ لقد تذكر أنه مرر كفه على رأسها غافراً لها ما فعلته؛ إذن كان كل هذا هלוسة ورؤى؟ هو لم ولن يغفر لها أبداً، هل هو ممسوس بحيث صار لا يفرق بين الوهم والواقع؟ يبدو أن كل هذه الهلوسة والرؤى الغريبة هي بتأثير المواد المهدئة التي يتعاطاها والإبر التي تزرق في جسمه؟ هل هذا المستشفى مسكون بالأرواح كما في قصص الأفلام المرعبة؟ هل بدأ يؤمن بالهلوسات والتخاريف؟

قطعت عليه أسئلته الذاتية لنفسه دخول الممرضة الشقراء التي كانت ترافق الطبيب وهي تبتسم له وتقول:

- يبدو أنك تجاوزت الخطر، فالطبيب سمح بإخراج الأنابيب. بإمكانك أن تتنفس الآن بشكل طبيعي، كما أن هذا الكيس المغذي سيكون الأخير، سنستعيض بالحبوب والفيتامينات المقوية، والخبر الأهم إنك ستخرج غداً صباحاً.

ابتسم هو لها بدوره تاركاً إياها تنهي كل ما تريد قوله، وما إن انتهت حتى سألها:

- كم يوم مر علي في هذا المستشفى؟
- ثلاثة أيام. هذا هو اليوم الثالث.
- وكيف دخلت المستشفى؟
- كما سمعتُ، إنك تعرضت إلى ذبحة قلبية وأنت في الشارع، وكانت هناك امرأة مع ابنتها قد شاهدتاك وأنت في تلك الحال، فاتصلت المرأة بالمستشفى وجاءوا بك إلى هنا. هذا كل شيء ببساطة.
- لدي سؤال آخر لو سمحت.
- تفضل.
- هل يوجد هنا قسم للنساء؟
- هل تقصد قسم للولادة؟

- لا. أقصد عنبر خاص بالنساء.
- طبعاً لدينا عنبر للنساء الراقدات لأسباب مختلفة؛ فمنهن من تنتظر إجراء عملية، ومنهن من ترقد بعد العملية. وهناك قسم للحالات الطارئة أيضاً.
- هل توجد هنا امرأة أجنبية، عراقية، اسمها حواء المؤمن لديكم؟
- لا أدري. سأسأل. هل هي قريبتك؟
- نعم.
- سأسأل عنها وأخبرك.
- شكرًا.
- لماذا تشكرني؟ أنا لم أسأل عنها بعد.
- بينما كانا يتحادثان أنهت الممرضة عملها. أغلقت قنينة الأوكسجين بعد أن رفعت اللاصق عن الأنابيب وسحبتهما من أنفه، فتحرر وجهه منها. وقبل أن تخرج سألهما:
- رجاء. لدي سؤال آخر.
- تفضل.
- قالت ذلك وهي تبسم له وكل ظنهما أنه معجب بها ويريد أن يطيل الحوار معها، فقال سائلاً:
- هل توجد راهبات في هذا المستشفى؟
- راهبات؟ قالت ذلك باستنكار.
- نعم راهبات.
- من أين جاءت هذه الفكرة؟
- لقد رأيت راهبة شابة وأخرى مسنة في هذه الغرفة.
- يبدو أنك كنت تحلم؛ فلا توجد أي راهبات لدينا. لكن يبدو أن الحالة النفسية لبعض المرضى تجعلهم يرون أشياء غير موجودة. لقد سمعت من

بعض المرضى نفس الشيء بأنهم رأوا راهبات يتجولن ليلاً في المستشفى. اطمئن لا راهبات هنا. هذا ليس مستشفى للراهبات. وليس تابعاً لأي كنيسة. قالت ذلك وخرجت.

بحث آدم التائه مع نفسه عن تفسير منطقي وعلمي مفكراً: “ربما هي الشزوفرينيا، أو ازدواج الشخصية كما تسمى أحياناً؟ ربما هي هلوسات بتأثير العقاقير التي تحوي نسبة من المواد المخدرة كما قالت الممرضة؟ ربما هي تجسيدات اللاوعي والعقل الباطن تظهر في لحظات غياب الوعي؟ لكن لماذا أستحضر الراهبات فأنا لست مسيحياً؟ صحيح أنني لم أتحدث مع الراهبتين لكنني متأكد من رؤيتي لهما“. تذكر، وهو في تلك اللحظة، قصة “الراهب الأسود“ لأنطون تشيخوف؛ حيث قابل البطل راهباً يرتدي اللباس الأسود، وكان يناقشه في كل شيء، ويتدخل في كل أمور حياته، وكان بطل القصة هو الوحيد الذي يراه رؤية مجسدة بينما هذا الراهب غير موجود بالنسبة للآخرين! فكّر آدم التائه مع نفسه: “لكن رؤية تشيخوف للراهب الأسود طبيعية إذ أنها تجسد بطريقة لا إرادية نزعته المسيحية! بينما أنا مسلم، وربما يفترض عليّ أن أرى أئمة أو أولياء أو شيوخ ربانيين، وليس راهبات، ثم لماذا رأى راهبات وليس رهبانا؟“.

استمر آدم التائه يحلل ما رأى ويبحث عن تفسير منطقي لذلك. فكّر مع نفسه: “إن في تاريخ الأدب العالمي الكثير من الشواهد على رؤية الأرواح والأشباح، ففي هاملت لشكسبير يظهر شبح روح الأب الملك القاتل لابنه هاملت طالباً منه أن ينتقم من عمه القاتل، وفي الكوميديا الإلهية لدانتى أيضاً، فإن روح الشاعر الروماني فرجيل هي التي تقود دانتى إلى الجحيم، فالمطهر، لكن تلك الأرواح كانت معروفة لأصحابها، وكانت تقودهم إلى كشوفات الحقيقة، فلماذا أرى أنا تلك الراهبتين؟ وإلى أي حقيقة ستقوداني؟“.

فجأة، انتبه آدم التائه. تذكر أن وجه الراهبة الشابة كان يشبه وجه إحدى الراهبات اللاتي شاهدتهن في فيلم (حكايات كونتربري) للمخرج الإيطالي

بازوليني، المأخوذ عن رواية لبوكاشيو؛ إنه يسترجع الآن تلك المشاهد. لا. ربما ليس هي بالضبط. ربما هي تشبه وجه ممثلة هوليدية أخرى مثلت دور راهبة تطب الجرحى أيام الحرب العالمية الثانية، أو تلك الراهبة التي رأى صورتها في بعض المجلات الجنسية وفي أوضاع جنسية فاضحة! ما هذا الذي يفكر فيه؟ هل هو يريد تلويث المقدس؟ أم يريد تقديس الجسدي والشهواني؟ وهل كل هذا إلا رغباته النفسية والجنسية الدفينة في تلافيف لا وعيه وعقله الباطن، أم أنها حقيقة واقعة رغم نفي الممرضة الشقراء لوجود راهبات في هذا المستشفى؟ عليه أن ينتظر هذه الليلة أيضًا ليتأكد من ذلك.

كان آدم التائه في حالة أشبه بالحمى وهو مستغرق في تحليل نفسه، حينما أطل عليه وجه الممرضة الشقراء باسمًا، وهي تفتح الباب إلى النصف، قائلة له: - لقد سألت في مكتب الاستعلامات وفي العنبر المخصص للنساء، وتأكدت أنه لا توجد أي امرأة بالاسم الذي ذكرت، بل لا توجد أي امرأة أجنبية في المشفى بتاتًا.

قالت ذلك وأغلقت الباب خلفها، بينما أحس هو وكأن هناك مَنْ سكب على رأسه جردلاً من الماء المثلج. إنه مجنون بلا شك!

فجأة، اهتزت الغرفة والمستشفى من انفجارات السماء المرعبة. كان صوت البرق والرعد يبعث الخوف والرهبة في النفس البشرية التي تشعر بالضعف والضآلة أمام قوى الطبيعة الجبارة. شعر وكأنه معزول عن العالم، فهو هنا روح تائهة في غرفة شاحبة في مكان غامض. لم يكن على يقين من القصة التي روتها له الممرضة الشقراء عن ذبحته الصدرية، ومصادفة وجود امرأة مع ابنتها هناك، التي قامت بالإبلاغ عن حالته، لكنه أيضًا لم يكن يستطيع أن ينفي احتمال حصول هذا الأمر بالكامل! في كل الأحوال هو الآن في مكان غامض مليء بالألغاز، مكان مسكون بالأرواح.

وهو على تلك الحالة من التوتر برقت في ذهنه أحداث مرت به في الواقع قبل أن يجد نفسه في هذه الغرفة. لقد تذكر أنه كان في المكتب السياحي

لشراء بطاقة السفر إلى الإمارات من أجل إجراء مقابلة لغرض العمل في إحدى جامعاتها. تذكر وجه الموظفة الألمانية الشقراء والتي اتفق معها أن يأتيا في اليوم التالي من أجل الاتصال بقنصلية دولة الإمارات في بون. لكن يبدو أنه غير محظوظ بالكامل، فما إن وجد من يساعده حتى وجد نفسه عالقاً في هذا المستشفى. لكنه لن يغادر هذا المكان إذا لم يكشف سرّ هذين اللغزين؛ سر وجود الراهبتين وسر وجود حواء المؤمن في غرفته. فجأة، وكأنما أزيلت ستارة عن خشبة المسرح لتكشف عن المشهد. تذكر أن الراهبة الشابة التي رآها فجراً في غرفته تشبه إلى حد كبير الموظفة الألمانية التي كانت في المكتب السياحي، إيفا بيرغمان! لكن كيف؟ سأل نفسه.

بالرغم من أن آدم التائه بدا مع نفسه مصراً على فكّ مغاليق هذه الأسرار الغامضة، إلا أنه شعر برهبة تسري منتشرة كضباب الفجر في صحراء روحه. فكر مع نفسه ربما هو ميت الآن! وأنه الآن يعيش وقائع ما بعد الموت، لكن أهذا هو الموت حقاً؟

آدم البغدادي: لماذا أحاول التعليق على هذا الفصل؟ أهى محاولة لخلخلة تفاعل القارئ مع الفصل بشكل كامل، أم أنني فعلاً أحتاج للتعليق من أجل نفسي؟

سأل آدم المحروم نفسه: “ما الذي يريد أن يقوله صديقي المغدور آدم البغدادي خلال هذا التداخل بين الواقع واللا واقع؟ هل رأت حواء المؤمن الراهبتين حقاً؟ وكيف كانت تجد نفسها في قسم العناية المركزية، بينما هذا القسم غير موجود في المستشفى الذي كانت ترقد فيه. وإنما في مستشفى آخر؟ بل وكيف اختفت الراهبة الشابة لحظة عبورها بوابة المستشفى؟ وكيف أنها رأت زوجها وكانت عنده في غرفة العناية المركزية، بينما آدم

اللبناني أكدّ لها، بأن هذا المستشفى لا يوجد فيه أي أجنبي سواها؟ ثم كيف رأى آدم التائه الرؤيا نفسها وهو في مكان آخر؟ رأى الراهبتين، الشابة والمسنّة في غرفته! فكيف تكونان في مكانين مختلفين في الوقت نفسه؟ كيف يمكن للأحداث والأمكنة أن تكون هنا وتكون هناك في الوقت نفسه؟ ما معنى كل هذا التداخل؟ ما الذي يريد صديقي آدم البغدادي أن يقوله من خلال هذه التفاصيل الغرائبية؟ من أين أتى بهذه التفاصيل؟ هل كان يؤمن بالأرواح حقاً، أقصد عالم الأرواح الحية التي تعيش بيننا لكننا لا نراها؟ هذا واضح، وإلاّ ما الذي يدفعه للتوغل في هذا العالم الغريب والمخيف؟ أحداث أشبه بفيلم رعب. لكن الغريب أن الأرواح هنا طاهرة، حنونة، جميلة، حاضرة للمواساة، ليس لها سوى منح السلام النفسي للمرضى، على عكس الأرواح في أفلام الرعب، التي تكون عادة أرواح شريرة، كريهة، مرعبة، مؤذية للإنسان، وتحول حياته إلى جحيم. على أي حال يجب أن أواصل القراءة فربما سيكشف عن سر هاتين الراهبتين، وسر هذا التداخل في الزمان والمكان.

الأوغاد

بينما كان آدم المحروم يحاول أخذ رزمة الأوراق ثانية من المخطوطة ليواصل القراءة، انتبه إلى أن باب الغرفة المجاورة قد فُتح. وسمع همهمات لم يتبين ملامح الجمل فيها. خَمَّن أن هناك من دخل على المرأة التي في الغرفة المجاورة. استيقظ نصف استيقاظاً على السرير، إذ كان يفكر مع نفسه: هل يواصل القراءة أم يقوم ليتنصت للحوار في الغرفة المجاورة، ويرى من ثقب الباب ما يدور هناك؟ ويبدو أن فضوله بمعرفة ما يجري في الغرفة المجاورة كان أقوى من رغبته بمواصلة القراءة، لذا نهض ببطء شيئاً فشيئاً، مقترباً بهدوء من الباب الفاصل بين الغرفتين، جاثياً على ركبتيه هناك، لاصقاً إحدى عينيه على فتحة الباب التي بينهما.

رأى ثلاثة من الرجال الشبان في أواسط العشرين من العمر يحيطون بالمرأة التي بدت مرتبكة لكنها تحاول أن تخفي ارتباكها من خلال المبالغة في استقبالهم وتبيان فرحتها بمجيئهم. جلس الرجال الثلاثة متوزعين على السرير والكراسي. جلست هي إلى جانب أحدهم على السرير وجلس اثنان بالمقابل منهما على كرسيين خشبيين. بدت هي مرتبكة وخائفة. قال أحدهم لها وكأنه يرأس المجموعة:

- اسمعيني. الحججي دكتور آدم الربيع والحججي دكتور آدم أبو الهلس يسلمان عليك، وقد أوصيانني بالحرف الواحد: قل لحواء شمعون إن الحججي دكتور آدم ربيع والحججي دكتور آدم أبو الهلس يقولان لك: لا تخافي. نحن معك، وسنرجعك إلى العمل، بل وسنكافئك مكافأة طيبة. ما عليك إلا أن

تحضري عند اللجنة النيابة المشكلة في مجلس النواب لتدلي بشهادتك مدعية بأن المدير العام قد تحرش بك. لا تخافي، سنكون هناك، وبل ستأتي معك حواء الوهابي أيضًا، وقد أقنعناها أيضًا بالشهادة ضده. وها نحن نرسل لك من جيوبنا خمسين ألف دينار كعربون.

ارتبكت المرأة، التي عرف آدم المحروم للتو أن اسمها حواء شمعون. فكر مع نفسه: «هذا يعني أنها مسيحية، وأنها ليست قادمة من المحافظات لتتابع معاملة تقاعد كما ادّعت لفتى الفندق، وإنما هي موظفة في هيئة حكومية، وهي هنا للتنسيق معها كي تشارك في مؤامرة ضد شخص ما يبدو في منصب رفيع في إدارة الدائرة التي تعمل فيها». قطع عليه تفكيره صوتها، فها هو يسمعها تقول بتردد:

- أنا خائفة، لأن فتيات المكتب ربما سيشهدن ضدي وهن يعرفن أن هذا غير صحيح. ففي مكتبه أربعة موظفين؛ ثلاث نساء ورجل. وهم يدخلون عليه كل خمس دقائق. كما أنهم أجمل مني بكثير، فكيف ادّعي ذلك؟ أنا خائفة! ابتسم الذي يجلس جنبها وهو يحضنها قائلاً:

- أنت تخافين يا حواء يا بنت شمعون؟ ألم تخافي حينما كنت تذهبين إلى بيوت المستشارين في هيئة أمناء المؤسسة الذين ناكك اثنان منهم مقابل خمسة وعشرين ألف دينار لكل منهما؟ ألم تخافي حينما ناكك صديقنا آدم المسافر، وفي غرفة أبو الهلس نفسها، حينما كان الآخر في اجتماع مع الدكتور الحججي آدم الربيع؟ فكيف تخافين أن تقولي كلامًا بسيطًا كهذا الذي نطلبه منك؟ نحن نعرف أنك قحبة رخيصة. أما فيما يخص موظفات مكتب المدير العام فلا تخافي، لأن الحاج آدم ربيع سينقلهن إلى أقسام أخرى، وسيهدهن بالفصل أو التشهير أيضًا، ونجد لهن ألف مصيبة ومصيبة، بحيث نوصلهن إلى حال تحاول كل منهن أن تنفذ بجلدها. لا تخافي.

ارتبكت حواء شمعون أكثر حينما أدركت بأنهم يعرفون عنها الكثير، وقالت:

- ربما سيقوم المدير العام بتقديم بلاغ عني بأني أكذب.
ضحك الرجال الثلاثة معًا، وقال أحد الجالسين على كرسي أمامها، وهو يمد يده إلى ساقها مداعبًا:

- لا تخافي. هذا المدير من أهل الله. ليس وراءه أي حزب أو كتلة سياسية في البرلمان والحكومة، لذلك لا أحد سيدافع عنه. كما أنه علماني ملحد، بل حتى الجهة الكوردية التي ساندته في استلام هذا المنصب هم الآن أكثر أعدائه لأنه لم ينفذ لهم ما طلبوه منه.

- لا أدري. أنا محتارة. لكن هل سيصدقوني في اللجنة النيابية؟ قالت الفتاة بخوف وتردد.

- لا تخافي من اللجنة النيابية، فالحجي دكتور آدم الربيع والحجي آدم أبو الهلس قد اتفقا مع عدد من أعضاء اللجنة التابعين لحزبنا ولبعض الكتل السياسية الأخرى بتقديم تسهيلات لشركات تابعة للكتل السياسية التي ينتمي إليها بعض أعضاء اللجنة، كما أن هناك مستشارة كوردية في مجلس الوزراء تساعدهم في حرق أوراق المدير أمام رئاسة الوزراء لأنها تعتقد أنها أحق بهذا المنصب منه. الأمور مخطط لها بشكل لا يقبل الشك. لا تخافي. المهم إزاحة المدير.

دفعها الذي يجلس إلى جانبها ملقيًا بها على السرير وغامرًا وجهها بالقبّل ومداعبًا صدرها بيده، بينما رفع أحد الجالسين على الكرسي ثوبها إلى سرتها فكشف عن فخذيهя ولباسها الداخلي الأسود. وقام الآخر بسحبها نازعًا إياه. روفاتحًا أزارار بنطاله ساحبًا إياه إلى الأسفل، ملقيًا بنفسه عليها، مولجًا قضيبه فيها. بينما كان الثالث يصور المشهد بكاميرا الموبايل.

في هذه اللحظة بالذات سمع آدم المحروم طرّفًا على باب غرفته. قفز من مكانه وعاد للجلوس على السرير، وكأنه كان يقترف جرماً. انتظر للحظات ثم توجه فاتحًا الباب. كان الفتى القروي يقف أمام الباب مبتسمًا. نظر آدم المحروم إلى الفتى الواقف أمامه نظرة تساؤل، فما كان من الفتى إلا أن قال مرتبكًا:

- عفواً أستاذ، عرفت عندك ضيوف فأحببت أن أخدمهم. هل يودون أن يشربوا شيئاً؟

أثار ما قاله الفتى القروي استغراب آدم المحروم فسأل:

- أي ضيوف؟

- ارتبك الفتى من جواب آدم المحروم، فقال موضحاً:

- لقد صعد ثلاثة شبان قبل قليل، ظننتهم جاءوا إليك.

- ألم تسألوهم في الاستعلامات عن هوياتهم، ولمن يريدون الصعود؟

- لا. صاحب الفندق خرج لنصف ساعة يقضي بعض أشغاله، وأنا لم أسألهم. ظننتهم جاءوا إليك.

- لا، ليس لدي أي ضيف.

ارتبك الفتى القروي، وتساءل:

- إلى أين يمكن قد ذهبوا؟

أراد آدم المحروم أن يقول له إنهم في الغرفة المجاورة، لكنه استدرك ذلك، فلربما سيستفسر الفتى منه عن مصدر معرفته بذلك، فنفى معرفته بأي شيء قائلاً:

- لا أعرف بالضبط، هذا عملكم أنتم، ثم كيف تسمعون، والبلد يعيش كل هذا التوتر، لكل من هبّ ودبّ أن يدخل الفندق دون أن تسألوه عن هويته؟ أو عن النزيل الذي يريد زيارته؟ ألا يفترض بكم أن تطلبوا منهم الجلوس في اللوبي ثم تنادون على النزيل المعني؟

ارتبك الفتى القروي من كلام آدم المحروم ونبرة صوته الحازمة، فأدرك خطأه، إذ أحس أن مدير الفندق لو كان موجوداً لطلب منهم هويات تثبت شخصياتهم، فقال بتوسل:

- أرجوك أستاذ لا تقل أي شيء لمدير الفندق. هذه غلطتي. سأحاول أن أطرق الأبواب جميعها إلى أن أجدهم. أرجوك أستاذ.

لم يقل آدم المحروم شيئاً. نظر للحظات في وجه الفتى القروي الذي شحب وتعرّق جبينه من أثر كلمات التوبيخ التي سمعها، وأغلق الباب في وجهه، ثم أقفل عليها بالمفتاح.

لم يشعر آدم المحروم بالارتياح من حديث الفتى القروي، إذ أحس بأن ثمة تسيباً وعدم انضباط وتساهلاً قد يشكل في لحظات ما خطراً على سلامة نزلاء الفندق، وهو من ضمنهم؛ فهؤلاء الشباب الثلاثة في الغرفة المجاورة، جاءوا لهذه المرأة المسيحية التي يبدو أنها تعمل في هيئة بالدولة، وهم يقنعونها بالشهادة ضد مديرها العام لمصلحة شخصيات متنفذة أخرى، وقد ضاجعوها في الغرفة وقاموا بتصويرها أيضاً، ليمكنهم الضغط عليها من خلال تهديدها بنشر ما تم تصويره بالموبايل. وماذا لو كانوا يستهدفون شخصاً ما لغرض اغتياله؟ ألم يكن من السهل اغتياله والخروج دون أن يعلم أحد؟

راودت آدم المحروم عشرات الأمثلة والتصورات التي أحس على أثرها بانقباض شديد في نفسه، حتى أنه لم يجد الرغبة في نفسه لمتابعة ما يجري في الغرفة المجاورة من أفعال.

استلقى على السرير. تناهى إلى سمعه طرقات الفتى القروي على باب آخر، لكنه ليس باب حواء شمعون، وإنما على باب في الاتجاه المعاكس. ظل صامتاً، متضيقاً من نفسه للحظات، ولم يجد خلاصاً من حالته النفسية تلك إلا بأن يستمر في القراءة. أخذ رزمة الأوراق وواصل القراءة في رواية (متاهة حواء وادي الظلمات).

خيط النمل

دخلت حواء المؤمن البناية التي تسكن فيها. لم تقابل أحدًا من الجيران، فالأمطار الغزيرة لم تترك أحدًا في الشارع. لذا صعدت الدرج الخشبي بهدوء. حين وصلت إلى الطابق الذي فيه شقتها وشقة آدم اللباني، قررت، دون أن تعرف لماذا. وكيف. أن تدخل شقتها التي كانت تتقاسمها مع زوجها الدكتور آدم التائه.

فتحت الباب بهدوء ودخلت. لم تفكر إن كان زوجها في البيت أم لا، إذ كانت على يقين بأنه ليس في البيت، وأنها رأتَه بطريقة ما في المشفى، وأغلقت الباب خلفها.

في غرفته انتبه آدم اللباني لوقع خطوات على السلم الخشبي. لم يشأ أن يفتح الباب إذ خمن أنه سيقابل جاره آدم التائه، وهو لا يعرف بالضبط كيف سيكون هذا اللقاء! فكّر مع نفسه: لو أن الصاعد على السلم هي حواء المؤمن فأنها ستدخل إلى شقتي بلا شك، لذا عليّ أن أنتظر“. بعد لحظات صار لديه يقين بأن الذي صعد الدرج هو جاره آدم التائه لأنه فتح باب الشقة المقابلة ودخلها. تذكر ما جرى، ف شعر بشيء من الإحراج والضييق النفسي. فهو يكن الاحترام لجاره آدم التائه، ولا يدري كيف ستكون ردود أفعاله على ما جرى إذا ما تقابلا! قام إلى باب غرفته ووضع رأسه متنعّصًا لأي حركة تصدر من الشقة المقابلة التي تبعد بابها من بابه مسافة أقل من متر.

فجأة، سمع وقع خطوات تصعد السلم الخشبي بهدوء وبطء. ظل واقفًا ينتصت. وصل صوت الخطوات إلى المنطقة التي تفصل بين البابين. حبس

أنفاسه فلربما هذه الخطوات لحواء المؤمن. سمع صوت الجرس يأتي من الشقة المقابلة. إذن، فالصاعد يريد الشقة المقابلة، لكن مَنْ هو يا تُرى؟

استمر صوت الجرس في الشقة المقابلة لكن لا أحد يفتح! استغرب من عدم فتح جاره آدم التائه للباب، ظناً منه بأنه هو الذي دخل الشقة قبل فترة قليلة. فكّر مع نفسه ربما أقدم جاره على الانتحار أو حدث له شيء وإلا ما سبب عدم فتحه للباب؟ فتح الباب بشكل موارب ليرى مَنْ يضغط على جرس الشقة، فرأى جارتهم اللبنانية تقف عند الباب. فتح هو بابها على مصراعيه فالتفت نحوه قائلة وكأنها تبرر سبب وجودها:

- سلام يا جار. أردت أن أسلم على أختنا العراقية، وأسأل عن صحتها، لكنها لا تفتح الباب.

صار هو عند عتبة بابها وقال مستغرباً كلام المرأة:

- هي في المستشفى كما أعتقد.

نظرت الجارة إليه باستغراب، ثم قالت مؤكدة:

- لا. لقد خرجت. أنا شاهدها تدخل البناية قبل قليل. شاهدها بنفسي وهي تصعد الدرج. أريد أن أطمئن عليها فهذا واجب وحق للجار على الجار.

غمر الفرح الخفي آدم اللبناني واجتاحته مشاعر متضاربة وغامضة، لكنه كتم ما يشعر به وقال:

- ولو يا جارة. هذا حق. أنا سمعت مَنْ يصعد الدرج ويدخل الدار لكنني ظننت أنه زوجها.

- لا. مسكين زوجها الدكتور آدم. لقد أصابته ذبحة قلبية وهو في الشارع ونقلوه إلى المستشفى. ابني كان ماراً في الطريق وشاهد سيارة الإسعاف وهو تنقله. قالت الجارة ذلك بشفقة واضحة.

استغرب آدم اللبناني ذلك فسأل بتعجب:

- متى كان ذلك؟

- قبل ثلاثة أيام.
- وإلى أي مستشفى نقلوه؟
- لا أعرف. لكن ابني سمع أنهم ينقلونه إلى قسم العناية المركزة.
- العناية المركزة؟ سأل آدم اللبناني بدهشة.
- أعتقد.

استمرت الجارة في ضغطها على جرس الباب، لكن حواء المؤمن لم تفتح. ظنت الجارة أنها نائمة فقالت لآدم اللبناني:

- يبدو أنها نامت مباشرة. لا نزعجها. سوف أزورها مرة أخرى.

قالت ذلك وأخذت تهبط الدرج بهدوء وببطء كما صعدت. بقي آدم اللبناني واقفاً عن عتبة بابه مرتبكاً من سيل هذه المعلومات المفاجئة. دخل شقيقه وأغلق الباب. أراد أن يرتب أفكاره ويفهم ما يجري قبل أن يرى حواء المؤمن. جلس على الكرسي حول طاولته الصغيرة. لم يفعل أي شيء. كان ساكناً لكن أمواجاً من الأسئلة الغامضة كانت تتلاطم في رأسه: «لماذا لم تأت إليّ بل ذهبت إلى شقيقتها التي كانت تتجنب الدخول إليها لخوفها من مواجهة زوجها؟ لماذا لم تفتح الباب للجارة؟ ماذا يعني كل هذا؟ هل زعلت مني لأنني لم أذهب إلى المستشفى صباحاً من أجل إخراجها من هناك؟ ما الذي يجري؟ أنا لا أفهم ذلك، لكن لا بد من رؤيتها، لا بد من الحديث معها كي توضح له ما يجري!

لم ينتبه آدم اللبناني للوقت الذي استغرقه وهو جالس هناك باحثاً عن الأجوبة. فجأة، اجتاحتها رغبة عارمة في رؤية حواء المؤمن والحديث معها وتوضيح كل شيء. قرر فوراً أن يذهب إليها، نهض من مكانه وغادر شقيقته.

حين وقف أمام باب شقيقتها أحس بالارتباك والتردد. وأخيراً ضغط على زر الجرس. لم يفتح أحد له الباب، ضغط على زر الجرس ثانية ولمدة أطول بكثير من المرة الأولى، لكن دون جدوى فلم تفتح له. ازداد ارتباكاً حينما

وجد نفسه مرفوضاً ولا أحد يفتح له، بالرغم من إدراكه بأنه غير مقصود بالرفض، فحواء المؤمن لا تعرف من كان يضغط على الجرس! أحس بالحرج والارتباك وغضب خفي يتصاعد في نفسه، ولم يكن أمامه سوى أن يدخل شقته ويغلق الباب.

كانت حواء المؤمن مستلقية على سريرها في غرفة النوم. لم تكن نائمة، بل كانت تنظر إلى نقطة ما على الجدار. نقطة خارج الزمان والمكان، لكن رأسها كان فارغاً وخالياً من أي فكرة. كانت وكأنها تنظر في الفراغ، في اللا شيء. كانت تسمع الجرس يرن وفي الوقت نفسه لا تسمعه، وكأنه يأتي من مكان آخر، مكان بعيد بعيد. لم ينبهها صوت جرس الباب المتكرر إلى أي شيء. ظلت تنظر إلى نقطة على الجدار، إلى نقطة في الفراغ. كانت وكأنها عاجزة عن التفكير. كانت منقطعة عن هذا العالم، وكأنها خارج الزمان والمكان. ظلت على تلك الحال إلى أن زحفت العتمة على الغرفة.

بعد ساعات طوال نهضت من السرير بثقل. كانت الغرفة غارقة في العتمة. قامت ببطء واتجهت إلى قرب باب الغرفة فضغطت على زر التيار الكهربائي فأضاءت الغرفة. خرجت من غرفة النوم، وجدت نفسها في المطبخ، ضغطت على زر الكهرباء هناك أيضاً. فتحت الثلاجة وأخرجت قنينة من الماء وأخذت تشرب منها مباشرة. تناثر الماء البارد على وجهها. حين ارتوت لم تترك قنينة الماء وإنما أخذت تسكب الماء منها على وجهها وجيدها. شعرت بالانتعاش، وكأنها صحت على ما يدور حولها. وضعت القنينة الفارغة على سطح الثلاجة وذهبت نحو باب المطبخ الذي يفضي إلى غرفة الاستقبال والباب الخارجي. رجعت إلى المطبخ فأخرجت عدة إعداد الشاي. أخذت دورق غلي الماء وملأته من الحنفية بالماء. أشعلت الطباخ ووضعت الدورق عليه، ثم وضعت شيئاً من أوراق الشاي في دورق آخر أصغر من الأول. ظلت

واقفة لدقائق وهي تنظر إلى الماء وهو يغلي في الدورق. وبحركة آلية أخذت الدورق وسكبت الماء في الدورق الآخر، ثم أخذت دورق الشاي ووضعتة على عين الطباخ الملتهبة. قللت من درجة توهجه وبقيت تنظر إلى أوراق الشاي وهي تنقع في الماء وتخرج منها مادة بيضاء ثم يتصاعد الشاي بفعل غليان الماء. رفعت الدورق إلى الأعلى حينما بدأ الشاي يغلي في الدورق وكاد ينسكب منه. وضعته ثانية فغلى مرة أخرى لكنها لم تستطع تجنب غليان الشاي وتصاعده فوق فوهة الدورق وسيلانه على جوانبه.

كانت حواء المؤمن أشبه بطفل يتسلى. أعجبها غليان الماء وارتفاع أوراق الشاي إلى حافة الدورق وتمكنها من رفع الدورق عن عين اللهب لئلا يخرج حروجه من الدورق. كانت تلعب مع الماء المغلي، مع أوراق الشاي المنقوعة بالماء المغلي، مع اللهب الذي يُغلي الماء ويدفع بالشاي للاندفاع خارج الدورق. ظلت على هذه الحال لفترة قليلة. لكن رائحة الشاي العبقة دفعها لإنهاء لعبتها. سكبت الشاي لنفسها في كوب كبير. حملت الكوب متجهة إلى غرفة الاستقبال. وما إن دخلت إليها حتى أضاءت الغرفة وجلست على الكرسي حول الطاولة، والذي كان مخصصاً لزوجها حينما كان يجلس للكتابة.

كانت تشعر بهدوء غريب. وكانت واثقة من أن زوجها لن يأتي، بل كانت تشعر بالأمان وعدم الخوف حتى لو أتى. إنها تعرف أنه إنسان طيب ولا يؤذي أحداً، وهو لن يؤذيها لأن في داخله مساحات شاسعة من الرحمة. لقد تأكدت من ذلك حينما قرأت روايته (متاهة آدم أو المرأة المجهولة). نعم. نعم. كما أنه قد سامحها. إنها تعرف ذلك. لقد كانت عنده في غرفته بقسم العناية المركزة فقد مسد شعرها حينما بكت على كفه!

فجأة. أحست وكأن هناك من صفعها بقوة. جحظت عيناها وتوتر وجهها قلقاً. لقد انتبهت إلى أنه لا يوجد قسم للعناية المركزة في المستشفى. لقد تأكدت من ذلك حينما خرجت، فكيف كانت عنده؟ هل هي تحلم أو تهلوس أو

تحاول إقناع نفسها؟ ارتبكت. وضعت كوب الشاي الذي كانت قد ارتشفت منه رشقات عدة على الطاولة. نهضت من مكانها. لم تكن تعرف ماذا تفعل. فجأة؛ وكأنها قفزت إلى مكان آخر يشبه مكانها الذي هي فيه. أحسّت وكأنها ليست هي. ثمّة خدر في كيانها. وكلّمح البرق تذكرت وجود آدم اللبناني. راودتها مشاعر متضاربة؛ خليط من مشاعر الحقد والرغبة والخوف واللامبالاة.

هي لا تريد أن تكون لديها أي علاقة به، لكنها في الوقت نفسه لا تستطيع الفكّك منه. تريد أن ترجع لحياتها مع زوجها الدكتور آدم التائه لكن في الوقت نفسه تدرك أن حياتها معه قد انتهت وبشكل مأساوي. تشعر بالحب تجاه زوجها السابق، حب لم تعرفه من قبل، وفي الوقت نفسه، تحس بالذنب تجاهه، وتريد أن تهرب من ذنبها، وعارها، ومن نفسها، وتنسى أي علاقة لها به. أن تعاقب نفسها من خلال الابتعاد عنه والانحدار إلى القاع مع آدم اللبناني.

لا تدري كيف اندفعت إلى غرفة النوم. إنها تبحث عن شيء ما. ألقت بنفسها على السرير، استيقظت في أعماقها رغبة أن ترى الجني الأزرق الذي قابلته سابقاً في هذه الغرفة. ظلت مستلقية على السرير منتظرة أن يخرج الجني الأزرق. اجتاحتها رغبة لرؤيته. هي تحتاجه في هذه اللحظة. لكنّ الغرفة فارغة ولا أثر للجني. ظلّت على هذه الحال لنصف ساعة وهي تنتظر، وحينما تسرب اليأس إلى أعماقها نهضت ببطء واتجهت إلى حقيبتها التي كانت قد وضعت فيها ملابسها قبل أن تقدم على الانتحار.

فتحت الحقيبة وفتشت بين قطع الثياب. أخرجت نسخة القرآن التي حصلت عليها من المرأة المحجبة في الأردن. نهضت من مكانها وجاءت لتجلس على السرير. قبلت القرآن ورفعته إلى جبينها وعينها. وبهدوء فتحت الكتاب فكانت سورة الزمر، وقرأت: (إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّٰ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ) (٤١). لم تقرأ أكثر من هذه الآية، وكأنما كانت تستخير بالقرآن.

أغلقت القرآن وقبّلته بخشوع ثم وضعته تحت الوسادة. ظلت لفترة طويلة جالسة في موضعها على السرير. لم تكن تفكر في شيء محدد، بل ولم تكن تشعر بشيء محدد، لا بالجوع ولا بالعطش، لا بالحزن ولا بالفرح، لا بالقلق ولا بالسكينة، لا بالنعاس ولا باليقظة. كانت وكأنها غير موجودة. ثمّة فراغ وضجر هائل يكتنفان جسدها وروحها.

تمددت على السرير وهي في موضعها على حافته. كانت مستلقية على جنبها الأيمن. نظرت إلى الجدار المقابل لها والمغطى بورق زهري اللون مزين برسومات ورود بيض. فكّرت أنها لم تشاهد في الواقع أي وردة بيضاء وإنما في الأفلام فقط. انتهت إلى خيط من النمل أسفل الحائط يسير بانتظام نحو المطبخ. وكان هناك خيط من النمل قادم من المطبخ أيضًا. حدّقت في نملة كانت تحمل حبة صغيرة من السكر. كانت الحبة تسقط منها فتعود لتحملها. اقتربت نملة من النملة صاحبة حبة السكر ثم ابتعدت عنها. ظلت تتابع حركة النمل المنتظمة إلى أن اختفت مسيرة النمل من الجهتين. فجأة، انتبهت لصوت جرس الباب. لم تكن لديها أي رغبة في أن تتحرك من مكانها، إلّا أن استمرار رنين الجرس المزعج دفعها للقيام بشكل آلي، دونما أي أفكار أو مشاعر حول الطارق، متوجهة لفتح الباب.

حين فتحت الباب كان وجه آدم اللبناني أمامها. ظلت للحظات تنظر إليه دون أن تعرفه مباشرة. استغرب من نظراتها الفارغة وجمود ملامحها. ظل ينظر إليها وكأنه يتوسل أي إشارة ترحيب على وجهها، إلّا أن وجهها ظل فارغًا من أي مشاعر! بعد لحظات انتبهت إليه وعرفته. شعرت برجفة مسّت أعماقها، وتسربت نظرة حزينة، لكنها لينة ومتعاطفة، إلى وجهها الجميل. استغل آدم اللبناني هذه النظرة ففتح الباب ودخل عليها غالقًا الباب بظهره، وهو يضمها إلى صدره قائلاً:

- ألف الحمد لله على سلامتك. لم أعرف أنك هنا إلا من جارتنا التي في الطابق الأول.

لم تمنع حواء المؤمن بضمها إلى صدره فكأنه يضم جسداً آخر. انتبه هو إلى أنها لم تمد ذراعها لاحتضانه. دفعها إلى الوراء قليلاً ماسكاً بها من كتفها ومحددًا في وجهها، وهو يسأل:

- ما بك؟ ألم تشتاقي لي؟ هل أنت زعلانة مني لأنني لم آت إليك صباحاً لأخرجك من المستشفى؟ والله العظيم كان لدي ضيف ولم أعرف كيف أتخلص منه، فقد بات عندي ليلة أمس ولم يخرج إلا في حدود منتصف النهار لذا لم أتمكن من المجيء إليك.

لم تقل هي أي شيء، ولم تبد أي مشاعر أو ردود أفعال على ما قال، وإنما نظرت إليه طويلاً وكأنها تقرأ شيئاً غامضاً في وجهه، ثم أفلتت نفسها منه وذهبت إلى غرفة الاستقبال، فتبعها.

جلست على كرسي زوجها حول طاولة الكتابة، بينما ظل هو واقفاً في الغرفة قرب الباب. استغرب هو سكوتها، وفكر مع نفسه: “إنها لم تصده، لكنها أيضاً لم تبد ما يشي بتقبلها له، ما الذي جرى؟ عليه ألا يخسرهما بأي ثمن!” نظر إليها وفي عينيه نظرات شوق ولهفة كاذبة وقال برقة:

- لقد اشتقت إليك كثيراً. أنا سعيد جداً لأنك عدت. لكن لماذا أنت هنا؟ نظرت إليه وقالت بشكل ميكانيكي:

- أنا هنا في بيتي.

استغل آدم اللبناني أول اتصال لفظي معها فقال بلهفة:

- لكن بيتي هو بيتك أيضاً!

- هذا هو بيتي.

لم يستطع أن يرد على جملتها كي لا تسير الأمور في غير اتجاه، فقال لها مذكراً إياها بكل ما جرى:

- لكن زوجك ما زال هنا، ألا تخافين أن يرجع فجأة؟

نظرت إليه للحظات ثم قالت:

- إنه في المستشفى. لقد كنت عنده، وأنت كذبتني حينما قلت ذلك. لكنني سمعت جارتنا وهي تقول لك بأن زوجي تعرض لجلطة قلبية وتم نقله للمستشفى في قسم العناية المركزة. أنا سمعتكما حينما كنتما تتحدثان عند الباب.

- أكنت تسمعين كل شيء ولم تفتحي؟

- لا تغير الموضوع. أنت تعرف أن زوجي في المستشفى، لذا جئت إلي طارفاً الباب، ولو كنت غير متأكد من ذلك لما تجرأت أن تقترب من الباب.

ارتبك آدم اللبناني. أحس أن حواء المؤمن التي أمامه هي غير تلك التي عرفها. ما الذي جرى لها يا ترى؟ عليه ألا يفقد الأمل، عليه أن يوقظ فيها الرغبة. فقال بارتباك:

- لم أصدق كلامها أول الأمر، لكنها أكدت بأن ابنها رأى ذلك.

ظلت تنظر إليه وفي نظرتها ثمة فراغ هائل. اقترب منها. صار محاذياً لها. لم تتحرك ولم تبد أي رد فعل. أخذ رأسها بين كفيه ورفع وجهها إلى الأعلى. كانت مستسلمة دونما رغبة. نظر إلى وجهها الجميل. انحنى على وجهها مقبلاً شفيتها، لم تعترض، فأخذ شفيتها بين شفتيه بقبلة مليئة بالشبق، بينما يده تداعب نهديها. لم تكن تستجيب له، لكنها لم تعترض أو تصده. فجأة، انسحب عنها وأخذها من كفها، ساحباً إياها خلفه. كانت هي مستسلمة دونما رغبة. خرجا من غرفة الاستقبال وفتح الباب خارجاً بها إلى شقته. لم تعترض. أغلق الباب خلفه، دخلا شقته الصغيرة، أخذها بين ذراعيه مقبلاً وجهها ورقبتها. كانت ساكنة دونما اعتراض. أخذها مباشرة إلى السرير ملقياً بنصفها الأعلى عليه، منهمكاً بنصفها الأسفل.

كانت حواء المؤمن في حالة استسلام غريب، كانت تشعر أنه ينتهك جسدها بشبق. كانت تشعر وكأن جسدها ليس جسدها، وكأن التي يتم التوغل في جسدها ليست هي وإنما امرأة أخرى. كانت ترى نفسها وجسدها وكأنهما غريبان عنها. فجأة. أحست بتيار دافئ يسري فيها. شيء ما يخرقها،

شيء يملأ رحمها. ورأت وجه آدم اللبناني محتقناً ومهووساً وهو يلهث بشبق وبعنف عليها. كان وجهه قريباً منها. وكانت رائحة الثوم تنبعث مع أنفاسه. شعرت بتهيّجها أيضاً، لكن رائحة الثوم والعرق المنبعث منه ملأها قرفاً فدفعت عنها. لكنه كان أقوى منها، فمع أي محاولة منها لدفعه عنها. كان يهجم بعنف بين فخذيهما، حتى شلّ حركتها. فجأة. وعلى غير توقع منها، أحسّت برعشة لذيدة تجتاح جسدها، رعشة مفاجئة، فضمتها إليها دون إرادة منها، كانت ترتعش من اللذة، وفي لحظة همد كل شيء!

انسحب آدم اللبناني عنها بعد أن ملأها بفيض مائه. كانت هي في حالة نفسة سيئة. أحسّت بالذنب لإحساسها باللذة أيضاً. وكانت تشعر بدوار، وبرغبة في التقيؤ. قامت مسرعة إلى الحمام. أغلقت الباب خلفها وأخذت تتقيأ، ليس بسبب أنفاس آدم المشبعة بالثوم ورائحة العرق، وإنما تتقيأ من نفسها، من ضعفها وهشاشتها، من شهوتها التي لا تخضع لإرادتها وإنما تدفعها لتقبل أشياء لا تريدها لنفسها، ولأنها حامل.

كان آدم اللبناني ما زال مستلقياً على السرير وهو يحس بأنه انتصر عليها وأنها صارت ملكه، بل هي تحبه على الرغم من ممانعتها، فهي لا تستطيع الاستغناء عنه.

آدم البغدادي: يبدو أنا الذي قد دخل المتاهة وليست هذه الشخصيات؟ أو أن هذه الشخصيات سحبتني معها إلى متاهتها! لم أعد متيقناً من كل ما تعلمته، وقرأته، وأمنت به خلال عقود من عمري! ما الذي يجري لي. هل أنا أتغير، أم هذا شعور زائف؟

علق آدم المحروم عندما قرأ تعليق صديقه الكاتب القليل قائلًا لنفسه: أنا أيضاً بدأت أشعر بأني داخل في المتاهة. لقد أدخلتني إياها بموتك يا صديقي. وها أنت تدخلني إياها ثانية بروايتك.

في متاهة الشك

الساعة الآن هي الثانية بعد منتصف الليل. المدينة الصغيرة تبدو وكأنها مهجورة. لا أثر يدل على أنها مدينة مأهولة بالبشر سوى بعض أعمدة المصابيح الكهربائية التي تبعد عشرات الأمتار في ما بينها، التي تضيء الشارع الرئيسي في المدينة النائمة في مثل هذه الساعة من الليل.

المستشفى المركزي يقع على يمين شارع فرعي لمنطقة غير مأهولة بالسكان والبنيات، وتحيطه الأشجار والمزارع الصغيرة التي تتوسطها بعض الأشجار. في الليل يبدو المستشفى كقلعة قديمة لولا المصابيح الكبيرة تضيء مدخلها، واللوحة الإعلانية المضيئة التي تحمل اسم المستشفى عند مدخل البناية، ولولا بعض الضوء الشاحب الذي يتسرب من بعض النوافذ.

الساعة الآن هي الثانية بعد منتصف الليل. المستشفى يبدو وكأنه لغز مفصوح؛ أروقه فارغة، نزلاؤه في غرفهم نائمون، الموظف الخفير في الاستعلامات قد ترك المكتب وذهب إلى غرفته المجاورة لمكتب الاستعلامات، الطبيب الخفر في غرفته في المبنى الآخر الذي يقع ضمن مساحة المستشفى ولا يبعد لأكثر من عشرين مترًا عن المبنى الرئيسي للمستشفى، المساعدون في غرفهم التي تقع في نفس المبنى المخصص للأطباء، المساعدات يذهبن إلى مبنى يقع خلف مبنى الأطباء.

أروقة المستشفى مضاعة وخالية من أي أثر لإنسان، أروقة ساكنة سكونًا مهيبًا يبعث الرهبة في النفس. كل شيء هاديء هدوءًا ثقيلاً، الكل في غرفهم التي أوصدت أبوابها.

في غرفته كان آدم التائه متمددًا على سريريه، لم ينم فهو لم يأخذ الأقراص المنومة التي جاءت بها الممرضة مساءً؛ لقد كان يريد السهر ليقابل الراهبتين، ويتأكد من وجود زوجته حواء المؤمن في المستشفى، بالرغم من تأكيدات الممرضة الشقراء بأنه لا توجد أي أجنبية في هذا المستشفى، بل ولا توجد راهبات.

مد يده إلى ساعته اليدوية التي كانت على الطاولة الصغيرة قرب رأسه ونظر إليها فعرف أن الوقت قد تجاوز الثانية بعد منتصف الليل بدقائق قليلة جدًا. تأمل غرفته فرأى أنها فارغة. أرهف سمعه لالتقاط أي صوت في ذلك السكون المهيب، لكنه لم يسمع شيئًا.

مد قدميه ليقف خارج السرير. في تلك اللحظة بالذات فُتح باب الغرفة ودخلت الراهبتان، فارتعب وعاد إلى سريريه مستلقيًا عليه، ساحبًا البطانية إلى منتصف جسده.

أحس برهبة من حضورهما في اللحظة التي أراد هو أن يستكشف أمرهما، وكأنهما كانتا تعرفان بما يدور في رأسه. ابتسما له برقة تبعث السلام والهدوء والطمأنينة إلى النفس. وقفت الراهبة الشابة، التي ذكرته بموظفة المكتب السياحي إيفا بيرغمان، قرب رأسه، أما الراهبة المسنة فقد وقفت بالقرب من نهاية السرير من طرف القدمين. ابتسمت الراهبة الشابة له وقالت:

- كنت تريد أن تقابلنا، صح؟

ارتبك وقال بشيء من التردد وكأنه يحاول أن يكسب الوقت ليدرك كل ما يجري معه:

- ليس بالضبط. لكنني...

قاطعت الراهبة المسنة وهي تقول مبتسمة بطيبة:

- لكنك أردت أن تتأكد من وجودنا حقًا، أليس كذلك؟

لم يجبها لكنه أومأ برأسه، فقالت الراهبة المسنة مبتسمة:

- والآن ماذا تقول؟ هل أنت متأكد من وجودنا؟

فقال بارتباك لكن بدون خوف:

- لكن العاملين في المستشفى أكدوا لي صباحًا بأنه لا توجد راهبات في هذا المستشفى، وأن بعض المرضى يرونكم، لكن لا وجود لكم في الواقع، لكن ربما هي أوهام المرضى.

توجهت إليه الراهبة الشابة سائلة:

- هل تسمح لنا بالجلوس قليلًا، بعد ذلك علينا زيارة بعض المرضى الذين يحتاجون وجودنا إلى جانبهم. ونعتقد أنك سهرت الليلة خصيصًا لترانا، أليس كذلك؟

وبينما جلست الراهبة الشابة على الكرسي الذي كان على مقربة من جهة الرأس، ظلت الراهبة المسنة واقفة، لكنها اقتربت أكثر. أحس بطمأنينة تغمره، وجرأة مفاجئة، فقال:

- الحقيقة أقول لكم؛ نعم. أردت أن أتأكد من وجودكم.

- وهل تأكدت الآن؟

- لا أدري.

- لا تدري؟

- نعم لا أدري.

- كيف تريد أن تتأكد من وجودنا، أتريد أن تتحسس يدينا لتتأكد من ذلك؟

ألا تتحدث الآن معنا؟ ألا ترانا؟ أنحن وهم أم حقيقة؟

- لا أدري.

ابتسمت الراهبة المسنة وقالت له بهدوء:

- كيف لا تدري يا بني؟ مع مَنْ تتحدث أنت الآن؟

- معكم.

- إذا كنا غير موجودتين، ترى مع مَنْ تتحدث أنت يا تُرى؟

- أنا أتحدث معكما، لكنني غير متأكد من أن هذا هو حقيقة، ربما هو وهم، ربما أنا أحلم!
- هذا يعني أنك لست أنت، وأنتك نائم، وأنتك تحلم بأنك تحدثنا.
- ربما.
- نظرت الراهبتان لبعضهما نظرة عميقة ذات مغزى لثوانٍ، ثم ابتسمتا، وقالت الراهبة الشابة:
- هل أنت مؤمن؟
- بهت آدم التائه من هذا السؤال المفاجئ، تردد لحظات وسأل:
- ماذا تقصدين؟
- سؤالي واضح، هل أنت مؤمن؟
- أعتقد ذلك.
- تعتقد ذلك، هل أنت غير متأكد من أنك مؤمن أم لا؟
- أقصد، أعتقد أنني مؤمن.
- هل أنت غير متأكد من اعتقادك؟
- أعتقد أنني متأكد.
- ابتسمت الراهبتان من إجابته، فاستمرت الراهبة الشابة في السؤال:
- هل تؤمن بعالم الأرواح؟
- تردد في الإجابة لكنه تمتم بالرغم من ذلك قائلاً:
- لا أدري. أعتقد ذلك.
- نظرتا لبعضهما وعلى وجهيهما ابتسامة طيبة، فبادرت المرأة المسنة قائلة:
- أنت تفكر بأننا ربما وهم أو أننا أرواح تائهة، أليس كذلك؟
- تردد بالإجابة، إلا أن الراهبة المسنة استمرت قائلة:

- أن ترانا وتحدث معنا وجهًا لوجه وأنت بكامل قواك الروحية والنفسية والعقلية يعني أننا موجودتان. أليس كذلك؟
- نعم. تمتم آدم التائه.
- ألا تعتقد بأن كل ما تحسه الروح هو موجود أيضًا، حتى وإن لم تراه العين! على العكس مما يرويه بعضهم بأن ما لا تراه العين أو تحسه الحواس فهو غير موجود.
- لا أدري.
- واصلت الراهبة الشابة لتستكمل حديث الراهبة المسنة:
- أنت أستاذ جامعي وكاتب. أليس كذلك؟
- بهت من معرفتهما بوضعه الأكاديمي والأدبي، فهو هنا ليس أكثر من لاجئ سياسي، لذا تمتم بذهول:
- نعم.
- هل تؤمن بأن الوجود مؤلّف من ذرات، وأن الذرات تتألّف من إلكترونات تدور حول النواة؟
- نعم.
- هل تؤمن بذلك؟
- نظر إليها باستغراب وقال بتأكيد:
- نعم. هذه حقيقة علمية، لا تقبل الجدل.
- ابتسمت الراهبة له ببراءة وسألت:
- هل رأيت إلكترونًا يومًا ما؟
- استغرب هو السؤال وقال:
- لا.
- وكيف تؤمن بوجوده وبوجود النواة وأنت لم ترَ شيئاً؟

- لأن العلماء يقولون ذلك.
- سألت الراهبة بالنبرة الودودة نفسها:
- وكم عدد العلماء الذين شاهدوا الإلكترونات والنواة بالعيان؟
- أجاب آدم التائه وكأنه يحدث نفسه:
- عدد قليل جدًا جدًا منهم. وبأشد الميكروسكوبات تعقيدًا وتطورًا.
- كيف تؤمن بشيء لم تره أنت بحواسك وبعينيك. ولم يشاهده إلا القلة القليلة من العلماء؟
- نظر آدم التائه إلى وجهها المثير وتاه في تفاصيله الرقيقة، ثم انتبه لنفسه، فقال بنبرة فيها تساؤل واحتجاج:
- هل تريدني القول بأنه لا توجد ذرات ولا إلكترونات أو نواة، وتشكيكين بوجودها؟
- نظرت الراهبة الفتية إليه بهدوء، ثم نظرت إلى الراهبة المسنة التي كانت تتابع الحوار مبتسمة بخشوع، وقالت:
- لا. لكنني أود القول بأنك لم ترَ ذلك الشيء بعينيك وبحواسك ومن خلال تجربتك الشخصية بينما تؤمن به، لأن العين البشرية لا يمكن لها رؤية الإلكترونات ولا ذلك العالم المجهرى، لكن الإنسان برغم ذلك يؤمن به. وهذا ينسحب على عالم الأرواح. هل تؤمن بعالم الأرواح؟
- لا أدري.
- كيف لا تدري؟ تؤمن أو لا تؤمن.
- صمت هو للحظات وقال بنبرة حائرة:
- لا أدري.
- فقال له الراهبة المسنة بحنان:
- إذن عليك أن تعرف نفسك أولاً يا بني.

فرفع رأسه إليها وكأنه يراها لأول مرة:

- إنني أسعى لذلك.

ابتسمت له بحنان، وقالت بصوت دافئ ومتعاطف:

- أنت قلق يا بني، قلق جدًا.

فقال بنبرة يائسة:

- أنا مليء بالشك.

قاطعته الراهبة الشابة سائلة:

- هل تشك؟

- نعم.

فقالت بحرارة:

- بمن تشك؟ إياك أن تقول بأنك تشك بوجود الله!

نظر إليها للحظات. تاه في جمالها المثير، ثم عاد لنفسه قال لها:

- لا أدري. ربما. إنني أجد صعوبة في التوفيق بين صفات العدل والخير

والرحمة التي هي من صفات الله، وبين الألم والتعاسة والشر الذي يملأ

العالم ويجعل الوجود البشري جحيماً، فإذا كان الله عادلاً فلماذا هذا الظلم

والمآسي واللا عدالة والأوبئة والأمراض تملأ الأرض. وكل هذا القتل والذبح

والسبي الذي يتم باسم الله. كل هذه الحروب التي تشن باسم الله. لماذا يسيطر

الأشرار والمجرمون والطغاة والمشعوذون والقتلة الأغبياء على هذه الأرض؟

نظرت الراهبة المسنة إليه بحنان وقالت بنبرة أمومية:

- كل الشكاكين طرحوا الأسئلة ذاتها، فهي الأسئلة المنقوشة على عتبة

بوابة الشك الأولى يا بني. لكن ليكن في علمك أن الأشرار ربما يسيطرون

على هذه الأرض، ولكنهم لا يملكونها يا بني.

رد هو بنبرة مشوبة بغضب خفي:

- لا يهم، يسيطرون عليها أو يملكونها. المهم مَنْ يسيطر عليها يملكها ولو إلى حين، وليس هذا هو مبعث شكّي فقط.

ابتسمت له بحنان وسألته:

- ماذا يثقل عليك أيضًا يا بُني؟

- إذا كان كل شيء مقدّرًا على الإنسان، ومكتوبًا في اللوح قبل ولادته كما تؤكد الأديان، فهذا يعني أن المجرم ليس مجرمًا وإنما الله أراد له وكتب عليه أن يكون مجرمًا، والأشرار ليسوا أشرارًا وإنما كتب الله عليهم أن يكونوا أشرارًا!

فقالَت الراهبة المسنّة بحزن:

- إنك تذهب بعيدًا في شكك يا بني. وكما قلت لك يا بني. أنت لست أول ولا آخر من أثار وسيثير مثل هذه الأسئلة. قبلك أناس عذبهم هذا الشك، وتحملوا ألوان العذاب بسببه.

- أحيانًا أفكر بالأديان وما تصف به الجنة؛ ما معنى وجود أنهار من الحليب والعسل والخمر في الجنة كما تقول الأديان السماوية؟

فسألته وكأنها تريد أن تستمع لكل ما يثقل على روحه:

- ماذا لديك بعد يا بني؟

- أحيانًا أسأل نفسي أسئلة ساذجة وغريبة لكنها مهمة بالنسبة لي؛ أسأل نفسي أحيانًا: هل في الجنة ناطحات سحاب؟ سيارات؟ طائرات؟ قطارات؟ دور سينما؟ كمبيوترات؟ مقاهٍ وكازينوهات؟ متاحف للفن، قاعات للموسيقى، والأوبرا؟ أنا لا أستطيع العيش طول عمري في حديقة! أستطيع أن أتجول في الحديقة أو الغابة لساعة أو ساعتين، وربما يذهب المرء لمنتجع بين الأشجار لمدة أيام لكن ليس لسنوات بل وطول العمر وإلى الأبد! الجنة لأبناء الريف وعشاق الطبيعة، وأنا لست مهووسًا بالطبيعة، أنا أحب المدن

الكبرى، الجنة التي تصفها الكتب المقدسة ستكون جحيمًا بالنسبة لي. إنها دار للعجزة والعاطلين عن العمل. لا أستطيع أن أتصور نفسي عاطلاً عن العمل. الجنة التي تصفها الأديان أشبه بالماخور لكنها ليست للعاهرات وإنما للحروريات. ومقاهيها، الأرائك المتقابلة أشبه بمقهى قروي. أنا لا أريد أن أكل وأشرب وأنكح فقط.

- وماذا لديك بعد من شكوك يا بني؟

- هل توجد جحيم حقًا؟

فتدخلت الراهبة الشابة وقالت بخشوع:

- الجحيم هي نقيض الجنة.

- أعتقد أن الله عادل ورحمن ورحيم وغفور ورؤوف، ولا أعتقد أنه يعاقب البشر بالجحيم التي وصفتها الأديان. ثم إذا كان قد كتب على الإنسان كل أفعاله في اللوح المسطور فلماذا يعذب المخطئين؟ أليس هو من قَدَّرَ لهم ذلك؟ هذا ليس عدلاً، ولا أعتقد أن الله يظلم البشر الضعفاء.

نظرت الراهبة الشابة إليه بحنان وقالت له:

- ياه. كم من الآلام والأفكار الثقيلة تنوء بها روحك يا بني!

- أنا لست الوحيد الذي يفكر هكذا، قبلي كان الملايين الذين طرحوا مثل هذه الأسئلة والشكوك، أنتم قلتما ذلك قبل قليل!

قالت الراهبة المسنة بصوت حزين:

- نعم صحيح. نعرف ذلك، لكن أتدري أن هذه الشكوك تطهر الروح أحيانًا.
- أحيانًا؟

- نعم. أحيانًا. لأن صاحبها يجد نفسه في وادي الظلمات، وهذه الأفكار والشكوك المعذبة هي مثل المصباح الذي ينير الدرب في ذلك الوادي المهول، الشك كثيرًا ما يقود إلى الإيمان.

- كيف يمكن للشك أن يقود إلى الإيمان؟

صممت الراهبة المسنة للحظات. وقالت وكأنها تتحدث مع نفسها:

- الشك عذاب. وهذا العذاب يظهر الروح؛ يزيل عنها ما يتداخل معها من خبث وأوشال ويكشف عن معدنها الأصيل. الخالق يحب جميع مخلوقاته، الوديعة، المسالمة، المؤمنة به إيمانًا فطريًا، وكذلك يحب مخلوقاته الجامحة، المتمردة، المشاكسة له بشكها فيه، إنه الأب لمخلوقاته وهو ينظر بعين الرأفة والحنو حتى لأبنائه الضالين والمشاكسين. المحبة والرحمة والحنان والمغفرة والعفو هي من تجليات الربوبية.

صممت هو مفكرًا بما قالت للحظات، ثم قال:

- لا أدري. يصعب علي الإيمان بوجود الجنة والجحيم. أين هما يا ترى؟ أين ستكونان؟ هل هما في كوننا الموجود هذا؟ الأديان تقول إن العالم سيتهيء، ومعظم العلماء يقولون إن الكون سيتهيء، بعض العلماء يتحدثون عن نهاية الكون وانطفاء الشمس وانهايار المجرات في ثقب أسود والعودة إلى العدم، إلى اللا شيء، والأديان تتحدث عن الشيء نفسه لكن بلغة أخرى. وبعدها يفترض أن يبدأ يوم الحساب، أليس كذلك؟

نظرت الراهبتان بصمت لبعضهما ولم تجيبا، فاستمر هو بالحديث:

- هذا يعني أنه لو كان هناك حساب، وجزاء وعقاب، فهذا يعني ذهاب الأخيار إلى الجنة والخطاة إلى الجحيم، حسب الأديان. وهذا ما لا يتصوره العقل، فإذا عدنا إلى العدم، وتكورت الأرض وفني الكون؛ فكيف يمكننا أن نهض من الأجداث للحساب، ومن أي كوكب، ومن أين سيأتون بنا للحساب؟ نحن وكوننا هذا، وفق تقارير العلماء، سندهب إلى العدم. هذا ربما سيقود لمسألة تخطيط النظريات العلمية بموت الكون واندلاقه في ثقب أسود والذويان في العدم! بل وربما تخطيط التصورات الدينية حول نهاية العالم والكون أيضًا؟ فهل الأمر له علاقة بنهاية الحياة على الأرض

فقط، لأن كوكبا مثل الزهرة أو المريخ أو أي كوكب من كواكب منظومتنا الشمسية، وفق المعلومات العلمية عن جغرافيته ومناخه، هي في الواقع أشبه بالجحيم، لكن ليس هناك مكان يشبه الجنة بين الكواكب التي نعرفها!

نظرت الراهبة المسنة له بحنان تجلى في نبرات صوتها أيضاً وقالت:

- لماذا تعذب نفسك هكذا يا بني؟

- أريد أن أرتاح. شكى يعذبني. روحي وعقلي ينوءان تحت ثقله.

تدخلت الراهبة الشابة وقالت بحنان:

- للأديان أساطيرها لكن للعلم أيضاً أساطيره، لا تعذب نفسك هكذا.

- أنا أريد أن أؤمن وأرتاح، أو من بأي شيء يخلصني من الشك.

نظرت الراهبة المسنة إليه للحظات ثم قالت بمودة:

- وهل تعتقد أن هؤلاء الذين يؤمنون، الذين تراهم حولك، كلهم وصلوا إلى الإيمان بعد أن طرحوا مثل هذه الأسئلة يا بني؟ هل تعتقد أن هذا القطيع من المؤمنين وصلوا إلى الإيمان عبر الشك المعذب؟ لا. الكثير منهم لا يمتلك شجاعة طرح السؤال، بل ولا يمتلك شجاعة الشك. الكثير منهم يخاف طرح الأسئلة بل يتهربون ممن يطرح الأسئلة، وبعضهم يحاول معاقبة من يطرح الأسئلة ويشكك في الأشياء؛ لذلك قلنا لك إن الشك يسمو بالعقل والروح ويطهرها. والذين يطرحون الأسئلة في الله وعن الله هم أقرب الناس إليه. لا تحزن يا بني. ستجد الدرب وحدك.

- متى؟ وأين؟ وكيف؟

نظرنا لبعضهما وابتسمتا وكأنهما اتفقتا على شيء. قامت الراهبة الشابة واستدارتا خارجتين من الغرفة. كان هو مندهشاً، فهو لم يكمل كل ما كان يريد أن يقوله لهما، كما أنهما لم يجيبا عن أسئلة كان بوده أن يطرحها عليهما، حول وجودهما، ومن هما أصلاً؟ أحس بضرورة أن يسألهما عن

حقيقة وجودهما. نهض عن سريره مسرعاً خلفهما ليطلب منهما العودة. فتح الباب ونظر في جانبي الممر فلم يجد أثراً لأي شيء. انذهل. لم يمتز على خروجهما سوى ثوانٍ قليلة، فقد قام خلفهما مباشرةً، وهذا يعني أنهما لا تبعدان عن باب غرفته سوى خطوات، لكنهما اختفيتا. ظل واقفاً للحظات قرب الباب. مشى باتجاه أحد طرفي الممر والذي يتقاطع مع الممر الشمالي. نظر إلى جانبي الممر المتقاطع. كان خالياً. رجع سريعاً إلى التقاطع الآخر في جنوب التقاطع الذي فيه غرفته ونظر إلى الممر الذي يحده جنوباً فلم يجد أي أثر لهما أيضاً. عاد لغرفته. جلس على سريره. ظل على جلسته تلك غارقاً في محاولة استعادة وتفسير كل ما جرى له مع الراهبتين.

سأل آدم المحروم نفسه بعد أن انتهى من قراءة الفصل: غريب! لماذا لم يعلق آدم البغدادي على هذا الفصل من الرواية. بالرغم من أنه مليء بالروحانيات؟ أسئلته جارحة، ربما لم يشأ أن يواجه صديقي نفسه، وأن يجيب عن أسئلة الجحيم؟ هل هو موجود حقاً؟ وأين تمضي الأرواح؟ وتلك الأسئلة المقلقة! ربما نفسه لم يصل إلى إجابة لها فوضعها على لسان بطله الدكتور آدم التائه؛ ربما.

دروب في المجهول

أفاق آدم التائه على طرقات خفيفة على الباب، ولم يكن أمامه سوى أن يجيب لا إرادياً:

- ادخل!

دخلت الممرضة الشقراء وهي تحمل صينية الفطور وعلى وجهها ابتسامة مشرقة. شعر بدبيب الحياة المنبعث من حضور الممرضة وحركتها العفوية ولطفها في التعامل معه. وضعت الصينية على الطاولة المجاورة وانسحبت، وقبل أن تغلق الباب التفتت نحوه وقالت مع ابتسامة مشرقة:

- شهية طيبة. لكن لا تنس أن تعد نفسك للخروج قبل التاسعة.

لم يجبها وإنما هز رأسه بالموافقة على ما تقول. بقي في سريره لدقائق قليلة. نهض من سريره واتجه إلى غرفة الحمام.

أفاقت حواء المؤمن على صوت فيروز ينسل من شريط الكاسيت. رفعت رأسها قليلاً فوجدت آدم اللبناني يسكب القهوة في كوبين صغيرين. انتبه إلى أنها قد استيقظت، فابتسم لها قائلاً:

- حمائك بتحبك؛ صحيت وأنا أصب القهوة. هيا انهضي واشربي القهوة معي. هل تحبين أن تفطري الآن أو في ما بعد؟

لم تجبه. نظرت إلى الغرفة وكأنها تستعرض المكان وسألت:

- كيف جئت إلى هنا؟ هل نمت أنا عندك؟

ابتسم لها وكأنه يرد على مزحة:

- طبعًا أنت نمت هنا، أين يمكن أن تكوني؟

نهضت على عجل، وبدون أن تقول له أي شيء ركضت إلى غرفة الحمام وأغلقت الباب خلفها. سمعها وهي تتقيأ. تذكر أنها حامل، ومع استمرار تقيؤها في الحمام أحس هو بالغثيان وبرغبة في التقيؤ أيضًا.

عند مكتب الاستعلامات كان آدم النائه يوقع على استمارة الكشوفات والخدمات التي قدمت له في المستشفى. حانت التفاتة عفوية منه فلمح الموظفة الألمانية في مكتب السياحة إيفا بيرغمان مع امرأة كبيرة في السن لكنها بالرغم من ذلك تبدو أنيقة وعلى وجهها بقايا جمال أصيل. اتجهت المرأتان إلى مكتب الاستعلامات وتحدثتا مع الموظف سائلة عن شخص ما، وبينما كان موظف الاستعلامات يفتش في جداوله باحثًا عن اسم الشخص المعني، التفتت هي صوبه. عرفته مباشرة، فارتسمت ابتسامة طيبة ومشقة على وجهها الساحر، وقالت له بالإنكليزية وهي تصافحه، وكأنها تعرفه منذ فترة بعيدة:

- أهلاً. كيف حالك. أين أنت؟ لماذا اختفيت؟ كنت أنتظرك.

أجابها مرتبكًا وهو لا يصدق هذه المصادفة التي منحتة دفقًا من الحياة:

- أهلاً. كيف حالك؟ شكرًا للسؤال. أنا كنت هنا منذ لحظة خروجي من مكتبكم.

- ماذا تقول؟ كيف ذلك؟ ابتسمت وكأنها تعرف ما جرى له لكنها تسأله مجاملة.

- تعرضت لذبحة صدرية ونُقلت إلى المستشفى من حينها، وها أنا أخرج الآن.

- يا للمصادفة الرائعة، لدي أخبار جيدة ستسرك.

- حقًا؟

- اتصلت بالسفارة الإماراتية، وأخبروني بإمكان حصولك على الفيزا لكن وفق شروط.

- شروط؟

- نعم. لكن إلى أين انت ذاهب الآن؟

- لا أدري. لم أزل في المستشفى.

- حسنا انتظرني لأوصل الأم إيفا مارتا إلى حيث تريد، بعدها نذهب إلى المكتب ونتصل بالسفارة مرة أخرى.

- جيد. سأنتظر في الشارع مقابل بوابة المستشفى.

- جيد جدًّا، انتظرني.

كان موظف الاستعلامات ينتظر صامتًا لحظة انتهاء حوارهما، وما إن انتهيا حتى أخبرها بوجود الشخص المعني في غرفة العناية المركزية لأنه خرج تَوًّا من العملية التي أجريت له، فشكرته ثم تحركت هي والأم إيفا مارتا، وتوغلتا في داخل أروقة المستشفى.

نظر موظف الاستعلامات باهتمام إلى آدم التائه، لا سيما بعد أن سمعه يتحدث الإنكليزية بطلاقة، إلى جانب الثقة في التعامل مع المرأة الألمانية الفاتنة.

لم يطل انتظار آدم التائه أمام بوابة المستشفى، إذ بعد دقائق لمح إيفا بيرغمان تخرج من الباب الرئيسي للمستشفى متجهة نحوه وعلى وجهها ابتسامة مشرقة وكأنها كانت متلهفة للقاءه. أشارت بيدها نحوه وهي تعبر الشارع إلى الجهة الأخرى، وحينما وصلت إليه قالت بمرح:

- أتمنى أنك لم تنزعج من الانتظار؟

- لا أبدًا. أنتِ لم تتأخري كثيرًا.

- هل نذهب. سيارتي هنا في الموقف المجاور.

اتجهها إلى موقف السيارات المجاور لهما. فتحت هي حقيبتها الجلدية الصغيرة التي كانت تتدلى من كتفها وأخرجت مفتاح السيارة. حين صارا داخل السيارة انتبهت لحالة الارتباك التي فيها آدم التائه، فقالت له بمودة كي تزيل عنه ارتبائه:

- كيف تشعر الآن؟ هل كانت أزمة خطيرة؟ متى جرى ذلك؟
فقال مدارياً ارتبائه:

- الحمد لله قد مرت الأزمة. لقد تعرضت لها مباشرة بعد خروجي من المكتب. كنت راجعاً إلى البيت. ولولا تواجد امرأة ألمانية مع ابنتها عند موضع الحادث لكنت قد مت، فتلك المرأة هي التي اتصلت بالطوارئ.
سألته وهي تنظر إليه نظرة سريعة:

- هل أهلك يعرفون بذلك؟ أقصد، لو سمحت لي بذلك، زوجتك وأطفالك.

صمت للحظات. فكر في سؤالها، هل هو عفوي أو أن أنها تريد أن تعرف حالته الاجتماعية. أجابها بهدوء وكأنه يطمئنها، أو يسعى لنيل تعاطفها:
- لا أهل لي. أنا وحيد، أقصد كنت متزوجاً وطلّقت.
صمت للحظات، وسألته وهي تتجنب النظر إليه:

- ولماذا تريد مغادرة ألمانيا؟ الناس يدفعون عشرات الأموال الكثيرة ويخاطرون بحياتهم من أجل الوصول إلى هنا، بينما أنت تريد مغادرتها، لا سيما بعد أن صار وضعك رسمياً ولديك إقامة دائمة.

أحسّ بارتياح كبير لها، فقد مسّت أعماقه تلك النبرة الحنونة في صوتها، فقال بهدوء:

- حينما غادرت بلادتي، العراق، لم أفكر أبداً أن أجيء إلى ألمانيا، بل لم يكن هناك أي بلد محدد في ذهني، كنت أهرب من الوضع الكابوسي الذي

وجدت نفسي فيه. كان جلّ ما أتمناه أن أجد عملاً في أي جامعة عربية، فأنا أستاذ جامعي. لكن الكابوس لاحقني، حتى إلى البلدان العربية المجاورة. ولم يكن أمامي سوى التوجه إلى أوروبا، كنت حينها متزوجاً، وفي تلك الفترة كان متاح لي من بين البلدان أن أتوجه إلى ألمانيا.

نظرت إليه وعلى وجهها علامات الانتباه الكامل وكأنها كانت تشرب كلماته، أو أنها تحاول تشكيل صورة ذهنية عن رحلته في داخلها. لم تعلق على أي شيء بل ظلت صامتة وكأنها تريد أن تحثه على مواصلة الكلام، وحينما نظر إليها واصل حديثه:

- أنا كاتب، أكتب روايات إلى جانب تخصصي الأكاديمي.

فجأة انتبهت وقالت بصوت مليء بالتعجب والتقدير:

- كاتب روائي. يا للروعة. أنا قارئة جيدة، أقرأ الروايات والكتب النفسية والغرائبية، لكني لأول مرة أقابل كاتباً روائياً بشكل شخصي وجهاً لوجه، لكن قل لي، عن أي شيء تكتب؟

صمت للحظات وأخذ يفكر بالإجابة عن هذا السؤال الصعب الذي يوجه إليه أحياناً، ثم قال:

- أكتب. أكتب عن الإنسان، عن معاناته، عن معاناة الوجود البشري ككل، عن متاهة آدم، متاهة حواء، عن الحياة والموت، عن الوجود والحقيقة.

- لا. لا. هذا الأمر يحتاج إلى جلسة خاصة، وليس حديثاً عابراً في الطريق. ما رأيك أن أعزمك على فئجان قهوة قبل أن نذهب إلى المكتب. ما رأيك؟
أحسن بفرح غامر وبارتباك مفاجئ، قال:

- لا مانع، لكن ماذا عن الاتصال بسفارة دولة الإمارات؟

- بعد ذلك نستطيع أن نقوم بذلك، الآن الساعة لم تتجاوز التاسعة والنصف.

- أوكي.

فجأة استدارت بسيارتها إلى منعطف شارع جانبي، أمسك هو بمقعده، نظرت إليه وابتسمت قائلة:

- هل تخاف السرعة أو المنعطفات؟ لا ضير نحن بالقرب من المكان المقصود. إنه مقهى لطيف وهادئ، لا سيما في مثل هذا الوقت.

وبعد دقائق قليلة وقفت السيارة أمام مقهى بدا من الطراز القديم. نزلنا من السيارة واتجها إلى المدخل. قام هو بحركة رجولية إذ فتح الباب لها، فسرتها هذه البادرة وابتسمت قائلة له:

- شكرًا جزيلاً. هذا لطف منك.

- على الرحب والسعة.

وتبعها داخلاً.

كان ثمة توتر خفي بينهما. قال آدم اللبناني لحواء المؤمن وكأنه يلقي بآخر حججه:

- علينا أن نسافر إلى إيسن يا حواء قبل أن يأتي زوجك، فربما ستكون هناك مشكلة كبيرة بيننا وبينه.

نظرت إليه بإصرار وقالت:

- أنا لا أتحرك من هنا قبل أن أراه!

صمت للحظات، ثم سألها بنبرة غاضبة:

- ماذا تريد مني؟ لماذا تصرين على رؤيته؟ هل لك الجرأة أن تواجهيه بعد أن رآك في ذلك المشهد؟

نظرت إليه وفي عينيها يأس ومعاناة وقالت:

- لا تذكرني بذلك أرجوك. أنت السبب، نعم أنت السبب.

فقفز إليها وصار أمامها وكأنه يريد أن يحاججها وهو يقول بصوت عالٍ:

- لماذا أنا السبب؟ على أي أساس تقولين ذلك؟ هل أنا أجبرتكم على ذلك؟ أنت كنت ملتبهة وتصرخين بي أن أدخله إلى آخره. أنت لا تشبعين منه. ماذا أفعل أنا؟

حركت كفها وكأنها تريد أن يتوقف وهي تقول:

- اسكت رجاءً. لولاك لما حصل الذي حصل. أنت تعرف نقطة ضعفي وتستغل ذلك. أنت تعرف كيف تثيرني بحيث لا أستطيع السيطرة على نفسي. أنت السبب. أنت شيطان رجيم. لا أدري من بعثك في طريقي. الله أم الشيطان؟ صمت هو لثوانٍ، ثم ابتسم ساخرًا وهو يقول:

- ما هذا الكلام؟ بدأنا ندخل الفلسفة. عليك يا سيدتي بدل أن تنديبي حظك، أن تقومي الآن لتجلبني ثيابك وكل ما تحتاجينه قبل وصول زوجك. - قلت لك لا أتحرك من هنا قبل أن أقابله.

ابتسم هو يحاول أن يخفف من التوتر بينهما فقال:

- ثم ماذا؟ أنا لا أطلب منك سوى أن تحملي ما تستطيعين من حاجاتك وتحفظينها هنا، ثم انتظري.

صمتت هي للحظات ولم ترده وكأنها اقتنعت برأيه. نظرت إليه وقالت:

- طيب، لكن علي أن أقوم بذلك بسرعة، عليك أن تساعدني في لململة الأشياء. يلاً.

- هذا هو الكلام الصحيح. يلاً.

قال ذلك ونهض بهمة قبل أن تنهض، وكأنه كان خائفاً من أن تتردد في ذلك، لكنها نهضت أيضاً، فأسرع فاتحاً الباب فتبعته خارجةً.

كانت ثمة موسيقى كلاسيكية خفيفة تُسمع في أجواء المقهى شبه الفارغ، نظرت إليه بمودة وقالت:

- إذن أنت كاتب؟
- يمكنك قول ذلك. لكنني لم أنشر سوى رواية واحدة، اسمها (كوابيس القنفذ) مُنعت في بلادي. وكتبت رواية أخرى اسمها (متاهة آدم المرأة المجهولة) لكنني لم أنشرها بعد.
- هل روايتك مترجمة إلى الألمانية أو الإنكليزية؟
- لا، مع الأسف.
- خسارة. كان بودي أن أقرأ لك شيئاً.
- هل تقرأين بالألمانية أم بالإنكليزية؟
- أنا نصف ألمانية ونصف أمريكية؛ أمي ألمانية وأبي أمريكي. كان أبي رجل أعمال تزوج أمي حينما كان يعمل في دوسلدورف، لكنهما انفصلا حينما كنت في الثامنة، عشت مع أمي. كنت أزور أبي أحياناً وأحياناً كان يأتي خصيصاً لزيارتي، حينما بلغت الثامنة عشرة سافرت إليه، عشت في أمريكا بضع سنوات. أنهيت جامعتي هناك. كان أبي قد تزوج هناك وكون عائلة جديدة. رجعت إلى أمي، تلك التي رأيته اليوم معي. أنا ابنتها الوحيدة. عشنا في دوسلدورف لبضع سنين لكن أمي فضلت العودة إلى مدينتها الأصلية التي ولدت وعاشت فيها مع والديها. تزوجتُ من رجل ألماني لفترة قصيرة. أعمل في مكتب للسياحة كما تعرف. هذه هي سيرة حياتي الأرضية المخصصة لي باختصار شديد. ومن ناحية اللغات فأنا أستطيع القراءة باللغتين إلى جانب الأسبانية والفرنسية.
- الأسبانية والفرنسية أيضاً؟
- نعم. لقد درست اللغات، الأسبانية تخصصي الرئيسي، ودرست الفرنسية كلغة ثانوية.
- يعني أنك تتحدثين أربع لغات؟

- يمكنك القول هكذا. وأنت هل تتحدث لغات أخرى غير الإنكليزية التي أراك تجيدها بشكل ممتاز؟
- لا. أنا لغتي الأم هي العربية، والإنكليزية هي اللغة الأجنبية الأساسية للتعلم في بلادي، فنحن نبدأ بدراستها منذ المرحلة الابتدائية، لكن ما يثير فضولي هو ماذا تقرأين بهذه اللغات؟
- أقرأ الكتاب المقدس، والأدب والتاريخ والغرائب والروايات؛ يعني أقرأ كل شيء تقريباً، وأنت؟ لغتك الإنكليزية جيدة، فهل تقرأ الأدباء العالميين باللغة الإنكليزية؟
- أنا أقرأ بالإنكليزية، لا سيما الروايات غير المترجمة إلى العربية، أو المترجمة بشكل سيئ فأحاول قراءتها بالإنكليزية.
- يجب أن تجيد الألمانية لأنها ستفتح لك آفاقاً واسعة في الفكر والفلسفة والحياة.
- أنا أحاول.
- بالمناسبة. لقد أخبروني في السفارة بأنه لو كانت هناك دعوة رسمية من الجامعة فأنهم ربما سيمنحونك تأشيرة محددة، بعدها عليك مغادرة البلاد.
- لا ضير. المهم أجري المقابلة. بعدها سنرى كيف ستؤول الأمور.
- سادت بينهما لحظات صمت. كان المقهى خالياً من الرواد، لكن أثناء حديثهما دخل اثنان؛ رجل وامرأة، وكلاهما قد تجاوز السبعين. جلسا على بعد منهما. وكانا يرمقانها بين الفينة والأخرى بنظرات فضولية ثم يواصلان الهمس بينهما. انتهت إيفا بيرغمان لهما. فجأة سألتها:
- هل لديك أطفال؟
- ارتبكت هي لهذا السؤال المفاجئ، وكأنه مس منطقة خاصة جداً تثير الألم والذكريات الحزينة، لأن غلالة من الحزن خيمت على وجهها، لكنها تداركت وضعها وقالت له وكأنها تبرر شيئاً سلبياً:

- أنا لا أستطيع الإنجاب.
- شعر آدم التائه بالخجل، فقال:
- آسف لأنني أثرت مثل هذا الموضوع الحساس.
- لا عليك.
- نظر إليها منبهراً لجمالها الصافي والمثير وقال بانفعال:
- عمومًا. اسمح لي بالقول إنك في ذروة تألقك وجمالك.
- نظرت إليه مع ابتسامة مشرقة وقالت:
- شكرًا. هذا الكلام فيه شيء من العزاء على الأقل.
- أنا أقول الحقيقة. أنت أجمل امرأة قابلتها في حياتي.
- نظرت إليه مندهشة، وارتسمت على وجهها ابتسامة مع شيء من التردد وعدم التصديق، وقالت:
- شكرًا لك. لكنني أعتقد أنك تجاهلني بهذه المبالغة.
- فقال هو بحماس وحرارة وبنبرة جياشة بالمشاعر والمبالغة:
- أنا لا أبالغ. إنك أجمل امرأة قابلتها في حياتي، وأي رجل في العالم يتمنى أن يعيش مع امرأة مثلك، حتى بدون أطفال.
- نظرت إليه غير مصدقة ما تسمع. وبالرغم من أنها اعتبرت كلامه مبالغة، إلا أنه أعجبها ومنحها مشاعر جميلة، وتمنت أن يستمر في كلامه الذي لم تسمع مثله في حياتها، فحتى زوجها الذي ارتبطت به عن حب لم يُسمعها مثل هذا الكلام. نظرت إليه بتأمل للحظات وقالت بشكل مرح ومشاكس:
- يعني لو قُدر لك أن تختار، فهل ستتزوجني؟
- وبدون أي تفكير، وبدون أيما تردد قال لها بحماس، إذ أنه كان يتخيلها في تلك اللحظات عارية معه على السرير:
- نعم. نعم. وبلا أي تردد.

ضحكت من أعماق قلبها بمرح وقالت له والسعادة تشع من وجهها المثير:
- شكرًا لك. إنك تبالغ كثيرًا. وعلى أي حال أنك ستسافر. هيا بنا نمر على
المكتب لننجز ما علينا.

أشارت هي للنادل بإشارة لتسديد الحساب، مد يده إلى جيبه ليخرج
النقود فأشارت له بالأفعال:

- أنا التي دعوتك.

- لكن.

- دعك من هذا. ستدفع أنت في المرة المقبلة.

جاء النادل وهو يحمل محفظة جلدية سوداء وفيها فاتورة الحساب.
وضعها أمامهما ومضى. نظرت هي للفاتورة ووضعت ورقة نقدية في
المحفظة. خاب أمل آدم التائه. أحس أنها تفلت من بين يديه بعدما أوصلها
إلى الذرى وكاد يحصل عليها، لكنه لم يفقد الأمل، إذ قال لها وهما يقومان:
- عليّ دعوتك المرة المقبلة.

نظرت إليه وعلى وجهها مشاعر قلق خفي مع رغبة واضحة في
التواصل، وقالت:

- سنرى. علينا الآن الاتصال بالسفارة.

- بالمناسبة. أردت أن أسألك عن شيء لكنني لم أستطع لأن الحديث عن
اللغة والأدب قد أخذنا بعيدًا.

- اسأل.

- هل تؤمنين بالأرواح، أو الأشباح، أو أي شيء من هذا القبيل؟

كانا متوجهين نحو السيارة التي لم تكن بعيدة سوى أمتار عنهما. ما إن
سمعت سؤاله حتى وقفت، نظرت إليه للحظة ثم قالت:

- نعم أو من بها. وأنت؟

كان هو مترددًا، لكنه وجد في الأمر محاولة لتفسير كل ما جرى له في المستشفى، ومن ناحية أخرى كانت فرصة أخرى للتواصل معها، فقال:

- لا أدري. لقد جرت لي أمور غامضة في المستشفى، وأعجز عن تفسيرها.
- مثل أي شيء. هل رأيت أشباحًا هناك؟
- ليس بالضبط.

وصلا إلى السيارة، لكنها لم تفتح الباب لأن الموضوع أثار اهتمامها، فقالت له وهي على الجانب الآخر من السيارة قرب الباب:

- ماذا رأيت إذن؟
- رأيت أرواحًا. لا أدري. رأيت راهبتين.
- رأيت أم تخيلت أنك تراهما؟
- نعم. لقد تحدثت معهما كما أتحدث معك الآن. لكنهما اختفيتا فجأة وبطريقة غامضة!

نظرت إليه للحظات ثم قالت وباهتمام، لكن ببطء:

- هذا أمر مثير حقًا. وأنت ماذا تعتقد؟
- لا أدري.
- لنذهب الآن ولتحدث عن ذلك بالتفصيل في ما بعد، فهذا الأمر يحتاج لمكان أكثر هدوءًا.
- حسن جدًا.
- دخلا إلى السيارة، وانطلقا.

- عليك ألا تنسي جواز السفر!

قال آدم اللبناني ذلك وهو يحمل حقيبة حواء المؤمن الجلدية الكبيرة التي جمعت فيها ملابسها وما تحتاجه من مواد زينة، وخرج. فتحت هي

صندوقًا صغيرًا كان في باطن الدولاب الخشبي الكبير الذي يغطي أحد جوانب غرفة النوم. أخرجت جوازها الأزرق ورزمة من الأوراق النقدية. فكّرت لحظة في أن تأخذها كلها، لكنها ترددت. أخذت بعض الأوراق النقدية، وأعادت الرزمة إلى الصندوق، ثم مدّت يدها وأخرجت بطاقة البنك الخاصة بها. أغلقت الصندوق وأرجعته إلى زاويته تحت بعض الملابس، وأقفلت الدولاب، وخرجت من الغرفة.

حين وقفت حواء المؤمن عند الباب الخارجي للشقة قبل أن تغلقها نهائيًا شعرت وكأنها تودع حياتها السابقة، الهادئة، الوديدة والبريئة. كانت تشعر بخوف خفي وغامض مما ينتظرها في حياتها المقبلة، حياتها التي عليها أن تخوضها وحدها، فهي تعرف أن آدم اللبناني يحتاجها من أجل الحصول على الإقامة الدائمة، وهي تحتاجه أيضًا لأنه أبو جينها الذي ينمو في أعماقها، والذي حطمت حياتها الزوجية من أجله.

كانت تشعر بالانهيار النفسي وكأنها تنزلق من جبل ثلجي إلى هاوية، إلى أعماق وادي الظلمات، ليس أمامها وهي تنزلق سوى الظلام الذي لا قرار له. أطبقت الباب بقوة، وبالمقابل دفعت باب شقة آدم اللبناني. كان الظلام يغمر الشقة، ولأول مرة اكتشفت أن هذه الشقة صغيرة جدًا ويشعة، هواؤها فاسد مشبع برطوبة عفنة، ولأول مرة انتبهت إلى أن هذه الشقة تعمّها الفوضى والقدارة. أغمضت عينها لثوانٍ ودخلت مستسلمة لقدرها الغامض!

حين وصلا إلى المكتب السياحي كان الباب الخارجي مغلقًا بالمفتاح، المكتب بدا مظلمًا. أخرجت إيفا بيرغمان مفتاحها الخاص. فتحت الباب. دخلت. ضغطت على أزرار الإنارة فتألق المكتب بالضوء الكثيف. كان المكتب خاليًا ولا يبدو أن أحدًا من الموظفين كان هنا. لم يدخل آدم التائه خلفها مباشرة وإنما ترك مسافة بينهما ليتأمل ساقها ومؤخرتها وقوامها من

الخلف، شعر بالإثارة لجمال ساقها وتناسقها وأنوثتها، وحين دخل طلبت منه الجلوس على الكرسي الذي أمام طاولتها بعد أن وضعت حقيبتها إلى جانب كرسيها. كان هو يتأملها، انتبه إلى ملامح وجهها عندما كانت ملتفتة إلى الجانب الآخر. بدا له وجهها مهمومًا وقلقًا، وكأنها تفكر بأشياء بعيدة جدًا، إلا أنها حين التفتت إليه بعد ثوانٍ قليلة عاد ذلك التألق والمرح إلى وجهها.

توجهت إليه وسألته إن كان يريد أن يشرب شيئًا فشكرها. قامت هي عن كرسيها وذهبت إلى عمق المكتب، غابت في غرفته الداخلية الخاصة بالموظفين. بقي هو وحده في المكتب لا يدري ماذا يفعل، نظر من خلال واجهة المكتب إلى الشارع فاستغرب لوجود المرأة الألمانية العجوز التي كانت تحدد إلى قبل أيام حينما جاء إلى المكتب في اليوم المطير، كانت تحدد إليه غير آبهة بالمارة الذين لم يكونوا متبهرجين لها. استغرب آدم التائه من هذه المصادفة الغامضة وشعر بشيء من الانخطاف النفسي والدهشة المريبة. فجأة انتبه على صوت إيفا بيرغمان وهو يعيده لوضعه. كانت قد حملت لنفسها كأسًا من الماء. انتهت لحالته والدهشة المريبة الممزوجة بالخوف على وجهه، فسألته:

- ما بك؟ هل تشعر بألم أو بأي شيء غير طبيعي؟

- لا. لكن تلك المرأة العجوز.

- أي امرأة عجوز؟

التفت إلى جهة الشارع لكي يشير إليها فلم يجدها وكأنها لم تكن موجودة أصلاً، تجمدت الكلمات على شفثيه، لم يستطع التواصل مع إيفا بيرغمان حول الموضوع، أحس بارتباك مفاجئ، فقال لها سائلاً:

- هل بالإمكان أن أطلب كأسًا من الماء. رجاء؟

نظرت إليه مستغربة وقالت:

- طبعًا.

ونفضت متجهة إلى أعماق الغرفة. أحس بطبقة خفيفة من العرق البارد تبلل جبينه، مسحها بكفه. بعد لحظات جاءت إيفا بيرغمان بكأس الماء وأعطتها له، وسألته:

- هل تشعر بأنك لست على ما يرام؟ هل تحتاج إلى طبيب؟ هل تريد أن آخذك إلى المستشفى مرة أخرى؟

حاول ألا يبدو ضعيفاً أو مرتبكاً لكن محاولته هذه زادته ارتباكاً. انتبهت هي لحالته، ولكي تخلصه من ارتبائه بادرت بمرح قائلة:

- دعنا ننجز مهمتنا الأساسية، ألا وهي الاتصال بالسفارة!

أدرك آدم النائه إلى أنها تسعى لتخليصه من حالته، فشكرها في أعماقه، وقال بحرارة لا تتناسب مع ما كان عليه من ارتباك قبل لحظات:

- طبعاً. طبعاً. هذا هو الأمر الأساسي.

- أنا سأنزل مع الحقيقة أولاً، وسأنتظر عند محطة الأوتوبيس التي قرب الجسر، ويمكنك بعدى بخمس دقائق أن تنزلي حتى لا نشير الشبهات ولا يتنبه الجيران لذلك. أنا سأخذ الحقيقة لأنك لا تستطيعين حملها، لا تنسي حقيبتك اليدوية وجواز سفرك.

قال آدم اللبناني ذلك وفتح الباب خارجاً. ترك الباب مفتوحاً خلفه. كانت حواء المؤمن واقفة وسط الشقة الصغيرة كالمسوسة التي لا حول لها ولا قوة. تقدمت بشكل آلي نحو الباب وأغلقتها. اتكأت على الباب بظهرها. ظلت لدقائق واقفة في موضعها. فجأة أحست برغبة قوية في التقيؤ. مضت مسرعة نحو غرفة الحمام. كانت تضغط على نفسها من أجل أن تخرج كل ما في جوفها، ولأول مرة شعرت بأنها تكره الحمل، وأنها لا تريد هذا الجنين! نظرت إلى وجهها في المرآة العكرة، أخذت شيئاً من الماء بكفها وبدأت تغسل المرآة. اجتاحتها رغبة مفاجئة في تنظيف المرآة. أخذت تحمل الماء

بكفها وترشه على المرأة. بدأت المرأة تنظف شيئاً فشيئاً حتى صارت صافية. نظرت إلى نفسها. راودتها رغبة في أن تبصق على صورتها التي في المرأة. جمعت ماء في فمها وبصقت بقوة على صورتها في المرأة. ارتعت من المرأة التي في المرأة، فزت لحظة بصاقها لأن المرأة التي في المرأة بصقت عليها أيضاً. شعرت بعينها وقد امتلأتا بالدمع الذي يأبى أن ينزل. مسحت سطح المرأة من البصاق الذي كان قد انحدر إلى الأسفل، غسلت المرأة مرة أخرى، نظرت لبطنها المنتفخ قليلاً، راودتها رغبة حقيقية في إجهاض حملها، اجتاحتها إحساس بأن هذا الحمل الذي قد دمّر حياتها، وضحت من أجله بأمانها واستقرارها وسمعتها، قد صار لعنة الآن. وأحست بأن رغبته فيه قد ماتت، ما العمل؟ إنها لا تعرف ماذا تعمل! إنها عاجزة عن فعل أي شيء يمنع انحدارها المرعب إلى وادي الظلمات الذي يفتح شقيقه لانتهاهما!

خرجت من الحمام وكأنها ليست حواء المؤمن نفسها التي دخلت إليه قبل قليل. أحست بشجاعة غريبة، شجاعة اليائسين الذين يذهبون إلى حتفهم دونما أي احتجاج أو خوف. أخذت حقيبتها الجلدية وخرجت من الشقة وأطبقت الباب خلفها بقوة. هبطت السلم الخشبي الذي كانت العتمة تغمره.

كانت علامات القلق واضحة على وجه آدم التائه وهو يضع سماعة الهاتف على الجهاز. كان وجه إيفا بيرغمان مليئاً بالتساؤلات وهي تنتظر أن يفصح عما جرى خلال المحادثة الهاتفية. لقد تحدثت مع السفارة الإماراتية، ولكونهم أرادوا معرفة بعض التفاصيل فقد سلمت الهاتف إليه ليحدثهم بالعربية ويجب عن أسئلتهم ويوضح لهم وضعه، لكن كما يبدو أن الأمور ليس سهلة. كانت تنتظر أن يتحدث، لم تسأله مباشرة، نظر إليها ورأى الأسئلة تزدحم في وجهها المثير، فقال:

- يقولون إنهم لا يستطيعون منحني تأشيرة على جواز سفري هذا. لو كان لدي جواز السفر الألماني الاعتيادي لكان بإمكانني دخول الإمارات بدون

تأشيرة، حيث سأستلمها هناك في المطار، ولو كان لدي جواز السفر الذي يمنح للمقيمين، وهو ما يُسمى بالجواز الإنساني لكان بإمكانهم منحي تأشيرة مؤقتة، لكن مع هذا الجواز الخاص باللاجئين السياسيين، فلا يمكنهم ذلك. - خسارة.

قالت إيفا بيرغمان بمشاعر إحباط صادقة. صمت هو للحظات. نظر إليها وكأنه يتردد في طرح سؤال. انتبهت له، سألته:

- ماذا. هل تريد أن تقول شيئاً؟

تردد قليلاً ثم سألتها:

- هل يمكنني أن أستبدل الجواز الخاص باللاجئين السياسيين بالجواز الآخر الخاص باللجوء الإنساني؟

ارتسمت على وجهها علامات القلق والتفكير وقالت بعد لحظات:

- لا أعرف. يمكننا أن نسأل في دائرة الأجانب هنا في بلدية المدينة. دعني أقم بهذه المهمة، لكن ماذا لو رفضوا ذلك؟

فقال هو بخيبة واضحة واستسلام يائس:

- لا أدري ماذا سأفعل حينها.

أحسّت هي بكثافة الخيبة والمعاناة التي تقبض على نفسه، فقالت له بنبرة مواسية:

- لا توتر نفسك. وضعك الصحي لا يسمح لك بالتوتر. سأستفسر أنا من دائرة الأجانب.

قالت ذلك وأخذت سماعة الهاتف وطلبت بلدية المدينة، والتي كما بدا تعرف رقمها جيداً. خلال لحظات كانت تتحدث بالألمانية مع شخص على الجانب الآخر من الهاتف:

- نهارك سعيد. أنا إيفا بيرغمان. لدي سؤال لو سمحتم. سؤال يخص شخصاً أجنبياً حصل على الاعتراف به هنا في ألمانيا كلاجئ سياسي، لكنه

يريد الحصول على جواز المقيمين من غير السياسيين؛ لأن هذا الجواز لا يتيح له الحصول على تأشيرة الدخول لبعض البلدان. ماذا؟ الشخص المعني بالإجابة على هذا السؤال غير موجود حاليًا. آدم أوستندورف؟ متى سيأتي السيد آدم أوستندورف؟ بعد فترة الغداء؟ الساعة الثانية بعد الظهر؟ شكرًا. سأتصل حينها. شكرًا جزيلًا.

كان هو مشدودًا إلى كل كلمة قالتها عبر الهاتف، ولم يكن الأمر يحتاج إلى شرح، فقد فهم من سياق حديثها بأن الشخص المسئول غير موجود، ويمكن الاتصال به بعد الثانية عصرًا. أدركت هي بأنه فهم ما دار من حديث لكنها كانت تجد نفسها ملزمة بالإيضاح له، فقالت:

- كما سمعت، الشخص المعني غير موجود، و... فقطاعها بهدوء قائلاً:

- لقد سمعت ذلك وفهمت، يعني أمامنا ثلاث ساعات ونصف تقريبًا.

نظرت هي إلى الساعة المعلقة على الجدار وقالت:

- بالضبط. ماذا ستفعل الآن؟

أحس بشيء من الحرج فقال بارتباك:

- علي أن أذهب إلى البيت.

- وأنا علي أن أذهب إلى المستشفى. لكن يمكنك أن تعود الساعة الثانية،

سأنتظرك هنا كي نتصل مرة أخرى، فعسى أن نحصل على نتيجة طبية!

ابتسم لها بمودة وارتباك وقال بحرارة:

- أنا أشكرك جدًا جدًا على طبيبتك ومساعدتك لي.

تأثرت بنبرة الصدق في صوته والمشاعر التي تجلّت على وجهه وقالت:

- لا شكر على واجب. يسعدني أن أساعدك، لكنك لم تحدثني عن رؤيتك

لما سميت بالأرواح. لا ضير. عندما تعود بعد الظهر سنجد الوقت الكافي

لذلك. والآن علي الذهاب إلى المستشفى. هل تريد أن أوصلك إلى مكان محدد؟

- لا شكرًا. أحب المشي. وبيتي ليس ببعيد من هنا، أنا أعيش في بيرغ شتراسه.

فقالت مؤكدة على كلامه:

- إنه قريب من هنا فعلاً، لكنني أستطيع أن أوصلك لمنتصف الطريق، فالمستشفى تقع على الجانب الآخر المقابل له.

كان يود هو أن يكون معها بأي شكل فقال:

- ربما سأزعجك بذلك؟

فقالت بعفوية:

- لا إزعاج. على الرحب والسعة. يسرني الحديث معك.

قالت ذلك وأخذت حقيبتها. خرج هو قبلها من المكتب. أطفأت الضوء في المكتب، وأغلقت الباب بالمفتاح، حينما استدارت رأته متوترًا قليلاً. سألته:

- هل هناك ما يقلقك؟

- أريد أن أدخن.

- لكن التدخين مضر بصحتك! أنت في مرحلة نقاهة بعد الأزمة القلبية التي تعرضت لها!

- نعم. لقد منعني الأطباء من التدخين، وأخذوا ما كان معي من سجائر، لكنني أحس برغبة كبيرة في تدخين ولو سيجارة واحدة.

- لا. لا. يجب أن تلتزم بما قاله لك الأطباء، إنك ما زلت في دور النقاهة.

بينما هما يتحدثان التفت هو فجأة وكأنه كان يحس أن هناك من يراقبه. رأى المرأة العجوز واقفة لا تتحرك وهي تنظر إليه. أراد أن يخبر إيفا بيرغمان عنها لكنه تراجع عن ذلك. فكّر مع نفسه في أنها سوف تستغرب من تصرفاته، فما معنى خوفه من وجود امرأة عجوز في الشارع؟ ولماذا يتصور أنها تراقبه

هو دون غيره؟ لكنه حينما التفت مرة أخرى نحو المرأة العجوز لم يرها!
كانت قد اختفت مرة أخرى.

آدم البغدادي: أين هو الواقع وأين اللا واقع؟ مَنْ يصدق أن ما أرويه،
بالرغم من أنه حصل فعلاً، أنه شيء واقعي، وأنه قد حصل؟ من هي (إيفا
بيرغمان)؟ لماذا هي تتعاطف معه بهذا الشكل غير المعروف بالنسبة
للأوروبيين في التعامل مع الأجانب؟ لكن بالتأكيد ليس كل الأوروبيين
يتحسسون من الأجانب، فهناك فعلاً من يصادقونهم ويساعدونهم، أترى هي
منهم؟ هل هي مقدمة لقصة حب رومانسية؟ لا أدري.

الأوغاد مرة أخرى

توقف آدم المحروم عن القراءة في المخطوطة، لم يستطع أن يعلق على ما كتبه صديقه المغدور آدم البغدادي على هامش الفصل، أحس بأن الأسطر صارت غير واضحة والرؤية غير واضحة. انتبه إلى أن الظلام قد غمر الغرفة، فقد كان الوقت يشير إلى الخامسة عصرًا، ولكون الغرفة يحجبها جدار في الجهة المقابلة للشباك الوحيد، فإن النور لا يصل إليها، ومع انكسار الشمس نحو المغيب عتّمت الغرفة بالرغم من أن الشمس ما زالت على حافة الأفق! نهض بتكاسل عن السرير، مطّ جسده بحركة كسولة كي يطرد الخدر والتأمل الذي دبّ فيه لاستلقائه فترة طويلة متكئًا على كوعه وهو يقرأ. أراد أن يضغط على الزر الكهربائي كي يضيء الغرفة، لكنه في الثواني الأخيرة توقف. التفت إلى الباب الذي يفصله عن الغرفة المجاورة. فكّر بسرعة خاطفة، فيما لو أنه أنار الغرفة فلربما ستتنبه جارته في الغرفة المجاورة من خلال ثقب المفتاح في الباب. لم يضغط على الزر وإنما تحرك بحذر نحو الباب الفاصل وجلس مقرّصًا، ملصقًا عينه بالثقب الذي يتوسط الباب من إحدى جهاته كموضع للمفتاح.

كان الفضول قد بثّ الحياة في نفسه وأنساه حالته ولو لفترة وجيزة. نظر من خلال ثقب الباب فرأى حواء شمعون عارية بالكامل وفي وضع جنسي مزدوج مع اثنين من الرجال الذين زاروها، بينما الثالث يصورها بجهاز الموبايل. كانا يحدانها من الأمام والخلف. تمص قضيب أحدهما والآخر يولجه فيها من الخلف. كانت تلهث وتتنّ بينما أحدهم يضربها على

مؤخرتها ويقول لها: "وتعملين نفسك شريفة برؤوسنا". بقي آدم المحروم لفترة طويلة يراقبهم من ثقب الباب إلى أن أنهوا ما كانوا فيه، وبدأوا يرتدون ثيابهم، بينما ظلت هي عارية.

تأمل آدم المحروم جسدها المثير وأحس بالدماء تجري في عروقه. انتبه لنفسه وهو يلهث وحبوبات من العرق تغطي جبينه. قام بهدوء شديد من مكانه، جلس على سريره، أحس بالانتصاب الكامل والقوي. وبحركة لا واعية سحب سحّاب بنطاله وأدخل يده يداعب قضيبه. ولكي يسهل على نفسه، نزع بنطاله بالكامل فبقي بسرواله الداخلي. اقترب من ثقب الباب مرة أخرى، قرفص بطريقة لا تضايقه، نظر من ثقب الباب، فرأى حواء شمعون ما زالت عارية، وكانت تنظف ما بين فخذيها بمناشف ورقية رقيقة، وتراءى له بأنها تبكي. كانت أنفاسه تتصاعد. رفعت رأسها باتجاهه، ارتعب، راوده خاطر وكأنها انتبهت لوجوده، حبس أنفاسه، شعر بخدر لذيذ يسري في خلايا جسده، وحالة من الاسترخاء العصبي، مع شعور بعدم الارتياح وبشيء من الإثم. بينما تدفق منه بكثافة ملوثاً الأرضية. وبخطوات هادئة اتجه نحو باب الغرفة وفتحه ثم أغلقه بصوت مسموع وضغط على زر الكهرباء فأثار الغرفة. كان يريد أن يوحي لجارته، التي ربما انتبهت لوجود شخص ما وراء ثقب الباب الذي بين الغرفتين، بأنه دخل الغرفة الآن! ارتدى بنطاله، وأخرج من جيبه منشفة من الورق الشفاف، واتجه بهدوء فمسح الباب والأرضية من سائله اللزج.

فجأة. شعر بجوع شديد، فكّر مع نفسه: "كيف هجم الجوع عليّ هكذا بشكل مفاجئ، فقبل قليل لم أكن أشعر بالجوع، أما الآن فأريد التهام أي شيء!". لكنه لا يريد الخروج إلى الشارع! فكّر مع نفسه بإرسال الفتى القروي لشراء الكباب أو لفات الشاورما أو الفلافل. وكان كلما يخيّر نفسه بين أنواع الطعام يشعر بالجوع أكثر! وأخيراً قرّر أن يخرج هو بنفسه لشراء

الطعام، مَدَّ يده في جيب قميصه فوجد مبلغًا لا بأس به، فتح باب غرفته بعد أن نزع المفتاح عن الباب، أطفأ النور الكهربائي، وخرج.

حينما صار في الممر، وبالتحديد قرب باب الغرفة المجاورة، ترك مفتاحه يسقط على الأرض بطريقة أحدثت ضوضاء. كان يظن بأنها ربما ستخرج لترى ما يجري قرب بابها من ضوضاء، لكنها لم تخرج بالرغم من أنه شاغل نفسه ليطلق من أمد التواجد أمام باب غرفتها. ولم يكن أمامه سوى أن يمضي في الممر هابطًا إلى الطابق الأرضي.

حينما صار آدم المحروم في الطابق الأرضي رأى مدير الفندق منشغلًا بمتابعة مباراة لكرة القدم في التلفزيون، وكان هناك بعض الجالسين يتابعونها أيضًا. ألقى التحية على الجميع وخرج. نظر المدير إليه نظرة عابرة ثم استمر بمتابعة المباراة.



كانت الشمس قد استلقت على خط الأفق ولم يبقَ من شعاعها سوى النزر اليسير الذي لا ينير دربًا، وحيث بدأ أصحاب المحال والدكاكين بإضاءة مصابيحهم، التف في فرع جانبي مجاور للفندق، جذبته إليه رائحة شواء الكباب والخبز الحار المنبعثة من مطعم للمشويات.

حين صار هناك طلب من صاحب المطعم تجهيز وجبة من الكباب لشخصين مع ملحقات الوجبة من خبز ومخللات وبصل وعلبتين من البيسي كولا. فكّر في أنه معتاد على السهر إلى أول ساعات الفجر، وهذا يعني أنه سيجوع بلا شك! دفع مبلغ الوجبتين ووقف قرب باب المطعم منتظرًا تجهيز طلبه. جذبته من هناك رائحة الشاي الممزوج بالهيل والمعدّد على الطريقة العراقية، كان هناك رجل مسن قد اتخذ من الزاوية المجاورة للمطعم مكانًا لصنع الشاي. اقترب من الرجل الذي يمكن أن يكون بعمر والده، وجلس على صفيحة معدنية فارغة، طالبًا منه إستكانًا من الشاي، بعد

لحظات قدّم الرجل المسن له إستكان الشاي، شربه بلهفة وتلذذ، وطلب تكراره. انبسطت أسارير الرجل المسنّ لأنّ شايه أعجبه، فقال بهلجة أبوية ذات نبرة جنوبية:

- كأنما أراك عطشانًا للشاي.

ابتسم آدم المحروم وقال بنبرة فيها هدوء وتعاطف:

- بلى والله يا حاج، عطشان للشاي، صار لي يوم كامل لم أشربه.

نظر الرجل العجوز إليه، وقال بنبرة مليئة بالمرارة:

- من أين يأتي الحج يا ابني. لست حاجًا. ما شاء الله كل رؤساء دولتنا حجّاج، وكل الذين جاءوا للحكم حجّاج، ويا لهم من حجّاج؟ إنهم يخضمون مال الله خضمة الإبل نبتة الربيع، كما جاء في خطبة الشقشقية لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. هؤلاء الذين جاءوا باسم الإمام علي وآل بيته، هم الذين قال عنهم في خطبته: (كأنهم لم يسمعوا كلام الله حيث يقول: "تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوًا في الأرض ولا فسادًا والعاقبة للمتقين."، بلى والله لقد سمعوها ووعوها، ولكنهم حليت الدنيا في أعينهم وراقهم زبرجتها). نعم يا ابني لم يتركوا هؤلاء لنا أن نقوم حتى بفرائض ديننا.

انتبه آدم المحروم إلى أنه أمام رجل يحفظ شيئًا من خطب «نهج البلاغة»، ويتحدث بعمق مفكرٍ، فهو ليس رجلًا عجوزًا يكسب رزقه من بيع الشاي لرواد مطعم المشويات المجاور فحسب، وإنما رجل يدفن في أعماقه معارف وأسرارًا، فراودته رغبة في أن يستكشف هذا الرجل المسن طيب الملامح، فقال له:

- لكن هؤلاء خلصونا من أكبر طاغية عرفه تاريخ العراق الحديث.

نظر الرجل العجوز إليه بتفحص وكأنه يريد أن يعرف مع من يتكلم ويزن الشخص الذي أمامه، فقال:

- هم لم يخلصونا من شيء. الأمريكان احتلوا العراق وأسقطوا النظام لمصالحهم الخاصة بهم، لكنهم والغريب جاءوا بهم إلى سدة الحكم، بالرغم من أن العارف ببواطن الأمور لا يستغرب ذلك أيضًا. ثم إن هؤلاء لم يغيروا شيئاً سوى منحنا حرية اللطم والبكاء على آل البيت الأطهار. صحيح أن الناس كانوا متعطشين لأداء مراسيمهم وشعائهم وطقوسهم، لكن هؤلاء الذين يجلسون على كرسي السلطة حولوا هذه الطقوس والمراسم إلى ما يشبه الفريضة، ومن خلال ذلك دمروا البلاد والاقتصاد والعباد، بل تحت غطاء هذه المراسم تجري جرائم في السر، ويتنفع حفنة من التجار في السر والعلن. ارتبك آدم المحروم من صراحة هذا الرجل العجوز وجرأته في نقد رجال الحكم الجديد، فأراد أن يغير الحديث:

- على أي حال يا حاج، إنهم لم يجبروا أحداً على اللطم. ثم إن الناس لا تلطم من أجل الحسين، وإنما تلطم نادبة حالها المزري وتعاستها! نظر الرجل العجوز إليه نظرة متفحصة وشعر بخوفه منه فأدرك سر ارتبাকে، فقال له:

- لا تخف يا بني، لست جاسوساً أو وكيل أمن. لا تخف مني ومن كلامي. أنا أمضيت عمري في العمل السري وسنوات أخرى في السجون، لست إرهابياً ولا من فلول النظام البائد، لكني زاهد في هؤلاء الذين سيدفعون الناس إلى أن تترحم على الطاغية المقبور. أنت دخلت قلبي من أول لحظة رأيتك فيها؛ إنك تشبه ابني الشهيد، فلا تخف. (توقف لثوانٍ ثم واصل ساخراً بمرارة)، أليست لدينا حرية وديموقراطية كما وعد الأمريكان، فلماذا أنت خائف؟

برغم ارتبাকে أحس آدم المحروم بالارتياح لتوضيحات الرجل المسنّ، فسأله من باب الفضول:

- ولماذا تبغ الشاي هنا إذا كنت من المناضلين؟ وكما أظن أنك من الإسلاميين أيضاً ولم تكن شيعياً، فهذا واضح من لغتك واستشهاداتك بخطب الإمام علي!

كان الرجل المسن يصب الشاي في مجموعة من الإستكانات التي صفّها في صينية، وهو مستمر بالحديث:

- صحيح. أنا كنت عضوًا في الحزب الحاكم الآن، وقد دعوني في بداية الأمر لتسليم موقع في إحدى مؤسسات الدولة، لكن حدث أن رأيت في بعض الاجتماعات وجوهاً كانت قد انهارت في السجن، واعترفت لأجهزة المخابرات عن نشاط بعض المناضلين الذين تم على إثر ذلك إعدامهم. رأيت حفنة من هؤلاء الآن يتحدثون بنبرة عالية جدًّا، بل وتسلموا مناصب قيادية في الحزب والدولة، ولم أسكت عن ذلك، لكن كل صراخي كان بلا جدوى، بل إن هؤلاء على العكس، هم لفقوا لي تهمة التخاذل، والتعاون مع الأعداء. فتصور السخرية. بل كاد الأمر يؤدي بي إلى التهلكة لولا تدخل بعض الخبيرين الذين أيدوني على ما قلته، لكنهم آثروا السلامة ونصحوني بالابتعاد عن الصراع، وها أنا كما تراني أبيع الشاي.

نهض الرجل المسن ليحمل صينية فيها بعض إستكانات الشاي إلى داخل المطعم. فكّر آدم المحروم مع نفسه للحظات وهو يتأمل الرجل المسن وقال مع نفسه: مَنْ يمكنه أن يفكر أن هذا الرجل البسيط الذي يبيع الشاي في هذه الزاوية هو مناضل حقيقي، ومثقف، أضاع شبابه في السجن والحياة السرية، ويرفض أن يشارك في وليمة اللصوص؟ وبينما كان يحدث نفسه جاء عامل المطعم وبيده كيس من النايلون يضم طلبيته من الطعام، وقبل أن يذهب جاء الرجل المسن فأعطاه آدم المحروم ورقة نقدية ثمناً لما شربه من شاي. شكره الرجل المسن مبتسمًا له بود، وقال:

- كلما تعطش لشرب الشاي تعال إلى هنا!
- شكرًا يا حاج. أنا أسكن مجاورًا لك في هذا الفندق.
- إذن تعال كلما أحببت أن تشرب الشاي، فأنا هنا حتى وقت متأخر من المساء.
- شكرًا، ربما سأمر.

ما بين خروج آدم المحروم من الفندق وانتظاره لطلبيته من المشويات وشربه الشاي وحديثه مع الرجل المسنّ وبين توجهه إلى الفندق كان الظلام قد هبط على بغداد، وبغداد في المساء تبدو شاحبة، وكلما توغل الليل في أعماقها كلما ازدادت رعبًا، بل تتحول إلى مدينة أشباح مخيفة.

كانت الشوارع قد أفقرت تقريبًا، والدكاكين في الجهة المقابلة بدت كأطلال مهجورة، بالرغم من أن المساء في أوله. كان أبرز ملامح الشارع والمنطقة عمومًا هو كثافة سيارات الشرطة وبعض آليات الجيش والحرس الوطني. لكن في الزقاق الفرعي المجاور للفندق كانت الحياة تبدو في عنفوانها برغم الكآبة الواضحة.



حينما دخل آدم المحروم الفندق كانت المباريات قد انتهت، لم يكن في الفندق سوى الفتى القروي ورجل آخر يلبس الدشداشة العراقية ويبدو سبعة ويشاهد ندوة تلفزيونية. مرّ هو صاعدًا بعد أن ألقى التحية عليهما. فكّر وهو يصعد الدرج بمدير الفندق وبقية الرجال، وتساءل مع نفسه: أين ذهبوا؟

حينما صار بالقرب من باب جارته تباطأ قليلًا عسى أن يسمع شيئًا يصدر منها، لكن كل شيء كان هادئًا في الغرفة والممر. وما إن عبر الفسحة قرب باب الغرفة المجاور ووصل بابه حتى أحس بجوع غريب. فتح باب الغرفة مسرعًا، وضغط على زر الإنارة فأضاء الغرفة. وضع كيس النايلون على السرير. مد يده في الحقيبة الجلدية وأخرج صحيفة كان قد حملها معه، فتحتها وأخرج وجبة من المشويات مع المخلل والخبز والبصل، وبدون أي انتظار أخذ يلتهم الطعام التهامًا. كان يأكل بسرعة وكأنه يتسابق مع الوقت.

انتبه إلى صوت قادم من الغرفة المجاورة، وكأنه سقوط قنينة أو صحن، ثم ساد الصمت مرة أخرى. أراد أن ينهض ليرى من ثقب الباب الأوسط ما يجري في الغرفة المجاورة إلا أن خدرًا ما كان يسري في جسده، فحمل

الصحيفة وكيس النايلون ووضعهما على الأرض قرب السرير وتمدد كي يستمتع بهذا الخدر اللذيذ وبعلبة البيبسي الباردة.

لا يدري آدم المحروم كيف قفزت صورة الرجل المسنّ إلى ذهنه. فكّر مع نفسه أنه شخصية درامية ممتازة: "شخصية متميزة رفضت كل الهيلمان وجبروت السلطة والمال والجاه، لا سيما في مثل هذا الزمن الذي اختلط الحابل فيه بالنابل! لا. أنا لا أحب هذه العبارة التقليدية، وهذه الصورة القبيحة التقليدية، (الحابل بالنابل). لا. لا. هذه عبارة جاءت من حروب الصحراء ومن عصور متخلفة تكنولوجياً، فقد ولى وانتهى عصر النبال والقوس والسهم. إننا في عصر كاتمات الصوت والمفخخات والعبوات الناسفة، عصر طيارات الأباتشي والشبح، وليس عصر الجمال والجياد حتى يختلط من يحمل الحبل مع الذي يحمل النبال والسهم"، ابتسم لنفسه من مقارنته البعير بالأباتشي وطائرة الشبح والنابل بحامل مسدس كاتم الصوت، لكنه عاد إلى التفكير ببائع الشاي المسنّ. شعر برغبة في أن يذهب إليه، فحديثه الصريح كان له تأثير جيد على نفسه، إذ لا يدري كيف أحس بعد الحديث معه، بالأمان ودفق من شجاعة مؤقتة؛ ربما لصراحته وعدم خوفه من الحكام الجدد، لا يدري! رغبته في النزول إليه كانت تنمو وتتصاعد في أعماقه، لذا قرر أن يذهب لشرب الشاي. لم يكمل علبة البيبسي، إذ مدّ ذراعه واضعاً إياها على الأرض. نهض من السرير ببطء، لكنه قبل أن يخرج من الغرفة خطا بهدوء نحو الباب الأوسط، انحنى بجذعه على ثقب المفتاح ونظر إلى الغرفة الأخرى، رأى جارته ممتدة على سريرها ويدها جهاز هاتف نقال وتحدث بهدوء مع شخصٍ ما، تراجع عن الباب، واتجه نحو الباب الخارجي، أطفأ المصباح وغادر الغرفة.

فوجئ الرجل العجوز حينما رأى آدم المحروم يتجه نحوه، فابتسم له بمودة وحنان أبوي. مدّ آدم المحروم يده بشكل لا إرادي ليصافحه. كان الرجل

المسنّ لا يملك مقاعد للجلوس سوى ثلاث صفائح، يجلس هو على واحدة منها أحياناً، إذ أن معظم يبيعه للشاي يعتمد على طلبات المطعم المجاور.

جلس آدم المحروم على مقعده الصفيحي. كان مرتبكاً قليلاً، إذ استغرب هو نفسه هذه الحميمية التي جذبتة نحو هذا الرجل العجوز، ولم يكن يعرف كيف يبدأ معه الحديث، وقد انتبه الرجل العجوز لوضعه، فقال بمودة وبدون رسميات:

- هل اشتقت لشرب الشاي؟

- أي والله يا الحاج، فقد أكلت الكباب وشربت بعض البيسي، لكنني اشتقت لشرب الشاي الذي لم أجد أطيب منه.

- هنيئاً مريئاً.

صبّ له الشاي. خلال ذلك كان كل منهما يعرف أنه ليس الشاي وحده هو ما قرّب بينهما، وإنما ما تم الحديث عنه خلال اللقاء الأول، وأنه هنا كي يواصل حديثه. وقد ارتاح كل منهما للآخر، لكن الرجل المسنّ كان أكثر خبرة في الحياة، وأكثر جرأة على المبادرة، فقال له:

- أعتقد أنك لا تريد شرب الشاي فقط، وإنما أنت تحس بالوحشة والوحدة لذا تحب الحديث والحوار. أليس كذلك، أم أنني مخطئ؟

فوجئ آدم المحروم من صراحة الرجل المسنّ وجرأته، لكنه شعر بالرغم من ذلك بشيء من الارتياح لإزالة الحواجز الرسمية بينهما والصراحة في الحديث، فقال:

- هذا صحيح، أنا لم آت لشرب الشاي فقط، وإنما لأنني ارتحت لك حينما كنت هنا في المرة الأولى.

- وأنا ارتحت لك جداً. حينما أراك أحس وكأن ابني حي يرزق ولم يستشهد، لكن قل لي يا بني من أنت؟ ولماذا تعيش في هذا الفندق السيئ السمعة؟ إذ يبدو عليك أنك ابن ناس ولست من المتسكعين وطلاب المتعة الرخيصة؛ فما قصتك، حدثني فأنا مثل والدك!

بوغت آدم المحروم من هذه المواجهة السريعة، إذ بدا له أن هذا الرجل قد اخترق أعماقه، أو أنه عرف بفراصة الإنسان المجرب حالته النفسية التي فيها، وسأل نفسه للحظات، هل عليه أن يكون صريحاً معه أو عليه التريث. لكنه وجد نفسه يقول بتردد، وهو ينظر في وجه آدم الزاهد بتفحص:

- أنا اسمي آدم المحروم.

- عاشت الأسماء، وأنا اسمي أيضاً آدم، لكنني آدم الزاهد. إذن أنت محروم وأنا زاهد، آسف لمقاطعتك، أكمل يا ابني.

فجأة مدّ يده ثانية ليصافحه، فوجئ الرجل المسنّ من حميمية آدم المحروم، فاستقبل يده بحرارة وضغط عليها بكفة الثانية تعبيراً عن مودته له، فواصل آدم المحروم حديثه قائلاً:

- تشرفنا يا حاج آدم الزاهد. أنا خريج كلية الآداب، وكاتب صحفي. عشت لحظات خوف فظيع منذ الأمس، بعد اغتيال أحد أصدقائي، فقد وُجد مقتولاً في شقته، ولأنني أحد أقرب أصدقائه، وآخر من تحدثت معه هاتفياً، فقد شعرت بخوف، بل برعب هائل، مما دفعني إلى عدم النوم في بيتي فاخترت هذا الفندق كي أقضي فيه بعض الليالي.

نظر آدم الزاهد إليه نظرات تأمل وتحليل، وكأنه يريد أن يكتشف كذبه من صدقه، لكنه أجاب بما لم يكن آدم المحروم يتوقعه، إذ قال له:

- هل صديقك هو الكاتب آدم البغدادي الذي وجد أمس مقتولاً في شقته؟ بهت آدم المحروم وفوجئ بشكل أثار شفقة الرجل المسنّ، فسأل بفزع:

- نعم هو، لكن من أين تعرف؟

أجاب آدم الزاهد بهدوء وبطريقة لا مبالية كي يخفف عليه، ويمتص شيئاً من توتره وفزعه:

- المحطات الفضائية العراقية كلها تتحدث منذ الأمس عن ذلك.

- أنا لم أشاهد الأخبار منذ الصباح. ماذا يقولون في الأخبار؟
 أراد آدم الزاهد أن يهدئه، فقال بطريقته المحايدة:
- ليس هناك من جديد. كل المحطات تتحدث عن نفس الخبر مع إضافة هنا واختلاف قليل هناك، لكن في كل الأحوال هناك اتهام واضح للحكومة، ثم ما علاقتك أنت بالأمر؟ فأنت صديقه ولست قاتله!
- كان وجه آدم المحروم يلتقط بالأسى والانفعالات المكثفة وقال بنبرة مليئة بالحنق والأسى:
- هذه هي المشكلة. أنا صديقه، بل كنت على موعد معه قبل اغتياله، وقد تأخر عن الموعد، وبعد قليل وصلت سيارات الإسعاف ودخلت الفرع، ووقفت عند باب البناية التي يعيش فيها، أي أنه قُتل أثناء انتظاري له. ولو راجعت الجهات الأمنية المختصة هاتفه لعرفت أنني كنت قد اتصلت به ربما قبل مقتله أو حتى بعد ذلك. هذه الفكرة بحد ذاتها ترعبني.
- نظر آدم الزاهد إليه بأبوية وقال مهدئاً:
- يا ابني أنت لست بقاتله فلم كل هذا الخوف! أنا سمعت بهذا الكاتب، لم أعرفه سابقاً، فأنت تعرف أننا معشر المتدينين لا نقرأ الكتب الفنية والروايات، لا اعتقادنا أنها مضيعة للوقت. أو هكذا كنا نفهم الأمر. لكني، وبصراحة شديدة، عرفت من الأخبار فقط بأنه كان ممن يعارضون ممارسات الحكومة، وأنه كان ينظم مظاهرات بعض المثقفين في ساحة التحرير تحت نصب الحرية، وأنه يجتمع ببعض المثقفين العلمانيين في شقته. هذا ما ذكرته بعض المحطات.
- كان آدم المحروم يلتقط كل كلمة، فسأله مقاطعاً:
- وهل قبضوا على المجرم أو المجرمين؟
- نظر آدم الزاهد إليه بأسى وقال له بنبرة فيها عتاب خفي:

- أنت عاقل يا ابني، فكيف تقول كلامًا كهذا؟ تفاصيل الجريمة التي ذكرتھا المحطات هو وجود قاتل أو اثنين، وأنهما دخلا بهدوء إلى الشقة، ولم تكن هناك علامات عنف أو شجار، أي أن القاتل ربما من معارفه! أو من كان صديقك يأمن جانبه. لكن جميع الدلائل تشير إلى تورط بعض أجهزة الحكومة؛ بعضهم يقول إن أحد المسؤولين المقربين جدًا جدًا لرأس الهرم متورط بالأمر. مجرد إشاعات، لكن الحكومة في كل الأحوال هي المستفيد الأكبر من مقتله.

خفض آدم المحروم بصره إلى الأرض وقال بمראה:

- لكنه لم يشكل تهديدًا لأحد. إنه يرفضهم لأنهم كاذبون، وعدوا العالم بأشياء كثيرة لكن لم يحققوا شيئًا منها. هم مجموعة من اللصوص، والقتلة، ضحايا تمارس دور الجلاد. هو يعرف معظمهم ممن كانوا في سوريا أو المهجر الأوروبي. هؤلاء القادة كانوا يعيشون من المساعدات الاجتماعية في الدنمارك ولندن، صاروا اليوم يملكون القصور والحسابات المليئة بملايين الدولارات والشقق الفارهة في بيروت وعمان والقاهرة ودبي ولندن وسويسرا، معظمهم مشبهو السيرة. ربما كانوا يتعاملون مع مخبرات النظام البائد، أو مخبرات الدول التي عاشوا فيها، لكنهم اليوم يقودون البلاد إلى هاوية جديدة، هؤلاء الأميون قتلوا كاتبًا رائعًا وأديبًا فنانًا.

- الحكومات في الجوهر جبانة دائمة، وكلما زاد خوفها ازداد عنفها وبطشها. فجأة انهار آدم المحروم وأخذ يبكي، فوجئ آدم الزاهد ببكائه، لكنه فكر مع نفسه بأن البكاء ربما سيخفف من اختناقہ النفسي والهم والكرب الذي ينوء تحت ثقلهما. تركه للحظات يبكي، وحينما لاحظ آدم الزاهد صبي المطعم يخرج من داخل المطعم هاتفًا بصوت عالٍ ومسموع بضرورة صب خمسة إستكانات من الشاي، قال له بمواساة:

- لا تبك يا ابني، فالبكاء كما يُقال لا يرجع ميتًا، عليك أن تنتبه لنفسك.

وبشكل مفاجئ أيضاً توقف آدم المحروم عن البكاء، ونظر لآدم الزاهد الذي نظر إليه وقال له:

- عليك مغادرة هذا الفندق المشبوه، وفوراً.

لم يفهم آدم المحروم ماذا يقصد آدم الزاهد بجملته تلك فنظر إليه مستفسراً دون أن ينطق بأي شيء، منتظراً الإيضاح. كان آدم الزاهد منشغلاً بصب الشاي في الإستانات المصفوفة في صينية صغيرة، لذا لم ينتبه لنظرات آدم المحروم، وحينما نهض لتوصيل الشاي، رأى علامات الاستفسار على وجه آدم المحروم، فقال له:

- انتظرني لحظة حتى أرجع.

مضى آدم الزاهد حاملاً صينية الشاي إلى الزبائن داخل المطعم. بقي آدم المحروم وحده في الزاوية. قلقاً من جملته التي تطلب منه مغادرة الفندق فوراً، فانتظر مجيئه ليبيّن له أسباب قوله تلك الجملة التي خلخلت سكونه.

بعد دقائق أقبل آدم الزاهد وهو يكاد يجري، لأنه كان يعرف لهفة آدم المحروم لسماع توضيحه لما طلبه منه. وضع الصينية جانباً، جلس أمام آدم المحروم وقال له باهتمام واضح:

- هذا الفندق سيمتلئ الليلة برجال الأمن والمخابرات وأزلام الحكومة، وعليك مغادرته، فوجودك فيه سيضعك في موضع الشبهة، أما إذا عرفوا شيئاً عن علاقتك بالكاتب القاتل فستزداد هذه الشبهة عشرات المرات. ثم غدا ستكون الجمعة، وها قد امتلأت الساحة بالدبابات وسيارات الحرس الوطني، بل هناك في الشوارع الفرعية سيارات للاستخبارات وسيارات تابعة للأجهزة الحزبية تنتظر لتطويق المتظاهرين، فغدا سنتطلق مظاهرة كبرى، لاسيما بعد اغتيال صديقك الكاتب آدم البغدادي. هناك رعب حقيقي من المظاهرات التي تخرج من ساحة التحرير كل جمعة.

استمع آدم المحروم بهدوء، وكانت الكلمات تنزل ثقيلة على نفسه لكنها حادة وواضحة لتكشف له الوضع الذي هو فيه، فتمتم بصوت مختنق:

- لكن إلى أين سأذهب في هذا الليل؟
- نظر آدم المحروم إليه بتوسل مشوب بشيء من الشك، فنظر الرجل المسن إليه بهدوء أبوي وقال:
- ستأتي معي. تنام عندنا الليلة، وبعدها لكل حادث حديث.
- عندكم؟
- قال آدم المحروم ذاك وكأنه يخاف أن يكون فخاً، بينما واصل آدم الزاهد بنفس النبرة قائلاً:
- نعم عندنا. صحيح أننا نعيش بشكل متواضع، لكن بيتنا نظيف وأنا أعيش مع ابنتي وولدها.
- تسرب الأمان إلى نفسه من خلال نبرة الرجل المسن الذي كان يفيض طيبةً وهدوءًا.
- لكن.
- لا تملكن يا ابني. الوقت ليس في صالحك، لأنه ربما بعد ساعة أو أكثر ستكون هذه الفنادق المحيطة بساحة التحرير والطيران مواقع للأمن والاستخبارات، استعدادًا للتصدي لمظاهرة الغد.
- شعر آدم المحروم بخوف حقيقي وقال بحيرة:
- وماذا أقول لصاحب الفندق؟
- لا شيء. ادفع حساب الليلة واخرج.
- نظر آدم المحروم إليه بصمت للحظات وكأنه يزن الموقف، ثم ارتسمت على وجهه ابتسامة حزينة وقال:
- حسنًا، سأحاول.
- قاطعته آدم الزاهد قائلاً ومنبهًا:

- لا تحاول، وإنما غادر المكان يا ابني. استمع لي، فأنا رجل مجرب، وأنا أعرف ماذا يجري هنا كل ليلة جمعة استعدادًا لمحاصرة التظاهرات في ساحة التحرير التي تنطلق منذ أشهر كل نهار جمعة.
- طيب. سأذهب لآتي بحقيبتني.
- ومضى بخطوات مسرعة، بينما أخذ آدم الزاهد يصب الشاي لدورة جديدة من طلبات رواد المطعم.

حين صار آدم المحروم بجوار غرفة الجارة المسيحية سمع صوت امرأة. لم يكن الصوت يحمل نبرة جارته المسيحية، بالرغم من أنه يشبهه قليلًا. أسرع بالوصول إلى غرفته ليعرف من خلال الثقب ما يجري في تلك الغرفة برغم الخوف الذي تسرب إلى نفسه من حديث آدم الزاهد!

فتح الباب. توجه مباشرة إلى حيث الباب الفاصل بين الغرفتين فانحنى وهو في الظلمة، ليتنصت على الغرفة الأخرى. كانت هناك امرأة كبيرة في السن تقريبًا، تشد ربطة ملونة على رأسها، تقف عند رأس حواء شمعون التي تسكن الغرفة، وسمع المرأة الأخرى تؤنبها بكلام مليء بالعتب والمرارة قائلة:

- ما الذي تفعلينه يا ابنتي. هل تعرفين أن هذا الرجل الذي تريدين الشهادة زورًا ضده قد ساعدنا كثيرًا، ووافق على منحي سلفة مليون ونصف من أجل علاج خالك آدم السمعان، بل أعطاني مليون دينار تبرعًا منه حينما أخبرته بأن علينا تسفيره إلى الهند. هل تعرفين أن هذا الرجل عدل رواتبنا؛ نحن المنظفات، وضاعفها، وجعلنا أسوة ببقية الموظفين. هل تدريين لماذا يتآمرون عليه؟

لم تقل حواء شمعون شيئًا. طأطأت رأسها إلى الأرض شعورًا منها بالذنب، فاستمرت المرأة، التي صار واضحًا بالنسبة لآدم المحروم أنها أم إيغا شمعون، بمواصلة حديثها:

- هم يتآمرون عليه لأنه لا يقبل الرشوة منهم، ولا ينصاع لما يريدونه منه سواء مجلس الأمراء أو الجهات الحزبية. كل الهيئة تعرف ذلك، وأنا التي أقوم بتقديم الشاي له وبخدمته يومياً في المكتب يشكو لي أحياناً هموم منصبه. هل تعرفين أنه كان يسألني كل يوم إن كنت أحتاج لشيء؟ أليس هو الذي أعطاك مئة دولار وإجازة لثلاثة أيام حينما أخبرته بأنك تريدين السفر إلى عينكاوه لاستخراج هويات الأحوال المدنية لطفليك؟ وأنت ماذا فعلت بالمبلغ والإجازة؟ ذهبت واشتريت بنطلون جينز ومواد تجميل وحذاء، بل وبقيت في البيت لثلاثة أيام باعتبارك مسافرة، وحينما عرف ذلك أنك ونقلت إلى قسم العلاقات! والآن تريدين الانتقام لذلك! أهذا جزاء الذي أحسن إليك أن تتآمري ضده؟ ومع من؟ مع حواء عبد الوهاب مسئولة العلاقات التي تعتبرك ساقطة، وتزوج عنك أشياء مخجلة؟ وتتآمرين مع حمايات الحاج أبو الهلس؟ يا ابنتي اتقي الرب. يلاً. يلاً. قومي معي لنذهب إلى البيت، فليس من الصحيح بقاؤك في هذا الفندق، ولولا اتصالي بأحد المستخدمين من أصدقاء حمايات أبو الهلس لما عرفت أين أنت. يلاً بنا إلى البيت.

ظلت حواء شمعون مطأطئة الرأس لكنها قالت:

- لن أذهب معك إلى البيت، وسأبقى هنا، وقد وعدني أبو الهلس بأنه سيرجعني إلى العمل وسيضاعف مرتبي إذا شهدت ضد المدير العام. ثم. ثم. إنهم صوروني بالموبايل.

نظرت الأم إليها باستغراب، وبعد لحظات استوعبت ما تقصده ابنتها فصاحت برعب:

- ماذا؟

- صوروني بالموبايل وأنا كنت نائمة وفي وضع مكشوف.

- ماذا؟ يا للمصيبة. أدركيني يا العذراء. أدركيني يا أبانا الذي في السماوات. ماذا يجري؟!

أخذت المرأة المسنة تضرب يديها على رأسها وهي تندب وتنادي الرب والعذراء، ثم اتجهت نحو الباب خارجة، بينما بقيت ابنتها مطأطئة الرأس وهي تبكي.

تراجع آدم المحروم واتجه نحو الباب فضغط على زر التيار الكهربائي فأثار الغرفة. جلس للحظات مفكرًا في هذا الانحطاط الإنساني الذي يمارسه البعض في صراهم من أجل مناصبهم الإدارية.

عاد آدم المحروم من شروده في محاولة التفكير بذاك المدير المسكين الذي تُحاك في هذه الغرفة ضده مؤامرة قدرة، فلملم أوراق المخطوطة ووضعها في الحقيبة الجلدية مع المجلة التي فرش عليها الطعام، وأثناء ترتيبه للمخطوطات والأوراق انتبه لهاتفه النقال الموجود داخل الحقيبة أيضًا. أخرجها فعرّف أنه قد أطفأ منذ ليلة البارحة. أرجع الموبايل إلى الحقيبة، وحمل كيس النابلون الذي فيه بقايا وجبة الطعام وعلبة البيسي. خرج من الغرفة بعد أن أطفأ الضوء، وأغلق الباب بالمفتاح واتجه هابطًا.

عند الاستعلامات لم يجد سوى الفتى القروي، فأعطاه المفتاح. ارتسمت الغرابة على وجه الفتى القروي، فأوضح آدم المحروم الأمر مباشرة وبشكل طبيعي لا يوحي بالشك، بأنه استلم اتصالًا هاتفيًا من أهله أخبروه بأن والدته مريضة جدًّا ونُقلت إلى المستشفى، وأن عليه أن يذهب إلى النجف حالًا. تفهم الفتى القروي وتمنى لوالدته الشفاء. نقده أجره ليلة كاملة وغادر الفندق.

حين أقبل آدم المحروم على بائع الشاي آدم الزاهد رآه يللمم أدواته بعد أن نظف عدة الشاي. وكان هناك في الزاوية صندوق حديدي توجه إليه الرجل المسنّ، فتحه ووضع عدته فيه ثم أغلقه بقفل متين جدًّا. توجه بعد ذلك إلى المطعم فدخله. كان آدم المحروم واقفًا ينتظره. وحينما خرج من المطعم لمح آدم المحروم الهم على وجهه، لكنه ما إن رفع وجهه إلى الأعلى حتى عادت الابتسامة الأبوية إلى وجهه الذي يحمل بقايا وسامة قديمة.

كان ثمة شعور بالذنب يسيطر على نفسية آدم المحروم، إذ أحس أنه ربما سيحرج آدم الزاهد بالذهاب معه إلى بيته؟ ثم إنه لا يعرف أي شيء عنه فكيف يدخل إلى بيته ليبيت عنده؟ سأل نفسه: "هل تسرعت بالقبول في الذهاب معه ومغادرة الفندق؟ وماذا ينتظرني عنده؟". أوقف كل هذه التساؤلات حينما شاهد أربع سيارات كبيرة مضادة للرصااص توزعت على جانبي الشارع، اثنتين على الجانب الأيمن قرب المطعم واثنتين قرب نهاية الشارع من الجهة المقابلة. انتبه إلى أن هذه ليست سيارات عادية، ربما هي لأجهزة مخابرات أو لجهات رسمية أخرى.

في تلك اللحظات جاء صبي المطعم بكيس نايلون فيه كمية من الطعام. أخذ آدم الزاهد الكيس، نظر إلى آدم المحروم، فانتبه إلى أنه ليس معه شيء سوى حقيبة جلدية، علقها على أحد كتفيه، حقيبة متوسطة الحجم لكنها بدت متفخخة قليلاً، فسأل:

- أهذا كل ما تملك؟ أليس لديك أغراض أخرى؟
- لا أبداً. ليس لدي سوى هذه الحقيبة.
- إذن لتتوكل على الله، ولنذهب. بيتنا في منطقة تل محمد. هل تعرف هذه المنطقة؟
- طبعاً أعرفها.

- سنأخذ سيارة نفرات، ميني باص، لكن علينا الآن أن نمشي قليلاً إلى ساحة الطيران، فعند الزاوية تأتي الباصات الصغيرة التي تذهب إلى هناك، وإذا لم نحصل عليها فسنأخذ سيارة تاكسي.

قال ذلك واتجها إلى الشارع العام باتجاه ساحة الطيران. انتظرا الأكثر من عشرين دقيقة لكن بدون جدوى، لذلك أحس آدم الزاهد بشيء من الارتباك أمام ضيفه، فليس من كرم الضيافة أن يجعله ينتظر كل هذا الوقت، فأوقف

سيارة تاكسي، وتحدث مع السائق، ثم فتح الباب، وطلب من آدم المحروم أن يصعد أيضًا.

كانت المنطقة شبه مقفرة، ليس هناك سوى الآليات العسكرية وسيارات الأجهزة الأمنية التي تستعد لمحاصرة التظاهرة التي ستخرج صباح الغد، تحت نصب الحرية في ساحة التحرير التي تقع في الطرف الآخر المقابل لساحة الطيران.

تحركت سيارة التاكسي بهما. كان الشارع مقفرًا وغارقًا في العتمة، تلك العتمة الغامضة المليئة بالأشباح. مرت السيارة من منطقة القصر الأبيض، التفت آدم الزاهد إلى مجمع المباني الذي كان في ما مضى مجمعًا للمخابرات العراقية، والذي يتصب مثل أطلال ومليئة بالأرواح الشريرة، وقال لضيفه مشيرًا إلى المكان:

- كنت معتقلًا لفترة أشهر هنا.

التفت آدم المحروم إلى جهة مباني المخابرات وتمم بهدوء، مرددًا جملاً من خطبة قديمة لأحد الموحدين الذين سبقوا الإسلام:

- أين من بنى وشيّد، وزخرف ونجّد، وغرّ المال والولد؟ تلك بيوتهم خاوية عمرتها الذئاب العاوية.

ابتسم آدم الزاهد وقال:

- أتُحفظ من التراث؟ هذه من خطبة شهيرة.

أعجب آدم المحروم بذاكرة آدم الزاهد وسرعة بديهته، وقال مؤكّدًا بحرارة:

- نعم. كانت ضمن مقررات الدراسة. هي من خطبة جميلة مليئة بالعبر لمن اعتبر، لكن لا أحد اعتبر أو يعتبر؟ لا أحد.

وافقه آدم الزاهد وقال بهدوء مليء بالحكمة:

- نعم. لا أحد اعتبر، وهؤلاء جماعتنا أيضًا لا يعتبرون.

وصل التاكسي ساحة الأندلس والتف إلى الاتجاه الذي يقع فيه اتحاد الأدباء. كان مبنى الاتحاد غارقًا في العتمة.

ساد صمت هيمن على الجميع بحيث راود آدم المحروم إحساس بأنه تسرع في الموافقة على مغادرة الفندق. نظر إلى وجه آدم الزاهد، فرآه متوترًا تحيطه ظلال، وأحيانًا تسقط عليه إنارة من هنا أو هناك من مصابيح الشارع. سأل نفسه بقلق: «هل عليّ أن أنزل الآن ولا أواصل الذهاب مع هذا الرجل الذي قدّم نفسه باسم آدم الزاهد؟ لكن أين أذهب وقد خرجت من الفندق؟ أليس غريبًا أن يدعوني آدم الزاهد وهو بائع للشاي للمبيت عنده؟ ألا يُحتمل بأن لديه خطة ما يريد تحقيقها من ذلك؟ هل هو مخبر أو له علاقة بالأجهزة الأمنية يريد الإيقاع بي؟ لكن، لو كان الأمر كذلك فلماذا دعاني للخروج من الفندق، كان أسهل عليه أن يتصل بالأجهزة الأمنية ويخبرهم عن مكاني ليقبضوا عليّ؟ ثم ألا يخاف أن أنتقم منه مثلاً، فأنا شاب وهو رجل عجوز؟ لا. لا. لا أعتقد ذلك، لا يبدو عليه أنه من المخبرين، على العكس من ذلك، وجهه يفيض طيبةً وسماحةً، لكنه يبقى في جميع الأحوال شخصية غامضة، وكم في العراق من شخصيات غامضة لا توجد حتى في أعظم روايات الغموض والتشويق».

كان هو غارقًا في تساؤلاته بينما كان آدم الزاهد والسائق يتبادلان حديثًا عامًا عن ازدحام السير في النهار. شعر آدم المحروم بشيء من الهدوء، وعاد من تداعياته النفسية، منتبهًا لتوقف التاكسي، ولصوت آدم الزاهد يقول له بهدوء:

- لقد وصلنا.

تحرك صاحب السيارة وكأنه يهرب منهما. بعد خطوات من نزولهما التفت آدم الزاهد إليه وقال له بلهجة أبوية:

- لماذا أنت متوتر إلى هذه الدرجة؟

- أحس آدم المحروم بالارتباك وبشيء من الخجل، وقال وكأنه يبرر تصرفه:
- أنا متعب، وأعصابي متوترة كما تعرف.
- ابتسم آدم الزاهد ابتسامة أبوية ونظر إليه بإعجاب، وقال:
- دعك من كل هذا يا ابني. اهذأ. وأنا متأكد بأنك ستهدأ حينما تتعرف على حفيدي، إنه جنتي، طفل جميل وذكي بشكل خارق.
- ألا يكون نائمًا في مثل هذا الوقت؟
- لا. إنه لا ينام حتى أرجع أنا، كما أنه يعتقد أنه يجب أن يحمي والدته الوحيدة في البيت والتي تنتظر عودتي كل ليلة أيضًا.
- دخلًا شارعًا مظلمًا، ثم زقاقًا جانبيًا، كان هدير المولدات يأتي صاخبًا، وأخيرًا وقفًا عند باب حديدي صغير. أخرج الرجل العجوز من جيبه مفتاحًا، فتح الباب، لكن قبل أن يدخل، مسك آدم المحروم يد الرجل العجوز وسأله بقلق:
- اصدقني القول يا حاج، ألا أسبب لكم مضايقة بمييتي عندهم؟
- استغرب آدم الزاهد حركته، أعجبته، نظر إليه في ذلك الضوء الشحيح للحظات وقال له:
- ما لك يا ابني؟ هل أنت خائف مني؟ أنت لا تسبب لنا أي مضايقة، والبيت الذي يحل فيه الضيوف تحل فيه البركة، ادخل ولا تسأل مثل هذه الأسئلة مرة أخرى.
- كان الباب يقود إلى طريق مبلط بالإسمنت، وإلى جانبه حديقة صغيرة بدت شاحبة من خلال ضوء المصباح على رأس باب البيت. الطريق القصير يقود إلى المبنى الصغير الذي يتألف من طابقين. كانت ثمة سجادة صغيرة عند الباب. انتبه آدم المحروم إلى عدد الأزواج من الأحذية والنعال الموجودة قرب الباب، وهذا ما عني لديه بضرورة نزع الحذاء قبل الدخول إلى غرفة الاستقبال.

تنحج الرجل العجوز عند الباب الداخلية وفتحها بهدوء ودخل. بقي آدم المحروم عند الباب ولم يدخل أدبًا. انتظر أن يعلن آدم الزاهد عن قدومه أو يدعوه إلى الدخول بعد أن يتستر أهل البيت أمام الضيف الغريب. بعد لحظات قليلة دعاه الرجل العجوز للدخول، فاتحًا الباب له بنفسه.

حين دخل آدم المحروم إلى الصالة أحس بالراحة والانشرح النفسي. كانت الصالة عادية مثل أي صالة في أي بيت عراقي من عامة الناس، فالأثاث بسيط يتألف من كنبات تحيط الغرفة، وتلفزيون يتوسط أحد الجوانب على طاولة صغيرة، والأرضية مفروشة بالسجاد الأحمر. وكانت الجدران مصبوغة بلون وردي خفيف لكنه متألق، وثمة مدفئة نفطية تتوسط الغرفة بالرغم من أن الجو ليس باردًا، وكانت الصالة تقود من جانب آخر إلى داخل المنزل، حيث المطبخ والحمام وغرف النوم والدرج الذي يقود إلى الطابق الأعلى.

جلس آدم المحروم على كنبه قريبة من الشباك المطل على الحديقة، بعد أن وضع حقيبته على الأرض. اختفى آدم الزاهد في أعماق المنزل، وبقي هو وحيدًا يتأمل الصالة. انتبه إلى وجود لوحة كبيرة خط عليها بشكل جميل آية الكرسي. وعلى جدار آخر صورة لرجل، رجل يشبهه لحد كبير، وصورة أخرى لرجل يحمل طفلًا رضيعًا، وصورة للطفل وحده لكن أكبر سنًا منه في الصورة الأخرى. أحس بهدوء وأمان، وبارتياح غامض لهذا الجو العائلي الحميم الذي يفقده في حياته اليومية.

لم تمض إلا لحظات حتى دخل إلى الصالة طفل صغير في الخامسة من عمره. ظل الطفل واقفًا باستحياء، فمد آدم المحروم يده إليه داعيًا إياه إليه، فركض الطفل وألقى بنفسه في أحضانه، وفي تلك اللحظة دخل آدم الزاهد تتبعه امرأة مكللة بالسواد، تلبس ثوبًا أسود طويلًا وعليه بلوزة سوداء طويلة تصل إلى الركبتين، ويغطي رأسها حجاب متواضع لا مبالغة فيه. كانت المرأة فاتنة؛

عينان سوداوان كبيرتان تشعان بضوءٍ غامضٍ يبعث على القشعريرة اللطيفة في الجسد، ووجهه بملامح صافية وكأنه منحوت من المرمر، وبشرة خميرية تميل إلى اللون الوردى، وقامة متناسقة تميل إلى الطول، وصدر عامر بفاكهة الرغبة. تقدمت المرأة وألقت السلام بكل ترحاب، فأكمل الأب مقدمًا إياها إلى ضيفه وعلى شفثيه ابتسامة:

- هذه ابنتي حواء آدم الزاهد. أم آدم الملاك. وهذا الملاك الصغير هو آدم الملاك، بطلي الصغير.

نهض آدم المحروم منبهراً بفتنتها التي زلزلت كيانه منذ الثواني الأولى لرؤيتها، لكنه تماسك كي لا يفضح نفسه. ظل واقفاً بعد أن أجلس الطفل آدم الملاك إلى جانبه على الكنبه. ارتسمت على وجهها ملامح الدهشة والغرابة، إذ تذكرت أخاها الشهيد لما بينهما من شبه، رحبت هي به بما يليق وبما يزيل عنه الحرج، ولكي تبعد نفسها وتبعده عن الحرج توجهت إلى ابنها قائلةً بمرح:

- تعال يا ابني، لا تزعج عمك، هو تعبنا ويحتاج للراحة، تعال معي كي نعد العشاء لجدو ولعمو.

قفز الطفل من الكنبه، وقبل أن يغادر مع أمه احتضنه جده ورفعته مقبلاً إياه، وما إن تركه حتى اختفى راکضاً مع أمه التي قبل أن تغادر رمقت آدم المحروم بنظرة وكأنها تريد أن تعرف هذا الضيف وما وراءه.

جلس آدم المحروم وآدم الزاهد على كنبتين متقابلتين. أراد آدم الزاهد أن يزيح الارتباك عن ضيفه الذي كانت علائم الاطمئنان ممزوجة بالخجل واضحة على ملامحه، فقال له:

- قبل كل شيء أريد أن أقول لك إن هذا بيتك، فلا تشعر بالحرج، أنا أعرف أنك متوتر، لكنني أتمنى عليك أن تسترخي ولا تربك نفسك بأفكار وأسئلة غامضة.

أحس آدم المحروم بشيء من الاطمئنان، فقال:

- أنا لا أعرف كيف أشكرك؟ صحيح أنه راودتني مختلف المشاعر وأنا في الطريق إلى هنا، لكني ارتحت لك وإلا لم أغادر الفندق، وبرغم ذلك أحس أنني أثقل عليكم.

- أنت لا تثقل علينا أبدًا. سوف نتعشى ونشرب الشاي، لكن هذه المرة ليس من يدي وإنما من يد حواء أم الملاك. موافق؟

ابتسما، وقال آدم المحروم والدم يصعد لوجهه والألق يومض في عينيه:
- موافق.

في هذه اللحظات دخل الصغير آدم الملاك ويده قطعة نايلون مطوية، وتقدم من جده وهو يقول:

- أُمِّي تقول خلي جدو يفرش النايلون حتى نتعشى.
أخذ الجد النايلون من يده وهو يقبله:

- صار جدو. من عيوني.

قام الجد برفع المدفأة النفطية ووضعها بعيدًا، ثم بدأ يساعده آدم المحروم من طرف آخر، بمد النايلون الذي كان مطويًا فامتد إلى أكثر من متر ونصف المتر وبعرض متر أيضًا، وجلسا حولها من جهتين متقابلتين. بعد لحظات دخلت الابنة حواء الزاهد وهي تحمل صينية كبيرة وضعتها بينهما. انحنى وهي توزع صحون الأرز والمرق وصحن الطرشي والخبز وصحنًا مليئًا بالكباب. ثم ذهبت وعادت مسرعة بدورق مليء باللبن وآخر بالماء وجاءت بالكؤوس ووضعتها أمامهما، ثم استقامت وقالت باعتذار تقليدي هو جزء من الترحاب وأدب الضيافة العراقية:

- اعذرنا على هذه المائدة المتواضعة، فلو كنا نعرف لأعدنا أكثر من هذا بكثير.

ارتبك آدم المحروم، بينما كان الأب فخورًا بابنته وأدبها وحسن استقبالها للضيف. تمتم آدم المحروم بخجل، بعد أن ألقى نظرة بارقة إلى وجهها الفاتن:

- أنا الذي أعتذر بمضايقتي إياكم في هذا الوقت من الليل. وأشكركم على حسن استقبالي. والحمد لله هذه المائدة بركة. وبالرغم من أنني غير جائع لكنني من أجل الزاد والملح سأندوق طعامكم.
- هنيئًا وبالعافية إن شاء الله.
- اختفت حواء الزاهد داخل المنزل، بينما ترفض الصغير آدم الملاك متكئًا على فخذه. أخذ جده قطعة من الخبز ووضع فيها قطعة كاملة من الكباب ولفها له، وهو يقول له بصوت طفولي:
- وهذه للبطل الصغير الملاك آدم، كُل يا حبيبي.
- فتمتم الطفل الصغير بصوته الطفولي:
- أنا أكلت يا جدو.
- لا ضير، كُل هذه أيضًا من أجل جدو.
- ابتسم الصغير وأخذ لفة الكباب، كانوا يأكلون بصمت، بعد قليل توقف آدم المحروم عن الأكل. انتبه آدم الزاهد لذلك فسأله بمودة:
- لماذا توقفت عن الأكل؟ لم تأكل شيئًا.
- أنت تعرف أنني قد تعشيت، وأنا أكلت من باب المشاركة في الزاد والملح.

بعد الانتهاء من العشاء قام الأب آدم الزاهد بحمل الصحون إلى الداخل. جاءت ابنته لتحمل بقية الصحون وقطعة النايلون، إلا أن الطفل آدم الملاك أصر على حمل أحد الصحون، فخافت أمه أن يتساقط بقايا الطعام منه، لذا أعطته صحنًا صغيرًا، أفرغت بقايا الطعام منه.

اختفى الجميع داخل المنزل، لكن بعد دقائق قليلة عاد الأب يحمل صينية الشاي وفيها ثلاثة إستكانات من الشاي، تبعته ابنته وهي تحمل بعض الحلويات التي يمكن أن تؤخذ مع الشاي. جلس الأب بعد أن أعطى آدم

المحروم إستانك الشاي وأخذ هو إستانكنا وأعطى الصينية مع الإستانك المتبقي لابنته. أخذ الجميع يرشف الشاي. أراد آدم الزاهد أن يجعل الجو أكثر حميمية، ويزيح ارتباك ضيفه، لا سيما بعد جلوس ابنته معهم. فقال مازحًا والابتسامة ترتسم على وجهه:

- أي الشاي أطيب، الشاي الذي أنا أعمله أم شاي ابنتي؟
فقال آدم المحروم، وهو يحس بالدم يصعد إلى رأسه:
- ألا ترعل لو قلت لك أن شاي أم آدم الملاك هو أطيب من شايك مرات؟! ضحك الجميع للحظات، لكن الصمت عاد من جديد يسود الغرفة، فقال الأب موجهاً كلامه إلى آدم المحروم:
- ماذا ستفعل مع وضعك؟

بوغت آدم المحروم بالسؤال، لكنه ارتاح أيضًا لأنه يريد فعلاً أن يستوضح وضعه، ومعنى وجوده بينهم، فأجاب:

- لا أدري بالضبط ماذا سأفعل؟ علي أن أتبين الوضع أساسًا.

فقال له آدم الزاهد بهدوء وبنبرة مليئة بالثقة:

- يا ابني لماذا أنت خائف لهذه الدرجة؟ ماذا يعني أنك كنت صديقه وتتظره قبل حصول الجريمة؟ وماذا يعني أنك كنت آخر من اتصل به؟ من الطبيعي أن يكون القتل قد اتصل بأصدقائه، وإلا لماذا يسمون أصدقاء ومعارف؟ ثم إن اتصاله بك هو دليل على براءتك وليس العكس، لأن من يتصل بشخص لا يذهب لاغتياه!

كانت حواء أم الملاك تتبادل النظرات المستفسرة والمترقبة بينها وبين أبيها آدم المحروم، لا سيما وقد فهمت من سياق الحديث بأن ثمة جريمة قد حصلت وأن لضيفهم علاقة ما بها. انتبه آدم الزاهد لوجود ابنته فأخذ يشرح لها موضحاً وضع ضيفهم ولماذا هو بينهم:

- يا ابنتي، الأستاذ آدم المحروم، كاتب وصحفي، كان ينتظر صديقه وهو كاتب معروف جداً، غير أن الصديق لم يأت وإنما وُجد مقتولاً في شقته، وبما أنه كان هو على موعد معه، وربما آخر من اتصل به، لذا فهو خائف أن يتهم في هذه القضية، فترك مسكنه واستأجر غرفة في فندق الركن الهادئ المجاور لمكان عملي، قرب ساحة الطيران، وهناك تعارفنا، وشرح لي وضعه. ولأن الليلة جمعة فتلک المنطقة ستكون مكتظة برجال الأمن والمخابرات ورجالات الحرس الوطني وأمن الأحزاب، وهذا ربما سيجره إلى سين وجيم هو في غنى عنه، فدعوته لبيت عندنا إلى أن يفرجها الله عليه.

صمتت للحظات. نظرت إليه بتأمل، ثم تبادلنا النظر مع أبيها، وقالت بهدوء:

- مثلما قال أبي، لماذا أنت خائف؟ أنت بريء من دم صديقك. حسناً فعل أبي باستضافتك عندنا فالوضع غير مستقر، ثم لدي سؤال.

فقال آدم المحروم بهدوء وكأن كلامها كان مسكناً للقلق والتوتر:

- تفضلي.

- أصدقك هذا هو الكاتب الذي تتحدث عنه الفضائيات منذ يومين؟

- نعم. قال آدم المحروم بارتباك شديد.

تابعت حواء أم الملاك قائلة:

- لكن بعض الفضائيات تقول إن أحد أعضاء مجلس النواب، من المقربين

لهرم السلطة مع ابن الحاكم المطلق للبلاد هما المتهمان بقتله.

فوجئ الأب وادم المحروم من هذا الخبر، فسأل الأب بتوتر:

- من أين لك هذه المعلومات يا ابنتي؟

شعرت حواء الزاهد بالاهتمام فقالت:

- من الفضائيات، فأربع أو خمس فضائيات عراقية، إلى جانب بعض

الفضائيات العربية ذكرت هذه الأخبار.

نظر آدم المحروم والأب لبعضهما على هذه الأخبار الجديدة، وانبسطت أساريهما لها، وقال الأب بحماس وفرح وكأن آدم المحروم هو ابنه:

- الله كريم وعادل يا ابني، الله كريم. بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) ﴿ صدق الله العظيم. الحمد لله على كل شيء.

- شكرًا لك يا حاج آدم، حديث الأخت حواء ريحني كثيرًا، لكن أنت تعرف أن الفضائيات أخذت من الجريمة سببًا للتصفيات السياسية. علق آدم المحروم.

- المهم يجب أن تهدأ، فأنت تبالغ في توترك وتعذيب نفسك بخوف لا مبرر له. صمت آدم المحروم قليلًا، ثم نظر إليهما وقال بنبرة كان واضحًا أنه يحاول أن يكظم التوتر الذي فيها:

- المشكلة أنا لا أخاف من الاتهام والشبهات والاستجواب، وإنما أخاف أن تتم تصفيتي أيضًا؛ فاغتيال آدم البغدادي كان رسالة إلى جميع المثقفين الذين يتظاهرون ضد الحكومة.

صمت الأب وابنته للحظات، إلى أن بادرت الابنة بالسؤال:

- قل لي يا أستاذ آدم بصراحة، فأنا أريد أن أعرف فقط، لماذا يتظاهر هؤلاء المثقفون ضد الحكومة ورئيسها؟

تباطأ آدم المحروم في الجواب قليلًا، ثم قال بهدوء موجهاً كلامه لها:

- لقد تخلصنا من طاعية، ولا نريد للطغيان أن يعود ثانية، نريد حياة كريمة، نريد أن نحفظ كرامة الإنسان وألا يُهان أبسط حقوقه. ما معنى أن البلاد تعيش في شبه ظلام؟ ما معنى أن يتهم الإنسان ويزج به في السجون بلا محاكمة وإنما نتيجة وشاية مقبوضة الأجر؟ أتعرفين كم الجرائم التي قامت تحت بند المادة أربعة إرهاب؟ لقد مضت سنوات على سقوط النظام

البائد لكن أطفالنا يدرسون في مدارس الطين وبلا رحلات ومقاعد يجلسون عليها. لقد دُمر اقتصاد البلاد، بينما هم يسرقون خزينة الدولة ويودعونها في البنوك الأجنبية. أمن أجل هذا امتدت المقابر الجماعية في العراق؟

لم يُكمل آدم المحروم كلامه إذ فوجئ بانسياب الدمع على خدي حواء الزاهد، التي كانت قد أخذت ابنها في حضنها، والذي كما انتبه آدم المحروم إليه كان نائمًا في حجر أمه، كما انتبه لوجوم الأب وصمته الأخرس.

ظن آدم المحروم أنه قد تجاوز في كلامه على معتقداتهم السياسية، فقد حدثه آدم الزاهد بأنه كان في السجن لسنوات، وأنه يعرف رجال الحزب الحاكم جيدًا، لكنه يعرف أيضًا أنه ضد تصرفاتهم، لذا لم يفهم بالضبط لماذا نزلت الدموع من عيني هذه المرأة الساحرة، المتألقة، والباهرة الحضور، ولماذا صمت آدم الزاهد، فقال مستدرّكًا:

- أنا أعتذر منكما، ربما قد تجاوزت قليلًا في كلامي، لكنني أردت توضيح لماذا يخرج زملائي وأصدقائي من المثقفين للتظاهر ضد الحكومة، وكان صديقي آدم البغدادي من المنظمين الرئيسيين للتظاهرات.

نظر الأب إلى ابنته وقال بآلم:

- لا يا ابني لم تتجاوز الحقيقة في كلامك، لكنك فتقت جرّحًا مؤلمًا كنا نحاول منذ سنين أن نقطبه.

فقال آدم المحروم بتعجب:

- أنا؟ أنا فتقت جرّحكم؟ أنا أعتذر مجددًا.

نظر الأب إلى ابنته بحنان كبير، وألقى نظرة تفيض حنانًا وشفقة على الطفل الملاك النائم في حجرها، والتفت إلى آدم المحروم قائلاً:

- اسمع يا ابني. حينما كنت أنا في السجن قبل سقوط النظام المظبور، استشهد ابني، وبعد فترة تزوجت ابنتي من ابن جارنا، والذي كان معلمًا في

مدرسة ابتدائية. وحينما خرجت من السجن، بعد سقوط النظام، كانت زوجتي أم ابنتي حواء، الله يرحمها، قد انتقلت إلى العالم الآخر، لذا أخذت أعيش في منزل ابنتي وزوجها، وقد أخبرتك اليوم عن نفسي قليلاً، بأني كنت قريباً من قادة الحزب الحاكم اليوم، وما جرى لي معهم، لكن لا أدري لِمَ؟ وكيف؟ تمت مداممة منزل ابنتي وزوجها، وتم اعتقال زوج ابنتي من قبل الأميركيان نتيجة وشاية مخبر؛ فقد اتُّهم بأنه يساعد رجال الميليشيات التابعة لتنظيم شيعي في المنطقة، وهكذا اختفى في غياهب سجون ومعتقلات العراق الجديد، وبعد التي واللتيا، عرفنا أنه تم تسفيره إلى سجن بوكا قرب أم قصر في أقصى جنوب العراق، وكان عمر ابنه آدم الملاك سنة واحدة فقط. وها أنت كما ترى، هو الآن في الخامسة ويشارف السادسة، وهو بعيد عن أبيه.

خلال هذه الأثناء انتبه الأب إلى التفاته رأس آدم المحروم إلى إحدى الصور المعلقة على الجدار والتي فيها صورة الشاب الذي يشبهه. فأراد الأب تصحيح الأمر:

- هذا الذي في الصورة هو خال الملاك، إنه الشهيد ابني، ألم أقل لك إنك تشبهه! لقد تم اغتياله أمام باب البيت مساء يوم رمضان. أما زوج ابنتي الذي ترى صورته وهو يحمل ابنه الرضيع فلم نلتق به لحد الآن أبداً، رغم محاولتنا اليائسة للوصول إلى مكانه. شخصياً ذهبت إلى أصدقائي من المسؤولين في الحكم اليوم، ورجوتهم، بل توصلت إليهم مذكراً إياهم بأيام النضال والتاريخ المشترك، بأن يساعدوني في إخراج زوج ابنتي من سجن بوكا، فلم أجد أذنًا مُصغية، بل هناك من يشحب وجهه ويرتبك حينما يسمع باسم سجن بوكا، ويهمهمون بكلام غير مفهوم أتبين منه هو أن ما دام الأمر عند الأميركيان فالقضية صعبة، فالأمريكان لا يحترمون أكبر رأس عراقي في السلطة، ويتعاملون معه كمشبوه. والبعض منهم نصحني بأن أنسى الأمر ولا أذل نفسي بالسؤال عنه، لأنه لا أحد يستطيع أن يخرج من بوكا إلا

الأمريكان أنفسهم. تصوّر. وشاية صغيرة، ربما من جار حقود، أو عضو في تنظيم سياسي ديني منافس، وشى به عند الأمريكيان، حطمت عائلة بريئة، ومن هنا حينما تحدثت أنت عن الأبرياء الذين يقعون في السجون نتيجة وشايات مقبوضة الثمن، فكأنما كنت تتحدث عنا!

كان آدم المحروم يتألم، بل وكان ألمه يتصاعد وتتضح تجلياته على ملامح وجهه كلما توغل الأب في سرد حكاية نضاله وسجنه، واغتيال ابنه، وموت زوجته من الغم والحزن، وضياح زوج ابنته في سجن بوكا. كان أحياناً يقتنص لحظات لينظر إلى وجه هذه المرأة الفاتنة، ليدرك أن أحد أسرار جمالها الغامض هو ذلك الحزن المعتق الساكن في أعماق عينيها ونظراتها. شعر في لحظة ما أنه يعشقها؛ يعشق حزنها، وألمها الكبير، وصبرها، وأسرارها الغامضة، وشخصيتها المأساوية. وخلال توقف الأب عن الحديث، اقتنص هو الفرصة فوجه كلامه لها، رافعاً وجهه إليها بارتباك، متجاوزاً كل الحديث الذي جرى. قائلاً:

- أنا أعتذر إن كنت قد جرحتك دونما أدري، فقد كنتُ أجيب على سؤالك: لماذا يتظاهر أصدقاؤني المثقفون ضد الحكومة؟

- لا عليك. أنا حقاً كنت أسأل نفسي لماذا يتظاهر هؤلاء المثقفون الذين نراهم على شاشات التلفزيون أو نقرأ أحياناً أسماءهم في الصحف والمجلات، ما الذي ينقصهم حتى يتظاهروا؟ لكنك أوضحت لي. شكرًا لك. لم يستطع أن يصمد أمام ذلك الإشعاع من الجمال الباهر الذي ينبعث من عينيها وكل حضورها الجسدي، لا سيما بحضور الأب، لذلك خفض بصره وقال:

- ينقصهم الكثير، بل هم لا ينقصهم شيء، فمعظم وضعه الاقتصادي لا بأس به، لكن ما يريدون هو للشعب، للناس البسطاء المجهولين، لملايين الأطفال، لمستقبل البلاد، لكرامة الإنسان.

أراد الأب أن يحاصر سيل الحزن الذي اندلق من جرار الذاكرة، وموجات الغضب التي بدأت ترحف من ضفاف الكلام. فقال محاولاً تغيير دفة الحوار:

- دعونا من كل هذا الكلام الآن. لدينا الوقت للحديث فيه. أنت متعب يا ابني، وسوف نتركك تنام بهدوء، وغداً إن شاء الله نفطر بل ونبقى هنا إلى العصر، نتابع المظاهرات من شاشات التلفزيون، وعند العصر إذا أحببت أن تأتي معي إلى زاويتي عند المطعم، أو أن تذهب لإنجاز أعمالك وتعود إلي، وإني أفضّل أن تبقى عندنا بعض الوقت إلى أن نتيين الأمر بكامله، ونطمئن عليك، عندها يمكنك أن تقرر.

أحس بفرح غامر في أعماقه من حديث الأب بالبقاء لفترة أخرى، فقال باستحياء كمن لا يريد ذلك:

- لكنني أسبب لكم المضايقة، وأسلبكم راحتكم.
نهض الأب، وتبعته بالقيام ابنته وهي تحمل ابنها في حجرها، فأخذه الأب منها، وقال موجّهاً كلامه لآدم المحروم:
- هل تود النوم على الكنبه أم على الأرض؟
- لا فرق عندي.

- لكن الكنبه ضيقة، الأفضل أن تنام على الأرض كي تأخذ راحتك.
- خرج الأب وتبعته ابنته. عند المدخل الفاصل التفتت إليه فالتقت نظراتهما خلال ثوانٍ، لكنها كانت كافية أن تخلق شرارة جاذبة بينهما. بعد قليل عاد الأب ويده فراش ووسادة، ألحاهما على أرضية الصالة وذهب، فقام آدم المحروم بمد الفراش على الأرض، ووضع الوسادة على أحد جوانبه، ثم عاد الأب ويده لحاف خفيف ودشداشة بنية اللون. أعطاهما لضيغه، وهو يسأله:

- هل تحتاج لشيء آخر يا ابني؟
- لا. شكرًا.
- وقبل أن يذهب الأب دخلت الابنة ويدها كأس مليئة بالماء، وقالت:
- هنا الماء أيضًا، فلربما تعطش ليلًا.
- وضعت الماء على طاولة صغيرة كانت في الزاوية، إذ قربتها منه. التفت الأب والابنة إليه وقالوا وهما يغادران:
- تصبح على خير.
- فقال وهو يشعر بدفع الحنان العائلي:
- تصبحون على خير.

الشوق إلى المتاهة

حين صار آدم المحروم وحده، جلس على الكنبه مُفكّرًا بكل الأحداث التي جرت له هذا اليوم. استعاد الأحداث والتفاصيل مثل فيلم سينمائي. ياه، كم من الأحداث، والتفاصيل، والمعلومات والوجوه مرّت عليه خلال هذا اليوم. فكّر مع نفسه أنه لو كان كاتبًا روائيًا مثل صديقه آدم البغدادي لكتب عن أحداث هذا اليوم وحده رواية كاملة. توقف عند وجوده في هذا المنزل الغريب الذي صار يشعر وكأنه ينتمي إليه، وسأل نفسه: هل هناك، يا تُرى، رجل بهذه الطيبة في هذا الزمان، وعائلة، بالرغم من ضيق الحال، بهذا الكرم؟

مرّت أكثر من نصف ساعة وهو جالس على الكنبه مسترسلًا في تداعياته. انتبه إلى وجود ساعة حائطية، لم يكن متنبّها لها سابقًا بالرغم من أنها كانت موجودة ضمن تفاصيل الجدار المقابل. أدرك أن الوقت قد تأخر، فالساعة تشير إلى الحادية عشرة والنصف. يبدو أن الأب وابنته وحفيده قد رقدوا، إذ ليس هناك من صوت ولا نائمة تأتي من داخل المنزل.

بهذوء نزع بنطاله وقميصه، ثم ارتدى الدشداشة التي كانت مناسبة له تقريبًا. تمّدّد على الفراش، وسحب اللحاف على نفسه، ثم سحب الحقيبة الجلدية نحوه وأخرج منها مخطوطة (متاهة حواء وادي الظلمات). وضع الصفحات التي تمّت قراءتها جانبًا وأخذ يقرأ في الرواية التي شدّته بغموضها المريب.

مدينة الأرواح

غادرت حواء المؤمن البيت وهي في حالة يائسة. وصلت مع آدم اللبناني إلى مدينة إيسن التي تبعد نصف ساعة بالقطار. ومن المحطة الرئيسية لمدينة إيسن ركبا باصا أخذهما إلى المنطقة التي يسكن فيها بعض أقرباء آدم اللبناني. استقبلوهما دون أن يعرفوا تفاصيل وضع حواء المؤمن، كانوا يعتقدون أنها صديقته أو خطيبته.

بعد أن أنهوا وجبة الغداء وجد آدم اللبناني نفسه مضطراً لمفاتيحة مضيفه الذي كان يعتبره بمثابة عم له، وأخبره بالتفاصيل، مؤكداً له بأنه يريد الزواج منها للحصول على الإقامة الدائمة، فوافق عمه على ذلك واعتبر هذا الزواج صفقة جيدة ستقذه من هذا الوضع من الانتظار اللانهائي. بعد ذلك ذهبوا مباشرة إلى مكتب أحد المحامين من الذين يتعاملون مع قضايا الأجانب واللاجئين، فأكد لهم بأن حواء المؤمن من وجهة نظر القانون الألماني تعتبر غير متزوجة، وبالتالي يمكن أن تنفصل عن زوجها رسمياً من خلال تأجير سكن خاص بها، لأنهما، هي وزوجها يعدان كصديقين يعيشان بشكلٍ مشترك، ما دام لم يتزوجا أمام المحاكم الشرعية الألمانية أو يصدقا عقد زواجهما العراقي أمام الجهات الرسمية الألمانية، وهذا ما جعل آدم اللبناني أكثر تمسكاً بحواء المؤمن. إذ أن عليها الآن أن تجد سكناً في مدينة إيسن وتسجل نفسها في المدينة وتنقل سجلها من مدينتها إلى هذه المدينة، وبالتالي يمكنها الزواج هنا.

عاد آدم التائه إلى شقته ظهيرة ذلك اليوم، ودخل إلى غرفة النوم، لاحظ أن دولاب الملابس مفتوح على مصراعيه، فأدرك أن حواء قد دخلت الشقة، وأخذت ملابسها، وغادرت. في تلك اللحظة أحس بقلق مُبهم لا يعرف سببه، هل هو قلق عليها أو أنه قلق على نفسه؟

أراد هو أن يدفع بقلقه، فبدأ بانتقاد نفسه، سائلاً إياها: “لماذا أنا قلق ما دمتُ أريد مغادرة ألمانيا إلى الخليج؟ أليس هذا ما كنت أتمناه؟ ولماذا أنا قلق عليها ما دامت قد فعلت بي ما فعلت، وطعننتني في كرامتي؟ ثم إنها الآن تعيش في ألمانيا، وهذا يعني أن معيشتها، وسكنها، وعلاجها مؤمن من قبل الدولة الألمانية، إذن، فلا خوف عليها، فلم تعد تلك الفتاة البسيطة، الساذجة، المسكينة، التي كانت كالجارية بين يديّ، بل إنها تلك الغاوية التي ركبت لي قرنين من ذهب وعاج، والتي فعلت بي ما فعلت، واستغفلتني بهذه الطريقة البارعة، بينما أنا الذي كنت أحسب نفسي الفهيم بعالم النساء! تلك المرأة لا يمكن الخوف عليها، لكنها بالتأكيد سوف تدفع ثمن هذه الخطيئة التي ارتكبتها بحقي، بالرغم من أنني مستعد لأن أغفر لها وأسامحها، فهي بالتالي جزء من تاريخي الشخصي، وحيبة أُمي، وعمود ذكرياتي، ورفيقة دربي المظلم في متاهتي الغامضة!“.

تذكر آدم التائه حينها، أنها تراءت له حينما كان راقداً في المستشفى، وقد دخلت غرفته وبكت عند كفّه. إنه يتذكر ذلك، ويتذكر أنه مسح بكفه على رأسها، لكن كيف تراءت له آنذاك؟ لكنه لم يتوقف عند الأمر كثيراً لأنه ظنه حلمًا.

في تلك الظهيرة، أخذ آدم التائه حمامًا ساخنًا، وبقي لفترة تحت دش الماء الساخن نوعًا ما. بعد ذلك نام ما يقارب الساعة من الوقت، وعندما استيقظ، أعدّ لنفسه شايًا ثقيلًا، ثم شاهد التلفزيون بمحطاته الألمانية العديدة، وحينما اقتربت الساعة من الثانية بعد الظهر، ارتدى ملابسه من جديد، واستعد للذهاب إلى المكتب السياحي.

قبل أن يخرج بقليل سمع طرقاً على الباب، وحينما فتحه، قابله وجه جارتهم في الطابق الأرضي التي ارتبكت حينما وجدت آدم التائه أمامها، فاعتذرت، وقالت إنها جاءت لزيارة زوجته السيدة حواء، فأجابها بأنها حاليًا غير موجودة، فاستغربت من جوابه، وظنت أنه لا يريد أن يختلط بهم، وإلا لماذا يقول إنها ليست بالبيت؟

غادر شقيقه، متجهًا إلى المكتب السياحي الذي وصله بعد الثانية بعشر دقائق، وهناك قابل إيفا بيرغمان، وكانت قد اتصلت قبل وصوله بدائرة الأجانب في بلدية المدينة وشرحت لهم وضعه. وحينما وصل إلى المكتب السياحي، انتبه إلى أن وجهها كان مبتسمًا، وفي عينيها تألق المتصر فخمّن أن لديها أخبارًا سارة.

ما إن جلس، معتذرًا عن التأخير، حتى بادرت به بأن عليهما أن يذهبا إلى دائرة الأجانب غدًا، إذ إن مدير الدائرة قد أبدى تفهمًا لوضعه، وربما سيعطونه وثيقة لسفرة واحدة فقط، ويحددون بأن الوثيقة صالحة لثلاثة أشهر أخرى، ولا يحق له السفر إلى أي بلد باستثناء الإمارات التي يقصدها، وعند رجوعه عليه تسليم الوثيقة وأخذ جوازه الحالي، لكن المدير أراد أن تتكفله هي، أي أنه سيسافر على مسؤوليتها!

سألها عما سيحصل معها إذا لم يرجع؟ فأجابته بأنه لا يستطيع ألا يرجع لأن الجواز ممدّد لثلاثة أشهر فقط ولسفرة واحدة ولبلد واحد، وبالتالي لا يستطيع استخدامه لأكثر من سفرة واحدة وبتجاه بلد واحد!

بقي آدم التائه معها في المكتب لأطول فترة ممكنة، لكنه استغرب من وجودها وحيدة في المكتب طوال اليوم. نظرت إليه وكأنها كانت تقرأ ما يدور في رأسه، فقالت له موضحة:

- زميلتي أخبرني بأنها لن تأتي بعد الظهر؛ لأن لديها أشغالًا أخرى عليها أن تنجزها!

فقال هو بتلقائية:

- هل أنتما اثنتان فقط؟

نظرت إليه وكأنها تريد أن تعرف ما يهدف من وراء سؤاله، وقالت:

- نعم، أنا وهي فقط!

التفت إلى مكتب زميلتها الفارغ، فوجد صورة فوتوغرافية لها على طاولة مكتبها. كانت الصورة للموظفة الأخرى التي كانت تبدو كبيرة في السن، وهي المرأة نفسها التي كانت معها في المستشفى صباحًا. انتبهت إيفا بيرغمان لشروده الذي كان واضحًا من ملامحه، فسألته محاولة سحبه من جاذبية التأملات التي هو على حافة أن يدور في فلکها:

- اليوم سألتني بعد أن خرجنا من المقهى إن كنت أؤمن بالأرواح، وعن أشياء غامضة كنت قد مررت بها في المستشفى، أليس كذلك؟

عاد هو من شروده، وقال لها متممًا:

- نعم. هذا صحيح، وقلت لي حينها إن هذا الموضوع يحتاج إلى جلسة خاصة، أليس كذلك؟

- نعم. صحيح. وها نحن وحدنا، فلتحدثني، أنا أصغي إليك.

ارتبك آدم التائه. نظر للحظات لوجهها المثير والمليء بالتساؤل والانتظار، ثم التفت بشكل لا يشير أي انتباه إلى مكتب الزميلة التي لم تحضر، ونظر لصورتها الفوتوغرافية. فجأة، برقت الأشياء في ذهنه، إذ انتبه إلى أن إيفا بيرغمان تشبه الراهبة الشابة بشكل كبير، لكن الراهبة كانت محجبة الشعر، وكذا بالنسبة لصديقتها فهي تشبه إلى حد كبير الراهبة المسنة التي كانت في غرفته. أحس لثوانٍ بالخوف، لكنه لم يشأ أن يكشف نفسه، نظرت هي وسألت:

- ما بك؟

نظر إليها وكأنه يستحضر شيئًا من ذاكرته، وقال:

- لا شيء. الحقيقة هو أنني حينما كنتُ في المستشفى رأيت ما يشبه الرؤيا.
- ما يشبه الرؤيا؟ أم أنك رأيت؟
- ارتبك آدم التائه من دقة سؤالها، وقال:
- الحقيقة أنني رأيت، فحينما كنتُ راقداً في قسم العناية المركزة في المستشفى رأيت راهبتين، إحداهما شابة بعمر ك وتشبهك أيضاً جداً.
- نظرت إيفا بيرغمان له وعلى شفيتها ابتسامة غامضة، وسألته:
- آها. غريب، والراهبة الثانية؟
- نظر إليها متأملاً، ثم قال:
- الراهبة الثانية كانت مسنة تقريباً، وهي تشبه. تشبه. تشبه زميلتك في العمل، المرأة التي كانت معك اليوم في المستشفى!
- قال ذلك وأشار إلى صورة زميلتها الفوتوغرافية الموجودة على طاولة مكتبها الفارغ. ابتسمت إيفا بيرغمان، وسألت مستفهمة وكأنها تعرف بأي شيء يفكر:
- وهل أخبرت أحداً بذلك، أقصد هل أخبرت أحداً بأنك رأيت الراهبتين؟
- نعم، أخبرت الممرضة، لكنها أكّدت لي بأنه لا وجود للراهبات في المستشفى.
- ارتسمت ابتسامة ودودة على وجه إيفا بيرغمان وسألته:
- وهل اقتنعت؟
- لا أدري. لقد قالت بأن بعض المرضى، ممن كانوا في قسم العناية المركزة، أخبروها أيضاً عن رؤيتهم لراهبتين في المستشفى، لكنها أكّدت أن هذا الأمر من هلوسات المرضى، وخوفهم من الموت وهم في تلك اللحظات الحرجة، لذا تتراءى لهم تلك الرؤى!
- نظرت إليه بتفحص وسألته:
- وأنت ماذا تقول؟ هل أنت مقتنع بما قيل لك أم تصدق ما رأيت؟

- من الناحية العلمية والنظرية نعم، فالكثير من نظريات علم النفس تؤيد ذلك؛ أقصد الهلوسات والحالة المرعبة في مواجهة الموت ومغادرة الحياة وما سيأتي بعد ذلك. لذا يرى المرضى مثل هذه الأشياء، لكن من الناحية الدينية أو الروحانية قد يبدو الأمر محتمل الوقوع.

- وأنت. في حالتك. أنت شخصياً ماذا تعتقد، أو كيف تفسر ذلك؟

- أنا في حيرة، فأنا شخصياً تحدثت معهن، لكن الممرضة أكدت لي بأنه لا توجد راهبات في هذه المستشفى، وأن هذه المستشفى شبه حكومية، ولا أدري من هو المصيب ومن هو المخطئ؟ بل الأكثر حيرة من ذلك هو أنني رأيت، وأنا في غرفة العناية المركزة، زوجتي حواء المؤمن، أو كانت زوجتي. رأيتهما تجلس عند السرير وقد أخذت كفي بكفها وكانت تذرف الدموع على كفي وكأنها تطلب الغفران. وحينما سألت الممرضة عنها في صباح اليوم التالي، قيل لي إنه لا توجد في المستشفى أي امرأة بهذا الاسم، بل لا توجد أي امرأة أجنبية في المستشفى بتاتاً؟ الحقيقة أنا في ذهول.

نظرت إيفا بيرغمان إليه للحظات وكأنها تريد أن تعرف هل انتبه لشيء ما أو لا، إلا أنه باغتها بالسؤال:

- وأنت، ما رأيك؟ هل تفهمين ما رويته لك الآن؟ كيف تفسرينه؟

نظرت إليه مباشرة، وبدون تردد قالت له:

- ربما يفكر البعض أن الإنسان في هذا العصر المادي والتكنولوجي لا يمكنه أن يؤمن بعالم الأرواح، وأن التطور التكنولوجي قد قضى بشكل نهائي على عالم الأرواح، فكل شيء يجب أن يُفسر تفسيراً مادياً، حسيّاً، وفق الأسباب والدوافع والتأثير، وأن التقدم العلمي قضى بشكل نهائي على التفكير الروحاني، لكن يخطئ من يفكر هكذا، فهناك الكثير من الأسئلة التي لم يستطع العلم والتقدم التكنولوجي أن يقدم جوابه عليها وتفسيره لها، ومن هذه الأسئلة الأشياء المتعلقة بالروح وبالظواهر التي لا تنطبق عليها قوانين الفيزياء والزمان والمكان. تلك الظواهر التي تُسمى الظواهر الخفية!

استمع لها بانتباه. فهم ما ترمي إليه لكنه أراد أن يتأكد من فهمه لها، فسألها:

- وماذا يعني هذا؟

- أعني، المهم إيمانك أنت بهذه الأشياء، فالإيمان وحده يحقق المعجزات!

قالت ذلك، ومدّت يدها فأخرجت من جاورر مكتبها كتابًا سميكًا من القطع الصغير، كتاب أحمر الجلد، يتدلى منه شريط أصفر اللون، نقش على غلافه بحروف ذهبية كتابة لم يستطع فك رموزها بسهولة لأنها حركت يدها. انتبه إلى أنه شاهد هذا الكتاب، لكنه لم يتذكر بالضبط أين؟ ولم يستطع التركيز في مكان رؤية الكتاب لأنه سمعها تقول:

- اسمع. سأقرأ لك من "إنجيل متى" هذه النصوص.

وفتحت الكتاب، وقلبت صفحاته، كان هو يفكر بالكتاب محاولاً تذكر رؤيته له، إلا أن صوت إيفا بير غمان أنهى تداعياته كلها حيث بدأت تقرأ:

في الإصحاح التاسع من «إنجيل متى» نقرأ التالي: (وفيما هو يكلمهم بهذا، إذا رئيسٌ قد جاء فسجد له قائلاً: إِنَّ ابْنَتِي الآن ماتت، لكن تعال وضع يدك عليها فتحيا. فقام يسوعُ وتبعهُ هو وتلاميذهُ. وإذا امرأةٌ نازفةٌ دم منذ اثنتي عشرة سنةً قد جاءت من ورائه ومستٌ هُذبَ ثوبه. لأنها قالت في نفسها: إن مسستُ ثوبه فقط شُفيتُ. فالتفت يسوعُ وأبصرها، فقال: ثقي يا ابنة، إيمانك قد شفاك. فشُفيت المرأة من تلك الساعة). وهنا نقرأ أيضًا في الإصحاح الرابع عشر ما يلي: (وللوقتِ ألزم يسوعُ تلاميذه أن يدخلوا السفينة ويسبقوه إلى العبر حتى يصرفَ الجموع. وبعد ما صرفَ الجموعَ صعدَ إلى الجبل منفردًا ليلصلي. ولما صارَ المساء كان هناك وحده. وأما السفينة فكانت قد صارت في وسطِ البحرِ مُعذّبة من الأمواج. لأنَّ الريحَ كانت مُضادة. وفي الهزيع الرابع من الليل مضى إليهم يسوعُ ماشيًا على البحر. فلما أبصره التلاميذ ماشيًا على البحر اضطربوا قائلين: إنه خيال. ومن الخوفِ صرخوا!

فللوقت كلمهم يسوعُ قائلاً: تشجعوا! أنا هو. لا تخافوا. فأجابه بطرسُ وقال: يا سيد إن كنت أنت هو، فمُرني أن آتي إليك على الماء. فقال: تعال. فنزل بطرسُ من السفينة ومشى على الماء ليأتي إلى يسوع. ولكن لما رأى الريحَ شديدةً خاف. وإذ ابتدأ يغرق، صرخَ قائلاً: يا رب، نجني! ففي الحال مدَّ يسوعُ يده وأمسك به وقال له يا قليل الإيمان، لماذا شككت؟ ولما دخلا السفينة سكنت الريحُ). ولنقرأ هنا في الإصحاح السابع عشر هذه القصة المعبرة: (ولما جاءوا إلى الجمع تقدم إليه رجلٌ جائئاً له وقائلاً يا سيد ارحم ابني فإنه يُصرعُ ويتألم شديداً. ويقع كثيراً في النار وكثيراً في الماء. وأحضرتهُ إلى تلاميذك فلم يقدرُوا أن يشفوه. فأجاب يسوعُ وقال أيتها الجيلُ غير المؤمن، المُلتوي، إلى متى أكونُ معكم؟ إلى متى أحتملُكم؟ قدّموه إليّ ههنا! فانتهره يسوعُ، فخرج منه الشيطان. فشفى الغلام من تلك الساعة. ثم تقدم التلاميذُ إلى يسوع على انفرادٍ وقالوا: لماذا لم نقدر نحن أن نُخرجه؟ فقال لهم يسوع لعدم إيمانكم. فالحق أقول لكم: لو كان لكم إيمانٌ مثل حبة خردلٍ لكنتم تقولون لهذا الجبل: انتقل من هنا إلى هناك فينتقل، ولا يكونُ شيءٌ غير ممكنٍ لديكم).

أغلقت الكتاب. وهيمن صمت ثقيل على المكان. صمت مشحون بالرهبة. كانت هي تقرأ بخشوع وعاطفة. أثرت هذه القراءة في نفس آدم التائه. نظرت هي إليه ورأت التأثر واضحا في عينيه. صمتت وكأنها تنتظر منه تعليقا على ما قرأت. انتبه هو إلى أنها تنتظر منه جوابا، فقال بتردد:

- كل هذا صحيح، حول قوة الإيمان، لكن هل هذا يعني أنني لو آمنتُ، فهذا يعني أن ما رأيته كان واقعا؟ أو لنقل أن ما رأيته حقيقة وليس خيال رجل مريض راقد في قسم العناية المركزية؟ وأنني لو لن أو من بكل هذا فيعني أنه لم يكن الأمر سوى رؤيا أوجدتها الحالة النفسية لي أو الأدوية التي تناولتها وأنا في ذلك الظرف العصيب؟

- بالضبط، بالرغم من أن عدم إيمانك لا يلغي وجود تلك الحقيقة، وهي أن الروح حية لا تموت!
- فأكمل هو لها بقية الجملة، قائلاً:
- هل هذا يعني أن إيماني سيؤكد لي بأن ما شاهدته كان حقيقة واقعة، أي أنني فعلاً رأيت راهبتين، وهما موجودتان برغم نفي الإدارة لذلك؟
- بالضبط.
- نظر إليها بحيرة. صمت للحظات ثم سأل:
- لكن ما معنى وجود زوجتي عندي، بينما هي أساساً موجودة في شقتها، وغير مريضة، ولا توجد في المستشفى أي امرأة أجنبية؟
- صمت للحظات. نظرت إليه وكأنها تريد أن تستقرئ رد فعله، فقالت ببطء:
- ربما هي زارتك فعلاً؟
- لا، لم تزرنني قط، فقد كنت في ذلك اليوم قد أطلقت عليها يمين الطلاق، بعد أن عرفت بعلاقتها بجارنا اللبناني.
- نظرت إليه نظرة مليئة بالألغاز لم يفهمها آدم التائه، وقالت له:
- لكنك غفرت لها، أليس كذلك؟
- تعجب من جملتها تلك، نظر إليها بشك وقال:
- ولكن من أين تعرفين أنني غفرت لها؟
- نظرت إليه دونما أي ارتباك، وقالت:
- لأن مثلك لا يمكن إلا أن يغفر، فأنت إنسان طيب القلب.
- لقد غفرت لها بالفعل، حينها، أقصد حينما جاءت تبكي، وانهمرت دموع الندم على كفي.
- التفت هو مباشرة إلى الكتاب الذي كان على طاولة المكتب أمامها، وقال:

- أنا رأيت هذا الكتاب في مكان ما، لكن لا أدري أين؟
- ربما رأيت مثله، فهذه طبعة شهيرة للكتاب المقدس، وقد وزعت بمئات الآلاف من النسخ في الأربعينات، وهذه النسخة قديمة ونادرة، مضى على طباعتها أكثر من نصف قرن.

فجأة انكشفت الغمامة عن ذاكرته، فقال لها بحرارة:

- نعم. نعم. لقد كان مثل هذا الكتاب بيد الراهبة الشابة في المستشفى.
- نعم. الآن تذكرت. وبالمناسبة، كما قلت لك سابقًا كانت الراهبة تشبهك جدًّا، بيد أنها كانت بثياب الراهبات، وكذلك زميلتك في العمل تشبه الراهبة المسنة. غريب!

نظرت إليه بقلق، لكنها كانت تحاول الابتسام وتخفيف توتر الموقف، وقالت:

- ما هو الغريب، أن ترى أناسًا يتشابهون؟
- لكن ليس بهذا الشبه الكبير.
- ماذا في الأمر؟ أنت مثلاً تشبه صديق قريب لي، مات بانفجار لغم.
- بانفجار لغم؟ سأل هو بنبرة خائفة ومستغربة.
- نعم. أوه. لا. لا تذهب بعيدًا، هنا في ألمانيا لا تزال الكثير من الألغام والقنابل مدفونة تحت الأرض، ولم نستطع أن نجد كل الألغام، بالرغم من الجهود التي بُذلت وتُبدل من أجل ذلك. كان يشبهك كثيرًا، وكان مثلي ابنا لجندي أمريكي تزوج من امرأة ألمانية. وحينما نقلناه للمستشفى أنا وأمه، بقينا هناك إلى أن أسلم الروح. إنها نفس المستشفى التي كنت أنت راقداً فيها، وبالمناسبة، فالمرأة الأخرى التي تعمل في المكتب معي، هي أمه.

- غريب!

نظرت إليه باستفهام، وسألت:

- ما هو الغريب؟

- لا أدري. أحس أنني في متاهة لا أجد فيها طريقي.
- ابتسمت بحزن وقالت:
- كلنا ندور في المتاهة نفسها.
- نظر إليها مستغرباً وسأل:
- أتدورين أنت في المتاهة أيضاً؟
- صمتت للحظات وقالت بهدوء حزين:
- ولم تعتقد غير ذلك؟
- نظر إليها بحيرة وقال بانفعال حاول أن يكتمه:
- لا أدري. لدي شعور بأنك واثقة من نفسك ومن حقائق الأشياء كثيراً، وأن لديك إيماناً قوياً لا يهتز، وهو الذي يمنحك اليقين والشجاعة في مواجهة التيه، مثلما يمنحك هذا الوضوح والثقة بحقائق الوجود!
- ابتسمت بحزن، نظرت إليه ثم سألت:
- هل تقصد إيماني بالأرواح مثلاً؟
- الإيمان بالأرواح واحد منها.
- نظرت إليه بحنان وكأنها تريد أن تمنح روحه شيئاً من السكينة، وقالت وفي نبرات صوتها دفء مهدئ:
- اسمع يا آدم. قصتك مع الأرواح في تلك المستشفى ليست بجديدة، فالكثيرون من أبناء هذه المدينة يعرفون ذلك، وواجهوا الراهبتين، وهم يؤمنون بذلك، هذه المدينة كانت قد عرفت الحروب، وتضررت كثيراً منها، سواء الحروب الداخلية أو الأوربية، الحربين العالميتين، الأولى والثانية. وكان بالقرب من هذا المستشفى دير معروف، وكانت الراهبات قد تحولن إلى مضمندات ومساعدات أطباء، وكنّ يسهرن إلى جانب الجرحى، والقصة مؤلمة يعرفها أبناء المدينة، إذ تمّ قصف الدير والمستشفى، ولم يبقَ مع

الجرحى سوى راهبتين؛ هاتان الراهبتان، واحدة شابة وأخرى أكبر سنًا، ظلتا مع الجرحى، إلى أن تم قصف المكان بقنبلة أمحت كل شيء من على وجه الأرض، ولم يبق منها سوى حفرة عميقة سوداء. بعد انتهاء الحرب، وقبل أن يعاد بناء المدينة والمستشفى، كان الناس يسمعون أنين الجرحى يأتي من أعماق الحفرة. وفي الليالي الحالكة كانوا يرون نورًا ضئيلًا يأتي من أعماقها، وحينما كانوا يقتربون لا يجدون شيئًا سوى حفرة سوداء تفتح شديدها للناظر إليها. ظل الناس يعتقدون بأن هذه الأصوات هي لأرواح الجنود الجرحى المساكين، والنور الذي يشع من الحفرة السوداء هو من شموع الراهبتين اللتين بقيتا مع الجرحى ودفنتا معهم، إلى أن تم بناء مستشفى على نفس المكان الذي كانت فيه، ومنذ ذلك الحين يرى المرضى الراهبتين في أروقة المستشفى، بل وفي جميع مستشفيات هذه المدينة! إنهما تأتبان للمرضى الذين يكونون في حالات حرجة جدًا. تواسيان المرضى وتمنحانهم شيئًا من السكنية. وعلى مر السنين، ودخول عدد كبير إلى المستشفى، ومروورهم بقسم العناية المركزة، صار أهل المدينة يعرفون أن الراهبتين هما حقيقة واقعة، بالرغم من أنه حاليًا لا يوجد مستشفى للراهبات في مدينتنا، بل ولا دير للراهبات! إن معظم أهل المدينة رأوا الراهبتين، بل صاروا يؤمنون بتجولهما في المدينة وحضورهما لجميع أهلها المحتاجين للطمأنينة الروحية.

نظر إليها مذهولاً من هذه القصو الغريبة، وسألها بصوت متحشرج:

- وأنتِ؟

ارتبكت لثوان من سؤاله. تماسكت وردت:

- أنا؟

- نعم أنتِ، هل رأيت الراهبتين؟

ارتبكت أكثر، وبدا ارتباكها واضحًا، لكنها دارت موقفها بأن ابتسمت

وقالت:

- أنا. أنا. لم أكن يومًا في العناية المركزة!
- يعني أنك لم تري أيًا منهما؟
- ارتبكت إيفا بيرغمان، وأرادت أن تسيطر على الموقف، فقالت:
- الجميع هنا يؤكد، مثلما قلت أنت، بأن الراهبة الشابة تشبهني.
- هذا ليس جوابًا عن سؤالِي.
- في تلك اللحظة، فُتح باب المكتب ودخلت المرأة المسنة، وسلمت عليهما بالألمانية، وهي تقول:
- شكرًا لكِ إيفا. لولاك لم أكن أعرف ماذا أفعل. هل الأمور كلها على ما يرام؟
- أوه. نعم.
- كان دخول المرأة الأخرى وكأنه دخول مؤقت، إذ لم يعد بإمكانهما أن يستمرا بالحديث، ولم يحصل هو منها على الإجابة الواضحة، إن كانت هي قد رأت الراهبتين. بدا واضحًا على ملامح إيفا بيرغمان كأنما تم إنقاذها من وضع غير مريح بالنسبة لها، فهي لم تشأ أن تجيب بصراحة على سؤاله، لذا حاولت أن تلملم الموضوع وتدير وجهة الحديث، فقالت:
- عمومًا، غدًا تأتي بصورتين فوتوغرافيتين معك، مع جوازك هذا، وتنتظرني عند دائرة الأجانب في البلدية، وسنهي الأمر غدًا، ونأتي بعدها لحجز البطاقة لك.
- أحس آدم التائه بأنها تريد إنهاء الموضوع، فقام من كرسيه، ومد يده مصافحًا، وهو يقول:
- شكرًا لكِ على كل جهودك. وغدًا سأنتظرك، لكنك لم تحددِي الوقت.
- هل الساعة التاسعة صباحًا تناسبك؟
- تناسبني تمامًا، شكرًا لكِ.

قال ذلك وخرج وهو في حالة ذهول، وتوتر غامض أكثر من السابق. نظرت إيفا بيرغمان إلى زميلتها وتبادلتا نظرات ذات معنى لا يدركها أحد غيرهما، وابتسمتا كل منهما للأخرى بحزن.

حين خرج آدم التائه من المكتب السياحي كان حائرًا إلى أين يذهب؟ توجه يمينًا حيث الطريق الذي تحفه الأشجار من جانبه على مقربة من نهاية ساحة السوق. ثمّة فوضى من المشاعر والأفكار تتداخل في أعماقه. لم ينتبه لخطاه، كان يحاول أن يجد تفسيرًا لكل هذا الحديث الذي سمعه من إيفا بيرغمان. سأل نفسه: "أمن المعقول أن إيفا بيرغمان هي نفسها الراهبة الشابة وصديقتها هي الراهبة الأخرى؟ لكن كيف يمكن ذلك؟ إذا صحت الحكاية التي روتها فهذا يعني أن إيفا بيرغمان روح حية، وهي الراهبة نفسها؟ لكن كيف لروح أن تعمل موظفة في مكتب للسياحة؟ بل أنا قد تعرفتُ عليها قبل أن أتعرض للذبحة الصدرية؟ أي أنني لو لم أتعرض للذبحة الصدرية لما عرفت أنها روح؟ بل ولما كنت قد التقيت بالراهبتين أصلاً؟ ثم إنني كنت أفكر أن أقيم علاقة غرامية معها، فهي امرأة مثيرة حقًا، فهل هي روح أو هي امرأة حقيقة أخرى؟ إنها لم تؤكد لي بأنها روح أبدًا؛ فلماذا أعتقد بأنها روح وأنها هي الراهبة التي التقيت بها؟ ثم إذا كانت هي روح، فكيف تحدثت مع مدير دائرة الأجانب، وتعهدت بتكفلي أمام الدائرة؟ هذا غير منطقي أبدًا، إلا إذا كانت المدينة كلها مدينة أرواح؟ لكن ما هي الروح؟ هل هي الوجود المفكر، اللا مادي، البسيط، الذي لا يقبل الفناء، ولا يشغل حيزًا في المكان؟ إذا كان الأمر كذلك، فإن إيفا بيرغمان ليست روحًا لأنها امرأة من لحم ودم، وقد صافحتها بنفسها؟".

قطع آدم التائه طريقًا يدخله لأول مرة، لم يكن متنبهًا للطريق ولا للاتجاه الذي يقود إليه، لكنه وجد أن الطريق ينتهي بغابة كثيفة تلتف حول جانب من

المدينة وتقود إلى حقول المزارعين الألمان. شعر بالخوف من اجتياز الغابة والتوغل فيها، فرجع أدراجه إلى وسط المدينة، وحينما مرّ من أمام المكتب السياحي وجده مغلقاً ومظفأً الأنوار من الداخل. استغرب، لأن الوقت ليس نهاية للدوام الرسمي. فاتجه في سيره ذاهباً إلى البيت.

عاد آدم التائه إلى البيت، وبينما هو يصعد السلم الخشبي راودته خاطرة بأنه سيفتح الباب وسيجد إيفا بيرغمان أمامه جالسة بانتظاره. ابتسم مع نفسه لهذه الخاطرة الغريبة. فتح باب شقته. ضغط على زر الإنارة فأضيئت الباحة الصغيرة بين الباب وغرفة الاستقبال والمطبخ. دخل المطبخ مباشرة وأناره ثم بدأ بإعداد الشاي لنفسه، فوضع الماء في الدورق المخصص لغلي الماء. ذهب إلى غرفة النوم فألقى نظرة عليها، ثم رجع مباشرة إلى غرفة الاستقبال. أضاء الغرفة وذهب نحو مكتبه فجلس على كرسيه حول الطاولة التي وضع عليها بعض الكتب الأدبية والدراسات بالعربية وكتابين لتعلم اللغة الألمانية. لم يكن يعرف ماذا عليه أن يفعل، فالمساء ما يزال في أوله. قال لنفسه بأن عليه شرب الشاي أولاً، وليفكر بعدئذ كيف يقضي ليلته. قام من مكانه وذهب ليعد الشاي لنفسه.

آدم البغدادي: لماذا يعذبني سؤال الموت؟ والإيمان بما بعد الموت؟ هل يمكن لهذه الأحداث التي روتها إيفا بيرغمان أن تحصل في الواقع؟ ومن هي إيفا بيرغمان؟ هل قوة الإيمان تفعل حقاً كل هذه المعجزات ضد كل قوانين الفيزياء المعروفة؟ لا أدري.

حينما قرأ آدم المحروم هامش صديقه على الفصل قال لنفسه: يبدو أن صديقي كان يعاني من صراع روحي كبير. ما له والبحث في الكتب المقدسة وكل هذا الحديث عن الروح وقوة الإيمان والموت؟ أليس من الأجدى له كتابة رواية عن احتلال العراق من قبل الأمريكان والإيرانيين، ودول أخرى؟ لأواصل القراءة لأعرف نهاية هذه المغامرة.

لعنة الشيخير

خرجتُ حواء المؤمن وآدم اللبناني والعم من مكتب المحامي. أول شيء دار في ذهن العم هو أن يجلسوا في أحد المقاهي القريبة في وسط المدينة، لأنه لا يود أن يناقش وضع آدم وحواء أمام بقية أفراد العائلة، لا سيما وأن المبنى كله من العوائل اللبنانية والفلسطينية وغيرهم من الجاليات اللاجئة إلى ألمانيا، فالنساء في رأيه ثرثارات وربما يصل الخبر إلى زوج حواء المؤمن فتصبح مشكلة كبيرة! فهو يعرف أنها زوجته وفق التعاليم الإسلامية، ولأنهم كانوا قرييين من محطة القطار الرئيسية في المدينة فقد دخلوا إلى مقهى للمشروبات الساخنة السريعة في المحطة المركزية. وفعلاً وجدوا مكاناً جلسوا فيه، بعد مراسيم الضيافة العادية التي قام بها العم، بدأوا حديثهم، وتوصلوا إلى أن أول خطوة يجب أن يبدأوا بها هي وجود مكان، ولو غرفة واحدة للسكن، من أجل أن يتم تأجيرها لهما، وعلى أساس عقد الإيجار يمكن تسجيل عضوية حواء المؤمن باعتبارها من سكان المدينة. عندها يصير من حقها التقدم للزواج في دوائر المدينة المختصة بذلك. ولم يضع العم الوقت إذ اتصل بأحد معارفه ممن يعملون في مكتب للعقارات وأخبره بحاجته لسكن يتألف ولو من غرفة واحدة وملحقاتها، ولحسن حظه وعده الذي على الطرف الآخر من الخط بوجود غرفة وملحقاتها وبأجرٍ معقول، فاتفق معه أن يأتيه في صباح الغد.

تجولوا في سوق المدينة قليلاً، ثم عرجوا على السوبر ماركت الشرقي فاشترى عمه قينة من الخمر اللبناني وشيئاً من الفواكه وجبة الحلوم. وعند

الدفع، وقبل أن يصل دورهم للدفع، مدت حواء المؤمن بورقة نقدية إلى يد آدم اللبناني كي يقوم هو بالدفع وليس عمه، فليس من اللائق أن يثقلا عليهم بوجودهما. أخذ آدم الورقة النقدية ولكن قبل أن يقوم هو بالدفع كان عمه قد دفع قيمة المشتريات، وحينما حاول آدم أن يدفع رفض عمه ذلك رفضاً قاطعاً حالفاً أغلظ الأيمان بأنه لا يقبل ذلك لأنهما ضيفاه. وضع آدم اللبناني الورقة النقدية في جيبه ولم يعدها إلى حواء، استغربت حواء المؤمن من تصرفه، لكنها استغربت أكثر من نفسها، ومن تصرفها، وسألت نفسها: لماذا قامت هي بإعطائه النقود، ما علاقتها هي بالأمر، ولماذا تصرفت وكأنهما عائلة واحدة وهي زوجته؟

في بيت العم أعدت حواء المؤمن مع زوجة العم وبناتها العشاء للجميع، وجلسوا على الأرض ليتعشوا. تركوا لها المكان لتجلس إلى جانب آدم اللبناني. بعد العشاء بدأت سهرة العائلة بمتابعة كاسيت لمسرحية فكاهية كويتية عن مهازل الأغنياء العرب في لندن، بينما نصب العم وآدم اللبناني المائدة وأخذوا يشربان العرق. تضايقت حواء المؤمن في داخلها كثيراً، لكنها لم تبد ذلك أمام العائلة المضيضة. أدركت بشكل غامض أنها تورطت ورطة كبيرة مع آدم اللبناني، فقد انتبهت من خلال جلسته مع العم إلى أنه سكير له خبرة واسعة بشرب الخمر!

كانت العائلة في حالة مرح. يقهقهون عالياً بتأثير المواقف المضحكة في المسرحية، وكانت الأم وابنتها يشربن الشاي ويأكلن المكسرات من جوز ولوز وفسق والبوظا المحمصة بحماس يتناسب مع تفاعلهن مع المسرحية. حواء المؤمن كانت حاضرة معهن وغائبة في الوقت نفسه، ترأب الجميع وكل شيء، تبسم دون أي مرح. وحين التفتت إلى الجانب الذي يجلس فيه آدم اللبناني وعمه، رأت أن العم قد بدا غافياً على كرسيه، بينما آدم يصب لنفسه الخمر من القنينة شبه الفارغة ويشرب وحده غير عابئ بأحد.

نظرت إليه وكأنها تطلب منه ألا يواصل الشرب، لكنه لم يأبه بها. واصل هو شربه، بينما هي أبدت علامات التعب، فانتبهت الأم المضيفة، وقالت لها:

- حبيبتي حواء، إذا كنت تعبانة فيمكنك أن تذهبي إلى الغرفة الأخيرة في الممر، إنها مخصصة لكما.

- والله، أحس بتعب شديد، تصبحون على خير.

قامت من مكانها، بعد أن ألقت نظرة تأنيب على آدم اللبناني، لكنها وهي في طريقها إلى الغرفة التي خصصت لهما، فكّرت باستغراب وسألت نفسها: «لماذا لم تطلب منها الأم أن تنام في غرفة الفتاتين مثلاً، أو أن يفصلاهما في المبيت، وإنما تصرفت معهما وكأنهما زوجان. ماذا أخبرهم آدم اللبناني عن علاقتهما بحيث تصرف الأم هكذا؟».

حين فتحت باب الغرفة المخصصة لهما وجدت أنها فارغة إلا من فراش عريض وضع على أرضية الغرفة وعليه لحاف واسع ووسادتان. لم تكن تعرف ماذا تفعل. جلست بهدوء على الفراش، ثم تمددت على ظهرها منتظرة ما سيأتي، كانت تحس نفسها ضائعة، وأنها ليست هي حواء المؤمن التي تعرفها! وسألت نفسها: «من هي يا ترى هذه التي تجلس الآن وحيدة في هذه الغرفة العارية كعاهرة رخيصة تنتظر ناكحها الذي يدفع لها؟ لا. لا. يبدو أن عليّ أنا أن أدفع له كي ينام معي!». هكذا سخرت حواء المؤمن من نفسها!

في الصالة كان آدم اللبناني قد جاء على الفينة بكاملها، وأكل كل المقبلات الموجودة على المائدة الصغيرة، بينما غادرت الفتاتان الصالة إلى غرفتهما، وبقيت الأم وحدها والتي كانت تنظر إلى آدم اللبناني بغواية ورغبة واضحة، وقالت له مبتسمة:

- يبدو أنك لا تريد أن تروي حسانك!

- ماذا تقصدين؟ أي حسان؟ وأين أرويه؟

- ابتسمت زوجة العم بإغراء مفضوح وقالت:
- يبدو أنك لا تريد أن تفهم. عمومًا. محظوظة هذه الحواء لأن لديها رجلًا بمعنى الكلمة، تتمناه كل امرأة.
- شكرًا.
- نظرت إليه بشهوة مستغلة حالة النشوة والسكر التي هو فيها وقالت:
- تمنيت لو أنك اخترت واحدة من بناتي.
- لكن.
- أعرف أنك من أجل الإقامة ارتبطت بها، لكن تمنيت لو أنك تزوجت واحدة من بناتي كي تبقى قربي، كي أعطني بك أكثر من أي امرأة في العالم. ألا تريد أن أعطني بك؟
- نظر إليها وكأنه يرى هذه المرأة لأول مرة. رأى أمامه امرأة ناضجة، جريئة، شبقية، برغم انها مكها في عالمها البيتي. انتبهت هي لنظرات الإعجاب في عينيه، فجأة. نهضت من مكانها وجلست جنبه، كان هو منتشيًا، مسترخيًا. نظرت إليه وعلى وجهها ارتسمت رغبة فاضحة وقالت له بنبرة فيها توتر الرغبة:
- هل تراني جميلة؟ هل أعجبك؟ مَنْ هي الأجل، أنا أم بناتي، أم حواء؟
- قالت ذلك ومدت يدها إلى عضوه، وأخذت تداعب تلك المنطقة بشبق، وهي تلهث، وقالت بنبرة لاهثة:
- أريد أن تروي حضانك من بئري، سأرويك بما لا يستطيعه أي امرأة. افعل بي ما تشاء، حياتي تعيسة، أريد لحظة سعادة، امنحني هذه اللحظة.
- كانت تتحدث لاهثة وكأنها تهذي، فجأة قفزت إلى حيث كانت جالسة حين سمعت صوت فتح باب إحدى الغرف. وخلال لحظات أطل زوجها على الصالة، وقف وهو في حالة السكر، وقال:
- لماذا تجلسين وحدك هنا؟ قومي نامي.

فقال بارتباك سيطرت عليه:

- أحكي مع آدم عما ينويه.
 - لا شأن لك بذلك. وأنت، قم نام، غداً لدينا مواعيد كثيرة.
- نظرت زوجة العم إلى آدم الذي نهض مترنحاً بحسرة، بينما التفتت إلى زوجها وهي ترمقه بنظرة غضب مكتوم وحقد دفين.

دخل آدم اللباني إلى غرفة النوم غالباً بابها خلفه. نظر إلى حواء المؤمن وهي مستلقية على الفراش أمامه، أحس بهاجس الرغبة يدور في رأسه المخمور. نزع قميصه وسرواله وهو واقف، وخطا إليها، لكنه تعثر قليلاً فسقط على الفراش.

في اللحظة التي دخل فيها آدم اللباني إلى الغرفة أغمضت حواء المؤمن عينيها، فهي لم تشأ أن تناقشه، وهي عادة تخاف السكاري. وحين تعثر آدم وسقط على الفراش أرادت أن تنهض بشكل لا إرادي، لكنها أجبرت نفسها على البقاء ساكنة ومغمضة العينين وكأنها نائمة. مد هو يده إلى ساقها، رفع ثوبها قليلاً إلى الأعلى، ومد يده إلى ما بين فخذيها، داعب فرجها الطري الأملس الحليق، حاولت بكل جهدها ألا تبدي تجاوباً معه برغم الإثارة. أراد أن ينزع سروالها عنها فلم يستطع، فهي لم تمكنه من ذلك، وبعد لحظات، تمكن السكر منه، فسحب يده، وتمدد إلى جانبها، وغرق في نومه.

كانت هي تعيش مشاعر مضطربة. كانت تحس أنها ولأول مرة تخاف من هذا الشخص النائم جنبها، بل لأول مرة تكتشف بوضوح شديد عمق الهاوية التي ألقَتْ بنفسها فيها، وبلا إرادة منها نزلت الدموع من عينيها، بينما تعالى شخير الرجل الغريب الذي تمدد بجانبها.

ظلت حواء المؤمن تحديقاً إلى الغرفة. نهضت بهدوء وأطفأت المصباح، وعادت بنفس الهدوء لتتمدد على الفراش. عادت لتحديقاً إلى سقف الغرفة برغم

الظلمة. أخذت تفكر بما ينتظرها من أيام وأحداث ومستقبل غامض. أحست بأنها لا تستطيع أن تتواصل مع هذا الشخص الراقد إلى جانبها، لكنها في نفس الوقت وجدت نفسها لا تملك إرادة الانفصال عنه! تعبت من التفكير في الظلمة، بينما ظل آدم اللبناني مستمرًا في شخيرِه. حاولت أن توقظه فلم يترشح من مكانه ولم يستيقظ، سحبت الوسادة من تحت رأسه، فتوقفت عن الشخير، شعرت بشيء من الراحة، لكن الأمر لم يطل كثيرًا، فبعد دقائق عاد آدم اللبناني إلى الشخير. تعبت من التفكير، وأرهقها سماع شخير آدم. أغمضت عينيها لتجبر نفسها على النوم، وفعلاً، لا تدري متى، وكيف، مسّت أنامل النوم الرحيمة جفنيها.



في تلك الليلة نفسها، جلس آدم التائه على كرسيه وراء طاولة مكتبه، بعد أن تناول وجبة خفيفة من الجبن والزيتون، وشرب الشاي الثقيل. أخذ رزمة من الورق وضعها أمامه وخط عليها بالقلم العريض عنوان روايته الجديدة (مناهة حواء وادي الظلمات). لقد أحسّ برغبة قوية جداً في أن يكتب رواية عن تجربته مع الأرواح الطيبة، وقصته مع الراهبتين، ومع إيفا بيرغمان. لكنه، بالرغم من حالته النفسية ورغبته العارمة في الكتابة، شعر بالعجز عن الكتابة، وسأل نفسه: "ماذا سأكتب؟".

وضع القلم جانباً. أخذ كتاباً من مجموعة الكتب العربية التي كانت على الطاولة وأخذ يتصفحه بشكل سريع. كتاب (سبينوزا) للدكتور فؤاد زكريا، وكان قد اشتراه مع كتب أخرى من معرض للكتب العربية في أحد المهرجانات التي يقيمها الأجانب بمدينة كولون. توقف عند صفحة ما قرأ: "إن الجمال ليس صفة في الشيء موضوع البحث بقدر ما هو أثر في ذلك الذي يتأمله. ولو كانت قدرتنا على الإبصار أقوى أو أضعف، ومزاجنا مختلف، لبدت لنا الأشياء الجميلة قبيحة، والقبيحة جميلة. ولا بد أن أجمل الأيدي تبدو شنيعة إذا ما نظرنا إليها بالمجهر. ومن الأشياء ما يبدو جميلاً عن بُعد، حتى إذا ما اقتربنا منه ظهر قبحه. وهكذا فإن الأشياء إذا ما نُظر إليها في ذاتها أو

في علاقتها بالله، لا تكون جميلة ولا قبيحة. وعلى من يزعم أن الله خلق العالم ليكون جميلًا، أن يعترف ضرورة بأن الله قد صنع العالم من أجل رغبة الإنسان وعيونه، أو بأنه صنع رغبة الإنسان وعيونه من أجل العالم“.

فكر قليلًا متأملًا الفقرة التي قرأها ثم ألقى الكتاب جانبًا. كان ضجرًا، محتارًا، ثمّة شيء ما يقبض على روحه ويخنقها. أخذ كتابًا آخر. كان الكتاب مجموعة قصائد مختارة للشاعر بدر شاكر السياب، فتح الكتاب فواجهته قصيدة (المسيح بعد الصلب) فقرأ:

بعدما أنزلوني، سمعتُ الرياح
في نواحٍ طويلٍ تسف النخيل
والخطى وهي تنأى. إذن فالجراح
والصليبُ الذي سَمَّروني عليه طوال الأصيل
لم تمتني. وأنصتُ: كان العويلُ
يعبر السهلَ بيني وبين المدينة
مثل حبلٍ يشدُّ السفينة
وهي تهوي إلى القاع. كان النواخ
مثل خيط من النور بين الصباح
والدجى، في سماء الشتاء الحزينة.
ثم تغفو، على ما تحسُّ، المدينة.

أطبق الكتاب ووضعه جانبًا. ظل حانيًا رأسه للحظات. مُفكّرًا بهذا الشاعر الجنوبي الذي، ربما لم يدخل كنيسة في حياته، يكتب عن آلام المسيح كأنه راهب اعتكف طوال عمره ليدرس حياة يسوع الناصري وآلامه، ويتقمصها. أخذ رأسه بين يديه متأملًا نفسه وأحاسيسه وأفكاره وما جرى له منذ لحظة هجرته لبلاده وإلى تلك اللحظة التي هو فيها. بقي آدم التائه على تلك الحال لفترة طويلة نسبيًا، بعدها قام بتناقل وغادر الصالون، مطفئًا النور خلفه، متجهًا نحو غرفة النوم.

صباح المتاهة

في تمام الساعة التاسعة وصل آدم التائه إلى الممر الذي تقع فيه دائرة الأجانب في المبنى الكبير لبلدية المدينة فوجد أن إيفا بيرغمان تنتظره هناك أمام باب غرفة المدير. كان قد استيقظ متعباً، إذ نام بشكل قلق، فقد فزّ مرات عدّة خلال النوم، وفي كل مرة كان يهب من نومه ظناً منه أنه قد تأخر عن مواعده. وصل إليها، مديده مصافحاً، خلال ثانية برقت في ذهنه بأن يضغط على كفها ليتأكد من أنها بشر لا روح! وفعلاً ضغط على كفها قليلاً، وأبقاها لأطول مدة ممكنة في كفّه. ابتسمت هي لهذا الأمر، ولم يكن يعرف أنها ابتسمت تجاوباً معه، أم أنها أدركت ما جال في ذهنه؟ انتبهت هي للقلق والشرود الذهني الذي بدا على وجهه، لكنها لم تسأله، إذ كان عليهما أن يدخلوا على مدير دائرة الأجانب. توجهت وهو إلى جانبها إلى غرفة المدير ودخلاها.

في مركز مدينة إيسن، وأمام محطة القطار المركزية كان آدم اللبناني وعمه وحواء المؤمن ينتظرون الشخص الذي عليه أن يأخذهم إلى الشقة الفارغة كي يلقي نظرة عليها، ومن ثم يذهبون إلى مكتب العقارات كي توقع حواء المؤمن العقد، وبعد ذلك الذهاب إلى بلدية المدينة للتسجيل كمواطنين من سكانها، ومن ثم استكمال إجراءات النقل من المدينة التي كانت تعيش فيها. كانت حواء المؤمن صامتة. أحس العم بأنها غير مرتاحة، فهي لا تشاركهما في الحديث ولا يبدو عليها أي علامة اهتمام بالموضوع، وكأن الأمر لا يعينها! وفعلاً كانت هي وكأنها مأخوذة اللب، ومجذوبة بقوة غير

منظورة؛ قوة شلت تفكيرها، وخدرت أحاسيسها، فلم تكن تأبه لكل ما يجري وما سيجري، وكأنها كانت تدرك بأنها ألقت بنفسها في فوهة هاوية بلا قرار، وأنها الآن تنظر لمصير حواء أخرى، يحجبها عن الواقع جدار لا مرئي يمكن اختراقه في أي لحظة تشاء!

كانت تسمع حديثهما، لكنها لم تفهم منه شيئاً. وبرغم ذلك انتبهت إلى علامات القلق المرتسمة على وجهيهما. انتقلت فجأة إلى عالم المحسوس بشكل لا إرادي أيضاً، فسمعتهما يتحدثان عن تأخر وكيل العقارات الذي ينتظرونه. وفجأة، بدأت الحيوية على ملامحهم. انتبهت إلى أن الشخص الذي ينتظرونه قد وصل وصافحهم، وألقى عليها التحية فأومأت برأسها دون أن تنطق بكلمة واحدة. أشار وكيل العقارات إلى سيارته التي ركنها قريباً من المحطة. اتجهوا نحوها. صعدوا إلى السيارة وانطلقوا لمعاينة الشقة.

لم يستغرق إنجاز معاملة الحصول على الجواز ذي الغلاف الرصاصي والذي يمنح للمقيمين في ألمانيا طويلاً، فبعد أن أوضحت إيفا بيرغمان تفاصيل وضع آدم التائه، وأن عليه الذهاب للمقابلة التي على أثرها ربما سيغادر ألمانيا نهائياً. تعاطف المدير معه، وتعامل معه بشيء من التقدير لكونه أستاذاً جامعياً، وأنه يبحث عن فرصة عمل في مكان، وليس كهؤلاء اللاجئين الذين صاروا عالة على المجتمع الألماني، بل وصاروا مصدرًا لانتشار المخدرات والدعارة والتهرب والجريمة المنظمة.

حصل آدم التائه على الجواز الجديد، بعد أن أودع جوازه الأزرق اللون لديهم، وبعدها وقعت إيفا بيرغمان على تعهد بأن تتحمل كل التبعات القانونية فيما لو حدث ولم يعد، أو حدث له شيء ما.

حينما خرجا من غرفة المدير كانت إيفا بيرغمان تشع بالسعادة والفرح وكأنها أنجزت شيئاً عظيماً لإنسان عزيز عليها، بينما كان هو مجذوباً

بأحاسيس مختلفة. كان سعيداً بحل مشكلة سفره من جهة، ومن جهة أخرى كان يحس بأنه مقبل على مغامرة مجهولة!

حين صار خارج مبنى بلدية المدينة، طلبت إيفا بيرغمان منه أن يذهب إلى المكتب السياحي ويتصلا بالسفارة الإماراتية ليؤكد لهم حصوله على جواز الإقامة الاعتيادي. صعد معها إلى سيارتها، وانطلقا إلى المكتب.

حينما وصلا إلى المكتب كانت الموظفة الأخرى جالسة على كرسيها حول طاولتها، وما إن رأتهما يدخلان حتى وقفت تريد مغادرة المكتب وهي تقول لزميلتها إيفا بيرغمان:

- الحمد لله أنك وصلت الآن وإلا كنت سأتأخر. عليّ الذهاب إلى المستشفى فجارتنا في وضع سيء، فقد نقلوها صباح هذا اليوم إلى قسم العناية المركزة في المستشفى ولا بد من زيارتها، فلربما تحتاجني في شيء ما، فهي امرأة وحيدة. إلى اللقاء سأراك لاحقاً.

أخذت حقيبتها اليدوية وخرجت. لم ينتظر آدم التائه دعوة إيفا بيرغمان له بالجلوس إذ أنه جلس حينما جلست هي على كرسيها. وبدون أي مقدمات طلبت منه جوازه لتحجز له بطاقة السفر، ضغطت على زر تشغيل الكمبيوتر الذي أمامها لترى شركات الطيران وجداول طيرانها إلى الإمارات، وقبل أن تحجز له أخذت سماعة الهاتف لتتصل بالسفارة الإماراتية.

في مكتب ضيق للعقارات، بالكاد يتسع من جهة لطاولة صاحبه ومقابلها أريكة للجلوس، كان آدم اللبناني والعم وحواء المؤمن يجلسون على الأريكة بينما جلس الرجل الذي نقلهم بسيارته على كرسيه حول طاولة تزدهم عليها المفكرات والتقاويم المختلفة إلى جانب صور له ولأبنائه. وكان قد أعد صيغة العقد وطلب من حواء المؤمن التوقيع عليه، فتحركت من مكانها ووقعت.

لم تكن علامات الفرح بادية على وجهها، فكأن الأمر لا يعينها أساساً، بينما كانت عيون آدم اللبناني والعم تتألق فرحاً. شرح صاحب المكتب لهما ماذا يفعلان، وكيف عليهما بعد تسجيل حواء المؤمن أن يذهبا إلى دائرة شئون الأجانب في المدينة كي يسجلاها ضمن سكان المدينة، ولأنها بدون عمل فسيحولونها إلى دائرة المساعدات الاجتماعية، وكل ما له علاقة بعملية نقلها إلى هذه المدينة رسمياً. كانت حواء المؤمن تسمع كل ما يُقال، لكن بالنسبة لها، كأن الحديث يخص شخصاً آخر غيرها.

- أهنتك، تمت الموافقة، سأرسل إليهم جوازك وبطاقات السفر، ذهاباً وإياباً، أما رسوم التأشيرة فيمكن دفعها عند استلام الجواز منهم. هم سيرسلون معه ورقة التحويل.

مشاعر متضاربة اجتاحت نفس الدكتور آدم التائه، فقال بنبرة مشحونة بالانفعال:

- شكراً جزيلاً لك، هذا كله بفضلك، وبجهودك، ولولاك لما كنت أعرف ماذا أفعل.

- لا شكرني، هذا واجبي.

- كيف هو واجبك؟ أنت غير مجبرة أن تقومي بكل هذا؛ أن تتصلي بالسفارة وبدائرة الأجانب، وتكفليني أمام الجهات الرسمية متحملة كل العواقب في احتمال عدم عودتي، هذا ليس من واجبك. لكنك قمت به بكل طيبة ورحابة صدر!

ارتسمت ابتسامة ودودة على وجهها وقالت:

- كل ما ذكرته هو واجبي. واجبي أن أساعد الآخرين ما استطعت إليه سبيلاً.

- وماذا لو لم أعد؟ ألم تفكري في ذلك؟

نظرت إليه بصمت. امتدَّ الصمت بينهما للحظات، كانت تتفرس في وجهه، وأخيراً قالت بهدوء:

- أنت سترجع. ربما سترجع لترحل مرة أخرى. لست من الذي يخذل من قدم له المساعدة. لست من هذا النوع من البشر.

كان هو طوال الوقت يتأملها. ينظر إلى وجهها المثير وهي تتحدث. أحس برغبة قوية في أن ينهض مباشرة ويأخذ رأسها بين يديه ويطبّع قبلة حارة على شفّتها. ويقول لها: أحبك! بل إنه يشعر بحبه لها. لكنه برغم ذلك كان مشلولاً، فكل شيء كان يجري في ذهنه. ففي الواقع لم يقم من مكانه ولم يقل لها شيئاً، سوى أنه ابتسم لها، وظل ينظر إليها صامتاً. انتبهت هي إلى أنه يفكر بأشياء أخرى، وكأنه لم يسمعها، ابتسمت له وهي تشير بيديها:

- هلو. نحن هنا. إلى أين رحلت؟

انتبه إليها، وقال لها بود:

- أتردين أنني فقدت الرغبة بالسفر!

ارتسمت علامات الدهشة على وجهها الفاتن وقالت بتعجب:

- ماذا؟

- نعم. فقدت رغبتني بالسفر.

- لماذا؟

نظر إليها بحب وقال بشجاعة تشي بتردد واضح في الوقت نفسه:

- لأنني سأفقدك كثيراً. ليس من السهل أن يلتقي المرء بامرأة لها كل هذه الطيبة، والجمال.

ارتبكت إيفا بيرغمان. أحسّت بالحرج، ثم قالت:

- شكراً على هذه الكلمات. لكن الدنيا مليئة أيضاً بالناس الطيبين، رجال ونساء.

آدم البغدادي: هل وقع آدم التائه في حب إيفا بيرغمان؟ إذا كان قد أحبها فعلاً فلماذا يسافر؟ هل هو يهرب من ماضيه؟ من العار الذي ألحقته به حواء

المؤمن؟ من انكسار شخصيته أمام خيانتها له؟ أم أنني أريد أن أقصيه عن الأحداث من أجل أن أروي قصة متاهة حواء؟ لا أدري.

علق آدم المحروم على هامش صديقه سائلاً نفسه: هل يسأل صديقي الكاتب هذه الأسئلة دون أن يعرف الإجابة عليها حقاً، بينما هو كاتب الرواية؟ أمن المعقول أن الشخصيات تتحرك وتتجاوز دون إرادته؟ أم أنها لعبة تقنية في السرد الروائي؟ لكن من المؤكد أنه لا يدون هذه الأسئلة إذا لم تكن قد أفلقتة فعلاً.

ألقي آدم المحروم المخطوطة جانباً. فكر مع نفسه، في شخصية إيفا بيرغمان الطيبة، وقال لنفسه: نعم الدنيا مليئة بالناس الطيبين. أليس آدم الزاهد مثلاً على الطيبة والكرم؟ أليست ابنته حواء الزاهد مثلاً على الطيبة والجمال والكرم، بالرغم من ضيق حالهم؟

استرسل آدم المحروم في تداعياته. أحس بسعادة غامرة تسري في أعماقه، سعادة غامضة يشوبها شيء من الخوف والترقب. نهض بهدوء وأطفأ المصباح. عاد لفراشه متمدداً، فاتحاً عينيه، محدقاً في سقف الغرفة الذي بدا له وكأنه سماء من الإسمنت.

التعيس الذي رأى نفسه

استيقظ آدم المحروم إثر تحسسه شيئاً ما على وجهه. وحينما فتح عينيه وجد وجه آدم الملاك وهو يبتسم له. كان الصغير يمسك بريشة خضراء ناعمة يداعب بها وجهه. ابتسم آدم المحروم له ومد ذراعيه محتضناً الصغير الذي أخذ يضحك بصوت عالٍ. لقد كان أطفال العائلة، أبناء أخواته وأخوته، يداعبونه هكذا أثناء مبيتهم عندهم أيضاً حينما يزورهم في مدينتهم، إلى جانب أنه يحب الأطفال بطبعه. احتضن الصغير وأدخله إلى جانبه في الفراش مدغدغاً إياه. كان الطفل يكركر ويضحك ويرفس بقدميه، إلى أن تمكن من التحرر والهرب إلى بُعد متر منه وهو يضحك ويقول:

- لا تستطيع أن تلحق بي. لا تستطيع أن تلحق بي.

كان آدم المحروم يبتسم له ويقول بنفس طريقته الطفولية:

- أنا أستطيع. أنا أستطيع. سأقوم إليك. سأقوم إليك.

أبدى آدم المحروم حركة وكأنما يريد أن ينهض ليلحق به، فما كان من الطفل إلا أن يهرب إلى داخل المنزل وهو يضحك، منادياً جده. استغل آدم المحروم ذهاب الطفل، فقام على عجل وارتنى ملابسه، ثم جمع اللحاف وصفّاه على إحدى الكنبات، ثم طوى الفراش ووضعه جانباً. وبعد فترة قصيرة دخل الجد آدم الزاهد وهو يبتسم، قائلاً:

- صباح الخير يا ابني.

- صباح النور يا حاج.

- إن شاء الله كان نومك هنيئًا، يبدو أن آدم الملاك لم يترك تنام أطول، هذا ديدنه، فهو يصحو قبل الجميع، وعلينا جميعًا أن نصحو لصحوه. إنه يقوم بمختلف الألاعيب ليوقظني ويوقظ أمه. لينعم الله عليه بالفرح، فلولاها لما أحسنا بطعم الحياة.

- آمين يارب العالمين. إنه ملاك حقيقي. أنا أحب الأطفال لذلك كان شيئًا رائعًا أن يوقظني بطريقته الطفولية البريئة.

- هل تريد أن تغسل وجهك أو تذهب للحمام؟ قم معي. لا تخجل، ليس في البيت سوانا. لقد ذهبت ابنتي إلى السوق القريب من هنا، وستأخر قليلًا. قم وخذ راحتك.

حين سمع بأن حواء الزاهد ليست في البيت راودته مشاعر متناقضة، فقد ارتاح لسماع الخبر لأنه سيأخذ راحته في الاغتسال، لا سيما وأن الحمام في عمق المنزل، لكنه أيضًا أحس بشيء من الفراغ والنقصان لعدم وجودها. استغرب من أحاسيسه، أمن المعقول كل هذا التعلق بامرأة لم يرها سوى دقائق؟ لكنه لم يشغل نفسه بالتفكير كثيرًا، إذ نهض مع الأب ودخل إلى أعماق المنزل.

في غرفة الحمام، وأمام المرأة الصغيرة العكرة نظر آدم المحروم إلى نفسه. فكّر للحظات بهذا الوجه الذي يراه في المرأة. ظل يحدق إلى وجهه في المرأة لدقائق. أخذ، في أعماقه، يحدث الشخص الذي يراه في المرأة، وكأنه يحدث شخصًا آخر:

- ماذا تفعل هنا في هذا البيت الذي لا تعرف أهله أصلًا؟ ها. قل. ماذا تفعل هنا؟ وماذا تريد؟

نظر إلى الشخص الذي في المرأة، وواصل حديثه الداخلي بصوت مكتوم لكن فيه نبرة تهديد:

- اهدأ أيها المجنون. إلى أين تمضي بمغامرتك هذه؟ كيف جئت إلى هنا؟ وماذا تنوي برغباتك الجنسية الدنيئة؟ الأب يناديك يا ابني، يعني ان ابنته مثل أختك، وأنت تفكر بمضاجعة أختك؟

ولكي يعبر عن رفضه الأخلاقي لهذا، أخذ بكفه بعض الماء ورشه على المرأة، قاصداً الشخص الذي يراه في المرأة. فجأة، تناهى إلى سمعه صوت حواء الزاهد متداخلاً مع صوت الصغير آدم الملاك والأب آدم الزاهد فعرف أنها رجعت من السوق. أحس بشيء من الفرح يسري في أعماقه. كما أحس بالراحة لأنه كان قد دخل إلى المرافق وتبول وتبرز، لا سيما وأنه لم يدخل إلى المرافق منذ أمس، وكانت أمعاؤه مثقلة جداً، كما أخرج ريحاً بصوت مسموع، فكر مع نفسه: "ماذا لو كانت حواء موجودة، لا سيما وأن المرافق بنيت تحت الدرج وبالقرب من غرفة الحمام المجاورة للمطبخ، أي لو كانت هي موجودة لسمعت ضراطي، وهذا سيلغي أي مشروع رومانسي مستقبلي معها". بقي لفترة أطول في غرفة الحمام إلى أن سمعها تصعد الدرج مع الصغير آدم الملاك فعرف أن بإمكانه أن يخرج ويذهب إلى غرفة الاستقبال.

كان الأب جالساً على إحدى الكنبات يتصفح كتاب "نهج البلاغة". في وسط الغرفة على الأرض كانت صينية كبيرة فيها صحن من القيمر وأقراص من الخبز الطازج وصحن صغير فيه غسل أسود، وبالقرب من الصينية كانت المدفأة النفطية متقدة وعليها إبريق الشاي.

حين دخل آدم المحروم إلى الغرفة ألقى الأب الكتاب جانباً، ونظر إليه مبتسماً، لكنه انتبه إلى أن الآخر كان ينظر إلى الكتاب، فقال موضحاً:

- أنا أحب أن أقرأ في نهج البلاغة كل يوم جمعة صباحاً، أو حينما يكون لدي فراغ. إنني أستمع جداً بالقراءة صباحاً.

- نهج البلاغة كتاب عظيم.

- هل قرأته؟
- قرأت معظمه. كنا نحفظ به في بيتنا بالنجف، وهو بالنسبة للعائلة يُعد كتابًا مقدسًا. كانت أمي تقول وجوده في أي بيت هو بركة.
- هذا صحيح. دعنا الآن نفطر وبعد ذلك نتحدث عن الكتب. اليوم لدينا النهار والليل كله، فأنا كنت أذهب إلى عملي يوم الجمعة، لكن بعد أن صارت التظاهرات في ساحة التحرير كل جمعة تقليدًا لم يعد العمل ممكنًا، إذ تكون المنطقة منذ ليلة الجمعة مطوقة بالآليات العسكرية وسيارات المخابرات وكاسري الإضرابات والمظاهرات من المرتزقة الجدد، حتى وقت متأخر من عصر يوم الجمعة، لذا كرهت الذهاب يوم الجمعة نهارًا، وإنما أذهب عصرًا.
- المرتزقة الجدد؟ هذا مصطلح جديد.
- نزل الأب من الكنبه وجلس على الأرض داعيًا إياه للجلوس أيضًا:
- اجلس الآن لنفطر، وبعد ذلك نتحدث.

- ما إن انتهيا من الفطور حتى جاء الصغير آدم الملاك راكضًا، إذ أنه قد هرب من أمه التي كانت تطعمه الفطور، وجاء ليشاركهما، وسمع صوت أمه الهادئ والرقيق وهي تناديه:
- تعال يا حبيبي. أكمل فطورك ثم امض إلى جدك.
- ابتسما له، وفسح جده له المكان ليجلس إلى جواره. كان الصغير يوزع النظرات بينهما والفرح يشع من عينيه المتألفتين. قطع جده شيئًا من الخبز ووضع فيها قطعة من القيمر وأخذ ملعقة صغيرة غمسها في صحن العسل وأخذ يرش القيمر بالخبز، ثم أعطى القطعة للصغير بعد أن صيرها لفة يسهل قضمها.
- كان آدم المحروم يشعر بخدر عاطفي، فثمة تيار من المشاعر الرقيقة والمتوهجة بالفرح يسري في فضاء روحه، أحس أنه في أمان كبير، فهذا

المشهد ذكره بتلك الصباحات الصيفية البهيجة حينما كان طفلاً، وحينما كان ينام في السطح مع أخوته، لكنه يصحو على صوت القرآن الكريم وهو يصدق بصوت «عبد الباسط محمد عبد الصمد» المهيّب، فينزل الدرج ليجد العائلة تجلس في باحة الدار للفقور، فيأخذ مكانه مباشرة إلى جوار والده الذي كان يعد له لفة القيمر والمربى أيضاً.

أحس بالحيوية حين سمع صوت حواء أم الملاك وهي تناديه، وكان يترقب دخولها عليهم، وكلما تأخرت في الدخول عليهم، يزول تأثير تيار المشاعر المدغدة، وسأل نفسه: «هل هي تفكر بي أيضاً مثلما أنا مشغول التفكير بها؟ لو كانت تفكر بي فإنها ستقوم لتأتي إلينا!».

كان صامتاً وهو يأكل وينظر إلى الصغير وعلى وجهه ابتسامة بريئة، بينما فكره منشغل بإرسال رسائله اللا مرئية عبر التخاطر إليها. وفجأة، دخلت حواء أم الملاك وهي تبتسم وتقول:

- السلام عليكم.

أحس آدم المحروم بالدم يصعد إلى وجهه، إذن هي تفكر به أيضاً! هكذا أحس خلال ثوانٍ، فتمتم:

- صباح النور.

قاطعها الأب مبتسماً:

- هل هرب منك هذا الملاك؟

- نعم يا أبي، لم يدعني أطعمه للنهاية إذ هرب إليكم.

- لا ضير، هو يأكل مع الرجال، يريد أن يصبح رجلاً بقفزة واحدة.

ضحك جميعهم. علق آدم المحروم وكأنه يلقي حكمة قديمة، قائلاً:

- إنه لا يعرف هذه الدنيا وما فيها، ولو عرف الإنسان هذه الدنيا قبلاً لما جاء إليها أصلاً.

- أي والله، كم يتمنى الإنسان لو لم يأت إلى هذا العالم. علقت حواء أم الملاك.

ابتسم الأب وقال وكأنه متهم:

- هل تقصدين أنني أذنبت بحقك؟

بهتت حواء الزاهد من المرارة التي تجلت في قول والدها، فقالت وكأنها تعتذر عما بدر منها:

- أبداً. أنت أروع أب في الدنيا. لم أقصد ذلك أبداً، لكنني أقصد أن هذه الدنيا مليئة بالتعاسة، وأنها تجبر الإنسان أن يلعنها، أو يتمنى لو لم يكن موجوداً فيها أصلاً.

هز الأب رأسه موافقاً وقال بحسرة:

- أفهم ذلك يا ابنتي. لكن ماذا نفعل؟ هذه هي الدنيا وهذا هو الزمان الذي نعيش فيه! لنشكر رب العالمين على أننا شهدنا يوم الخلاص من الصنم الذي كان جائماً فوق صدورنا.

- والأصنام الجدد. متى ستتخلص منهم؟ علقت هي.

أدرك الأب ما ترمي إليه ابنته فقال بهدوء:

- هؤلاء ليسوا بأصنام يا ابنتي.

كان آدم المحروم يتابع هذا الحوار صامتاً. انتبه إلى أن حواء الزاهد كانت منفصلة، وربما تستمد شجاعتها من حضوره المعارض للوضع، فقالت بحق واضح:

- هؤلاء تم تنصيبهم من قبل أسيادهم، وأنت تعرف ماذا أقصد.

تريث الأب للحظات في الإجابة وقال بنبرة فيها عتاب مبطن:

- هذا ليس صحيحاً يا ابنتي. بين هؤلاء الكثير من المناضلين ومن عوائل الشهداء والسجناء.

ردت حواء الزاهد على أبيها بسرعة وبنبرة فيها انكسار وألم وغضب مكتوم:

- مناضلون أمثالك. نعم. لكن ماذا جنيت أنت؟ ألم تقضِ عمرك في السجن، وما أنت تبيع الشاي وأنت بهذا العمر، بينما هم وأبناؤهم يكتزون

الأموال والعقارات خارج البلاد. لقد تتابع على هرم السلطة وكرسي الحكم اثنان من حزبك، كلاهما كانا موظفان في زمن النظام المقبور، لم يصفعا ولو لمرة، ولم يسجنا ساعة واحدة، وخرجا من البلاد بحرية وبطريقة رسمية، بينما كان الناس يُعدمون بالشبهات! ألا يثير هذا الشكوك؟!

- أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ.

- لماذا تستغفر الله يا أبي. أليس ما أقوله صحيحًا؟

التفتت إلى آدم المحروم وقالت له وكأنها تطلب عونه ومساندته:

- أليس صحيحًا ما أقوله يا أستاذ آدم؟ هؤلاء جاءوا باسم الدين وباسم آل البيت، لكنهم أتحموا بعضهم البعض. لقد امتلأت السجون بالناس الذين تم اعتقالهم بالوشايات، عن طريق المخبرين السريين، بل إنهم إذا أرادوا التخلص من شخص كتبوا ضده وأرسلوا ضباطهم لاعتقاله، بينما علي بن أبي طالب يقول: لا تعجلنَّ إلى تصديقٍ ساعٍ، فإنَّ الساعي غاشٌّ وإن تشبَّه بالناصحين.

شعر آدم المحروم بالسعادة في توجهها إليه لطلب المساعدة والإسناد المعنوي، فقال بنبرة مرتبكة إذ حاول أن يكتفم ما في نفسه من انفعال:

- أنتِ محقة في كل حرفٍ قلته. أعتقد أن هؤلاء يخالفون حتى أئمتهم الذين جاءوا إلى سدة الحكم بأسمائهم، ألم يقل علي بن أبي طالب في وصيته لمالك الأشر: إن شرَّ وزرائك مَنْ كان للأشرار قبلك وزيرًا، ومَنْ شركهم في الآثام، فلا يكوننَّ لكَ بطانةً، فإنهم أعوانُ الأئمة، وإخوانُ الظلمة. بينما هم جاءوا بالقتلة وعينوهم في أهم المناصب الأمنية والعسكرية. واليوم صار هؤلاء أبناء السلطة الجديدة ومن الناطقين باسمها.

نظر الأب إليهما بمودة، أحس بأنهما اتحدا ضده، بالرغم من أنه يتفق معهما في كل ما قيل، لكنه لم يشأ أن يبدأ الحوار وضيغه لم ينته من فطوره، فقال وكأنه يردد دعاءً:

- اللهم احملني على عفوك ولا تحملني على عدلك.

أحس آدم المحروم بأن وجهة النظر بين الأب والابنة ليست متطابقة بالكامل، وأن بينهما اختلافًا واضحًا. كان الأب ينظر إلى محاجة ابنته بفخر، بالرغم من أنه لم يبدِ موافقته الكاملة على ما تقول، لذا قال مازحًا:

- ما هذه المحاضرة منذ هذا الصباح الباكر. تتحالفان معًا ضدي؟!

انتهت هي إلى ما رمى إليه والدها من أنها تجاوزت أصول الضيافة، إذ ما كان عليها أن تتحدث هكذا قبل أن ينتهوا من تناول فطورهم، فقالت مازحة لتلطيف الجو، وكأنما تعتذر لأبيها:

- أنا أعتذر لأنني قطعت عليكم فطوركم، لكن لا ضير، سأعد لكم اليوم وجبة الباميا مع الأرز البسمتي. تعبيرًا عن أسفي.

ضحك الأب وقال:

- إذا كان الأمر كذلك فأنتِ معذورة.

أما آدم المحروم فقد غمره دفاء من إشارة الأب بشكل عابر إلى أنهما صارا معًا، فقال لها مازحًا وهو يبتسم:

- بل إن مقاطعتك للفطور جاءت في محلها، فأنا منذ الآن صرت أفكر بالباميا! ضحك جميعهم. نهضت حواء أم الملاك بينما قام الأب برفع الصينية بعد أن أخرج منها إستانات الشاي وصحن العسل، فأخذتها منه وذهبت بها إلى المطبخ.

كان الأدمان؛ المحروم والزاهد، مرتبكين. كانا لا يعرفان كيف يواصلان الحديث، بل إن كلاً منهما ينتظر أن يبادر الآخر بالحديث، لذا لكي يزيل آدم المحروم هذا الارتباك، عقب بهدوء:

- ما شاء الله، أم آدم الملاك مثقفة، وكذلك لديها رؤية واضحة لما يجري.

ابتسم الأب، وقال بفرح وافتخار:

- إنها تقرأ كثيرًا.

كان آدم المحروم مسكونًا بمشاعر دائمة فياضة نحوها، وكان يريد أن يعرف كل شيء عنها، لكنه كان مرتبًا، وليس من اللائق أن يسأل عنها، لكنه وجد نفسه مدفوعًا بقوة لا تُصد ليسأل:

- هل هي تدرس؟

قال الأب ببراءة وبنبرة فيها حزن واضح:

- لا. لقد أنهت الدراسة الإعدادية بالقسم الأدبي، ولم تكمل لأنني كنت سجينًا، وأنت تعرف الظروف في ذلك الوقت، لكن لدي مكتبة لا بأس بها في البيت، وهي تقرأ كثيرًا، لا سيما بعد وفاة المرحومة أمها واعتقال زوجها، فهي تقضي وقت فراغها بالقراءة، بل لديها محاولات في الكتابة الشعرية، على أي حال، سأريك مكتبتني، إنها في الغرفة التي على السطح.

أحس آدم المحروم بالفرح، فقال بحماس:

- يسرني ذلك. أنا أشعر بالأمان بين الكتب، أحس أن المؤلفين أصدقاء لي وهم يحيطون بي، بالرغم من أنني ربما لن أشعر بذلك تمامًا في مكتبة مثل مكتبك؛ نظرًا لطبيعة الكتب التي فيها، فأنا كما تعرف أميل للكتب الإنسانية والأدب والفن.

نظر الأب إليه وكأنه يستمع لفتى يافع وقال مبتسمًا:

- ولماذا تعتقد أنني لا أقرأ كتب الفن والأدب؟ ستجد عندي معظم كتب التراث العربي. هل تحب الشعر؟

- نعم. وهل هناك من لا يحبه؟

- لدي تقريبًا كل التراث الشعري من الجاهلية وحتى الآن، بالرغم من أنني لا أحب الشعر الذي يسمونه بالشعر الحديث. لدي كتب اللغة، والفلسفة، والتاريخ.

- وماذا عن الفن؟

- لا أميل للفنون كثيرًا، ففيها تشبيه ومحاولات للخلق، ولا خالق إلا الله، بالرغم من أن لدي بعض الكتب في تاريخ بعض الفنون.

فجأة سأله:

- هل لديك روايات؟
- فوجئ الأب، فردّ بتردد:
- روايات؟
- نعم روايات.
- لا. أنا أعتقد أنه من الأفضل قراءة كتاب في علم النفس أو الاجتماع على قراءة رواية، لكنني لستُ ضد من يقرأها.
- أنا أعتقد أن قراءة الرواية، لا سيما تلك الروايات الخالدة، تغني الإنسان كثيراً، وتمنحه الخبرة في الحياة والناس والأشياء إلى جانب المتعة.
- نظر الأب إليه بمودة وقال:
- لا أخفيك يا ابني. أحس أنها مضيعة للوقت، يمكن قراءة كتب التاريخ وعلم النفس والاجتماع مباشرة لكي نعرف ما يدور حولنا، وليس قراءة رواية هي من خيال شخص ما يعكس فيها تجربته الشخصية مهما كان مثقفاً. وأرجو ألا تعتبرني، من خلال كلامي هذا، معادياً للأدب والفن، لكن ربما أنا أنتمي لنوع آخر من القراء.
- شعر آدم المحروم بشيء من الحرج من تباين وجهات نظرهما، ولم يود أن يشاكسه، فقال بمودة:
- عفواً. لا أقصد فرض رؤيتي على الآخرين، لكنني أنطلق ربما من اختصاصي.
- وأنا أنطلق أيضاً من اختصاصي.
- وما هو اختصاصك؟
- الدعوة.
- فوجئ آدم المحروم ولم يفهم القصد كاملاً، فسأله بتعجب:

- الدعوة؟
- نعم الدعوة. لماذا تتعجب؟
- لا. لكنني لا أعتقد إنها مهنة أو اختصاص.
- ربما. لكنني حينما بدأت درب الانتماء صارت الدعوة واجبي واختصاصي. وللحظة نسي آدم المحروم أنه في ضيافته فقال له محاججاً:
- لكن يبدو أنها حجتك عن التواصل مع أفكار الآخرين والتعرف عليها، لأنك انحزت للدفاع عن أفكارك والدعوة لها فقط!
- ربما. لكن هذا طبيعي، فكل إنسان يدعو لما يعتقد أنه صواب، خذ الشيوعيين مثلاً، ألم يدعوا منذ عشرات السنين لعقيدتهم؟
- وجد آدم المحروم رد الأب مقنعاً، فقال:
- ربما أنت محق، لكنهم لا يدعون أنفسهم دعاة، ولا يجعلون من ذلك اختصاصاً لهم.
- أليس لديهم من الناس المتفرغين للعمل الحزبي؟
- بلى.
- إذن هؤلاء اتخذوا من الحزب والدعوة لفكر الحزب مهنة لهم، هم دعاة على طريقتهم.
- أنت محق في هذا، أكنت متفرغاً للعمل الحزبي؟
- نعم.
- وكيف كنت تعيش؟
- كنت أعمل، كنت موظفاً في المكتبة الوطنية.
- المكتبة الوطنية، تلك التي في الباب المعظم؟
- نعم. مقابل وزارة الدفاع القديمة، كنت هناك.

- ولماذا لم ترجع للوظيفة؟

- أوه. هذه قصة طويلة. كان وضعي الصحي بعد سقوط الصنم وخروجي من السجن سيئاً، وانشغلت مباشرة بالأوضاع الجديدة. لكنني أصبت بالخيبة، رأيت آخرين قد صاروا من البارزين في التنظيم، وحكيت لك من رأيت منهم. صدقني بين هؤلاء القادة من اعترف وتعاون مع أجهزة الأمن بل وساق أبرياء إلى الموت، وبعضهم من انتمى للحزب في إيران أو سوريا، لكنه عاد قائداً ميدانياً يأمر وينهي ويحتل المناصب الرفيعة في الحكومة. الحمد لله أنني سلمت بنفسي من هؤلاء؛ لأنهم أرادوا أن يتهمونني بما هم فيه، لا أريد الوظيفة، ولا أي شيء منهم. الحمد لله أجريت معاملة التقاعد، وحالياً أتقاضي كل ثلاثة أشهر مبلغاً تافهاً، لكن ما أحصل عليه من بيع الشاي يعيننا على مواصلة العيش بكرامة. والحقيقة ما أحصل عليه من بيع الشاي أكثر بكثير من راتبي التقاعدي. وبالمناسبة أنا لم أخطر مهنة بيع الشاي، لكن صاحب المطعم الحاج هايل هو نسيب لنا، فهو الأخ الأكبر لزوج ابنتي، وهو الذي طلب مني أن أفتح زاوية إلى جوار مطعمه لبيع الشاي على رواد المطعم، وكما ترى، الحمد لله مستورة. لم يبقَ في العمر بقية نبيع آخرتنا من أجلها.

وجد آدم المحروم نفسه مدفوعاً برغبة عارمة في أن يعيد الحوار إلى ما له علاقة بالابنة، فقال:

- إذا ابنتك محقة في كلامها!

أجاب الأب دون أن ينتبه لمرامي ضيفه فقال:

- نعم هي محقة، لكنني أعارضها كي أخفف من ألمها وقهرها، فإذا أيدتها في ذلك ستعرف عمق ألمي، وسيتضاعف ألمها. إنها حساسة جداً، وهي تكظم في أعماقها الكثير من الألم والحزن. فقد فقدت أمها وأخاها، واعتقل زوجها، ورأت ما جرى لي مع أخوة الأمس، كما هي ترى ابنها يترعرع دون حنان الأب. إنها مثل لبوة في قفص.

- شعر آدم التائه بالراحة لسماع هذه التفاصيل المكثفة عن شخصية الابنة، فقال:
- كان الله في العون.
 - ألم تر أن الصغير قد تعلق بك مباشرة! أنا لاحظت ذلك، وأنها لاحظت ذلك أيضًا. الطفل يحتاج لحنان ورعاية.
 - أحس آدم المحروم بالخجل من رغباته المحرمة، وشعر بتأنيب ضمير خاطف، وفي الوقت نفسه أحسّ بالرضى من ملاحظة الأب فقال موافقًا:
 - لقد لاحظت ذلك، والحقيقة أنا تعلقت به أيضًا. أنا عشت في عائلة كبيرة، وتعودت على وجود أطفال أخوتي وأخواتي حولي، وحينما أذهب إليهم أقضي معظم وقتي باللعب معهم، لذا فهم ينتظرون زيارتي إليهم دائمًا.
 - تعال معي نصعد إلى المكتبة، وسأطلب أن يعدوا لنا شايًا جديدًا
 - قام الاثنان وخرجا من الغرفة، وعند مدخل المنزل تنحنح الأب منبهاً بصعودهما. وصعدا إلى المكتبة، ولم يكونا قد دخلا حتى دخل آدم الملاك عليهما وهو يتسم بخجل وتعلق بساق جده الذي انحنى ليطلع قبله على جبينه الصغير، وأمسك بيده واتجهوا نحو المكتبة التي تقع في الطابق الأعلى، فقال آدم المحروم بمزاح:
 - دائمًا كنت أتخيل الجنة على أنها مكتبة من نوع ما، وربما تخيلها غيري على هيئة قصر أو بستان.
 - انتبه الأب إليه وكأنه قال شيئًا غير مألوف، إلا أن آدم المحروم بادره بالتعليق قائلاً:
 - هذا قول لكاتب أرجنتيني أعمى من أمريكا اللاتينية اسمه بورخيس.
 - هذا قول غريب حقًا، فكل أوصاف الجنة في القرآن أو حتى الكتب المقدسة هو توصيف ريفي. أي أنها بستان جميل وفيه ما لذ وطاب من الفاكهة، والهوريات، وأنهار من الحليب والعسل، والخمر. لكن لم يرد ذكر للكتب فيها، علمًا أن القراءة هي من المتع العظمى.

علق آدم المحروم مشاكساً بمرح:

- وليس فيها إنترنت ولا موبايل ولا سيارات أو طائرات، أو أي شيء آخر. وكأنها منتج للعلاج. ثم أين تقع الجنة، هل هي في مجرتنا أم في مجرات أخرى؟ وإذا ما قلنا إن الكون سينتهي لتبدأ القيامة، فإن هذا يعني أن على الله أن يخلق كونًا ماديًا آخر، أو أن الجنة ستكون روحية وغير مادية، وبالتالي فكل ما فيها سيكون كما في السينما أو شاشة الكمبيوتر.

توقف الأب للحظة وهما على السلم، لمح آدم المحروم بعض ملامح الانزعاج على وجه الأب، فسارع آدم المحروم قائلاً بنبرة خجولة ومعتذراً:

- أنا أعتذر عن تجاوزي في الكلام.

صمت الأب قليلاً. واصل صعوده وهو يمسك بيد الصغير آدم الملاك، وهو يقول بنبرة أبوية وتعليمية:

- إنكم الماديون لا تؤمنون، وهذا شأنكم. لكنكم يجب أن تتقبلوا عقائد الآخرين ومعتقداتهم، أليس كذلك؟

- أنا أعتذر إن كنت قد أزعجتك بتعليقي عن الجنة، لكنها أسئلة كانت تراود بطل وادي الظلمات.

وصلوا إلى نهاية السلم، توقف الأب عند عتبة الغرفة التي هي المكتبة المعنية، وسأل:

- تراود من؟

ارتبك آدم المحروم لشوان ثم أجاب:

- عفواً، كنت أقرأ رواية بطلها تراوده مثل هذه الهواجس عن الجنة والجحيم! ثم كنت أود أن أوضح بأني أو من يخالف لهذا الكون، لكنه بالتأكيد غير هذا الرب الموجود في الكتب المقدسة. أنا أعتقد بأن هناك خالقاً مبدعاً لهذا الكون، لكن من هو؟ كيف هو؟ متى؟ وأين؟ ولماذا خلق الكون؟ إنها أسئلة تحيرني.

- إنك تذكرني بالطالب في كتاب „قصة الإيمان“. إنه يسأل الأسئلة نفسها تقريباً!

دخلوا المكتبة التي كانت عبارة عن غرفة ليست بالكبيرة جداً، لكنها عامرة بالكتب، إلا أن الحوار بينهما استمر، فقال آدم المحروم:

- لقد قرأتُ الكتاب، إنه كتاب جيد. لكنه بالتالي يحاول أن يعود بكل الفلسفات والعلوم إلى الكتب المقدسة، وأعتقد أن هذا إقحام.

كانوا واقفين بمواجهة بعضهما البعض، وكانت رغبة النقاش تجذبهما، فقال الأب:

- ألم تقرأ كتاب (فلسفتنا) للشهيد محمد باقر الصدر، وكيف كان الرد فيه على الفلسفة المادية. وكذلك كتابه الآخر (اقتصادنا)، وهناك كتب أخرى في الرد على الماديين والماركسيين.

- يا حاج. هل قرأت يوماً كتاباً من كتب ماركس أو غيره من الماديين؟

- أعوذ بالله. لكنني قرأت الرد المفحم عليهم.

- أعتقد أن الرد لم يكن دقيقاً بما يكفي، ولم يكن مفحماً كما تعتقد؛ فالمؤلف الشهيد الصدر كان قد اعتمد على بعض الكتب الماركسية التي لا تُعتمد كمصادر موثوقة في الفكر الماركسي، لقد اعتمد على كتب تشرح الفلسفة الماركسية بشكل مبتذل، كتب للمؤلفين السوفييت الرسميين، وبعض الكتب من المصادر، لكن المؤلف لم يقرأ كل المصادر الأساسية في هذه الفلسفة، بالرغم من أنني لا أؤمن بمادية الفلسفة الماركسية. فالعلوم الحديثة قد تطورت جداً، لا سيما نظرية (الكم)، والفيزياء الكونية والفيزياء المجهرية، والعلوم التي دخلت في صميم بناء الحامض النووي للجنس البشري، وعلوم الطب، كلها تثبت بأن هناك خالقاً مبدعاً لكل هذا التصميم العجيب للكون والأحياء.

تألقت عينا الأب وقال:

- بغض النظر عن كل شيء، فهذا أنك تقر بأن الفكر المادي خاطئ.
- أنا لم أقل إنه خاطئ، وإنما أقول بأنني أو من بوجود خالق لهذا الكون، لكنني أتفق مع كل محاولات تفسير العالم والمجتمع والتاريخ تفسيراً مادياً وليس غيبياً.
- أتريد أن تقول بأنه ليس هناك أنبياء ولا وحي ولا أديان؟
- أحس آدم المحروم بأن الحديث أخذ مجرى غير مناسب له كضيف، فأراد أن يخفف من محاججته، فالتفت إلى الأب الذي كان وجهه ينم عن انفعالات عصبية مكتومة، وقال بلهجة فيها بعض المرح:
- أنا لم أقل ذلك يا حاج. بالتأكيد هناك أنبياء وكتب مقدسة لدى الناس وأديان سماوية وأخرى أرضية، والحقيقة أنا لا أريد الخوض بمثل هذا النقاش وأنا في حضرة كل هؤلاء المؤلفين والفلاسفة والمفكرين والشعراء.
- كان آدم المحروم يريد إيقاف هذا النقاش الذي يمكن أن ينتهي نهاية غير محمودة بالنسبة إليه، فأراد أن يديره بطريقة لائقة، فالتفت إلى الصغير آدم الملاك وقال له مازحاً:
- وأنت أيها الملاك الجميل، هل ستكبر لتقرأ كل هذه الكتب العظيمة؟
- انتبه الأب بأن ضيفه لا يريد مواصلة الحوار المخرج تأدباً لأنه ضيفه. ابتسم له بمودة، بينما تعالت ضحكة الطفل آدم الملاك الذي قال بلهجته الطفولية وهو يتأرجح بساق جده:
- عندما أكبر سأقرأ لجدي وأمي.
- عشت أيها البطل الصغير.
- ابتسم الجد آدم الزاهد لكلام حفيده وانحنى فقبله من خده، ونظر إلى آدم المحروم، وقال له:
- أتدري أن كلام هذا الكاتب الذي ذكرته ما زال يدور في ذهني في تصويره بأن الجنة مكتبة!

انتهز آدم المحروم ذلك وقال:

- هذه من فوائد القصص والروايات؟

- لقد نبهتني لشيء مهم، ربما لو كانت مكتبتني تحتوي على بعض الروايات والكتب الأدبية المفيدة لكانت قد أفادت ابنتي حواء، ولربما واستها وأخرجتها من حزنها الذي صار كالصخرة على صدري، فكلما أنظر إليها أشعر بالألم يعتصر قلبي، لأنني أعرف أنها تكظم في أعماقها حزنًا كبيرًا. ولا أدري، فلربما بعض الكتب التي تتحدث عنها، كالروايات مثلاً، فيها ما يفك الحزن عن النفس.

غمرت آدم المحروم مشاعر حب نحو هذا الأب الحنون، فقال:

- يا حاج. كل العوائل السعيدة متشابهة في سعادتها، لكن العوائل التعيسة فهي تعيسة كل حسب طريقتها وبما لديها.

- هل هذا القول لصديقك الكاتب الأرجنتيني الأعمى أيضًا؟

- لا. إنها أول جملة ترد في رواية (آنا كارنينا) للكاتب الروسي ليف تولستوي.

صمت آدم الزاهد للحظة، ثم قال بهدوء:

- أتدري يا بني. إنك أشعرتني بأنني لم أقرأ شيئًا. وأن رأيي في الروايات ليس في محله، فهناك عالم آخر لم أتعرف إليه بل وكنت أتجنبه عن قصد، ربما لأنني لم أصادف من يرشدني إليه، على العكس كنت محاطًا بمن يمنعني عنه، وينبهنني لعدم الاقتراب منه لعدم جدواه.

كانا يتحاوران وهما واقفان يتطلعان إلى رفوف الكتب التي تحيط الغرفة. انتبه آدم الزاهد إلى أن آدم المحروم يستمع له لكنه ينظر في رف من الرفوف متطلعًا لعناوين الكتب، فانتهز الفرصة وقال لحفيده:

- جدو. اذهب لماما وقل لها أن تعد لنا الشاي.

ركض الطفل مسرعًا وهو ينزل السلم، تبعه جدّه إلى باب غرفة المكتبة وهو ينظر إليه بقلق، وقال له منبهًا:

- جدو. انزل بهدوء. لا تستعجل كي لا تسقط.
- كان الطفل قد وصل إلى داخل المنزل راكضًا نحو أمه، بينما دخل هو إلى غرفة المكتبة فوجد أن آدم المحروم قد سحب كتابًا وهو جالس على الكنب الصغيرة التي تحتل زاوية بين ضلعي المكتبة، يتصفح كتابًا ليس من الكتب المجلدة والمعروفة لديه، فسأله:
- هل وجدت شيئًا مفيدًا في جنتي؟
- رفع آدم المحروم رأسه متعجبًا، وهو يسأل:
- هل تقرأ لداريوش شايعان؟
- مَنْ؟
- داريوش شايعان صاحب كتاب „ما الثورة الدينية؟“
- أوه. هذا الكتاب لقد اشتريته مؤخرًا من مكتبة على الرصيف، لكنني لم أقرأه لحد الآن، بل تصفحته، فعرفت أن المؤلف من المستغربين المفتونين بالغرب، وليس لديه سوى الحديث عن الفلاسفة الغربيين، فعزفت عن قراءته.
- اجتاحت آدم المحروم رغبة في الرد، فقال:
- لكن هذا ليس كل شيء يا حاج. لو كنت قد قرأت الكتاب لوجدت أنه يتحدث عن الثورة الإيرانية، والثورة الإسلامية أيضًا. أي إنه يناقش مشروعكم الإسلامي برمته ويكشف أساس أزمة هذا الفكر والطرق المسدودة أمام هذا المشروع!
- نظر الأب إليه متسائلًا:
- حقًا؟
- كيف فاتك ذلك يا حاج. اسمع ما يقول هنا عن عبارة (ثورة إسلامية).
- ماذا يقول؟
- حينما أراد آدم المحروم البدء بالقراءة سمع خطوات على السلم، فخمن أنها لحواء أم الملاك، لكن وقع الخطوات توقف فجأة. فكر أنها تنصت لما يدور بينهما، فبدأ بالقراءة:

- ما المعنى المضبوط لهذين اللفظين؟ إن فكرة الثورة تجعلنا نستحضر أفكاراً جمة، فتتذكر الثورة الفرنسية وعصر الأنوار الذي مهد لها الطريق، وتذكر الموسوعيين، وإعلان حقوق الإنسان، ومن ثمة نتذكر والعبارة لهيغل نابليون بوناپرت، روح العالم، ممتطياً حصاناً أبيض، ونتذكر الضرورة التاريخية التي لا أحد بإمكانه أن يتجاهلها ولا شيء يوقفها، وأخيراً نتذكر ماركس وصراع الطبقات والمصير الأخروي للبروليتاريا. (صمت قليلاً، ثم واصل). في مقابل ذلك بمَ توحى لنا كلمة إسلام؟ التسليم بالإرادة الإلهية، وبذلك فهي تذكرنا بالقرآن، وبظاهرة الكتاب المقدس، وبالوحي وبالروح النبوة؛ فنستحضر في أذهاننا دورة النبوة منذ آدم، أول إنسان خلق على صورة الله، إلى محمد خاتم الأنبياء. إنها دورة تامة تمثل التجلي الكامل للحقيقة المحمدية الكلمة التي لا يمثل الأنبياء السابقون سوى تجلٍ جزئي لها. (يتوقف قليلاً). ثم يواصل). هذان المصطلحان وهذان العالمان، الثورة من جهة والإسلام من جهة أخرى، ليست بينهما إذاً أي وشائج أنطولوجية. إنها يتحركان في مدارات مختلفة، وليس لهما نقاط الارتكاز نفسها ولا المحور المركزي نفسه الذي تنظم حوله الأفكار المرتبطة بهما، إذ تحيل نقاط الارتكاز هذه على مضامين مختلفة ومتناقضة. فعندما نقارن بينهما يتبين لنا أن عالم أحدهما هو مغامرة العقل عبر الزمن الذي ينعم بأولوية أنطولوجية يترقى التاريخ معها إلى مستوى أقنوم وتصبح فيه الثورة النتيجة المباشرة لسلبية العقل، في حين أن العالم الآخر، أي الإسلام، يبقى خارج قلق التاريخ ويكشف عن قيم أزلية غير متموضعة لا في الجغرافيا ولا في التاريخ. (صمت قليلاً. ثم واصل). لقد ظهر الملك جبريل للرسول في عالم الروح، وأوحى له بالقرآن بطريقة خارقة للعادة. ولذلك، فإن اختلاف الإسلام عن الثورة ليس مجرد اختلاف في الآراء والمناهج، وإنما هو اختلاف جوهري، إنه اختلاف كوكبتين متعارضتين.

توقف آدم المحروم عن القراءة. رفع رأسه فانتبه إلى أن وجه الأب آدم الزاهد قد احتقن من شدة الانفعالات التي كانت تزدهم في ذهنه. علّق الأب آدم الزاهد على ما قرأه آدم المحروم قائلاً بغضب مكتوم:

- هذه هرطقة. هذا كاتب زنديق. كيف لم أنتبه لوجود مثل هذا الكتاب في بيتي؟ ألم يكن الإسلام بحد ذاته ثورة على التخلف والوثنية وعبادة الأصنام والعنصرية؟ ألم يقرأ هذا الكاتب مؤلفات هنري كوربان الذي كان عاشقاً للفلسفة الإسلامية ولديه مؤلفات حول ذلك؟

تصفح آدم المحروم الكتاب الذي كان قد قرأه قبل أعوام، وتوقف عند الصفحات التي يتحدث فيها داريوش شايعان عن هنري كوربان، وقال له:

- انتظر. هنا هو يكتب عن ذلك. فهو يكتب: في ما يتعلق بما هو مطلوب من الغرب تجاه الشرق، أعرف شخصياً مجهودات هنري كوربان الذي كان أستاذاً وصديقي. ولئن أحييت ذكره الآن فلاأني كنت شاهداً طيلة أكثر من عشرين سنة على جهده السخي. فقد كرس أكثر من أربعين سنة من حياته للبحث في المكتبات المغبرة لتحقيق المخطوطات ولإعادة بناء هذا الفكر الثري بمهارة الصائغ وعنايته. (بصمت لحظة. ثم يواصل). ولكن ما فعله كوربان هو حجٌ في اتجاه واحد، إنها هجرة الغرب بحثاً عن شروق الأنوار، وإذا كان كوربان قد أعاد رسم المسافة من هيدغر إلى السهروردي، فإن أحفاد السهروردي عاجزون عن رسم المسافة المعاكسة، أي إعادة تتبع الطريق التي تنطلق من السهروردي وتنتهي إلى هيدغر. لماذا؟ لأن استيعاب فكر هيدغر يعني استيعاب مغامرة الوجود العجيبة عبر تاريخ الفكر الغربي الذي ظهر في شكل طبيعة وعقل في بداياته، وفي شكل فكرة و طاقة مع أفلاطون وأرسطو، وفي شكل وجود جوهري في العصور الوسطى، وفي شكل موضوعية وذاتية في العصور الحديثة، وفي شكل إرادة الإرادة، وفي شكل تفتيش عن خبايا الوجود في عصر هيمنة التقنية. إن استيعاب هذه المغامرة يعني الولوج إلى روح الغرب، ومن ثم متابعة حركته الجدلية.

أحس آدم المحروم بأن الزاهد قد صُدم بصداقة الكاتب مع هنري كوربان أكثر مما كتبه عن كوربان، لكنه قال وفي نبرة صوته حيرة ما:

- لكن ما الذي يريد أن يقوله هنا؟

أراد آدم المحروم أن يقرأ له بقية النص الذي كتبه شايغان عن كوربان إلا أن دخول حواء أم الملاك عليهم وهي تحمل صينية الشاي قطع عليهم ذلك التواصل. أحس آدم المحروم بأنها كانت تستمع له حينما كان يقرأ وكذلك ما دار بين أبيها وبينه من حوار، ولأنها أحست بأن ذلك سيقود لتوتر بينهما دخلت عليهم لتنتهي القراءة والحوار عن شايغان والثورة والإسلام. وجّهت نظرة دافئة تشع إعجابًا خفيًا بآدم المحروم دون أن ينتبه والدها الذي كان قد أعطى ظهره للباب حين دخولها، وقالت باسمته:

- كفّا الآن عن النقاش واشربا الشاي. أنا سأذهب إلى السوق القريب لشراء الزيت فلم يبقَ لدينا شيء منه.

لم تترك لأبيها فرصة التعليق إذ خرجت مسرعة لكنها عند الباب التفتت لآدم المحروم وعلى وجهها ابتسامة، وحينما نظر هو إليها أحس في ثانية وكأنه أمسك بها، إذ احمّر وجهها وارتبكت ومضت مسرعة تهبط السلم.

كان الأب وكأنه قد صدم، أو كأنما قد تهدم جرف كبير في مجراه الفكري. سأل نفسه: «هل يمكن للإنسان أن يشطب ما كان يؤمن به طوال سنوات خلال دقائق؟ أمن المعقول أن جلسة واحدة مع هذا الفتى الذي كنت أنظر إليه كشاب مسكين أن يزلزل بنائي الفكري والعقائدي خلال ساعة؟ أين كنت أنا من كل هذه الأفكار والأسماء والكتّاب؟ كيف أني لم أقرأ هذا الكتاب الذي اشتريته؟ بلى، لدي الكثير من الكتب التي لم أقرأها لضيق الوقت، ولم يكن لي منها سوى التصفح. ما هي قصة هذا الشاب الحقيقية؟ أليس خطرًا وجوده هنا معي في البيت؟ إنه غير ملتزم، لا يصلي، لكن لا يبدو عليه التهلك والاستهتار. لا بد وأن أعرف ما وراء كل هذا!..»

كانت الأفكار تدور برأسه وهو يصب الشاي في الإستانين، بينما كان آدم المحروم ينظر إليه ويتأمل وجهه الذي كان يعكس دوامة الأفكار التي

تدور برأسه. أحس آدم المحروم بأن الأب آدم الزاهد يعيش قلقًا منذ قراءة نص داريوش شايغان، وأن ثمة توترًا يجتاح كيانه يتجسد حتى في حركة يده لصب الشاي، وسأل نفسه: “لكن أترأه قد انتبه لنظراتي إلى ابنته أو لنظراتها إلي؟ أم أنه استاء لطريقتي في الرد على المفكر الشهيد الصدر الذي يصل إلى مرحلة القداسة بالنسبة إليه؟ على أي حال، عليّ أن أحذر في كلامي ونظراتي، وأن أغادر هذا البيت في أول فرصة مناسبة”.

كان كل منهما يدور في فلك أفكاره، لكن كلا منهما يحتاج إلى الآخر أيضًا كي يخرج من فلكه. قدم الأب آدم الزاهد إستان الشاي لآدم المحروم الذي وجد في ذلك مناسبة لمواصلة الحديث وتلطيف الجو المتوتر، فقال: - أرجو ألا أكون قد أزعجتك بما قرأت لداريوش شايغان؟ أنا أحترم هذا الكاتب، ولقد قرأت هذا الكتاب أول ما صدر بعد أن اشتريته مستسخًا في شارع المتنبي، وكنت قد قرأت له كتابًا مهمًا آخر عن الهوية، مستسخًا أيضًا. لكن النسخة التي لديك أصلية، فأحببت أن أتصفحها، فاعذرني إن كانت آراؤه تصطدم مع منظومة أفكارك. أنا لم أقصد أن أسيء لمعتقداتك، لكن هذا المفكر هو من أبرز المفكرين المعاصرين الذين درسوا الثورة الإسلامية في إيران، وكتب على أساس ذلك كتابه هذا، وهو نفسه إيراني.

انتبه الأب آدم الزاهد لنبرة الاعتذار المؤدبة في حديث آدم المحروم، فأحس بدوره بالخجل من أن الآخر قد انتبه لتوتره وما جال في فكره وربما فهم الأمر وكأنه هو المقصود به، قال هو أيضًا بنبرة تفيض بالتسامح والمودة: - لا يا ابني. صحيح أن ما قرأته أول الأمر قد صدمني، حتى أنني غضبت واتهمته بالزندقة، لكنني أعترف أنه بعد أن قرأت لي ما كتبه عن هنري كوربان، وصادقته له، وتلمذه عليه، واحتفائه به، وتلخيص جهده بهذا الشكل، أحسست أنني يجب أن أراجع الكثير من أفكارني، فقد كنت، ربما، منغلقًا على نفسي ومعتقداتي فقط، ولم أحاول أن أسأل نفسي عن الآخر؟ فأنا مثلاً

تعرفت على الفكر الماركسي من خلال الكتب التي عارضته فقط، ولم أؤكد نفسي إن كانت تلك النصوص والاستشهادات صحيحة أو مقطوعة من سياقها؟ ناهيك عن عدم إعادة التفكير بالمسلمات الإيمانية، ولم أتجرأ حتى على طرح أي سؤال حولها، بينما أنت بجملة واحدة لهذا الكاتب الأرجنتيني الأعمى خلخلت تصوراتي عن الجنة.

فقال آدم المحروم بمرح:

- يعني أنك غير زعلان مني؟

- زعلان؟ لا يا ابني، أنا لم أزعل منك، أنا زعلان من نفسي وعلى نفسي. لم يبق في العمر ما يكفي كي أتنور أكثر بنور المعرفة. أنا زعلان من وضع ابنتي حواء والملاك الصغير آدم، وربما زعلان عليك، فأنت إنسان متعلم بينما أنت تهرب من مكان إلى مكان خائفاً من تهمة لا تعرف ما هي، قد تلصق بك وتقودك إلى وادي الظلمات. أنا زعلان على ما وصلنا إليه، حيث مات من مات، واستشهد من استشهد، وتدمرت مئات الألوف من العوائل، وأخيراً حينما وصلنا نحن إلى الحكم بعنا آخرتنا بدينانا، وصرنا أسوأ مثال للفساد. أليس هذا ما يحبط الإنسان؟

- بلى.

امتد بينهما صمت مشحون للحظات. نظر الأب آدم الزاهد إلى آدم المحروم بتفحص وسأله بقلق:

- قل لي بصراحة يا ابني كي يطمئن قلبي. هل أنت خائف من شيء ما؟ هل فعلت ما تخاف منه؟

فوجئ آدم المحروم، لكنه انتبه لكثافة القلق الأبوي في صوت آدم الزاهد فقال:

- لا والله يا حاج. صدقني. أتريد أن أقسم لك بأي شيء مقدس لديك، أنا لم أفعل شيئاً أخالف به القانون، هذا إذا ما كان هناك قانون في هذه البلاد أصلاً؟ مشكلتي هي أنني صديق حميم للكاتب آدم البغدادي، الذي تم اغتياله

في شقته. وبصراحة شديدة أقولها لك، إن الحكومة هي المستفيدة الوحيدة من موته، ولها مصلحة في ذلك، ولا أشك بأن لها دخل في الجريمة. فقد كان صديقي آدم البغدادي يشعر بأن هذه السلطة هي سلطة الفاسدين والمفسدين، وأن البلاد تستحق أفضل، وأنزه، وأعرف، بكثير من هؤلاء الذين يحكمون الآن، ولم يكن يخفي رأيه فيهم، بل كان يشهر بهم بأنهم سيجعلون الناس يترحمون على العهد المباد. شخصياً كنت صديقه الحميم، وكنت على موعد معه قبل استشهاده بقليل أو بكلمة أدق في نفس الوقت، وبالتالي أنا أخاف أن يقبض عليّ وأعذب أو أرسل إلى مكان مجهول حيث لا يعرف بي أحد. وأنا شخصياً إنسان جبان، أعترف أنني جبان، لا أريد أن أسجن أو أعذب، لذا اختفيت عن الأنظار، هذه قصتي بدون نقصان.

كان الأب يستمع له بتعاطف واضح، فقال معقّباً:

- لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.
- أنا لستُ سياسياً بالمعنى الحزبي، لكنني شخص ليبرالي، شخص حر التفكير. أنا من عائلة متدينة، أنا شخصياً مؤمن، لكنني متحرر من الأديان بالمفهوم العقائدي والشعائري. لستُ مادياً بالمعنى الإلحادي لكنني أفكر بطريقة مادية، بمعنى أنني إنسان أعيش في هذا الكون المادي، وبالتالي أفسر الأشياء تفسيراً علمياً مادياً، لكنني مؤمن بأن هناك خالق لهذا الكون المادي، وربما عذّبتني البحث عنه أو محاولة الوصول إليه، لكنني في كل الأحوال مؤمن به.

- الإيمان هو المهم يا ابني. لكن هل هناك ما يشير إلى أنهم يشكون بك؟
- لا أدري، لكنني كما قلت لك ورويته سابقاً. ربما كنتُ آخر من اتصل به، لقد اتصلتُ به ليلة اغتياله، واتفقت معه على اللقاء في المقهى المقابل لبيته، وانتظرت، واتصلت به في الموعد المحدد أيضاً، ربما في اللحظة التي تم اغتياله فيها، ومن المؤكد أن الأجهزة التي دبرت اغتياله كانت تتنصت لاتصالاته الهاتفية، أليس هذا ممكناً؟

- ممكن جداً، وغير ممكن أيضاً؛ بمعنى ليس كل من اتصل به سيُطارد، فهم يعرفون أنه كاتب مشهور ولديه عشرات الأصدقاء، وبالتأكيد لست أنت الوحيد الذي اتصل به!

- ممكن أيضاً.

- وربما قاتله هو أيضاً من المتصلين به؟

- لا أدري. لم أتابع الأخبار.

فجأة انتبه آدم المحروم لمسألة وسائل الإعلام وما تبثه فقال بقلق:

- لننزل إلى غرفة الاستقبال ولنستمع لنشرات الأخبار، عسى هناك أخبار جديدة عنه.

- لا تخف يا ولدي، ما دمت بريئاً فإن الله سينصرك وينجيك. ويمكنك البقاء لدينا بضعة أيام إلى أن تنجلي الأمور وتعرف كيف يمكنك التصرف. لننزل.

خلال ذلك كانا قد شربا الشاي، لكن الأب حمل صينية الشاي معه، وغادرا المكتبة نازلين السلم. وحينما وصلا إلى غرفة الاستقبال واجها حواء وصغيرها آدم الملاك يدخلان، وكانت هي تحمل كيساً من النايلون فيه قنينة من الزيت وباقة من الكرفس، وباليد الأخرى طبقاً من البيض، بينما الصغير يحمل علبة من اللبن الرائب.

وضع الأب الصينية على الأرض ثم أخذ طبق البيض منها وتبعته مع الصغير إلى المطبخ، بينما أخذ آدم المحروم الريموت كونترول وضغط عليه، فظهر على الشاشة بث لقناة دينية معروفة، فأخذ يتنقل بين المحطات، وتوقف عند محطة تبث من خارج البلاد، وكانت تنقل المظاهرات في ساحة التحرير مباشرة، رأى بعضهم يرفع صور صديقه الكاتب المغدور، وثمة لافتات أخرى وشعارات تندد بجريمة اغتيال الكاتب آدم البغدادي وتتهم الحكومة وزبائيتها بذلك.

انتقل إلى قناة أخرى فرأى نفس المشهد، ثم أخذ يتنقل بين أكثر من محطة، فكانت جميعها تقريباً تنقل الحدث نفسه، تختلف في التعليق عليه فقط، بينما بعضها تجنب التعليق واكتفى بنقل التظاهرة فقط. انتقل إلى قناة عربية معروفة فلم يرَ شيئاً يخص أحداث بلاده، رجع إلى القناة التي تبث من خارج العراق مستمعاً إلى نبرة المعلق الحماسية التي كانت تتحدث عن صديقه الكاتب الشهيد آدم البغدادي، متهمة السلطة بشكل واضح بتورطها في اغتياله، ناقلة هتافات عن أكاذيب السلطة. لكن ما أثاره، بل وخفف عليه، هو رؤيته لبعض الأصدقاء المشتركين بينهما وهم يتظاهرون في ساحة التحرير منددين باغتيال صديقهم الكاتب آدم البغدادي. إذن، هذا يعني أن السلطة متهمة وهي مرعوبة في التمادي أكثر باعتقال أصدقاء الكاتب الشهيد. حين دخل الأب آدم الزاهد عليه وجده منفعلاً، ولاحظ أن التلفزيون يثب لمحطة هو لا يشاهدها إلا نادراً ويعدها من القنوات المعادية للسلطة الجديدة في العراق، لكنه قدّر قلق آدم المحروم لتصيد الأخبار من أي قناة، فسأله:

- هل هناك أخبار جديدة؟
- نعم. لقد رأيت بعض أصدقائي وهم يتظاهرون رافعين شعارات ضد الحكومة وضد جريمة اغتيال الكاتب آدم البغدادي.
- لا حول ولا قوة إلا بالله. لكن على أي حال، هذا يعني أنه لا خوف عليك، فهؤلاء أصدقاء له أيضاً، وهم يتظاهرون علناً ولم يعتقلهم أحد.
- مَنْ يعرف ما سيحدث بعد انتهاء التظاهرة؟
- المهم. لا أحد منهم قد اعتقل منذ اغتيال صديقكم ولحد الآن، أليس كذلك؟
- هذا ما يبدو.
- كف قليلاً عن التفكير بذلك. وستتضح الأمور قريباً. هل لديك اتصال بهؤلاء الأصدقاء؟

- لا. أقصد لم أتصل بهم منذ أيام. رأيت بعضهم في اتحاد الأدباء بعد الاغتيال مباشرة، لكنني لم أتصل بأحد. قابلت أحدهم يوم أمس صباحًا، وكان خائفًا مثلي، لكنني شاهدته قبل قليل في التظاهرة.

- ربما تستطيع الاتصال بهم في ما بعد.

- ممكن، لكن ليس الآن.

لاحظ الأب أن تبادل الحوار معه ورؤيته لأصدقائه وهم يتظاهرون قد هدأه قليلًا، فقال مازحًا:

- طبعًا ليس الآن. الآن علينا الاستعداد لوجبة الباميا الشهية.

- أنا أشم رائحة الأرز البسمتي تصلني إلى هنا.

- سوف تعجب كثيرًا بطبخ ابنتي حواء، الله يحفظها لي ولابنها وزوجها. إنها متخصصة بطبخ الباميا والأرز البسمتي.

قال ذلك وهو يصب الشاي في الإستانين، ويتابع مع آدم المحروم ما تبثه القناة مباشرة عن التظاهرة في ساحة التحرير. في هذه الأثناء دخلت حواء وصغيرها الملاك آدم. وفي لحظة دخولها نظرت إليه بإمعان لكن تلك النظرة لم تدم سوى ثوانٍ معدودة. جلست على إحدى الكنبات، وعلى وجهها ابتسامة تبعث الفرح لكل من يتطلع إليها، وقالت وكأنها ترف إليهم خبرًا مهمًا:

- الغداء سيكون جاهزًا خلال عشر دقائق.

بادر الأب بالقول وهو يأخذ حفيده بأحضانه:

- سلمت يدالك يا ابنتي.

انتبه آدم المحروم إلى أنها، وعلى الرغم من ارتدائها بلوزة على ثوبها الأسود إلا أن صدرها كان يرتج بنهدين رائعين، لكنه انتبه إلى أنها قد غيّرت البلوزة، فبالرغم من أن البلوزة الجديدة سوداء اللون، لكنها أكثر ضيقًا من تلك التي كانت ترتديها أمس، إذ أبرزت بعض ملامح صدرها. «هل

تقصّدت ذلك، أم أنها قد غيرت بلوزتها بشكل عفوي؟” سأل آدم المحروم نفسه. لكنه لم يستطع أن يمعن النظر إليها، فالتفت شاغلاً نفسه بمشاهدة التلفزيون، غير أنها كانت أكثر جراءة منه فسألته:

- سمعكما تتناقشان، ويبدو أنكما كنتما على طرفي نقيض، أيجب لي السؤال عن الشيء الذي كنتما تتناقشان حوله؟

تبادل الأب النظرات المتسائلة مع آدم المحروم ثم بادر بالجواب:

- لقد سمعنا! إذن هذا يعني أنك تعرفين عن الشيء الذي كنا نتناقش حوله.

ارتبكت حواء قليلاً، وتلون خذاها بحمرة خفيفة، لكنها تماسكت وأجابت:

- لم أسمع كل شيء. فقط سمعت الأستاذ آدم يقرأ شيئاً ما من كتاب ما، وسمعت ردك المتوتر عليه بأن الكاتب زنديق أو ما شابه ذلك!

تبادلا الأب وآدم المحروم النظرات ثانية. أراد آدم المحروم أن يتحدث، إلّا أن الأب سبقه، إذ قال:

- كان يقرأ لي من كتاب كنت قد اشتريته قبل شهر تقريباً، لكنني تصفحته ولم أقرأه، إلّا أن هذا الكتاب يثير إشكالات ويطلق أحكاماً لا أتفق معها، ومن هنا كان اعتراضي.

نظرت حواء أم الملاك إلى أبيها متسائلة:

- لم أعهدك تشتري الكتب دون أن تكون قد أثارت فضولك، أو أنك تشتري كتباً لا تحتاج إلى قراءتها.

- عنوان الكتاب قد أغراني، اسمه: ما الثورة الدينية؟ لكاتب إيراني معادٍ للثورة الإيرانية.

تدخل آدم المحروم معلقاً على قول الأب:

- إنه ليس معادياً للثورة، وإنما هو مفكر حاول أن يطرح الأسئلة الجدية والفلسفية حول أبعاد هذه الثورة ومفهومها، لذا فقد جعل من عنوان الكتاب سؤالاً: ما الثورة الدينية؟

ابتسم الأب وقال لابنته مازحاً:

- إنه من أنصار الكاتب والكتاب.

كانت هذه فرصة لآدم المحروم كي يستعرض ثقافته وموقفه أمام حواء أم الملاك، فأخذ تلك الجملة حجة للمبادرة بالحديث:

- أنا أعتقد أن داريوش شايعان واحد من أهم المفكرين المشرقين المعاصرين. وهو واحد من أهم مَنْ تناول الثورة الإيرانية بالتحليل والتفكيك. لقد حاول أن يدرس بنية الأيديولوجيا الدينية الإسلامية، والاثني عشرية بالتخصيص، ليصل إلى آفاق جديدة لفهم أزمة الفكر الديني.

كانت بعض ملامح الانبهار قد تجسّدت على وجه حواء الزاهد، إذ أنها لم تسمع سابقاً، لا من أبيها ولا من زوجها، بمفردات غريبة: التفكيك، البنية، الأيديولوجيا، أزمة الفكر الديني، لذا انتبهت إليه وفي عينها إعجاب خفي بطريقته في الكلام، والتي بدت لها جديدة، وقد انتبه آدم المحروم لذلك، لكنه تماهى في حديثه، وبدأ يعبر عن رأيه بشكل صادق، فاسترسل:

- إن والدك الحاج يعتقد بأن داريوش شايعان مستغرب، أي متأثر بالغرب، ويكثر من الاستشهاد بمفكرهم وفلاسفتهم وأدبائهم، لكنني أود أن أقول: بأن شايعان، قد قرأ التراث الإسلامي بشكل جيد، عرف شطحات الصوفيين؛ كالحلاج، والجنيد، والبسطامي، والسهروردي، وابن عربي، النفري، وغيرهم، مثلما عرف فلسفة ابن رشد، والفارابي، وابن سينا، والملا صدر الدين الشيرازي، وصولاً إلى علي شريعتي، وحينما يتحدث عن الغرب فهو يتحدث أيضاً عن معرفة دقيقة بهم، بدءاً من سقراط وأرسطو وأبيقور وأفلاطون، مروراً بإفلوطين، وأغوسطين وفلاسفة القرون الوسطى، وانتهاءً بالفلسفة الحديثة التي ابتدأت منذ ديكارت وسبينوزا، ووصولاً إلى هايدغر، وبالتالي فهو ليس مستغرباً، بل إنه مفكر كبير يناقش الفكر الإسلامي من خلال دورة الفكر الإنساني، ونقاط التماهي والتناقض في هذا الفكر.

لم تكن حواء أم الملاك متقطعة الأنفاس من الانبهار بهذا الدفاع الفكري، وبهذا الكم المعرفي من الأسماء التي تسمع بها لأول مرة، سواء من الإسلاميين أو من الغربيين فحسب، وإنما الأب آدم الزاهد كان منجذباً لهذه المرافعة في الدفاع عن شايعان أيضاً، فقال بانفعال لا يخفي انبهاره بآدم المحروم:

- إنك تجعلني أخجل من نفسي يا ابني. الحقيقة أقول لك، إني لم أسمع باسم شايعان هذا سابقاً، وحين اشتريت الكتاب لم أهتم به بهذا الشكل، لكنك، أثرت إعجابي بذكرك الحديث عن شايعان وعمق معرفته بالتراث الإسلامي، وكذلك بالفكر الغربي، الذي لم أشك فيه أبداً في أنه مستغرب. لكن لدي سؤال فضولي، اعذرني عليه: أنت نفسك هل قرأت شيئاً لهؤلاء المفكرين الذين ذكرتهم؟

- نعم. قرأت لهم، ربما ليس كل مؤلفاتهم، لكني أعرفهم، وبعضهم قرأت له كل أعماله المنشورة.

فقالت حواء أم الملاك، وهي لم تخش أن تعبر عن إعجابها أمام والدها:

- أتدري يا أستاذ آدم أنك أخجلتني لجهلي بكل هذا الفكر وهؤلاء المفكرين الذين لم أسمع بأسماء معظمهم. مكتبتنا والحمد لله عامرة بالكتب القيمة، لكني لم أقرأ أو أسمع بهؤلاء الصوفيين الذين أسميتهم؛ كالبسطامي والنفري، أو هذا الذي اسمه سبينوزا. ربما بعضهم قد مرّ اسمه عليّ؛ كالفارابي وابن سينا وابن عربي، والحلاج، لكن البقية لم أسمع بهم.

وبالرغم من أن الأب آدم الزاهد كان لا يتحسس من آدم المحروم، إلا أنه انتبه لإعجاب ابنته بآدم المحروم، فمرقت ظلال غيرة معرفية على سطح نفسه للحظات، لكنها لم تحجب إعجابه به، ووجد العذر لابنته بأن تعجب بحديثه أيضاً، إلا أنه أراد ألا يتوغل في هذا الحديث، فقال منهياً الحوار بطريقة أبوية:

- يا ابنتي، المعرفة بحر عميق جداً لا ندرك سواحله، وكلما مشيت خطوة ستكتشفين جهلك أكثر، وستكتشفين أسماء جديدة مع كل خطوة.

ثم التفت إلى آدم المحروم وقال مازحًا:

- أتدري يا ابني آدم، أنني حينما رأيته للمرة الأولى لم أدرك أنك تكتنز كل هذه المعرفة بالمفكرين وبالفكر عمومًا. إن الحديث معك ممتع جدًا، ويسرنني أن نستفيد من معرفتك، لكن علينا الآن أن نستعد للغداء (ثم التفت إلى ابنته)، أليس كذلك يا ابنتي؟

انتهت حواء لإشارة أبيها وقالت وهي تبسم، وكأنها صارت أكثر استرخاءً في تعاملها مع ضيفهم:

- هذا صحيح. فالغداء صار جاهزًا.

الصغير آدم الملاك أنهى الجلسة حينما قفز وكأنه تحرر من هيمنة الكبار بالحديث الجاد الذي لم يفهم منه شيئًا، ومن حضن جده الذي لم يتركه يتحرك طوال الوقت، فقام سابقًا أمه إلى المطبخ، وهو يقول:

- أنا أحمل الصحن. أنا أحمل الصحن.

ضحك الجميع، وعلقت الأم مازحة معه:

- احملها. من يمنحك من حملها يا ملاكي.

كان آدم المحروم يعاني من تداخل تيارات المشاعر المتضاربة في أعماقه. إنه يود أن يبقى في هذا البيت، لكنه يخاف من نفسه. هو يعرف جيدًا أنه تعلق بحواء ابنة الزاهد، وتراوده أحلام اليقظة معها، وإذا استمر بقاؤه في هذا البيت فلربما سيقترف خطأ بحق الأب آدم الزاهد من خلال التعرض لابنته. هذا البيت منحه الأمان والدفء العائلي، فليس من الصحيح الإساءة للأب من خلال التفكير الشهواني بابنته. لا. لا. فهو برغم رغبته العارمة لا يريد ذلك. نظر إلى الأب آدم الزاهد وقال له باحترام يشوبه شيء من الارتباك:

- إذا سمحت لي أيها الحاج آدم الزاهد، أن أرفع الزحمة عنكم، وأعود إلى بيتي، فكما رأيته أنه لا خطر علي، وجميع أصدقائي هم في التظاهرة بساحة التحرير. وأنا أشكركم جدًا جدًا على كرمكم وطيبيتكم.

نظر الأب آدم الزاهد إلى وجهه المرتبك قليلاً، وابتسم له ثم قال:

- يا ابني، أولاً الحمد لله أن لا شيء قد تحقق من مخاوفك، فكما رأيت أن أصدقاءك قد خرجوا للمظاهرة، أي أن مخاوفك ليست في محلها، ثانياً: إنك صرت واحداً منا، وقد تعلق بك الصغير آدم الملاك جداً، وحتى ابنتي أحس أنها قد ارتاحت لحضورك الأخوي، وأنا شخصياً قد تعلقت بك جداً، بالرغم من بعض الاختلاف في رؤيتنا للأشياء، فالبيت بيتك، وأنت لا تضايقنا بتاتاً، فإذا كنت أنت لا تشعر بالراحة معنا فهذا شيء آخر. لكن على أي حال أنت تستطيع أن تزورنا في أي وقت تشاء، بالرغم من أن الصغير آدم الملاك سيزعل كثيراً.

أحس آدم المحروم بأن الأب يود بقاءه لكن في نفس الوقت محرج من وجوده في البيت، فحزم أمره قائلاً:

- أنا أذهب معك حينما تخرج عصرًا، وأبيت الليلة في شقتي، وأرى ماذا سيكون، وعلى أي حال أنا أعرف أين تعمل فسأكون عندك كل يوم. أشرب الشاي من يديك الكريميتين.

خلال حديثهما دخلت حواء بيدها قطعة النايلون التي تفرش على الأرض ومعها الصغير آدم الملاك وهو يحمل صحنين، فبادرها الأب قائلاً:

- الأستاذ آدم يريد أن يتركنا اليوم!

نظرت إليه وفي وجهها علامات الخيبة الواضحة، فقالت وفي صوتها شيء من الغيظ المشوب بنبرة عدم الرضا:

- ربما ما ارتاح لوجوده معنا؟!!

ارتبك آدم المحروم وقال وكأنه يبرر موقفه:

- لا والله، هذا غير دقيق، لقد ارتحت جداً بينكم، وكأنني في بيتي، لكنني أخاف من إزعاجكم، والإثقال عليكم، ومضايقتكم.

فقالت وهي تنظر إليه بسرعة، كي لا يبتبه والدها نظراتها، وكأنها تطلب منه التراجع عن موقفه:

- أنت لا تضايقنا أبدًا. ونحن سعدنا بوجودك بيننا، وأحس أن أبي ارتاح لك جدًّا، وكذلك ملاكي آدم. أما إذا كانت هذه رغبتك، فأنت حر، فأنت أعرف بطروفك!

قالت الجملة الأخيرة وكأنها تؤنبه وتبين له عدم رضاها، فارتبك أكثر، وقال وكأنه يعتذر:

- من المؤكد أنني سأزورك، فأنا قد تعلقت بالملاك آدم أيضًا.
لم تشأ حواء الزاهد أن تتحدث أكثر كي لا تكشف عما يجول في نفسها، لذا مدت قطعة النايلون إلى والدها، وخرجت. مدّ الأب بساط النايلون على الأرض، وأخذ الصحنين من يد الصغير آدم، ثم سحبه إليه مقبلاً بحنان.
أدرك آدم المحروم بأنه تسرع في حديثه عن المغادرة، لكنه عاد وقال لنفسه بأنه فعل الصحيح لأنه صار واضحًا بأن ثمة خطأ من الود قد شدّ أحدهما للآخر. انتبه الأب إلى علامات الشرود المرتسمة على وجه آدم المحروم، فقال له باسمًا:

- أين أنت؟ لماذا شردت بتفكيرك؟
شعر آدم المحروم وكأنه أخذ على حين غرة، فقال:
- لا أبدًا. كنت أفكر بالاتصال بأحد أصدقائي وأسأله عن الوضع.
تمتم الأب وهو يهز برأسه:
- يمكنك ذلك. لكن لا تشغل نفسك كثيرًا يا ابني. إن شاء الله كل شيء سيكون على ما يرام.

انتهوا من وجبة الغداء، وشربوا الشاي بعده، بيد أن الأب أراد أن يستلقي في قيلولة قصيرة ليخرج بعدها إلى عمله. فقال لآدم المحروم وهو يغادر الغرفة:

- علي أن أتسطّح قليلاً، فبعد أكلة مثل هذه لا بد من قيلولة قصيرة. يمكنك متابعة التلفزيون أو أن تتمدد أنت أيضًا لتأخذ قسطًا من الراحة.
- أنا لم أعود النوم ظهرًا، ربما سأتابع الأخبار.

غادر الأب الصلاة، وسمع هو صوت وقع خطواته وهو يرتقي السلم. تذكر آدم المحروم وجود غرفة أخرى على السطح، لكنه لم ينتبه لها. بلى، تذكر أن هناك بابًا مقابل غرفة المكتبة، ربما هي غرفة نوم آدم الزاهد. تمدد هو على الكنبه في مواجهة التلفزيون، وأخذ يقلب القنوات التي كانت قد انتقلت إلى برامجها الاعتيادية بعد انتهاء البث المباشر للتظاهرة. توقف عند قناة عراقية تبث من بلد عربي، وكان ثمة حوار سياسي، إذ يبدو أن قوات الأمن قد اعتدت على بعض الأدباء والمثقفين الذين شاركوا في التظاهرة. هو يعرفهم جيدًا. كانوا يعقدون مؤتمراً صحفياً أمام وسائل الإعلام يتحدثون فيه عما تعرضوا له من ضرب وإهانات على يدي رجال الشرطة.

كان مستغرقاً في متابعة ما يُقال على الشاشة حينما دخل الصغير آدم الملاك راكضاً وخلفه أمه التي كانت تريد الإمساك به. رفع هو رأسه، فقبضت هي على يد الصغير، وقالت له بصوت خافت وبمزاح مقصود:

- تعال واترك عمك يستريح. إنه لا يريدك، لذلك يريد مغادرتنا. تعال.
- قالت ذلك ونظرت إليه، تحرك هو جالساً على الكنبه. نظر إليها وقال بصوت خافت أيضًا، وكأنما يشتركان في سر:

- ما هذا الكلام. أنا متعلق به جدًا. وأخاف من تعلقي هذا.

نظرت إليه، وقد أدركت أنه يقصدها بكلامه، وقالت بخفر شديد:

- ولماذا تخاف من تعلّقتك به؟ إنه متعلق بك أيضًا.

ارتبك هو، وقال بانفعال واضح:

- صحيح؟

نظرت إليه للحظات بخجل مع ابتسامة رقيقة، وهي تنظر إلى الأرض:

- صحيح.

- لكنني مضطر للذهاب إلى شقتي، وبالتأكيد سوف أمر.

- أتمنى ألا تنساه.

- كيف أنساه؟ أنا متعلق به جدًا.

- صحيح؟!

- صحيح.

تألق وجهها بابتسامة مضيئة، وغادرت الغرفة بسرعة، تاركة يد الصغير الذي رمى بنفسه على آدم المحروم الذي تلقفه بذراعيه.

العنكبوت

كان الوقت بداية المساء حينما دخل آدم المحروم إلى شقته في الطابق الثاني. توجه مباشرة لفتح الشباك فالهواء كان خانقاً فيها. جلس على الصوفا الجلدية التي تتوسط غرفته. وضع الحقيبة الجلدية على الأرض وأخذ الريموت كونترول. ضغط عليه فأضيئت شاشة التلفزيون بموجز للأخبار من إحدى القنوات العربية التي تبث من دبي. أخذ يتنقل بين المحطات العراقية علّه يسمع شيئاً جديداً، لكن بدون جدوى، فمعظم القنوات كانت تبث حلقات من مسلسلاتها، أو تقدم برامج تسلية أو رياضة. توقف عند إحدى القنوات العراقية التي تبث من خارج البلاد. لم يكن يتابع ما يجري على الشاشة لتلك القناة، لأنه بحكم العادة يتابع شريطها الإخباري الذي كان فيه خبر عن تصاعد الاحتجاجات ضد اغتيال الكاتب آدم البغدادي في ظروف غامضة.

كان جو الشقة يبعث على كآبة لم يشعر بها سابقاً، بل على العكس كان يلوذ إلى شقته حينما يضيق بالمدينة أو تضيق المدينة به، فهي زاويته وملأه ووطنه الصغير، لكنها الآن بدت له موحشة وكئيبة وخائفة. أحس برغبة جنسية تشتعل في جسده نحو حواء الزاهد. إنه يتأجج شهوة في مضاجعتها، وفي الوقت نفسه يحن إليها بشكل رومانسي وطهراني. يحلم شيقاً بالتوغل في جسدها واختراقها، مثلما يحلم بالتواصل العاطفي والفكري معها والاستغراق بقصة حب عاطفية وحالمة أشبه بقصص الأفلام الأمريكية أو الهندية ذات النهايات السعيدة.

حين خرج عصراً مع والدها كانت هي تقف عند المدخل الفاصل بين الصالة وأعماق المنزل. استرقت النظر إليه لثوانٍ لأن والدها كان في

مواجهتها أيضًا، لكنها لم تبخل بتوديعه بكلمات كلها دعاء له بالتوفيق والنجاح والأمان مع رجاء بأن لا ينساهم ولا ينسى آدم الملاك لأنه قد تعلق به. وحينما وصل مع الأب إلى المطعم ساعده في إخراج عدة الشاي وحمل الماء من داخل المطعم، وجلس قليلًا عند الأب حتى بدأ بإعداد الشاي، وما إن بدأت أولى الطلبات على الشاي تأتية من المطعم حتى قام من عنده مودعًا، وواعدًا بأنه سيمر بعد أن يذهب إلى شقته ليغير ملابسه ويحلق ذقنه، وها هو فعلاً قد قام متوجهًا إلى غرفة الحمام حيث حوض الغسيل والمرآة وعدة الحلاقة، فبلل وجهه ثم أخذ صابون الحلاقة وباشر بحلاقة وجهه.

حين انتهى من الحلاقة. رشّ وجهه بعطر طيب الرائحة يستخدم كماء ما بعد الحلاقة، بدأ بنزع ملابسه متوجهًا لدولاب الملابس، أخرج قميصًا نظيفًا وسروالًا وفانيلة وجوارب جديدة. أعاد تجديد نفسه. وحينما ارتدى كل الأشياء الجديدة نظر إلى نفسه في المرآة الكبيرة التي تغطي باب الدولاب. أحس بشيء من الرضا عن نفسه. فكّر للحظات بحواء الزاهد وانطباعها عنه لو رآته.

فجأة سمع أصوات صافرة سيارة الإسعاف مصحوبة بأصوات صافرات سيارات الشرطة، فأحسّ بشيء يقبض على قلبه، وشعر بهبوط في الضغط. تشاءم من هذه الأصوات، وكأنه قد أفاق على واقعه الحقيقي، فقد كان أشبه بالمتخدر خلال تواجده في بيت آدم الزاهد، لكنه الآن قد عاد إلى عالم الكوايس المرعبة.

ضغط على الريموت كونترول فانطفأت الشاشة. فتح باب الدولاب ثانية ومد يده إلى ما تحت الثياب المصفوفة وسحب ما كان قد احتفظ به من نقود، حمل الحقيبة الجلدية التي تضم مخطوطات صديقه آدم البغدادي والتي صارت لا تفارقه. فكّر مع نفسه بأنه ربما سوف يغيب طويلاً عن هذه الشقة. هو نفسه لم يقرّر شيئًا محددًا، لكن فكرة البقاء في هذه الشقة صارت ترعبه. فكّر، أن عليه في كل الأحوال تغيير مسكنه. ربما سيؤجر بيتًا قريبًا من

بيت الأب آدم الزاهد؟ يا لها من فكرة رائعة. كيف أنها لم تخطر بباله إلى الآن؟ ربما سيفتح الأب بها، فلربما سيؤيده، أو ربما سيسبك في نواياه؟ عليه أن يكون حذرًا في مفاتحته ويجد الطريقة المناسبة لذلك.

حينما وصل آدم المحروم إلى حيث يعمل الأب آدم الزاهد وجده يحمل صينية مزدحمة بإستكانات الشاي وهو يدخل بها إلى المطعم. جلس ينتظر، وما إن خرج الأب حتى ارتسمت الابتسامة العريضة على وجهه وهو يرى آدم المحروم جالسًا. تصافحا وكأنما كانا قد افترقا لفترة طويلة. رحّب الأب به وسأله عن أحواله، وظروف الشقة، وكيف يشعر الآن، لا سيما وقد رآه حليقًا وبشبابٍ جديدة.

أراد آدم المحروم أن يستغل الحديث لطرح مسألة تغيير البيت وتأجير مسكن آخر، فقال مختلقًا كذبة لا يدري من أين أتته، وكيف ولدت في ذهنه! حيث دخل في دور غريب لم يعهده، وقال بتأثر:

- الوضع سيئ يا حاج، فحينما وصلت وجدت الباب مفتوحًا، لا أدري من جاء وكسر قفل الباب، ودخل إلى الشقة.

- ماذا تقول؟ هل أخذوا شيئًا؟ قال الأب بقلق.

- لا، لم يأخذوا أي شيء.

- من تراه يكون؟

- لا أدري. لكن لو كان لصًا لسرق بعض المال الذي كان في الدولاب؟!

- وماذا تفعل الآن؟

- لا أدري. عليّ تغيير مسكني.

- لا أعتقد أنه من الصحيح رجوعك إلى البيت، تعال عندنا إلى أن نجد لك مسكنًا.

- لا. لا. هذا غير ممكن يا حاج. لا أريد أن أسبب لكم المضايقة.

- لا يا ابني، عليك تغيير مسكنك هذا. فكما يقول المثل السائر: (الباب الذي تأتيك منه الريح، سدّه واستريح).

لم يكن آدم المحروم يصدّق كيف تطورت الأمور، وكيف جرى كل شيء بهذه السهولة، لكن ثمة شعورًا بالذنب عكّر عليه فرحته، فقد تأسف في أعماقه على أنه كذب على هذا الإنسان النبيل، كاتمًا عنه نواياه الدنيئة في أن يكون قريبًا من ابنته! سأل نفسه: «هل أنا نذل إلى هذه الدرجة؟ كيف كذبتُ على هذا الإنسان الطيب؟ لِمَ اختلقت هذه الكذبة التافهة كي أكشف عن رغبتى بتغيير المسكن؟»، لكن هذه الصحوة المفاجئة للضمير تلاشت حينما فكر بأنه سوف يراها الليلة أيضًا، بل سيبقى عندهم إلى أن يجد غرفة أو شقة قريبة منهم! وبالرغم من أن تأنيب الضمير قد اختفى إلا أنه شعر بالعري أمام نظرات الأب آدم الزاهد، فلم يعد مستريحًا في جلسته. كان يحس بأن الأب ينظر إليه نظرات متفحصة. فكّر مع نفسه: «لربما لم يصدق حكاية كسر القفل لذا ارتاب فيّ، فهو يحاول بنظراته هذه أن يستكشف أعماقي. عليّ أن أخفي عن أنظاره إلى أن يستعيد هدوءه»، لذا جاءت فكرة أن يضيف المصادقية على كذبه، فقال للأب:

- أليس من الأفضل أن أبات الليل في فندق الركن الهادئ المجاور، إلى أن أتمكن من تأجير مسكن جديد؟ حقيقة لا أريد أن أزعجكم ثانية.

تفاجأ الأب من كلامه، نظر إليه للحظة متأملًا ثم قال له بهدوء:

- أنت لا تزاحمنا يا ابني، وجودك بيننا يحسنني وكأن ابني الشهيد أمامي، فأشعر بالراحة. لكن ربما لم ترتح أنت معنا، فهذا أمر آخر، فأنت حر.

أحس بقلق داخلي، يبدو أن الأمور أخذت مسارًا آخر. فكّر مع نفسه بأنه ما كان عليه أن يثير الموضوع، لذا لكي لا يترك الأمر له ولحريته فيقرر المبيت في الفندق كما يفترض الحال من شخص غريب، فإنه قال بحرارة مفاجئة:

- أبدًا والله. أنا ارتحت لكم جدًّا، بل لقد تعلقت بالصغير آدم الملاك. وشعرت وكأنني في بيتي، لكنني لا أريد أن أزعجكم. فمن المؤكد أن وجودي عندكم هو الأكثر أمانًا بالنسبة لي، لكنني لا أريد إزعاجكم.

نظر الأب إليه للحظة ثم انشغل بصب الشاي في إستانات كانت تزدحم الصينية بها، وقال:

- إذا كنت تعرف بأن وجودك عندنا هو الأكثر أماناً بالنسبة لك، فلماذا هذه المغامرة وخسران المال؟! تعال عندنا إلى أن تجد مسكناً، هل تريد أن تؤجر هنا في هذه المناطق؟ أقصد الأورفلي والبتاوين، أم تريد في مناطق أخرى؟ أحس بالأمان من أنه سيذهب معه ولم يكن مجبراً للمبيت في الفندق، فقال:

- أفضل أن أسكن في مكان بعيد عن هذه المناطق التي تعج بالغرباء والمشبهين وكل من هبّ ودبّ. أقصد أريد أن أسكن في منطقة سكنية اعتيادية بعيدة عن وسط العاصمة كمنطقتكم مثلاً.

أدرك أنه ألقى مفرقته وها هو ينتظر صوت انفجارها. سكّت الأب لحظة وكأنه كان يفكر بما قاله آدم المحروم. كان قد ملأ الإستانات جميعها وأضاف إليها السكر، ونهض حاملاً الصينية، وقبل أن يتجه إلى المطعم قال له:

- هذه فكرة جيدة. انتظريني لحظة وأعود لنناقش الأمر.

قال ذلك واتجه إلى المطعم، بينما ظل هو منتظراً. كان يحس أن الحظ يبتسم له، نسي مخاوفه كلها، ونسي مسألة هروبه وملاحقته من قبل قوى مجهولة. إنه لا يفكر الآن سوى أن يكون قريباً من حواء الزاهد، "أه لو يعرف الأب ما يدور في نفسي، لبصق في وجهي احتقاراً. يا لندالتي، وتعاستي!".

هكذا فكر آدم المحروم مع نفسه.

حين خرج الأب من المطعم لمحاه آدم المحروم. انتبه إلى أن وجه الأب يعكس انشغالاً بالتفكير. «بماذا يفكر هذا الأب الطيب؟» سأل آدم المحروم نفسه. حينما وصل الأب إليه قال له وكأنه توصل إلى شيء مهم:

- اسمع. في الشارع الذي نعيش فيه ثمة مشتمل ليس فيه سوى غرفة واحدة مع صالة ومطبخ وحمام، وهو متروك، أقصد مقفل، يعود لمعلم كان صديقاً لزوج ابنتي، وقد ترك السكن خوفاً من الانتقامات الطائفية. إنه يسكن الآن في

الكرخ، في الغزالية. لقد ترك منطقتنا قبل اعتقال زوج ابنتي بسنة، وطوال هذه السنوات لم يأت إلى منطقتنا، لكن قبل ستة أشهر جاءت زوجته إلى المنطقة، وكانت عندنا، وأبدت عدم رغبة زوجها في الرجوع إلى منطقتنا فقد أجروا في منطقة أهلها بيتاً أوسع، وهم يشعرون بالأمان هناك أكثر، لذا كانت تود تأجير المشتمل. يمكننا أن نسألها، كم كنت تدفع إيجاراً لشقتك الحالية؟

- ثلاثمئة وخمسين ألف دينار.
- ثلاثمئة وخمسين ألف، أعتقد أنه لن يؤجره بأقل من أربعمئة ألف.
- هذا المبلغ ليس بمشكلة، الفرق خمسون ألف، أستطيع أن أتصرف.
- سأحدث الليلة مع ابنتي، فهي تعرف رقم هاتف الزوجه ويمكنها أن تتحدث معها!

كانت أعماق آدم المحروم مضطربة. صحيح أن المبلغ ربما سيضايقه لو أضاف إليه نفقات النقل، فالمنطقة بعيدة نسبياً عن وسط العاصمة، لكن ليس هذا بمشكلة، عليه أن يقتصد بأشياء أخرى، المهم سيكون قريباً من حواء الزاهد. كان مستغرقاً في أحلامه حينما انتبه لوقوف سيارة عسكرية بالقرب منهم. نزل عنها رجل برتبة ملازم، وثلاثة من رجال الحرس الوطني. ارتبك كلاهما، بدت علامات التوجس على وجه الأب، الذي كان بالرغم من ذلك متماسكاً. نظر إليهم مستفسراً، فقال له أحد رجال الحرس الوطني:

- يا حاج أربع إستكانات من شايك الممتاز. والله رأسنا يوجعنا ولا يريحنا سوى الشاي.

ابتسم الأب، وكذلك أجبر آدم المحروم نفسه على الابتسام، بينما تحرك الملازم نحو المطعم، إذ جذبته رائحة الشواء الشهية. صب لهم الأب الشاي، إلا أن الملازم رجع إليهم وقال للأب:

- يا حاج. سنجلس في المطعم، هل بالإمكان أن تحمل لنا الشاي في الداخل؟
- لا مشكلة في الأمر يا ابني.

صعد السائق إلى السيارة ليصفها بعيداً عن زاوية الأب، من الجهة الأخرى على امتداد المطعم، بينما توجه الملازم وبقية الحرس إلى المطعم.

في وقت متأخر من المساء كانت حواء الزاهد جالسة مع صغيرها تتابع التلفزيون حينما فتح الأب الباب، متريثاً قليلاً وهو يقول:

- تفضل يا ابني.

فوجئت هي حين رأت آدم المحروم يدخل خلف والدها وهو حليق الوجه وقد غيّر ملابسه. ركض الصغير آدم الملاك ليلقي بنفسه في أحضان جده الذي استقبله منحنياً ليرفعه إلى الأعلى. وخلال انحناء الجد تبادل آدم المحروم وحواء الزاهد لثوانٍ نظرات مليئة بالمعاني التي كانت مزيجاً من الفرح، والقلق، والرضا، نظر الأب لابنته، وقال لها:

- لقد كسروا باب غرفته. عليه أن يبقى عندنا إلى أن نؤجر له بيت آدم الأنباري، المشتعل المتروك. يمكنك أن تفتحي زوجته.

لم تستوعب حواء الزاهد الأمر دفعة واحدة، فقد كانت المفاجأة كبيرة. نظرت إلى والدها نظرة مستفهمة، فقال لها:

- سأشرح لك كل شيء بالتفصيل، لكن قبل كل شيء علينا أن نتعشى.

ارتبكت حواء الزاهد لأنها لم تكن تنتظر ضيفاً على العشاء، لذا قالت بارتباك:

- لدينا بقايا من الباميا، وسأطبخ أرزاً جديداً.

قالت ذلك وأسرعت إلى المطبخ، بينما انتقل الصغير آدم الملاك من أحضان الجد إلى أحضان آدم المحروم.

مرت هذه الليلة كسابقتهما. مجاملات الضيافة المعتادة، العشاء وشرب الشاي، متابعة الأخبار. تخلل ذلك محاولة للاتصال بـ زوجة صاحب المشتعل الفارغ، وحديث عن تفاصيل السكن، وكان هناك تبادل للنظرات الخاطفة

لكنها مليئة بالألغاز الواعدة بين آدم المحروم وحواء الزاهد دون الإفصاح عن شيء من قبلها سوى الارتياح العميق لهذه الخطوة التي أقدم هو عليها.

في آخر الليل، وحينما تمدد آدم المحروم على فراشه في الصلاة، فتح الحقيبة الجلدية وسحب مخطوطة "مناهة حواء وادي الظلمات". لم تكن رغبته في القراءة قوية، لكنه أراد أن يهرب من نفسه. فحينما غادر الجميع إلى النوم، وبقي هو وحده في فراشه، أحس بالأفكار السود تهجم على مخيلته وكأنها قطع ثيران هائجة سوداء.

كان يحس بأنه يتصرف بنذالة. لم يستطع أن يبرر لنفسه كذبه على الأب، ولا تخطيطه العنكبوتي للتقرب من فريسته حواء الزاهد لانتقامها. "لماذا انجرت لمثل هذه الدناءة؟ الأب آدم الزاهد يخاطبني ب (يا ابني)، بينما أنا أكذب عليه مستغلًا طبيته وحسن ظنه وكرم ضيافته؛ أليست هذه نذالة مني؟ لكن ماذا أفعل أمام رغبتني الدفينة؟ ثم إنها أيضًا كشفت بطريقة أو بأخرى عن ارتياحها لي، وحاجتها، ربما دون وعيها، لي! فكل نظراتها نحوي ذات مغزى، وأعرف معناها! ثم أنه من الطبيعي أن ترتاح لوجود رجل قريب منها، ويهتم بها، لا سيما في جو عائلي يفتقد لحنان غير حنان الأبوة، فهي امرأة متزوجة، ولديها ولد في الخامسة، وقد فارقت زوجها من أكثر من أربع سنوات، ومن المؤكد أنها تحتاج لرجل، بل ومن المؤكد أنها تستعيد في ظلام الليل المريب والغامض لياليها الحميمية مع زوجها! وربما كانت قد دفنت رغباتها، لكن وجودي أيقظها؟ إن دخولي إلى عالمها قد خلخل سكونها. لكن طيبة الأب تعذبني، وتقبض على قلبي بمخالب من ثلج. ماذا عليّ أن أفعل؟ هل أترك فكرة الانتقال إلى منطقتهم وأبتعد عنهم نهائيًا؟ لكني لا أستطيع ذلك، بل ولا أريد ذلك، أريد أن أكون قريبًا منها، وفي الوقت نفسه لا أريد أن أشوه هذه العلاقة الأبوية مع الأب! إن التفكير يعذبني، وعليّ الهرب من التفكير، عليّ أن أواصل قراءة المخطوطة، أن أهرب من ظلمات نفسي إلى وادي الظلمات". هكذا كانت الأسئلة تزدهم في ذهنه، ولم يجد ملاذًا سوى مخطوطة الرواية. أخذ المخطوطة وسحب الصفحات التي كان قد قرأها سابقًا، وألقى بنفسه في وادي الظلمات.

زلة الملاك

أحس آدم التائه بخوف بارد يسري في حنايا روحه المرتبكة. كيف له أن يترك إيفا بيرغمان الفاتنة؟ ومن أجل ماذا؟ هل هو محتاج للمال حقاً؟ لا. فلقد باع بيتهم في بغداد، كما باع محلات والده، وأخذ الكثير مما ورثه من أبيه؛ لذا فهو لا يحتاج للمال، لكن هل هو يريد العمل كي يحس بوجوده الإنساني!

أحسّ آدم التائه وكأن بوابات الجحيم قد فُتحت على مصراعها. كان يفكر مع نفسه بأنه قد نسي كل ما له علاقة بماضيه. لم يكن يتذكر أمه إلا نادراً، وبالتحديد كان يتذكرها حينما كان في عمان، لكنه مذ وصوله إلى ألمانيا لم ترد على باله. أما أبوه فقد حاول أن يلغيه من ذاكرته بالكامل، وكأنه ولد ونشأ يتيمًا؟ لا، كيف ينساه وهو الذي يشك أصلاً بأنه ليس أباه؟ وكيف ينسى حين رآه مع زوجته حواء المؤمن في غرفتهما ذات ظهيرة صيف؟ الآن. الآن، وبعد أن رأى زوجته حواء المؤمن في ذلك الوضع الفاضح والبورنوغرافي مع جارهم اللبناني، فإنه لا يستبعد بأنها كانت على علاقة مع والده، بل إنه شبه متأكد من ذلك! لماذا عليه أن يهاجر مرة أخرى إلى بلاد بعيدة؟ لقد دفع أموالاً كثيرة من أجل الوصول إلى هنا، بينما هو يريد الآن مغادرة ألمانيا! لماذا لا يستقر هنا لا سيما بعد أن حصل على الإقامة الدائمة؟ بعد سنوات سيتمكن من الحصول على الجنسية الألمانية، وبإمكانه، لو بقي أن يطور علاقته مع إيفا بيرغمان، ويعيش معها! لكن مَنْ يضمن له أنها ستوافق؟ مَنْ يضمن له بأن تصرفها معه نابع من سويتها وسلوكها وقناعاتها، وليس له أي خصوصية بأنها تريد أن تكون معه؟ هل الأمر يستحق المغامرة حقاً بأن يترك السفر ويبقى على

أمل أن يقيم علاقة معها؟“ عليّ أن أمد خيوطي لأشد هذه المرأة الساحرة إليّ؛ عليّ ألا أضيع الوقت، عليّ المبادرة“، هكذا حسم الأمر مع نفسه.

كانت إيفا بيرغمان منشغلة بضبط الحجز، وتأكيد، وطبع بطاقات السفر. كان هو يتأملها، يتأمل صدرها، ووجهها المثير، وحينما تنشغل بالتفاتة أو انحناء كان ينظر إلى زوايا جسدها الأخرى التي تتيح له جلسته برؤيته. انتبهت إلى نظراته إليها، ارتسمت على وجهها ابتسامة غامضة. طبعت مواعيد السفر وأرقام الرحلات، كما سحبت جارورًا وأخذت منه بطاقات سفر فارغة وملأتها بالمعلومات الضرورية. وبينما كانت تدون المعلومات ابتسمت، فسألها محاولاً أن يقتحم عالمها أكثر:

- لماذا تبسمين؟
- لا شيء. هل اسم آدم شائع لديكم؟
- لا. إنه اسم غير شائع. لكنه يمثل كل أسماء الرجال، وكذلك اسمك.
- اسمي؟
- نعم. آدم، وحواء، هل تعرفين أن اسمك بالعربية يُلفظ: حواء؟ إيفا هي حواء بالعربية، لكن آدم هو آدم. إنه لا يتغير في جميع اللغات.
- شيء لم أنتبه له سابقًا.
- كانت قد أنجزت إعداد البطاقات، ووضعتها في مغلف خاص، وقالت له:
- الآن كل شيء جاهز. لم يبق سوى أن أرسله غدًا إلى السفارة. لا، انتظر. نظرت إلى الساعة، ثم قالت:
- لدينا بعض الوقت بحيث نرسله الآن مباشرةً وبالبريد السريع كي نستفيد من الوقت، ما رأيك؟
- فكرة رائعة. هل أذهب الآن إلى البريد؟

- لا، انتظر. سنذهب معًا، وسأرسله باسم المكتب ليكون ضمن، فهم
ينجزون معاملات المكاتب السياحية بسرعة. تعال معي.

قالت ذلك ونهضت وهي تضع المغلف في حقيبتها. نهض هو أيضًا.
أحس فجأة برغبة في أن يحتضنها، لكنه تردد. كانت هي قريبة جدًا منه،
بحيث شم عطرها المثير.

عند مكتب البريد بحثت عن مكان لتركن السيارة في الكراج فلم تجد.
أوقفت السيارة أمام زاوية ميتة لا يمكن الوقوف فيها، وطلبت منه البقاء في
السيارة. خرجت هي من السيارة، فصار بإمكانه أن يراها من الخلف وهي
تمشي. أثاره جسدها المتناسق، ربلتا ساقيهما، مؤخرتها المتناسقة والمثيرة،
استقامة ظهرها، والألق الأثوي الذي يشع منها. أحس برغبة شديدة في
مضاجعتها. سأل نفسه: "هل سأتمكن من ذلك قبل سفري؟".

كان غارقًا في أحلام اليقظة حينما شاهد جيرانه في الطابق الأرضي
يخرجون من مكتب البريد. أولاً الأم التي كانت في بداية الأربعينات لكنها
تبدو وكأنها في منتصف الخمسينات، ثم خرج ابنها السمين الذي قد تجاوز
العشرين بقليل، وابتنتها الأخرى التي كانت في الثامنة عشر، والتي كانت تنظر
يمينًا وشمالًا وكأنها تبحث عن أحدها، وأخيرًا خرج الأخ الأصغر وهو يدفع
أمامه كرسيًا متحركًا تجلس عليه أخته المعاقة التي يقال إنها أكبر الجميع
سنًا، إلا أن عدم نمو جسدها جعلها كشبح مخيف لا يمكن تقدير عمره.

لا يدري كيف نظروا نحوه، وما هي قوة الجذب المغناطيسية التي شدت
عيونهم تجاهه! وقفوا جميعهم للحظة وكأنهم يريدون أن يتأكدوا من أنه
هو وليس غيره، وحينما تأكدوا من ذلك همّوا بالتوجه نحوه، لولا خروج
إيفا بيرغمان من مكتب البريد وتوجهها نحو السيارة. توقفوا في منتصف
خطواتهم، وكأن رؤيتهم لإيفا بيرغمان قد شلتهم، إذ ظلوا واقفين في

مكانهم، حتى صعود إيفا بيرغمان إلى السيارة وتحركها لمغادرة الكراج. ولا يدري لماذا التفت إليهم، بينما كانت السيارة عند بوابة الكراج وهي تغادر، فرآهم ما زالوا عند وقفاتهم، وكأنهم غير مصدقين ما رأوا.

انتبهت إيفا بيرغمان إلى انشغاله بالنظر إلى الخلف، فسألته مستفسرة:

- هل هناك شيء ما؟

- لا. أبدًا. لقد رأيت جيراني الذين يسكنون في الطابق الأرضي.

- أها. وهل هذا يعني شيئًا ما؟ مثلاً، إنهم سيخبرون زوجتك بأنهم رأوك معي؟

- لا، أبدًا. أنا قد انفصلت عن زوجتي. ولا أريد أن أسمع عنها أي شيء، ولا يهمني أن تسمع عني أي شيء.

- ما هذا؟ هل أنتما على خلاف إلى هذه الدرجة؟

أحسّ آدم التائه بأنها فرصته الذهبية كي يتقرب منها أكثر بأن يشركها في حياته الشخصية أكثر، فقال لها:

- هذه قصة طويلة، يمكنني أن أرويها لك لو كان لديك الوقت والمزاج لسماعي.

- أنا لدي الوقت، لكن إن كانت لديك أنت الرغبة في الحديث عن ذلك، دون أن يسبب لك ألمًا أو حرجًا.

- إنها قصة طويلة، وتحتاج لمكان هادئ كي أرويها. ما رأيك أن أدعوك على العشاء؟

- على العشاء؟ لكن أجواء المطاعم غير مناسبة لمثل هذه الأحاديث!

- طيب. هل تمانعين أن تتفضلني عندي؟

فوجئت إيفا بيرغمان لمقترحه، ولجراته التي تقترب من حدود عدم اللياقة، وأحسّت بالارتباك، لكنها أدارت الاقتراح بطريقة أخرى، فقالت:

- لا. يفضل في هذه الحالة أن تأتي أنت عندي، سنطبخ شيئًا ما، ويمكننا الحديث بهدوء.

لم يصدق آدم التائه أن تدور الدائرة بهذا الشكل كما في الأفلام الهندية، فأبدى موافقته بكلمة واحدة فقط:
- لا مشكلة. موافق.

انطلقت إيفا بيرغمان بالسيارة صامتة، كانت تفكر بالأحداث المحتملة التي يمكن أن تجري في بيتها؛ وكيف سيتصرف هذا الشرقي معها؟ هي تعرف أنه يفكر فيها بشبق، وربما يخطط لمضاجعتها، لكن هذا الأمر لم يقلقها كثيرًا. وإنما معرفته لسرها هو ما أقلقها؟ هل يعرف من هي حقًا؟ هي تعرف أنه إنسان يائس، واليائسون وحيدون دائمًا. وقررت مع نفسها: «سأمنح روحه المضطربة شيئًا من السكينة».

كان هو صامتًا أيضًا. كلاهما كان صامتًا، صمتها مسه بالخوف، شعر بشيء غامض يقبض على روحه. هل عليه أن يغير رأيه ويرفض الذهاب معها إلى البيت؟ كيف يمكنه ذلك بعد أن خطط بكل ما أمكنه من حيل درامية، وملكة روائية، وخبرة جنسية. “ماذا سيبتظرنني هناك؟ هل سأضاجعها بهذه السهولة؟ كيف لامرأة مثلها أن تدعو شخصًا عابرًا إلى بيتها؟ نعم، شخصًا عابرًا، فأنا بالنسبة لها شخص عابر، شخص أراد شراء بطاقة سفر فساعده في ذلك، لا أكثر ولا أقل! ثم. ماذا سأحكي لها عن زوجتي حواء المؤمن؟ هل أخبرها بأنها كانت مطلقة وتزوجتها بناء على رغبة أمي؟ هل أخبرها بأنها أشك، بل إنني متأكد بأن ثمة علاقة محرمة كانت بينها وبين والدي؟ وأنها صارت متدينة، تصلي وتقرأ القرآن، لكن، بالرغم من ذلك، وجدت جاري اللبناني يولجه فيها من الخلف، وهي تصرخ به أن يدفعه أكثر، بينما الحجاب يغطي وجهها؟ كيف ستكون ردة فعلها؟ امرأة مثلها ستسامحها مباشرة، بل وستطلب مني مسامحتها أيضًا، وهذا سيعقد الأمور أكثر، لأن ذلك سيقود إلى جلسة وعظ وكلام عن التسامح والغفران وإلى استدعاء الأجواء الدينية، وهذا يعني فشل خطتي في مضاجعتها! إذن عليّ أن أبتعد عن قصة زوجتي

وخيانتها لي. لكن سبب دعوتها لي هو أن أحكي لها عن زوجتي فكيف عليّ أن أتصرف؟“.

فكرت إيفا بيرغمان لحظتها بأن تتصل بصديقتها لتسألها عن جارتها العجوز، وربما هناك من يحتاج إلى المساعدة، لكنها عدلت عن ذلك وفكرت: “عليّ الليلة أن أساعد هذا الإنسان اليائس! هذا الإنسان الذي ينظر إلى الهاوية بأحداق مفتوحة!“. حاولت أن تقنع نفسها بما جاء في الإنجيل، والذي تحفظه: “إن كانَ لإنسانٍ مئةُ خروفٍ، وَصَلَّ واحدٌ منها، أَفلا يترك التسعةَ والتسعينَ على الجبالِ ويذهبُ يطلبُ الضَّالَّ؟ وإن اتفقَ أن يجدهُ، فالحقُّ أقولُ لكم: إنه يفرحُ به أكثرَ من التسعةِ والتسعينَ التي لم تضلَّ“. وهذا الإنسان في حيرةٍ كبيرة، ويستبدُّ به اليأس ومسكين، ألم يذكر الكتاب المقدس: “طوبى للذي ينظرُ إلى المسكين؟“.

كانت حواء المؤمن طوال ذلك اليوم كالتمثال المتحرك، لا تتحدث كثيراً إلا إذا سُئلت، وأحياناً كانت تفعل ما يراد منها دونما أي تعليق. لم تكن هي طبعاً من يقوم بالإجراءات الإدارية في عملية النقل، إذ كان آدم اللبناني والعم في أوج حماسهما لإنجاز هذه المهمة بأسرع وقت. وفعلاً، فقد تم تسجيلها في بلدية المدينة كأحد سكانها اعتماداً على عقد الإيجار، بالرغم من وجود عنوان آخر لها في مدينتها الأولى، وتم ترتيب أوراق نقلها من دائرة المعونات الاجتماعية أيضاً، واستلمت كتاباً بذلك لإشعار مدينتها الأولى بذلك. وقد استفسرا عن إجراءات الزواج في دائرة الأحوال المدنية في البلدية، وحددا موعداً لمقابلة المسئول لتسجيل زواجهما من آدم اللبناني. كان آدم اللبناني والعم يشعرا بالانتصار، وكان الفرح بادياً عليهما، في كلامهما وضحكاتهما التي كانت تنطلق من القلب، والكرم في الإنفاق، إذ عرجوا على السوق الشرقي حيث اشتريا قنيتين من العرق، وعلبة لبن

وخيار، وخضراوات، وكرزات وبعض الحلوى. وأصر العم على الدفع بهذه المناسبة أيضًا. بينما كانت هي ظلّ يتبعهما، وكانا يعرفان أنها في حالة غير طبيعية، ولم يفهم العم لماذا هي بهذه الحالة من الجمود، ولماذا لا تفرح لكل هذه الخطوات الناجحة التي تمت خلال يوم واحد؟

حينما عادوا إلى البيت، وأخبر العم عائلته بأن كل شيء قد تمّ كما تم التخطيط له، أطلقت زوجة العم زغرودة، سمعها جميع سكان البناية. لم تكن حواء المؤمن تشارك بكل هذه الضجة العائلية، وفي نفس الوقت لم يضايقها أحد من نساء العائلة بالسؤال عما بها أو لماذا هي ليست سعيدة، وكأنها تعرف بأن كل ما يجري برمته ليس إلا وسيلة لحل مشكلة آدم اللبناني! لقد انتبهت هي لهذا الأمر لكنه لم يؤثر فيها، لأنها تدرك أنها قد ضيعت نفسها، وهي تنظر لكل ما يجري لها وكأنه عقاب إلهي عليها أن تتقبله دونما اعتراض، بل وبالرضا والاستسلام.

حينما مضت الأم وبناتها إلى المطبخ، ذهبت هي إلى الغرفة التي خصصت لهما. في المطبخ تبادلت الأم وبناتها النظرات وتهامسن في ما يبنهن، لا سيما بعد أن جاء صوت حواء المؤمن من الحمام وهي تتقيأ. مضت الأم إليها. بينما تعالت ضحكات آدم والعم من الصالة.

بعد الانتهاء من وجبة العشاء، أعدت البنات مع أمهن حفلة عائلية وكأنهن يحتفلن بزواج، فأجلسن حواء المؤمن إلى جانب آدم اللبناني، وبدأت الفتيات يرقصن ويدبكن على أنغام موسيقى الدبكة اللبنانية. استمر هذا الاحتفال العائلي لساعة تقريبًا. بعدها انزوى الرجال في جانب من الغرفة وأمهم قينة من العرق، وأخرى على الأرض تنتظر مصيرها أيضًا، وكذلك كان الجاجيك والزيتون والسلطة، وصحن فيه الفستق السوداني،

بينما انتشرت النساء في بقية أرجاء المكان يتابعن مسلسلاً عربياً يُبث من إحدى القنوات العربية، وأمامهن توزعت الشوكولاته، والفستق، والبطاطا المقلية، وقناني البيسي.

حينما انسحبت الفتيات مع أمهن إلى غرفهن، لم يكن أمام حواء المؤمن سوى الانسحاب إلى غرفتها. لم تكن نعسانة، ولكن لم تجد من الملائم أن تظل جالسة في الصالة، بينما آدم وعمه، يحتسيان الخمر، وقد أتيا على الزجاجة الثانية التي كانت على وشك النفاد. كما بدا السكر واضحا عليهما.

كانت إيفا بيرغمان تسكن في مجمع سكني حديث يقع على أطراف المدينة بالقرب من غابة صغيرة تحيط بالمدينة من أحد جوانبها. وحينما وصلا إلى منطقتها، انتبه آدم التائه إلى أنها تحمل اسم شارع المقبرة!

كان المساء قد حلّ على المدينة. ركنت هي السيارة في المكان المخصص لسيارات سكان المجمع. انتبه آدم التائه إلى أن المجمع السكني جديد البناء، جميل المنظر، يشبه إلى حد كبير منتجعا صحيا، أكثر مما هو مبنى سكني اعتيادي. وكانت الأشجار تحيطه من بعض جوانبه، إلى جانب سياج يحدد المجمع. لكنه انتبه أيضا إلى وجود مقبرة مفتوحة على أحد جوانب المكان، وكانت المقبرة تتوغل في الغابة. كان المبنى هادئا، ومقفرا من أي أثر لبشر وكأنه غير مأهول، على الرغم من أن معظم النوافذ كانت مضاءة. حين خرجا من السيارة أشارت هي إلى نافذة في الطابق الثاني، وقالت: تلك شقتي.

حينما دخل معها إلى الشقة أعجبه نظافتها وانسراحها، فالباحة الواسعة نسبيا كانت تقود إلى غرفة الاستقبال من جانب وإلى المطبخ وغرفة الطعام من جانب آخر، بينما كانت غرفة المكتبة تحتل مكانا تتواصل مع غرفة

الاستقبال، أما غرفة النوم فكانت على الجانب الآخر من الباب تتوسط بينها وبين المطبخ غرفة الحمام الواسعة. وحينما قادتة إلى غرفة الاستقبال لفت نظره أناقة الأثاث وبساطته، بينما ذهبت هي إلى غرفتها ومن هناك إلى المطبخ، إذ سمع صوت الثلاجة وهو يُفتح.

جلس آدم التائه على الصوفا الواسعة المنجّدة بجلد أبيض رقيق والتي تصلح أن تكون سريرًا عرضها، ثم أجال النظر في الغرفة الواسعة. انتبه إلى بعض اللوحات ذات الموضوع الديني من عصر النهضة وما بعده؛ لوحتان مستنسختان لدافنشي، عرفهما مباشرة لشهرتهما، تخطيط لرأس امرأة، والعدراء على صخرة، ولوحات أخرى من الفن الحديث عن الحرب، جبهات قتال وجنود جرحى وثلوج ودماء. فجأة، جذبت نظره صورة فوتوغرافية لفتاة في منتصف الثلاثين على منضدة في الطرف الآخر المقابل، لكن الصورة كانت بنية اللون، كالحة. اقترب من الصورة فأحس بأن صاحبة الصورة قريبة الشبه جدًا من إيفا بيرغمان إلا أنه انتبه إلى تاريخ الصورة الذي يشير إلى ثلاثينات القرن العشرين. أحس بقشعريرة باردة تسري في جسده، ما هذه الصورة؟! “لا. أكيد إنها ليست هي!” قال لنفسه. وبينما هو في وقفته تلك دخلت إيفا بيرغمان وهي تحمل صينية فضية عليها قنينة من عصير البرتقال، وأخرى من عصير التفاح، وقدحان. وقفت تنظر إليه لحظة، فسألها قبل أن تبادر بالكلام:

- أهذه أنت؟
- ماذا تقول أنت؟ سألت باستغراب.
- إنها تشبهك جدًا. طبعًا مع اختلاف في التسريحة وطراز الملابس. قال لها مرتبكا.
- دائمًا يُقال لي إنها تشبهني كثيرًا.
- نعم تشبهك كثيرًا جدًا، هذا يعني أنها ليست لك؟

- اقرأ تاريخ تصويرها. إنه العام ١٩٣٥.

ولم تكمل كلامها، إذ رن جرس الهاتف في الصلاة، فوضعت الصينية على الطاولة وخرجت. رجع هو فجلس على الصوفا الجلدية البيضاء. فتح هو قفينة عصير التفاح وسكب لنفسه قليلاً، وأخذ يرتشف منه، بينما كان صوتها الرقيق يأتي إليه وكأنها تهمس للذي على الطرف الآخر الذي خمن أنه زميلتها:

- لا أستطيع المجيء الليلة. نعم أيتها الأخت. نعم. نعم. "الإنسان ذاهبٌ إلى بيته الأبدي والنادبون يطوفون في السوق"، أتذكر هذا القول الذي جاء في سفر الجامعة. نعم أيتها الأخت أفهم ما ترومين قوله لي، لكن جاء في سفر الجامعة أيضاً: «النور حلٌّ، وخيرٌ للعَيْنين أن تنظرا الشمس؛ لأنه إن عاش الإنسان سنينَ كثيرةً فليفرح فيها كُلها، وليتذكر أيامَ الظلمة، لأنها تكونُ كثيرةً. كُلُّ ما يأتي باطلٌ». نعم أيتها الأخت. نعم. إنه هنا. أعرف. سنلتقي غداً إذن بمشيئته.

كان هو تنصت. لم يفهم بعض كلامها، لكن فهم قولها: «نعم. إنه هنا». أدرك أنها إشارة واضحة تخصه. فهو بشكل أو بآخر كان موضوع الكلام، لكن نبرة صوتها وهذوئها بثاً الاطمئنان في نفسه فلم يرتبك أو يرتاب في شيء. دخلت هي وعلى وجهها ابتسامة مغتصبة، ابتسامة فرضتها الضيافة ولم تكن نابعة من القلب، لأن نظراتها كانت تشي بشيء من القلق. وخلال ثوانٍ فكر في تفسير سبب هذا القلق فلم ينجح. جلست هي على كرسي واسع مجاور له. صبت لنفسها شيئاً من عصير البرتقال، وأخيراً نظرت إليه وكأنها تود أن تعلن شيئاً، لكنها أجّلت كلامها، وقالت بمرح مصطنع:

- الآن أنت هنا. لا أحد غيرنا. وربما يمكننا القول: معنا شخصيات هذه اللوحات، أي معنا التاريخ والأسطورة. سنشرب العصير أولاً، ثم نعدّ عشاءً خفيفاً لكنينا، بعدها ربما نشرب القهوة أو الشاي، حسبما نشاء، وسأصغي إليك وأنت تروي قصتك. هل أنت موافق؟

- موافق طبعًا. أنا شربت عصيري.
- وها أنا قد أنهيت عصيري.
- قالت ذلك وشربت ما كان في كأسها، ثم التفتت إليه وعلى وجهها ابتسامة صادقة:
- والآن يمكننا أن نذهب إلى المطبخ.

قامت متجهة إلى المطبخ وهو يتبعها، لكن عينيه لم تكفّ عن التحديق إلى ساقها واهتزاز مؤخرتها المتناسقة جدًا. وخلال هذه الأمتار القليلة كان يعيد حساباته، هل عليه أن يبدأ معها حينما يكونا في المطبخ، بحيث يبدأ بمسها واحتضانها، أم يترك الأمر إلى ما ستمخض عنه هذه الليلة.

حينما دخلا المطبخ انتبه هو إلى الساعة الحائطية التي كانت تشير إلى السابعة والرّبع مساءً. إذن عليه أن لا يستعجل في الأمر، فلربما إذا ما تأخر الوقت ستطلب منه المبيت عندها، فكّر مع نفسه.

فتحت هي الثلاجة وأخرجت ما فيها من عصائر وزبد وبعض الفواكه وقطع من السجق. أدرك هو أن العشاء سيكون بسيطًا، وخفيًا كما هي عادة الألمان، أو على الأقل لامرأة رشيقة القوام مثلها. جلس هو على كرسي حول طاولة الطعام، بينما هي فتحت دولابًا صغيرًا وأخرجت منه قدرًا وضعت قطع السجق فيه ووضعت على الطباخ بعد أن أشعلته. أخذت ترتب المائدة، فأخرجت الملاعق والسكاكين والشوكات. كان هو يتأملها، لكنه أراد أن يكون قريبًا منها أكثر فسألها:

- هل كنت تسكنين هنا حينما كنت متزوجة؟
- نعم.
- في نفس هذا البيت؟
- نعم. لكن تم إعادة بناء البيت من جديد، فقد كان البناء قديمًا حينها.
- كيف. ما معنى ذلك؟ كيف تم إعادة بناء البيت، وأنتم أين ذهبتُم؟

- كنا نسكن عند أُمِّي إلى أن تم الانتهاء من البناء، فرجعنا للسكن هنا من جديد.
- طيب. أَلَمْ تقولي بأنكِ ستستمعين إليّ بعد العشاء؟
- ابتسمت له قائلة:
- إنكِ لا تنسى. هذا جيد وسيئ في نفس الوقت!
- كيف؟
- النسيان نعمة، لأن عدم النسيان يكون بمثابة الجحيم أحياناً.
- هذا صحيح.
- كان آدم التائه يفكر كيف يبدأ الحديث معها عن خصوصياتها، والدخول إلى المناطق الحميمة في النفس، فسألها:
- لدي سؤال، أرجو ألا يضايقك إذا ما سألته؟
- لا أبداً. تفضل. بالرغم من أنني أكاد أخمن سؤالك.
- غير معقول. ماذا خمنت أن أسأل؟
- أَلَمْ تود أن تسأل إن كنت قد أقمت علاقات مع الرجال بعد أن صرت وحيدة؟
- بهت آدم التائه من فطنتها. أحس بأن هناك شيئاً غير طبيعي عندها، لكنه أراد ألا يتراجع، بل على العكس أن يتوغل أكثر، فقال:
- نعم. بالضبط، هذا ما أردت أن أسأله.
- هل تصدق إن قلت لك لا. لم أقم أي علاقة مع أي رجل.
- أليس هذا صعباً عليك؟
- نظرت إليه وهي تلتقط قطع السجق وتضعها في صحنه وصحنها، وقالت بطريقة غامضة:
- ماذا تعتقد أنت؟
- أعتقد أنه صعب على الإنسان، رجلاً كان أو امرأة، أن يكون وحيداً.

- ها أنت قد قلت بنفسك: أن يكون وحيداً، وأنا لم أكن وحيدة قط، كنتُ مشغولة بالآخرين، وهذا ما شغلني عن الرجال. ألا تصدقني؟
- تردد آدم التائه في الإجابة، لكن كان مضطراً للإجابة:
- أصدقك. لكنني أعتقد أنك كنتِ تهربين من الرجال بإشغال نفسك بالآخرين، وهذا لا يعني بأنك لم تكوني تريدين ذلك!
- ربما، وربما كان نوع من تربية الذات ...
- وقمع الحواس والرغبات؟
- لنقل ذلك. بالرغم من أنني لا أميل لكلمة قمع، لأن كل ذلك كان برغبتني، فلو كنت مقتنعة بأن تكون لدي علاقات لكنت فعلت ما فعلت، لكنني لم أشأ أن أكون كذلك. وبالتالي فانشغالي كان يأخذ الكثير من وقتي، وحينما أكون وحدي أكون قد هلكت من التعب، فلا أجد الوقت الكافي للتفكير في. في.
- في الجسد، والرجال.
- نعم.

كان آدم التائه يشعر وكأنه يعيش أحداث رواية لم تُكتب بعد، وأنه الآن يعيش أحداث أحد فصولها الشيقة، وأن الرجل هنا ليس هو فحسب، وإنما رجل افتراضي، وهنا عليه هو أن يقود الأحداث. ففكر للحظة: «ماذا كان هنري ميلر سيفعل مع امرأة مثل هذه؟ من المؤكد كان سيقوم بكل بساطة عن مكانه، يقترب منها، يمسك بها، يمددها على الطاولة، وإذا ما اعترضت فإنه سيسيطر عليها بقوته، وبالتالي يفتح فخذيها ويفتح بنطاله ويسحب عضوه، ويحاول أن يولجه فيها، وإذا ما أعاقه سروالها فيمكنه تمزيقه! لو كان هنري ميلر لشقها شقاً، ومثل هذه المرأة الملاك ستتحول إلى إحدى ملائكة الجحيم. لكن ذاك هو هنري ميلر، أما أنا فأجلس الآن هنا ساكناً، وعليّ السفر بعد أيام، إذًا، عليّ أن أقود أحداث هذه الليلة! عليّ بالصبر قليلاً والمبادرة»، ووجد نفسه يقول لها وفي صوته شيء من المشاكسة:

- أتريدين القول بأنك لا تريدان أن تكوني مع رجل؟
- نظرت إليه وكأنها تريد أن تعرف كيف ستجيبه، فقالت:
- لم أقل هذا.
- فقال بنبرة المنتصر:
- يعني أنك كنت تهرين من نفسك بالاحتماء وراء الانشغال بالآخرين.
- ربما.
- وربما هذا يعني أنك حينما تتاح لك الفرصة، أي حينما لا تكوني مشغلة بالآخرين فإنك تفكرين بجسدك!
- لو كنت. وليس كما أنا عليه الآن فربما.
- كانت إيفا بيرغمان تحس وكأنها قد علقت في كمامة محكمة، لا سيما وهي لم تتعود أن تكذب أو توارى مشاعرها وأفكارها. وهي الآن تقترب من منطقة حساسة، كانت فعلاً تتجنب التفكير فيها، ولكي تجد مخرجاً من هذا الوضع، قالت له:
- علينا أن نتعشى الآن. بعد ذلك سنتحدث. ما رأيك؟
- نظر هو إليها للحظات وعلى وجهه ابتسامة ذات مغزى. نظرت هي إليه أيضاً، لكن نظراته كانت من الوضوح المليء بالرغبة بحيث أنها خفضت بصرها، فقال وهو يبتسم:
- اتفقنا. سنواصل الحديث بعد العشاء.

لم يستمر العشاء طويلاً، إذ سرعان ما انتقلا إلى الصالة ثانية، وجلسا في تلك الزاوية على الصوفا الجلدية البيضاء. كان هو يريد أن يبدأ من حيث ما انتهيا في حديثهما في المطبخ، إلا أنها كانت تريد أن تسمع منه قصته مع زوجته، وحينما حاول أن يعيدها إلى ما كان من حديث في المطبخ رفضت

قائلة، إنها لا تود الحديث عن هذا الأمر ما لم تسمع منه ما جاء من أجله أصلاً، فما كان منه إلا أن يسرد لها الحكاية من أولها، إلى رؤيته لها في غرفة العناية المركزة. نظرت هي إليه نظرات غامضة وقالت له بما يشبه الاعتراف:

- أعتقد أنني أعرف زوجتك.

- تعرفينها؟!

- نعم أعرفها. ألم تقدم على الانتحار؟

- ماذا؟!

صُدّ آدم التائه حين سمع ذلك، بل نسي كل مخططاته لإغوائها، وقال بتعجب:

- من أين تعرفينها؟ متى رأيتهما؟

- أعتقد أنا كنت في زيارة للمستشفى، ورأيت امرأة أجنبية، كانت قد قطعت وريدها، وكانت في حالة نفسية منهارة، وكانت تسأل دائماً عن غرفة العناية المركزة في المستشفى. وكان الأطباء واستعلامات المستشفى يؤكدون لها بأنه لا يوجد أي قسم للعناية المركزة في المستشفى. والغريب كانت هي تبحث عن زوجها، وتقول إنه في المستشفى، لكنه لم يكن هناك، ربما كان في مستشفى آخر.

- لكنني رأيتهما في المستشفى التي رقدتُ فيها؟

- هي أيضًا كانت تقول بأنها رأت زوجها راقداً في إحدى غرف العناية المركزة، لكن الكل كان يؤكد لها بأن لا غرف للعناية المركزة في ذلك المستشفى، وهذا صحيح، فالمستشفى التي قابلتها فيه ليست فيها غرف للعناية المركزة!

- غريب!

- ما هو الغريب؟

- كيف كنتُ أنا في مستشفاهما، وكانت هي في مستشفائي؟

- ألم تسمع بتخاطب الأرواح؟
- تخاطب الأرواح؟ أقول لك أنا رأيته في غرفتي، وكانت تبكي، وأخذت كفي ووضعت وجهها عليها بحيث أحسست بدموعها تبلل كفي، كانت تقبل كفي وكأنها تريد غفراناً لما اقترفته بحقي، وأتذكر أنني مسدت بكفي على رأسها. أي لم يكن تخاطب أرواح، بل كان اللقاء حقيقياً. رأيته مثلما أراك الآن.
- هي أيضاً كانت تؤكد بأنها رأت زوجها في غرفة العناية المركزية، لكن لا غرف للعناية المركزية هناك!
- لكن مَنْ يؤكد لك بأن التي قابلتها هي زوجتي حواء المؤمن؟
- لا أدري بالضبط، لا أحد يؤكد ذلك.
- أحس آدم التائه وكأنه دخل في متاهة غامضة شبيهة بأفلام الغوامض الروحية والأشباح. نظر إلى إيفا بيرغمان بتأمل وكأنه يريد أن يتوغل في أعماق عينيها وصولاً إلى أسرارها العميقة، وقال لها وكأنه قد اقترب من حل اللغز:
- ولكنني كنت ظهر هذا اليوم في البيت ولم أجدها، بل على العكس انتبهت إلى أنها قد أخذت بعض ملابسها وغادرت الشقة!
- هذا لا يعني شيئاً.
- نظر آدم التائه إليها باستغراب، وقال:
- كيف لا يعني شيئاً؟ لو كانت في المستشفى فمن أخذ ملابسها؟ ولو كانت قد خرجت فمتى استطاعت أن تأتي إلى البيت وتأخذ ملابسها وهي في تلك الحالة؟ لا. هذا غير ممكن. ربما أنت قد التقيت بامرأة أخرى.
- نظرت هي إليه بتركيز وكأنها تريد أن تعرف بم يفكر، وقالت:
- لكنك تقول إنك رأيته عندك في المستشفى؟
- نعم. هذا ما لا أشك فيه أبداً. مهما حاولت الممرضة والاستعلامات أن ينكرا وجود امرأة باسم حواء المؤمن في المستشفى التي رقدت فيها. لا أعرف. أنا في حالة تخبط، فقد التبس الأمر عليّ بالكامل الآن.

- لا أعتقد أن هناك مشكلة. يمكنك التأكد من ذلك حينما تراها وتسألها عن محاولة الانتحار، وعن تواجدها في المستشفى الذي كنت أنت فيه. لكنني أرى أنك ما زلت تحبها، أراك قلقاً عليها!

- ليس للحب دور هنا يا مدام إيفا، المسألة وما فيها أنها هنا غريبة مثلي، لا تعرف أي لغة أخرى، لغتها الألمانية أسوأ من لغتي بكثير، بحيث إنها تعتمد عليّ في الكثير من الأمور، لكنها، خانتني مع جاري. أنا أكاد أجن، فهذه المرأة التي كانت تقرأ القرآن وتؤدي الفروض، أجدها في وضع جنسي فاضح. ولكنني حينما رأيتهما في المستشفى كانت تبكي ندمًا. فغفرتُ لها، والآن حينما سمعتُ منك بأنها قد حاولت الانتحار، بالرغم من أنني أشك في ذلك، فأني بدأت أشعر بالقلق، فهي برغم كل شيء امرأة طيبة، وهي غريبة، وأنت لا تعرفين معنى الغربة لأن هذا البلد هو بلدك، لكنني أعرف معناها، لا سيما حينما أفكر بها كامرأة لا تعرف اللغة الألمانية، ولم تكن تقود حياتها بنفسها في يوم من الأيام، إذ كان هناك دائمًا من يقودها في هذه الحياة.

- أنت إنسان طيب جدًا.

- شكرًا لك. أنت أيضًا إنسانة في منتهى الطيبة.

- شكرًا لك. أنا لم أعمل شيئًا خاصًا، هذا جزء من واجبي.

- كان آدم التائه قد استعاد شيئًا من استقراره النفسي، وكذلك انتبه إلى أنه كاد يضيع كل شيء، وخمن بأن الوضع ملائم لاتخاذ خطوة أكثر جرأة. فقال لها:

- أتدريين ما أتمنى في هذه اللحظة؟

- ماذا تتمنى؟

- أن أضع رأسي في حضنك وأغفو مثل طفل صغير، فأنا أحس بأني تعبان جدًا، وليس هناك من يحمل عني تعبي.

- ماذا تقصد؟

- أقصد بكل بساطة أن أتمدّد الآن وأن أضع رأسي في حبرك وأنا م؟

نظرت إليه بغرابة وتعجب، وكأنها لم تصدق ما سمعت، وقالت تسأله:

- هل هذا ما تريده وتتمناه حقًا؟

- نعم.

- ولا شيء آخر؟

- لا شيء. لا شيء. أنا تعبان يا إيفا.

- لو كان هذا الأمر يريحك، فتعال.

لم يكن يصدّق هو ما سمع، فقال لها:

- إذن تعالي إلى هذه الصوفا، فهي أوسع وأكبر، وأعرض.

نهضت من مكانها وجلست عند إحدى نهايتي الصوفا الكبيرة، وبدون أي حجل، وكأنه يعرفها منذ زمن بعيد أو كأنها حبيبته، وضع رأسه في حجرها. كانت هي محرّجة في بداية الأمر، وهو بدوره لم يفعل شيئًا يثير أي شبهة لديها. فقد أغمض عينيه وكأنه يريد أن ينام، لكنه في الوقت نفسه كان يفكر بالخطوة التالية التي عليه أن يخطوها من أجل أن يثيرها. مشكلته كانت طبيعتها الكبيرة وبراءتها، وثقتها به، وإلا ما معنى أن تسمح له بأن يضع رأسه في حجرها بحيث كان يسمع سريان الدماء في عروقها، بل كان يتخيل ساقها وما بينهما؟ لكن، وبدون أن يحس كيف؟ ومتى؟ غرق في لجة نوم عميق.

الغرفة مظلمة. حواء المؤمن لم تنم بعد برغم محاولاتها. أخذت تعد إلى المئة ثم تعيد الحساب من جديد، عسى أن يأتيها النوم، لكن بدون جدوى. نظرت إلى السقف بتركيز شديد، فأخذت تتراءى لها أشياء غامضة، أشبه بتيارات ودوائر سوداء تدور وتتداخل ثم تختفي. وأخيرًا لا تعرف كيف أحست بثقل أجفانها، وأن النوم بدأ يتسرب إلى عينيها.

لم تكن تعرف كم استمر ذلك من الوقت، إذ فوّت على كف تتحسس جسدها. عرفت أنه آدم اللبناي، وقد جاء سكرانًا، أحست أنه بدأ يمد يده بين

فخذيها مداعبًا إياها، ثم مد إصبعه داخلها. وأخيرًا سحب سروالها عنها. لم تشأ أن تبدي أي حركة تدل على يقظتها. ولأول مرة انتهت إلى أنها غير راغبة فيه، وأنه لا يثيرها أبدًا، بل أحست بالألم حينما أولج إصبعه فيها. وبدون أي مراعاة لوضعها، رفع ثوبها وفتح فخذيها ودخل بينهما. لا تعرف هي كيف أنها صارت رطبة، بالرغم من أنها فاقدة الرغبة فيه، وحينما دخل فيها وصار وجهه قريبًا منها، أحست بنفسه الكريه، أحست ببخر فمه الممزوج برائحة العرق والثوم. كان هو يلهث وهو يدخل فيها، وكانت تحاول أن تتحمل بأقصى ما يمكنها عسى أن ينتهي، لكنه كان سكرانًا، فطال الأمر عنده.

كانت هي تتعذب ولم يكن أمامها إلا أن تدفعه عنها، وتركض في الظلمة متجهةً إلى الحمام، لتتقيًا هناك آلامها ومخاوفها وشقاءها. ظلت هناك، متدلية الرأس في حوض التواليت، جالسة على الأرض. وحينما شعرت بالراحة نوعًا ما، حملت نفسها ورجعت إلى غرفتها، وكم كانت راحتها كبيرة حينما سمعت شخيره عاليًا، فتمددت على الفراش بعد أن سحبت البطانية منه، وشدت نفسها بها. شعرت بالراحة، نظرت إلى السقف المظلم فأحست وكأن السقف ينشق عن وادي الظلمات.

فجأة، فتح آدم النائم عينيه. كانت الظلمة شديدة. انتظر لبضع ثوان حتى تمكن من تمييز الأشياء في الظلمة. أدرك أنه نائم على الصوفا الجلدية العريضة البيضاء، وعلى جسده شرشف دافئ لكنه ليس ثقيلاً. انتبه إلى أن قدميه طليقتان خارج حذائه. إذن، فقد غطى في نوم عميق، لكن أين هي؟ ألم يضع رأسه في حجرها؟ كيف نام؟ وكيف لم يحس بذهابها؟ نظر حوله. كان المطبخ مظلمًا، والباحة أيضًا، باستثناء بصيص نور بضوء حافة باب غرفتها المقابلة للمطبخ.

نهض بتمهل وحذر شديد بآلا يحدث صوتًا. اقترب من المطبخ ونظر إلى الساعة الحائطية التي قرأ عقاربها الفسفورية برغم العتمة والتي كانت تشير إلى الرابعة والنصف فجرًا!

بخفة، وعلى رؤوس أصابع قدميه، تسلل إلى الباحة، مقترباً من غرفة نومها. تناهى إلى سمعه همس لم يستطع أن يميزه، همس أشبه بتلاوة الإنجيل في كنيسة. مدّ كفه المرتعشة لكي يفتح الباب، لكنه فجأة سحب كفه. قرفص جالساً، ووضع عينه على ثقب مفتاح الباب، فذهل إذ رأى الراهبة الشابة تجلس على السرير ويدها الكتاب المقدس وهي تقرأ فيه بهمس.

أحس برعب يهز كيانه، هل إيفا بيرغمان هي الراهبة نفسها؟ كيف؟ هل عليه أن يهرب الآن من هذا المنزل؟ لا. "عليّ أن أخوض التجربة إلى آخرها" قال لنفسه. قرّر أن يفتح الباب عليها مهما كانت النتائج. نهض واقفاً، ومد يده بتمهل شديد على مقبض الباب، بينما كان قلبه يخفق بشدة.

دفع الباب ببطء شديد. فجأة، أحس بنورٍ ساطعٍ شديد أفقده القدرة على أن يرى شيئاً. دام هذا الأمر لثانية ربما، واختفى كل شيء! وحينما تمكن من الإبصار، وجد أن إيفا بيرغمان في سريرها!

نهضت هي متفاجئة من دخوله عليها. قفزت خارج السرير واقفة. كانت الغرفة مضاعة. وكانت هي في ثوب نوم أبيض شفاف جداً بحيث كانت أشبه بالعارية. لم تكن ترتدي أي شيء يغطي عريها تحت هذا الثوب الأبيض الشفاف جداً. دُهِل هو. نسي ما رأى قبل لحظات، نسي الراهبة والضوء الساطع. كانت الرغبة قد هيمنت على تفكيره، ذهل لجمال جسدها، انتبه إلى أنها شقراء، لكن الثوب الأبيض الشفاف يكشف عن شعر عانتها الأسود الداكن، اقترب منها ببطء، كانت هي تتم بكلمات لم يسمعها. لكن سمع جملة واحدة منها:

- أيّها الشقي.

كان قد صار أمامها بالضبط. ركع أمامها. احتضن ساقها وجذعها الأسفل. أخذ يقبل ساقها وفخذها وما بينهما. كانت هي ترتعش من الرغبة. سمع تصاعد أنينها الشبق. فجأة مد يده إلى ما تحت الثوب الأبيض الشفاف ليلامس عريها مباشرة. أخذ يدفعها إلى الوراء، ملقياً بها على السرير. رفع

الثوب إلى الأعلى فانكشفت أمامه عارية بالكامل. وبحركة عنيفة فتح فخذيه فانكشفت أمامه وردتها المضيئة في وسط عشب أسود. فجأة، وفي تلك اللحظة بالذات أحس بالضوء الباهر، الساطع، يغمره، ويغمر المكان كله. ولم يعد يرى أي شيء.

لم يعرف كم استمر انهمار الضوء الساطع، لكنه أفاق على نفسه، فرأى نفسه ممتدداً على الصوفا الجلدية في الصالة المضاءة بشقته هو. وكان العرق قد بلله. كانت ياقة قميصه وشعره مبتلين بالعرق، وجبينه متعرقاً أيضاً! نهض على مهل. رأى على طاولة مكتبه جواز سفره والبطاقات في داخلها. وتأشيرة الدخول المحدودة موجودة أيضاً. كانت الساعة الحائطية تشير إلى التاسعة صباحاً. وكانت المفكرة التي على الحائط تشير إلى تاريخ اليوم!

كان مذهولاً. لم يصدق كل ما جرى، شكك بوجود البطاقة والسفر. عليه أن يتأكد من كل شيء. أخذ بطاقات السفر ونظر إلى تاريخ السفر، فوجده يصادف نفس تاريخ اليوم. وهذا يعني أن عليه السفر اليوم؟ ومن مطار مدينة دوسلدورف؟ عصرًا! كيف جرى كل هذا؟ ومتى؟ وكيف جاء إلى هنا؟ ومتى حصل على التأشيرة؟ وكم مضى عليه وهو نائم؟ ألم يكن هناك مع إيفا بيرغمان؟ ما الذي يجري له؟! عليه أن يغادر هذه الشقة. وهذه المدينة. وهذه البلاد!

لم يكن على آدم التائه أن يأخذ الكثير من الأمتعة سوى شهاداته الأكاديمية، ورسالة الدعوة، وجواز السفر، وبعض قطع الملابس الضرورية، وأدوات الحلاقة، ومعطفه، ونسخة من روايته الأولى، وومخطوطته التي كان قد انتهى منها "متاهة آدم المرأة المجهولة". كان كل شيء جاهزاً، إذن عليه أن يمر على إيفا بيرغمان في المكتب السياحي ليعرف منها كل شيء.

كان هو يمشي، حاملاً الحقيبة الصغيرة التي يمكنه إدخالها معه في الطائرة. كان شارد الفكر، يحاول استرجاع كل ما جرى له منذ لحظة دخوله إلى غرفتها، لم يستطع أن يتذكر أي شيء، وكأن ذاكرته صفحة بيضاء.

حينما وصل إلى مركز المدينة توجه مباشرة إلى حيث المكتب السياحي، لكنه، وقبل أن يصل المكان رأى المرأة الألمانية العجوز تنظر إليه وعلى وجهها ابتسامة غامضة. لم يفهم هو أصلاً معنى وجودها الدائم كلما توجه إلى المكتب، ولم يفهم سر هذه الابتسامة الغامضة!

حينما وصل إلى مكان المكتب السياحي لم يجده. كانت الدكاكين والمخازن تتراصف، والمكان الذي كان مكتباً سياحياً، هو الآن مكان لبيع الخبز والفطائر المحلاة. تراجع قليلاً ليتأكد من العنوان. نعم، إنه في المكان الصحيح، فإلى جوار المكتب كان ثمة محل لبيع الزهور، وهو هنا، وإلى الجانب الآخر محل لبيع المصابيح والثريات المنزلية، وهو ما يزال موجوداً، وبينهما كان المكتب السياحي، لكن الآن يوجد محل لبيع المعجنات والخبز!

مدّ يده إلى جيبه الداخلي ليتأكد من وجود الجواز والبطاقات، فوجدها في مكانها. هل هو مجنون؟ التفت حوله، فرأى المرأة الألمانية العجوز واقفة وهي تنظر نحوه، والابتسامة الغامضة ما زالت على وجهها! أراد أن يتوجه إليها، لكن المرأة استدارت فجأة ومضت في الطريق الآخر. ماذا يجري له؟ هل هي الشيزوفرينيا؟ لا. وإلا ما معنى وجود بطاقات السفر، وتأشيرة السفارة؟

نظر إلى ساعته، فوجد أنها قد تجاوزت العاشرة صباحاً، إذن لديه بعض الوقت، قبل أن يتوجه إلى محطة القطار التي ستقله إلى إيسن، ومنها سيحول قطاره لكي يصل إلى دوسلدورف. توجه إلى حيث سيارات التاكسي. اقترب من إحدى السيارات، وقال للسائق:

- أريد الذهاب إلى شارع المقبرة.

استغرب السائق وأجابه:

- شارع المقبرة؟

- نعم. شارع المقبرة.
- لا يوجد شارع بهذا الاسم في مدينتنا؟
- كيف لا يوجد شارع بهذا الاسم؟ مساء أمس كنتُ هناك.
- أأنت متأكد من ذلك؟
- نعم. وإلا كيف أسألك الذهاب إلى هناك؟
- طيب. ربما أنت تقصد مكانًا آخر. قل لي في أي جانب من المدينة يقع، هل هناك شيء آخر معروف يدل عليه؟
- لا أدري، لكن أذكر كانت هناك غابة.
- فقال السائق وكأنه عرف المكان:
- هل تقصد المقبرة؟
- بهت آدم التائه وسأله:
- ماذا تقصد؟ نعم. كانت هناك مقبرة، وهناك مجمع صغير حديث البناء، والشارع الذي يقع فيه المجمع يسمى (شارع المقبرة فريدهوف شتراسه).
- ليس هناك سوى المقبرة، ويمكنني أن آخذك إلى هناك.
- فكر آدم التائه لشوانٍ وقال:
- حسنًا لنذهب.

صعد آدم التائه إلى جنب السائق، وتحركت السيارة. كان السائق يعرف أن هناك مقبرة لكن ليس هناك أي مجمع سكني. وما إن دخلت السيارة حدود المنطقة حتى تعرف آدم التائه على بعض ملامح المكان، فتأكد أنه يتجه إلى المكان الصحيح، وحينما وصل إلى المكان لم يكن هناك أي مجمع سكني. كان المكان هو نفسه الذي كان فيه مساء أمس، كما يفترض أن يكون، لكن في المكان الذي يجب أن يكون المجمع السكني فيه كانت هناك مقبرة، قبور تغطي المكان. حاول آدم التائه أن يتخيل المكان، وفي المكان الذي يفترض

أن يكون مدخلًا إلى شقة إيفا بيرغمان، كان هناك قبر عليه صورة، نزل آدم التائه من السيارة وطلب من السائق أن ينتظره لحظة.

تقدم بخطى قلقة نحو القبر. كان كالمأخوذ بسحرٍ غامض. حينما صار قرب القبر قرأ على شاهدته:

إيفا بيرغمان

١٩٠٥ - ١٩٤٤

اقترب آدم التائه من الصورة محدقًا فيها فذهل حينما رأى وجه إيفا بيرغمان التي كانت معه ليلة أمس. ولدهشته تراءى له بأن الوجه الذي في الصورة قد ابتسم له بحنان، ارتعب، قفز إلى الوراء من الخوف وأخذ يهرول نحو السيارة. دهش سائق السيارة لحالة الخوف التي رجع فيها آدم التائه. سأله:

- هل هناك شيء ما قد حصل؟
- لا. خذني إلى محطة القطار رجاءً.
- مثلما تشاء. لكن هل اقتنعت بأنه ليس هناك مجمع سكني في المنطقة؟
- ربما التبس عليّ الأمر.
- هذه مقبرة قديمة تعود لضحايا الحرب، وعادة تهدم المقابر بعد خمسين عامًا، وربما ستهدم هذه المنطقة أيضًا. وقد سمعت بأنهم يريدون بناء مجمع سكني هنا.

لم يجب آدم التائه بأي شيء ولم يود مواصلة الحديث. كان شاردًا في أعماقه. وكان السائق ينظر إليه من خلال المرأة، مستغربًا من تصرفاته. كان آدم التائه يحس بأن عليه مغادرة هذه المدينة فورًا، فطلب من السائق أن يغير اتجاهه ويذهب إلى محطة القطار في مدينة «إيسن» مباشرةً بحيث يستقل القطار الذاهب إلى دوسلدورف من هناك. نظر السائق إليه، وقال مستفسرًا:

- هل تريد أن أفلك إلى المحطة الرئيسية في مدينة «إيسن»؟

- نعم.
- لكن هذا سيكلفك كثيرًا.
- لا ضير.
- كما تشاء، أنا أردت أن أنبهك لذلك.

حينما وصلت سيارة التاكسي إلى محطة القطار الرئيسية واصطفت السيارة كي ينزل منها آدم التائه، تأخر هو في النزول. وفي تلك اللحظة التي فتح فيها الباب لينزل رفع رأسه، أصيب بالدهشة، فقد لمح زوجته حواء المؤمن وآدم اللبباني ورجلاً آخر يصعدون إلى سيارة تاكسي أخرى، انطلقت بهم بسرعة.

كان آدم التائه واقفاً كالصنم على الرصيف في محطة وقوف سيارات التاكسي عند محطة القطارات الكبرى. تداعت الأحداث الغريبة في ذهنه بسرعة. فكر مع نفسه بأن رؤيته لحواء المؤمن في هذه اللحظة بالذات له دلالة كبيرة، فربما هي ليست هي!

مد يده إلى جيبه ليتأكد من وجود جواز السفر والبطاقات، وكذلك من الورقة التي فيها معلومات السفر. وفجأة برقت في ذهنه مسألة لم يتبته لها سابقاً، فقد أدرك بأنه لم يدفع أي شيء ثمنًا لبطاقات السفر! أخرج بطاقة معلومات السفر التي طبعتها له إيفا بيرغمان، وقرأ المعلومات الموجودة، وقرأ اسم وتوقيع الموظفة التي باعت له البطاقة: إيفا بيرغمان؟ فتش عن عنوان المكتب السياحي الذي باع له البطاقة، فقرأ: فريدهوف شتراسه ٢ (شارع المقبرة ٢).

أحس أنه في عالم لا منطق فيه. دخل المحطة متجهًا إلى قسم بيع التذاكر، ليشتري بطاقة الذهاب إلى مطار دوسلدورف، سأل الموظف إن كان يريد السفر، فقدم له آدم التائه بطاقة سفره، تمنع الموظف فيها وردها إليه قائلاً بأنه لا يحتاج لشراء بطاقة للوصول إلى المطار في دوسلدورف، فبطاقة الطيران

تتضمن الوصول إلى هناك. صعد إلى الرصيف المخصص له، حسبما أخبره الموظف. كان الرصيف لحظتها فارغاً من أي مسافر غيره. تعجب، على الأرصفة الأخرى كان يرى المسافرين ينتظرون قطاراتهم. لكن على رصيفه لا أحد غيره. وفي الوقت المحدد جاء قطاره وكأنه انبثق من العدم. فُتحت الأبواب، لم ينزل أحد من القطار، بل ولم ينزل أي من الجبابرة أو موظفي القطار.

حينما صعد آدم التائه القطار استغرب بأنه كان فارغاً. قال لنفسه ربما هذه العربة هي فارغة، فلأَمْضِ إلى عربة أخرى. فتح الباب الذي بين العربات ودخل عربة أخرى كانت فارغة أيضاً. غادرها إلى عربة فارغة أيضاً. لا أحد في هذا القطار. أصر على أن يكتشف السر، فدخل إلى كل العربات التي كانت جميعها فارغة، حتى وصل إلى عربة السائق، فأطل من زجاجها ليرى بأن القطار كان يمضي بدون سائق أيضاً. ظل يحدّق بعربة القيادة الفارغة، حتى رأى أن القطار بدأ يمضي سريعاً، وما هو يقترب من نفق مظلم. دخل القطار إلى النفق المظلم. وغرق كل شيء في وادي الظلمات.

آدم البغدادي: كيف يمكن أن يحدث ذلك في الواقع؟ هل ما جرى بين إيفا بيرغمان وآدم التائه حقيقة أم هي شطحة من شطحاتي؟ أنا أعتقد أن مثل هذه الأشياء يمكن أن تحصل في الحياة؟ لكن لماذا لم أدعه يضاجعها؟ لأنها روح. والأرواح ليست لها علاقة بالجسد؟ لكنها كانت متجسدة في جسد امرأة تشرب وتأكّل، أكان كل ذلك وهماً؟ كيف يمكن لامرأة قُتلت في الأربعينات من القرن العشرين بينما تعيش وتتجول في نهاية التسعينات منه؟ من يصدق ذلك؟ ربما الذين يؤمنون بالأرواح وبقوة الخير والإيمان مثلي! لكن هل أنا كذلك حقاً؟

لم يعلق آدم المحروم على ملاحظة صديقه آدم البغدادي، لأنه كان منبهراً ويريد ملاحقة الأحداث.

نبض الخطيئة

حينما رأى آدم التائه زوجته حواء المؤمن مع آدم اللبناني والرجل الغريب في محطة التاكسي بمدينة أيسن، كانت هي تتوجه إلى دائرة الأحوال المدنية في البلدية لإتمام عقد زواجها من آدم اللبناني. صحيح أنها كانت تُعد زوجة لآدم التائه حينما قدما إلى ألمانيا وقدما طلب اللجوء السياسي، لكنهما قانونًا يعدان غير متزوجين، فالقانون الألماني يعتمد على التسجيل المدني للزواج، ولو كانا حينها قد قدما عقد زواجهما المدني الذي تم في العراق لكانا يعدان، وفق القانون الألماني، متزوجين، ويؤخذ هذا العقد بنظر الاعتبار، لا سيما حينما يتم تصديقه من قبل سفارة بلادهما، لكن هذا لم يحدث، لذا كل هذا الإهمال قد سهّل من عملية زواجها من آدم اللبناني، بالرغم من عدم شرعيته دينيًا.

بعد الانتهاء من ذلك. أخذ آدم اللبناني ورقة تؤيد زواجه من حواء المؤمن وذهب معها إلى دائرة الأجانب في مدينته، فأخبروه بأنهم سيمنحونه إقامة اعتمادًا على إقامة زوجته، لكنهم حددوها له بستتين، كمرحلة أولى. وقد اندهش الموظفون في دائرة الأجانب من ذلك، لأنهم يعرفون أنها تُعد زوجة آدم التائه، بالرغم من أن لقب العائلة مختلف بينهما، وفق القانون تُعد علاقتهما صداقة وليست زواجًا رسميًا لا سيما لعدم وجود أطفال مشتركين بينهما.

كانت الأمور تجري بطريقة سهلة أمام آدم اللبناني. فقد أخذ يخطط مباشرة للسفر لمدة شهر إلى لبنان. ماذا يفعل هناك؟ هذا ما لم يكشفه لزوجته حواء المؤمن أصلاً، بل إنها لم تسمع بذلك إلا من زوجة العم، التي كشفت عن ذلك بزلة لسان.

انتقلت حواء المؤمن للعيش في شقتها التي استأجرتها باسمها. وحصل آدم اللبناني على جواز السفر الرصاصي، الذي يمنح للمقيمين بشكل رسمي في ألمانيا، وانتقل للعيش معها في مدينة إيسن، إلا أن الحياة الجديدة التي بدأت حواء المؤمن تعيشها في هذه المدينة الجديدة كانت مملة، وفارغة، وتافهة، وكانت تشعر بأن روحها بدأت تتقيح، على الرغم من أن هذه المدينة أكبر من مدينتها الأولى بمرات.

استغربت من نفسها كثيرًا، فقد صارت لا تحب ممارسة الجنس مع زوجها، بل منذ تلك الليلة التي جاء فيها مخمورًا ليضاجعها، صارت تحسّ بالنفور منه، لكنه لم يكن يعرف ما يجول في أعماقها، لذا كان يريد أن يفرض سيطرته عليها بمضاجعتها، فكان يأتيها في أوقات وأماكن مختلفة؛ في المطبخ بينما هي منهمكة بإعداد الطعام كان يأتيها من الخلف، يحننها بشيء من القوة على طاولة المطبخ ويولجه فيها، وأحيانًا كان يدخل عليها حينما تستحم في غرفة الحمام، فكان يتعرى بالكامل ويدخل عليها وهي عارية تحت الماء، ويمارس معها تحت الدش، وأحيانًا كان يأتيها في الليل وهي نائمة، فيقلبها ويولجه فيها، وحتى حينما كانت تبدأ بالتهيج، فإنها كانت تفكر بأي شيء آخر كي تبعد نفسها من التجاوب معه، وكان هو يستغرب حالتها الجديدة، وقد فكر في السبب، لكنه لم يجد تفسيرًا سوى أنها مزاجية بسبب الحمل الذي أثر على نفسيته.

كان الحمل قد أثر عليها فعلاً، إذ بدأت ملامح التغيير على جسدها، حيث بدأ صدرها يكبر، وبطنها تبرز شيئًا فشيئًا، وأخذت تميل للوصم أكثر، حتى صارت تمر أيام وليالٍ دون أن يتبادلا أي كلمة، وقد أثر ذلك على مزاج آدم اللبناني، فصار يغادر البيت صباحًا ولا يأتي إلا في أواخر الليل، وكثيرًا ما كان يأتي سكرانًا، فيقوم بمضاجعتها بأي طريقة تعجبه، ولا يهتم إن كانت صاحبة أم نائمة. وذات ليلة أجبرها على أن تأخذ عضوه بفمها،

فأبت ذلك، فجلس على صدرها، وضغط على فمها بكفه فاتحاً إياه، وأدخل قضيبه في فمها عنوة، وحينما تمكن من ذلك، أفرغ ماءه على وجهها، فدفعته بقوة تعجب أن تكون امرأة مثلها تمتلكها، وأسرعت هي إلى الحمام لتغسل وجهها وفمها، وتتقيأ هناك، كل قذارات أيامها.

ظل آدم اللبناني يفكر لأسابيع في هذا التحول الذي طرأ عليها. فقد كانت أول ما عرفها تشتعل من لمسة واحدة، بينما الآن يقضي وقتاً طويلاً معها، ويولجها فيها مرات ومرات وبمختلف الأوضاع، ولا تبدر منها أي حركة تجاوب، بل تكون كالجثة الحية. وبرغم ذلك لم يئأس منها. أخذ يقضي معظم ليلائه في بيت العم، وأحياناً كان ينام هناك. بل صار يغيب عنها أياماً، ولكن بالرغم من أنها صارت تحس بكره له، وتشمئز منه، إلا أن بعض مشاعر الغيرة بدأت تتسرب إلى نفسها. لقد كانت مغتازة من زوجة العم وبناتها، فقد كن يتهاMSN حولها. وحينما تتواجد يقطعن الحديث الذي يدور بينهما، لذا فهي لم تزرهم منذ استقلت في بيتها، وعندما جاءوا ذات مرة، قامت بما يلزم من واجبات الضيافة لكن ببرود فهموه بأنهم ضيوف غير مرغوب فيهم. بعدها انقطعت العلاقة بينهم بالكامل. ولكي تُبعد زوجها عنهم، فكّرت بأن تهجر هذه المدينة وتنتقل لمدينة أخرى بعيدة عنهم. فكّرت بأن عليها إقناع زوجها، وهذا يعني بأن تتساهل معه قليلاً. وذات ليلة انتظرت، أعدت عشاءً شهياً من الأرز والفاصوليا، ومن السلطات اللبنانية الشهية، وجلست تشاهد التلفزيون إلى أن وصل. لكن ما أثار استغرابها أنه لم يكن سكراناً تلك الليلة! حين فتح الباب ولمحها جالسة تشاهد التلفزيون أحس بأن شيئاً غير عادي قد جرى. أحس بالقلق، فدخل وسألها مستفسراً:

- هل حدث شيء ما؟

نظرت إليه نظرة لطيفة وقالت بهدوء:

- لا. لم يحدث أي شيء.

- غريب؟
- غريب لأنني ما أزال صاحبة؟ المهم. قل لي أولاً، هل أنت جائع؟
- ليس تمامًا، فقد أكلت لحم بعجين عند الشباب، ماذا هل طبخت أيضًا؟
- نعم. طبخت الأرز مع الفاصوليا التي تحبها. وأعددت تبولة، لكن على طريقتي وليس على الطريقة اللبنانية.
- غمرته موجة فرح مفاجئ، وخطرت بذهنه مباشرة أحلام ليلة شبة، فقال بحرارة:
- أوه. ما الذي جرى؟ هل أنا في حلم أم علم؟
- ابتسمت له وقالت بدلال:
- أنت في علم طبعًا. اجلس. سأتيك بالطعام، وبعدها أريد أن أناقش معك موضوعًا.
- يا ساتر يا رب. أي موضوع؟
- لتأكل أولاً.
- وأنتِ ألا تأكلين؟
- أنا لا أستطيع الأكل، نفسي تنقبض، وتأتيني حالة التقيؤ إذا أكلت، لكنني أكلت بعض السلطة.

قامت من مكانها وذهبت إلى المطبخ، بينما جلس هو على الأريكة التي تحتل الجانب الأكبر من الغرفة. لم تمض لحظات طويلة حينما دخلت حاملة صينية الطعام، ووضعتها على الطاولة الصغيرة، وجلست هي على كرسي آخر يبعد عنه قليلًا. كان هو يأكل بشهية، صامتًا، مُفكّرًا بما ستقوله، مقلّبًا الفكر عن الموضوع الذي يشغلها، والذي جعلها تنتظره إلى هذا الوقت وتعد له العشاء؛ لذا استعجل في الأكل ليسمع منها ما تود قوله.

رفعت حواء المؤمن الصينية، وكانت خلال فترة انشغاله بالأكل قد جهزت الشاي. تأخرت قليلاً في المطبخ. كان هو ينتظر بقلق. لم يكن ينتظر خيراً من أي موضوع ستفتحه، لأنها كانت تعامله بإهمالٍ شديد، ولا تكثر له، ولا تتجاوب معه، فماذا ينتظر منها؟

دخلت هي حاملة صينية صغيرة فيها إستانان من الشاي، وضعتهما أمامه، أخذت منهما إستانا لها. نظر إليها وفي عينيه استفسار وانتظار لما ستقوله، ولما طال صمتها سألها:

- قولي. ما الموضوع؟

صمتت لحظة. نظرت إليه بتفحص، وقالت:

- لماذا لا ننتقل إلى برلين؟

صمت للحظات، وكأنه صفع من حيث لا يدري. لقد كان يتوقع عتاباً عن سُكره المستمر، عن تأخره الدائم ومببته خارج البيت، عن المبالغ التي يستلمها كمساعدة اجتماعية وينفقها هو على ملذاته وحياته الشخصية، بحيث إنها تتحمل كل أعباء البيت من نفقات. لم يكن يتوقع أن تأتيه بمثل هذا الاقتراح. فكر لدقائق مع نفسه. كانت هي تنظر إليه وهو يفكر مع نفسه دون أن ينظر إليها، وأخيراً رفع رأسه إليها، وقال:

- اقترح جيد. برلين. برلين. لكن كيف توصلت إلى هذه الفكرة؟

- لا أدري كيف. لكنني فكرت بمستقبلنا. أنا حامل. وسنرزق بطفل، وهنا لا أمل للعمل. هناك في برلين نستطيع أن نكون أنفسنا. هناك مجالات أوسع للعمل الأسود والرسمي. وربما أستطيع أنا أن أعمل بعد فترة من الولادة. هنا، وما دمنا قرييين من المعارف فإننا سنظل ندور في فلكرهم ولا نستطيع أن نكون أنفسنا، ولا ننظر لبيت العم، فالعم مع بناته وزوجته يستلم مساعدات اجتماعية تعادل راتب موظف ألماني كبير، هذا إذا حسبنا السكن والتأمين الصحي، ومعونة الشتاء والصيف؛ بينما نحن بالكاد نكفي حالنا.

كان هو ينظر إليها متمعنًا في ملامحها، راصدًا كل تحولات ملامحها ونبرات صوتها، باحثًا عن شيء خفي تبطنه غير هذا الكلام المنطقي والصحيح الذي تعتمد عليه كحجة لتأكيد مقترحها، لكنه وجد أنها متحمسة ببراءة، وأنها ليست أكثر من أم تحاول أن تضمن مستقبلًا أفضل لطفلها، وأن تباعد عن كل ماضيها.

حينما صمتت نظر إليها مباشرة، التقت نظراتهما، لكنه لم يقل شيئًا، كانت تنتظر أن يقول شيئًا، ظل للحظات ينظر في أعماق عينيها، ثم قال بهدوء وكأنه يسألها:

- هذا الأمر يحتاج إلى تفكير. قبل كل شيء يجب أن نجد لنا سكنًا هناك. وهذا يعني علينا الاتصال بمعارفنا هناك. أنا أعرف الكثير من الأصدقاء هناك، وربما سيوفرون لنا السكن في البداية إلى أن نجد لنا مكانًا نستأجره. - عظيم.

كان هو مستأنسًا بفكرة الانتقال إلى برلين. كيف لم تخطر هذه الفكرة على باله منذ البداية. لقد كان يحلم أن يعيش في برلين. لقد سافر مرة إلى هناك، وعاش أجمل أيامه منذ دخوله إلى ألمانيا. الآن، وبعد حصوله على الإقامة، باستطاعته الانتقال للعيش في أي مدينة أو مقاطعة من ألمانيا.

كانت هي تنظر إليه وهو مستغرق في أحلام يقظته عن برلين. فكرت مع نفسها أن عليها أن تشد من عزيمته وألا تترك له مجالًا للتردد أو لمناقشة الفكرة مع عمه، لأنه بالتأكيد سيعترض على انتقاله إلى برلين. إذن عليها ألا تتركه وحده. قالت له:

- هل لديك أرقام تليفونات أصدقائك في برلين؟

فوجئ بسؤالها، فقال:

- نعم. لكن علي أن أفتش عنها. ربما هي في دفتر تليفوناتي.

قام من فوره ودخل غرفة النوم. وبعد لحظات عاد ويده دفتر صغير، وكان مبتهجاً، ففكرة انتقاله إلى برلين ولقائه بأصدقائه منحه البهجة. قال لها وكأنه يمسك أشياء ثمينة:

- كل أرقام تليفونات أصدقائي في برلين هنا.

- ألا تستطيع أن تتصل بهم الآن؟

نظر إلى الساعة الحائطية التي كانت تشير إلى الساعة الحادية عشرة ونصف ليلاً، وقال:

- الوقت متأخر الآن، لكن لأجرب الاتصال ببعضهم. هناك تليفون عند ركن البناية سأنزل حالاً.

حينما خرج من الشقة، أحسَّ حواء المؤمن بسلام غريب يغمر أعماقها القلقة. وللحظة أحسَّت بعاطفة نحو آدم اللبناني، وقررت مع نفسها أن تكون لطيفة معه الليلة في الفراش، ولهذا توجهت إلى غرفة النوم وفتحت الدولاب الخشبي الرخيص الذي تم شراؤه مع بقية الأثاث عندما انتقلت رسمياً إلى هذه المدينة، بل ووفرت شيئاً من المال الذي حصلت عليه من دائرة المساعدات الاجتماعية. أخرجت عيداً من البخور كانت قد اشترتها من الدكان التركي الذي اعتادت أن تبتاع منه ما تحتاج لحياتها المعيشية، كما رشَّت نفسها بعطر نسائي طيب الرائحة، ودخلت غرفة الحمام فغسلت أسنانها، وتحت إبطيها وبين فخذيها، وجلست تنتظره. مر وقت قارب الساعة، حينما سمعت صوت الباب وهو يُفتح، وخلال لحظات دخل زوجها وعلى وجهه ابتسامة عريضة، وقال، وهو يرفع كفه ماداً إصبعين منها مشكلاً حرف (V)، هي علامة الانتصار التي اعتاد عليها المقاومون الفلسطينيون واللبنانيون. لم تفهم هي شيئاً من هذه الحركة، لكنها نهضت بكل قامتها وهي تنتظر أن يخبرها، فقال وهو يرقص دائراً بجسده حول نفسه، وقال:

- لقد أنجزت كل شيء بالتليفون. صديقي قايل قال لي تعال من الغد وسنجد لك مسكناً وبيتاً. وقال لي بأنه يسكن في منطقة "كرويسيرغ" التي يكثر فيها

الأجانب واليساريون الألمان. وإن هناك الكثير من الشقق في هذه المنطقة، وإن لديه الكثير من العلاقات، المهم علينا السفر إلى برلين، ومن الغد.

- من الغد؟

- نعم. من الغد. ماذا، ألا تريد أن تنتقل إلى برلين من الغد؟
- بلى أريد. لكن هل أنت متأكد من أصدقائك، بأنهم سيوفون بوعدهم؟
- طبعًا. قابيل كان معي في المقاومة، لكنه ترك كل شيء مثلي، وجاء إلى ألمانيا.
- وماذا يشتغل الآن؟
- لا شيء. لكنه يقول بأن شغله جيد.
- كيف لا شيء، وشغله جيد؟ ماذا يعمل؟
- لم يقل لي أي شيء عن عمله، وإنما قال إن أموره جيدة، وإنه سيجعلني أعمل معه حينما نسكن في برلين.

كانت تشعر بشيء من الفرح لأول مرة من بعد ذلك اليوم المشؤوم الذي دخل عليها زوجها الدكتور آدم التائه وهي في ذلك الوضع المشين. لأول مرة تحس بأنها تجد ثمة ضوءًا بعيدًا في هذا النفق الذي هي فيه، لكن مهما يكن، فالضوء هناك، بعيد لكنه موجود.

وبدون تخطيط سابق، وبعبقوية، احتضن آدم اللبناني حواء المؤمن، وأخذ يقبلها من وجهها، ثم من عنقها، ثم أخذها إلى الفراش، وبهدوء رفع ثوبها الذي اكتشف بأنها لم تلبس شيئًا تحته، وكأنها كانت مستعدة لذلك، وهذا ما أدركه منذ اللحظة التي احتضنها وشم رائحة عطرها.

لم تكن تشعر بالتهيج والرغبة معه، لكنها منحته نفسها برضاها، وتجاوبت معه مصطنعة الرغبة. لكن في تلك اللحظة بالذات، ولا تعرف من أين وكيف خطرت العاهرات في ذهنها! وسألت نفسها وهي بين أحضانها، كيف أنهن يمثلن الرغبة، يصطنعن اللهات الشبق. لقد شعرت وكأنها تمثل دور عاهرة لكن مع زوجها. “أنا عاهرته الرسمية”، هكذا قالت لنفسها.

بهذوء انسلّت من مكانها، وذهبت إلى الحمام. ولأول مرة أحست بأنها تريد
الاجتسال بالكامل بعد الممارسة، فنزعت ثوبها، ودخلت تحت دش الحمام.
حينما دخلت إلى غرفة النوم ثانية، سمعت شخير. استغربت منه، كيف
أنه يكاد يكون بلا هموم. ليس لديه سوى الأكل والمضاجعة، والتسلية، بينما
حينما يتحدث، تراه يتبجح بسنوات المقاومة، وذاكراته عنها.

في أعماق الليل، وبينما كانت حواء المؤمن نائمة بعمق بعد أن تعبت من
التفكير ببرلين وما ينتظرهما هناك، شعرت بأن هناك حفيظاً كأجنحة الفراشة
أو شيء يشبه الريش يداعبها، يضربها بخفة الريشة. فتحت عينيها في الظلمة
وهي تبسمل، وتستعيد باسم الرحمن الرحيم. لم يكن هناك من أحد، بل ولم
يكن حلمًا. لكن هناك مَنْ أيقظها من نومها بمسّ خفيف حقًا. ومرة أخرى
مستّها تلك الحركة الناعمة. فجأة، فهمت كل شيء. إنه الجنين في رحمها
بدأ حركته الأولى. أحست بفرح غامر وسعادة لا توصف. أرادت أن توظف
زوجها الذي يشخر، لكنها فكرت بأنه لن يهتم لذلك. استرخت، وهي تضم
يديها على بطنها. وتبتسم لنفسها في الظلمة، إلى أن مسّت أنامل النوم جفنيها.

سأل آدم المحروم نفسه: لماذا لم يعلق صديقي على هذا الفصل؟

برلين كرويسبيرغ

لم تصدق حواء المؤمن عينيها وسمعتها، حينما أفاقت من النوم لترى زوجها آدم اللبناي يناديها بأن تنهض، إذ عليهما الإسراع بالفطور ثم التوجه إلى برلين! ربما هذا هو اليوم الأول خلال الأشهر التي عرفته فيها، تراه ينهض مبكرًا، فحتى حينما كان جارهم، ولم يكن بينهما أي علاقة، كانت أغاني فيروز يأتي صوتها إلى شقتهم بعد الحادية عشرة صباحًا في أحسن الأحوال! فكانت تعرف أنه استيقظ تَوًّا من النوم! وحتى بعد زواجهما فهو لا يستيقظ إلا بعد منتصف النهار!

نهضت بهدوء. وبالرغم من أنها لم تشبع من النوم، كانت تشعر بالبهجة. أرادت أن تقول له بأن الجنين بدأ حركته الأولى في رحمها، لكنها احتفظت بهذا السر لنفسها وكأن ذلك ليس شأنه، وإنما هو حوار سري خاص بينها وبين جنينها.

كانت تحس بنشاط غير عادي، وكأن دفق الحياة بدأ من جديد يسري في كيائها. فكرت مع نفسها: "ما أجمل هذه الأحداث التي حصلت من ليلة أمس وإلى هذا الصباح! فهذا أنا أخيرًا أشعر بحركة الجنين. صحيح أنني أعرف بأنني حامل منذ شهور، لكنني لم أشعر حقًا بذلك إلا الآن، بعد أن بدأت أشعر بالنبض في أعماقي". وفجأة، طاف ظل من الحزن على خاطرها، لأنها كانت تريد هذا الطفل من زوجها الدكتور آدم التائه وليس من هذا الذي صار الآن زوجها، لكنها تجاوزت هذا الظل ولم تتوقف عنده كثيرًا، ففرحت بحركة الجنين في أعماقها أمدها بشعاع من الأمل والفرح، لا

سيما وأنها الآن وبسهولة شديدة لم تكن تتوقعها أقنعت زوجها بالانتقال إلى برلين، بل ولم تتوقع منه أن يبادر على الفور بترتيب مستلزمات هذا الانتقال. وها هو كما يبدو أكثر حماسًا منها بالسفر إلى برلين. وها هو الغد جاء، بل وتراه هو الذي يوقظها للسفر إلى برلين.

كانت حواء المؤمن ما تزال في السرير حينما أحسّت بأن ثمة تغييرًا ما قد طرأ عليها، وبأن رأسها صار خفيفًا، وكأنها أفرغت جمجمتها من ركام الأفكار السوداء. فكّرت مع نفسها: "إن الإنسان كائن غريب حقًا، إنه يقضي وقتًا طويلاً من عمره، يمتد لأيام، لأشهر، بل لسنوات، مركزًا على قضية، أو موضوع، أو حالة نفسية أو فكرية، أو حتى اجتماعية، وفجأة، يستيقظ ذات صباح وكأن كل شيء قد تم إلغاؤه ومحوه نهائياً! يستيقظ الإنسان وكأنه ولد من جديد، لا يتذكر شيئًا، بل حتى إذا ما تذكر فإنه يتذكره وكأنه شيء قديم، قديم جدًا، ولا يعنيه الآن أي شيء، وما عليه سوى نسيانه إلى الأبد، وكأن الذي عانى، وتألّم، وفكر، وتمزق، ليس هو وإنما إنسان آخر، ربما كان هو، لكنه لا يعرفه الآن، ولا يريد أن يعرفه!". وهذا ما كان من أمرها حين استيقظت، وكأنها تولد من جديد، بل إنها تكاد تحس بالفرح يخفقها، إذ شعرت بأن أنفاسها تنقطع، وأنها لا تعرف كيف تستطيع أن تعبر عن فرحها. نهضت على وجهها ابتسامة مشرقة، وفي نظراتها تساؤلات غامضة، لكنها تساؤلات طيبة ومسترخية، وليست تلك التساؤلات التي تمنح وجه الإنسان قلقًا حيوانيًا، وتشوه ملامحه، وتحيطه بدائرة غير مرئية، دائرة تمنع الآخر من التواصل معه. مضت إلى الحمام، غسلت وجهها، لكنها لأول مرة تقف أمام المرأة لتنظر إلى نفسها بتصالح نفسي. لمحت بعض الترهل تحت عينيها، وانتبهت إلى شعرها الذي بدا متآكلًا من أطرافه. نزعَتْ عنها حجاب الرأس فرأت أن شعرها مهمل. فكّرت بأن عليها أن تهتم بنفسها، وستبدأ حياتها الجديدة في برلين، لكنها لم تفكر أن تترك حجاب الرأس. أحسّت

أنها قد تعودت عليه، على الأقل لا تستطيع الآن تركه. سترى ما ستأتي به
برلين وعالمها المثير! انتبهت إلى صوت زوجها يناديها:

- ماذا هناك؟ هل نمت؟ علينا الاستعجال بالسفر. هل تسمعين؟
- نعم. نعم. أنا قادمة.

وخرجت مسرعة لتعدّ الفطور. أسرع لإعداد الشاي، وفتحت الثلاجة
فأخرجت الجبن والزيتون، وقطعة خبز تركي، أخذت تسخنه على قطعة
صفيح وضعتها على الطباخ. بينما كان زوجها منشغلاً بإعداد حقيبة السفر،
ومن غرفة النوم ناداها:

- هل ستأخذين الكثير من الملابس؟
- لا أدري.
- لقد قال قابيل لي لا تحمل الكثير من الأشياء، لأن كل شيء متوفر، لم
أفهم، ماذا يقصد؟
- وأنا لا أفهم ماذا يقصد أيضًا. دعنا نأخذ أقل ما يمكن.
- تعالي إذن لتضعي في الحقيبة ما تريدين أخذه معك.
- سأتي حالاً. لأسخن الخبز أولاً.

انتبهت حواء المؤمن أنها لأول مرة منذ أن تعرفت على آدم اللبناني
تحدثه بسلاسة ودونما توتر وكأنها تعرفه منذ زمن طويل. ابتسمت لنفسها.
سحبت قطع الخبز الساخنة ووضعتها في الصينية، وكذلك وضعت صحن
الزيتون، وفتحت الخزانة التي تعلو الطاولة التي تمتد في المطبخ (الكاونتر)
فأخرجت علبة الشكولاته مع الزبدة (نوتيلا) مع سكين. وجهزت الصحن
والإستكانات. حملت الصينية إلى حيث يجلسان عادة للأكل. ودخلت
الغرفة لاختار ما ستأخذه معها إلى برلين، قائلة له:

- اذهب وافطر، كل شيء جاهز.

- وأنت؟

- أنا لا أشتهي. سأتي حالاً.

لم تكن تعرف ماذا تأخذ معها إلى برلين، لأنها أساساً لم تكن تعرف كم سيقاب هناك إلى أن ينتقلا بشكل نهائي. لكنها كانت تعرف شيئاً واحداً هو أن تأخذ القرآن معها، ففتحت الدولار الكبير وأخرجته، قبلته ووضعتة على جبينها تكريماً، ثم وضعتة في الحقيبة. انتبهت إلى أنها تحب أن تكون نظيفة من الداخل فأخذت أكبر عدد من السراويل الداخلية، كما وضعت بعض فوط الرأس التي تستخدمها لتغطية شعرها، وخرجت.

كان آدم اللبناني قد التهم الجبن والزيتون، وصبّ لنفسه الشاي، وكان حينما دخلت عليه يمسك سكيناً قد غمسها في علبة الشكولاته ويحاول طلي الخبز بها. ابتسمت مع نفسها لأنها شعرت به كالطفل الصغير الذي يحتفي بالطعام ويغرم بالشكولاته.

حينما وصلا محطة القطار الرئيسية في المدينة ذهباً مباشرة إلى قاعة بيع التذاكر، وطلب هو تذكرتين إلى برلين باتجاه واحد، لأنه أيضاً لا يعرف كم سيمكثان هناك. وحين قدمت الموظفة البائعة له التذاكر صُدم حينما سمع ثمنها بالكامل؛ لم يكن لديه المبلغ كله، فالتفت إلى حواء المؤمن وطلب منها أن تعطيه ما يمكن أن يسد به ثمن البطاقتين، فأعطته ورقة نقدية زادت، مع المبلغ الذي عنده، عن ثمن البطاقتين، فأخذ الباقي ووضعه في جيبه!

أخذاً يسرعان إلى الرصيف المحدد، لأن القطار المتجه إلى برلين لم يبق على وصوله للرصيف سوى عشر دقائق. أسرعاً، بالرغم من أنها كانت حذرة في مشيتها، لأنها كانت تخاف على حملها. صعد هو السلم مع الحقيبة قافزاً الدرجات، بينما وقفت على المصعد الكهربائي الذي صعد بها بطيئاً. نظر إليها بغضب مع أنفاسه المتقطعة من شدة الصعود. حينما وصلا الرصيف لم يكن القطار قد وصل لكنهما سمعا النداء بدخوله المحطة.

من بعيد رأت القطار السريع قادمًا، أحسّت بشيء من الخوف، وكأن القطار كائن خرافي قد جاء إليها. لم ترَ أي سائق للقطار في العربة الأولى التي تقود القطار. أحسّت وكأنها لمحت ذلك المخلوق الفضّي المائل للزرقة المخضرة الذي حضر في غرفتها وتحدثت معه قبل أشهر عديدة. شعرت برعشة هزّت جسدها لثوان. كان الهواء الهابّ مع قدوم القطار قد أنعشها قليلًا، لكن رؤيتها لذلك المخلوق أربكت وضعها النفسي المستقر منذ الصباح.

تذكرت كلمات ذلك المخلوق، الذي ظهر لها في غرفة نومها المشتركة مع زوجها الدكتور آدم التائه، بأنه يعشقها ويريدها زوجة له، وأنه سيشبعها بما لديه من قوة ومن عضو صلب طويل. خافت من هذه التدايعات، أحسّت بشيء غير مريح يجتاحها، إذ أن هذا المخلوق كان قد اختفى لأشهر، ولم يظهر سوى مرة واحدة، بالرغم من أنها انتظرتّه وأرادت رؤيته لأنها كانت تحتاجه حينها، لكنها الآن لا تريد رؤيته، فلماذا ظهر مجددًا؟ كانت حواء المؤمن قلقة. صعدت القطار ولديها هاجس خوف من القادم، بالرغم من أنها كانت إلى لحظات قبل مجيء القطار ذات مزاج جيد.

كان القطار مزدحمًا على غير عادته، فلم يجدا لهما مكانين شاغرين. الرّكّاب برغم الزحمة كانوا ساكنين كالموتى، فكلما دخلا إلى عربة ليجدا أماكن شاغرة، كانا يريان الرّكّاب يجلسون في أماكنهم مغمضي العيون وكأنهم نيام، وجوه ساكنة بنظرات جامدة، وكأنهم موتى! إلى أن وجدا مكانين شاغرين لهما في العربة الأخيرة، فجلسا.

خلال الرحلة لم يسمعا صوتًا بشريًا قط، فالركّاب صامتون، بل حتى محصل البطاقات وصل إليهما بحركة ساكنة ووقف عندهما دون أن ينطق بكلمة واحدة، فمدّ آدم اللبناني البطاقات إليه فكبس عليها بمثقاب يحمله ومضى بحركة آلية وساكنة.

وبالرغم من أن حواء المؤمن كانت تشعر بالنعاس إلا أنها لم تستطع النوم،

فقد ظلت تنظر من خلال النافذة للطبيعة الألمانية الجميلة، وتنظر إلى الناس الجامدين في المحطات. كان النازلون من القطار أو الصاعدون إليه، يبدون وكأنهم جثث تمشي، إذ لا حياة في العيون، ولا تعابير وداع أو تهليل لقاء.

لم يكن آدم اللبناني قد انتبه لما حوله مثلما انتبهت هي، فهمست في أذنه، بأن الناس يبدون كالنيام، أو كالجثث الماشية، أو كأنهم مبرمجون. أخذ هو يحذق في الركاب، ثم في الناس حينما يقف القطار في محطات الطريق، فأحس بالرهبة مما يجري حوله، ولكي يخفي خوفه بدأ يردد أغنية شهيرة لمغنٍ لبناني معروف، وبصوت مسموع، بحيث التفت بعض الركاب التفتاة آلية واحدة دون أن يعلقوا شيئاً، سوى البحلة بعيونهم الجامدة، بينما تعالى صوت آدم اللبناني بحيث صار مسموعاً.

كان صوته شجياً، وكان يغني بعاطفة جياشة، حتى أن الدمع ترقق في عيني حواء المؤمن، فأخذت كفه بين كفيها وضغطت عليهما. هي تعرف أنه خائف من الآتي مثلها، لكن بقايا جذوة المقاومة ما زالت في داخله، والتي ظهرت عن طريق الغناء. أحسّت به، وشعرت بعمق الأسى الذي يختزنه في أعماقه، بل لقد أثارتها هذه الأغنية، فهي لم تسمعها من قبل، بل لم تسمع بكلمات بسيطة ومعبرة وعميقة، تمس القلب والمشاعر مثل هذه الكلمات! انتبهت إلى أن الركاب أداروا رؤوسهم إلى الأمام ثانية ولم يعيروها اهتماماً. وحينما نظرت في وجه آدم رأت الدمع في عينيه، فقالت له هامة:

- أتبكي؟

فقال وهو يغطي وجهه بالمقعد الذي أمامه، وقد نزل خيط من الدمع على وجهه:

- لا أدري لماذا تذكرت هذه الأغنية.

- إنها أغنية مؤثرة جداً.

لأول مرة تحس أنها قريبة من آدم اللبناني إلى هذه الدرجة. ولأول مرة تكتشف الوجه الآخر له، الوجه الطفولي، الطيب، الحنون، فهو ليس فقط هذا المغامر، الدون جوان، الفاسق، الداعر، الانتهازي والوصولي، والخائن للجيرة والصدافة والقيم، كما عرفته سابقًا، وإنما هو إنسان يخفي في داخله همومًا وأحزانًا وذكريات جارحة، وطيبة، دُفنت تحت ركام نفايات الغرب القاسية. وبدون أن تشعر أخذت رأسه إلى صدرها، احتضنته بذراعيها، فألقى رأسه على ما بين كتفها وصدرها، وظل ساكنًا إلى أن دخلوا مشارف برلين.

في المحطة التي تسبق المحطة التي يُفترض أن ينزلا فيها حسب اتفاق زوجها الحالي مع صديقه قابيل، وهي محطة (تسو بانهوف)، وهي نفس المحطة التي وصلتها هي وزوجها الدكتور آدم التائه قبل ثلاثة أعوام، انتهت إلى أن جميع الركاب قد نزلوا. لم يبقَ في العربة سواهما، حتى أنها شكت بأن القطار قد وصل محطته النهائية، فأيقظت زوجها لتسأله، ولكن قبل أن تسأله تحرك القطار. انتبه زوجها إلى أن المحطة القادمة ستكون محطتهم، فتحرك معها ووقفًا قرب بوابة العربة تحضرا.

كان القطار فارغًا، يسير وكأنه بلا صوت، أو بصوت مكتوم، وما إن دخل محطة (تسو بانهوف) حتى تعالى صوته فجأة. وما إن توقف القطار، وفُتحت أبوابه، حتى تعالت ضجة الحياة. وحينما نزلا، رأى آدم صديقه قابيل فورًا. كان ينتظرهما. تعانقا عناقًا حارًا، ثم مد الصديق يده مصافحًا حواء المؤمن التي قدمها آدم كزوجته. وسارا هابطين الدرج مغادرين القطار الغريب.

يسكن قابيل في منطقة (كرويسبيرغ) وهي منطقة كبيرة جدًا، يحتل الأجانب معظمها، أتراك وعرب وروس وأكراد وشيشان وبولونيون وقوميات أخرى، إلى جانب ألمان من التيارات اليسارية المختلفة، وهي منطقة تكثر فيها المخالفات القانونية والجريمة؛ هنا تباع المخدرات،

وهنا عصابات المافيا، وهنا تواطؤات رجال البوليس مع العصابات، وهنا التنظيمات السياسية المتطرفة والمعتدلة، وهنا عصابات السرقة المنظمة، هنا لا يمكن الالتزام بإشارات المرور أو أنظمة السير، وهنا يمكن شراء أي سلعة بنصف ثمنها أو ربعه، سلع مسروقة من المحلات الشهيرة في برلين. وهنا خليط من ثوريين، وفوضويين، وثوريين سابقين ولصوص حاليًا، ومجاهدين إسلاميين، ومؤيدي حزب العمال الكوردستاني، وبقايا المنظمات الفلسطينية، وشيوعيين عراقيين تركوا السياسة، أو ممن لا يجد ما يلهي نفسه سوى بالسياسة. هنا جمعيات الإسلاميين المتطرفين، وهنا خلايا القاعدة النائمة، وهنا أتباع آل البيت. هنا المساجد والحسينيات، وهنا أماكن بيع المخدرات، والمطاعم الشرقية بكل أنواعها وجنسياتها، وهنا يتم الاصطدام بين الشبيبة اليسارية والشرطة يوم الأول من أيار، ومن هنا تنطلق التظاهرات ضد البنك الدولي وإجراءات الحكومة التشفية، وهنا يصطدم النازيون الجدد بالشبيبة الفوضوية واليسار المعادي للنازية الجديدة. هنا الوجه الآخر لبرلين، وهنا يعيش قابيل، وإلى هنا وصلت حواء المؤمن وزوجها آدم اللبناني، ومن هنا دخلت إلى عالم برلين الصاخب والمثير.

وصلوا إلى منطقة "نويه كولن" التي هي من الأحياء الرئيسة في منطقة كرويسبيرغ، وإلى شارع "هيرمان شتراسه" بالتحديد حيث يسكن قابيل، مضيقهم المرح الذي استقبلهم في المحطة، ومن ثم أقلهم بسيارته الجديدة، والذي لم ينقطع عن الحديث والنكات، وشم الجميع، والسخرية من الجميع! خلال طريقهم من المحطة إلى شقته، شعرت حواء المؤمن أن الحياة بدأت ترجع لها، فالجميع هنا أجنب تقريبًا، بل إن المطاعم التركية والعربية، والمقاهي التي على الرصيف، واللافتات التي تجد فيها كلمات عربية، أو فارسية، منتشرة هنا بشكل بارز. راودها شعور بالألفة، وبأن هناك بدايات

مفرحة لحياتها الجديدة هنا في هذه المدينة، بالرغم من أنها لم تفكر بالانتقال إلى برلين بالتحديد، وإنما كانت تريد أن تبعد زوجها عن بيت العم، وأنها اقترحت برلين باعتبارها المدينة الأبعد حسب معرفتها، ولأنها كانت في هذه المدينة أول ما وصلت، وما تزال تتذكر الانبهار الذي غمر روحها أول ما خرجت من المحطة في أول يوم وصولها إلى برلين مع زوجها الدكتور آدم الثالث قبل سنوات. إذن كان اختيارها لبرلين وكأنه إشارة من الغامض المجهول الذي يقرر المصائر ويسير أقدار الناس حسب إرادته العظيمة واللا متناهية. هكذا فكرت وهي تدخل شقة قابيل بعد زوجها، وقد سبقهم مضيّفهم نفسه.



وما بين شرب الماء البارد أو العصير، وهي عادة شرقية عند دخول ضيف ما، وتبادل التحايا والتعبير عن الأشواق، طلب قابيل الطعام من مطعم لبناني قريب، مؤكداً لهما بأن الإنسان يستطيع ألا يطبخ لأسابيع، فكل شيء جاهز ويمكن بالتليفون أن يحملوه إليه إلى باب البيت. وبالرغم من أنها قد سمعت بذلك حينما كانت في مدينتها الأولى لكنها لم تجربّه، وما إن انتهوا من الحديث العام والمجاملات، طُرق الباب، فقام وهو يقول لأدم صديقه بأن يحضّر الصحون فالطعام قد وصل.

قامت حواء المؤمن بتهيئة كل شيء. جلس قابيل وآدم اللباني في الصالة المفتوحة على المطبخ، وكانا يريانها وهي تحاول أن تتعرف على المطبخ وتعد المائدة، بعد أن أخرجت الكباب المشوي، وشيش الطاووق، والحمص والتبولة، ووضعت كل شيء في صحنه الخاص به، وما إن انتهت من إعداد المائدة حتى دعتهما لتناول الطعام.

كان الحبور والفرح باديين على الثلاثة. ومع أنها لا تستطيع الأكل بشهية

كاملة، نتيجة لحملها، فأنها شعرت بالراحة. وما إن انتهوا من الطعام حتى أرادت أن تعدّ لهم الشاي، إلّا أن قابيل اعترض قائلاً بأنه سيذهب مع زوجها آدم إلى المقهى القريب ليشربا الشاي ويدخنا النارجيلة، وبإمكانها أن تعدّ الشاي لنفسها، فلديهما ما يتحدثان به عن مسألة انتقالهما إلى برلين، وحينما قالت بأنها تريد أن تشارك معهما أيضًا، اعترض قابيل بطريقة جريئة أقرب للوقاحة مؤكدًا بأن هناك حديثًا خاصًا آخر بينهما، وفي كل الأحوال ستعرف بكل التفاصيل حين عودتهما، وخرجتا.

بقيت حواء المؤمن وحدها، تجولت في الشقة، مستعرضة كل الغرف، بما فيها غرفة نوم مضيفهم، برغم ترددتها في بداية الأمر لكن الفضول كان أقوى من التردد. انتهت إلى أن الشقة وسخة، وأن قابيل فوضوي وأشياء مبعثرة، وملابسه غير مكوية، وأن الحمام وسخ، والمطبخ في حالة فوضى! ومع ذلك تمتّ من كل قلبها لو أنها تسكن بشقة مثل هذه الشقة. فكّرت مع نفسها عن طبيعة عمل مضيفهم، كيف وهو الأعزب، لديه شقة واسعة من غرفتين وصالة ومطبخ وحمام، بل ولديه سيارة جديدة، علمًا أنه، كما يبدو من طريقة حياته لا يعمل، كيف كل هذا وهو لا جئ مثلهم؟

تدفقت في ذهنها خواطر شتى. شعرت نحو قابيل بشيء من الامتنان لاستقباله الحار لهم، وتجشم مجيئه إلى المحطة ونقلهم بسيارته، واستضافتهم لديه في شقته، كما انتهت لنفسها إلى أنها استلطفت شكله أيضًا، فهو أسمر وليس أبيض كزوجها، وهو أكثر نحوًا منه، ووجهه ليس حليقًا، وله عينان كبيرتان وجميلتان، تكادان لجمالهما تختزلان الوجه كله، واستغربت أنه غير متزوج لحد الآن! قالت لنفسها: "ربما لديه صديقة ما، ألمانية أو أجنبية، أو حتى عربية، من يدري؟ فمن غير المعقول أن يكون بلا امرأة رفيقة!".

جلست على الصوفا الجلدية البنية اللون مشتة التفكير. لا تدري ماذا تفعل. فجأة، انبثقت في ذهنها فكرة، إذ عليها أن تعبر عن امتنانهما لمضيفهما من خلال تنظيف البيت وترتيب المطبخ! وفعلاً، قامت إلى المطبخ. فتحت الخزانة فوجدت مواد التنظيف الكيماوية وكيّساً للماسحات الإسفنجية، لكنها جميعها كانت مغلفة ولم تفتح أو تُستعمل قط!

بدأت بحوض الألمنيوم فغسلته وأزالت عنه الصدأ حتى بدا وكأنه جديد، كما رتبت القدور والصحون في الخزانة، ورتبت الشاي والسكر، وأكياس الشوربة الجافة والشعرية التي يبدو أنه يحتفظ بها للحالات الطارئة. كما وجدت كارتوناً مليئاً بالببسي كولا، فأخرجت بعضاً منها ووضعتها في الثلاجة.

ما إن انتهت من تنظيف المطبخ حتى توجهت إلى الحمام، فقامت بغسل الحوض والمغسلة، ومسحت المرآة فيه، كما غسّلت زاوية الحمام، وغسّلت الزجاج الذي يحجبه عن بقية أجزاء المكان. بعد ذلك توجهت إلى الصالة، فرتبت زوايا المقعد، وجاءت بمادة كيماوية رشّت منها على زجاج الطاولة التي تتوسط الصوفا والمقاعد الجلدية المحيطة بها، ونظفتها! ولم تكتفِ بذلك حتى أخذت تفتش عن المكنسة الكهربائية، فوجدتها في غرفة صغيرة جداً بجانب الباب الخارجي تستخدم كمخزن لحفظ المواد والأشياء الزائدة. أخذت المكنسة وبدأت بتنظيف البيت والغرف جميعها، لذلك وجدت نفسها مضطرة لدخول غرفة نومه مجدداً، فاضطرت لترتيب الفراش. دخلت إلى الغرفة الثانية فوجدتها مجهزة بسرير يسع لاثنتين مع دولاب فارغ. رتبتهما كما يجب، وبينما كانت على وشك الانتهاء من تنظيفها الشامل، فُتح الباب ودخل الاثنان.

كانت الدهشة قد تجمّدت على وجه قابيل، بينما ابتسم زوجها وكأنه فرح لمبادرتها. وبدون أيّما كلمة، تجول قابيل في شقته، وهو يصفر ويقول: - لا أصدق أنها شقتي؟ ماذا فعلت؟ وكأن أناملك سحرية؟ شكرًا لك.

- ابتسمت حواء المؤمن وقد غمرتها الفرحة لإعجابه بما فعلت، وقالت:
- لا شكر على واجب. لقد كنتُ جالسةً وحدي ففكرت أن أرتب البيت قليلاً.
 - أنا خجلان من حالة الشقة.
 - لا داعي للخجل. إنك أعزب وهذه حالة العزاب تقريباً.
 - أنا كنت أطلب من إحدى التركيات اللاتي يعملن في البيوت أن تأتي للتنظيف، وكنتُ أسلمها المفتاح وأخرج ثم أرجع بعد ساعتين فأجد الشقة نظيفة، لكنها انقطعت عن العمل لأسباب لا أعرفها. وأنا أيضاً تكاسلت.
 - وكما ترين تراكم الغبار والأوساخ.
 - تدخل الزوج وهو يبتسم ويقول:
 - لا تقلق بعد الآن، لأننا لو انتقلنا إلى برلين، سنكون جيران، وهذا يعني أنها سوف تنظف شقتك أيضاً.
 - نظرت هي باستغراب إلى زوجها، فهو يتحدث عن الجيرة، وهذا يعني أنهما قد قررا شيئاً، لكنه أيضاً يتحدث عن تنظيفها لهذه الشقة أيضاً! ماذا؟
 - أيريدها أن تعمل منظفة في البيوت؟ نظرت إليهما وقالت:
 - يبدو أنكما قررتما أشياء كثيرة في المقهى، ماذا أسمع، سنكون جيران، ما معنى ذلك؟
 - معنى ذلك، أن هناك شقة في نفس البناية تعود لعائلة تركية، سافرت إلى تركيا قبل أسبوعين، وظلت شقتهم فارغة، وهم يريدون تأجيرها، وسنؤجرها نحن، وصاحب الشقة صديق الأخ قابيل.
 - نظرت هي إلى قابيل وكأنها تستنطقه، فأكد ما قاله زوجها ناظرًا إلى وجهها وكأنه يحاول أن يتغلغل إلى أعماقها لمعرفة موقفها:
 - نعم. هذا صحيح. جارنا الذي كان يسكن في الطابق الثاني يريد تأجير شقته، لأنه قرر الذهاب إلى تركيا لفترة طويلة، لكنه لم يشأ أن يؤجرها

لأشخاص لا يعرفهم، أو للألمان، فهو يريد الشقة بعد سنة أو سنتين أو أكثر، أي بعدما يرجع، فإنه، حسب القانون، لن يستطيع إخراج المؤجر بسهولة، لذا فإنه قرر أن تبقى خالية ولا يؤجرها بحيث يتورط بالمؤجر في ما بعد. وقد ترك المفتاح عندي، وأعتقد سيوافق على تأجيرها لكم، لا سيما إذا كتبنا في العقد بأنكم ستخلون الشقة عند حاجة صاحبها. وقد اتصلت به تليفونياً قبل قليل، لكن هاتفه كان مغلقاً، لكنني متأكد من أنه سيوافق، لا سيما إذا أخبرته بأنكم تخصونني.

حينما قال جملة الأخيرة نظر إلى أعماق أعماق عينيها وكأنه يريد أن يقول لها بأنها تخصه، وأنه ينتظر منها أن توافق، أو هكذا شعرت بوقع جملة الأخيرة. صمتت للحظة، ثم عقت:

- هل هي كبيرة؟
- إنها مثل شقتي بالضبط، وهي الشقة التي فوق مباشرة.
- والإيجار؟ أعتقد أنه سيكون أكثر مما سئدفع لنا.
- ليس كثيراً، ويمكن لأدم أن يعمل هنا.
- وماذا يعمل؟
- حينما طرحت سؤالها ران صمت بارد على كليهما. نظر قابيل إلى آدم وتبادلا النظرات. نظرت هي إليهما وأحست أنهما لا يريدان أن يجيبا على هذا السؤال. فبادر قابيل بالإجابة قائلاً:
- اسمعي يا حواء جيداً، لأقول لك بصراحة. الشغل في برلين ليس سهلاً أبداً. يحتاج لنوع من الصبر. سيقوم آدم بالعمل معي في بداية الأمر، بالبيع والشراء، إلى أن يجد له عملاً في ما بعد.
- ران صمت للحظات، قاطعته حواء المؤمن بسؤالها:
- بيع وشراء ماذا؟

نظر قابيل إلى آدم، ثم التفت إليها قائلاً، لا سيما وأن آدم قد شحب لونه قليلاً، من هذا السؤال الواضح والصريح:

- بيع وشراء الحاجات. مختلف الحاجات: ملابس، أجهزة كهربائية، ساعات، حقائب نسائية. يعني أي شيء يمكن المتاجرة به، ولا تخافي، لا يحتاج هذا العمل إلى رأس المال فنحن نأخذ الأشياء من أصحابها ونبيعها بطريقتنا إلى العوائل والأجانب الذين نعرفهم، ونأخذ نسبة على ذلك.

مرت ظلال من الشك في ذهنها، لكنها طردتها بسرعة، لرغبة عميقة جذبتها في أن تبقى في برلين، وتبقى قريبة من هذا الشخص الذي يبدو بأنه خبر الدنيا، ويبدو أنها أعجبتة مثلما هو قد أعجبها، فلم يكن أمامها سوى أن تقول بهدوء، لكنه هدوء معبر ومبطّن بتهديد خفي:

- إذا كان الأمر كذلك، فنعم.

ابتسم الرجلان كلاهما، وكأنما قد حققا أول خطوة من الاتفاق الذي أبرماه في المقهى، بالرغم من أن حواء المؤمن كانت تدرك بأن هناك أشياء كثيرة تحدثا بها، لكنهما لم يقولوا لها عنها شيئاً. وعلى غير انتظار منهما سألت:

- وماذا عن النقل وعقد الإيجار؟

- لا مشكلة في الأمر، سنذهب عند مكتب العقارات هنا، وهو صديقي أيضاً، وهو يعرف بكل التفاصيل، وسيؤجر آدم الشقة، وتذهبان بها إلى بلدية نوي كولن، لتسجيل أنفسكما هنا أولاً، وبعد أن يتم تثبيتكما هنا كسكان في المنطقة تذهبان إلى «إيسن» لتلغيا إقامتكما هناك.

قاطعه زوجها قائلاً:

- سنفعل بالضبط ما فعلناه في "إيسن". يعني من الغد يمكننا أن نكون من أهل برلين.

في هذه اللحظة بالذات أحست حواء المؤمن بخفقة صغيرة مسّت بطنها، فابتسمت وهي تقول:

- كأنه يريد أن يقول لنا شيئاً.

- مَنْ؟ سأل قابيل.

نظرت إليه وابتسمت بحنان وهي تضع يدها على بطنها:

- إنه هو. ابني الذي في بطني.

ابتسم قابيل، ولأول مرة أخذ يتأمل جسدها. أحسّت به قد أطلّ بنظرته إلى أسفل بطنها. شعرت بالخجل فتحرّكت. انتبه هو لنفسه، ونظر إلى عينيها وكأنه يريد أن يعرف إن كانت قد انتبهت لنظرته أو أدركت ما كان يفكر به أو ما تخيله في تلك اللحظات. وخلال هذه الحوارية الذهنية الصامتة بين حواء المؤمن وقابيل، كان الزوج آدم اللبباني سادراً في أحلام يقظته عن برلين، بالرغم من ظل غمامة حزن كانت تظهر وتختفي في عينيهِ مثل ضوء نجمة بعيدة.

آدم البغدادي: إنها بداية التيه الحقيقي. هل الإنسان سريع النسيان إلى هذا الحد؟ ما الذي خلق من حواء المؤمن امرأة مختلفة إلى هذه الدرجة، هل هي تحاول الهرب من خطيئتها؟ هل تحاول أن تعاقب نفسها؟ أكل هذا من أجل الطفل حقاً؟ أم هي بدأت تعي سقوطها وانحدارها، لذلك تعاقب نفسها بسلخ جلد ضميرها من الداخل؟

حينما قرأ آدم المحروم تعليق صديقه الكاتب، سأل نفسه: أهذا هو مصير العراقيين في المنفى؟ لكن من أين لآدم البغدادي كل هذه التفاصيل عن ألمانيا، وعن برلين والمدن الأخرى؟ غريب. أعرف أنه لم يغادر بغداد قط؟

النذل الذي رأى نفسه

تم كل شيء كما قال قابيل، توقيع عقد الإيجار، والتسجيل في بلدية برلين نوي كولن، وإلغاء التسجيل في مدينة إيسن، حيث سافر كلاهما إلى هناك. وقد كانت فرحة حواء المؤمن كبيرة، حينما زارت مع زوجها بيت العم، ورأت الصدمة والغيرة والحسد على وجوههم عند سماع الخبر، وبالتحديد، الأم وبناتها، اللاتي لم يستطعن أن يخفين غضبهن، فانهلن على آدم اللبناني وحواء المؤمن، بالنقد واللوم بأنهما لم يقدرا الذي عملوه من أجلهما، وهما ينكران العشرة والفضل بهذه السرعة، وأنهما رتباً كل شيء، والآن جاء لزيارتهم ووداعهم من أجل رفع العتب فقط!

حاول آدم اللبناني جاهداً أن يبرر لهم أسباب الانتقال إلى برلين، أما حواء المؤمن فقد كانت ساكنة معظم الوقت، لكنها حين نطقت أوضحت بطريقة غير مباشرة إلى أن زوجها ما قام بهذه المبادرة إلا بعد أن عرض عليه صديقه قابيل فكرة الانتقال إلى برلين وضمن له عملاً هناك. وقد انتبه زوجها إلى تبريراتها فأعجب بها وبدافعها عنه، وأخذ يسرد على مسامع العم ما ينتظره هناك من آفاق، حيث سيعمل مع صديقه قابيل وآخرين، وأنه سيحسن من وضعه المادي كثيراً. بعد ذلك أنجزا كل الخطوات الإدارية اللازمة في تلك المدينة وأخذوا من المستمسكات ما يثبت إلغاءهما للسكن والاستلام المعونات الاجتماعية في المدينة، وعادا إلى برلين.

بدأت حياتهما في برلين بشكل هادئ، وبهيج؛ فكل يوم يتم إضافة شيء لشقتهم التي خلال تواجدهما في "إيسن" ليومين، قام قابيل بدعوة

المنظفين الذين قاموا بتنظيفها وغسلها بالكامل، بل ذهب هو نفسه إلى محل لبيع الأثاث المستخدم، فاشترى لهما غرفة نوم متواضعة وأثاثاً لغرفة الاستقبال، وأدوات للمطبخ، وتلفزيوناً. أثث لهما الشقة من جيبه الخاص. لا سيما وأن حالته المادية جيدة جداً من خلال إتيجاره بالمخدرات، وبالسرقة في أكثر الأحيان. لذا لم يعوزه المال. وحينما قام بما قام به، فقد كانت ثمة قوة سوداء في داخله، قوة أشبه بالمغناطيس القوي، قوة تأكله وتثيره، الرغبة فيه نحو هذه المرأة المثيرة، الحامل، التي كان مستعداً أن يبذل كل ما يملك من أجل الوصول إليها وامتلاكها!

لقد كانت شهوته تتوهج حينما يتخيل بطنها العالية وانحدارها الواضح إلى الأسفل، وكان يتلوى رغبة في أن يضاجعها، لكن كيف يمكنه ذلك؟ إنها كما يبدو له امرأة قوية، وهي ليست سهلة أو مبتدلة، فهي امرأة محجبة، وكذلك هي زوجة صديقه، فكيف له أن يحصل عليها؟ لكنه بالرغم من ذلك كان يشعر بأن ما يقوم به هو من أجلها، وأنه سوف يحصل عليها في يوم ما، من خلال إبعاد زوجها عن طريقه بأي طريقة ممكنة.

لم يكن قابيل يدرك ما الذي يجذبه إليها؟ هو ليس بالرجل المكبوت الذي لا يجد امرأة يضاجعها، فلقد كانت لديه عشيقة تركية وأخرى إيرانية، وثالثة روسية، وأول ما وصل برلين كانت لديه علاقة مع امرأة ألمانية متزوجة، وأحياناً حينما تضيق به الحال يذهب إلى دكاكين الأفلام الجنسية القريبة من محطة القطار التي استقبلهم فيها فيرى النساء اللاتي يعرضن أجسادهن في غرفهن للنظرين من وراء الزجاج مقابل المال، أو يدخل صالة صغيرة لرؤية فيلم جنسي، أو يشتري قرصاً مدمجاً لفيلم جنسي، أو مجلات جنسية، لكنه كان مهووساً بالأفلام والمجلات الجنسية عن الحوامل. ولا يعرف لماذا كانت أي امرأة حامل تثيره جنسياً بشدة، لماذا؟ هو لم يجد إجابة عن هذا السؤال الذي سأل نفسه في بعض المرات!

بعد أن سلّمه عمال التنظيف مفتاح الشقة، عاد إلى شقته. جلس في الصالة وهو يفكر في حواء المؤمن وكيف عليه أن يتصرف معها! وكيف عليه

أن يحذر في إثارة شكوكها أو شكوك زوجها! فكّر في أن زوجها آدم يعاني من وضع مالي متأزم، إذن عليه أن يسيطر عليه من خلال إغراقه بالديون، وعليه أن يهيمن على حياته. عليه أن يأخذه إلى أماكن اللهو، وكذلك يزجّه في أعمال تبعده عن البيت أكثر الوقت. عليه أن يتصرف بذكاء مع حواء المؤمن. عليه أن يغدق عليها بالهدايا، وأن يكون جهد الإمكان مهذباً معها إلى أن تطمئن له وتزول الحواجز بينهما! لكنه يعرف أنه يريد أن يضاجعها فقط، لا أن يعيش قصة حب معها، فهو لا يؤمن بالحب إطلاقاً! كان قد استلم اتصالاً من صديقه آدم بأنهما سيصلان مساءً، واتفقا على أن يلتقيهما في المحطة نفسها ساعة وصولهما.

في الوقت المحدد كان قابيل ينتظر في المحطة، تدفق في أعماقه تيار مشاعر شوق لرؤيتها. انتبه إلى أنه لأول مرة ومنذ سنوات، يشعر بفرغ في هذه المدينة الكبيرة التي لا تنام. وأن هذه المدينة لا معنى لها بدون حواء المؤمن!“. ماذا. هل أنا عاشق؟“. هكذا سأل نفسه ساخرًا من نفسه. إنه يعرف رغبته الصريحة والواضحة في مضاجعتها، وقد رسم الخطط لتحقيق هذا الأمر، لكنه الآن يريد رؤيتها فقط. يشعر مثل أي مراهق بوخزات التوق الحار والمتعطش لرؤيتها!“ عليّ أن أكون حذرًا من زوجها آدم، فهو برغم غرابة شخصيته، شرس جدًّا، وأنا أعرفه منذ أن كنّا في المقاومة في منطقة الدامور بלבنان. عليّ ألا أثير شكوكه.“ قال لنفسه.

حين وصل القطار كان هو ينتظرهما على رصيف المحطة. رآهما من بعيد. رأى صديقه آدم وهو ينزل حقائبه، رأى حقيبتين كبيرتين وأخرى أصغر منهما، ثم لمح حواء المؤمن وهي تنزل بتؤدة وحذر لكونها حاملاً، واستغرب وهو يراهما من بعيد أن بطنها بدت له واضحة الآن! أمن الممكن أن يتم ذلك خلال يومين! لكنه عزا ذلك إلى أنها كانت في المرة السابقة

ترتدي ثوبًا عريضًا جدًا فلم تكن بطنها بارزة مثل هذه المرة. هي الآن ترتدي ثوبًا أسود أنيقًا يصل إلى ركبتيها، وتلبس فوقه بلوزة برتقالية اللون من الصوف الخفيف، وتضع قدميها في حذاء جلدي أسود أيضًا، بينما تضع على رأسها ربطة تكشف عن وجهها بالكامل ومقدمة شعرها وتشدها على طول وجهها رابطة إياه من أسفل حنكها. كانت تبدو كسيدة رائعة الجمال، لكنه فجأة، أحس بالغضب من صديقه آدم لأنه لم يعطها يده حينما نزلت، ليساعدها على النزول بأمان. إذ كان من الممكن أن تسقط!

جاء مسرعًا ليساعدهما، سلم عليهما، وعانق صديقه. ولم يصابحهما، بل تصرف وكأنها غير موجودة. في تلك اللحظات لعن نفسه للتصرف الغريب، فقد كان يشتعل شوقًا لرؤيتها، فلماذا لم يصابحها؟ لا سيما وهم في مثل هذا الموقف الذي لا يثير أي شكوك!

جرَّ كل من الرجلين حقيبة، بينما أخذت هي الحقيبة الصغيرة، فانتهز الفرصة والتفت إليها طالبًا منها أن يسحب الحقيبة الأخرى أيضًا. ابتسمت بحياء، دون أن تقول شيئًا لكنها أحست بالرضا لهذا الاهتمام، على عكس زوجها الذي لم يبال بأنها حامل! مدَّ يده فمسَّت يدها، وتركت هي الحقيبة له. كانت هذه الحركة العفوية، البسيطة، ذات دلالة لكليهما، بينما لم يتبهِ زوجها لذلك بتاتًا.

حينما صاروا في داخل السيارة، كان قابيل يحس بفرح غامر، وبرغبة عارمة في الحياة والابتهاج، فقال لهما بطريقة مفاجئة، واحتفالية:

- بمناسبة وصولكما الكريم إلى مدينتنا العظيمة برلين، وبمناسبة اعتباركما من أهالي برلين الآن وبشكل رسمي، لذلك، وقبل أن أفاجئكما بالشقة وما أجريت فيها، فأني أود أن أدعوكما إلى عشاءٍ فاخر بأحد المطاعم الجيدة. ما رأيكما؟

كان آدم الزوج جالسًا في مقدمة السيارة إلى جنب قابيل، بينما كانت حواء المؤمن جالسة في المقعد الخلفي. نظر قابيل إليها من خلال المرأة

الأمامية، بينما التفت زوجها إليها وكأنه يستشيرها في الموافقة أو الرفض، فأبدت عدم مبالاة وكأن الأمر لا يعينها، إذ علقت قائلة:

- أنتما قررا ما تريدان ولا تسألاني شيئاً، أنا تعبانة، وأريد أن أرتاح في أي مكان، في البيت، في المطعم، في أي مكان. أنا تعبانة.

وقد فهم زوجها بأنها لا تريد الذهاب من خلال تكرارها بأنها تعبانة، لكنه وقبل أن يقول شيئاً، قال قابيل:

- إذن إلى المطعم، ما دمت تعبانة وتريدين الراحة، وسأخذكما إلى مطعم إيراني شهير هنا. ما رأيكما؟

لم يكن بإمكانهما أن يقولوا شيئاً، إذ علّق ضاحكاً دون أن يترك لهما فرصة للرد:

- ستأكلان القورمة سبزي الإيراني الشهير والأرز بالزعفران مع جلو كباب. ما رأيكم؟

ولم يكن يريد أن يسمع أي رد منهما لأنه يريد أن يكون قريباً من حواء المؤمن التي صعقته بجمالها، بل إن التعب والإرهاق زادها جمالاً، لذلك اتجه بالسيارة نحو المطعم.

المطعم الإيراني يكاد يكون خالياً، سوى من رجل وامرأة يبدو أنهما إيرانيان يجلسان وحدهما في أقصى زاوية في المطعم. تعجب آدم وحواء، من أن قابيل كان معروفاً لدى أصحاب المطعم إذ أن صاحب المطعم صافحه ورحب بهم أحسن ترحيب. كانت هي لا مبالية بما يجري، برغم حدسها الغامض بنوايا قابيل من وراء كل هذا الاهتمام، فقد كان ذلك يرضي غرورها الأنثوي بطريقة لا إرادية بحيث لم تصده بشكل واضح.

أخذت تتأمل المطعم وديكوراته الجميلة المستمدة من التراث الإيراني، وحين أقبل الطعام، انتبهت لطعمه اللذيذ أيضاً، لا سيما القورمة سبزي، أما

رائحة اللحم المشوي فقد أصابتها بالغثيان، فقامت على عجل إلى غرفة الحمام والمغاسل التي رأت علامة ترشد الزائر إليها.

أحس قابيل بالضيق لحالة حواء المؤمن المتقلبة بسبب الحمل، بينما لم يهتم زوجها للأمر أبدًا! حين عادت، كانا قد أنهايا طعامهما، لكنها لم تواصل الأكل وأخبرتةما بأن رائحة الطعام تؤذيها. فأشار قابيل لعامل المطعم بأن يعدّ لهم الحساب. وبعد دقائق جاء عامل المطعم ويده صحن صغير فيه أعواد لتنظيف الأسنان وبعض الحبوب التي تطيب رائحة الفم مع فاتورة الحساب، وحينما أراد آدم اللبناني أن يدفع، من باب استعراض اللياقة، نهاه قابيل عن ذلك، ومدّ يده إلى جيب بنطاله ساحبًا رزمة كبيرة من الأوراق النقدية، فوضع في الصحن مبلغًا أكثر بكثير مما دون في الفاتورة. نظر آدم إلى الفاتورة وإلى المبلغ الذي وضعه قابيل، فأبدى اعتراضه بأنه قد أعطاه كثيرًا كبقشيش، فابتسم قابيل وهو يربت على كتفه. دون أن يقول شيئًا. كانت حواء المؤمن تراقب كل شيء.

حينما انطلق قابيل يقود السيارة عائدين إلى البيت، كان يرمق حواء المؤمن بين الفينة والأخرى، فرأى أنها منشغلة في شيء ما لم يدرك كنهه، فوجهها يعبر عن انشغال البال، لكن ملامحها بالرغم من ذلك كانت مسترخية. ”هي ليست معنا. يا لجمالها؟“ قال قابيل لنفسه. لكنه أحس برغبة قوية في أن يتحدث معها، فقال بصوت عال وهو ينظر إلى المرأة:

- سوف ترون شقتكم ولا تصدّقون أنها شقتكم التي رأيتموها.

انتبهت هي لما قاله لكنها لم تقل شيئًا، وإنما آدم سأله:

- ماذا تعني؟ كيف لا نصدّق؟

نظر هو إليه ثم إلى حواء عبر المرأة وقال مبتسمًا:

- لقد أثنتها لكما، ولم يبق إلّا بعض الأمور الصغيرة، التي لا أستطيع أن أشتريها، فغداً نذهب معاً لشراء كل ما تحتاجونه.

التفت آدم إلى حواء المؤمن متعجباً، وعلى وجهه دهشة وتساؤل، وكأنه يريد أن يقول لها كم رائع هذا الصديق؟ ابتسمت حواء المؤمن وكأنها تعرف أن كل ذلك هو من أجلها هي، ولم تعلق بأي كلمة.

في مصعد البناية الضيق جداً، والذي بالكاد تحملهم مع الحقائب، غرق قابيل في أحلام يقظته مع حواء المؤمن برغم قصر الدقائق المحدودة، وحينما وصلوا الطابق الثاني، ودخلوا الشقة، أصيب آدم وحواء بدهشة حقيقية. لم يصدقا فعلاً أن هذه الشقة هي شقتهم، فقد تركاها متربة، ووسخة، وها هي تتألق بنظافتها، وبالأثاث الذي فيها، وبمطبخها، وغرفة نومها وتلفزيونها الكبير الشاشة!

التفتت هي إلى قابيل وفي عينيها عرفان وشكر، لأنها تدرك بأنه قام بذلك تقرباً منها، أما زوجها آدم فلم يجد من كلمات يعبر بها فالتفت إلى قابيل وأخذه بالحنن. وبينما كانا في تشابك الأذرع، كان قابيل ينظر إلى حواء المؤمن من وراء كتف زوجها نظرات كلها هيام وشوق مفصوح، وتساؤل جريء.

آدم البغدادي: أليس من الممكن أن تنشأ علاقة حب حقيقية بين قابيل وحواء المؤمن، لا سيما وهو يعشقها؟ أليس ممكناً أن تقود المصلحة إلى التعلق ثم الحب؟ لكن لماذا عشقها قابيل هي بالذات؟ لماذا اختار زوجة صديقه برغم لا أخلاقية هذا التصرف؟ أهو الحنين لزنا المحارم المتأصل في الذات البشرية كنوع من التحريم والتابو؟ ربما.

فكر آدم المحروم بملاحظة صديقه المغدور آدم البغدادي عن علاقة قابيل وحواء المؤمن، وانتبه فجأة لعلاقته بحواء ابنة آدم الزاهد، لماذا هي بالذات؟ أليس هناك غيرها؟ أهو حقاً الحنين اللا شعوري لزنا المحارم؟ لا. لا. هي لا تقرب له، لكنه دخل بيتهم ومنحوه المأوى والأمان، بينما هو يحاول أن يضاجعها؟ إنه أسوأ من قابيل، فقابيل أحب حواء المؤمن ومن أجلها أنفق الكثير من المال، بينما هو يعرف أن حواء الزاهد متزوجة، وزوجها في السجن، وهي أم لطفل. بينما هو يفكر في غوايتها! "تف عليك يا آدم المحروم!" قال لنفسه، ثم واصل القراءة.

زائرتان في الفجر

مضى أسبوعان على انتقالهما النهائي إلى برلين. قابيل مستمر في لعب دور المضيف، إذ كان يحمل لهما الخضار واللحم والأرز والحلوى، ثم يدعو نفسه إلى الغداء والعشاء عندهما، بل حتى في الصباح كان يصعد ليشرب القهوة عندهما، بالرغم من أن حواء تشرب الشاي، فكانت تعد لزوجها وله القهوة! وفي آخر المساء كان يأخذ آدم معه ويخرجان، ولا يأتيان إلا عند الساعات الأولى من الفجر، وأحيانًا كانا يأتيان ومعهما كيس مليء بالمعجنات أو بلفات الشاورما وعلب البيبسي، ويجلسان إلى ساعات متأخرة من الفجر، ولا ينامان وإنما يواصلان السمر والأحاديث إلى أن يتناولوا فطور الصباح ثم يذهبان إلى النوم.

في الأيام الأولى كانت تجلس معهما حين يجيئان في آخر الليل، فتسهر معهما بالرغم من أن النعاس يثقل عليها، لكنها في ما بعد كانت تدعهما في الصلاة وتذهب لغرفة النوم لتستلقي على سريرها وتغط في النوم.

ذات مرة، بعد أن تركتهم في الساعة الأولى من بعد منتصف الليل. دخلت إلى غرفة النوم، وألقت بنفسها على السرير، ثم غفت. لكنها أفاقت على حركات الجنين القوية. وحينها انتبهت إلى الهدوء الذي يهيمن على الشقة. تحاملت على نفسها وقامت متجهة إلى الصلاة!

فوجئت إذ وجدت زوجها يجلس وحيدًا، مهمومًا، ينظر في نقطة أبعد بكثير مما أمامه، وكأنه خارج المكان. في اللحظة التي صارت فيها في الصلاة التفت إليها، محاولاً أن يتسم أو أن يغيّر من ملامح وجهه، لكنه لم ينجح كلياً! اقتربت منه، وسألته:

- ما بك؟ هل حصل شيء ما؟
- نظر إليها وكأنه فوجئ بالسؤال، بل فوجئ بوجودها أصلاً:
- هذه أنت؟ ما الذي أيقظك في مثل هذه الساعة من الفجر؟
- صحوت على حركة في بطني، لكن ما بك، أراك مهموماً؟
- لا شيء. أحس بالتعب قليلاً.
- التفت إلى زاوية الصالة حيث وضع عليها كتبه التي حملها معه، وارتسمت على وجهه نظرة منكسرة، وكأنه يعتذر للكتب لأنه تركها مهملة منذ فترة. انتبهت إلى التفاتته، فقالت:
- ماذا؟ أتحس برغبة في الكتابة؟
- نعم. ولا.
- نظر إليها، وهي تقف على مسافة منه، وقال لها مواصلاً كلامه وكأنه يبرر لها كسله وانشغاله عن القراءة والكتابة، وابتعاده عنها:
- كنت أريد أن أكتب روايتي الأولى، لكنني انشغلت، الآن سأحاول العودة للكتابة. سأكتب عن برلين، عني وعنك، وعن عالم التهريب والمخدرات والعهر. نظرت إليه باستغراب. أرادت أن تسأله عن معنى ذكره لعالم التهريب والمخدرات والعهر! لكنها أجلت السؤال، لأنها تذكرت رواية زوجها السابق الدكتور آدم التائه، فقالت:
- أرجو ألا تقتل الأبطال في النهاية! أتمنى أن أقرأ قصة ذات نهاية سعيدة مثلما في الأفلام.
- نظر إليها، وانتبه إلى أنها ليست بالساذجة كما كان يتصور، فهي على الأقل كانت زوجة لأستاذ جامعي وكاتب أيضاً، فقال بحزن:
- إذا كنا جميعاً سنموت في النهاية، فمن أين سأتي بنهاية سعيدة؟ وهل هناك نهاية سعيدة أصلاً ما دام الموت ينتظرنا؟

- المشكلة ليست في الموت. الموت كما نقول حق، لكن المشكل بطريقة الموت، بالقتل والتعذيب. هناك مَنْ يموت سعيداً، هناك موت سعيد. نظر إليها مستغرباً، ومتسائلاً، وقال:
- إنكِ تتحدثين في الفلسفة. أتدريين أن هناك رواية للكاتب الفرنسي ألبير كامو اسمها: الموت السعيد؟
- لا. لا أعرف. المهم. أن تخرج من وضعك هذا، وتبدأ بالكتابة. إنكِ تقضي وقتك كله مع قابيل، ولا تجد الوقت الكافي لنفسك!
- نظر إليها بارتباك. كان يريد أن يقول شيئاً، لكن الكلمات ماتت على شفثيه قبل أن ينطق بها. صمت. انتبهت لذلك. تقدمت منه، وجلست بهدوء على أحد المقاعد الجلدية القريبة، وقالت:
- لقد ذكرت بأنك تريد الكتابة عن برلين، وعن عالم التهريب، والمخدرات، والعهر. ما معنى ذلك؟ ومتى تعرّفت على هذا العالم؟ نحن لم يمضِ على وجودنا هنا سوى أسبوعين؟
- ارتبك. أحسّ أنه دخل شبكة عنكبوت عليه أن يخلص نفسه منها بسلام دون أن يبوح بما يكشف سرّه، فقال:
- في برلين يمكنك أن تعرفي ذلك بسهولة، ثم أني هنا في ألمانيا منذ سنوات! نظرت إليه نظرة تؤكد عدم تصديقها لما يقول، فسألته سؤالاً مباغتاً:
- أريد أن أسألك، ما هو عمل قابيل بالضبط؟ فما يقوله عن البيع والشراء لا يدخل عقلي! إنه ينفق بإسراف، بل إنه ينفق علينا أيضاً! كما أنه لا يذهب إلى أي مكان للعمل، ولم نجد يوماً أنه أتى بأي حاجات للبيع؟
- أحسّ آدم بأنه مثل نمر محاصر، وبدل أن يجيبها، افتعل الغضب، فقال وكأنه يريد أن ينهي الحوار:
- ما الداعي لمثل هذه الأسئلة الآن، أهذا ما يجب أن تفكري به؟ ألا يفترض أن نحترمه لما قام به من أجلنا، وألا نقابل ذلك بالشكوك وسوء الظن؟ هيا. لنذهب إلى النوم أفضل.

قال ذلك وهو يقوم متجهاً إلى المطبخ، لكي لا يدع مجالاً لاستمرار الحوار. فتح الثلاجة، وأخرج قنينة ماء فتحها وشرب منها. أغلق الثلاجة وتوجه لغرفة النوم.

ظلت هي جالسة في مقعدها. كانت تراقب حركاته إلى أن اختفت قامته في غرفة النوم. تأكدت لديها الشكوك أكثر حول طبيعة عمل قايل، بل وأحسّت من خلال غضب زوجها بأنه متورط معه بهذا الشكل أو ذاك. أحسّت بأن زوجها قد خذلها، رد فعل زوجها آدم حينما سألته عن عمل قايل! ظلت تقلب الأمر في ذهنها. وفجأة، بدأت الأسئلة تندفع وكأنها كانت محصورة وراء باب مقفل تحطم للتو. أخذت تسأل نفسها: “منذ أسبوعين وآدم لا يعمل، بل يقضي معظم وقته مع قايل، سواء في البيت أو حينما يخرجان، وأحياناً يتركني ويبقى معه في شقته لفترة، وبالرغم من ذلك فهو لم يطرح مسألة العمل لحد الآن، هل هو يعمل مع قايل دون أن يخبرني؟ ثم أننا لم نقبض لحد الآن معونات من دائرة المساعدات الاجتماعية، بينما آدم لا يبدي أي تذرر أو أي تضايق من الوضع المادي لنا؟ بل هو ليس متحمساً للذهاب إلى دائرة المساعدات حتى؟ صحيح أن قايل يشتري لنا كل شيء، لكنه لا يعتبر ذلك ديناً، وإنما ينفق علينا وكأنه ينفق على نفسه، لماذا؟ في الأسبوع الماضي جاء آدم بقمصلة جلدية خفيفة من النوع الفاخر وقال إن قايل أهدها إياها؟ غريبة علاقتهما هذه؟”، وبينما هي في دوامة الأسئلة سمعت نقرأ خفياً على الباب.

لم تكن منتبهة أول الأمر، لكن الدقات الخفيفة كانت تتواصل. أرادت أن تذهب لتخبر زوجها، لكنها فكّرت مع نفسها بأن تنظر من العدسة المقعرة الصغيرة الموجودة في القسم الأعلى من وسط الباب والتي يسميها قايل بالعين السحرية. قامت على مهل. تركت نعالها، ومضت حافية القدمين، وكأنما تريد أن تتلصص على من ينقر على الباب في مثل هذه الساعة.

وصلت إلى حيث العدسة المقعرة ووضعت عينها لتتأمل. فجأة. وهي في وقفها تلك، ضربت على صدرها بكفها، والتصقت بالجدار عند الباب وهي

مرعوبة. حبست أنفاسها. مشت على رؤوس أصابعها. عادت إلى وسط الصالة شاحبة! لقد رأت الراهبتين اللتين قابلتهما في المستشفى بمديتها الأولى واقفتين أمام الباب، وكانت الراهبة المسنة إيفا مارتا هي التي تنقر على الباب بينما تقف الراهبة الشابة إيفا بيرغمان إلى جانبها!

لم تصدق ما رأت، إذ راودها شك بأنه ربما لم يكن هناك طرق على الباب أصلاً، وأنها ربما تتوهم كل ذلك، لكن الطرق استمر، ولكي تتأكد من رؤيتها ذهبت إلى حيث المرأة المقعرة ونظرت ثانية، فرأت الراهبة المسنة إيفا مارتا تبسم لها بطيبة وكأنها تعرف أنها تقف وراء الباب المغلق. تراجعت قليلاً. أرادت أن تفتح الباب، لكن الرعب شلّ مفاصلها. ظلّت متسمة في مكانها. فجأة، سمعت صوتاً:

- ماذا يجري؟ أهنأك من يطرق على الباب؟

فزّت مرعوبة. التفتت إلى زوجها الذي كان في سرواله الداخلي فقط، إذ خرج من غرفته على الطرقات التي على الباب. ارتبكت هي، وقالت بكلمات متقطعة بسبب الخوف:

- أنا أيضاً سمعت الطرقات وقمت لأنظر فلم أجد أحداً.

تقدّم زوجها دونما أي كلام وتوجه إلى الباب وفتحه. كانت هي تقف مرعوبة خلفه. من مواجهة زوجها للراهبتين. لكن ما أثار استغرابها هو اختفاء الراهبتين، إذ لم يكن هناك أحد. خرج زوجها لخطوات ونظر إلى أسفل السلم الدائري، لمح ظلال ثوب أسود لثوانٍ من الوقت ثم اختفى كل شيء، صاح وهو في مكانه:

- هلو. من هناك. هلو.

لم يجب أحد. سمع حركة المصعد وهو يهبط، دخل إلى الشقة، وهو مرتبك قليلاً، وقال:

- لم يكن هناك أحد، لكن وكأني رأيت شيئاً، كظل ثوب أسود. لست متأكداً من ذلك. لا. لا. ربما بسبب النعاس الذي يطغى علي، ليس هناك من أحد، بالرغم من أنني سمعت طرقات خفيفة على الباب.

- وأنا سمعتها كذلك. يعني كانت هناك طرقات على الباب فعلاً؟

- نعم. لقد سمعتها وإلا كيف خرجت من الغرفة؟

- الحمد لله.

- الحمد لله؟ قال آدم متسائلاً.

- نعم الحمد لله. لأنني ظننت أنني أهلوس، فليس هناك أي طرقات على الباب وإنما أنا أتوهم ذلك.

- لا. لم تتوهمي، أنا سمعتها أيضاً، لكن من كان هذا؟ وماذا يريد في هذه الساعة من الفجر؟

- لا أدري. غريب أليس كذلك؟

- نعم. شيء غريب فعلاً. يلاً تعالي لننام.

دخل إلى غرفة النوم، ظلت هي للحظات واقفة تنظر إلى الباب، لم تجرؤ أن تتحدث لآدم عن الراهبتين. دخلت خلفه إلى غرفة النوم. استلقى هو على السرير، بينما ذهبت هي مباشرة إلى الدولاب الكبير الذي يحتل جانباً من الغرفة، فتحتة، أخرجت القرآن الكريم، قبلته، وجاءت به لتضعه قرب رأسها على الطاولة الصغيرة التي تستقر إلى جبتها. نظر هو إليها، وارتسمت ابتسامة إشفاق على وجهه. ضغط على الزر الكهربائي الذي قرب رأسه، فغرقت الغرفة في الظلام.

ظلت حواء المؤمن يقظة. لم تستطع أن تنام. كيف تنام وهي تستعيد لحظات خارقة في حياتها. كانت تعتقد أن كل ما رآته في ذلك المستشفى ليس إلا أوهاماً، أو أحلام يقظة، نتيجة للحالة النفسية التي كانت تعيشها في

تلك الأيام، واعتقدت أنها قد قلبت تلك الصفحة من حياتها، بل إنها محت كل ما سطرته تلك الأيام، لكن ها هما الراهبتان يلحقانها إلى برلين! انتبهت إلى الفجر الذي بدأ يخطو على برلين، لكن جنيها يبدو أنه لا يريد أن تنام، فلقد استيقظت هذه الليلة لأنه تحرك كثيرًا، ثم هداً، وها هو يتحرك ثانية! «هل أن حالتي النفسية التي مررت بها قبل قليل قد أثرت عليه، فأقلقته هو أيضاً؟»، سألت نفسها، ثم فكّرت، بأن عليها أن تذهب إلى طيبة نسائية كي تشرف على حملها ووضعها الصحي، فهي في منتصف الشهر السابع، وربما هي في نهايته، وعليها أن تنتبه. وقررت أن تخبر زوجها غداً عن الأمر، ولامت نفسها في أنها لم تفكر بهذا الأمر أول ما انتقلا إلى برلين. ظلت تنظر إلى سقف الغرفة، وتقرأ سورة الفاتحة مع نفسها، ولا تدري كيف تسلسل النوم إلى جفניה.

استيقظا على جرس الباب وهو يرن بقوة. نظرت إليه وهو يحاول النهوض، ليذهب إلى الباب، فقالت له وفي صوتها لذة النعاس.

- البس شيئاً قبل أن تفتح الباب.

أخذ بنطاله الذي كان على الأرض من جهته، وخرج وهو يشد حزامه. استذكرت ما كان ليلة أمس، وانتبهت إلى أن الراهبتين لم تضغطا على جرس الباب وإنما طرقتا على الباب طرقات خفيفة! ومن خارج الغرفة سمعت صوت زوجها وقابيل يتحدثان، ويبدو أنهما في الصلاة، نهضت ببطء. نظرت إلى نفسها في المرأة، وانتبهت لبطنها المتكورة فأحسّت بشيء من البهجة. خرجت إليهما، وهي تلقي تحية الصباح:

- صباح الخير أخ قابيل.

- صباح النور، آسف على إزعاجكم في مثل هذه الساعة. أعرف أنها الثامنة، لكنني كنت قد خرجت مبكراً هذا اليوم، فمررت على المطعم اللبناني وجئتكم

بعض القطع من اللحم بعجينة، ولم أنتظر إلى أن تصحيا لأنها ستبرد فقلت الأفضل أن تأكلاها وهي حارة، كما كانت لديّ مفاجئة أخرى.

استمعت حواء لتقريره حول سبب مجيئه مبكرًا، بالرغم من أن لديها شعورًا بأنه لا يريد أن يفارقهما، بل هو يريد أن يراها دائمًا، فهو يتحجج بكل شيء كي يأتي إلى البيت. لكن ما هذه المفاجئة التي يتحدث عنها؟ نظرت إلى زوجها الذي كان مبتهجًا، لكنه ابتهاج المخدول والمغلوب على أمره، ابتهاج من يعرف أنه سيدفع ثمنه غاليًا! نظر قابيل إليه، وقال له مبتهجًا:

- لماذا لا تريد أن تخبرها؟ أخبرها يا أخي وخلصنا، فهي تنتظر، أفرح قلبها. نظر آدم إليها لثوانٍ فقط، متجنبًا النظر لعينيها مباشرة، لأنه لم ينس حوارهما ليلة البارحة حول قابيل، لكنه بالرغم من ذلك ألقى مفاجئته قائلاً:

- الأخ قابيل وجد لنا سيارة!

- ما معنى وجد لنا سيارة؟ سألت حواء المؤمن.

- وجدنا سيارة يعني وجدنا سيارة. قال زوجها بنبرة فيها توتر وعصية مكتومة.

تدخل قابيل مباشرة في الحوار ليشرح الأمر، فقال موجهاً الكلام لها:

- وجدت لكما سيارة مناسبة، لأنكما تحتاجان للتنقل، فليس من المعقول أن تنتقلي بالمترو أو بالتاكسي وأنت في هذه الحالة، وخلال الفترة القادمة سيكون لديكما طفل أيضًا.

تنقلت حواء المؤمن بنظراتها ما بين قابيل وزوجها الذي كان يتجنب نظراتها، وقالت لقابيل:

- لكننا لا نحتاج حاليًا لسيارة، وأننا كما تعرف نادرًا ما نخرج، وإذا ما خرجنا فتتجول هنا في المنطقة، وإذا ما ذهبنا بعيدًا فأنت والحمد لله تقوم بالواجب وأكثر. ثم من أين لنا المال لشراء سيارة؟

- يا حواء. يا حواء. أنت في برلين. ماذا رأيت حتى الآن منها؟ ستعرفين أنك بدون سيارة لا تستطيعين العيش هنا. ثم إن السيارة رخيصة جدًّا، وأنا

أعرف أنكما الآن في وضع ربما لا يسمح لكما بشراء سيارة، لكن لا تهتمي. سأدفع أنا ثمنها، وحينما تتحسن حالكما يمكنكما أن تعيدا ثمنها لي، وإذا ما شئتما فيمكن اعتبارها هدية مني!

نظرت حواء المؤمن إلى زوجها الذي كان محصوراً بين بهجته بالسيارة، وبين أسئلة زوجته، وشكوكها، ونظراتها التي تطالبه بموقف رافض، لكنه غير قادر على الإقدام عليه، فقال بارتباك:

- ما تقوله حواء صحيح طبعاً. ليس لدينا الآن المال لشراء سيارة.

فانبرى قابيل للإجابة بفرح واحتفالية واضحة، حاسماً الأمر، فقد كان مصمماً على شراء السيارة لهما، وهو لا يتوانى على إقناعهم بالرغم من موقفهما، فقال:

- اسمعاني جيداً. أقسم بأرواح كل الشهداء. لا أريد أن أسمع أي رفض منكما. اعتبرها هدية مني، بل سأسجلها باسمي لكنكما تستخدمانها. (ثم واصل بنبرة عتاب موجهاً القول لآدم) ماذا تقول يا رجل، ما معنى المال بالنسبة لنا؟ أنسيت أيام الجوع في الدامور؟ أيام كنا نحلم بأبسط الأشياء؟ لا تحزنني يا رجل بالحديث عن المال. طرّ بالمال. طرّ بأصحاب الملايين. ولا أريد أن أسمع منكما أي حديث عن الحاجة إلى المال، اعتبروا كل ما لدي، وهو بمئات الألوف بين أيديكما. أوكي؟ والآن دعونا نفطر، فقطع اللحم بعجينة قد بردت. أحس آدم بشيء من الراحة النفسية حينما تحدث قابيل عن ذكرياتهما، وأنه ما زال ذلك المناضل، وبالتالي فما قاله، فيه شيء من الإجابة على شكوك زوجته حول دوافع قابيل، لكن كلامه عن كمية المال الذي لديه، أذكت جمره تلك الشكوك مجدداً!

صمتت حواء المؤمن وكذا زوجها آدم، واعتبرا الموضوع غير قابل للرد والنقاش، وهل يمكنهما الرفض والنقاش وهما في شبكته العنكبوتية؟ قامت هي إلى المطبخ لتحمل الصحون التي وزعتها على الطاولة التي تتوسط المكان، وذهبت لتعد الشاي.

بعد أن انتهوا من الأكل وشرب الشاي، طلب قابيل من آدم أن يذهبا لرؤية السيارة، فاعترضت هي قائلة:

- اليوم أريد أن أذهب لعيادة أي طبيبة نسائية، أحس بأن وضعي غير مستقر، بالمناسبة ألا تعرف هنا طبيبة نسائية قريبة من هنا، أقصد في هذه المنطقة؟ فقال آدم وكأنه فوجئ بالأمر، متسائلاً:

- ماذا تقولين؟ هل تحسين بشيء غير طبيعي؟
- لا أدري إن كان طبيعياً أم لا، لكنني أحس بحركة غير طبيعية للجنين. تدخل قابيل بسرعة قائلاً:

- أنا شخصياً لا أعرف، لكنني أستطيع أن أبحث في الكتاب الأصفر الذي توزعه البلدية وفيه كل شيء يحتاجه الإنسان. أعتقد أن هناك الكثير في الأطباء في منطقتنا، لكننا نحتاج لطبيبة وليس طبيباً كي تكشف عليك. قال ذلك وقام خارجاً، وهو يقول:

- سأتي بالكتاب الأصفر، لدي نسخة منه في شقتي.
حينما سمعا خطواته السريعة وهو يهبط السلم، قالت حواء المؤمن لزوجها بغضب مكتوم:

- ما معنى كل هذا؟ هل تستطيع أن تفسر لي سبب إهدائه سيارة لنا؟
- لماذا تسأليني أنا؟ ألم يجرِ الحديث أمامك؟ ثم إن السيارة لن تكون لنا لأنه كما قال سيسجلها باسمه!

- وهل لديك أصلاً إجازة سوق حتى تريد سيارة لك؟
- نعم لدي، لقد استخرجتها استناداً لإجازتي اللبنانية، فبعد سنة من وصولي قمت بذلك.

- لم أعرف ذلك سابقاً! قالت بريية.
لم يستكملا حوارهما إذ دخل قابيل، وفي يده كتاب ذو صفحات صفراء. فتحه على صفحة محددة، وهو يقول:

- هنا في منطقنا توجد طبيبة نسائية، وعدد من الأطباء الرجال. الطيبة كما يبدو ألمانية أو تركية، لأن الأول ألماني وبقية اسم العائلة مركب ألماني وتركي. يمكنني أن أتصل بهم لأخذ موعد، أو إذا كنت تشكين من شيء فإننا يمكن أن نذهب مباشرة.

- لا. لا. داعي. اكتب لي العنوان وسأذهب.

- ماذا تقولين؟ كيف أتركك تذهبين وحدك؟ سأخذك أنا وآدم إلى هناك.

فقال آدم مؤيداً كلام قابيل:

- نعم. سنأخذك إلى هناك.

- ألم تنويا الخروج؟

فعلق قابيل بنبرة انفعالية واضحة:

- طز بالسيارة. صحتك يا حواء هي الأهم. نستطيع أن نذهب لرؤية السيارة وجلبها لاحقاً.

استغربت من تصرف قابيل وردة فعله السريعة والقوية على ما شكت منه. كذلك عدم ارتبাকে في أن يعبر عمّا في نفسه بهذه الطريقة الفاضحة أمام زوجها! وسألت نفسها: «من هو حتى تبدر منه ردة الفعل هذه؟ ألم يفكر أنه ربما سيولد الشك في نفس زوجي آدم؟ هل هناك شيء لم تفهمه يجري بينهما حولها؟ أتراهما قد اتفقا حولها؟ أيمن أن يعقل بأن زوجي آدم يتنازل عني لصديقه دون أن تعرف؟ ماذا، أهو قواد؟ أهذا يفسر أن زوجي لم يقترب مني منذ وصولنا إلى برلين، بينما كان أحياناً يأتيها مرتين في اليوم، ولم يترك مكاناً في البيت لم يضاجعني فيه؟».

كانت الأسئلة تهطل في ذهن حواء المؤمن مثل قطرات المطر الناعم. قطرات تهطل بسرعة فائقة جداً، ولم تستطع أن توقف هطول الأسئلة التي بللت بحيرة ذاكرتها المظلمة، لماذا يتصرف قابيل معي، وبحضور آدم،

بحرية كاملة؟ وبالرغم من أنه يعرف ما يريده مني بالضبط، فهو يتصرف بعفوية وبراءة كي يغطي على ما قد يفضحه من تصرفات، أو ليفسر تواجده الدائم عندنا، ودخوله وخروجه دونما حرج أو استئذان! أو تدخله في تفاصيل حياتنا اليومية العادية، وتيسيرها وفق ما يشتهي، حتى صارت حياتنا مرتبطة بإيقاع حياته هو، وكأننا صرنا ملكًا له، لا سيما وأن زوجي يثق به ثقة عمياء دونما أي أسئلة، ولا أعرف سر تعلق زوجي به وتبعية له؟ لماذا لا ينتبه زوجي لنظراته لي المليئة بالشهوة المفضوحة؟ لماذا أحس زوجي ضعيف الشخصية ومسلوب الإرادة أمامه؟ ها هو يفعل ويقلق عليّ ويتحمس لأخذي إلى العيادة وكأنه هو زوجي؟ لا بد وأن هناك سرًّا؟ عليّ أن أعرف ذلك؟ وسأعرف! لكن ليس من زوجي وإنما منه نفسه! لكن كيف؟ ومتى؟”.

كانت نظراتها تشي بأنها تفكر بشيء ما؛ لكن علامات التعب كانت أكثر وضوحًا على وجهها. فكّر قابيل بأنها لم تنم كفاية، هذا واضح، لكن أمن المعقول أن صاحبه آدم لم يتركها تنام الليل؟ وخلال أقل من ثانية تراءت له حواء عارية ببطنها الكبيرة المدور وهي تفرج ساقها. أحس فجأة بالحرارة تصعد في جسده، فضغط على ذهنه كي يغير الصورة! نظر إلى آدم ثم إلى حواء وقال سائلًا، ليصد سيل الصور التي تريد أن تهيمن على مخيلته:

- ماذا بكم؟ هل هناك شيء قد حصل خلال غيابي؟ ليلة أمس ودعتكم وكل شيء على ما يرام، بينما اليوم أراكما خاملين، مترددين، هل حصل شيء ما؟
- لا أبدًا. كل ما هناك أننا لم نعود الصحو مبكرين هكذا! علق آدم.
- لقد سمعتُ طرقًا على الباب في الساعة الثالثة فجرًا تقريبًا. قالت حواء.
- الساعة الثالثة فجرًا؟ ومن تراه جاء في مثل هذه الساعة؟ سأل قابيل مستغربًا.

نظر آدم إلى حواء وكأنه يسمع بالخبر لأول مرة، وسأل:

- لماذا لم توقظيني؟

نظرت حواء المؤمن إليه بحيرة. استغربت سؤاله، وقالت:

- ماذا تقول؟ ألم تفتح أنت الباب ولم تجد أحداً؟
- أنا؟ صرخ آدم متعجباً.
- نعم أنت! بدليل كنت في سروالك الداخلي فقط. خرجت، ونظرت إلى أسفل السلم، وحينما عدت قلت إنك رأيت ظلاً أسود، لكنك غير متأكد من ذلك!
- هل تمزحين معي؟ قال آدم وهو يحاول الابتسام غير مصدق شيئاً مما تقوله زوجته.

هيمن صمت ثقيل على الجميع. كان قابيل يتنقل بنظراته بينهما ليعرف سرّ هذا الحديث. فما معنى قولها بوجود من طرق الباب؟ وما معنى نكران آدم لكل شيء؟

أحس آدم بأن هناك شيئاً غير مفهوم، وأن زوجته تقصد شيئاً ما لم يفهمه، ألم يكن عليها أن تتفق معه على مثل هذه الكذبة قبل أن تخرجه بها وتخرج نفسها؟ استغربت حواء المؤمن نكران زوجها لكل شيء؟ لم تفهم لماذا تصرف هكذا؟ ليس في الأمر ما يسيء لقابيل حتى ينكر أنه خرج عندما سمع طرقات على الباب الخارجي! لا. ستتحدث معه حينما يكونان وحدهما.

قلب قابيل الأمر مع نفسه، وقال لنفسه بأنه سيعرف هذا السر عاجلاً أم عاجلاً! أيلعب آدم معه لعبة خطيرة؟ أيتفق مع الآخرين من وراء ظهره؟ هل بدأ يتاجر لحسابه الخاص بحيث يأتونه بعد منتصف الليل؟ سيعرف ذلك بلا شك. وإذا ما تأكد من ذلك فإنه سوف يجعل آدم يندم ندماً شديداً. المهم الآن أن يأخذ حواء إلى العيادة، لذا قال وكأنه يريد أن يعبر حاجز الصمت الذي أوقف سير الأشياء:

- المهم. دعونا الآن نذهب إلى الطبيب، وبعدها يمكنكما النوم إلى ما تشاءان. يلاً. بلا تأخير.

قال ذلك بلهجة أمّرة. أحسّت حواء المؤمن للحظة أنها تخضع له أيضًا،
وأنه يملك سلطة خفية عليها. وأشفقت على زوجها العاجز، بل أحست
بشيء من الاشمئزاز نحوه، ونحو كل ما يجري.

آدم البغدادي: يبدو أن حكاية قابيل وهابيل كانت ترقد في أعماق اللاوعي
حينما فكرت بشخصية قابيل، بل ربما في اللاوعي منحت هذا الاسم أيضًا.

علق آدم المحروم سائلًا نفسه بعد قراءة ملاحظة صديقه القليل: أنا
قابيل آخر؟

المسخ

خرجت الممرضة من غرفة الطبيب وهي تنادي على حواء المؤمن. نهضت لتدخل، فقام كلاهما معها، إلا أن الممرضة لم تقبل بدخول أي منهما. حاولا أن يشرحا لها بأنها لا تجيد الألمانية، فأوضحت الممرضة لهما بأن على الطبيب أن تفحصها أولاً ومن ثم يمكن أن يدخل زوجها لتقول له ما يخص وضعها الصحي. انتظرا طويلاً، وبعد حوالي عشرين دقيقة خرجت حواء المؤمن شاحبة الوجه، بينما توجهت الممرضة إليهما وسألت عن أي منهما هو زوجها، فأجاب آدم، فطلبت منه أن يدخل على الطبيب لأمر هام، لأنها تريد أن تحدثه.

دخل آدم على الطبيب في غرفتها مرتبكاً، فقد خمن بأن هناك شيئاً ما لا يسر منذ رؤيته لوجه حواء الشاحب عند خروجها من الفحص. قامت الطبيبة مرحبة به، وسألته إن كان يجيد الألمانية، ويفهم ما ستقوله، فأجاب بأنه يفهم ما ستقوله، فبدأت الطبيبة قولها باللوم:

- كان عليكم أن تأتيا منذ الأشهر الأولى من الحمل، لقد أجريت لزوجتك الفحص بالأشعة المصورة لبطنها، ورأيت شيئاً لم يعجبني في الجنين. لست واثقة مئة بالمئة، لكنني أريد إجراء فحوصات أخرى عليها، سأحيلكم إلى أحد المراكز المختصة بالتشخيصات الدقيقة والتي عليكم الذهاب إليها الآن أو يمكن أن أحيلكم إلى المستشفى فوراً.

فقاطعها آدم قلقاً، وسأل:

- هل هناك شيء ما؟

نظرت الطبيبة إليه بحذر أول الأمر، كانت مترددة من أن تخبره إلى أن تتأكد مئة بالمئة، لكنها اضطرت أن تجيب على سؤال الزوج، فقالت محاولة تخفيف الأمر جهد الإمكان:

- أعتقد أن الجنين مشوه. لست متأكدة بالكامل. هناك عدم تناسب واضح في تطور الأعضاء. رأسه أكبر من اللازم بكثير، وجسده ضامر أكثر مما يجب. لا أريد أن أطلق حكمًا نهائيًا، لكنني يجب أن أتأكد من ذلك، لأنني أعتقد أن الجنين مصاب بما يسمى طبيًا (هيدراسفاليه)، أي وجود ماء كثير في رأس الجنين. سأحيلكم إلى هذا المركز الذي يرأسه البروفيسور آدم آدمز، الذي كان أستاذاً أيضًا، وربما سيحيلكم هو بنفسه إلى المستشفى إذا توجب ذلك.

- ماذا تقصدين بالمشوه؟!

- أقصد أنه مسخ، الجنين ليس جنينًا طفلًا اعتياديًا، وإنما هو مسخ.

- وما الحل؟ قال آدم قلقًا بل ومرعوبًا.

- أما الاحتفاظ بالجنين لحين ولادته، وفي معظم الأحيان أنه يموت بعد ساعات من الولادة أو تريدان إسقاطه من خلال إجراء الطلق الاصطناعي، وبعد ولادته سيموت أيضًا. في كل الأحوال سيموت مثل هذا الطفل لأن وضعه غير طبيعي، وجسده غير مؤهل للقيام بالوظائف الأساسية للجسم، إلى جانب أنني وجدت في عنق رحم زوجتك شيئًا مريبًا، يمكن أن تستكملا الفحوصات في مركز التشخيصات الدقيقة.

- يعني أنها حامل بطفل مسخ؟

- يؤسفني قول ذلك. أعتقد أن عليكما أن تناقشا الأمر وتقررا إن كنتما تريدان الاحتفاظ بالطفل أم لا؟

- هل هي تعرف بكل هذا؟

- من؟ تقصد زوجتك؟ لا، فأنا لم أقل لها لحد الآن شيئاً، لكنني مضطرة أن أقول لها ذلك، لذا استدعيتك لأقول لك ذلك أولاً، ويمكنك أن تخبرها بنفسك أو أخبرها أنا، لكنني أعتقد أن الأمر سيكون صعباً عليها لذا فضلت أن أخبرك أولاً. سأكتب للبروفيسور آدم آدمز وهو يعرف ما المطلوب في مثل هذه الحالات.

قامت الطبيبة لتعبّر بذلك عن نهاية المحادثة. قام هو مرتبكاً، شاحباً، مرعوباً، وخلال ثوانٍ قليلة، ما بين مكانه والباب وغرفة الانتظار، عاش عمره كله. تراءت له الأشياء كفيلم سريع جداً، وها هو الآن يقف ليواجه طفله المنتظر، طفله المسخ. راودته مشاعر مختلفة في تلك اللحظة، لكن أهم صعوبة واجهته كانت مسألة إخبار حواء بالأمر. استغرب من نفسه لشعوره بشيء من الراحة عند سماع أن الجنين المسخ سيموت في كل الأحوال، بالولادة الطبيعية أم بالطلق الاصطناعي، لأن هذا الأمر سيضع، بشكل تلقائي، نهاية لهذه المغامرة، ولهذا الارتباط الذي جاء نتيجة لنزوة جنسية لا أكثر.

وسرعان ما شعر بتأنيب الضمير لهذا الشعور الغريب بالراحة للانتهاء من هذه العلاقة! قرّر مع نفسه أن يكتّم الأمر الآن على حواء، إلى أن يناقش الأمر مع نفسه ويقرر أي طريقة هي الأفضل لإخبارها بالكارثة، لكن ماذا عن قابيل؟ هل سيخفي الأمر عنه أيضاً؟ ربما سيعرف بطريقته، فهو مهووس بالأطفال، ويعتني بحواء بشكل استثنائي لأنها حامل!

حينما خرج آدم من غرفة الطبيبة، لم يذهب إليهما مباشرة وإنما وقف عند مكتب الاستقبال لأخذ التحويل إلى المختبر وليعطي لنفسه وقتاً يستطيع أن يسيطر به على انفعالاته. جاء قابيل مباشرة إليه وهو يسأله:

- ها. ماذا قالت الطبيبة؟
- لقد أعطتنا تحويل لأحد مراكز التشخيصات الدقيقة، التي علينا أن نذهب إليها حالاً.

- تحويل لمركز التشخيصات الدقيقة؟ لماذا؟ هل هناك شيء غير طبيعي؟
- لا أبدًا، لكنها تريد أن تعرف الوضع الصحي للجنين بشكل كامل، لا سيما وأن حواء لم تكن عند أي طبيبة منذ أشهر.

اقتربت حواء منه قلقة، وشاحبة، وكانت تنظر في وجهه لتعرف إن كان يخبئ شيئًا ما. لم تستطع أن تفهم شيئًا، فقد كان وجهه ينم عن قلق، وإحراج، ليس أكثر. سألته وكأنها تستجدي أملًا:

- ماذا قالت لك الطبيبة؟

- لا شيء مهم. إنك يا حواء لم تذهبي إلى الطبيب منذ معرفتك بالحمل. أنا أعرف أن الظروف هي التي حالت دون حصول ذلك، لكن على أي حال، فإن هذه الطبيبة تريد أن تدقق في كل التفاصيل، وضع الجنين، نموه الطبيعي، ووضعك أنت وما شابه، ولهذا علينا أن نذهب إلى المركز حاليًا.

- أليس لديها هنا في العيادة جهاز لتجري لي التحاليل المطلوبة؟

- لا. هي تريد فحوصات أكثر من هذه الفحوصات البسيطة التي يمكن أن تجريها هنا وإلا لماذا ترسلنا إلى مكان آخر؟

- ألم تقل لك شيئًا آخر؟

- مثل أي شيء؟

- لا أدري. أي شيء يخص الجنين مثلاً! فقد كان وجهها قلقًا وهي تجري لي الكشف بالسونار.

- لا. لم تقل شيئًا خاصًا.

كان قابيل ينظر إلى وجه آدم طوال المحادثة بينه وبين حواء. أحس بأن هناك شيئًا ما غير مفهوم يخفيه، لكنه لم يذهب به الفكر إلى تصور ما قالته الطبيبة لآدم.

كانت هناك في قاعة الانتظار، وفي زاوية جانبية لا يمكن ملاحظتها بسهولة امرأتان تنظران إليهما وتستمعان لحديثهما، وعند باب الخروج

التفتت حواء إلى صالة الانتظار فرأت المرأتين، أحست لوهلة أنها رأت هذين الوجهين، لكنها لم تتذكر أين ومتى! بلى إنهما الراهبتان! أحست بالخوف، ولم تستطع أن تخبر الرجلين اللذين معها.

في المركز الطبي للتشخيصات الدقيقة تم إجراء الفحوصات والتصوير الملون وسحب الدم، وقالوا لهم بأن يراجعوا غداً، أو إذا شاءوا فليراجعوا الطبية في العيادة. كان الجو العام كثيباً، وكان آدم كالمحموم، لحظة يكون كثيباً، وأخرى يبالغ في الضحك على أبسط الأمور التي لا تبعث على الضحك. أحس قابيل وحواء بأنه غير طبيعي، لكن لم تذهب بهم الأفكار بعيداً إلى حيث ما دار من حوار في غرفة الطبية.

كان الوقت قريباً من منتصف النهار حينما عادوا إلى البيت. شكرت حواء المؤمن قابيل على جهوده معها، وكانت هذه هي المرة الأولى التي تشكره على شيء فعله لهما. أحس هو بالخجل والارتباك. لم يستطع تحمل هذا القدر من الرقة واللفظ من قبلها، بالرغم من أنها عبرت بكلمات بسيطة ومختصرة، لكن نظراتها كانت تشي بكم هائل من العرفان بالجميل. وللحظة شعرت أنه أقرب إليها من زوجها آدم! بل وربما هو يحبها ومغرم بها، وليس فقط رغبته فيها وفي امتلاك جسدها، والتي تفضحه نظراته إليها عن ذلك، وكتعبير عن عرفانها بجميل ما قام به، وكأنه يقدم لهما خدمة لأول مرة، أبدت استعدادها على أن تقوم بإعداد وجبة الأرز مع الفاصوليا والتي تجيد طبخها. إلا أنه اعترض بشدة، وقال إنه سيحمل الطعام من مطعم قريب، وسألها إن كانت قد جربت الطعام الصيني، فوجدت الأمر مثيراً، فقام من لحظته، وطلب من آدم أن يأتي معه، وخرجا.

ظلت جالسة على الصوفا الجلدية. أخذت الأفكار تتداعى في عقلها ونفسها، أيمن أنها بدأت تحب قابيل؟ لقد كانت تحسن نفسها، وتضع

الموانع النفسية التي تنفرها منه، لكنها الآن بدأت تتقبل وجوده، بل صار جزءاً ضرورياً لا يمكن تصور وضعها في برلين بدونه! أهكذا ينشأ الحب؟ هي تعرف أنه يريد أن يضاجعها، تعرف ذلك جيداً، وهي لا تمنحه أي ذريعة لذلك، لكنه أيضاً يهتم بها، ويفكر بكل ما يريحها، بل هو يكرس كل وقته من أجل أن يكون بين يديها ويخدمها. إنها تعرف أنه يساعد زوجها آدم في الكثير من الأمور، فقط من أجل أن يكون قريباً منها، هو يعشقها، نعم، هذا واضح. وأنها تقاوم كل محاولاته للتقرب منها، لكن إلى متى ستقاوم؟ هو يكاد يعيش معهم، ولا يفارقهم إلا في وقت النوم. صار وجوده لا يثير نفورها كالسابق. وهي تخاف من أن تنجرف مع شهواتها، وتضعف أمام رغبتها، وتمنحه نفسها، ولا تدري عندها كيف ستنتهي الأمور؟ ربما بجريمة؟ فإذا عرف زوجها آدم حينها فإنه سيقتلها، أو يقتلها، أو يقتله، وفي كل الأحوال ثمة دم وجريمة ستحدث! كيف لها أن تتخلص من هذه الورطة التي وجدت نفسها فيها؟

فجأة، برقت في ذهنها فكرة. لماذا لا تجرب الانتقال من هذه الشقة إلى شقة أخرى، في منطقة أخرى من برلين، كي تكون في منأى من حصاره الجنسي لها؟ لكن كيف لها أن تقنع زوجها آدم؟ ماذا عليها أن تقول له كي يقتنع بضرورة الانتقال؟ هل تقول بأن الشقة صغيرة! لا. هذه حجة ضعيفة، فالشقة كبيرة وفيها غرفة أخرى فارغة! أتقول له بأنها غير مرتاحة لقابيل، فسيسألها إن كان قد تحرش بها؟ وحينما تنفي ستسقط حجتها! وإذا أكدت ذلك فربما سيتشاجران، أو سيطلب قابيل مواجهتها لتثبت ذلك، فهو لم يلتق بها لحد الآن بغياب زوجها. ما هو الحل؟ كانت تشعر نفسها محاصرة.

كانت ما تزال في دوامة أفكارها ومشاعرها حينما سمعتما يفتحان باب الشقة ويدخلان، وهما بيتسمان. وحينما لاحظ آدم بأنها لم تحضر الصحن والملاعق، وإنما كانت في نفس الحال عندما تركاها، نظر إليها وكأنما

يعاتبها على هذا الأمر. حينها شعرت هي بالتقصير، إلا أن قابيل تدارك الأمر قائلاً وهو يؤنب آدم:

- لماذا تنظر إليها هكذا؟ ماذا فعلت؟ لا تنس أنها حامل!

ودلف إلى المطبخ ليضع الطعام هناك، ثم يفتح الخزانة ليحمل الصحون. ارتبكت من تصرفه، وذهبت هي إلى المطبخ أيضًا لتأتي هي بالصحون والملاعق. كان الطعام شهياً جداً. كانت هذه هي المرة الأولى التي تجرب حواء المؤمن الطعام الصيني.

آدم البغدادي: شخصية حواء المؤمن غامضة، هي تعرف أن قابيل يريد أن يضاجعها، وهي لا تمنحه أي ذريعة لذلك، وتتمنى أن يتعد عن حياتها، لكنها أيضًا مستمتعة باهتمامه الواضح بها، وبجراته في التقرب منها ومنحها إحساساً بأنها مهمة جداً بالنسبة له أكثر من زوجها، لذا فهي لا تريد أن تخسره؟ عجيبة هي نفسية المرأة.

قرأ آدم المحروم ما علّق به صديقه على الفصل، فقال لنفسه: أعتقد أن هذا جزء من غموض أعماق المرأة. فحواء ابنة آدم الزاهد أيضًا تلوح لي بإشارات خفية، بالرغم من أنها امرأة تقية، ومؤمنة، ومتدينة، وأم! وهي أيضًا امرأة محرومة بثنيين عامرين وجسد شامخ. لا أدري لماذا لدي إحساس بأن حواء الزاهد ستكون لي، برغم حشمتها وطهرانيتها.

استغرب أن صديقه آدم البغدادي عليم بأحوال النساء وعالمهن الداخلي. فقد كان في حياته اليومية زاهداً في كل شيء! لم يشغل نفسه بالتفكير أكثر، أخذ المخطوطة وواصل القراءة.

البئر ذات الماء الأسود

أحسّت حواء المؤمن بلذة الغداء الصيني، لكنّها لاحظت أن زوجها آدم ليس على طبيعته، فقد كان يسهو للحظات عنهما، لكنه سرعان ما يعود إلى نفسه. قابيل حاول، حينما ذهب إلى المطعم الصيني أن يعرف منه سبب تقلباته المزاجية، فلم يعطه جوابًا شافيًا. كل ما هناك أنه أشار إلى أن وجود طفل في العائلة يعني وجود مصاريف جديدة، كما أن وضع حواء النفسي لا يعجبه، فهي تتصور أشياء غريبة لم تحصل، مثلما ادّعت اليوم بأن هناك من طرق الباب في الساعة الثالثة فجرًا تقريبًا، وأنه هو قد فتح الباب فلم يجد أحدًا، بل إنه خرج لينظر إلى أسفل السلم فرأى ظلًا أسود، وما شابه، وهذا مؤشر غير جيد. يبدو له أنها ليست في وضع نفسي مستقر. بيد أن قابيل ردّه، مؤكدًا بأن حواء امرأة رائعة وأنها سيدة محترمة، وست الستات، لكن ربما هي تعبانة من الحمل، وهذه حالة طبيعية عند النساء. أما في ما يخص وضعهم المادي فليترك القلق جانبًا، لأنه سيدعمهم، وسيقف معهم في كل الظروف، وطلب من آدم أن يكون لطيفًا معها. وهكذا لم ينطق آدم بأي كلمة عن الكارثة التي تنتظرهم. وربما اعتقد بأن الوقت غير مناسب، لكنه في كل الأحوال سيحتاج إلى دعم قابيل في إقناعها بضرورة إجراء العملية، لكنه لن يقول شيئًا إلا بعد أن تظهر النتائج بشكل كامل ويتيقن منها، مثلما تتيقن الطيبة نفسها من ذلك.

بعد الغداء قامت حواء المؤمن لإعداد الشاي، وكان قابيل جالسًا على الصوفا الجلدية المقابلة للمطبخ، وبينما ذهب الزوج آدم إلى الحمام كان هو

يسترق النظر إلى حواء المؤمن وهي منشغلة هناك، لكنها كانت تخمّن بأنه ينظر إليها من مكانه. التفتت هي نحوه، رأيته ينظر إليها فعلاً، ابتسمت له بخفر، ثم غابت عن ناظريه في الزاوية الأخرى من المطبخ. فكّر قابيل مع نفسه: “هذه هي المرة الأولى التي تبسم لي، فقد كانت دائماً لا تعطيني أي مجال لشيء خاص بيننا”؛ لذا شعر بفرح غامر وبزهو فحولي بأنها بدأت تنهار أمامه.

كان هو منتبهاً لتحولاتها في التعامل معه، فمن التوتر والنفور في التعامل معه في بداية أيام وصولهما، إلى اللامبالاة، إلى الحياد العادي، إلى التجاوب السليبي، لكن التحول الإيجابي جرى اليوم حينما شكرته على ما قام به حينما أخذها إلى العيادة ومن ثم إلى المختبر، وحين لم تتركه يقوم بإحضار الصحن عند الغداء! أحسّ أن الثمرة قد نضجت، وعليه الإقدام على خطوة جريئة لتصبح له بالكامل، “لكن ماذا عليّ أن أفعل؟” سأل نفسه. كان يفكر مع نفسه بأنه سيحسم علاقته معها إذا ما انفرد بها ولو لمرة واحدة، فهو متأكد حينها بأنها إما ستكون له بالكامل، وإما يخرج من حياتها إلى الأبد، لكن كيف يمكن أن ينفرد بها دون وجود زوجها؟ كانت المخاطر والأفكار تمرق بسرعة مذهلة في ذهنه، وفكّر أن هذا لا يمكن إلا بإبعاد زوجها من الشقة لفترة طويلة، ولو لساعات قليلة! فجأة، برقت في ذهنه فكرة خبيثة، ألا وهي أن يدّعي بأن لديه عملاً خاصاً جداً، وأن يطلب من زوجها آدم الذهاب إلى أحد أطراف برلين، إلى منطقة “شبنداو” لاستلام السيارة، حيث سيعطيه العنوان، وسيسلمه المبلغ المتفق عليه مع صاحبها!

حين خرج آدم من الحمام، وكانت حواء المؤمن في المطبخ، قال له قابيل مباشرة:

- اسمعني يا آدم، أنا عندي الآن موعد مع صاحب البضاعة، كنت أريد أن نذهب معاً لجلب السيارة، لكنني سأتصل بصاحبها، وسأعطيك عنوانه بالكامل، وستذهب بالتاكسي، ومن هناك سترجع بها، خذ معك إجازة السوق، وهو سيزودك بملكية السيارة، وتأتي بالسيارة!

- استغرب آدم من طلبه بأن يذهب منفردًا، وقال متسائلاً:
- ألا يمكن أن نذهب غدًا معًا؟
 - لا. فصاحبها قد عرض سعرًا مقبولًا جدًا، بل رخيصًا، وربما سيغير رأيه لو تأخرنا عليه.
 - لكن...
 - ماذا يا أخي. هل أنت غير واثق من نفسك ومن سياقتك؟
 - لا. على العكس أنا سائق محترف وأنت تعرف ذلك.
 - إذن على بركة الله. بعدما نشرب الشاي سننزل عندي، ونصل به، وأعطيك المبلغ المتفق عليه معه. أنا سأذهب لساعة أو ساعتين، وبهذه المناسبة أود أن أدعوكما عندي، لكن شقتي تحتاج لبعض الترتيب.
 - خلال هذه المحادثة أقبلت حواء المؤمن بصينية الشاي وفيها دورق الشاي والإستكانات، وقد سمعت الجملة الأخيرة، فقالت ببراءة:
 - أنا سأرتبها لك، متى تريدها جاهزة؟
 - لا. أنتِ حامل. ربما ستتعين، يمكنني أن أستأجر من يأتي لتنظيفها.
 - تدخل آدم متحمسًا، وهو يقول:
 - لماذا تدعو أحدًا؟ يمكن لحواء أن تنظفها لك خلال ساعة، وبينما أنت تذهب لموعدك، ستكون هي قد رتبته لك أحسن ترتيب.
 - قل فقط متى تكون أنت خارج البيت وأنا سأقوم بذلك. لا تقلق! قالت حواء بحيادية مشوبة بمودة خفية.
 - بعد أن نشرب الشاي، سننزل أنا وآدم لتتصل بصاحب السيارة، وقبل أن أذهب سأناديك كي تنزلي إلى شقتي.
 - ليست هناك أي مشكلة. قالت هي.
 - أحست هي برغبة مفاجئة وغامضة في أن تزور شقته وترتبها له، وتدخل غرفة نوم. رغبة وانجذاب مفاجئ في أن تقترب منه، لتعرف عالمه.

استعجل قابيل في شرب الشاي. كان يفكر بسرعة هائلة في كل تفاصيل خطته، ففكر بشبق بأنها لو جاءت إلى شقته فربما سيضاجعها بالقوة، لكنه لا يريد أن يهجم عليها مباشرة أو أن يغتصبها، بل يريد لها طيعة، لا سيما وهي حامل، وأي حركة عنيفة من قبله أو قبلها ربما ستأتي بنتائج كارثية، لكن كيف عليه أن يوصلها إلى تلك المرحلة من التواصل؟! وبرقت في ذهنه فكرة فاحشة، هي أن يضع أقراصه المدمجة ومجلاته التي تتضمن أفلامًا إباحية، وصورًا لنساء حوامل وهن يمارسن الجنس، بطريقة خاصة بحيث تقع أمام عينيها، فلتكن على سريريه في غرفة نومه مثلاً وكأنه نسيها سهوًا، وحين يفاجئها في الغرفة في تلك اللحظات فستكون الأمور واضحة، وسيعرف موقفها. المهم عليه الآن أن ينجح في إبعاد زوجها!

بعد أن شرب إستكانًا واحدًا من الشاي، نهض من مكانه وكأنه على عجلة لإنجاز مهمته والذهاب إلى مواعده. نظر إلى آدم وقال له:

- سأنتظرك في الشقة، تحت.

ثم التفت إلى حواء المؤمن وقال لها بنبرة هادئة:

- قبل أن أذهب لمواعي سأخبرك كي تنزلي.

حينما خرج التفتت حواء المؤمن إلى زوجها آدم وسأله بغضب مكتوم:

- الآن صرنا وحدنا، قل لي. لماذا أنكرت أنك فتحت الباب فجراً، ولم تجد أحداً؟ وكأنني كنت متوهمة!

- ماذا تقولين يا حواء؟ أنا فعلاً لم أفتح الباب لأحد، وكنت نائمًا، ظننتك تقصدين شيئاً من وراء ذلك، لكنني لم أفهم قصدك!

- هل تمزح معي أم ماذا؟ ما معنى أنك لم تفتح الباب؟ قالت حواء مستفزة.

- أقسم لك أنني لم أفتح الباب.

فقالت حواء بنبرة عصبية واضحة:

- ماذا؟ هل أنا مجنونة كي أتخيل كل هذا؟
- أنا لم أقل إنك مجنونة، لكني فعلاً لم أفتح الباب لأحد!
- صمتت هي للحظات ثم نظرت إلى وجهه دون أن يرف لها جفن كي ترصد رد فعله، ثم قالت:
- أتدري من رأيت من وراء العين السحرية في الباب؟
- من أين لي أن أعرف؟
- رأيت الراهبتين، الراهبتين اللتين رأيتهما في المستشفى في مدينتنا الأولى!

فجأة أحس آدم اللبناني بأنه لا يستطيع أن يبقى هادئاً أمام كل هذا الهراء، والتخيلات المجنونة، فقال بما يشبه الصراخ:

- هل أنت في كامل قواك العقلية يا حواء؟ الراهبتان مرة أخرى؟ كيف جاءتا إلى برلين؟ وكيف عرفتا العنوان؟ ومن ثم ألم تقل لنا الإدارة في حينها بأنه لا توجد راهبات في تلك المستشفى؟ وأن كل ذلك من أوهام المرضى!
- وأنت والحمد لله لست بمريضة الآن. وحتى لو افترضنا جدلاً أنهما كانتا هنا حقاً، فلماذا جاءتا في الساعة الثالثة فجراً وليس في الصباح مثلاً؟ ولماذا طرقتا على الباب ولم تضغطا على الجرس؟ و. و.

صمتت أمام عصبيته المفاجئة، وأمام حججه المنطقية جداً، بل إنها أخذت تفكر بحججه التي قالها وزادت هي عليها: «لماذا جاءتا في الثالثة فجراً وليس في وقت آخر؟ ولماذا طرقتا على الباب طرقة خفيفاً ولم تضغطا على الجرس؟ وإذا كانتا فعلاً قد جاءتا خصيصاً إليها هنا في برلين، فمن أين حصلتا على العنوان؟ ولم لم تزوراها حينما خرجت من المستشفى مباشرة، أو حينما انتقلت إلى مدينة إيسن؟ بل وكيف عرفتا أنها صاحبة ولم تنم؟»، ظلت للحظات غارقة في أفكارها وتداعياتها، بينما نهض وهو يقول:

- أنا ذاهب إلى منطقة شبنداو بالتاكسي لكنني سأرجع بالسيارة، هل تحتاجين مني شيئاً؟

نظرت إليه نظرات شاردة، وقالت باستسلام:

- لا. سلامتك. لا أحتاج لأي شيء، هل ستتأخر؟
- لا أعرف. ربما ساعتين أو ثلاث، وربما أكثر.

خرج آدم من الشقة، نظر إلى جهة المصعد فوجده مستقرًا في طابقهم، ولرغبة خفية غامضة، دخل إلى المصعد وهبط إلى الطابق الأول الذي فيه شقة قابيل، على الرغم من أنه طابق واحد. فهما يعيشان في الطابق الثاني، استغرب من نفسه ومن هذه النزوة الغريبة.

جرت الأمور مثلما خطط لها قابيل، وكأنه سيناريو سينمائي محكم، إذ اتصل من تليفونه الأرضي بالشخص المعني صاحب السيارة، وأخبره بأنه سيرسل له شخصًا اسمه آدم اللبناني، يحمل له المبلغ المتفق عليه، وبدوره عليه أن يسلمه أوراق ملكية السيارة، كما أعطى ثمن السيارة المتفق عليه لآدم، مع مبلغ جيد يكفي لسيارة التاكسي للذهاب إلى تلك المنطقة البعيدة من أطراف برلين.

انتظر قابيل بعض الوقت. وقف عند الشباك المطل على الشارع ولم ينادي حواء المؤمن إلا بعد أن أطمئن من صعود آدم إلى سيارة التاكسي، لكنه قبل أن يذهب ليناديها دخل إلى غرفة نومه، وأخرج بعض المجلات والأقراص المدمجة ووضعها بشكل غير متناسق على السرير، ثم دخل إلى الحمام ليحلق ذقنه ويستحم.

كانت حواء المؤمن في حالة نفسية قلقة، لكنها شعرت بشيء من الراحة حينما خرج آدم وبقيت وحدها. ظلّت جالسة على الصوفا الجلدية. أحسّت برغبة في النوم، لكنها وعدت قابيل بأن تنظف له شقته، غير أنه لم يأت،

فقامت متوجهة لغرفة النوم! لم تدخل الفراش، وإنما تمددت قليلاً، متوقعة أن يأتي قابيل، وكانت تسري في أعماقها رغبة في أن يأتي، لكنها عادت لتفكر بما قاله لها زوجها آدم. وسألت نفسها: "هل وصل بي الوهم بحيث صرت أتوهم خروجه بسر واله الداخلي ليفتح الباب، ولينظر إلى أسفل السلم؟ ألم يقل لي بأنه رأى ظل ثوب أسود؟ بينما نكر ذلك في ما بعد، وقال بأنه كان نائمًا الليل كله؟، ظلت تستعيد مشهد الليلة الماضية وطرقات الباب الخفيفة ورؤيتها للراهبات. لم تشعر كيف أخذتها الغفوة إلى حقول غريبة.

كانت وحيدة في قطار، لم يكن ثمة أحد في كل العربات، كانت وحدها، لكنّها لم تكن حاملاً، كانت في ثوبها الأسود الجميل الذي وصلت به إلى برلين، وعليه كانت ترتدي البلوزة البرتقالية نفسها. كان القطار يتحرك سريعاً جداً. ألقت نظرة من النافذة، فبدأ لها القطار وكأنه يخترق الضباب، ضباب كثيف، والقطار يطلق صفارته في الضباب. فجأة، انقشع الضباب، وجدت أن القطار بدأ يدخل طريقاً مشجراً من كلا الجانبين. وكانت أغصان الأشجار المتدلية ترتطم بعربات القطار من الجانبين.

وعلى غير توقع، دخل القطار إلى صحراء بيضاء، صحراء من الثلج لا حدود لها ولا أفق منظور حيث تلتحم الأرض البيضاء بالسماء الثلجية البيضاء. توقف القطار، مطلقاً أزيزاً مزعجاً نتيجة الكابحات لحركته. ألقت نظرة من النافذة فرأت ثمة بئراً حجرية تتوسط تلك البراري الثلجية اللا متناهية!

وعلى غير توقع منها انفتح باب العربة التي هي فيها من تلقاء نفسه، شعرت وكأن هناك نداءً صامتاً وغامضاً يدعوها إلى النزول والتوجه إلى تلك البئر التي لم تكن بعيدة جداً من القطار، لكن أيضاً لم تكن قريبة منه.

نزلت من القطار، مشت في الثلج، وصلت إلى البئر، رأت دلوّاً معلقاً بها؛ أنزلت الدلو إلى قاع البئر، لكن البئر كانت عميقة جداً! وأخيراً سمعت ارتطام الدلو بسطح الماء، سحبت الدلو إلى الأعلى، ظلت تسحب الدلو

طويلاً، لكن ما إن صار قريباً منها حتى ألقته مباشرة، إذ كان الدلو مليئاً بماء أسود! ومن أعماق البئر جاءت أصوات فقهقات ساخرة، هربت من البئر ولاذت بالقطار ثانية!

ما إن صعدت إلى القطار حتى تأكدت بشكل قاطع إلى أنه لا أحد في القطار سواها! أغلقت الأبواب من تلقاء نفسها، وبدأ القطار بالحركة! ازدادت سرعته بطريقة جنونية. شعرت وكأن القطار بدأ يرتفع عن السكة الحديدية، ويتلوى في الهواء مثل ثعبان حديدي عملاق، واستمر لفترة لا تستطيع تقديرها، وبعد فترة هبط سائراً على بحيرة متجمدة. ظل القطار يدور حول محيط البحيرة المتجمدة، ثم بدأ بحركة دائرية متداخلة في وسط البحيرة مشكلاً رقم ثمانية كما يكتب في اللغات الأوروبية، حركة مغلقة لا منافذ فيها. ثم فجأة، صعد القطار ثانية إلى الفضاء، وظل يلتف إلى أن نزل مرة أخرى على السكة الحديدية!

فجأة، دخل القطار نفقاً في أعماق جبل، وبالرغم من أن القطار كان فارغاً إلا أنها، فقد سمعت صراخ أطفال مرعوبين! لم تعرف من أين يأتي هذا الصراخ؛ فالظلمة كانت دامسة داخل النفق، ولم تكن هناك إضاءة داخل القطار! فجأة، خرج القطار من النفق المظلم، ومع خروجه انقطع صوت صراخ الأطفال المرعوبين، لكنها سمعت بكاء طفل وحيد يأتي من العربة المجاورة.

حين فتحت باب العربة المجاورة رأيت مهذاً كبير الحجم، يرقد فيه طفل، لكنه ليس طفلاً وإنما مسخ كبير! كان طفلاً مسخاً، رأسه كبير جداً، بينما جسده لا يتجاوز حجم الكف! كان الطفل ينظر إليها بعينين واسعتين جداً. إنه أشبه بكائنات الفضاء التي كانت تراها في بعض الأفلام. فجأة اختفى الطفل، وتحول إلى هيئة مصغرة لزوجها آدم اللبناني، لكنه كان بقرنين صغيرين على رأسه. فزت مرعوبة، بينما كان جرس باب الشقة يرن.

استعادت بالرحمن من شر هذا الكابوس، قامت متسللة خارج الغرفة، وحينما فتحت الباب وجدت قابيل أمامها. كان حليق الوجه، فواح الرائحة، إذ رش على وجهه الكثير من العطر، وقد لبس قميصاً نظيفاً.

ابتسم لها، شعرت أنها لا تستطيع الابتسام، فهي ما زالت تحت تأثير ذلك الكابوس الغريب، لكنها ارتاحت لوجوده، فقد منحها وجوده شيئاً من الأمان. راودتها رغبة في الخروج من الشقة. وبدون أن يقول شيئاً، عرفت أنه جاء ليخبرها لتنزل، وعلى غير توقع منه، أغلقت الباب خلفها ونزلت معه على السلم إلى الطابق الأول.

كان باب شقة قابيل مفتوحاً، وحينما صارا في الشقة، قال لها بأن تأخذ حريتها، إذ عليه أن يجري اتصالاً سريعاً بالشخص الذي يرتبط معه على موعد ويخبره بقدومه. بدأت هي من المطبخ. لم يكن هناك الكثير لتعمله في المطبخ. بينما أخذ هو سماعة التليفون وضرب رقماً وهمياً، ثم قطع الاتصال، لكنه أخذ يتحدث وكأن هناك شخصاً ما على الطرف الآخر من التليفون، وأخذ يقول له بصوت عالٍ كي تسمع هي:

- أهلاً وسهلاً، نعم هذا أنا قابيل. نعم، نعم، اتفاننا اليوم، بعد نصف ساعة، ماذا؟ ماذا تقول؟ لماذا؟ كيف بعد ثلاث ساعات؟ لا. لا. لدي أعمال أخرى بعد ثلاث ساعات، ثم لدي ضيوف يا أخي. ماذا تقول، غداً؟ أكيد. أم مثل اليوم نتفق ثم تعتذر، وتلغي الموعد مرة أخرى؟ لا. لا. هذا غير ممكن، سأرى!

وضع السماعة على الجهاز، وجلس على الصوفا لابساً على وجهه قناع النفور والعصبية، وكان يراها تتحرك في المطبخ. لقد سمعت هي كل شيء، ويبدو أن فرحاً غامضاً تسرب في أعماقها بتأجيل الموعد. نظرت إليه فرأت علامات العصبية على وجهه، فسألته على استحياء:

- ماذا؟ هل تأجل الموعد؟

- نعم تأجل، إلى الغد.

- أفضل. إلى الغد. ليكن. ما المشكلة في ذلك؟

نظر إليها غير مصدق ما سمع. سأل نفسه: «ربما قالت ما قالت ببراءة دونما أي قصد!»، لكنه سمع صوتاً داخلياً يجيبه قائلاً: ليس هناك كلمات

تقولها امرأة لرجل بدون قصدٍ ما، فحتى لو كانت بدون قصد فهي مقصودة كي تبدو بدون قصد!

فجأة، انتبه إلى أنها اتجهت إلى غرفة نومه، حبس أنفاسه ليرى ردة فعلها على رؤية الأقراص المدمجة. ظلّ ينتصت، لكنه لم يسمع أي شيء، فلم يصدر منها أي صوت أو ردة فعل.

مرت دقائق دون أن يصدر منها أي صوت. ماذا جرى؟ سأل نفسه. مرّت أكثر من خمس دقائق والسكون يهيمن على غرفة نومه. قام متسللاً بخفة إلى غرفة النوم.

حين دخل على مهل، رآها وهي واقفة تنظر إلى الأقراص المجمدة والمجلات المفتوحة على صفحات محددة لنساء حوامل وهن في أوضاع جنسية مختلفة. لم تلتفت إليه، لكنها كانت تدرك أنه قد دخل الغرفة.

ارتبك، أصدر حمحمة لينبه على وجوده. لم تبد أي ردة فعل، اقترب منها، لم تتحرك من مكانها، صار خلفها مباشرة، لم تتحرك. كانت هي كالمخدرة، شعرت أنها على وشك الانهيار، ولا تستطيع المقاومة أكثر. عرفت أنه خطط لكل ذلك. أدركت بسرعة بأنه أبعد زوجها آدم، واختلق الموعد، ووضع الأقراص على السرير متعمداً كي تراها، ماذا تفعل الآن؟ صار خلفها مباشرة، وبدون أي مقاومة احتضنها من الخلف. كادت تنهار من الشبق. مدّ يده مباشرة إلى بطنها المكورة. داعب تكويرة بطنها برقة. ثم أنزل كفه إلى أسفل بطنها فمسكها من بين فخذيها، وبالرغم من أنها كانت ملتهبة إلا أنها تمانعت وصدته بضعف أشبه بالموافقة، أبعدت يديه عنها وهي تقول:

- ماذا تفعل يا قابيل؟ هذا لا يجوز.
- لماذا لا يجوز؟ أنت تعرفين كم أحبك أنا؟ أنا أموت فيك، الدنيا كلها أضعها تحت رجلك.
- لا. لا يجوز. أنت صديق زوجي آدم، وبيننا زاد وملح، يعني صرت من العائلة.

- ثم ماذا؟ ما الغلط في هذا؟
 - فقالت وكأنها تلقي سلاحًا تتمنى ألا يؤثر فيه:
 - ثم لا تنس، أنا حامل.
 - وماذا يعني؟ انظري لهؤلاء النساء الجميلات بالصور التي على غلاف الأقراص هذه، ولو تشاهدين الأقراص لرأيت العجب.
 - كانت تشتعل رغبة، فقالت بصوت مخنوق بالشبق:
 - وإذا جاء آدم؟
 - آدم لن يجيء الآن، آدم تائه في برلين.
 - لا. لا. لا يجوز.
- جملته عن تيه زوجها أزعجتها قليلاً، فتحرّكت من مكانها، لكنها لم تخرج من الغرفة. تأكد قاييل من رغبتها وشبقها الواضح. هي تريد ذلك لكنها لا تريد أن تستجيب من ذاتها، إذ عليه أن يبادر بأخذها بالقوة، وربما تنتظر هي هذه المبادرة منه، كي تغفر لنفسها ما سيجري!
- وبدون أي كلام أو حوار آخر مسك بها وأجلسها على السرير. انتبه إلى أنها كانت طائعة ولم تقاوم. أضجعها على ظهرها. ونزع بنطاله بسرعة. رفع ثوبها إلى الأعلى فأنكشف نصفها الأسفل أمامه، لا سيما بطنها المتكورة التي زادت من شبقه. ولم تكن ترتدي شيئاً تحته. أولجه فيها برفق. كانت رطبة جداً. أطلقت آهة شبقية. وأخذت تتأوه وتقول:
- أكرهك. عليك اللعنة. أكرهك، لكن ريحني، أرجوك ريحني.
- أحسها ملتهبة، لم يكن يتوقع الأمر سيكون بهذه السهولة، وما إن بدأ يهرس فيها حتى أخذت تطلق الشئام وهي تلهث:
- يا حقير. يا كلب. خططت لكل هذا. ماذا تريد بعد؟ لقد وصلت لمرادك، الآن تنيكني. ماذا تريد بعد؟ سأصير قحبتك. ماذا تريد أكثر من ذلك. بس أرجوك ريحني.

لم ينطق هو بأي كلمة، كان يستمع إليها وهو منشغل بنفسه وشهوته، لكنه لم ينته منها. فجأة سحب نفسه منها، حتى أنه لم يقذف فيها ماءه، ووضع رأسه على بطنها، وهو يمرغ وجهه على بطنها الكبيرة المكورة وأخذ يقبلها بشغف. فجأة، وصلت إلى أنفه رائحة غير طيبة انبعثت من فرجها، لكنه لم يأبه لذلك، ظل فترة يقبل بطنها الكبيرة المكورة. كانت هي مستمتعة بذلك، وكانت تريد منه أن يدخل فيها، كانت تسحبه إليها، لكنه كان يعاند ولا يستجيب لها. أراد أن تشتعل رغبة فيه، أن تتوسله، فقال وهو يلهث:

- أريدك أن تتوسلي لي.

- أتوسل إليك، أبوس أيدك ورجلك أن تريحني، أن تنيكيني.

في تلك اللحظة رفع ساقها إلى الأعلى وأطبق نفسه على جسدها الرطب واللدن بحذر، ظل لحظات يولجه فيها، لكنه، فجأة، لم يعد يستطيع تحمل الرائحة النتنة التي كانت تنبعث منها. انسحب عنها وذهب مسرعاً إلى الحمام، وهناك داعب نفسه لينهي رغبته هناك. كانت هي في ذروتها التي لم تصلها بعد، فاجأها تصرفه، لا سيما وهي تعرف أنه لم يقذف فيها ولم ينته بعد أيضاً. أحسّت بالإهانة لتصرفه غير المفهوم. تأخر هو في الحمام، فلم يشأ أن يرجع إليها.

فجأة، سمع هو باب الشقة يطبق بقوة، عرف أنها خرجت غاضبة، لكنه أحس بنشوة الانتصار، وأحس أنها صارت ملكه هو، عبدته أو قحبتة كما قالت هي بنفسها، إلا أنه لم يكن يتوقع أن تنبعث من فرجها مثل هذه الرائحة النتنة! حين نظر إلى نفسه في المرأة رأى قرنين صغيرين قد نبتا على صدغيه. ابتسم لنفسه ابتسامة الشيطان الماكرة.

آدم البغدادي: ربما انهارت أحلام قابيل بعدما شم الرائحة النتنة التي تنبعث من أسفل حواء المؤمن؟ هذه هي جوهر الرغبة البشرية، إنه نفس

اللحم والدم والعضو الذي يمنح اللذة والحياة، فهو أيضًا نتن وعفن ويمكن أن تنبعث منه الجيفة. هذا هو الإنسان بسموه وانحطاطه.

علق آدم الحروم على الفصل مستغربًا من الطريقة الذكية غير المباشرة للمفاتيح الجنسية الصريحة بوضع الأقراص المدمجة في موضع تراه حواء المؤمن. وفكر مع نفسه ساخرًا: ماذا أضع في هذا البيت المليء بالكتب الدينية؟ وسمع صوتًا غامضًا يقول له: لا. لكل امرأة مفاتيحها الخاص بها، وإلا كيف يضاجع الشيوخ ورجال الدين باسم القرآن والسنة والدعاء؟ بل إن رجال الدين الجدد بالملابس الأوروبية لم يتركوا وظيفة إلا وعرضوا عليها زواج المتعة. سيبحث عن مفتاح لجسد حواء الزاهد بنفسه.

الجيفة

حينما دخلت حواء المؤمن شقتها وأغلقت الباب خلفها أخذت تلطم وجهها بيديها ندمًا، لكنها كانت حريصة ألا تؤذي أو تجرح وجهها! أخذت تهذي بكلام تنذب فيه حظها العاثر، وضعفها أمام شهوتها الذي حولها إلى كلبة تبحث عمّن ينط عليها، بل وتتوسل من أجل ذلك! دخلت الصالة وذهبت لتجلس على الصوفا الجلدية. كانت تفكر بما جرى لها قبل قليل في شقة قابيل. في خضم تدافع الأفكار في ذهنها حاصرها السؤال الصعب: لماذا تركها وخرج من الغرفة؟ هل لأنها مملّة ولا تعرف فن المضاجعة، أم أنه اكتشف شيئًا ما في جسدها؟ هل لأنها حامل وجسدها غير متسق؟ لا. وإلا لماذا أخذ يقبل بطنها المكوَّرة بهوس، أي أنه كان يعرف أنها حامل، بل بدا أن ذلك يعجبه فهو يشاهد مثل هذه الأفلام أصلًا؛ إذن لماذا تركها؟ هل يريد أن تركض لاهثة خلفه كالكلبة من أجل أن يلبي رغبتها؟ لكن كيف سمحت لنفسها أن تنساق له بهذه الطريقة المهينة، وأن تتوسله وتقول له بأنها ستكون قحبته؟ وماذا لو عرف آدم؟ لكن من أين سيعرف؟ كيف ستتصرف مع قابيل لاحقًا؟ إنها تكرهه لإهانتها لها لعدم إشباعها ولأنه لم ينه وطره فيها، هذا جرح لكرامتها وأنوثتها فهل ستذهب إليه ثانية؟ وكيف ستتصرف معه أمام آدم، وكأن شيئًا لم يكن؟ ما الذي يجري معها بالضبط، أتحوّلت إلى عاهرة؟ ما فرقها عن بقية العاهرات إذن؟ إن كان تقاضي المال على الممارسة هو الفرق بينها وبين المومس، فهو أيضًا دفع ما يكفي لهما؟ نعم. بالتأكيد كان يريد أن يحصل على شيء بالمقابل، وهو واضح جدًّا في هذا، وقد حصل

عليه الآن، لكن لماذا تركها وذهب إلى الحمام دون أن ينتهي منها؟ هل سيحاول مرة أخرى؟ يجب أن تعرف لماذا ابتعد عنها، ألم تعجبه؟

وبشكل لا إرادي بدأت صورة مشهد غريب ومقرف من مشاهد طفولتها يتداعى في ذهنها. ها هي تستعيد مشهد جيفة قوية لحصان فاطس وهي طفلة صغيرة تقف مع فتيات بعمرها ينظرن إلى الفطيسة. كانت الكلاب قد نهشت معظم جثة الحصان الفاطس، ولم تبق سوى بقايا من جهة الرأس والقفص الصدري المهشم، وكان الذباب الأخضر والمائل للسواد، الكبير الحجم، يطلق أزيزاً وهو يطير قريباً من هذه الوليمة النتنة. فجأة، أحسّت بالغثيان وهي تستعيد ذلك المشهد! قامت مسرعة إلى الحمام، حاولت التقيؤ فلم تستطع، لكنها كانت تشم رائحة نتانة خائفة، خرجت من الحمام فانتبهت لانتشار رائحة النتانة في كل أرجاء الشقة، فتحت نوافذ الشقة عسى أن يتغير الهواء الفاسد.

بعد دقائق خفت الرائحة النتنة قليلاً لكن لم تختف. كان ثمة شيء من العطن يزكم أنفها. ذهبت إلى المطبخ وفتحت جردل النفايات عساها تجد ما يبعث على تلك الرائحة، لكنها لم تجد شيئاً يشي بذلك، فليس هناك سوى ثفل الشاي! وبينما كانت هي في المطبخ سمعت صوت جرس الباب. “من تراه أتي؟” سألت نفسها. “آدم لديه المفتاح، أكون قابيل جاء ليتواصل معها؟ لا لن تقبل بذلك، فربما سيأتي آدم فجأة؟”. وذهبت لتفتح الباب، ولسرعتها غاب عنها أن ترى القادم من خلال العين الساحرة، وحينما فتحت الباب صارت وجهاً لوجه مع الراهبتين!

ظلت تنظر إليهما غير مصدقة. شحب لونها. لم تقل أي شيء عسى أن يكون ما تراه وهماً، لكنها فاقت إلى الموقف الذي هي فيه حينما سمعت الراهبة المسنة تلقي عليها التحية:

- كيف حالك أيتها السيدة حواء المؤمن؟

ظلت صامتة لا تجيب، فقالت لها الراهبة الشابة إيفا بيرغمان برجاء لكن بثقة أشبه بالأمر:

- أسمحين لنا بالدخول؟ لقد جئنا من مكان بعيد تعرفينه جيداً.
- لم يكن أمامها سوى أن تتنحى جانباً صامتةً، فدخلتا. ظلت هي للحظات جامدة في مكانها، لكنها استدارت ومضت خلفهما. وبدون أن تطلب منهما الجلوس جلستا على الصوفا الجلدية. نظرت الراهبة المسنة إيفا مارتا إليها بحنان وهدوء كي تبعث الثقة في نفسها، فقد انتبهتا لارتباكها وخوفها، ثم قالت لها بمودة:
- أنت متفاجئة من حضورنا، أليس كذلك؟
- ظلت حواء المؤمن صامتة، كانت مستغربة من أن رائحة التتانة قد اختفت كلياً، فاستمرت الراهبة إيفا مارتا بالحديث:
- اسمعينا جيداً يا حواء. أنت تعرفينا، وقد التقينا في مستشفى مدينتنا الأولى قبل أن تنتقلي إلى “إيسن”، ومن ثم إلى برلين. ونعرف أنك حامل. وهذا الحمل حدث حينما كنت تسكنين في مدينتنا. أليس كذلك؟
- هزت حواء رأسها بالإيجاب، مؤكدة كلامها. فقالت لها الراهبة الشابة إيفا بيرغمان:
- لقد جئنا إلى هنا من أجلك وبسببك.
- نظرت حواء المؤمن إليهما باستفهام، فأجابت الراهبة المسنة، بطريقة أكثر هدوءاً:
- لا نريد أن ندخل الروح في قلبك، لأننا كما تعرفين نحضر دائماً من أجل مساعدة الناس، لا سيما لمن كان وما زال في مدينتنا، ولأن الجنين تشكل في مدينتنا فنحن نجد أنفسنا من رعاة الأمهات الحوامل، وطبعاً المسنين والذين يحتاجون للمواساة.
- كان كلام الراهبة المسنة إيفا مارتا له تأثير طيب جداً عليها، وبث الاطمئنان في نفسها، فتحدثت لأول مرة من بعد وصولهما:
- ولكني بخير.

تبادلت الراهبتان النظرات بصمت، وأخيرًا قالت الراهبة الشابة لها:

- لا. أنت لست بخير يا حواء.

لم تفهم حواء المؤمن شيئًا. نظرت بفرع إليهما محاولة أن تقرأ الجواب في نظراتهما وملامح وجهيهما، لكنها لم تستطع أن تفهم أي شيء من ذلك، فلم يكن أمامها إلا أن تسألهم، بفرع:

- ما الأمر؟ لم أنا لست بخير؟

- بسبب الجنين الذي في بطنك. أجابت الراهبة الشابة.

- الجنين؟

مسكت حواء المؤمن بطنها مرعوبة ظنًا منها بأنهما ستفعلان بها أو بجنينها شيئًا، فتمتعت فزعة:

- ما به؟

هيمن صمت ثقيل على الثلاثة، إلى أن قطعت الراهبة المسنة حين قالت لها بهدوء أمومي وبتعاطف ونبرة حنونة:

- اسمعي يا حواء ما سنقوله لك، والأمر بعد ذلك متروك لك أنت وحدك. نحن علينا إبلاغك أولاً وقبل كل شيء، ونتمنى أن تستمعي لنا بهدوء، وبتفهم، وبدون خوف أو أي تصورات أخرى.

كانتا تنتظران منها أي إشارة إيجابية كي تستمرا في الحديث إليها، وبعد صمت دام للحظات قالت:

- أنا أسمعكما!

- اسمعي يا حواء، إنك حامل بجنين مسخ.

استنكرت حواء هذه الكلمة التي تستخدم أحيانًا كشتيمة أو للسخرية من شخص قبيح، وقالت:

- مسخ؟ ما معنى مسخ؟ ولماذا مسخ؟

فوجئتا بردة فعلها. نظرتا لبعضهما، ثم قالت الراهبة الكبيرة مستمرة بالحديث، وكأن عليها أن توصل رسالة ما مهما كانت ردة فعل المستقبل:

- إن الجنين الذي في بطنك هو مسخ، يعني أنه جنين لطفل مشوه! إنه علامة على استعدادك لحمل الصليب، لتقبل الآلام، وولادة هذا الجنين ستجلب الآلام لك. ستسمعين كلامًا كثيرًا، وهناك مَنْ سيحاول إقناعك من أجل إجهاضه، لكن هذا الطفل بكل ما فيه هو من عطايا الرب. وعلينا تقبُّل عطاياه مهما كانت! سيقولون لك إن عليك أن تجهضيه بأي شكل، لأنه سيدمر حياتك، وحياة الكثيرين غيرك، وأن وجوده علامة شر قادم، لكننا أردنا أن نقول لك، إنك ستطهرين من خلال تقبلك هذه العطية!

لم تستطع أن تستوعب كلامها، بالرغم من أنها بحضور هاتين الراهبتين تشعر وكأنها تجيد اللغة الألمانية بشكل كامل، لذا عدم استيعابها لم يكن بسبب حاجز اللغة، وإنما بسبب مضمون المعلومات المرعبة التي استمعت إليها من الراهبة المسنة. لم تجد نفسها إلَّا وهي تدافع عن جنينها بشراسة، وهي تقول:

- ما هذا الذي تقولينه؟ هذا غير صحيح! لقد كنت عند الطبيبة بعد أن شعرت ليلة أمس بالألم، ولم تقل لي أي شيء؟

نظرت الراهبة المسنة إليها بحنان وأمومة وقالت:

- فجر هذا اليوم، وفي الساعة الثالثة، كنا نحن هنا. طرقت الباب ولم تفتحي. وقد كنا معك هناك في عيادة الطبيبة، وعرفنا كل شيء.

تدخلت الراهبة الشابة موضحة:

- كنا جالستين في صالة الانتظار لكنك لم تنتهي إلينا، لأننا كنا بثياب أخرى. قالت الراهبة الشابة.

واصلت الراهبة المسنة توضيحها قائلة:

- والطبيبة رأت كل شيء، وقالت لزوجك عن كل شيء، ولكي تتيقن بالكامل وتخلي مسئوليتها القانونية، أرسلتكما إلى مركز التشخيصات الدقيقة.

كنا هناك أيضًا. لكنك لم تنتهي إلينا مرة أخرى. ولم يكن أمامنا إلا أن نزورك ونبلك بأنهم سيحاولون إقناعك بضرورة إسقاط الجنين. عليك تحمل أمره إلى النهاية. ربما لن يعيش طويلًا بعد الولادة، لكن يجب ألا تقتليه أنت، لأنك حينها ستعذبين كثيرًا. الله يعطي والله يأخذ. اتركي أمرك إلى الله وحده.

كانت حواء المؤمن تستمع إليهما برعب. فجأة، قامت من أمامهما، وذهبت إلى المطبخ. فتحت الثلاجة وأخرجت قنينة ماء. فتحت الخزانة وأخذت كأسًا. صبت لنفسها شيئًا من الماء وشربته. كان واضحًا أنها ليست عطشى، وأنها بهذه الحركة كانت تهرب من نفسها ومن عنف الخبر الذي سمعته للتو من الراهبتين. نظرت من هناك إليهما عسى أن يكون كل ما رآته وسمعته وهما، لكنها وجدتهما تنظران إليها وتبتسمان، بل إن الراهبة الشابة قالت لها من مكانها وكأنها تعرف ما الذي تفكر به حواء المؤمن:

- نحن هنا. يمكنك إحضار قنينة الماء معك إذا أردت؟

أحسّت حواء المؤمن بالارتباك. فتحت الخزانة وأخرجت قدحين آخرين، وحملت القنينة إلى الطاولة ومن ثم الكؤوس. وجلست أمامهما. صبت لهما الماء في الكأسين، ولنفسها مرة أخرى، لكن لم تمس أي منهما كأسها، وإنما كانتا تنتظران رأيها. ولما طال الصمت وهي لم تجب، سألتها الراهبة المسنة:

- ماذا تقولين يا حواء؟

- ماذا أقول في ماذا؟

- في ما قلته لك.

- أنا لا أصدق ذلك. لم تقل لنا الطيبة عن أي شيء.

- الطيبة قالت لزوجك كل شيء. وإذا جاء يمكنك أن تسأليه. بل يمكنك غداً الذهاب إلى العيادة، وستكون النتائج هناك. وستخبرك الطيبة بنفسها.

- هذا طفلي. ولا أريد أن أفقده بكلام غير صحيح. ثم إنه مهمما يكن، ومهما سيكون شكله فهو ابني، ولن أسقطه لمجرد كلام.

- هذا ما أردنا أن نقوله لك أيضًا. ونحن سنكون دومًا معك. وسنساعدك.

قالت الراهبة المسنة إيفا مارتا ذلك ثم قامت. نظرت الراهبة الشابة إليها وإلى حواء المؤمن ثم قامت أيضًا. قامت حواء معهما وأرادت أن توصلهما إلى الباب، إلا أن الراهبة المسنة أوقفتها، قائلة بحنان:

- لا داعي لذلك. نحن نعرف الباب!

مضت نحو الباب. ظلت هي جامدة في مكانها منذهلة، فزعة، غير مصدقة. وسمعت صوت الباب وهو يغلق. فجأة؛ أحسّت أنها تريد أن تستفهم منهما أكثر. فتحت الباب فلم تجد أحدًا. نظرت نحو المصعد قرب الباب فوجدته في طابقهم، خرجت ونظرت إلى أسفل السلم فلم تجد أحدًا، ولم تسمع وقع أقدام هابطة. «كيف حصل هذا؟ ففي كل الأحوال لم يمضي سوى أقل من نصف الدقيقة، وهذا يعني أنهما يجب أن تكونا في الطابق الأول في أكثر تقدير، فليس من المعقول نزول طابقين في أقل من نصف دقيقة؟»، سألت نفسها بارتباك، وما إن دخلت شقتها حتى فاجأتها الرائحة النتنة من جديد! سألت نفسها مستغربة: «كيف اختفت الرائحة بحضور الراهبتين وعادت بعد ذهابهما؟».

ذهبت إلى حيث كانت تجلس على المقعد الجلدي. سمعت باب الشقة يُفتح. ظنت أن الراهبتين قد عادتا، لكن المفاجأة كانت حينما دخل آدم فرحًا، أقبل نحوها ورمى مفاتيح ومغلفًا من النايلون فيه ورقة رسمية خضراء. نظر إليها وكأنه حقق انتصارًا، بينما نظرت هي إليه، واستذكرت كل ما جرى لها خلال هذا الوقت الذي غاب فيها. “ياله من إنسان سعيد آدم هذا” فكّرت مع نفسها، “فها هي زوجته تم إغواؤها من قبل أقرب صديق له، وهو سعيد بهذه اللعبة! أترأه يعرف بكل ما كان قابيل يفعله ويخطط له؟ هل هو ديوث أم قواد؟”، سألت نفسها.

ما إن جلس آدم حتى تشم الرائحة النتنة. تلفت حوله، كانت النوافذ كلها مفتوحة، لكن ثمة رائحة عفونة ما تتسرب مع الهواء إلى أنفه. لكن فرحته كانت أكبر من تحسسه للرائحة النتنة، لذا لم يعر لها بالاً وإنما نظر إلى زوجته، فوجد أنها مشغولة البال، شاحبة الوجه، فسألها مبتسماً:

- ألم تسألني لمن هذه المفاتيح؟ وما هذه الورقة؟
- نظرت بصمت إليه، وألقت بسؤالها الذي صدمه وسحبه من غيومه الوردية إلى بيداء الواقع المؤلم، عندما قالت له بتصميم وحزم:
- ما الذي قالته لك الطيبة عن الجنين الذي في بطني؟
- أعرفت؟ قال لها شاحب الوجه.
- ماذا كان عليّ أن أعرفه؟

ارتبك آدم، وسأل نفسه بسرعة خارقة: «هل هي تعرف أم لا؟ ما معنى سؤالها إذا كانت لا تعرف؟ لا. من المؤكد أنها تعرف، وفي كل الأحوال يجب أن تعرف، لكن من قال لها ذلك؟»، لذا أجاب بهدوء:

- بخصوص الجنين؟ ألم تسألني عنه لتوك؟
- نعم. لكنني أسأل عن الذي قالته لك الطيبة؟
- إذا كنت قد عرفت فلماذا تسأليني؟
- ما الذي عرفته يا آدم؟
- بأنه مسخ. وأنه مشوه.

وفي لحظة غير متوقعة من قبل آدم لطمت حواء المؤمن وجهها بباطن كفيها لمرات عدة، وهي تولول:

- أويلاه يا أمي. أويلاه يا ربي. أويلاه. أويلاه. أويلاه من هذا النصيب الأسود. أويلاه يا أمي، يعني كلام الراهبات صحيح.
- كانت تولول وتضرب وجهها بباطن كفيها، ثم سحبت الغطاء عن رأسها

وأخذت تسحب شعرها الأسود الطويل. وتعود لتضرب وجهها بباطن كفيها. ارتبك آدم جدًّا، لقد نسي مثل هذه المشاهد التي لم يشهدها منذ أن كان في المقاومة، حيث كانت أمهات الشهداء يضربن على وجوههن حينما يندبن أولادهن أو أزواجهن، لكنه نسي ذلك كله، وها هو الآن، وفي هذه اللحظات التي أحس فيها بالفرح لحصوله على سيارة، قادها طوال الطريق من شبنداو إلى هنا حالماً باللحظة التي ستعرف فيها بأنهما صارا يملكان سيارة، بينما هي تقابله بهذا الندب الذي يمزق القلب. لكن من قال لها؟ ما معنى أن الراهبتين قالتا لها ذلك؟”. سأل نفسه، ثم قام إليها ومسك يديها كي لا تضرب نفسها أكثر، وهو يقول لها:

- اهدأي. اهدأي قليلاً. لتفاهم أولاً. اهدأي. وضحي لي أولاً من قال لك ذلك؟ نظرت إليه شزراً وصرخت به:

- أتريد أن تعرف من قال لي؟ الأرواح قالت لي. الراهبتان قالتا لي. لقد كانتا هنا وقالتا لي بأنك تعرف ذلك. أكنت تعرف ولا تقول لي؟

وأخذت تضربه على صدره ضربات ضعيفة، ضربات امرأة منهاره. لم يصدق آدم ما قالت، فما معنى الأرواح، وما معنى أن الراهبتين قالتا لها ذلك؟ لكنه فجأة انتبه لوجود الكؤوس الثلاث. وسألها:

- من كان هنا؟

وأشار إلى الكؤوس الثلاث. نظرت إليه بغضب وقالت:

- ألم أقل لك إن الراهبتين كانتا هنا؟ لقد كانتا معنا في العيادة وفي المركز الطبي أيضاً. وهما اللتان أخبرتاني بأن الطبيبة قالت لك عن كل شيء.

ابتسم ساخراً مما قالت، وسأل بطريقة استهزاء:

- وماذا كانتا تريدان منك؟

- أتستهزئ؟ لقد أردتا أن أمضي بالحمل إلى النهاية ولا أسقط الجنين بأي شكل. والآن قل لي ماذا قالت لك الطبيبة؟

أحس آدم بالربع الحقيقي. أخذ يستعرض الأمور مع نفسه بسرعة خارقة، ليفهم حقيقة ما يجري هنا. فأمامه ثلاث كؤوس وفيها ماء يعني وجود شخصين آخرين معها. والمعلومات التي قيلت لها صحيحة، فهي حامل بمسوخ، ووجوده خطر على حياتها، وأن عليها إسقاطه. هذا أيضًا ما قالته الطبيبة. لذا ليس لديه أكثر مما هي تعرف. نظر إليها وقال لها مهددًا:

- اجلسي بهدوء واسمعي. أنا أبوه مثلما أنت أمه. لذا أرجوك اسمعي. اهدأي أولًا، وسأخبرك بكل شيء.

جلست هادئة وكأنها تلميذة صغيرة، بالرغم من كثافة الألم الذي تجمع في عينيها، والاحمرار الذي صبغ وجهها إثر الندب القوي. نظر إليها وقال لها بتوتر يحاول السيطرة عليه:

- حينما دخلت على الطبيبة عاتبتني أولًا على إهمالك لأنك لم تذهبي إلى الطبيبة النسائية خلال أشهر الحمل المنصرم، ومن ثم أخبرتني بأن لديك التهابات قوية جدًا وفطريات وما شابه ذلك، وأخبرتني أيضًا بأن الجنين الذي في رحمك مشوه، مسخ، رأسه كبير جدًا ولا تتناسب مع بقية الأعضاء أبدًا، وهو مرض لا أذكر اسمه الآن، لكنها سمته لي. وأن هذا الحمل سيؤذيك، وأن هناك ضرورة قصوى لإجراء ما يسمى بالطلق الاصطناعي كي يسقط الطفل، أو أن تستكملي بقية الأشهر كي تلديه، لكن عليك أن تعرفي شيئًا واحدًا قالته الطبيبة هو إن هؤلاء الأطفال المشوهين يموتون بعد ولادتهم بساعات. وبما أنه سيموت في كل الأحوال فعلينا التفكير باستمرارك بالحمل أو بإسقاطه عن طريق الطلق الاصطناعي.

فصرخت حواء المؤمن:

- إذا كان ذلك صحيحًا فلماذا أرسلتنا إلى مركز التشخيصات الدقيقة؟ أحبط آدم محاولتها، لأنه عرف أنها تريد أن تواسي نفسها بأمل كاذب، فقال جازمًا:

- هي متأكدة مئة بالمئة. لكنها، كما يبدو لي، لا تريد أن تتحمل المسؤولية القانونية كاملة، فتدعم موقفها بتشخيصات المركز المختص بذلك، إلى جانب أنها أرادت أن تتأكد من وضعك أيضًا. لكنها كما قالت لي رأيت كل شيء بجهاز الأشعة المصورة.

- والحل؟

نظر آدم إليها بعطف وهو يرى تحطم آمالها كلها، وانطفاءها مثل شمعة صغيرة:

- الحل هو إسقاط الجنين المسخ.

نظرت إليه بعينين مفتوحتين، عيني امرأة مجنونة، تنظر في نقطة مجهولة، وقالت:

- مستحيل.

آدم البغدادي: هل الإنسان يلقي جزاء أفعاله في حياته أو في ما بعد؟ أو لا يلقيها أبدًا؟ لماذا كان جزاء حواء المؤمن أن يكون لها جنين مشوه؟ أهذا ما أنا اخترته لها، أم اختاره منطق الصراع الأخلاقي لشخصية مثل حواء المؤمن؟ بمعنى هل الحمل بجنين مشوه له دلالة رمزية أنا أردت أن أوصلها كرسالة أخلاقية، أم أن منطق الأشياء والخيار الإبداعي كان هكذا؟ أنا لست أخلاقيًا بهذا المعنى؟ ما معنى الأخلاق حينما أجلس في غرفتي وحدي، أو في شقتي لأسبوع كامل لا أخرج منها؟ أي قيمة للأخلاق عند ذاك؟ أنا لا أحتاج الأخلاق. أنا بلا أخلاق. الأخلاق أتركها للسلادة الجدد، بعمائمهم وخواتمهم ولحاهم الكريهة.

قرأ آدم المحروم تعليق آدم البغدادي، تعجب، قال لنفسه، هذا وجه آخر
وجديد لصديقي، لم أكن أعرف أنه متألم لهذا الحد، وأنه يمنح شخصياته هذا
العمق وهذه الاستقلالية! مَنْ منّا يتجرأ أن يقول عن صديقي آدم البغدادي إنه
بلا أخلاق؟ صحيح أنه يقول عن نفسه بأنه بلا أخلاق، وأنه لا يريد أن يكون
أخلاقياً، لكنه في الواقع يعيش كقديس، كبوذي معتزل!

تفاحة آدم

مرة أخرى استيقظ آدم المحروم على مداعبات الطفل الصغير آدم الملاك. حين فتح عينيه قابله وجه الطفل الباسم، لكن من الجهة المعاكسة للرأس. كان الطفل الصغير يجلس عند رأسه ويأصبعه الناعمة الصغيرة كان يمس أنف آدم المحروم مداعبًا. وما إن أراد أن يمد إصبعه مرة أخرى حتى قبض آدم المحروم على كفه بسرعة ساحبًا إياه إلى حضنه فصرخ الطفل ضاحكًا من المفاجأة.

ركضت أمه من المطبخ إليه وهي تظن بحصول شيء ماله. كانت في ثوبها الأسود الطويل الذي يكشف عن تقاسيم جسدها، وكانت الفوطة مفتوحة، وقد ألقَتْ بها على جانبي كتفيها. فحين سمعت كركات ابنها العالية كانت هي في المطبخ تعد الفطور، فالأب في غرفة المكتبة، وآدم المحروم نائم، وهي مسترخية في أفكارها عمّا يسعى إليه هو من مسألة انتقاله قريهم!

رفع آدم المحروم رأسه فأراها بكل جبروت الأنوثة الفياضة والإثارة الفطرية البريئة، والرغبات الدفينة والصارخة في نظراتها، وفي استدارات جسدها. وخلال ثوانٍ قليلة أجرى مسحًا سريعًا لكل تفاصيل جسدها، عنقها العاجي المتلع، صدرها الناضج بنهدين يصرخان، وبطن مستوية تنحني عند منطقة الوسط لتلتف على استدارة تضم الوركين ليستقيم على ساقين ممثلتين باتساق، وطويلتين.

انتبهت هي لنظراته، لكنها ظلت متسمرة تحت تأثير رغبة دفينة في لا وعيها لكي يراها بشكل جيد ويكتشف جمالها، ربما لن تستطيع أن تبدو كذلك أمامه في غير هذا الموقف، لا سيما حينما يكون والدها موجودًا، لكنها بالرغم من ذلك لم تستطع الوقوف طويلًا، فلا إراديا ركضت ثانية إلى

المطبخ بعد أن تأكدت من أن ابنها يلعب مع الضيف، حتى أنها نسيت أن
تلقي تحية الصباح!

بعد دقائق من ذلك أطلّت ثانية لكنها كانت بالعباءة، لتخرج إلى المطبخ
القريب لشراء أرغفة الخبز الساخنة، فقفز الصغير يريد الذهاب معها، لكنها
هذه المرة ألقت تحية الصباح قائلةً بخجل:

- صباح الخير.

لم ينظر إليها لأنه كان ما زال في الفراش، وقال:

- صباح النور.

حينما خرجت قام هو مسرعاً، فارتدى ملابسه، ولملم الفراش ووضعه
جانباً ثم توجه إلى الحمام. وبينما هو هناك، سمع وقع خطوات الأب
وهو ينزل الدرج. ويبدو أن الأب عرف بأن ابنته قد خرجت لعدم وجودها
والصغير، كما عرف بأن آدم المحروم في غرفة الحمام.

حين خرج آدم المحروم وجد أن الأب يحمل صينية الشاي ويذهب بها
إلى غرفة الاستقبال، فقال له:

- صباح الخير يا حاج.

ابتسم الأب وقال بلهجة أبوية مرحبة:

- صباح النور. أرجو أن تكون قد نمت مرتاحاً.

- الحمد لله، نمت نومًا عميقاً.

- يبدو أن الجماعة ذهبوا لإحضار الخبز الحار. أنت تعرف أن المطبخ
قريب من البيت لذلك تحرص ابنتي على شراء الخبز الحار في كل الأوقات،
لا سيما صباحاً.

- وجود مخبز قريب من البيت نعمة.

ولم يستمر بالحديث طويلاً إذ انفتح الباب على ضجيج الطفل الصغير
تتبعه أمه. فسلمت على الجميع ثانية بينما ألقى الطفل بنفسه بين أحضان

جده الذي ضمه بحنان إلى صدره وأخذ يقبله ويتشممه. كان مشهد الجد وهو يحتضن حفيده ويتشممه لوحة إنسانية أثارت في نفس آدم المحروم مشاعر دافئة وحنونة.

بعد لحظات جاءت حواء الزاهد بالخبز وصينية الفطور حيث كان فيها صحن للجبن وآخر للقسطة. جلسوا ليفطروا، بينما انسحبت الابنة إلى المطبخ لتفطر هناك وحدها. خلال الفطور تحدث الأب عن ضرورة الاتصال بأصحاب المشتمل ليعرفوا قرارهم الأخير، وقال إن ابنته ستقوم بذلك بلا شك، وفجأة سأل الأب:

- إلى أين ستذهب خلال النهار؟ هل عليك الذهاب إلى العمل؟

كان السؤال له وقع ضربة قوية على الفك. أحس آدم المحروم وكأن فكه قد حُطّم ولسانه قد شل، لكن ذلك لم يستمر طويلاً، سوى لحظات، فقال:

- أنا لا أعمل في مكتب رسمي يا حاج، وإنما أكتب مقالاتي وعروضي للكتب في البيت، فأنا لست موظفاً وإنما كاتب أو صحفي حر كما يُقال، “فري لانسر” كما يُسمى. أما عملي في مديرية السينما والمسرح، فهو شكلائي، أي أن معظم الموظفين على ملاك المديرية لا يداومون وإنما يذهبون للتوقيع فقط. نقبض رواتبنا الزهيدة من باب رفع العتب بالنسبة للدولة، بل إن معظم الفنانين يعملون في المحطات التلفزيونية والإذاعية والصحف، ويذهبون للتوقيع فقط. هذا الأمر منذ السقوط تقريباً، لكن والحق يقال أنا أعيش بشكل أساسي من الكتابة، علماً أن عليّ التزامات صحافية يجب إنجازها. إذ عليّ كتابة مقالين وتسليمهما غداً وبعد غد، وأنا لحد الآن لم أكتب منهما أي حرف.

- ولماذا لم تكتبهما لحد الآن؟

- أنت تعرف الوضع يا حاج. أين أكتب، وأنا أتنقل من مكان إلى مكان، وقلق لا يستقر على حال؟ ربما سأذهب إلى إحدى المقاهي لأتخذ زاوية أكتب فيها.

- لماذا لا تكتب مقالتي وأنت هنا؟ ما الذي يمنعك؟ يمكنك أن تصعد إلى غرفة المكتبة، وهناك تجد كمية كبيرة من الورق الأبيض، وأقلامًا، ويمكنك الكتابة!
- لم يفهم آدم المحروم مقاصد الأب. حاول أن يستوضح لكنه ارتبك قبل أن يسأل، فقال بطريقة ملتوية:
- أنا لا أريد أن أزعج أحدًا.
- أنت لا تزعج أحدًا. أنا سأخرج إلى عملي، يمكنك الصعود إلى غرفتي. أغلقها على نفسك إن كان آدم الصغير يزعجك. تستطيع أن تكتب مقالتي اليوم، ولا تتخرج من ابتي حواء فهي مثل أختك بالضبط، وهي تشغل عادة بتنظيف البيت وإعداد الطعام، وأنا متأكد أنها لن تزعجك.
- لم يصدق آدم المحروم ما سمعه، فالأب يقترح عليه البقاء وحده في البيت، بينما ارتعب أول الأمر من سؤاله إذ ظن أنه يطلب منه أن يغادر البيت معه ما دام هو يخرج للعمل، لذا فإنه شعر بقلبه يدق بقوة، وبالدّم يتدفق في شرايينه، لكنه حاول جاهدًا أن يكبت كل ذلك كي لا يبان أي شيء من هذا الفرح على وجهه أو في نظراته، بل على العكس عليه أن يبدي شيئًا من التحفظ على بقاءه في البيت، فقال:
- لكن يا حاج ربما سأسبب لها الحرج والضيق بوجودي في البيت؟
- يا ابني عليك أن تكتب مقالاتك وتسلمها، فمن أجورها تعيش، ما هذا الكلام؟
- لم يشأ آدم المحروم أن يناقش في الموضوع أكثر كي لا يضطر إلى المبالغة في تحفظه، وربما إذا استمر في ذلك سيتراجع الأب عن فكرة أن يبقى في البيت لكتابة مقالاته نزولًا عند رغبته؛ وكان قد أبدى علامات الانتهاء من تناول الفطور، لذا أنهى الحوار بالشكر للنعمة، على الطريقة العراقية:
- لا أجد الكلمات التي تعبر عن شكري لأفضالكم عليّ، المائدة دائمة إن شاء الله. اللهم زد وبارك.
- ماذا، أنهيت فطورك؟ أنت لم تأكل شيئًا؟

- أنا يهمني الشاي صباحًا، ولأنه لا يمكنني شرب الشاي وحده على الريق فأنا أضطر لأكل أي شيء معه.

- على أي حال. أنت في البيت، ويمكنك طلب أي شيء عند حاجتك، وبدون تردد.

- أنا لا أعرف كيف أشكرك يا حاج فلولاك لم أعرف ماذا أفعل.

- لا تشكرني يا ابني. الشكر لله، والناس لبعضها البعض.

في هذه الأثناء دخلت الابنة حواء الزاهد مستبشرة وهي تقول:

- لقد اتصلت جارتنا أم قابيل زوجة صاحب المشتل، وقالت إنهما وافقا على تأجير المشتل، لا سيما وأن الشخص مزكى من قبلنا ومن طرفنا، وأن المرأة تمر اليوم بعد الظهر وتأتي بعقد جاهز، سيتم إعداده من قبل مكتب للعقارات في منطقتهم، وطلبت الاسم الثلاثي الكامل لحضرتك، ورقم هوية الأحوال المدنية لك، كي يتم إعداد كل شيء، ولا يبقى سوى التوقيع، أو بالتحديد سوى توقيعك لأنهم سيوقعون العقد من طرفهم.

ابتسم الأب ابتسامة صادقة وتألق وجهه بالفرح، أما آدم المحروم فلم يصدق ما سمع، توهج وجهه بدفق الدم الذي صعد إلى رأسه وهو ينظر إلى الابنة حواء وهي تتحدث بحضور الأب، فلم ينطق شيئاً أول الأمر، ثم قال بصوت هامس:

- الحمد لله. هذا صباح مبارك.

مد يده إلى جيب قميصه وأخرج هوية الأحوال المدنية، ومد يده إلى الابنة، وهو يقول:

- الاسم الثلاثي هنا، ورقم الهوية وكذلك رقم الصفحة والسجل.

أخذت الهوية بسرعة خاطفة، وقبل أن تذهب لتتصل بأصحاب المشتل، قال الأب:

- ابنتي حواء، الأستاذ آدم سيبقى هنا، سيكون في غرفة المكتبة، لديه واجب كتابة مقالاته الأسبوعية ليسلمها للصحف. أرجو ألا يشغله الملاك الصغير. وبين فترة وأخرى أسأله إن كان يحتاج شيء.

نظرت الابنة إلى آدم المحروم وفي عينيها نظرات غامضة مليئة بالتساؤلات والترقب، ولم يكن أمام آدم المحروم سوى أن يتسم بما يشبه الاعتذار، وقال:

- أنا أسف. إذا كان الأمر يضايقك فأستطيع أن ألغي ذلك.
قاطعها الأب:

ماذا تقول. لماذا تلغي عملك؟ ابقى أنت وانجز عملك بهدوء. وإذا أردت الخروج فأنت تعرف مكاني.

قال الأب ذلك وقام مستعداً للذهاب إلى عمله، ثم التفت لآدم المحروم وكأنه يرشده:

- تعال معي إلى غرفة المكتبة كي أريك أين تقع الأوراق، لكن أين هي الكتب التي تريد أن تكتب عنها؟

أحس آدم المحروم بأنه وقع في الفخ، فكيف فاته أن يكتب عروضاً للكتب دون أن تكون بين يديه، وهو فعلاً أراد أن يكتب عرضاً لكتاب كان قد صدر منذ سنوات عديدة، لكنه لم يدخل العراق إلا مؤخراً، أو على الأقل هو قد حصل عليه مؤخراً، لكن هذا الكتاب في شقته، وهو لم ينقل كتبه بعد، على الرغم من أنه لا يملك الكثير من الكتب. كما أراد أن يكتب عموداً مستمداً في جوهره من أفكار الكتاب المذكور لصحيفة أخرى. ولكي يتخلص من السؤال المخرج، دون أن يتراجع، بل ودون أن يعطي فرصة لإلغاء مسألة البقاء في البيت، أشار إلى رأسه، وقال باسمًا:

- هنا. الكتب هنا في رأسي، فأنا لا أكتب عن أي كتاب إلا إذا ترسخ في رأسي، وحاورته واتخذت موقفتي منه، بالاستحسان أو بالرفض، ثم أنني أريد

أن أكتب عمودًا وهو ليس عرضًا لكتاب، لذلك سوف أكتب المادة الأساسية من الكتاب ومن ثم أنسق المعلومات عنه وأضيف للمقالة المعلومات الخاصة بالكتاب.

- وعن أي كتاب ستكتب؟ سأل الأب بفضول.
- سأكتب عن «نهاية اليوتوبيا» لراسل جاكوبي.
- استغرب الأب اسم الكتاب واسم المؤلف، وسأل:
- نهاية ماذا؟
- «نهاية اليوتوبيا».
- وما هي هذه «اليوتوبيا»؟
- إنها الطوباوية بترجمات أخرى.
- الآن عرفت. الطوباوية. ممتع. وماذا ستكتب؟
- ابتسم آدم المحروم بمودة وقال بما يشبه المزاح:
- سأخبرك في ما بعد.
- جيد. بالموفقية.
- شكرًا يا حاج.

خرجت هي قبلهما ودلفت إلى المطبخ، بينما صعد الأب وهو يمسك الصغير آدم ليصعد معه وتبعه آدم المحروم، وحين صار هو على منتصف الدرج التفت نحو المطبخ فوجد حواء الزاهد واقفة تنظر إليه، ابتسم لها، فابتسمت له بخجل أيضًا. اعتبر هو هذا إشارة جيدة من طرفها، وواصل صعوده، إلى أن دخل الجميع إلى غرفة المكتبة.

ظلت هي في المطبخ غير مصدقة ما يجري. كانت هي مليئة بمشاعر متناقضة، ومتداخلة، وغامضة. فهي مرتبكة من أن تكون وحدها في البيت

مع رجل يعجبها، بشكله وثقافته وتحرره الفكري كما هو واضح. ولا تعرف لماذا؟ وكيف؟ إذ وجدت نفسها لا إرادياً تُجري بسرعة هائلة المقارنة بينه وبين زوجها المعتقل! فهذا الرجل مختلف عن زوجها الذي هو من طراز أبيها، أي محافظ جداً، ومتعصب جداً، ومتدين جداً، بحيث أنها كانت لا تحس بكيانها وشخصيتها معه، بل إنها كانت لا تستطيع أن تعبر عن مشاعرها حتى في أقرب لحظاتها حميمية، إذ كان يعتبر المرأة آثمة، وهي سبب البلاء، وسبب خروج آدم من الجنة، ولم يتغير حاله، بل إنه بعد سقوط الطاغية ودخول الأمريكيان صار أكثر تديناً، لكنه بالرغم من هذا كله، فهو إنسان طيب، لم يشتمها يوماً، ولا رفع يده عليها، لكنه أيضاً كان جافاً، ولم يعرف أن يكون رقيقاً، أو حنوناً، حتى حينما كان يرغب بها، إذ كان لا يمارس معها إلا في الظلمة، لذا فهي طوال سنوات زواجهما لم ترَ جسده يوماً عارياً، ولم تعرف تفاصيل جسده، “لكن آدم هذا مختلف”، قالت لنفسها. “إنه وكما واضح من هيئته، ليس متديناً، وهو في كل الأحوال غريب، لكن كيف وافق والدي أن يتركنا وحدنا في البيت؟”.

أحست، وهي تجري تلك المقارنة، بالحرارة تجتاح جسدها، وسألت نفسها: “لم أخاف. وممن؟ أخاف منه، أم من نفسي؟ أنا أعرف أنني خيالية وعاطفية بل وجامحة في مشاعري، وأنني محرومة، لكنه كما يبدو إنسان مؤدب، ثم أنه سيكون في غرفة المكتبة منشغلاً بالكتابة! على أي حال سنرى. لكن لماذا يمنحه أبي كل هذه الثقة؟ هل هناك شيء ما لا أعرفه في علاقة أبي به؟ لكن ما دام أبي قد أدخله بيته فهو يثق به، وهذا يعني لا خوف منه!” هكذا حسمت الأمور مع نفسها.

مر وقت يقارب الساعة إلا قليلاً كان آدم المحروم خلاله منهمكاً بالكتابة. أنجز صفحة ونصف تقريباً حينما سمع طرقات خفيفة على الباب.

لم يكن متأكدًا أول الأمر من سماعه للصوت، فترك الكتابة وأنصت، فسمع الدقات الخفيفة ثانية، فقام من مكانه وفتح الباب، فقابله وجه حواء الزاهد المرتبك، وأمامها كان الطفل الصغير أيضًا، وانتبه أنها تحمل صينية فيها كوب من الشاي. نظرًا لبعضهما بشكل عميق وأطول من كل مرة، حتى أن الطفل رفع رأسه لينظر إليهما، فانتبه آدم المحروم لنفسه، وقال لها:

- لماذا ترعجين نفسك؟
- لا أبدًا ليس إزعاجًا، بل أرجو ألا أكون قد قاطعتك.
- كان هو قد أخذ الكوب من الصينية التي تحملها ووضعها على حافة أحد الرفوف وهو يقول محاولاً استدراجها:
- على العكس كنت أريد أن أستريح قليلًا قبل مواصلة الكتابة.
- نظرت إلى أوراقه فرأت أن هناك صفحة واحدة مركونة إلى جانب رزمة الأوراق التي كانت الصفحة الأولى منها مسودة حتى المنتصف، فأدركت أنه لم ينته الكتابة فيها، لا سيما وقد قال إنه يريد الاستراحة! نظرت إليه متشجعة، وسألت، بينما كان الصبي يعبث ببعض المجلات في الزاوية:
- عن ماذا تكتب إذا لم يكن سرًّا؟

- عن اليوتوبيا.
- عن ماذا؟
- عن اليوتوبيا.
- وما معنى ذلك؟ لقد سمعتك تقولها لوالدي لكنني لم أفهم. وخجلت أن أسألك حينها.

- كيف أشرح لك ذلك؟ سأحاول أن أبسط الأمور أكثر مما يجب. كان المفكرون والفلاسفة في جميع الأزمنة يفكرون بخلاص البشرية وتحقيق مجتمعات عادلة يتساوى الناس فيها، فليس هناك مكان لاستغلال إنسان

لإنسان، ولا طبقة لطبقة، ولا قومية على أخرى. وكان هناك مفكر ومصلح اجتماعي إنجليزي اسمه «توماس مور»، فُكر بمجتمع مثالي، فعرض أفكاره على شكل حكاية، عن جزيرة أو مكان سماه (يوتوبيا)، حيث هناك يعمل الجميع كل في مجال تخصصه. العمل متوفر للجميع ومقسم بينهم. لكن كل شيء كان مشتركاً بينهم، وليس هناك ملكية، فالحياة كانت مثالية، ليس فيها فقر، ولا استغلال، مجتمع العدالة الاجتماعية. ومنذ ذلك الحين، صارت أي أفكار مثالية عن هكذا مجتمع يقال لها أفكار يوتوبية، أو كما ترجمت الكلمة للعربية «طوباوية»، ثم جاء فلاسفة عبروا عن إمكانية تحقيق مثل هذه المجتمعات، لكن النقاد صاروا ينظرون إلى اليوتوبيا وكأنه رديف للخيالي والمثالي غير القابل للتحقيق حتى صار معنى اليوتوبيا يفهم بأنه اللا واقعية.

- لكن هذا صحيح. فمثل هذا المجتمع غير قابل للتحقيق، إلا بظهور «صاحب الزمان».

- كيف؟ ظهور «صاحب الزمان»؟

- نعم. ألم تقرأ بأنه بعد ظهوره تمتلئ الأرض عدلاً بعدما امتلأت جوراً؟
انتبه آدم المحروم إلى أنها ذكية، مثلما انتبه إلى أنها تجاوزت خجلها وخشيتها منه، وبرغم ذلك فإن حضورها الجسدي المثير شتت تفكيره وأثار شبقه، فأراد أن يغيّر الموضوع ويستدرجها إلى فخاخه الخفية التي لا تنتبه لها بسهولة، فقال لها باسمًا:

- لم أكن أعرف أنك سريعة البديهة إلى هذه الدرجة.

- وما البديهي في الأمر، أنا لا أعرف شيئاً عن كل هذه الأفكار التي تحدثت عنها، وإنما أعرف حكايات خرافية عن الجزيرة السعيدة. التي يعيش الناس فيها مثلما تحدث صاحبك الإنكليزي.

ابتسم وهو ينظر إليها بحنان ورغبة واضحة. أحسّت بجسدها كله يرتعش وأنفاسها تتغير في سرعتها تحت تأثير نظراته الحامية. أرادت الخروج لكن

ثمة قوة أرغمتها على البقاء والاستمرار في الحديث معه، بالرغم من أنها تعرف أنها تغامر بما لديها من قوة، فقالت له، وهي تبتسم بحياء:

- لماذا تنظر إليّ هكذا؟

فقال مشاكساً وهو يجرها إلى دوائره الخفية:

- لماذا؟ أترى النظر إليك حرام؟

- لا، لكنك تنظر إلي نظرات خاصة.

- لأنه.

وصمت متقصداً، وهو يعرف أنها ستلح بالسؤال لتعرف السبب، وفعلاً سألته:

- لأنه ماذا؟

- لأنه.

واصطنع الخجل والارتباك، وصعوبة القول، وكأنه يخاف أن يقول ما يريد، فظل صامتاً، فسألته بحرارة وبإلحاح خفي:

- لأنه ماذا؟

نظر إليها وقال بخبت غير ظاهر:

- أخاف أن تسيئي فهمي عندما أجيب؟

- أسيء فهمك؟ لماذا؟ لا. لا أسيء فهمك. قل لي إذن لماذا تنظر إليّ هكذا؟!

كانت هي تخمن بشكل غامض ماذا سيكون جوابه، وأحبت هذه اللعبة، لذا ظلت تنتظر جوابه، فقال لها وهو يبت كل الحنان والرغبة في صوته:

- لأنك جميلة جداً. لأنك ساحرة الجمال، ولأنني أشعر أنني لا أستطيع أن أقاوم جمالك وألا أنظر إليك!

سرت في جسدها رعدة ساخنة. صمتت للحظات. نظرت إليه وكأنها سمعت كلمات سحرية، لكنها أدركت أنها كلمات شيطانية أيضاً. نظرت إليه،

وفي وجهها صراع واضح، بين القبول والاستنكار، نظرت إليه سريعاً بارتباك وكأنها تدرس وجهه لتعرف مصداقية كلماته، خفضت رأسها ونظرت إلى الأرض، بقيت للحظات على هذه الحال. رفعت رأسها إليه وعلى وجهها ابتسامة جميلة وكأنها حسمت أمرها، أو كأنها تقول أعرف غرضك، ثم غادرت الغرفة! أحس آدم المحروم بفرح غامر فقد كان رد فعلها مشجعاً، انتبه فجأة للصبي الذي كان يقلب أحد المجلدات، بل وكان أثناء كلامهما قد أخرج مجلداً ضخماً من الرف القريب إليه وجلس يقلب صفحاته كأي لعبة يلهو بها. نظر آدم المحروم إليه مبتسماً وقال:

- ماذا تقرأ أيها الفيلسوف الصغير؟

- أريد أن أكون مثل جدي.

- ستكون. ستكون.

قال ذلك بمرح، لكنه فجأة انتقل مرة أخرى للتفكير بما دار من حوار بينه وبين حواء الزاهد، أراد تحليل الأمر، هل وصل إلى ما أراد؟ هل خلع القفل عن الباب للدخول إلى عالمها؟ ماذا سيكون رد فعلها؟ الآن عليه أن يهدأ وأن لا يتهور فيخرب كل شيء؟ لا. لا. عليه أن يتخذ خطوات جريئة أخرى ليحطم بذلك كل المصداقات الموجودة بينهما! عليه أن يستغل الوقت، ويطرق على الحديد ما دام ساخناً! ماذا عليه أن يفعل الآن؟ هل سينزل إليها، أم ينتظر صعودها ثانية؟ لينتظر عشر دقائق أخرى ليكتشف تأثير ما دار عليها، فإذا صعدت فهذا يعني أنها بدأت تستسلم وتريد مواصلة المغامرة بينهما، وأنها موافقة على ما سيأتي من تفاصيل أخرى! أما إذا أهملته ولم تصعد فهذا يعني أن عليه أن يكون حذراً جداً معها ويعيد حساباته! عليه أن يصبر ولا يدع شهوته تقوده بحيث تعميه عن التصرف السليم! هكذا كان يسأل نفسه ويحيبها في الوقت نفسه.

لم تمر الدقائق العشر بعد حينما رآها واقفة عند الباب. ذهل من توقعاته. كان وجهها باسمّاً بخجل، كانت مرتبكة من صعودها ثانية لأن هذا كان

واضحًا بأنها موافقة على ما قال وتريد التواصل معه، نظرت إليه بارتباك مع ابتسامة خجولة، وقالت:

- جئت لأخذ الصغير لأنه قد يزعجك.

كان هو منذهلاً من صعودها إليه، هذا يعني أن عليه أن يذهب أبعد، لكنه ارتبك أيضًا، لم يكن يعرف ماذا يفعل، فقال بنبرة متوترة وبصوت مرتجف:

- أبداً. إنه لا يزعجني أبداً. تفضلي لماذا تقفين عند الباب.

دخلت إلى غرفة المكتبة ووقف قرب الباب، لكنها كانت أقل ارتباكًا، ولكي تجد ما تتواصل به معه قالت:

- أنا أنتظر اتصالاً من زوجة مالك المشتل، قالت إنها ستتصل قبل أن تأتي، لذا إن أذني على الباب، ثم ربما سيأتي أحد دون أن أنتبه.

- من سيأتي. الوالد في العمل. قال بجرأة وبإشارة مفهومة.

- لا أدري، لكن لا أريد أن يفاجئنا أحد.

نظر إلى عينيها، فأحست بالارتباك، فأقدم على خطوة أخرى باتجاه عالمها، إذ قال:

- لا أحد سيفاجئنا إذا انتبهنا جيداً.

احمر وجهها، إذ فهمت قصده، لكنها لم تجب، وإنما أحست بأنها ارتكبت شيئاً خاطئاً، فنظرت إلى ابنها وقالت:

- تعال يا حبيبي للنزل، لترك عمو يكتب بهدوء.

فرد الصغير الذي كان منهمكاً بالمجلد الضخم على حجره:

- أريد أن أكون مثل جدي.

ابتسمت. رفعت وجهها نحوه ونظرت في عينيه بتساؤل وكأنها تبحث عن خلاص. أحس هو بنظراتها المتسائلة، وأحس أنها تائهة لا تعرف ماذا عليها أن تفعل، لكنه أحس أنها ترغب في التواصل، فانتهاز الفرصة وقال بهمس:

- أنا أحب حضورك إلى هنا، أحس بالأمان وأحس كأن كل شيء يصبح أجمل، وأتمنى أن تبقي، هذا طبعاً إذا كنت قد أنجزت عملك في المطبخ. لم تعرف ماذا تجيبه. نظرت إليه وفي عينيها فرح وتألق وخوف، ف لأول مرة هناك من يتحدث معها بهذه الطريقة. أرادت أن تقول شيئاً إلا أنها أحست بالكلمات تموت على شفتيها، استدارت وأخذت الصغير معها، وعند الباب نظرت إليه نظرة مليئة بالألغاز، وهبطت.

لم يدر آدم المحروم ماذا يفعل. إنه وحده مع امرأة بكل هذه الكنوز والثمار ولا يستطيع أن يفعل شيئاً. عليه أن يحلل الموقف جيداً، فلقد عادت وصعدت بحجة أن الصغير يزعمه، لكن كلاهما يعرف بأن ذلك غير صحيح، ثم أنه صرّح لها برغبته في حضورها، فلم تعلق، بل ابتسمت، «لكن ما معنى هذه النظرات المليئة بالتساؤل والألغاز؟ ماذا عليّ أن أفعل الآن؟»، سأل نفسه، وفكّر في ما لو أنها صعدت إليه خلال الدقائق العشر المقبلة مرة أخرى، فإن عليه أن يتخذ مبادرة ما، وأن يفتحها بحبه. سينتظر الدقائق العشر المقبلة، إذا لم تصعد فهذا يعني أنها رفضت كلامه الأخير لها! هذا ما توصل إليه في نهاية كل هذه الحوارية مع النفس.

ظل ينتظر بقلق. اقترب من عتبة الباب، مدّ رأسه ونظر إلى جهة السلم، لم يجد أحداً. أصاخ بسمعه عسى أن تصل إلى أذنيه أي حركة يستطيع أن يستشف من خلالها ما يجري، لم يسمع شيئاً وكأن البيت مهجور. رجع إلى حيث كان يجلس ويكتب. أراد أن يشتت تركيزه عليها من خلال إشغال نفسه بالكتابة، لم يستطع أن يكتب شيئاً إضافياً، لكنه استطاع أن يقرأ بعض الفقرات التي كتبها. انتبه إلى أن عشرين دقيقة قد مضت ولم تأت.

حاول أن يمنح نفسه أملاً إضافياً من خلال إيجاد التبريرات لها: «ربما هي مشغولة بإعداد الطعام، أو ربما هي تتحدث مع زوجة صاحب المشتمل؟ لا. لا، هذا غير ممكن وإلا لكنت سمعتُ صوتها وهي تتحدث! ربما هي قد

خرجت إلى السوق القريب؟"، كان قلقاً، لا يستطيع أن يهدأ. اضطربت في داخله مشاعر شتى، رغبة جنسية هائجة، وأحلام يقظة رومانسية بعلاقة ثابتة وقوية، وإحباط من كونها متزوجة، ولا يعرف أي شيء عن طبيعة علاقتها مع زوجها! ربما هي تحبه؟ وحتى لو لم تكن تحبه فربما تربيتها الدينية تمنعها من أن تخوض معه أي علاقة غير شرعية؟ لكن لو كان الأمر كذلك فلماذا وقفت واستمعت إليه وهو يلقي عليها كلمات لا يمكن أن تفسر غير أنها كلمات غزل وحب ورغبة من رجل وامرأة متزوجة، وفي غرفة منعزلة! ما معنى ذلك؟ ثم. لماذا لم تردّه وتقول له بأن ذلك لا يجوز وأنها متزوجة و. و. لفهمه بأنها لا تريده، وتوقفه عند حدّه ولا تسمح له بالتمادي؟ ناهيك أنه كان بإمكانها أن تُسمعه كلمات قاسية وخشنة، بحيث يترك البيت ولا يعود إليهم ثانية! لكن كل ذلك لم يحصل. إذن، هي موافقة! لكن لماذا لم تصعد إليه وقد قال لها بأنه يحس بالأمان عندما تكون موجودة؟

كان آدم المحروم كالمحموم نتيجة أفكاره المتضاربة وأسئلته المنطقية والمتناقضة. ألقى نظرة بانورامية على أرفف الكتب المتجاورة. أحس بالإحباط يتسلل إلى نفسه. ووجد نفسه يتحدث بصمت مع نفسه: «ما الذي فعلت بنفسك يا آدم المحروم؟ من جاء بك إلى هنا. إلى هذه المتاهة المظلمة؟ أحياناً أنت ذلك الفنان والكاتب الذي ينادي بانتصار الجمال والخير والعدالة، بينما أنت الآن تتحرق لإغواء امرأة شابة مسكينة، محرومة من الحب والحنان والجنس. امرأة متدينة؟ لماذا تخون ثقة رجل آواك وفتح أبواب بيته لك، وعاملك مثل ابنه، بل إن كلمة يا ابني لم تسقط من فمه قط وهو يخاطبك؟ أهكذا تجازيه على ما قدمه لك؟ بينما أنت يا آدم المحروم. أيها النذل الرعديد، الخسيس، لا همّ لك سوى أن تضاجع ابنته؟ لا. لا. هذا ليس أنت؟ أين المبادئ والقيم التي تتحدث عنها وتؤمن بها؟ لا. لا. هذا شيطانك، وجهك الآخر، طاقة الشر والقذارة التي في داخلك!" كان يحدث نفسه ويهينها!

فجأة؛ وجد نفسه في لحظة إشراق أخلاقي، قرّر الخروج من البيت، مبرراً نفسه بأن الأب آدم الزاهد لا يستحق ذلك منه، فطوى الصفحتين اللتين كتبهما، ووضعهما في جيب بنطاله، وقام ليخرج. وفي هذه اللحظة بالذات دخلت عليه حواء الزاهد! أحسّ بصدمة، وفي لحظات قصيرة لعن القدر! وقال لنفسه: لماذا لم تتأخّر ثوانٍ أخرى لكنك قد خرجت! الآن كيف لي أن أخرج؟ وقفت هي أيضًا كالصدومة لأنها عرفت أنه كان ينوي الخروج. لم يعرفا ماذا يقولان لبعضهما، بادر هو قائلاً:

- ظننتكِ لن تأتي، فقررت الخروج.
- نظرت إليه بشيء من الإحباط، وقالت وكأنها تبرر تأخرها:
- حاولت أن أنوم الصغير.
- وهل ينام هو في مثل هذا الوقت؟
- عادة لا، لكنني حاولت أن أدفعه للنوم. كي. كي لا يزعجك.
- في هذه اللحظة، أحس هو أنها قد انهارت أمامه، لأنها أرادت أن تقول له كي لا يزعجنا، هكذا فهم هو قولها، فابتسم لها ابتسامة ذات معنى، وسألها بخبث، ناسياً قراره الأخلاقي بالمغادرة:
- وهل نام الآن؟
- نعم.
- ربما سيصحو؟
- لا أعتقد ذلك، على الأقل سينام نصف ساعة إلى ساعة.
- يعني عندنا نصف ساعة إلى ساعة؟

ابتسمت بخجل، وكانت شبه منهارة. برغم قوة شخصيتها، وهيكلها الشامخ. ظلاً صامتين. ينظر كل منهما إلى الآخر. خجلت هي، طأطأت رأسها إلى الأسفل. اقترب منها ورفع وجهها بأصابع كفه، كان وجهها أبيض

مشبوبةً بحمرة وردية، وعيناها كالعقيق الأسود، وشفتاها ورديتين، لحيمتين دون متانة. وبدون أي مقدمات أو تفكير، اقترب منها، صار كل منهما يسمع أنفاس الآخر، وبشكل خاطف ومفاجئ، ضمها إليه مقبلاً شفتيها، حاولت أن تملص منه، وهي تقول:

- لا. لا. لا يجوز. لا.

لكن كلماتها وصوتها خمدًا أمام الحرارة التي تأججت في جسدها نتيجة احتكاكها بجسده، التهم شفتيها التهامًا، وأخذ يقبل وجهها وعنقها. أحس أنها تنهار. كان يسمع أنفاسها وهي تشهق، وتتأوه بكتمان، ولكي يحسم الأمر، أخذ يقبل صدرها، ثم مد يده إلى نهديها، فندت عنها صرخة شبق، ولكي يجعلها تنهار بالكامل مد يده إلى ما بين فخذيها، فصرخت، وجلست على الأرض منهارة. حملها عن الأرض وأخذها إلى نصف الكنبه التي تحتل جانبًا من المكتبة، أجلسها إلى جنبه وأخذ يقبلها. كانت سكرى من القبل، لكنه مد يده في جيب ثوبها من الأعلى فأمسك بنهدا الطري. كانت الفوطة قد انحلت وبان شعرها الأسود الكث، وفتحة الثوب الواسعة والعريضة، فرفع بيده نهدا وأخرجه من الفتحة وأخذ يمص حلمتها. انهارت بالكامل، وتمددت باسترخاء، فمد يده إلى تحت ثوبها، أحس بفخذها الصقيلة، وكانت هي تدافع عن نفسها. تحاول أن تبعد يده، لكنه تمكن من الوصول إلى منطقتها الملتهية، إلى بركانها المتأجج. أحس أنها رطبة، بل مبتلة هناك، فأدخل إصبعه فيها، فصرخت بشهوة، وهي ترتجف من اللذة. أحس بتقلصات على إصبعه. انتبه إلى أنها يكاد يغمى عليها من اللذة. سمحت له أن يمد يده أكثر. فأخذت كفه تداعبها هناك بحرية. كانت مشعرة، لكنها حارة ومبتلة من أمطار الشهوة. أحس بها ترتجف، والدموع تنزل من عينيها. فجأة انتفضت، مبعدة يده عنها، قافزةً بشكل كامل من بين أحضانها، وصارت عند الباب. نظرت إليه، وكأنها ليست تلك التي قبل قليل كانت منهارة وتتأوه بين يديه، قالت له والشرر يتطاير من عينيها:

- عليك لعنة الله. إذا كنت إنساناً حقاً ورجلاً شريفاً ما كان عليك أن تفعل هذا، أرجوك اخرج من حياتنا. أرجوك ألا تعود إلى هذا البيت، وأن تنسانا إلى الأبد. وقفت والشرر يشع من عينيها، ثم خرجت. لم يفهم هو ما الذي جرى، قبل لحظات كانت يده تلعب بفرجها المشعر، وكانت تتجاوب مع قبلاته، وتتأوه بين أحضانه، فما الذي أيقظ فيها هذه المرأة الشرسة؟ كان هو في كامل ثيابه. متوترًا جدًّا، لأنه لم يستطع أن يكمل ما بدأه معها. فغادر الغرفة بعجلة أشبه بالهروب، لم يكن ثمّة أحد، في الصالة أخذ الحقيبة الجلدية التي فيها مخطوطات آدم البغدادي، وغادر البيت.

في الطريق قرر ألا يمر على الأب آدم الزاهد حقًّا، وأن يغيب عن هذه العائلة، وفكر مع نفسه بأنها من المؤكد لن تتحدث لأبيها عمّا جرى، لكنه بالرغم من ذلك أحسّ بشيء من الراحة النفسية، لما حققه معها!

الفصل العاشر

نهار الجثث

أفاق آدم المحروم على صوت انفجار قريب جدًا اهتز البيت كله على أثره، فهب واقفًا بشكل لا إرادي. وقبل أن يهرع من في المنزل، ارتدى ملابسه الخاصة سريعًا. فقد استيقظ الجميع على صوت انفجار هائل قريب، لكنه تأكد بأن كل الذي جرى بينه وبين حواء ابنة آدم الزاهد لم يكن إلا حلمًا جنسيًا جميلًا بالرغم من نهايته غير السعيدة. شعر براحة نفسية بأن كل ما جرى لم يكن سوى حلم، فهذا هو بينهم!

وبينما هو يللمل أوراق المخطوطة ويضعها في الحقيبة الجلدية، ويللمل الفراش أيضًا، دخل الأب آدم الزاهد وهو يستعيز بالرحمن، وكذلك هرعت ابنته والصبي. وقبل أن يلقي الأب التحية، قال:

- إنه انفجار قريب جدًا، ربما في السوق القريبة.

- أكيد.

- السلام عليكم. نسيت أن أسلم عليك يا ابني. متى نخلص من هذا الوضع التعيس؟!

- عليكم السلام حجي.

حواء أيضًا ألقت التحية وهي تحتضن ابنها:

- السلام عليكم. يا ساتر يارب.

- عليكم السلام.

خرج الأب وآدم المحروم إلى الشارع، الطفل أراد أن يخرج فأوقفته أمه بقوة، فأراد الطفل أن يفلت من بين يديها وهو يصيح:

- أريد أن أروح مع جدي.

لكن الأم مسكته بقوة بحيث لم يمكنه أن يفلت من بين يديها.

عند رأس الشارع، وليس بعيد عن منعطفه كانت سيارة ملغمة قد انفجرت. أصوات نغير سيارات الإسعاف وهي تهرع إلى مكان الحادث يصم الآذان ويبعث القلق في النفس. وكانت الأجساد قد تطايرت إلى أنحاء شتى، وتعالى الدخان من المكان. قبل أن يصلا إلى مكان الحادث رأى آدم المحروم ساعداً بشرياً ممزقاً أمامه. وقف فجأة، انتبه آدم الزاهد لآدم المحروم، كما انتبه إلى الساعد الذي تمزق وانفصل عن ذراع صاحبه، الذي من المؤكد قد تمزق من هول الانفجار. لم يقل شيئاً وإنما توجهها إلى مكان الانفجار.

حينما وصلا شاهدا الجثث الممزقة والمتناثرة هنا وهناك، بعض الجرحى الأحياء فقدوا أعضاء من أجسادهم. هذا فقد يده وهو يركض لا يدري إلى أي اتجاه، وذاك يجلس على الأرض مقطوع الساق ينظر نظرات تائهة كالمجنون، هناك جثث قد برزت أحشاؤها، عشرات الجثث والجرحى. رؤوس مهشمة بطريقة بشعة متناثرة هنا وهناك. جثث متفحمة تطلق رائحة نتنة، فالانفجار قد تم بالقرب من مطعم يرتاده العمال والموظفون الذاهبون إلى أعمالهم ودوائرهم. بعد دقائق جاءت قوات الحرس الوطني وأخذت تطلق النار في الهواء لتفرق الناس الذين هرعوا إلى مكان الحادث.

بعض الناس أخذ ينقل الجرحى ويضعهم على الرصيف المجاور بانتظار سيارات الإسعاف التي كان صوتها يُسمع من مسافة غير بعيدة لكن يبدو أن الازدحام في الشارع قد أعاق سهولة حركتها. وما إن وصلت حتى بدأوا بنقل الجرحى. بعض أصحاب السيارات تبرعوا بنقل الجرحى حسب الإمكان.

لم يجد آدم المحروم ما يمكن أن يساهم فيه وكذلك الأب. كان آدم المحروم يشعر بالانقباض النفسي، والغضب. الغضب من كل شيء،

من هؤلاء الساسة الذين يعيشون في تلك المنطقة المسورة بكل شرطة ومخابرات الدنيا، وبالأجهزة الإلكترونية، وبالذبابات، والتي تُسمى “المنطقة الخضراء”، بينما الناس هنا يتساقطون كالذباب وبطريقة بشعة ومؤلمة وقاسية، بل سوف يخرج أحد السياسيين من على شاشات الفضائيات ليهين الناس بالتقليل من عدد الضحايا والجرحى، ويوجه الاتهام للقاعدة وأعوان السلطة البائدة. رأى الناس تتجمع، وبعض النساء بدأن باللطم على خدودهن، والبعض الآخر راح يشتم الحكومة والناس السياسيين الذين يجلسون في “المنطقة الخضراء”.

تصاعدت أبخرة الدم ورائحته الثقيلة مع الزحمة، وتصاعدت الحرارة، فأحس آدم المحروم أنه على وشك أن يفرغ ما في جوفه في الشارع، فأسرع إلى جهة البيت. انتبه إليه الأب الذي كان بدوره شاحب الوجه، وحينما لحقه، سأله:

- هل أنت بخير يا ابني؟
- أحس برغبة في إفراغ ما في جوفي، رائحة الدم أصابتني بالغثيان.
- لا حول ولا قوة إلا بالله. إلى متى سينتهي كل هذا؟
- لن ينتهي يا حاج، لن ينتهي.
- قبل أن يصلا إلى الباب شاهدا من بعيد حواء وابنها يقفان عند العتبة. أحس آدم المحروم بنفسه تهدأ قليلاً، فما جرى كان حلمًا، فهو لم يسيء لهذا الرجل الصالح والطيب، ولا لهذه المرأة الجميلة الصابرة! وقبل أن يصلا إلى البيت دخلت هي وابنها.

حين صار الأب وادم المحروم في الصلاة كانت صينية الفطور مع الشاي والخبز موجودة مع علبه العسل والقشطة والجبن. وقبل أن تسأل حواء الزاهد أباهما قال لها:

- انفجار سيارة عند مطعم الكباب، عشرات الجرحى والقتلى، لا أحد يعرف كم عددهم!

- يا ربي. يا ساتر. أنا خرجت قبل نصف ساعة من الانفجار واشترت الخبز والخضراوات، ومررت على الدكان الذي بجانب المطعم فاشترت بعض علب المربى والبيض، وكبة الموصل المجمدة. يا ساتر يا ربي.

قالت حواء ذلك مرعوبة. لم يجدوا ما يقال. كانت الوجوه شاحبة، والنفوس متألّمة، وكان الصمت أكثر بلاغة من الكلام. أرادت الابنة أن تنهي هذا الصمت الثقيل، فقالت:

- افطروا على الأقل قبل أن يبرد الشاي.

فقال الأب بحزن ويأس:

- من لديه شهية أن يفطر بعد أن يستيقظ على مثل هذه الانفجارات!

- لا بد أن تأكلوا، وراءك عمل لساعات طويلة يا أبي.

- صحيح يا ابنتي، صحيح، وأنت يا ابني لا بد أن تأكل فمعدتك فارغة بينما رائحة الدم أصابتك بالغثيان.

- والله يا حاج النفس تعاف كل شيء بعد رؤية هذه المشاهد.

- صحيح، لكن لا بد للحياة أن تستمر يا ابني.

- حياة من يا حاج! حياة هؤلاء القادة الذين يجلسون في «المنطقة الخضراء» هم وأبنائهم وعوائلهم، بينما نحن نعيش في رعب المفخخات وكواتم الصوت و«المادة أربعة إرهاب» التي صارت تطال كل من يتنفس في هذه البلاد؟ حياة من تستمر؟ لا بد لها من أن تستمر؟ هل هذه حياة هي حياتنا حتى تستمر؟ إن حياتهم هي الحياة طبعاً، قصورهم التي تجري من تحتها الأنهار، نعم يا حاج. الطاغية المقبور أقام قصوراً ومباني في المنطقة التي تسمى اليوم

ب «المنطقة الخضراء» ، أقام مباني سميت بفينيسيا الجديدة؛ قصور متراففة تجري الأنهار والجداول المنشقة عن دجلة لترويه بالمياه، ففي كل بيت تمر هذه الجداول والبحيرات الصغيرة. الآن يعيش فيها الوزراء ورجال الحكومة المتنفذون، وقادة الأحزاب الدينية. لقد ورثوا قصور الطغاة ليسكنوا فيها. تصور يصيحبون ليل نهار بمظلومية الإمام الحسين، وزهد الإمام علي بن أبي طالب بينما هم يعيشون في قصور فارهة! وأنت تقول يا حاج بأن الحياة لا بد أن تستمر. نحن لا نعيش يا حاج. نحن أموات في هذه الحياة.

كانت حواء تنظر بإعجاب إليه وهو يتحدث بحرقه وغضب واندفاع، حتى الأب أحس بالخجل من جملته التلقائية العابرة التي قالها له بأن الحياة لا بد أن تستمر. فما قاله آدم المحروم صحيح جدًّا، بل هو يعرف سرقاتهم وقصورهم وعماراتهم التي اشتروها في بيروت والإمارات ولندن وطهران وحساباتهم في البنوك أيضًا، بينما يوزعون الأموال القليلة هنا وهناك من أجل إقامة المجالس الحسينية والمبالغة فيها وإلهاء الناس عن دنياهم.

أحسّت حواء المؤمن بتعاطف كبير معه، لا سيما وأنه مسّ وضعها بالحديث عن “المادة أربعة إرهاب”، التي اعتقلوا زوجها تحت بندها. لذا أحست برغبة في أن يتجاوز غضبه ويأكل. فقالت:

- هذا الكلام صحيح جدًّا يا أستاذ آدم، لكنه مع الأسف لا يقدم ولا يؤخر. من يسمعنا من هؤلاء الذين تحدثت عنهم؟ لا أحد. هؤلاء جاءوا إلى الحكم بدماء الشهداء وتضحيات مئات الألوف، بينما هم كانوا في إيران أو سوريا أو لندن. جاءوا ليصبحوا قادة البلاد، ويسرقوها ويبيعوها لأربابهم في الدول الأخرى.

- أمريكا هي التي جاءت بهم! علق آدم المحروم وهو ينظر إليها.

- أمريكا أو إيران. لا فرق. قالت حواء الزاهد بحرقه.

- ماذا تقولين يا ابنتي. كيف لا فرق؟ علق الأب بنبرة عتاب.

- أمريكا تفكر بمصالحها، وإيران تفكر بمصالحها. لا أحد يفكر بالعراقيين.

- هذا صحيح. قال آدم المحروم مؤيداً.
- ابتسم الأب محاولاً تجاوز الحالة النفسية المتوترة التي تهيمن على الجميع، وقال وهو ينقل النظر بينهما:
- صار بينكما اتحاد ضدي.
- تبادل آدم المحروم وحواء الزاهد النظرات، فبادرت حواء قائلة:
- لا. ليست القضية أننا اتحدنا ضدك يا أبي، وإنما نحن نعبر عن وجهة نظرنا. فقال الأب بهدوء:
- كنت أمزح فقط، أردت أن ننهي الحديث ونأكل.
- هنيئاً.
- قالت حواء الزاهد ذلك واتجهت إلى أعماق المنزل، بينما صبَّ الأب الشاي في الإستانات وأخذ يفطران. الصبي الصغير كان ضجرًا من النقاش الذي لم يفهمه، لذا بدأ يلحق القشطة والعسل بإصبعه الصغيرة، فأخذ جده قطعة خبز ليضع فيها القشطة والعسل ويلفها له كي يأكلها.
- لم يستمر الأمر سوى دقائق، فبعد أن انتهوا من الفطور نهض الأب وحمل الصينية إلى الداخل. وحينما عاد ثانية قال لآدم المحروم عن ضرورة الاتصال بأصحاب المشتمل ليعرفوا قرارهم الأخير، ثم أردف بأنه ربما ابنته ستقوم بذلك بلا شك، وفجأة سأل الأب:
- إلى أين ستذهب خلال النهار؟ هل عليك الذهاب إلى العمل؟
- كان السؤال له وقع ضربة قوية على الفك، أحسَّ آدم المحروم وكأن فكه قد حطم ولسانه قد شل، لكن ذلك لم يستمر طويلاً، سوى لحظات، فقال:
- أنا لا أعمل في مكتب رسمي يا حاج، وإنما أكتب مقالاتي وعروضي للكتب في البيت، فأنا لستُ موظفًا وإنما كاتب أو صحفي حر كما يُقال، "فري لانسر" كما يُسمى. أما عملي في مديرية السينما والمسرح، فهو

شكلائي، أي أن معظم الموظفين على ملاك المديرية لا يداومون وإنما يذهبون للتوقيع فقط. نقبض رواتبنا الزهيدة من باب رفع العتب بالنسبة للدولة، بل معظم الفنانين يعملون في المحطات التلفزيونية والإذاعية والصحف، ويذهبون للتوقيع فقط. هذا الأمر منذ السقوط تقريبًا. لكن والحق يقال أنا أعيش بشكل أساسي من الكتابة، علمًا أن عليّ التزامات صحافية يجب إنجازها. إذ عليّ كتابة مقالين وتسليمهما غدًا وبعد غد، وأنا لحد الآن لم أكتب منهما أي حرف.

- ولماذا لم تكتبهما؟

- أنت تعرف الوضع يا حاج. أين أكتب، وأنا أتنقل من مكان إلى مكان وقلق لا يستقر على حال؟ ربما سأذهب إلى إحدى المقاهي لأتخذ زاوية أكتب فيها.

- اكتب هنا، لماذا لا تكتب وأنت هنا؟ ما الذي يمنعك؟ يمكنك أن تصعد إلى غرفة المكتبة، وهناك تجد كمية كبيرة من الورق الأبيض، وأقلامًا، ويمكنك الكتابة!

- لم يفهم آدم المحروم مقاصد الأب. حاول أن يستوضح لكنه ارتبك قبل أن يسأل، فقال بطريقة ملتوية:

- متى أكتب يا حاج؟ نحن وصلنا في ساعة متأخرة من الليل، وأنا لا أريد أن أزعج أحدًا.

- أنت لا تزعج أحدًا. أنا سأخرج إلى عملي، يمكنك الصعود إلى غرفتي، اغلقها على نفسك إن كان آدم الصغير يزعجك. تستطيع أن تكتب مقالاتك اليوم. ولا تخرج من حواء ابنتي فهي مثل أختك بالضبط، وهي تشغل عادة بتنظيف البيت وإعداد الطعام، وأنا متأكد أنها لن تزعجك.

- لم يصدق آدم المحروم ما سمعه، فالأب يقترح عليه البقاء وحده في البيت، بينما ارتعب أول الأمر من سؤاله إذ ظن أنه يطلب منه أن يغادر البيت

معه ما دام هو يخرج للعمل، لذا فإنه شعر بقلبه يدق بقوة، وبالدم يتدفق في شرايينه، لكنه حاول جاهداً أن يكبت كل ذلك كي لا يبان أي شيء من هذا الفرح على وجهه أو في نظراته، بل على العكس عليه أن ييدي شيئاً من التحفظ على بقاءه في البيت، فقال:

- لكن يا حاج ربما سأسبب لها الحرج والضيق بوجودي في البيت؟
- يا ابني عليك أن تكتب مقالاتك وتسلمها، فمن أجورها تعيش، ما هذا الكلام؟
- لم يشأ آدم المحروم أن يناقش في الموضوع أكثر كي لا يضطر إلى المبالغة في تحفظه، وربما إذا استمر في ذلك سيتراجع الأب عن فكرة أن يبقى في البيت لكتابة مقالاته نزولاً عند رغبته؛ وكان قد أبدى علامات الانتهاء من تناول الفطور، لذا أنهى الحوار بالشكر للنعمة، على الطريقة العراقية:
- لا أجد الكلمات التي تعبر عن شكري لأفضالكم عليّ، المائدة دائمة إن شاء الله. اللهم زد وبارك.

- ماذا، أأنهيت فطورك؟ أنت لم تأكل شيئاً؟
- أنا يهمني الشاي صباحاً، ولأنه لا يمكنني شرب الشاي وحده على الريق فأنا أضطر لأكل أي شيء معه.
- على أي حال. أنت في البيت، ويمكنك طلب أي شيء عند حاجتك، وبدون تردد.

- أنا لا أعرف كيف أشكرك يا حاج فلولاك لم أعرف ماذا أفعل.
- لا تشكرني يا ابني. الشكر لله، والناس لبعضها البعض.
- في هذه الأثناء دخلت الابنة حواء الزاهد مستبشرة، وهي تقول:

- لقد اتصلت جارتنا أم قابيل زوجة صاحب المشتمل، وقالت إنهما وافقا على تأجير المشتمل، لا سيما وأن الشخص مزكى من قبلنا ومن طرفنا، وأن المرأة تمر اليوم بعد الظهر وتأتي بعقد جاهز، سيتم إعداده من قبل مكتب

للعقارات في منطقتهم، وطلبت الاسم الثلاثي الكامل لحضرتك، ورقم هوية الأحوال المدنية لك، كي يتم إعداد كل شيء، ولا يبقى سوى التوقيع، أو بالتحديد سوى توقيعك لأنهم سيوقعون العقد من طرفهم.

ابتسم الأب ابتسامة صادقة وتألق وجهه بالفرح، أما آدم المحروم فلم يصدق ما سمع، توهج وجهه بدفق الدم الذي صعد إلى رأسه وهو ينظر إلى الابنة حواء وهي تتحدث بحضور الأب، فلم ينطق شيئاً أول الأمر، ثم قال بصوت هامس:

- الحمد لله. هذا صباح مبارك.

مدّ آدم المحروم يده إلى جيب قميصه وأخرج هوية الأحوال المدنية، ثم ناولها إلى الابنة، وهو يقول:

- الاسم الثلاثي هنا، ورقم الهوية وكذلك رقم الصفحة والسجل، كلها موجودة في الهوية.

كان آدم المحروم مصدوماً، إذ انتبه أنه يعيد الكلمات نفسها والحركات نفسها والأحداث نفسها التي رآها في الحلم، لكنه أحس بأنه لا يريد أن يستمر في الحلم ليعيد ما جرى بينه وبين حواء الزاهد التي انتهت تلك النهاية المخزية. لذا فكّر بأن عليه أن يفعل المستحيل كي لا يبقى في هذا البيت، ويخرج مهما كلف الأمر، لأنه إذا ما بقي فمن المؤكد أن بقية الحلم ستتحقق. فوقف فجأة وقال وكأنه تذكّر شيئاً:

- يا إلهي. يا حاج. تذكرت شيئاً مهماً، علي الذهاب اليوم إلى مقر الجريدة، إذ عليّ تصوير غلاف الكتاب، فلا يمكنني أن أقدم الكتاب بدون صورة غلافه؛ لذا فهذه المهمة أسهل، إذ يمكنني بعد ذلك أن أكتب المقال. ربما في الليل.

توقف كلاهما. نظر الأب إليه، وخمن أنه لا يريد أن يبقى في البيت بدون وجوده، فاستحسن ذلك منه، وقال له:

- مثلما تحب. البيت بيتك.

نظرت حواء الزاهد إليه نظرة مستفهمة، لاحظ علامات الخيبة على وجهها، إذ كانت تفضل تحت ضغط رغبة لا واعية أن يبقى. ابتسم آدم المحروم بخجل مع نظرة فيها اعتذار، وقال لها:

- إذا جاءت زوجة صاحب المنزل، فإني سأحاول الحضور، ويمكنك أن تتصلي بي على رقم هاتفي النقال.

ردد لها رقم هاتفه، وحينما استعدا للخروج، تعلق الصبي الصغير بجده يريد الذهاب معه، إلى العمل، فأبت الأم، لكنه تشبث بجده. أحس الجد أن وجود الصبي الصغير معه ربما يقلقه لكنه من جانب آخر سيسليه، ولا مشكلة هناك، إذ يمكنه أن يجلس على أحد المقاعد، ويأتي إليه بالمشاوي الطيبة ليأكل، وإذا ما تعب، فيمكنه أن يتصل بآدم المحروم، إذ عليه أن يرجع لتوقيع العقد، فيرجعه معه. قال ذلك أيضًا لابنته، التي وافقت تحت تبريرات الأب وإحساسها برغبة الأب في أن يكون الصبي معه. وهكذا خرج الثلاثة، الصبي الملاك وجده، وآدم المحروم، بينما وقفت حواء الزاهد عند الباب الداخلي للمنزل مودعة.

كان آدم الملاك سعيدًا جدًا وهو يذهب مع جده وضيئفهم الذي أحبه كثيرًا. وحينما صعدوا إلى السيارة وضعه جده في حجره. الصغير ينظر للطريق وللركاب بعينين مليئتين بالترقب والاستفسار، فهو لا يفهم لماذا يصعد بعض الناس ثم ينزلون بعد فترة قصيرة، لتواصل السيارة سيرها، ولماذا لا ينزل جده أيضًا؟

كان آدم المحروم يجلس على مقعد مقابل له، وكان يتطلع إليه بحنان وكأنه يحاول أن يعرف ما يدور في رأسه الصغير، وكان جده يقبله ويتشممه بين فترة وأخرى. وأخيرًا توقفت السيارة فعرف أنهم وصلوا من نزول السائق نفسه.

حينما نزل الثلاثة من السيارة في ساحة الطيران، ودّع الأب آدم المحروم. لم يفهم الحفيد لماذا لم يأت ضيئفهم معهم. أخذه جده من يده بينما ظل هو

ينظر إلى الوراء باتجاه آدم المحروم الذي رفع كفه إليه مودعاً. كان واضحاً أن الجد يتجه ناحية المطعم حيث زاويته لصنع الشاي، بينما بقي آدم المحروم حائراً إلى أين يذهب، أيذهب إلى شقته ليكتب مقاله الأسبوعي للجريدة فعلاً وليس ادعاءً كما أراد حينها في البيت؟ كان يحس براحة نفسية وإحساس أخلاقي رائق في أنه استطاع أن يقف بوجه نزوته لإغواء حواء ابنة آدم الزاهد. كان يشعر بتدفق لطاقة الخير في نفسه، وسأل نفسه: "أليس من الأفضل لي ولها وللأب الزاهد لو أنني أرجع لشتتي الأولى وألغي مشروع الانتقال إلى مكان آخر؟"، ولم يجد جواباً، إلا أنه شعر بأنه بدأ يتغير، إذ أن رغبته الشبهة في حواء الزاهد بدأت تفتّر، وبدأ يحس نحوها بمشاعر رقيقة صادقة. أخذ يحس أنه قد وقع في حبها، لكنها امرأة متزوجة، ولديها ابن، فكيف سيعيش مع هكذا حب، لا سيما وهو لا يفهم الحب بدون علاقة جسدية، وهذا غير ممكن إلا إذا أغواها، بينما هو يريد أن يحتفظ باحترامه لنفسه ولمبادئه!

ولكي لا يضطر إلى أن يقابلها ثانية اتخذ الطريق الآخر من ساحة الطيران والذي يلتف على الجهة اليمنى من حديقة الأمة، قاطعاً تلك المنطقة متشابكة الدكاكين وضيقة الفروع إلى أن وصل إلى ساحة التحرير. رأى سيارات الشرطة والحرس الوطني مقيمة هناك بشكل دائم، بالرغم من أن الشرطة ورجال الحرس الوطني بدوا في حالة استرخاء، فهناك من يتحدث بالهاتف النقال وآخرون في داخل السيارة يتحدثون، وبعضهم يأكل شيئاً، وآخرون بأيديهم علب المياه الغازية يعبون منها. اجتازهم عابراً إلى جهة اليسار ومن هناك عبر إلى الطرف الآخر من بداية شارع السعدون حيث المكتبات البغدادية المعروفة، والتي بدت مظلمة لعدم وجود التيار الكهربائي. توقف عند الكتب المعروضة على الأرض في عتبات المكتبات. مرّ سريعاً على عناوين الكتب التي بدا معظمها قديماً، والكثير منها قد قرأه قبل سنوات. أطلّ على عناوين الكتب داخل الحاجر الزجاجي والتي

بدأت جديدة الطبع. انتبه لاكتساح الكتب الدينية وكتب الشعوذة لمعظم العناوين، بالرغم من أن بعض العناوين كانت تشكل تناقضاً صارخاً لبعض العناوين المحاذية لها. كما انتبه إلى أن معظم الكتب الدينية مطبوعة في قُم الإيرانية، والبعض الآخر كان يرقد في مخازن دور النشر اللبنانية، لأن معظم الطباعات كانت من فترة السبعينات.

وصل إلى إحدى المكتبات العراقية الحديثة والتي انتقلت من دمشق إلى بغداد، فوجد الكثير من الروايات والأعمال الفكرية الحديثة. كانت الكتب على الواجهة تغريه بالدخول إليها، لا سيما وأنه رأى الطبعة الجديدة من رواية “عشيق الليدي تشارلي”، للكاتب الذي يحبه دافيد هربرت لورنس. وكذلك مجلد مؤلفات جيمس جويس الذي لم يقرأ له آنذاك سوى “أقاصيص دبلن”. وما إن انحنى ليأخذ الكتاب كي يتصفحه حتى دوت المنطقة بانفجار عنيف اهتزت له الأرض تحت قدميه. قفز مرعوباً بشكل لا إرادي. التفت بخوف فلم يجد شيئاً، سوى دخان كثيف يتصاعد من الجانب الآخر لبيوت البتاوين، ورأى سيارات الحرس الوطني تدور مسرعة نحو ساحة الطيران وهي تطلق الرصاص باتجاه السماء. وحين صار عند رأس شارع السعدون والتفت ناحية ساحة الطيران هاله المنظر، إذ كان الدخان يأتي من الشارع الذي يقع فيه مطعم الكباب وبسطة شاي الأب آدم الزاهد.

هرول آدم المحروم مرعوباً نحو ساحة الطيران، وقبل أن يصل بعشر دقائق أحس بقلبه يتقبض جداً، إذ أن الانفجار كما هو واضح عند المطعم. لم يكن سهلاً عليه الوصول، فقد كان رجال الحرس الوطني يمنعون أي أحد من الاقتراب، لكنه رأى أن لا وجود للمطعم ولا لزاوية الشاي، فقد انفجرت سيارة ملغمة عند الزاوية نفسها وفي المسافة القصيرة بين زاوية الشاي والمطعم.

أحس آدم المحروم بأن قدميه ترتجفان ولا تستطيعان حمله، فجلس مرفصاً على الأرض. كان كل شيء مختلطاً، الملابس بقطع اللحم الممزقة، الأطراف المهشمة، الرؤوس المقطوعة. حاول الاقتراب وهو يصبح برجال الشرطة:

- أبي هنا. أبي هنا.

لا يدري من أين جاء الدمع. كان يبكي ويصرخ. سمحوا له بالاقتراب قليلاً، تعاطفاً مع حالته، رأى ثوب الأب آدم الزاهد وسترته المملطخة بالدم وهي تضم بقايا جسد ممزق، ولا أثر للرأس. لم يجد سوى بعض الأحشاء الداخلية ورأس الطفل آدم الملاك الذي لم يبقَ من رأسه سوى جلد الوجه لأن مخه وجمجمته قد تمزقت بفعل الانفجار. رأى بركة من الدم قد حفرت في الأرض من قوة الانفجار. رأى بعض أعضاء أو أحشاء بشرية قد التصقت بالجدار المقابل للشارع. لا يدري كيف أنه وبلا شعور منه ولا إرادة منه أخذ يضرب على وجهه ورأسه بكفية نادباً الأب آدم الزاهد وحفيده آدم الملاك. أخذ يصرخ بأعلى صوته:

- لماذا؟ لماذا كل هذا يحصل يا ربي؟

كان الناس الذين تجمعوا وسيارات الإسعاف التي هرعت إلى المكان قد سدّت الطريق والمنافذ. لم يعد أحد ينظر إليه لأن الجميع قد توجه إلى مكان الانفجار. كان هو كالمجنون يصرخ محدثاً نفسه:

- لماذا خرجت هذا اليوم يا آدم الملاك؟ لماذا خرجت اليوم يا أبي يا آدم الزاهد؟ ماذا أقول لأملك أيها الملاك آدم حين أقابلها؟ آه يا ربي. أين عدالتك؟ ما ذنب هذا الطفل البريء أن يتمزق جسده هكذا؟ أليست كل هذه المذابح تجري باسمك يا أيها الرب؟ أتريد هذا حقاً يا الله؟ يا أبانا الذي في السماوات؟!

ظل يبكي مع نفسه إلى أن تعب ولم تجد عيناه دمعاً تذرفه، فقام منكسراً. كانت الزحمة قد خفت قليلاً، إذ ذهب سيارات الإسعاف، وكذلك بعض رجال الحرس الوطني، وبعض الذين تجمعوا، وكان هناك من يسأل إن كان أحد يعرف أحداً من الضحايا، فتقدم حزيناً من أحدهم، الذي بدا برتبة عسكرية متقدمة، وقال له حزيناً:

- أنا أعرف الرجل الذي في الزاوية يبيع الشاي، كان اليوم مع حفيده. إنه آدم الزاهد، وحفيده اسمه آدم الملاك. إنهم يسكنون في منطقة المشتل، وأعتقد أن صاحب المطعم هو أخو زوج ابنته. يمكنكم أن تذهبوا إليها لتقول لكم أكثر. أعطاهم العنوان وانسحب حزينا. لم يشأ أن يذهب هو ليخبرها بالكارثة، لكنه أحس أن من واجبه أن يذهب إليها ويقف إلى جنبها في هذه المحنة الرهيبة عليها. لم يشأ أن يحمل لها مثل هذا النبأ، لكنه سيذهب إليها في ما بعد، لا سيما وأنه انتبه إلى أن العسكري المشرف على تلك الحادثة أمر أحدهم للذهاب على العنوان الذي أعطاهم إياه.

انسحب آدم المحروم من المكان. كان يحس بخواء عظيم، وكأن الحياة أمست تافهة ولا تعني أي شيء، فلم تعد هناك قيمة لكل شيء، واستمرت الأسئلة الجارحة تدمي أعماقه: "ما معنى هذه الحياة التي يتم قتل الناس فيها بهذه الطريقة البشعة؟ ولمن يتم تقديم كل هذه الضحايا قربانا؟ لمن؟ من أجل حفنة من المزورين والفاستدين والعملاء لدول الجوار؟ وما الذي جناه العراقيون من هذه المذبحة التي تستمر منذ عقود؟ ما هذا العبث بحياة الناس باسم الدين والقيم؟ ما معنى هذه الحياة؟".

لم يكن يدري إلى أين يذهب، كان يحس بفراغ جسده، وبثقل رأسه. انعطف في شارع السعدون دون هدف. وصل إلى ساحة النصر. عبرها صاعداً الطريق نحو ساحة الفردوس، التي كانت سابقاً تسمى ساحة الجندي المجهول قبل بناء ضريح آخر له. عبر صاعداً نحو ساحة قهرمانه والتي تجسد حكاية علي بابا والأربعين حرامي. فكّر مع نفسه: "يبدو أن أعلى رقم للحرامية كان في ذلك الزمان هو الأربعون، لكن طاقم السلطة في البلاد الآن يعدون بالمئات، أي حكاية سنكتب اليوم، علي بابا والمئات من حجاج بيت الله الحرامية؟ يا لسخرية القدر. هؤلاء ليسوا بأفضل من الذي سبقهم؟ أي لعنة تدور في أرجاء هذه البلاد؟".

وجد آدم المحروم نفسه يدور إلى الجهة الأخرى ويعود أدراجه. راوده خاطر بأن الشرطة الذين ذهبوا إلى بيت آدم الزاهد ربما جاءوا بابنته لتتعرف على بقايا الجثث. أحسّ بنفسه وهو يسرع في مشيه ليصل إلى المكان. كان يحسّ بنبضات قلبه سريعة، وأحسّ بالعرق يبلل جبهته. ماذا هل هو مريض؟ أحسّ بهبوط في قلبه، وبحالة أشبه بالإغماء. أحسّ بأنه لا يستطيع الوقوف وأنه سيسقط على الأرض، وأنه ينهار. أسرع ليجلس في زاوية فيها شيء من الظل، وبدون شعور منه تمدد على الأرض ووضع الحقيبة الجلدية تحت رأسه. مرّ في تلك اللحظة رجل خمسيني وامرأة فتيّة سافرة الوجه. اقتربا منه، كان الرجل يناديه، ولاحظ أن الرجل رفع رجله إلى الأعلى مباشرة، وكان يصرخ به:

- لا تنم، لا تنم، ابقِ صاحياً.

ولم تمض إلا لحظات حتى أحسّ نفسه تعود لوضوحها. رأى الرجل والمرأة التي معه يجلسان القرفصاء، ويسألانه:

- هل أنت مريض. وجهك أصفر؟

لم يقل لهما شيئاً وإنما كان ينظر إليهما، فسمع الرجل يعلق:

- الحمد لله أنا جئنا في اللحظة المناسبة. لقد تعرضت أيها الأخ إلى ذبحة صدرية، أو هبوط حاد في الضغط، أو إغماءة سكر. لا أعرف، لكن الحمد لله مرّ كل شيء بسلام. هل تحتاج إلى أن نتصل بالإسعاف؟

فأشار بيده رافضاً ذلك، وبهمس قال:

- أنا بخير. شكراً لكما. أنا بخير.

- هل أنت متأكد بأنك لا تحتاج للاتصال بالإسعاف؟

- لا شكراً. شكراً لكما. لقد مرّ كل شيء بسلام. شكراً لكما.

نظرا إليه للحظات، ثم واصلا سيرهما. ظل آدم المحروم جالساً في مكانه فترة طويلة من الزمن، أحسّ بجسده يتعرق عرقاً بارداً. وشيئاً فشيئاً

أحس بالتحسن. نهض من مكانه، حاملاً حقييته، متجهاً إلى مكان الانفجار في ساحة الطيران.

حينما وصل إلى مكان الانفجار لم يجد شيئاً. لا سيارات الشرطة والحرس الوطني، ولا الناس، سوى حفرة فيها ماء ملوث بالدم، لأن هناك من جاء لينظف المكان من الأشلاء والدماء وكأن شيئاً لم يكن. رأى آثار الخراب التي خلفها الانفجار حيث لم يبق من المطعم سوى حفرة سوداء وبقايا حريق، أما زاوية الأب فقد انقلبت باطنها على ظهرها، وكأنما كان جرار ضخّم حفر تلك البقعة وقلبها على بعضها!

بالقرب من المكان، وعلى الطرف الآخر من الشارع كانت تقف سيارة للحرس الوطني. اقترب منهم، فتأهبوا، لكنهم هدأوا قليلاً حينما وجدوه لا يرتدي غير قميصه الملتصق بجسده، فاطمأنوا إلى أنه ليس مفخخاً، سلم عليهم وسألهم أين أخذوا الجثث والجرحى والبقايا من الأشلاء من ضحايا الانفجار، لأن هناك من يقرب له كان يعمل هنا، فقالوا له لقد تم نقلهم إلى "مشرحة بغداد". شكرهم ومضى متجهاً صوب ساحة التحرير، إذ قرر أن يذهب إلى "مشرحة بغداد". ولم يمش عشرة أمتار حتى أوقف سيارة تاكسي ودخلها، قائلاً له:

- إلى مشرحة بغداد.

حينما وصل آدم المحروم إلى المشرحة لم يجد الكثير من الناس كما كان يتوقع. رأى شاباً في مقتبل العشرينات من العمر مقبلاً من الطابق الأسفل تحت الأرضي، أراد أن يسأله إلا أن موظف الاستعلامات صاح به:

- هيه. أنت يا آدم الحارس، هل أعددت تقريراً لكل الجثث التي جيء بها اليوم؟

- نعم. إنها جثث لخمس نساء وطفل.

اقترب آدم المحروم منه، وسأله:

- أخي، أنا أسأل عن الجثث التي نقلت إليكم قبل ساعة من الوقت ربما في انفجار ساحة الطيران.

نظر إليه آدم الحارس بغموض وقال:

- ليس لدينا اليوم سوى خمس جثث لخمس نساء قتلن في انفجار قرب مؤسسة الشهداء، وبينهم طفل أيضًا.

- ألم تأتِ امرأة تسأل عن ابنها وأبيها؟

- لا. اليوم لم يحملوا لنا سوى جثث النساء الخمس مع الصبي، ربما تم نقلهم إلى أماكن أخرى.

كان الحارس آدم صموتًا وكأنه جثة تمشي.

نظر آدم المحروم إلى مجموعة من الناس، من النساء النائحات والآباء الذين يكون بصمت أو بصوت مكتوم قتلهم في الانفجارات التي تهز بغداد يوميًا. لم يجد حواء الزاهد بين النساء. أحس أن ألمه تضاعف أكثر، لم يستطع أن يستوعب مصيبة واحدة بينما هنا رأى مصائب العراقيين متجسدة ولا تحتاج لتعليق.

سار آدم المحروم مخرجًا نفسه باتجاه الباب المعظم، ليدور من هناك نحو شارع الجمهورية وليركب سيارة إلى ساحة التحرير. فكّر ربما هي الآن في المكان نفسه، فليذهب إلى هناك.

حين وصلت السيارة نهاية شارع الجمهورية، نزل وقطع الشارع متجهًا نحو ساحة التحرير، ومن هناك انعطف نحو الشارع الذي تم الانفجار فيه. لم يكن أي أثر للدمار وكأنما لم تكن هناك مجزرة هنا أصلًا، أو كأنما الموت لم يمر من هنا هذا اليوم.

فكّر آدم المحروم بأن يذهب إلى حواء الزاهد في بيتها ليعرف ماذا جرى معها، وكيف واجهت الكارثة؟ لكنه أحس بأنه أضعف من أن يذهب إلى

هناك. أخذ يمشي بلا هدف. توجه صاعداً الطريق حتى وجد نفسه أمام القصر الأبيض، في تلك المنطقة التي كانت ترعب العراقيين، لكون مباني أجهزة الأمن والمخابرات كانت في تلك المنطقة المقابلة للقصر الأبيض. انعطف في دروب المنطقة تلك. وجد نفسه يدور في أزقة تؤدي إلى أزقة. وحدث أن دخل أزقة مسدودة بجدران إسمنتية عالية. خَمَّن أن ثمة مسئولاً أو شخصية ما مهمة تعيش في تلك المنطقة. انتبه لتواجد عدد كبير من المطابع في تلك الأزقة، إذ كان يظن أنها متجمعة في شارع المتنبى. دخل إلى أزقة لم يكن فيها غير بيوت مهدامة، بيوت أطلال. فكَّر مع نفسه: ”لِمَن هذه البيوت؟ ولماذا هي مهجورة وكأنها أطلال حضارة بائدة وسط منطقة سكنية ببغداد؟“ كان ينظر بلا مبالاة إلى هذا العدد الكبير من المولدات الكهربائية، وشبكات الخطوط الكهربائية الموصلة بها، وإلى الأوساخ التي خلفها زيت المولدات على أرضية الشوارع، وإلى تلك الروائح الكريهة نتيجة تجمع الأوساخ وفضلات البيوت.

كان الخراب قد خيم على تلك المنطقة، بالرغم من أن الناس هناك كانوا يمارسون حياتهم وكأنهم لم يكونوا يعرفون غيرها في يوم من الأيام، بل صاروا يقبلون بهذا الحال خوفاً من مجيء الأسوء. استرجع في ذاكرته شكل هذه المنطقة قبل ثلاثة عقود، حيث كانت تُعد من مناطق بقايا الطبقة الوسطى التي بدأت بالاضمحلال منذ قيام الجمهورية كنظام حكم للبلاد.

فجأة انتبه إلى أن أحد الأزقة قاده إلى الشارع العام. أحسَّ وكأنه خرج من كابوس مرعب إلى كابوس آخر أقل رعباً، بل خرج من متاهة الخراب التي تلتف حول تلك المنطقة بعيداً عن الشوارع الرئيسية التي لا تقل خراباً. أهذه هي بغداد؟ أهذه هي مدينته التي تغنى بها الشعراء؟ انتبه إلى أن تداعياته التي تمخضت عن سيره في الأزقة الخلفية تكاد تكون ترفاً نفسياً بالقياس لتلك الحال التي هو فيها، إذ عليه أن يفكر بوضعه، ماذا عليه أن يفعل الآن؟ هل يذهب إلى حواء ابنة آدم الزاهد؟ وهل عرفت بالكارثة أصلاً؟ ربما هي لم

تعرف لحد الآن، وأن الشرطة لم تذهب لتبلغها بالأمر؟ كيف له أن يعرف ذلك؟ الآن هو وقت العصر، والمساء لم يبدأ بعد، فهل عليه الذهاب إليها؟ وإذا وجدها قد عرفت بالأمر فكيف سيواجهها؟ وماذا سيقول لها ليواسيها؟ وبدون أن يتبته لنفسه، وجد نفسه يتجه مرة أخرى نحو القصر الأبيض، ومن هناك، وبشكل لا إرادي، كالمأخوذ، صعد سيارات ركاب متجهة إلى حيث تسكن، البيت الذي آواه في أيام رعبه بعد اغتيال صديقه آدم البغدادي.

في السيارة كان الركاب يتحدثون عن انفجارات متعددة وقعت اليوم في بغداد، بعضهم تحدث عن اغتالات لبعض الشخصيات الإدارية الكبيرة. الكل كان يشتم ويلعن "القاعدة" وهؤلاء الذين يأتون من وراء الحدود ليفجروا أنفسهم بين الناس، أو يقوموا بتلغيم السيارات وتفجيرها في الأماكن العامة. كان الركاب لا يخافون من سب الحكومة وأعضاء البرلمان وكل اللصوص في هذه الدولة التي وصفها أحد الركاب بأنها الدولة المهزلة. آخر اعترض عليه نافيًا وجود دولة أصلاً، وإنما وجود قبائل سياسية وطوائف تتصارع من أجل الغنيمة. كان هو يستمع لكل هذا الحوار العفوي الذي ينطلق من حرقه الناس وحزنهم على ما آل إليه الحال. انتبه إلى رجل كان في الصف الأخير من الركاب، إذ علق على ما سمع من حوار، وكأنه خارج السرب، قائلاً:

- هذه لعنة الحوراء على العراقيين حينما ذبحوا أخاها، بل ولعنة الإمام علي عليهم، ألم يأتوا بالإمام علي من مكة إلى الكوفة لكنه لم يرَ منهم سوى التآمر عليه، والخروج ضده، وأخيراً قتلوه في المحراب؟ ألم يرسلوا الرسائل لابنه أن يأتي إليهم، ثم قتلوه وذبحوه مع أخوته وعشيرته؟ لقد توجهت الحوراء إلى رب العالمين وهي ترى أخوتها وأحبتيها وأبناءها جثثاً مقطوعة الرؤوس ودعت على أهل العراق بالخراب! إنها لعنة الحوراء على العراق وأهله، هذا

شعب ملعون، ولن يرى الراحة، ولن يتخلص من الطغاة أبدًا. طاغية أبشع من آخر، طاغية يسلمها لطاغية!

كان الجميع صامتين يسمعون هذه الخطبة، لأن الرجل كان يتكلم بصوت عال وكأنه على المنبر. التفت إليه رجل في أواسط الخمسينات من عمره، قائلاً:

- أنا أتفق معك يا حاج في ما يخص اللعنة، فهو شعب ملعون، وبلد ملعون، لكنني لا أتفق معك بأنها لعنة عادة كربلاء زينب الحوراء، وإنما هي لعنة الأنوناكي.

صرخ الجميع به بصوت واحد وكأنهم كورس مسرحي:

- منو؟ من؟

- الأنوناكي.

- الأنوناكي؟

- نعم الأنوناكي. ماذا بكم؟ ألم تسمعوا بالأنوناكي؟ نعم لعنة الأنوناكي.

قال الرجل وهو يؤكد ذلك بصوت واضح وبطيء. ولما انتبه إلى استغرابهم أحس بشيء من الأهمية الشخصية، بحيث إن السائق خفف من سرعته ليستمع أيضًا، فقال الرجل:

- كل ألفي عام تمر على بلاد الرافدين، أو الميزوبوتاميا، كارثة تدمره من الأساس؛ حيث تتم المجازر والدمار والحروب والمجاعة والأمراض ويتشرد الأبناء في البلدان. وتاريخ وادي الرافدين شاهد على ذلك، فقبل ألفي وخمسمئة عام قبل الميلاد مرت بمدينة أور عاصمة السومريين كارثة مثل التي نمر بها وربما أكبر. وبعد ذلك بألفي عام مرت البلاد بكارثة أخرى حينما سقطت بابل! وبعد ذلك بألفي عام تقريبًا مرت بغداد بكارثة مشابهة حينما اجتاحتها التتار والمغول ودمروها. وها نحن نمر بمثل هذه الكارثة باحتلال العراق من قبل الأمريكان.

ويبدو أنه لم يقنع الموجودين، إذ اعترض عليه الرجل الذي كان يتحدث عن لعنة زينب محاججاً، وهو يقول:

- لم يمر ألفا عام بعد على احتلال المغول لبغداد يا أخي. هذه القصة لم توفق فيها. السومريون ونكبة أور ثم سقوط بابل ممكن. ولازم نتأكد من المعلومات، لكن لم يمض ألفا عام على سقوط بغداد بيد المغول، وبالتالي تسقط نظريتك. وأقولها لك وللجميع إنها لعنة زينب الحوراء. أنا لا أذكر نص كلاهما الآن، لكنني أذكر أنها أكدت في دعائها على أهل العراق بأن اللعنة ستلاحقهم لخيانتنا لهم وخذلانا لهم، بحيث سيولي الله علينا حكاًماً من لحمنا ودمنا، لكنه لن يرأف بنا ونحن لن نرضى عنه.

الرجل صاحب نظرية لعنة الأنوناكي لم يستسلم بسهولة، فقال:

- إيقاع الزمن تغير يا أخي؛ فالسنة الواحدة تعادل عشر سنين من سنوات القرون الماضية، وبالتالي تغير الإيقاع، صار كل خمسمئة سنة ممكن تحل كارثة ببلاد الرافدين.

التفت رجل كان طوال الوقت ينظر من نافذة السيارة وكأنه يخاف أن تفوته منطقته التي يريد الوصول إليها إليهم جميعاً، وقال وهو يتهياً للنزول:

- أخي يبدو أن الكوارث لم تغادر البلاد أصلاً. هذه بلاد ملعونة، مرت كل دول العالم عليها، حتى الخرفان مرت عليها، ألم يحكمها الأتراك بخرفانهم. دولة الخروف الأبيض ثم دولة الخروف الأسود. فلا الأنوناكي، ولا لعنة الحوراء. هذه لعنة أتى بها العسكر، لعنة الأبرياء من عائلة الملك الذين تم إعدامهم في صباح بغداد في مشمس. منذ ذلك اليوم واللعنة لم تغادر هذه البلاد، طاغية يخلف طاغية. كلهم خونة. خيرهم لغيرهم. المقبور كان يفضل أبناء البلاد العربية الأخرى على العراقيين، وهؤلاء الآن يفضلون مصلحة إيران على مصلحة بلادهم، كلهم خونة.

انقطع الحوار وصمت الجميع خوفاً من صراحة هذا المتحدث الأخير الذي طلب من السائق أن يتوقف لينزل. نظر آدم المحروم إلى معالم المنطقة

التي نزل فيها الراكب، فعرف أنها منطقته أيضًا، لكن السائق كان قد تحرك، فطلب منه أن يقف لينزل. أحس السائق بالانزعاج منه، لكنه أوقف السيارة، وقبل أن ينزل سمع أحدهم يعلق على كلام الرجل الذي نزل:

- هؤلاء عملاء ومن فلول النظام السابق، لذلك يحاولون أن يشوهوا ما وصل العراق إليه من ديموقراطية.

نزل آدم المحروم من السيارة مرتبًا، أحس وكأنه نزل إلى أرض مليئة بالألغام. مشى قليلًا باتجاه الزقاق. انتبه إلى الهدوء في الشارع. فجأة خرجت من الدار امرأتان بثياب الراهبات. مرّتا من جانبه، استغرب لوجودهما في هذه المنطقة، لكنه سمعهما تقولان:

- كان الله في عونها. تفقد الأب والابن، بينما الزوج في السجن. كان الله في عونها.

- ماذا ستفعل وحدها في هذا البيت؟ يبدو أنه ليس لديها أحد. وإلا لكان هناك من يواسيها الآن.

كان قد ابتعد عنهما بخطوات متعاكسة فلم يسمع بقية حوارهما لكنه أدرك من كلامهما أن حواء الزاهدي المقصودة، وأنها قد عرفت بما حصل.

حينما وصل إلى الدار وجد الباب مفتوحًا. وقف لحظات ليستجمع فكره ويستحضر شجاعته. ويبد مرتعشة طرق على الباب بالرغم من أنه كان مفتوحًا. لم يظهر أحد، طرق مرة أخرى ولمدة أطول، لم يخرج أحد. قلق من عدم خروجها، وخلال ثوان تصور أنها انتحرت وإلا لماذا لم تخرج له؟ تجرأ ففتح الباب الخارجي. دخل إلى الدار. عبر الممشى. كان في الحديقة الصغيرة جدًا بعض ألعاب الصغير آدم الملاك. أحس بالألم يعتصر قلبه وذاكرته، إذ استحضر صورة الصبي، أو جلدة الوجه الخالي من بقايا الرأس الأخرى، وصورته وهو يداعبه حينما يكون نائمًا. خطا باتجاه البيت، رأى أن الباب الخارجي الذي يفضي إلى غرفة الاستقبال مفتوحًا أيضًا. طرق على الباب

فلم يجبه أحد. طرق ثانية فلم يجبه أحد. دخل إلى غرفة الاستقبال فلم يجد أحدًا. كان فراشه على موضعه على إحدى الكنبات الجانبية. كان البيت ساكنًا جدًا، ثمة صمت يخيم عليه، والعممة تكتم أنفاسه. وضع حقيبته الجلدية على الكنبه إلى جانب الفراش المصفوف عليها. مشى نحو الفتحة التي تؤدي إلى بقية أقسام البيت، فسمع أنينًا مكتومًا يأتي من الغرفة المجاورة للسلم والتي تقابل المطبخ وغرفة الحمام. خطا خطوتين فصار أمام باب الغرفة الغارقة في العممة. نظر إلى أعماق الغرفة التي كانت هي غرفة نوم حواء وابنها، فوجدها جالسة على سرير نومهما العريض. رفعت رأسها نحوه. فجأة، أخذت تبكي بصوت مسموع. نهضت ثم ركضت مسرعة وهي تبكي وألقت بنفسها عليه وكأنها تبحث عن عزائها عنده. كانت تبكي وتقول بصوت نائح:

- راح يا آدم، تركوني هنا وحدي. رحل ابني الملاك. رحل أبي الزاهد.

نزلت الدموع من عينيه، وجد نفسه يبكي معها وينوح أيضًا، ويقول:

- لقد تركوني أنا أيضًا. أنا وحيد بدونهما يا حواء.

فجأة كفت عن النواح والبكاء المسموع ولم يسمع منها سوى أنين مكتوم. وبدون أي تفكير سابق، سحبها معه إلى الصالة. أجلسها على إحدى الكنبات. ظلت هي تنن وكأنها في غيبوبة. أدرك أنها قد بكت لساعات وساعات، وندبت ما استطاعت، وذرفت من الدمع الكثير، حتى لم يعد في مآقيها دمع يذرف حتى لو أرادت البكاء، ولم يعد لديها من التوتر ما يمكن أن تستطيع به أن تسيطر على حركات يدها، لقد كانت متعبة ومنهكة من اللطم والبكاء والنواح والندب. إنها الآن شبه مغمى عليها من الألم وهول الصدمة والندب والبكاء. وكأنها كانت قد تخلصت بالبكاء من الكثير من الألم.

ظل جالسًا معها على تلك الحالة لأكثر من نصف ساعة. أركنها قليلًا إلى الحائط وقام بسرعة فأضاء الغرفة بالمصباح الكهربائي، ثم أخذ وسادة من فراشه المصفوف على الكنبه الجانبية، وعاد إليها، وضع الوسادة تحت رأسها وأمالها قليلًا لتنام. فتحت عينها وهي تقول له، وكأنها كانت واعية لكل لحظة مرت:

- لقد هجرني النوم. كيف لي أن أرتاح بعد اليوم؟ أستطيع النوم وهما غير موجدين؟ أيقظ لي النوم بينما هما حتى ليسا تحت التراب؟!

فجأة وكأنما جاءتها قوة من المجهول إذ أخذت تندب وتضرب على وجهها، وهي تصرخ:

- لم أستلم جثتيهما. لم يبق منهما شيء. كيف لي أن أنام، وهما حتى ليسا تحت التراب؟

ثم التفتت إليه وهي تقول، بوجه غريب الملامح، وكأنها تسأل عن شيء عادي:

- ربما لم يكونا هناك؟ فهما لم يُقتلا في الانفجار. لم يجدوا شيئاً منهما. لم أر شيئاً؟ صحيح أن المكان مخرب كله، لكنني لم أر أي شيء يدل على موتهما. أيمكن أن يكونا في مكان ما وقت الانفجار ولم يحصل لهما أي شيء، وأنهما يمكن أن يأتيا الآن؟ أيمكن أن يحصل ذلك؟

أدرك آدم المحروم أنها ليست في حالة نفسية وعصبية مستقرة نتيجة الصدمة، ولم يشأ أن يقول لها بأنه رأى بقايا وجه الملاك الصغير، وبقايا أحشائه، وجاكيته الأب وبعض عظام من الصدر وبقايا الجسد. لم يشأ أن يقول لها بأنهما يكادان الأكثر عرضة للدمار لأن السيارة الملغمة كانت بين زاوية الأب والمطعم، حيث كثيراً ما تقف السيارات التي تطلب الطعام لأخذه معهم. فجأة ابتسمت له وقالت، وكأنها ليست هي، وليست تلك المرأة المحافظة والتي تتحشم بحضور الضيوف:

- هل أنت جائع؟ كنت قد حضرت لكم الأرز والفاصوليا. أنت تحبها أنا أعرف. أم أعد لك الشاي؟

لم يعرف كيف يتصرف معها. أحس أنها تحت تأثير الصدمة، بل ربما استوعبتها لكنها لم تستطع مقاومة هولها وثقلها على نفسها، فأثر على اتزانها النفسي قليلاً. فقال لها بهدوء:

- شكراً جزيلاً. أنت استريحى الآن.

نظرت إليه وقالت:

- أستحلفك بالله، إذا جعت فقل لي. كل شيء جاهز.
- سأقول لك بالتأكيد. حاولي أن تنامي قليلاً.
- ولماذا علي أن أنام. ماذا بي؟ لا. إنني أريد النوم حقاً؟ أحس بالتعب. أريد أن أنام. هل أزعجك إذا نمت هنا؟
- لا. أبداً. نامي.
- وأنت؟
- أنا سأظل جالساً أنتظرك حتى تصحي.
- إذا جاء أبي فأرجوك أن توقظني. ما إن يطرق الباب حتى توقظني. اتفقنا؟
- اتفقنا.

انقلبت بجسدها على الجهة الأخرى ونامت. ظل هو مندهلاً من الوضع الذي وصلت إليه. فكر مع نفسه، ربما حالتها النفسية ستستقر حين تنهض من النوم! لكن ماذا لو أنها فعلاً قد فقدت اتزانها العقلي؟ ماذا سيفعل؟ جلس على الكنبه المقابلة. غارقاً في وديان نفسه المظلمة.

لم يعرف آدم المحروم كم مضى عليه من الوقت بالضبط وهو جالس في هذه الغرفة، بينما كانت حواء الزاهد ترقد على الكنبه الأخرى وهي تنن في النوم، وتنوح أحياناً، وتبكي. نظر باتجاه النافذة التي تطل على الحديقة الصغيرة فوجد أن العتمة قد هبطت على المدينة الجريحة.

تحركت حواء الزاهد في نومها فانزاح ثوبها عنها كاشفاً عن القسم الأكبر من ساقها، إذ التف الثوب وصار القسم الأسفل على بطنها. وبالرغم من أنه في تلك الحالة النفسية اليائسة والحزينة فإنه راح يتلصص على جسدها. كانت الفوطة التي تضعها على رأسها قد انحسرت عنها كاشفة عن شعر أسود كثيف يلتصع سواداً، وفحة ثوبها من الأعلى تكشف عن مرتفعات نهديها. أحس

بالذنب وهو ينظر إليها، خاصة وهي في هذه الحال. أراد أن يغطيها بلحاف خفيف من الأفرشة الموجودة على الكنبه. قام من مكانه وسحب الغطاء.

حين اقترب منها لم يستطع أن يقاوم رغبته في التطلع إلى جسدها، وقف بالقرب منها فارشاً يده ليغطيها، لكنه لا إرادياً نظر إلى فخذيها فوجدهما مكشوفتين بالكامل أمامه، فنظر إلى ما بين فخذيها. أحس بدماء الرغبة تصعد واضحة إلى أماكنها. نظر إليها، فأحس أنها تعاني من كل شيء، من فقدان والخسارات والحرمان النفسي والجسدي. أترى هو دنيء إلى هذه الدرجة بحيث يستغل وضعها الذي هي فيه ليروي عطش رغبته فيها؟ أحس بأنه لا يستطيع أن يسيطر على نفسه، فألقى بالغطاء عليها كي ينهي صراع الرغبة في داخله!

عاد إلى مكانه السابق وجلس. لا يدري ماذا يفعل بنفسه وبها؟ ولا يعرف كيف سيخرج من هذا الوضع الغامض؟ أخذ يسأل نفسه: كيف له أن يتركها وهي في هذه الحالة النفسية العصبية؟ هل تراها جُنت حقاً؟ ماذا سيفعل حينها؟ أنه لا يعرف أي أحد من أهلها ولا من أقاربها، ولا يعرف بمن سيتصل؟ هو يعرف أباه فقط، وحسبما فهم منه أنهم بلا أحد تقريباً فهو كان في السجن حينما تزوجت ابن جاره الذي هو الآن في السجن، وأن الأم قد ماتت، والذي ساعده لإيجاد العمل في زاوية الشاي هو أخو زوج ابنته، وهو مات في الانفجار أيضاً، إذن لم يبق أحد لهذه المسكينة! لكن ماذا لو جاء الآن أحد من الأقرباء، لا سيما من طرف أهل زوجها، ووجده جالساً، ماذا سيقول عنه؟ ماذا عليه أن يفعل الآن؟ هل يخرج ويتركها هنا لحالها؟ هل يذهب ليمشى قليلاً في المنطقة ثم يعود في آخر الليل؟ من المؤكد أن لا أحد سيأتي ليلاً. قرر أن يغامر بالمبيت هنا ويخرج صباحاً. قام متجهاً لزر الكهرباء. ضغطه وأثار الغرفة!

جلس على الكنبه المقابلة حيث الحقيبة الجلدية. مدّ يده إلى داخلها وأخرج إحدى المخطوطات، فرز الصفحات التي كان قد قرأها ووضعها

جانبا، ولم يبقَ في يده سوى ما تبقى من الرواية. نظر إلى الساعة الحائطية فرأى أنها تشير إلى العاشرة ليلاً. استغرب مرور كل هذا الوقت بهذه السرعة. وضع أوراقه جانبا، قام بهدوء، ومضى إلى الباب الخارجي فأغلقه، ثم أغلق باب غرفة الاستقبال، وحينما جلس ليبدأ بالقراءة، وجد أن حواء الزاهد بدأت تنن وتتلوى من الألم ودفعت الغطاء رافسة إياه برجلها فأنكشفت فخذها وسروالها الداخلي، فقام ثانية ودثرها بالغطاء. فجأة، فكر أنه من الأفضل له ولها أن يحملها لكي تنام على فراشها في غرفتها. فقال لها منادياً بهدوء:

- حواء. أختي حواء. انهضي ونامي في غرفتك.

لم تكن تسمع شيئاً. لذا قرر أن يحملها إلى هناك. وضع المخطوطة جانبا. وقف فوق رأسها محاولاً إيقاظها قائلاً:

- أختي حواء. حواء.

لم يجد أمامه سوى أن يحملها. مسكها من كتفيها، فلم تستيقظ، أجلسها لمنتصف جسدها، ثم بقوة رفعها إلى أن تقف. كانت هي بكل جسدها قد صارت بين أحضانها، بل أحس بنهديها على كتفه وفخذها بين ساقها. أحس بارتباك شديد. وكان وجهها ملاصقاً لفخذه. سحبها معه سحباً، مثلما يسحب الإنسان الصاحي إنساناً ثملاً. كادت تنهار عند عتبة غرفة النوم، فما كان منه، وبشكل لا إرادي إلا أن يمسكها من منتصفها فصارت يده بين فخذها من الأمام ووركها من الخلف. أحس بطراوة وركها الملتصق بمنتصفه. سحبها بسرعة وألقى بها على السرير، لكن يديها كانتا على كتفه، ومن ثقلها تعثر بها فسقط فوقها على السرير. صارت هي تحته بالضبط، وصار هو على صدرها وجذعه الأسفل بين فخذها. للحظة أرخى نفسه عليها من التعب، لكنه سرعان ما قام عنها. مدّ جسدها بشكله المستقيم على السرير، وسحب الغطاء عليها، وخرج. وقف أمام عتبة غرفة النوم للحظة ناظراً إليها، مستغرباً عن عدم استيقاظها بالرغم من كل تلك الحركات العنيفة.

لا يدري ما الذي ساوره بالضبط في تلك اللحظة. لقد أحس بالانتصاب بالرغم منه. أحس بأن ثمة رغبة عارمة ومفاجئة تسري في كيانه للذهاب إليها ثانية، ومحاولة الاقتراب منها. دخل الغرفة مقترباً منها، نادى بصوت خافت: - حواء. حواء.

لم تجب بل ولم تصدر منها أي إشارة لا إرادية تشير إلى أنها سمعت شيئاً حتى وهي نائمة. تحركت فانزاح الغطاء كاشفاً عن ساقين رائعتين ومتناسقتين. ويبد مرتعشة أراد أن يرفع ثوبها إلى الأعلى أكثر، لكنه في اللحظة الأخيرة تردد، وسحب يده كالملدوغ. سحب الغطاء ليغطيها ثانية وتوجه إلى الصالة.

أفاق آدم المحروم على صوت يصرخ بصوت عال: - هل أنت مجنون. أعمى. ألا ترى ما أمامك أو خلفك. هل تمشي وأنت نائم. ناس آخر زمان.

انتبه آدم المحروم إلى واقعه. هو الآن في ساحة الطيران. ولم ينتبه، فقد عبر على بعض الملابس والأحزمة التي كان أحد الباعة يفتershها أمامه. اعتذر بارتباك، ومضى مسرعاً وكأنه يهرب من مطاردة!

لم يفهم شيئاً مما يجري معه. انتبه إلى أن كل ما كان ليس إلا كوايس لا غير. سأل نفسه مرعوباً: «ما الذي يجري معي. ألم أكن في بيت حواء الزاهد. أكان كل ذلك حلمًا؟ ألم أذهب إليها ورأيتها شبه مجنونة؟ هل أنا الآن في بيت حواء الزاهد، وأن ما يجري لي الآن وفي هذه اللحظة ليس سوى حلم؟ أم أنا نائم في شقتي بالتاوين؟ لا. أنا الآن في ساحة الطيران، وقبل لحظات فارقت الأب آدم الزاهد وحفيده آدم الملاك!».

عبر آدم المحروم الشارع الذي ينزل باتجاه ساحة التحرير وصار أمام جدارية فائق حسن، لكنه لم يذهب من الجهة الأخرى وإنما سار نحو الجهة التي يقع فيها مطعم الكباب. قرأ اسم فندق (الركن الهادئ) الذي نزل فيه ذات يوم. عبر الشارع وانعطف نحو الزقاق الفرعي الذي تم الانفجار فيه.

أصيب آدم المحروم بذهول مخيف. لم يكن ثمة أي أثر للدمار وكأنما الموت لم يمر من هنا صباحًا هذا اليوم. أحس بانقباض وتشنجات في صدره، كما أحس بالعرق البارد يبلله ثانية، لا سيما حينما رأى الأب آدم الزاهد يحمل صينية الشاي متجهًا إلى المطعم، ورائحة الشواء تملأ خياشيم كل من يقترب من المكان. والطفل آدم الملاك يمسك بلفة خبز، وخمن أنها محشوة بالكباب، يأكل منها بسعادة بريئة.

“ما الذي يجري هنا؟ هل أنا مجنون؟ ألم أكن هنا قبل أكثر من ساعتين حينما رأيت المجزرة أمامي؟ ألم أتحدث مع الرجل العكسري لأخبره بمعرفتي بآدم الزاهد كي يبلغوا ابنته عن الحادث؟ هل كل ما حدث لي هو وهم، أم أن ما أراه الآن هو الوهم؟ هل هذه علامات الجنون؟ أم هي الشيزوفرنيا التي يتحدث عنها سيجموند فرويد وبقية علماء التحليل النفسي؟“. كان آدم المحروم يحدث نفسه بصوت داخلي مسموع!

أحس بأن ساقيه ترتجفان، وبرغبة في التبول لا يستطيع أن يسيطر عليها، ركض سريعًا فدخل المطعم، ليذهب إلى المغاسل. لمح الأب حينما دخل. استغرب لأنه لم يسلم عليه ولم يأتَه قبل دخوله إلى المطعم.

في زاوية المغاسل في المطعم دخل إلى زاوية المرافق الصحية، ثم دخل المرحاض وأغلق الباب على نفسه! حين انتهى من إفراغ مثانته، ظل جالسًا على المقعد. أحس بأن قميصه صار رطبًا من كمية العرق الذي أفرزه جسده!، “هل تعرضت لدبحة قلبية اليوم حقًا؟“ سأل نفسه. أحس بنفسه ضعيفًا، وبأن قلبه بالكاد يستطيع أن ينبض، بل وإن قلبه يرتجف، وصدره ينقبض فيحس وبالكاد يستنشق الهواء. إنه يكاد يخنق، وتنحصر أنفاسه، ربما عليّ أن أذهب إلى الطبيب وليجري لي فحوصات عامة للقلب، وربما عليّ أن أذهب إلى طبيب نفساني ليشرح لي ما يجري معي، فلم أعد أدرك أين حدود الواقع وأين هو الوهم؟“ قال لنفسه. وفي لحظة غير مفهومة تذكر

في تلك اللحظة، وهو جالس على قاعدة المرحاض، أحياناً لشاعر صيني قديم كان قد حفظها، مرت على ذهنه، ورددتها في أعماقه:

حلمت أنا تشوانغ أنني فراشة

وأنا الآن لا أعلم أنا تشوانغ الذي حلم أنه فراشة

أم أنني الفراشة التي تحلم؟!

وفجأة، سأل نفسه ذات السؤال: “مَنْ أنا الآن؟ أنا آدم المحروم الحي في الواقع، أم أنا آدم المحروم الذي يحلم به آدم المحروم؟ أنا في الحلم الآن أم أنا كنتُ أحلم؟”، وواصل مُفكِّراً مع نفسه قائلاً لها: “إذا أنا كنتُ أحلم، ولكن ما دام الأمر حلماً فلماذا كنتُ عفيفاً إلى هذه الدرجة في الحلم مع حواء الزاهد ولم أضاجعها؟ أليست الأحلام تفرغاً لرغبات مكبوتة كما يقولون. وأنا كبتُ رغبتِي فيها، فلماذا لم أشبع رغبتِي في الحلم إذن؟ أهذا يعني أن ما كان هو الواقع وأنا الآن في الحلم؟ ولماذا أجلس الآن في المرحاض لأفكر بتحليل ذلك؟“. ابتسم مع نفسه ابتسامة ساخرة، إذ تذكر بأن هنري ميللر كتب ذات مرة بأنه قرأ أهم الكتب في حياته حينما كان يجلس في المرحاض لقضاء حاجته!

فجأة، سُمعت طرقات على الباب. “يبدو أن أحداً ما تضايقه أمعاؤه أو مثانته. إذاً عليّ الخروج، لكن عليّ أن أتأكد هل أنا في الحلم أو الواقع؟! وماذا لو يكن الأمر حلماً، وأن كل ما أراه هو حقيقة؟ لا. لا. هذا غير ممكن. كيف تجري كل تلك الأحداث الطويلة التي تستغرق ساعات في هذا الوقت القصير؟ إذن، صحيحة تلك النظرية التي تقول إن فترة الحلم مهما بدت طويلة لا تستغرق إلا أعشار الثانية من وقت النائم!“, هكذا كان يحاور نفسه. حينما خرج من زاوية المغاسل، ومر من أمام صاحب المطعم ولم يجلس ليطلب الطعام، نظر إليه الأخير نظرة عدم رضا وغضب مكتوم

وكأنه يريد القول بأن المطعم ليس مرافق صحية ومبولة لتفريغ المثانات وقضاء الحاجة لكل من هب ودب، وإنما هو للذين يجلسون ليطلبوا الطعام ويدفعوا! انتبه هو لنظرات صاحب المطعم فتجنبها بالمرور سريعاً من أمامه، وخرج من المطعم متجهاً نحو ساحة الطيران. مرة أخرى لمحّه الأب آدم الزاهد، واستغرب عدم مروره عليهما. حاول اللحاق به إلى رأس الزقاق، لكن آدم المحروم كان قد اختفى.

وقف آدم المحروم بين زحمة الناس الذين ينتظرون سيارة نقل الركاب الصغيرة. كان متردداً، ومرتبكاً من غموض الأحداث التي مرت به. كان يود أن يذهب الآن إلى بيت آدم الزاهد ليتأكد بأن حواء الزاهد في وضع طبيعي وأن كل ما رآه ليس سوى كابوس مرعب. لكنه كان خائفاً من اتخاذ هذه الخطوة، فذهابه إلى هناك بغياب الأب أربكه جداً، بالرغم من أن حواء قالت إن أم قابيل زوجة صاحب المشتمل سوف تأتي بعد الظهر. لكنه أيضاً يحس بالوهن الشديد يسري في كل جسده، ولديه رغبة بالنوم الطويل، لا يدري لم يحس برغبة قوية في أن يتمدد على الأرض أو على أي مكان آخر. فكر من الأفضل أن يذهب إلى شقته التي لا تبعد كثيراً عن المكان الذي يتواجد فيه.

حين وصل آدم المحروم إلى شقته التي تقع في الطابق الثاني، على زاوية زقاق يؤدي إلى شارع "أبو نواس" كان يشعر بالبرد، وكان جسده يرتجف، كما أن العرق قد بلل شعره ووجهه.

فتح باب شقته بصعوبة، إذ كانت يده ترتجف حينما وضع المفتاح في مكانه من قفل الباب. دخل الشقة وأغلق الباب من الداخل بالمفتاح. ألقى بالحقيبة الجلدية على الأرض وبجسده على الصوفاء الجلدية. أحس بأنه يغرق في الظلمة. ولم يعد يذكر شيئاً. إنه في وادي الظلمات مرة أخرى.

القناع

وجد آدم المحروم نفسه في صحراء رملية، ذات نهار شتوي مشمس. كان عاريًا تمامًا. ليس في الأفق سوى مرآة كبيرة أشبه ببوابة عالية تسندها أسوار وهمية. مشى إليها بخطوات مترددة. اقترب منها، وخطا داخلاً في المرأة. كان زئبق المرأة شفافاً. خرج من الجهة الأخرى من المرأة إنساناً زئبقياً، يكسوه جلد من الزئبق. ظل يمشي نحو الأفق الغامض المجهول، ومن وراء تلة رمل ذهبية رأى كائناً مربعاً يتقدم زاحفاً، للكائن وجه إنسان، لكن بقية الجسد لعقرب. عقرب بحجم جسد إنسان. ومن تلة أخرى صعد عقرب آخر يحمل وجه إنسان آخر، ثم صعدت إلى تلال الرمل القريبة عقارب تحمل رؤوساً بشرية، حدّق في تلك الوجوه فعرّفها جميعاً. إنها وجوه لأبرز الشخصيات السياسية في البلاد. كان قد رأى بعضهم على شاشات التلفزيونات يتحدثون خلال المقابلات، أو يدلون بتصريحاتهم للصحافيين. والغريب أن هؤلاء الرجال العقارب كانوا ملونين، فثمة رجل عقرب أخضر، وثمة رجل عقرب أزرق، وكانت بين العقارب عقربتان لامرأتين، عقرب صفراء وعقرب خضراء. زحفت العقارب ذات الرؤوس البشرية نحوه بشكل منظم، بحركة منظمة نصف دائرة، إلا أنه ركض مرعوباً، فزحفت خلفه مسرعة بشكل فوضوي فقدت فيه شكل حركتها المنتظمة، لكنها لم تستطع أن تلحق به، لأنه قفز داخل المرأة ثانية، فصار على الجانب الأول الذي وجد نفسه فيه، وعاد عاريًا، من لحم ودم!

فرّ آدم المحروم مرعوباً من هذا الكابوس، فوجد نفسه مبتلاً بالعرق، لكنه لم يعد يرتجف من البرد، كما كان لحظة دخوله إلى شقته. أحس بالارتياح

لاستيقاظه وتخلصه من كابوس العقارب، لكنه أخذ يفكر في تفسير الأمر، ما علاقته بهؤلاء الناس في الواقع؟ لقد كانوا من كتل سياسية مختلفة، فما علاقته بهم، وهو المستقل الذي لا ينتمي إلى أي جهة حاكمة في هذه البلاد، ولا في أي بلاد! ولماذا كانوا في هيئة عقارب؟ وما معنى المرأة الهائلة كالبوابة؟ ولماذا طلت جسده بالزئبق؟ بل كيف اخترقها وكأنها لم تكن مرآة زجاجية؟ ولماذا كان عاريًا؟ ربما كانت هذه رموز للمرض أو الحالة التي كان فيها لكنه تخلص منها ورجع إلى وضعه ربما، ولكن ما معنى تلك الوجوه؟ وإذا كان تفسير الحالة المرضية صحيحًا فما علاقة هؤلاء بمرضه؟ ومن أين جاء تخيل هذا الشكل من الزواحف؟ إنه لم يقرأ عن الرجال العقارب إلا في ملحمة كلكامش حينما ذهب للبحث عن عشبة الخلود، فكان عليه أن يمر ببحر الظلمات ويلتقي بالرجل العقب، لكن كان ذلك في الأسطورة السومرية؟ لا، ربما رأى ذلك في إحدى اللوحات التي تمثل يوم الدينونة لرسامي القرون الوسطى الذين كانوا يرسمون مثل هذه اللوحات. المهم، مهما كانت دلالة وجودهم في الحلم فإني قد تخلصت منهم، ونجوت. لكن هل نجوت فعلاً؟ كان آدم المحروم منهمكًا في تفسير كابوسه.

حينما أراد أن ينهض أحس بالوهن، لكنه جمع كل قوته فجلس بنصف جسده على الصوفا. انتبه إلى أنه لم يكن كذلك حينما دخل الشقة. صحيح أنه كان يرتجف من البرد برغم تعرقه، إلا أنه كان يمشي، لكنه الآن لا يستطيع أن ينهض! فكّر بأن عليه أن يذوق شيئًا من الأكل أو يشرب الشاي على الأقل. استجمع قواه ونهض من مكانه واقفًا، توجه إلى الزاوية التي فيها الطباخ، أخذ القداحة التي تشبه المسدس في هيئتها، ضاعطًا عليها محرّكًا العين الغازية، فتعالى اللهب الأزرق.

أخذ الدورق الذي يغلي فيه الماء فوضعه على الطباخ، وفتح الخزانة الخشبية التي قرب الطباخ فأخرج كوبًا يضم شعيرية يابسة جاهزة لا تحتاج إلا إلى الماء

الساخن، فسحب الغلاف عنه. ظل واقفاً دون أن يرهق نفسه بأي تفكير، بل إنه كان من الضعف بأنه لم يستطع أن يفكر في تلك اللحظات إلا بغليان الماء ليسكب بعضه على كوب الشعرية ويبتظر لدقائق لتكون جاهزة للأكل وكأنها شوربة، وكذلك يصنع لنفسه كوباً من الشاي. كان يحس بجوع شديد.

سكب آدم المحروم الماء في كوب الشعرية، وكذلك صبه في كوب كبير بعد أن وضع فيه كيسين من شاي اللبتون. وحمل كوب الشعرية بيده، ليجلس على الصوفا مرة أخرى. كان الكوب ساخناً، فتركه على الأرض قليلاً، لكنه لم يكن يستطيع الصبر فأخذ الكوب إلى فمه وارشف منه بضع جرعات أحس بعدها بالدفء يسري في جسده. فأخذ ينفخ على الكوب بفمه ويرشف منه إلا أن صار بإمكانه أن يسحب كتل الشعرية بفمه. أحس وكأنه إنسان بدائي لم يذق الطعام منذ فترة طويلة، بل إنه أحس بشهيته تنفتح، فقام إلى الدورق الذي ما زال فيه بعض الماء الساخن، فأخرج كوباً ثانياً من الشعرية اليابسة وسحب غلافها الرقيق ثم سكب الماء الساخن عليها.

جلس على الصوفا وأخذ يلتهم الكوب الثاني من الشعرية ويرشف عصيرها اللذيذ، لكنه أحس بالشبع هذه المرة، وبدبيب النشاط في جسده. قام إلى حيث الطباخ فأخذ كوب الشاي بعد أن عصر الكيس وأخرجه ليلقيه في سلة النفايات. جلس على الصوفا ثانية. أخذ يرتشف من كوب الشاي، لكن فجأة برقت في ذهنه فكرة في أن يتصل ببعض الأصدقاء. مدّ يده في جيبه وأخرج هاتفه النقال الصغير الحجم. ضغط على موضع التشغيل وانتظر للحظات حتى انتظم برنامج التشغيل وتأكد من وجود اتصال. ففش في قائمة الأسماء عن شخص معين. ضغط على موضع الطلب. انتظر للحظات، إلا أن الطرف الآخر كان قد أغلق هاتفه، إذ سمع الجهاز يجيبه بأن الرقم الذي طلبه مغلق أو خارج نطاق التغطية. حاول مع شخص آخر، فكانت النتيجة كسابقتها. أراد أن يعرف ماذا حدث خلال هذه الأيام من غيابه، وهل هناك

جديد في قضية اغتيال صديقهم الكاتب آدم البغدادي؟ حاول مع صديق مقرب ثالث ولم يتمكن من الاتصال أيضًا، فأغلق الهاتف.

كان يخاف أن يكون هاتفه مفتوحًا. كان يشعر حينئذ بأنه مراقب ويمكن الوصول إليه في أي لحظة، لكنه حينما يغلق الهاتف يحس بنوع من الأمان بأن لا أحد يعرف أين هو. فكر في أن أفضل طريقة لمعرفة الأخبار هو الذهاب إلى إحدى مقاهي الإنترنت، ومن هناك يستطيع الدخول إلى المواقع الإلكترونية المختلفة، والعراقية منها بالتحديد، وسيعرف الكثير من الأخبار.

فجأة ظهرت صورة الأب والحفيد أمام عين أعماقه. استغرب من نفسه كيف أنه نسي كل ما جرى له نهار هذا اليوم. نظر إلى ساعته اليدوية فعرف أنها الرابعة والنصف عصرًا. هل عليه أن يتأكد ثانية من أن الانفجار لم يحصل وأن الجد والحفيد بسلام، وأن الانفجار وما شاهده من دمار، وما جرى له مع حواء ابنة آدم الزاهد في البيت، وأعراض جنونها لم يكن سوى كابوس ثقيل؟ تذكر بأن زوجة صاحب المشتمل كان يفترض أن تحمل عقد الإيجار المعدّ من قبل مكتب العقارات معها بعد ظهر هذا اليوم، أي أنه تأخر على ذلك! على أي حال، عليه أن يذهب إلى حيث زاوية الشاي وحيث الأب وحفيده، عندها سيتأكد من كل شيء.



نزل من شقته وهو يشعر بعودة الحياة إليه، لكنه ما زال يحس بالضعف. مشى باتجاه ساحة الطيران، وقبل أن يصلها انعطف في زقاق جانبي، وهناك رأى الأب آدم الزاهد يفتح كيسًا صغيرًا من الشكولاته لحفيده، ويخرجها له واضعًا بعضها في جيبه والبقية ليمسكها بيديه. اقترب منهما. اتبه الصغير له مباشرة فترك جده وركض نحوه، فتلقفه بذراعية وأخذ يقبله ويشمه بعمق ويضغط به على صدره بقوة. فوجئ الأب آدم الزاهد من ظهور آدم المحروم، كما غمرته موجة حنان حينما لاحظ احتضانه لحفيده وتقبيله إياه وشمه كما

يفعل هو. أحسّ بأن آدم المحروم صار ينتمي إليهم عائلياً، ولم يشأ أن يخبره بأنه رآه قبل ساعات عندما دخل إلى المطعم وخرج دون أن يمر عليهما.

اقترب آدم المحروم من الأب مصافحاً بالرغم من أن الصغير بين أحضانه. مشى والصغير بين أحضانه وجلس على المقعد الذي يجلس دائماً عليه حينما يكون عند الأب. نظر الأب إليه بطيبة وحنان، ودون أن يسأله صب له إستكناً من الشاي، وهو يقول لحفيده:

- جدو انزل. خلّ عمو يشرب الشاي.

نزل الصغير من حجر آدم المحروم والتصق بجده ماسكاً إياه من كفه. نظر آدم المحروم إلى ما حوله ليتأكد من أن أي شيء لم يحصل، فانتبه الأب وسأله:

- تبحث عن شيء ما يا ابني؟

- لا. ولكنني أسأل، ألم يحصل أي شيء هنا صباح هذا اليوم؟

- مثل ماذا؟ هنا يحصل كل شيء.

- انفجار مثلاً.

- انفجار؟ لا. الحمد لله هذه المنطقة لم يحصل بها أي شيء لحد الآن.

- صباحاً حينما افترقنا. توجهت إلى شارع السعدون، سمعت صوت انفجار جاء من هذه المناطق المحيطة.

- ربما حصل انفجار في منطقة ما، لكن ليس عندنا. بالمناسبة. اتصلت ابنتي وقالت إن المرأة جارتنا السابقة صاحبة المشتل. جاءت وحملت معها ثلاث نسخ من عقد الإيجار. وانتظرتك لكنك لم تمر، وقالت إنها ذهبت إلى السوق القريب وربما ستعود في الساعة الخامسة قبل أن ترجع لمنطقتها في الكرخ.

نظر الأب إلى ساعته اليدوية، ثم قال له:

- إنها الخامسة إلا عشر دقائق. إذا ذهبت الآن فربما ستلحق بها، وأنا سأتصل بالبيت وأخبر ابنتي كي تؤخرها إلى أن تصل. وبالمناسبة. خذ هذا الملاك الصغير معك، فقد تعب من الجلوس هنا معي.

لم يقل آدم المحروم شيئاً مهماً، كأنما نسي كل ما كان بلحظة واحدة، وعاد إلى ذلك الشقي الذي تموج أعماقه بلجج الرغبة والشهوة المظلمة. ابتسم، وأخذ الصغير من كفه ومشياً باتجاه سيارات نقل الركاب في ساحة الطيران.



ما إن دخل الزقاق حتى ركض الطفل الملاك باتجاه البيت الذي لم يكن بعيداً عن رأس الزقاق، بينما أخذ هو يحث الخطى. حينما وصل كان الصبي قد دخل البيت، ومن المؤكد قد أعلن عن حضوره، لكنه طرق الباب أدباً ففتحت حواء الزاهد الباب الداخلي. بدت له في هيئة المرأة العvisية والمشتهاة، جميلة ومثيرة، وشامخة. ابتسمت له مرحبة وهي تقف عند الباب. وحين دخل قاطعاً الطريق عبر الحديقة الصغيرة. دخلت هي إلى أعماق الدار. وصل باب غرفة الاستقبال فطرقها أيضاً، وسمع صوتها يرحب به، فدخل فرأى امرأة أخرى جالسة في الصالة. سلم على المرأتين. عرفتهما حواء الزاهد على بعضهما، ثم غادرت الصالة.

كانت المرأة الأخرى أربعينة، مثيرة، تميل إلى السمرة، ملامحها تشي بشبق ممزوج بتوتر وخوف وتوجس. سلم عليها وجلس على إحدى الكنبات المقابلة لها. في هذه اللحظة بالذات دخلت حواء الزاهد وبيدها صينية فيها ثلاثة إستكانات من الشاي. قدمتها لهما وأخذت إستكاناً لها.

انتبه آدم المحروم إلى أنها جلست على الكنبه التي يجلس عليها، وبالقرب منه أيضاً. وخلال ثوانٍ سأل هو نفسه عن السبب، لكنه أجاب نفسه أيضاً بأنها ربما تريد أن تعطي انطباعاً للمرأة الأخرى بأنهم يعرفونه جيداً، فلا مجال للشك في المؤجر الجديد. وقالت حواء الزاهد للمرأة:

- يمكن لأستاذ آدم أن يوقع العقد الآن حتى تأخذي نسختك ونسخة المكتب العقاري.

أخرجت المرأة نسخ العقد الثلاث ومدتها إليها، فمد آدم المحروم يده فأخذها فتلامست أذرعهما لأن كل منهما مد ذراعه لأخذ النسخ. شعر بحرارة سرت من تلك الملامسة. أخذ يفتش عن القلم في الحقيبة الجلدية إلا أن حواء الزاهد قفزت إلى داخل البيت وجاءت بالقلم بينما كان هو يحاول كسب الوقت من سيل المشاعر التي غمرته. أخذ القلم منها ووقع جميع النسخ. وأعطاهما لها. أعطت المرأة نسختين وأبقت واحدة منها لديها، ثم ذهبت إلى حيث الفتحة بين الصالة وبقيّة البيت، وأشارت إليه بأن يتبعها. قام هو من مكانه، بينما دخل الطفل الملاك ليجلس حيث كان هو يجلس وأخذ يلعب بحزام الحقيبة الجلدية.

دخلت غرفة نومها المقابلة للمطبخ ووقفت عند العتبة من الداخل. اقتربت منه وقالت بصوت واطئ:

- هل تحمل مألًا؟ لأن علينا دفع إيجار شهرين يعني في حدود ثمانمئة ألف دينار.

ارتبك هو لأنه كان معها في غرفة نومها، وأنها اقتربت منه إلى هذه الدرجة بحيث كان يشم عطرها الطيب الرائحة، فقال مرتبكًا:

- نعم. لقد حملت المبلغ معي من البارحة.

قال هذا وأخرج رزمة من الدنانير ذات فئة الخمسة وعشرين ألف دينار. عدّ المبلغ وسلّمه لها، فلاحظت أنه لم يبق غير أوراق قليلة من تلك الورقة النقدية. أخذت المبلغ وخرجت إلى المرأة وسمعتها تقول لها:

- أم قابيل، هذا مقدمة إيجار لشهرين.

بعد لحظات خرج إلى غرفة الاستقبال. جلس هو حيث الصغير يلعب بالحقيبة. قامت حواء الزاهد لتأتي بدورة جديدة من الشاي. كانت المرأة تنظر إلى آدم المحروم نظرات مستفسرة متفحصة، وكأنها تريد أن تعرف هذا المستأجر الجديد. ويبدو أنها شعرت بارتباكها، فابتسمت ثم قالت له:

- أستاذ آدم. توجد ثلاث نسخ من المفاتيح. أنا تركت لك نسختين وتبقى نسخة عندي. لكن أرجو ألا تنزعج إذا ما مررت أحيانًا على المشتمل، لأن بعض أغراضنا وحاجتنا في الغرفة التي حولناها إلى مخزن.

ارتبك آدم المحروم من نظراتها المتفحصة التي شعر بأنها لم تكن بريئة بل كانت مليئة بالألغاز والرغبة المفضوحة، لا سيما حينما جاءت على ذكر مرورها أحيانًا. فقال مرتبًا لكن بابتسامة ذات دلالة بأنه يرحب بذلك:

- أهلاً وسهلاً بك في أي لحظة. فهو بيتك أيضًا.

فنظرت إليه بدلال مع ابتسامة مغناج، وقالت بما يشبه الهمس:

- يعني ما راح تنزعج؟

فتمتم هو أيضًا بنفس النبوة:

- لا أبدًا. على الرحب والسعة.

في تلك اللحظة دخلت حواء الزاهد مع صينية الشاي، فنهضت المرأة واقفة وهي تنظر إلى آدم المحروم وتقول:

- لقد تأخرت. ورائي طريق طويل.

- اشربي هذا الشاي وروحي. قالت حواء الزاهد معلقة.

- أبدًا حبيبتى. إن شاء الله نشربه بالأفراح. إن شاء الله بخروج زوجك من السجن يا ربي.

- الله يسمع منك. قالت حواء بانكسار.

- مع السلامة أستاذ.

- مع السلامة ست.

خرجت المرأة تتبعها حواء الزاهد والصغير مودعين إلى الباب الخارجي، بينما ظل هو جالسًا، يكبله ارتباك لا يشعره بالراحة. ارتباك من لمستته لحواء الزاهد، واقترابها منه في الغرفة بشكل مثير، وأيضًا لنظرات صاحبة المشتمل الواضحة بدلالاتها الجنسية.

حين عادت حواء الزاهد والصغير بعد توديع صاحبة المشتمل، وإغلاق الباب الخارجي، وجدته مرتبكًا، لكنها نفسها لا تعرف كيف أنها أخذت حريتها بالتعامل معه أمام جارتهم القديمة زوجة صاحب المشتمل، بينما تشعر الآن بالارتباك قليلًا، فكّرت مع نفسها، ربما لأنها رأته مرتبكًا، فلو كان طبيعيًا لما شعرت بالارتباك. نظرت إليه فوجدته ينظر إليها مستفسرًا وكأنه يريد أن يعرف لماذا جلست جنبه، ولماذا اقتربت منه كل هذا الاقتراب؟ أراد أن يقطع لحظات الصمت الثقيلة بينهما فقال:

- يبدو أنها امرأة طيبة.

نظرت إليه وكأنها تريد أن تستشف غايته من السؤال. ابتسمت وقالت:

- نعم. إنها امرأة طيبة. لكنها تتحرك كثيرًا، زوجها إنسان طيب لكنه لا يستطيع السيطرة عليها.

- لم أفهم.

نظرت إليه مستفسرة وكأنها تريد أن تعرف هل هو حقًا لم يفهم ما وراء كلامها، أو أنه يريد أن تستمر بالحديث وتكشف عنها أكثر، لكنها فضلت بآلا تتوسع بالحديث عنها، فقالت:

- على أي حال. ستتعرف أنت عليها أكثر. ألم تقل لك بأنها ستزورك أحيانًا لأن لديهم أشياء في الغرفة التي صارت مخزنًا لحاجياتهم الزائدة التي لم يحملوها معهم؟

استغرب آدم المحروم لأنها سمعت هذا الكلام بينما حاولت الأخرى أن تقول بهمس، فارتبك لأن ذلك يعني أنها سمعت جوابه لها أيضًا، الذي فيه تواطؤ معها، وترحيب مبطن لزيارتها. فأراد أن يبدو وكأن الأمر بريء، فقال:

- لقد قالت لي بأنها ستزور البيت بين فترة وأخرى. وطلبت السماح بذلك.

- زيارة البيت أم زيارتك؟

وانتهبت إلى أنها ستكشف عن غيرها الخفية من تلك المرأة، فقالت للتوضيح:

- أقصد ستزورك عندما تكون في البيت أم حينما تكون خارج البيت؟
- لا أدري. أعتقد أن لديها نسخة من المفتاح، يعني حتى لو لم أكن موجودًا فإنها تستطيع الدخول إلى البيت لأخذ ما تريد!
- على أي حال يمكنك أن ترى البيت الآن، ومن الغد نبدأ بتنظيفه.
- أنا غير مستعجل، فأنا أدفع إيجاري مقدّمًا، ونحن في منتصف الشهر تقريبًا، فلدي وقت كاف للانتقال، لا سيما وأنا لا أملك الكثير من الأثاث أصلاً، فالشقة التي أسكنها أثاثها يعود لصاحبها، أي ليس لدي سوى ملابس وبعض الكتب.

نظرت إليه حواء الزاهد نظرة غامضة، وانتهبت لغيرتها من المرأة الأخرى، وبدأت تسأل نفسها عن سر اهتمامها به، وغيرها الخفية عليه. نعم، لقد أحست بالغيرة من محاولة جارتهم زوجة صاحب المشتل التحرش به، وترتيب وضعها معه من خلال الحديث عن زيارتها له أحيانًا، وهو أيضًا تجاوب معها، ورحب بها، يا للرجال، لا يمكن الائتمان إليهم. لا، لا، لن تدعها تلف خيوطها ونسيجها العنكبوتي حوله، لكي تلتهمه، لا سيما وأن الحديث عن سمعتها لم يكن بريئًا حينما كانت تسكن في منطقته. فجأة قالت له:

- عدم وجود أثاث لديك يعني أن الأمر صار أسهل، إذ يمكننا شراء سرير ودولاب لك بأرخص الأثمان من دكان الأثاث المستعملة، الموجود في رأس شارعنا قرب المخبز. كما يمكننا أن نجهز لك ما نستطيع من هنا، من البيت، وأهم شيء أن ترتب مع صاحب المولدة أن ينشط لك الخط، لأنه كان لديهم خط كهربائي مرتبط بالمولدة، ويمكنك التحدث معه وتفاهم عن عدد الأمبيرات التي تحتاجها، كما يمكننا أن نشترى لك ثلاجة صغيرة. أقولها لك بصراحة: اترك الأمر لي وأنا سأقوم بكل شيء. من الغد يجب

تنظيفها، وأن نغسل أرضيتها بالماء. غداً بعد فطور الصباح سنقوم أنا وأنت بذلك. ويمكننا الآن أن نلقي نظرة على المشتمل، اتفقنا؟

كان هو ينظر إليها مدرّكاً أن طبيعتها من جانب، وغيرها من جانب آخر، يدفعها للقيام بذلك، كي لا تترك مجالاً للآخرى بالاقتراب منه، حتى وهي تعلم بأن الأخرى لن تأتي مباشرة، بل ربما بعد أسبوع على الأقل. هل هذا يعني أنها تفتح الأبواب أمامه للاقتراب منها؟ أم أنها تقوم بكل هذا بشكل عفوي، وطبيعي، ومن أعماق سريرتها الصافية وبمشاعر أخوية؟ لذلك حينما سأله عن الاتفاق بالقيام بتنظيف البيت غداً صباحاً، ابتسم ونظر في أعماق عينيها وقال بهدوء وببطء:

- اتفقنا.

مرت لحظات صمت بينهما، كان الصغير ينظر إليهما، فانتبهت هي وقالت للصغير:

- عموراح يصير جارنا.

لم يقل الصغير شيئاً وإنما ابتسم بصدق طفولي، وركض رامياً بنفسه على آدم المحروم، الذي تلقفه بذراعين مفتوحتين وحمله ل صدره. أحست هي بتيارات من الحنان والرغبة تجاه آدم المحروم، بل ودت هي أن ترمي بنفسها بين ذراعيه أيضاً، فهما يحتاجان للحنان، نعم، هي وابنها يحتاجان لحنان كبير، وقد وجد الصغير شيئاً منه لديها ولدى جده، وها هو آدم المحروم يغمره بحنان الأب. تذكرت للحظات زوجها السجين فأحست بشيء من الذنب، فهي تمنح هذا الغريب حنانها واهتمامها، وربما رغبتها الدفينة فيه.

ألقي آدم المحروم بنظرة إلى ما وراء النافذة، فرأى أن الغروب قد بدأ يقترب، فقال لحواء:

- هل تحتاجين شيئاً أحمل معي حينما أعود؟

فاستغربت وسألته:

- إلى أين أنت ذاهب؟ سيأتي أبي قريباً، كما أن الغروب بدأ يحلّ، إلى جانب أننا اتفقنا أن نلقي نظرة على المشتمل.

- لا أريد أن أخرجك، فربما لديك عمل أو أي شيء تودين فعله، وأنا أعيقك عن ذلك.

- لا. ليس لدي شيء. العشاء جاهز تقريباً. لقد أردت أن أسألك عن أشياء كثيرة، لكنني أتردد بحضور أبي.

نظر هو إليها، أحس بملامحها تتغير، وكأن هناك شيئاً ما يثقل على نفسها وفكرها، فقالت له:

- سمعتك تتحدث صباح هذا اليوم، وأحس أنك مختلف عن أبي، بل وعن زوجي أيضاً، فكلاهما لا تخرج الحياة عندهما عن الدين، بل وكأن الحياة خلقت لتكون حسب قوالب الدين فقط. فهما لا يجروان على انتقاد هذه الحكومة، بالرغم من الفساد، والسرقات العلنية والسرية التي يقوم بها أعضاء وقادة الأحزاب الإسلامية الذي يفترض أن يكونوا قدوة للعالم. ثم رأيتك تتحدث عن شيء ما، توبيا، أو يوتوبيا، ولم أفهم ذلك بالتحديد. أريد أن أسألك، هل أنت مقتنع بكل ما يجري هنا في بلادنا؟

نظر إلى أعماق عينيها، فأحس بأنها تعاني من قلق مجهول، ربما هي الرغبة الصادقة في المعرفة، لا يدري، لكنه واثق من أنها مستعدة لتشرب الأفكار الجديدة. لم يكن يعرف كيف يبدأ الحديث معها. وفجأة برقت في ذهنه مقطوعة الحكيم الصيني، فقال:

- هناك حكيم صيني اسمه تشوانغ، قال ذات يوم عن نفسه: حلمت أنا تشوانغ أنني فراشة. وأنا الآن لا أعلم؛ أأنا تشوانغ الذي حلم أنه فراشة، أم أنني الفراشة التي تحلم؟

- ياااه، كم جميل هذا القول، بالرغم من أنني لم أفهمه بالكامل، ولم أفهم ما يريد قوله هذا الحكيم الصيني. هل تشرح لي ماذا يريد قوله هذا الحكيم؟

- سأشرح لك ذلك، لكن ليس الآن. هناك مفكر ألماني أو نمساوي اسمه أريش فروم، لديه كتاب مهم اسمه (الخوف من الحرية). يبدأ فيه بطرح سؤال الحرية: هل الحرية شيء فطري في الطبيعة الإنسانية؟ ولماذا يخاف البعض من الحرية؟ هل لدى هؤلاء رغبة دفينة في الخضوع؟ لكني قبل أن أشرح لك، أود أن أسألك: إلى أي مرحلة وصلت دراسياً؟

كانت تنظر إليه باندهاش حينما كان يتحدث، وأحسّت بالارتباك حينما سأله، فقالت:

- أنهيت دراستي الإعدادية، وسجّلت في الجامعة، لكن الظروف لم تسمح، إذ تم اغتيال أخي في رمضان أمام باب الدار، وكان أبي في السجن لأنه ينتمي إلى حزب الدعوة، وخافت أمي من أن يتم اعتقال أبي أيضاً، فزوجتني لابن جارنا الذي هو زوجي الحالي، ولكن زوجي كان متديناً جداً، ورفض أن أوصل دراستي، وبالتالي، بقيت أسيرة البيت، ثم ولدتُ ابني الملاك قبل سقوط الطاغية بشهرين، وخرج أبي بعد سقوط نظام الطاغية، لكن أمي لم تعمر طويلاً، إذ ماتت بعد خروج أبي بأقل من سنة، وبعد سنوات من خروج أبي، وبعدما تفجرت الأوضاع في البلاد، تم اعتقال زوجي بوشاية. وعلى أساس المادة أربعة إرهاب، وبعد جهود، عرف أبي مكانه، مضت على ذلك ست سنوات؛ لذلك لم أستطع أن أطور نفسي، فكما ترى أن مكتبتنا ليس فيها سوى كتب الدين، فأنا لا أعرف غير الكتب الرهيبة التي تتحدث عن عذاب القبر، والتي بعد أن قرأتها لم أتم لأسابيع، وكأن هؤلاء الذين كتبوها كانوا أمواتاً وعرفوا ما يجري في القبر. وكذلك الكتب الإرشادية الأخرى، وكتب الشعر والأدب العربي القديم التي قرأت معظمها، وبينني وبينك، كنتُ أعتقد بأنني عالمة ومتبحرة في الفهم، لأنني قرأت كثيراً، لكنني عرفت الآن أنني لا أعرف شيئاً.

ابتسم آدم المحروم من جملتها الأخيرة، وقال:

- هل تدري أن أحد حكماء وفلاسفة الإغريق قال ذات يوم: كلما أتوغل في المعرفة، أراني أتأكد من شيء واحد هو أنني أعرف أنني لا أعرف شيئاً.

وأنتِ قلتِ كلامًا قريبًا منه في المعنى. أي كلما يتعمق الإنسان في المعرفة فإنه يعرف بأنه لا يعرف شيئًا، فالمعرفة بحر محيط، وكلما توغلنا سبتدأ الأعماق المظلمة. لكنني أود أن أسألك شيئًا: هل أنتِ تعرفين نفسك؟ تعرفين ماذا تريدن بالضبط؟

ترقرقت الدموع في عينيها، وقالت بحرارة ممزوجة بالألم:

- أنا أشعر أنني ضائعة، وأني لعبة بيد هذه الأقدار الغريبة. أنا أريد أن أكون مثل حكيمك الصيني، الذي حلم أنه فراشة، أنا أيضًا أحلم بأن أكون فراشة بجناحين ملونين، وأتقل حرة بين الزهور، لكنني أحس وكأني مقيدة من قدمي بأغلال حديدية ثقيلة، لا أستطيع إلا أن أدب ديبًا حينما أمشي، أحيانًا أحس أنني أعرف نفسي، وأحيانًا أخرى أحس أنني أجهل نفسي بالكامل، فهذه النفس التي تريد، وترغب، وتشتهي، وترفض، وتعاقد، هي ليست أنا. أنا تعلمت أن أكون مسكينة، تابعة، لا تكشف عن رغباتها، لا تأكل ما تشتهي، وإنما تأكل ما يقدم لها فتأكله بصمت. ليس لها رأي في شيء، فهناك من يقرر مكاني؛ فزوجي كان هو الذي يقرر كل شيء يخصني، وقبله كان أخي، وبعد ذلك أبي. لقد كنت أحن إلى أبي كثيرًا، وكنت أنتظر خروجه من السجن، والحمد لله سقط نظام الطاغية، لكنني صدمتُ أيضًا بأبي، إذ أحسه محببًا، يائسًا، مهزومًا، يكاد يصرخ: ليس من أجل هذا سجنْتُ، وليس من أجل هذا تم إعدام الآلاف من الشهداء، سواء في السجون أم في المقابر الجماعية. أحسّه منكسرًا ومقهورًا، لكنه يكظم في قلبه كل هذا القهر. حتى زوجي، وأنا لا أستطيع هنا أن أقول أي شيء يمس شخصيته وأخلاقه وأدبه، لكنني أستطيع القول إنه قد لون حياتي باللون الأسود فقط. هل تعرف، وربما ما سأقوله حرام أن يقال، لكن تمر بي لحظات أشعر فيها بالراحة لغيابه؟ بالرغم من أنني لا أتمنى له أن يبقى في السجن طبعًا، ليس من أجلي، بل من أجله هو ومن أجل ابني. (صمتت للحظات، ثم واصلت)، أود أن أقول بأنني أحيانًا

أجد نفسي أقتنص الفرح من خلال برنامج غنائي أو ترفيهي أو مسلسل، طبعاً بغياب أبي، فهو لا يفتح التلفزيون إلا للأخبار أو البرامج السياسية. هل تدري أن المسلسلات التركية والمكسيكية، هي فرصتي الوحيدة لأسوح في الأماكن الأخرى، وأعيش قصص الحب الرومانسية مع الأبطال. أنا لم أعرف الحب في حياتي، ولم أشعر يوماً ما بأني عشت حياتي كأبي فتاة أخرى، لم أشعر بأني حرة، ولا أعرف معنى الحرية. لا أدري ماذا أقول. يبدو أنني تحدثت أكثر من اللازم.

نظر إليها وكأنما يرى إنسانة أخرى، إنسانة مليئة بالمعاناة والأفكار الجريئة، وأنها بحديثها هذا بدأت تعي ذاتها، فقال لها منفعلًا:

- لماذا تخافين من الحرية؟ لماذا هذه الرغبة في الخنوع؟ أنت لم تفعلني شيئاً سوى أنك مارست حريتك البسيطة في التعبير عن نفسك، وفتحت نافذة صغيرة على أعماقك. بل أنا أحس أنك تواقفة إلى أن تعيشي حياتك كذات حرة، وبإرادة حرة، واختيار حر، وليس أن تعيشي وفق ما يريده الآخرون، فكوني أنت. ولا تخافي.

في هذه اللحظة قامت هي والدموع تترقرق في عينيها وذهبت إلى داخل المنزل مسرعة، كي لا ينتبه ابنها الصغير لبكائها ومن ثم يخبر جده. بعد دقائق عادت وهي تبسم لصغيرها وتقول له:

- تعال حبيبي إلى صدري، فقد تعب عمو. دعه يستريح قليلاً.

- لا. دعيه مستريحاً في حضني.

انتبه إلى أنها محرجة في الحديث عن نفسها، أو وكأنها انتبهت إلى أنها قالت أشياء لا يجب أن تقولها، لا سيما في الإشارة لطبيعة علاقتها مع زوجها، لكنه أراد أن يستفيد من لحظة المكاشفة هذه ليذهب معها إلى ما هو أبعد من ذلك، وكان عليه أن يبادر، فقال لها بعد لحظات صمت مشحونة:

- اسمعي يا حواء. أود أن أقول لك شيئاً. الإنسان هو كائن معزول في هذا الوجود. إنه ملقى في لجة بحر مظلم هائج، تتلاطمه الأمواج العنيفة، لا شيء

أمامه ليتشبث به ويمنحه أمل بالنجاة من هذه اللجة سوى الحب، فكل ما عداه هو عدم، فالحب هو الأمل الوحيد الذي ينقذ الإنسان من رعب الوجود.

- إنك تتحدث بطريقة لم أسمعها ولم أقرأها من قبل، لكنك تلغي كل ما تعلمناه وورثناه عن القضاء والقدر، ورسالة الإنسان في هذه الحياة.

- انتبه إلى أنها ذكية وما قالته يعبر عن صراعاها مع نفسها، فوجه إليها أسئلته الغامضة:

- أريد أن أسألك. هل سُئِلتِ وخُيرتِ قبل أن تأتي لهذا الوجود؟ لو كنتِ قد وُلدتِ في مجتمع هندي، أفلا كنتِ هندوسية التفكير؟ ولو كنتِ قد وُلدتِ في مجتمع لا يؤمن بالأديان، أكنتِ تطرحين سؤالاً عن القضاء والقدر؟ نحن لا نختار بيئتنا ومحيطنا وديننا، وإنما يُقذف بنا في هذا الوجود نتيجة التقاء جسدي والدينا، ونتبع ما هما عليه، وألا نحن من أين يمكننا أن ننبثق إلى الوجود؟ تتحدثين عن رسالة الإنسان في الحياة، ما هي رسالتك أنتِ في هذه الحياة؟

طأطأت رأسها وقالت بهدوء، لكن نبرتها كانت توحى بعدم الثقة بما تقول:

- أن أكون أمًّا، وأن أربي ابني تربيةً صالحة، وأن أكون زوجةً مطيعة، وأن أفعل الخير.

- أهذه هي رسالتك في الحياة؟ ماذا لو لم تكوني قد تزوجتِ، ولم يكن لديك ابن؟ قال هو وفي صوته نبرة تهكم خفي.

- لا أدري، لو لم أتزوج. ولو لم يكن لي طفل. لا أدري، ربما فعل الخير، وطاعة الوالدين هما رسالتي.

- ولنفترض أنك لم تتزوجي، وأن والديك توفيا، وبقيتِ وحدك، فما هي رسالتك في الحياة؟

- لا أدري، ربما فعل الخير، والعيش، الاستمرار في العيش إلى أن تأتي ساعة الموت.

- أهذه هي رسالتك؟ فعل الخير، والاستمرار في العيش حتى ساعة الموت، وما معنى ذلك؟ لنفترض أنت كنت مضطرة للعيش في مكانٍ ناءٍ، لا يوجد فيه أحد، فلَمَن ستقومين بفعل الخير؟ وكيف ستقومين به؟ ألا ترين أن الخير والشر مفاهيم لها طبيعة اجتماعية، فبدون الناس، بدون الآخر، لا وجود لمفهوم الخير أو الشر؟ ولا وجود للحرام والحلال، لا ولا لرسالة في الحياة، وإنما تحمّل أعباء الوجود إلى لحظة الرحيل عنها.

- إنك تخلخل أفكاري بما تقول.

- ألا ترين أن الأديان هي محاولة لترويض البشر رغبة في الهيمنة عليهم؟ أعتقدين أن خالق هذا الكون يحتاج صلاة الناس وزكاتهم؟ الله هو الحرية المطلقة، فلماذا يريد الناس أن يكونوا عبيدًا له؟ هل تعرفين أن الأرض بكل ما فيها من بشر، وجبال، وبحار، ومحيطات، وصحاري، ما هي إلا ذرة رمل على شاطئ هذا الوجود؟ نعم، ذرة رمل بالمعنى الحقيقي المجسد وليس كتعبير مجازي. فهل يحتاج خالق هذا الكون لعبادتنا نحن؟ إنه ربما يرضيه تسبيحنا لبديع خلقه والتفكير فيه وليس لهذه الطقوس الغريبة التي تمارس باسمه.

نظر إليها فوجد أنها تنظر إلى الأرض وتستقبل كل كلمة منه باهتمام ولهفة وتفكر، فواصل حديثه:

- أنت مثلاً، لا تستطيعين أن تتصرفي أمامي بحرية، ولا أن تعبري عن كل ما يجول في أعماقك، ليس لأنك لا تريدين ذلك، فأنا أشعر بأنك تريدين ذلك وأكثر، لكنك مقيدة بالتقاليد والعرف، والدين، أليس كذلك؟

نظرت إليه باستسلام، وقالت بهدوء:

- صحيح.

- فما الذي يمنعك من أن تكوني حرة، أن تمارسي إنسانيتك معي، أن تكوني أنتِ كما أنتِ؟

- لا أدري، لا أستطيع حتى لو أردت ذلك.

- وهل جربت أن تكوني غير ذلك؟
- لا.
- إذن جربي.
- كيف؟
- هل لي أنا أن أخبرك كيف؟ هذا يجب أن تعرفيه أنت؟ يجب أن تعرفي ماذا تريدن!
- أحياناً لا أعرف ماذا أريد. أحياناً، وفي لحظات معينة أعرف ما أريد، لكنني أطرّد ذلك من ذهني، لأنني أشعر بأنني لا أستطيع فعل ذلك، ربما ستساعدني أنت في أن أفهم نفسي أكثر، أتساعدني؟
- إذا كان لديك الاستعداد لذلك، فالأمر سيكون سهلاً، هل أنت مستعدة؟
- نظر كل منهما إلى وجه الآخر وكأنما يستوثق منه، وليتأكد منه. فجأة، ابتسم كل منهما للآخر، وكأنما اتفقا أن يقتحما حقول التجربة. لكن سرعان ما غام وجهها بانفعالات مفاجئة، فسألها:
- ماذا هناك؟
- أبي. كيف أغيّر وهو الذي لا يريد أن يراني إلا بالصورة التي كونها عني؟ ربما سيغضب مني وأنا لا أريد أن أغضبه، أبداً.
- عليك أن تلبسي القناع إذن!
- القناع؟!
- نعم القناع. فلا يمكنه عندها أن يرى إلا الصورة التي يريدّها.
- لكن ذلك تزييف، وأنا أرفض أن أكون مزيفة؟ أريد أن أكون أنا كما أنا. بوجهي لا بقناعي!
- هل تعتقدين أنك الوحيدة التي سترتدين القناع؟ جميع البشر يرتدون في علاقاتهم الحياتية والاجتماعية والعائلية.

- كيف؟
- أعتقد أن زوجة صاحب المشتل لا تلبس القناع؟ إنها نزعته ما إن ذهبت أنت إلى المطبخ. أنا أعرف ما هو غرض زيارتها.
- لكنك وافقت على ذلك وفرحت له. قالت ذلك وعلى وجهها ابتسامة اتهام.
- نعم. أردت أن أستخدم القناع معها أيضًا.
- ألم يكن ذلك وجهك وليس قناعك؟
- أتغارين؟
- فوجئت لهذا السؤال. لم تكن تتوقع منه أن يكون جريئًا وصريحًا إلى هذا الحد معها. شعرت بالخوف، وبأنه سيضيعها إذا استجابت له، وكشفت له ما يجول بخاطرهما. فقالت بكبرياء:
- ولماذا أغار منها؟
- لم يقل هو شيئًا. في هذه اللحظة رن هاتفها النقال. نظرت إلى الرقم فعرفت أنه أبوها، فأحسّت بشيء من الخجل، وأجابت:
- وعليكم السلام بابا. نعم، جاءت أم قابيل، ووقع هو النسخ الثلاث. ها. لا خرج بعد أن وقع العقد. العشاء جاهز، لا بابا، لا نحتاج لشيء. وعليكم السلام.
- كان الصغير يحاول أن يمد جسده إلى أمه، فأنزله هو عن حجره، إلا أن الأم لم تتركه يتحدث مع جده، نظرت آدم المحروم إليها وسألها بخبث:
- هذا أنا الذي خرجت بعد توقيع العقد مباشرة؟
- طأطأت رأسها، وتمتمت:
- نعم. استحيت أن أقول له إنك ما تزال هنا.
- لا ضير. هذا يعني أنك بدأت باستخدام القناع، وبشكل رائع.
- أهذا هو القناع؟!

- وهل هناك غيره؟ على أي حال، عليّ الآن أن أخرج، ربما سأمر عليه، وربما أمر على اتحاد الأدباء لأرى بعض أصدقائي. لا أدري. المهم. أحسنت. أترين أن الأمر سهل للغاية؟

نظرت إليه وكأنها تقدم على شيء جلل. قام هو للخروج، لكنه رجع ووضع الحقيبة الجلدية على الكنبه وقال:

- من الأفضل أن أتركها هنا. إنها مخطوطات لروايات صديقي الكاتب آدم البغدادي الذي اغتالوه قبل أيام.

- روايات؟

- نعم روايات. سأدعك تقرأينها في ما بعد، حينما تكونين مستعدة لذلك.

- ألسنت مستعدة لذلك الآن؟

- لا أدري!

نظر إليها وابتسما لبعضهما وخرج. بينما أخذت هي ابنها في حضنها، وقد غمرتها سعادة غريبة لا تدري مصدرها. وبينما يهيم للخروج، أحست برغبة عارمة في أن يبقى وأن تواصل حديثها معه، فقالت له:

- ألا نذهب لرؤية المشتمل؟

- الآن؟

- نعم الآن.

- لكن ليس هناك تيار كهربائي.

- وهل تخاف من الظلمة؟ قالت مبتسمة.

- لا طبعاً. إذن لنمض، ثم بعدها أذهب بعدها إلى الحاج كي أثبت صحة كلامك!

خرجت قبله من البيت ملتفة بعباءتها تمسك بيد ابنها، وخرج هو خلفهم بعد أن أغلق الباب خلفه. مشت بخطوات أمامه كي لا تثير انتباه أحد، وسار هو خلفها وكأنما ثمة اتفاق صامت بينهما على أن يمشيا منفصلين. لم يكن يعرف أين

هو المشتمل، وقد فوجئ بأنه لا يبعد عنهم سوى بيتين. فتحت الباب بالمفتاح ودخلت. اقترب هو من الباب والتفت إلى جانبي الطريق، لم يجد أحداً، فدخل.

فتحت هي الباب الذي يفضي إلى الصالة ومنها إلى زاوية فارغة يمكن وضع بعض الدواليب فيها، وعلى الجهة اليسرى يقع الحمام. على الجهة اليمنى تقع غرفة النوم، وإلى جانبها غرفة كبيرة لها باب يفضي إلى الخارج كانت بمثابة مطبخ كبير. لم يكن ثمة نور في المشتمل. ظل الطفل آدم الملاك متشبهاً بالشباك الواطئ في الصالون. بينما دخلت هي إلى أعماق الصالون فمشى هو خلفها. كان قلبه يرتجف. صعدت الدماء إلى كل خلايا جسده. أحس بالإنارة لوجودهما معاً في بيت فارغ وبعيد ووحدهما. فلم يكن يفكر بالصغير كعائق. سأل نفسه: هل هي يا ترى تشعر مثلي؟ عليه ألا يهدم كل شيء، لكن عليه أيضاً أن يجس النبض، إن كانت تشاركه رغبته. كانت العتمة خفيفة في الصالون. دلفت هي إلى غرفة النوم التي تكثفت العتمة فيها. دخل خلفها. سألته:

- ألدبك ولاعة أو عود ثقاب؟

- لا.

وقفت هي وسط الغرفة. وقف خلفها مباشرة. وحينما التفت لتخرج اصطدمت به. فمسكها من كتفها. أحس بها ترتجف. نظر إلى عينيها فأحس بها تعاني، أغمضت عينيها، لكنها لم تحاول الإفلات من قبضته. اقترب منها أكثر، حتى مس صدره صدرها وبطنه بطنها. أحس بها ترتجف وتتأوه. أسبل يديه عن كتفها. ظلت واقفة لم تتحرك. كانت مغمضة العينين وكأنها كانت تنتظر شيئاً. أحس بأنفاسها المضطربة. كان ينظر إلى وجهها متأملاً فتنته الباهرة، فتحت عينيها. كانت المسافة بينهما قصيرة جداً. وبدون تردد ضمها إليه، مقبلاً إياها من شفيتها قبلة حارة شبة. أحس بصدرها الريان

ينهرس على صدره. وشفتيها تملآنه بالإثارة. كانت تلهث، أخذ يقبلها من خدها وأذنيها، صار لهاثها مسموعاً. أرادت أن تغلت منه، لكنه كان قوياً، مسك بها وبلا شعور مد يده إلى صدرها. فندت عنها آهة، وهي تقول لاهثة وبصوت خافت:

- أرجوك، لا. لا. لا أستطيع المقاومة. أرجوك لا. ارحمني. لا أستطيع أن أقاوم. وبدون أن يعطيها فرصة لاسترداد إرادتها. أدارها إلى الخلف، فصار ظهرها إلى صدره، ومد يده إلى صدرها من خلال فتحة الثوب، فقبض على نهدها مداعباً حلمتها النافرة، كادت تنهار. أحس بمؤخرتها في وسطه. ضغط عليها كل بجسمه. ولكي ينهي مقاومتها مد يده إلى ما بين فخذيهما، فانهارت مرتجفة بين يديه، وهي تتمتم:

- أرجوك. ارحمني. ليس الآن. أكاد أختنق. أموت. ياه. أنت تستغل نقاط ضعفي. اتركني أرجوك. أنا ضعيفة أمامك. على الأقل ليس الآن. ابني هنا.

لم يحاول معها أكثر. وقبل أن يتركها رفع وجهها إليه والتقم شفتيها اللتين أعطتهما إليه بتجاوب. تركها. كان بإمكانه أن يضاجعها في هذا المكان، لكنه تركها. أخذت ترتب نفسها وعباءتها، وقبل أن تنتهي كان هو قد خرج من الغرفة. كانت هي مثارة جداً، وتعيش مشاعر متناقضة جداً، فمن جهة كانت تتأسف أنه تركها لأنها كانت تريد أن يواصل معها ولا يستجيب لتوسلاتها، ومن جهة أخرى اشمأزت من انهيارها وضعفها واستسلامها بهذه السهولة!

حينما خرجت من الغرفة رأت ابنها وحده يتشبث بحافة النافذة في الصلاة. لم تجد أي أثر لآدم المحروم. أين هو؟ حتى أنها شككت في أنه كان موجوداً. سألت ابنها:

- أين عمو؟

- راح.

- وين راح؟

- ما أعرف. راح.

أحست بشيء من الارتياح حينما عرفت أنه خرج، أخذت ابنها وغادرت المشتمل. كان الغروب قد حلّ. وبدأت العتمة تتمدد في الدروب والشوارع وعلى سطوح البيوت. أحسّت بجسدها وقد صار أخف، لكنها ملتهبة، وتريد أن تطفئ نارها. ولا تعرف كيف؟ أحست أنها تريده. تريد أن تراه. لن تسأله مرة أخرى أن يتركها لو حاول معها ثانية، هكذا قررت مع نفسها. ارتسمت على وجهها ابتسامة مأكرة وقالت لنفسها: كم هو جريء!

درب الآلام

لم يذهب آدم المحروم إلى الأب مباشرة، وإنما ظل يتجول في شارع السعدون، ثم ذهب إلى شقته وأخذ ما تبقى لديه من أوراق نقدية كان قد وضعها في الدولاب تحت الملابس. جمع ملابسه القليلة ووضعها في حقيبة جلدية، وكذلك حاجاته اليومية الأخرى كمعجون الأسنان وأدوات الحلاقة، وقنينة عطره، وبعض كتبه، وهي قليلة، وبعض أوراقه وقصاصات من الصحف والمجلات التي كان قد نشر فيها مقالاته، أو المجلات التي أجرت معه حوارًا. وحينما تأكد بأنه وضع كل ما يخصه في الحقيبة. حملها خارجًا، ولم تكن ثقيلة بحيث يضطر إلى تأجير سيارة. خرج وأقفل الباب خلفه، وتوجه إلى حيث الأب آدم الزاهد، حينها قرر مع نفسه بأنه سيلبغ صاحب العمارة بتخليته للشقة عند نهاية الشهر.

حين وصل إلى حيث زاوية الشارع كانت الساعة في حدود التاسعة. فكّر أن عليه أن ينتظر على الأقل ساعة ونصف أخرى، لكنه حينما وصل إلى رأس الزقاق الذي فيه المطعم وزاوية الشاي، وجد أن المطعم قد بدأ يطفئ الأضواء، وكأنه ينتظر خروج آخر الرواد، وليس هناك من يقوم بشي الكباب، كما وجد الأب قد لملم أشياءه، وهو على وشك الرحيل. تأكد من أن شيئًا ما غير طبيعي قد حصل، فالأب ليس على ما عهده من مزاج هادئ، مسالم، متصالح مع الأشياء ومع نفسه. ولم يتسم له ويدي البشاشة في وجهه. كانت علامات الشرود والتفكير تهيمن عليه، وكان ثمة غمامة من الحزن والقلق تغطي وجهه، حين لمح الأب آدم المحروم مقبلًا عليه، قال له بصوت هادئ حزين:

- أهلاً ابني آدم.

شعر آدم بالتوتر، وخلال ثوان قليلة كان يسأل نفسه أسئلة عديدة لتفسير هذه الطريقة الباردة في التحية، وهذا الحزن الذي يهيمن عليه، هل تراه عرف بشيء مما دار بينه وبين ابنته؟ أو ربما جاءت الأجهزة التي اغتالت صديقه الكاتب آدم البغدادي لتسأل عنه؟ لا. لا. هذا مستحيل، ولم يطق أن يتحمل ثقل كل تلك الأسئلة، فسأل الأب ليتخلص من قلقه المدمر:

- هل جرى شيء ما يا حاج؟ أنت لست على طبيعتك.

نظر الأب إليه وقال بحزن:

- مصيبة أخرى حلّت بنا يا ابني.

- مصيبة؟ أي مصيبة لا سمح الله.

- زوج ابنتي مات تحت التعذيب في سجن بوكا.

كان وقع الخبر على آدم المحروم صادمًا لا يعرف كيف يتعامل معه. فهذا خبر حزين بلا شك، فهو من ناحية فتح أمامه آفاقًا في أن يرتبط بحواء الزاهد، لكنه في الوقت نفسه غضب بشدة وتأسف على هذا الرجل المسكين الذي مات تحت التعذيب نتيجة وشاية ما. وغضب على الأمريكان الذين احتلوا البلاد ودمروها والآن يقتلون رجالها تحت التعذيب. واستحضر الطفل آدم الملاك الذي لم ير والده. كانت مشاعره متداخلة ومتضاربة، وكان رد فعله وتأثره صادقًا حين قال:

- ماذا تقول؟ مَنْ أخبرك بذلك؟

- لقد وصلت المعلومات قبل قليل إلى أخيه صاحب المطعم، وقد أخبرني هو بذلك.

- هل أنتم متأكدون؟

- نعم. الأخبار التي وصلت تقول إنه انتقل إلى رحمة الله قبل شهر تقريبًا، ولم يتمكن أحد من إيصال المعلومات لأهله.

لم يعرف آدم المحروم كيف يتواصل معه في مصيبة عائلية خاصة وكيف سيكون وقعه على حواء الزاهد، فسأله:

- ماذا ستفعل الآن؟

- لا أدري يا ابني. لا أعرف كيف أخبر ابنتي بهذه الكارثة، ولا أستطيع أن أتحمل ترملمها وهي في مثل هذا السن. كما لا أستطيع أن أتحمل يُتم الصغير، بالرغم من أنه لم يعرف أباه.

- إنها مصيبة حقيقية.

انتبه آدم المحروم إلى أن الوضع قد ارتبك جدًّا، وفكر مع نفسه، ربما ليس من المستحسن أن يذهب معه إلى البيت الليلة، فقال للأب:

- اعذرني يا حاج. كنت قد حملت حقيقتي التي فيها كل أضيائي، لأنني ظننت قد انتقل إلى السكن الجديد من الغد، بالرغم من أن هناك أكثر من حدود الأسبوعين مدفوعة الأجر لشقتي الحالية، لكن بعد سماعي هذا الخبر فمن المستحسن أن تكونا وحدكما.

انتبه الأب لما قاله آدم المحروم. صمت لحظة ثم قال:

- لا. الأفضل أن تأتي معي. لا أعرف كيف سأواجهها وأقول لها الخبر، لكنني على أي حال، سأسافر مع أخيه إلى البصرة ليومين أو ثلاثة، نستجلي الأمر، فإذا صحَّ الخبر فسنقوم بالواجب، وإذا لم يصحَّ فنحن نكون قد عدنا بخير طيب. لذا أفضل أن تكون معي الليلة، وغدًا تحمل حقيقتك إلى السكن الجديد، وتكون على الأقل قريبًا منهما إلى أن أعود. ثم أنني لا أريد أن أخبرها الآن، ووجودك سيدعها لا تجلس معي كثيرًا، أي ستكون لدي الفرصة لكسب الوقت، وليقضي الله أمرًا كان مفعولاً.

- هكذا ترى؟ ربما أنت محق من هذه الناحية.

فُتِحَ باب الصلاة. دخل الأب، وبقي آدم المحروم منتظرًا إلى أن سمع صوت الأب يدعوه للدخول. ركض الحفيد وألقى بنفسه على الجد فتلطفه بالأحضان مقلِّبًا، ومستنشِقًا عطره الطفولي. وترقرقت عيناه بالدمع، فأنزله إلى الأرض فركض الصغير ملقيًا بنفسه على آدم المحروم الذي فتح له ذراعيه أيضًا، وبقي معلقًا بأحضانهِ إلى أن أقبلت حواء الزاهد لتسلم عليهما مرحبة. كانت مرتبكة قليلًا لوجود الأب وآدم المحروم معًا، لذا لم تنتبه لارتباك أبيها، لكنها تداركت ارتباكها.

خلال الساعات التي غاب فيها آدم المحروم عن البيت كانت هي تعيش صراعًا نفسيًا عنيفًا، صراعًا بين شعور بالذنب تجاه زوجها ووالدها، وانتهاكها للتعاليم والمحرمات والأعراف وبين رغبتها الحقيقية والمخلصة في أن تكون ذاتها هي، وأن تعمل ما تشتهيهِ نفسها، أن تحب، فهي لم تعرف مشاعر الحب في حياتها قط، سوى حبها لوالديها ولابنها، أما حبها لزوجها فهو من باب الواجب، لأنه زوجها ووالد ابنها، وليس له علاقة بما تشعر به كأنثى وكامرأة. لقد شعرت بأنوثتها وبخيالاتها الجامحة مع هذا الغريب فقط. إنها تشعر بالفرح حين تراه، وتستيقظ فيها الرغبة بوجوده أو حتى حينما يكون غائبًا. وما جرى اليوم بينهما منحها سعادة كبيرة، لكنها تشعر بأنها سعادة محرمة، ودنسة، لأنها تجري ضد كل ما تعلمته واعتادت عليه، وأنها اضطرت وستضطر إلى أن تكذب على أبيها وابنها، وربما على نفسها من أجل أن تقتنص لحظات السعادة معه. تحس بأنها ومنذ أن احتضنها وقبلها وداعب جسدها قد تغيرت كثيرًا. لم تعد كما كانت عليه، لكنها أيضًا ليست إنسانة أخرى بالكامل، لذلك ارتبكت حينما حضر الاثنان معًا.

كان آدم المحروم يقف خلف الأب حينما أقبلت من المطبخ، دخل حاملة حقيبته التي وضعها قرب الباب إلى جانب الجدار. لاحظ ارتباكها، وكان هو مرتبكًا أيضًا، لأنه تركها في حالة مشوشة، ولم يكن واثقًا جدًا من

موقفها. وحينما أحس أنها سيطرت على نفسها، وبدت اعتيادية كما هي حين تستقبلهما كل مرة، أحس بالراحة وزال عنه ارتبأكه أيضًا.

تحدثت حواء لأبيها عن زيارة أم قابيل وتوقيع العقد، وأنهم سوف يقومون بتنظيف الشقة غدًا، وكيف أنهم لا بد أن يذهبوا إلى بائع الأثاث المستخدم ليشتروا له ما يحتاجه في المشتل. كانت وهي تتحدث تخاف من أن الصغير ينط ليقول شيئًا يجرعها. إلا أن الأب لم يطرح أي سؤال يمكن أن يدفع الصغير ليقول شيئًا. كما أنه حاول جاهدًا أن يشغلها بذلك الحديث.

أحضرتُ العشاء، أخذتُ صغيرها وخرجتُ. تعشى الأب وآدم المحروم دونما أي شهية. كانا صامتين، وليس بينهما سوى لغة العيون. أخذنا يتابعان الأخبار في التلفزيون بصمت. كانت نشرة الأخبار تشير إلى حدوث اغتياالات تمت بمسدسات كاتمة للصوت، في مناطق متفرقة من بغداد. أخذنا يعلقان بكلمات قليلة على الأخبار، كانت وجهات نظرهما لا تتجاوز الكلمة أو الكلمتين. كان الأب يعتقد أن بقايا حزب البعث المحظور بالتعاون مع القاعدة هم المنفذون لهذه الجرائم، بينما كان هو يتفق مع الأب لكنه يضيف أيضًا التصفيات الداخلية بين الحزب الحاكم ومعارضيه من الشركاء سواء الأحزاب الإسلامية أو غيرها، لأسباب تتعلق بصراعات على النفوذ والمصالح الشخصية، وكذلك تتم الاغتياالات من قبل مخابرات دولة مجاورة. وكان كل منهما لا يقطع رأيه، إذ يعطي احتمالاً أن يكون الآخر محققاً في ما يذهب إليه أيضًا، بل كانا يشعران بأنهما من خلال هذه التعليقات يحاولان الهرب من التفكير بخبر موت زوج حواء في سجن بوكا.

دخلت حواء الزاهد وهي تحمل لهما صينية الشاي، ولكي لا يدخل معها بأي حوار رفع الأب وجهه نحو آدم المحروم وسأله:

- هل رأيت المشتل؟
- الحقيقة كان يجب أن أرى المشتل لكنني لم أقم بذلك. سأراه غدًا.

«من المؤكد لو كان ابني آدم موجودًا لتبرع بالقول بأنهم كانوا هناك»، فكرت حواء، وتذكرت كلامه عن الأقنعة، فابتسمت مع نفسها. وفي هذه اللحظة بالذات أحس الأب بأنه لا يستطيع أن يتحمل كتمانها للأمر كثيرًا فالتفت لابنته وقال لها:

- سأسافر غدًا يا ابنتي، ولمدة ثلاثة أيام.
- تفاجأت حواء عند سماعها تلك الجملة، فأحست بخوف غامض يعترئها، وسألت مستفهمة:
- تسافر؟ إلى أين؟ ولماذا؟
- أسافر إلى البصرة.
- البصرة؟ إلى سجن بوكا؟
- نعم.
- ولماذا هذه السفرة المفاجئة؟ هل هذا موعد للزيارة؟
- أعرف. لكن الحاج هابيل، تعرفينه أنت، صاحب المطعم، عم الصغير، يريد القيام بزيارة لأخيه فسألني إن كنت أود الذهاب معه لأرى نسيبي. خجلت منه ووافقت على مرافقته.
- كان آدم المحروم متوترًا ومتربحًا كيف سيدلي هذا الأب الحنون بما يثقل قلبه. أحس بالإعجاب الكبير لسرعة بديهته في إيجاد مخرج لتبرير سفره، لكن فوجئ بالابنة تسأل:
- هل حدث شيء ما لزوجي؟
- لا أبدًا. لكني كما قلت لك، سألني فخجلت أن أرفض الذهاب معه، لذا وافقت.

اطمأنت حواء الزاهد، فهي تعرف أن أباه لا يكذب أبدًا. كان آدم المحروم ينظر بإعجاب للقناع الذي أخفى الأب سره خلفه، لكن حواء

الزاهد، التي غمرها فرح خفي لسفر الوالد بعد أن اطمأنت بأنه لا شيء قد حدث لزوجها، أرادت أن تحتمي بقناعها هي، فسألته:

- ونحن، ماذا عنا؟ أتركنا هنا وحدنا؟

نقل الأب النظرات بينها وبين آدم المحروم، وقال:

- غدًا سينتقل الأستاذ آدم إلى المشتل، وسيكون جارنا، ثالث بيت على جهتنا، وبالتالي هو ليس ببعيد عنكما، سيكون موجودًا بجانبكما، ثم أني لا أتأخر كثيرًا.

- ومتى ستسافر غدًا إن شاء الله؟

- صباحًا، بعد الفطور مباشرة.

- تروح وترجع بالسلامة يا ربي.

- إن شاء الله.

قامت خارجة و متمنية لهما ليلة سعيدة. كانت لا تريد البقاء معهما. كانت تحس برغبة قوية لتكون وحدها. إنها تريد أن تحاور نفسها. وكانت تحس برغبة دفينّة جدًّا بأن تنام لتصحو على الصباح. كانت تستعجل السير في درب الآلام، درب المتعة المحرمة، متاهة الظلمات.

ما إن خرجت حتى تبادل الأب وآدم المحروم النظرات، بادر آدم المحروم قائلاً:

- حينما بدأت تتحدث عن سفرك كنت خائفًا أن تقول لها كل شيء، لكنني فهمت من أنك تريد أن توصل الخبر إليها على دفعات.

- لا أدري. لم أفكر بأي شيء، فقط كنت أريد أن أدفع هذا الهم عن قلبي، وأن أبرر لها سفري.

- المهم اقتنعت بما قلت لها.

- أتمنى أن تنتبه لوضعهما إلى أن أرجع.

- لا أتركها تنتبه لشيء لحين عودتك.
 - على أي حال، عليّ أن أنام، فطريقي غداً طويل.
- قال ذلك ونهض، متمنياً له ليلة هائلة. حينما توجه الأب خارجاً نظر هو إليه. أحس أنه هرم خلال ساعات. فقد كان يتحرك ببطء شديد. بقي هو وحده في الردهة. مدّ الفراش على الأرض. انتبه إلى الحقيبة الجلدية التي تضم مخطوطات روايات صديقه المغدور آدم البغدادي. لم يشأ أن يغير ملابسه. استلقى على الفراش. سحب حقيبة المخطوطات التي كان قد تركها قبل أن يزور المشتمل. أخرج مخطوطة (متاهة حواء وادي الظلمات)، عزل الفصول والصفحات التي قرأها، ووضعها على جهة، وبدأ بقراءة بقية الفصول.

منعطف المتاهة الكبير

كان الجو متوترًا بين حواء المؤمن وزوجها حينما سمعا رنين جرس الباب. صمت كلاهما، نظر كل منهما للآخر. كلاهما خمن أنه قابيل. حين توجه زوجها إلى الباب، فكرت كيف ستعامل مع قابيل. لقد أحست أنها تكرهه، لكنها أيضًا أحست أنها مرتبطة به، وهي تريد أن توضح علاقتها به.

حينما وصل قابيل الصالة نظرت في عينيه للحظات نظرة مباشرة، تبادلًا النظرات، انتبه آدم إلى نظراتهما المتبادلة، فعلق قائلاً:

- ما لكم تنظران لبعضكما هكذا كأنما تريان بعضكما البعض لأول مرة؟!
- لا أبدًا. وأنتما ماذا بكما. أراكما متوترين. ماذا بكما؟ هل تشاجرتما؟ كلاكما متوتر النظرات.

علق قابيل متجاوزًا ملاحظة آدم. التفتت حواء المؤمن إلى زوجها، وقالت له بشكل استفزازي:

- أخبره. ليعرف الحقيقة.

نظر قابيل إليها بخوف وارتباك واضح، ثم نظر إلى زوجها، لقد شعر للحظة أنها قد أخبرته بما جرى بينهما عندما ذهب لإحضار السيارة. فسأل:

- ماذا هناك؟ أي حقيقة علي أن أعرفها؟
- لا شيء.

- قل له. ما معنى قولك لا شيء؟ هل كل شيء لديك صار بلا قيمة. كل شيء يصير لا شيء؟ عقت حواء المؤمن بتوتر.
- أريد أن أفهم عن أي شيء تتحدثان؟ سأل قابيل.

مرت لحظات صمت، فبادرت حواء لتشرح الموضوع، فقالت وهي تنظر إلى ما وراء نافذة المطبخ:

- حينما كنّا عند الطيبة، وبعد أن أجرت لي التصوير الشعاعي، وجدت أن الجنين غير طبيعي.

لم يفهم قابيل كلمة غير طبيعي، كان مستعجلاً إلى أن يفهم كل شيء دفعة واحدة، فسأل:

- ما معنى غير طبيعي؟

- يعني طفلاً مشوهاً، رأسه كبير جداً وجسمه صغير، وأنه. وأنه.

لم تستطع أن تكمل الكلام إذ تحشرجت الكلمات في فمها، وأخذت تنشج، فركضت إلى غرفة النوم، وأغلقت الباب خلفها. صُدم قابيل من كلامها، فأراد أن يستفسر أكثر، فسأل:

- ما معنى هذا الكلام يا آدم. ماذا قالت لك الطيبة وأخفيت عنه؟ قل.

شعر آدم بالإحراج لإخفائه ما قالت له الطيبة عن وضع الجنين، فقال بانكسار:

- لم أشأ أن أكسر خاطرها، وأردت أن أقول لها الحقيقة بعد الحصول على نتائج التحليلات الأخرى التي أجريناها، لكنها عرفت.

- عرفت؟ عرفت ماذا. من أين عرفت؟

- تقول من الراهبتين، من الشبحين اللذين يظهران لها دائماً.

- ما هذه اللعبة؟ المهم. دعنا الآن من هذا. وأخبرني ماذا قالت لك الطيبة؟

- قالت إن الجنين هو مسخ، يعني رأسه كبير وجسمه صغير، وأنه سيموت بعد الولادة بساعة أو ساعات، فنادراً جداً أن يعيش مثل هؤلاء بعد الولادة.

- ولماذا لم تخبرنا عن ذلك؟

- قلت لك أردت ألا أصدمها بهذا، فكرت أن أنتظر نتيجة التحليلات، وعندما كنت سأقول ذلك.

- ولماذا لم تخبرني أنا؟
- فكرت أن أخبرك لكني لم أتمكن من ذلك لأنني ذهبتُ بعدها لإحضار السيارة.
- صمت كلاهما. كان الخبر صدمة قاتلة بالنسبة لقابيل. أحس بالشفقة على حواء المؤمن. نظر إلى آدم وسأله:
- هل تشاجرتما على ذلك؟
- ليس بالضبط، الطيبة تنصح بإجراء إسقاط للجنين عبر الطلق الاصطناعي، وهي ترفض ذلك وتقول مستحيل أن أسقط الجنين، حتى لو عرفت أنه سيولد ويموت بعد ذلك. تقول إنها لا تريد أن تقتله.
- صمت كلاهما، ثم انتبه قابيل إلى نفسه، وإلى ما جرى من حوار، فسأل:
- ماذا قلت لي قبل قليل، كيف عرفتُ هي؟
- قلتُ إنها عرفتُ من خلال راهبتين، شبحين، روحين، لا أدري. حينما كانت في المستشفى بمدينتنا الأولى رأتهما في المستشفى، بالرغم من أن إدارة المستشفى نفتُ وجود راهبات في المستشفى، والآن قالت إن الراهبتين جاءتا إلى هنا، إلى برلين، وأخبرتاهما بأنها حامل بجنين مسخ، وأن عليها ألا تقتله لأن هذا يُعد جريمة قتل.
- غريب.
- وما هو الغريب؟
- غريب أن ترى أشباحًا، أن ترى راهبتين. فهي ليست مسيحية؟
- صحيح! أنا لم أفكر بهذا أبدًا!
- غرق في صمته قليلًا ثم عاد للعوام ثانية، وقال لآدم:
- علينا ألا نكسر خاطرهما الآن. علينا تغيير الجو. وبمناسبة السيارة الجديدة دعوني أدعوكما إلى الذهاب إلى مطعم هندي.
- لكنها ربما لا تريد الخروج، هي غاضبة مني.

- لا عليك. اذهب أنت وأحضر السيارة وجهازها، وأنا سأتحدث معها وأقنعها بالنزول. انتظرونا في السيارة.

صمت آدم اللبناني للحظات، ثم قام حاملاً شدة المفاتيح معه، غالقاً الباب خلفه. ظل قابيل للحظات جالساً في الصالة، فكر بما سمع، أحس بالشفقة عليها، كما أنها فرصة أخرى ليمارس سلطته المطلقة عليها. قام متجهاً إلى غرفتها. طرق الباب طرقات خفيفة. لم تجبه. فتح الباب فرأى حواء المؤمن مستلقية على ظهرها وتنظر إلى السقف بعينين جامدتين. دخل الغرفة مقترباً من السرير. أدارت وجهها تنظر إليه. بقيا للحظات ينظر كل منهما إلى الآخر وكأنما يريدان أن يكتشفا بماذا يفكر كل منهما في تلك اللحظات!

شعر قابيل بأنها وكأنما تسأله: لماذا انسحب عنها حينما ضاجعها في شقتي، بينما خمنت هي بأنه يفكر بما يدور في رأسها فعلاً، وهو نفس السؤال الذي فكر فيه قابيل في تلك اللحظات. جلس إلى جانبها، فاستغربت وأشارت بعينها و ببعض ملامح وجهها إلى الصالة وكأنها تقول له إن زوجها هناك، فقال لها:

- لا تخافي. لقد أرسلته لينتظرونا في السيارة. أنا أدعوكم للعشاء في أحد المطاعم الهندية. أريدك أن تنسي كل الهموم الآن، وغداً سيكون لكل حادث حديث.

وبدون إرادة منها مدت كفها وأخذت كفه ووضعتها على بطنها المكورة. أحس هو بالإنارة. وبهدوء انحنى ووضع رأسه على بطنها المكورة. أحست هي بدفق من الحنان نحوه نتيجة تعاطفه معها ومع جينيتها. مدت كفها الأخرى ومسدت شعره. كان هو مثاراً وهائجاً، وفكر في أن يقوم ليولجه فيها، لكنه فجأة قام من مكانه، إذ أخذ يشم نفس تلك الرائحة التنة الكريهة تنبعث من أسفلها.

ابتسمت له. نظر هو حوله حائرًا، وكأنه يشرد من نظراتها، ولم يشأ أن يسألها عن سبب هذه الرائحة الكريهة التي تنبعث منها، لربما هي فطريات أو

إفرازات سببها مرض تناسلي ما، وأن عليها التخلص من هذه الروائح، لكنه تجنب الحديث عن ذلك الآن، وإنما قال لها:

- علينا الإسراع بالنزول كي لا يشك آدم. لقد تأخرنا.

قالت وكأنها انتبهت للحرص الذي هي فيه، إذ عليها أن تنزل إلى زوجها بعدما اختلت هي مع صديقه:

- أنا جاهزة.

خرج هو من الغرفة. تبعته بعد أن رتبت نفسها قليلاً. خرجا من الشقة، وأطبق هو الباب خلفه. انتظرا المصعد، وحينما وصل المصعد فتح الباب فدخلت، إلا أنه لم يدخل معها وإنما أغلق الباب لها قائلاً:

- علي أن أنزل إلى شقتي فقد نسيت شيئاً.

استغربت هي تصرفه. هبط المصعد. بينما كانت هي تسأل نفسها أسئلة لا جواب لديها عنها!

فتح قابيل باب شقته. ذهب مباشرة إلى غرفة النوم، فتح الدولاب الكبير وأخرج منه حقيبة جلدية متوسطة الحجم، ومن الحقيبة الجلدية أخرج صندوقاً جلدياً مستطيل الحجم. فتح الصندوق الجلدي ورفع باطنه الذي كان أشبه بالصندوق الصغير، ومن تحته أخرج كيساً صغيراً، مفتوحاً، فيه مادة الهيروين البيضاء. أخذ الكيس الصغير وسكب جزءاً منه على الطاولة الصغيرة على جانب سريره العريض، وسحب موساً صغيراً وأنبوباً بلاستيكيّاً قصيراً وضيّقاً من الصندوق، مدّ وجهه ووضع الأنبوب في منخره، وأخذ يستنشق المادة البيضاء من جانبي منخره. بعد ذلك وضع الكيس ببقاياها القليلة في الصندوق وأدخل الصناديق المتداخلة في الحقيبة الجلدية، ثم ألقى بالحقيبة داخل الدولاب. نظر إلى نفسه في المرآة الكبيرة على باب الدولاب. ابتسم لنفسه وخرج من الغرفة.

حينما نزل إلى الشارع كان محرك السيارة يهدر، ورأى آدم ينظف السيارة بقطعة من القماش، وكانت حواء المؤمن جالسة داخل السيارة. وقف قابيل منتشياً. نظر إلى الشارع بعينين لامعتين تتقدان بالبهجة والحلم. اقترب من آدم قائلاً:

- أعطني المفتاح لأجرب السيارة.

انتبه آدم إلى أن قابيل ليس في وضع طبيعي، لأن محرك السيارة كان يهدر. لكنه أحس بالرغم من ذلك بالانكسار لأنه كان يريد هو أن يقود السيارة متبخرًا أمام زوجته، بينما لم يتركه قابيل أن يفوز بهذه الفرصة. قال له بهدوء:

- ماذا بك يا قابيل. ألا تسمع صوت محرك السيارة؟

لم يجب قابيل عليه، وإنما اتجه ليجلس خلف المقود. صعد آدم إلى جنبه، وانطلقت السيارة.

كان قابيل يحب السياقة السريعة. وقد أخذ يسرع أكثر حينما صعدت السيارة إلى الطريق السريع. كان يشعر بالانتعاش. فكّر مع نفسه بأن هذه المرأة التي كانت لا تنظر إليه، هي الآن تحبه وتتوسله وتتمنى رضاه. أراد أن يبين لها مهارته بالسياقة فأخذ يضغط على دواسة البنزين. كانت حواء المؤمن خائفة من السرعة التي يقود بها السيارة، أما زوجها اللبناني فقد كان فرحاً بأن هذه السيارة ستكون له.

قابيل وتحت تأثير نشوة المادة المخدرة التي شمهها يقود بسرعة كبيرة. كانت السيارة آنذاك تسير على جسر عالٍ نسبياً. وفي لحظة ما أراد أن يتجاوز سيارة كانت تسير بسرعة معقولة أمامه، لكن ما إن خرج عن الخط حتى وجد أن الطريق يحاصره من الجانب الآخر، ولم يكن الطريق أحادي الاتجاه. السيارة المقبلة شاحنة كبيرة، تداخل قابيل بين السيارات ووجد نفسه بأن عليه المخاطرة لتجنب الاصطدام. وفي لحظة عدم توازن، وعدم سيطرة من قابيل على المقود، ارتطمت السيارة بسيج الجسر، وحطمت، وقفزت السيارة بمن فيها من الجسر إلى مجرى مائي ضحل تم صب جوانبه بالإسمنت، وفي

الأسفل اشتعلت النيران فيها. كل هذا الأمر لم يستغرق أكثر من ربع ساعة ما بين تحركهم من البيت وتحطم السيارة وهي تسقط من الجسر.

بعد فترة ليست بالقصيرة هرعت سيارات الشرطة إلى المكان وأطفأت النار بقناني الغاز التي لديهم، كما جاءت سيارات الإسعاف بعد ذلك أيضًا. كانت السيارة قد تحطمت بالكامل، وتم إخراج جثة آدم وقد تحطمت جمجمته وسال مخه منها، كما لم يعثروا على جثة قايل داخل السيارة وإنما تحتها، وقد تفحمت، وكان مدهشًا بالنسبة للشرطة خروجها من السيارة ليكون تحتها ويحترق بنارها. أما حواء المؤمن فقد دخل الزجاج في وجهها وسالت الدماء منه، ووجد الشرطة بين فخذيها كتلة من اللحم غطّاها الدم، لكنها هي نفسها كانت تتنفس.

حين أفاقت من غيبوبتها في المستشفى، انتبهت لنفسها مشدودة ومضغوطة من كل الجهات. وجهها مربوط بالشاش. حتى عيناها كانتا معصوبتين بالشاش ولم يبق من وجهها سوى منخريها اللذين مدوا فيهما أنابيب صغيرة للتنفس من قنينة الأوكسجين المنصوبة إلى جانب السرير وفتحة فمها. أحست بجسدها وكأنه قد تهشم، لم تكن قد استوعبت بعد ما حدث، ولم تعرف أين هي. أرادت أن تفتح عينيها فلم تستطع. كانت عيناها معصوبتين. أخذت تنظر بعين الذاكرة، ظنت أنها في النوم وما يجري لها يجري في النوم!

أول فكرة مرت عليها هي أنها تحلم بأنها في مكان ما غارق في السكون، مكان مظلم، بعد لحظات انتبهت إلى أن هذا ليس حلمًا وإنما هو واقع، فهي صاحبة وليست نائمة، لكن أين هي؟ انتبهت، سمعت الباب وهو يفتح، لم تعرف من دخل المكان الذي هي فيه! قالت بارتباك:

- مَنْ هنا؟

كانت الراهبتان قد وقفتا إلى جانب سريرها، ابتسمتا بلطف وحنان، بالرغم من أنها لم تستطع أن تراهما، قالت الراهبة المسنة لها:

- لا تخافي يا ابنتي حواء. نحن هنا معك. كل شيء سيكون على ما يرام.

- أين أنا؟ تمتعت حواء المؤمن بصعوبة.

- أنت هنا في المستشفى يا ابنتي. قالت الراهبة المسنة.

- لماذا؟

تبادلت الراهبتان النظرات في ما بينهما، وبادرت الراهبة الشابة بالإجابة بنبرة مليئة بالحنان:

- لقد تعرضت لحادث، أنت الآن في أمان.

- حادث؟

- نعم. حادث.

- ولماذا وجهي مربوط كله؟

- لأنك تعرضت لجروح ورضوض.

- هل أنا ميتة أم حية؟

- أنت ما زلت على قيد الحياة يا ابنتي.

في لحظة واحدة ظهرت الأحداث التي جرت وكأنها تعرض على شاشة سينمائية. كيف صعدت وكيف قاد قايليل السيارة بسرعة هائلة على الطريق العام، وعلى الجسر بالتحديد أراد أن يتجاوز السيارة التي قبلهم بعد أن رأى شاحنة مقبلة نحوه. فخرجت السيارة عن الطريق وصعدت الرصيف لتصطدم بسياج الجسر. ولم تعد تذكر شيئاً. أجل تذكرت الراهبتين كانتا عند رأسها، ولم تعد تذكر أي شيء آخر. فجأة، أحست بالرعب. أرادت أن تقوم من هول صدمة الوعي، لكنها لم تستطع أن تتحرك. فهتمت الراهبتان حركتها، وسعيها للجلوس، وسمعتها تقول بتمتمة:

- زوجي وقايل؟

نظرت الراهبتان لبعضهما، ومالت عليها الراهبة المسنة، وقالت بحنان أمومي:

- ارتاحي الآن يا ابنتي.

- طفلي؟

ومدت يداً ملفوفة بالجبس على بطنها، بحركة بطيئة. صمتت للحظات، لكن الراهبتين فهمتا من التشنجات التي تعرض لها جسدها الممتد على السرير بأنها أدركت ما جرى لحملها. سمعت الراهبة المسنة تقول لها:

- لا تيأسي يا ابنتي. الله يعطي، والله يأخذ، ومثلما أخذ سيعطيك أيضاً.

كان جسدها يرتجف من الألم والشيخ الصامت، سمعت ضجيجاً مقبلاً، الباب يُفتح وأصوات جلبة. أحسّت أن ثمة أشخاصاً آخرين قد دخلوا. سمعت صوت امرأة خمنت أنها الممرضة تقول لشخص ما:

- لنأخذها الآن إلى الأشعة. لقد أراد البروفيسور أن تؤخذ لها أشعة جديدة.

- هل هناك شيء ما؟

- لا أدري. لكنه طلب بشكل عاجل تصويرها بالأشعة. كما طلب من رئيس قسم النسائية أن يقدم تقريره عنها.

كانت حواء المؤمن غارقة في الظلام. لا يصلها من العالم المحيط بها سوى الأصوات. لا تشعر سوى بالأصوات، بل صار سمعها حاداً جداً، إذ كانت تسمع حوارات المرضى في غرفهم لحظة مرور سريرها المتحرك من أمام غرفهم. وحينما أدخلوها إلى غرفة الأشعة، ووضعوها على السرير الخاص بالأشعة، شعرت أن الممرضتين اللتين جاءتا بها قد خرجتا من الغرفة، بينما لامست كف حنونة كفها اليسرى وأخرى لامست كفها اليمنى، فعرفت بعين أعماقها أنهما الراهبتان.

مرّ وقت لا تعرف هل هو بالساعات أم بالأيام، وقت طويل طويل، وهي في الظلام. تُزرق في جسدها الإبر، وتغط في نوم عميق عميق. المغذي يزرق في جسدها عبر أنابيب وإبر زرقت بها، وألصقت بشريط قوي حول معصمها. تحس أنها تتقل من مكان إلى آخر. تُفحص وتجرى لها مختلف أنواع المعالجات والعمليات، وهي ليست إلا جثة تتنفس! تعود لوعبها بعض الوقت، لكنها تعيش في الظلام. الظلام الدامس، ولا يضيء شيء إلا في ذاكرتها التي تختزن كل ما رأته عيناها، وما يمكن أن تتصوره! لا تعرف شيئاً عن وضعها، ولا أين هي، وليست متأكدة من أي شيء، إلا من شيء واحد هو أن الراهبتين تزورانها دائماً.

صارت لا تعرف الليل من النهار، فهي في ظلام دائم، وبالتالي ذلك اليوم كان بالنسبة لها مجرد لحظة في ليلها الطويل، إلى أن جاءت اللحظة التي قرر الأطباء فيها رفع عصابة الشاش عن وجهها.

كان هناك ربما أربعة أشخاص أو خمسة في غرفتها، هكذا خمنت من تباين نبرات الصوت، بل إنها استطاعت أن تميز نبرة رئيس الأطباء من الأطباء المساعدين والممرضات! أجلسوها برفق على سريرها، وبدأ أحد الأطباء يفتح الربطات عن وجهها، بالرغم من أن أحد ذراعيها ظلت في الجبس. كانت تحس بارتخاء الضغط على وجهها، وبرغبة في حك وجهها، وأخيراً صار معظم وجهها مكشوفاً وبدون أربطة، ثم بدأوا يفكّون الرباط عن عينيها. وشيئاً فشيئاً ارتخى وجهها وجمجمتها من شدة الضغط عليه. وأخيراً تم رفع قطعتي القطن والشاش عن محجري عينيها.

كان وجهها شاحباً بعض الشيء وتقشر في بعض مواضعه، لكنه ما زال يحتفظ بجماله. اقترب رئيس الأطباء منها وقال لها، بلهجة مشجعة، لكنها آمرة: - افتحي عينيك.

كانت تحس بصعوبة أن تفتح عينيها، لكنها بعد أن رمشت لثوان استطاعت أن تفتح عينيها. فتحت عينيها، لكنها لم تكن ترى سوى الظلام! كان الطبيب يحرك

كفه يمينًا ويسارًا ويده قلم فضي، ليتأكد من سلامة بصرها وردود فعلها وتنبه جهازها العصبي، إلا أن عينيها ظلتا جامدتين لا تتحسنان حركة كف الطبيب.

نظر الطبيب إلى بقية الأطباء نظرة شك وحزن وحيرة. لم يستطع أحد منهم أن ينطق بأي شيء في حضورها. هي لم تفهم. هل هي فتحت عينيها ولم تر شيئًا، أم أنها لم تفتح عينيها بعد؟ أخذ الطبيب مصباحًا طبيًا صغيرًا جدًا. أضاءه ووجهه بشكل مباشر إلى عينيها، لكنه بالرغم من ذلك لم يلمح أي ردة فعل تعبر عن تحسس العين بالضوء الساقط عليها بشكل مباشر. قال الطبيب بصوت هادئ، لكنه حذر جدًا:

- أغلقتي عينيك للحظة، ثم افتحيهما عندما أقول لك.

أغلقت هي عينيها، وفتحتهما حينما سمعت صوته يقول لها:

- افتحي عينيك الآن.

فتحت حواء المؤمن عينيها، لكنها شعرت بأنها لا ترى غير الظلام، ربما أن عينيها لا تفتحان، لكنها تعرف أنها فتحتهما على أوسع قدر تستطيعه. لكن ليس هناك سوى الظلام! وفي لحظة، سمعت صوت الطبيب القلق وهو يطلب من بقية الأطباء الاتصال بالدكتور آدمز، جراح العيون، ليأتي إليهم، وليستشيروه في هذه الحالة. سمعت حواء المؤمن جلبة وهم يخرجون، وكانت تميز نبرة القلق عندهم جميعًا.

انتبهت حواء المؤمن إلى أنهم تركوها على حالها دون أن يقولوا لها أي شيء. ارتبكوا بقية الأطباء والمساعدين حينما وجدوا رئيس الأطباء نفسه مرتبكًا!

بعد فترة من الظلام، سمعت هناك من يدخل عليها. كان طبيب وممرضة. اقتربا منها. سمعت الطبيب يقول لها مطمئنًا:

- لا تخافي. هذه الحالة التي أنت فيها هي نتيجة الصدمة. كل الفحوصات لعينيك جيدة، الأشعة لم تبين أي ضرر أو تلف في أي جزء من عينيك، لذا

أرجو ألا تخافي أبداً، إنها حالة نفسية ربما، ستزول بلا شك. أهم شيء هو عدم القلق والاسترخاء. والآن هناك بعض الأمور سأترك الممرضة تشرحها لك. إلى أن يأتي الطبيب الخاص بالنسائية والتوليد.

لا تعرف حواء المؤمن من أين جاءها هذا البرود الكامل حينما سمعت كلام الطبيب وأدركت أن هناك شيئاً ما يخص حالة عينيها وبصرها، ربما من اليأس الكامل الذي تعيشه بعد أن أدركت سقوط الجنين، وبعد أن أدركت أنها قد تعرضت مع زوجها وقايل إلى حادث أثناء السير! أحست أن كل ما جرى لها ليس إلا عقاباً على ما فعلته بزوجها الأول الدكتور آدم التائه. وما جرى لها ليس إلا عقاباً إلهياً عليها أن تتقبله مهما يكن. وأن وجودها الآن لا يعني أي شيء، فقد صارت هذه الحياة بالنسبة لها لا تعني أي شيء! إن شعوراً باللا جدوى واهتزاز القيم يجتاحها بقوة، لذا فهي لم تشعر بالألم من فقدانها البصر سواء بشكل مؤقت أم دائم. إنها الآن تريد أن تعرف ما جرى للجميع وبالتفصيل.

سمعت الطبيب يغادر الغرفة ويغلق الباب. اقتربت الممرضة منها وقالت لها برفق وتضامن أنثوي:

- عليك أن تكوني قوية. أنا أعرف أن ما تمرين به صعب جداً، لكن أهم شيء الآن أن تحتفظي بصحتك وأن تكوني قوية كي تستطيعين العيش بسلام. لم تجب حواء المؤمن بشيء، بل ظلت تسمع فقط، بينما استمرت الممرضة تقول لها:

- يجب أن أقول لك قبل أن يأتي الطبيب المختص بالنسائية والتوليد، والذي قام بتنظيف رحمك، أنك تعرضت لنزيف حاد بعد إسقاط الجنين نتيجة الحادث.

هنا بالتحديد، وعند هذه الجملة نزلت الدموع الصماء من العينين العميائين، وقد لاحظت الممرضة ذلك، فواصلت:

- لا تبكي بل اشكري الرب أنك أسقطته بهذه الطريقة، فقد كنت ربما ستعذبين بعد ولادته. المهم، تعرضت لنزيف بعد الإجهاض، وقد أجريت

لك عملية التنظيف، وأنت الآن على أحسن حال من الناحية التي تخصص الجانب النسوي، لكن عليك استخدام بعض المراهم التي أمر الطبيب بها، لأن لديك بعض الفطريات والالتهابات التي من الضروري معالجتها، وخلال الأسبوع الماضي كنا أنا وزميلتي نتناوب بأنفسنا على القيام بذلك، وأعتقد أنك على وشك التخلص النهائي من هذه الالتهابات والفطريات، وكنا نعتقد أنه آن الأوان، بما أنك الآن في صحة جيدة، أن تقومي بنفسك لوضع المراهم، لكننا فوجئنا قبل قليل بوضع عينيك، والعمى المؤقت نتيجة الصدمة، كما يسمى لدينا، لذا فيجب أن نستمر نحن للقيام بذلك.

وبدون أن تنتظر جوابها، أخذت كفاً من النايلون ولبسته، وطلبت منها أن تستلقي وتفتح ساقها. وبدون أي تعليق أو تأثر، وكأنما تحولت إلى إنسان آلي، استلقت وفتحت ساقها فمدت الممرضة أصابعها التي دهنتها بالمراهم المخصص للالتهابات ومسحت ذلك المكان الذي خفت راحته كثيراً، بل لا يكاد تنبعث أي رائحة تنته منه.

سحبت الممرضة كفها، ونزعت كف النايلون عنها، ورمته في صفيحة للنفايات بالقرب من السرير. وقالت لها:

- نحن ننتظر قدوم الدكتور آدمز جراح العيون الذي يجب أن يفحصك بنفسه، ويشخص حالتك النهائية بعد أن شاهد كل صور الأشعة والتقارير التي أجريت لعينيك والتي كانت تحت إشرافه المباشر.

وبينما الممرضة تتوجه إلى مغادرة الغرفة، سمعت حواء المؤمن تسألها:

- هل لك أن تقولي لي ما الذي جرى للآخرين؟

- أي آخرين تقصدين؟

- أقصد زوجي وصديقه.

- من الأفضل ألا تسأليني، فليس لدي جواب لك. أسألي رئيس الأطباء وهو سيخبرك.

- هل ماتا؟

صمتت الممرضة قليلاً، لكنها انتبهت إلى نبرة صوت حواء المؤمن العادية وغير المنفعلة، فقالت لها:

- أعتقد أنهما ليسا من الأحياء الآن.

وخرجت مسرعة كي لا تتورط في شرح أمور ربما ستحاسب عليها لاحقاً، من حيث إن تفسير رئيس قسم الجراحة هو أن حالة فقدان البصر الذي تمر بها هذه المريضة هو نتيجة صدمة عصبية، إذ أن جهازها البصري لم يتأثر بالحادث أبداً، وبالتالي فإن فقدان البصر هو نتيجة حالة نفسية، وهذا يعني أن الحديث معها عن مصير زوجها وصديقه ربما سيؤثر عليها نفسياً.

خرجت الممرضة. ظلت حواء المؤمن مستلقية على السرير. فكّرت مع نفسها دونما أي انفعال، بهذه السرعة الخاطفة التي جرت بها الأشياء، فكل هذه المعاناة والأحداث، والصراعات، والانفعالات، والتنقلات، والمغامرات، والاحتياالات، كل ذلك انتهى بأقل من ربع الساعة! فما بين صعودهم للسيارة، وتحركهم من منطقتهم، في (هيرمان شتراسه) في نوي كولن، وصعودهم إلى الطريق السريع، وسقوط سيارتهم من فوق الجسر، لم يستغرق أكثر من ربع الساعة. نعم، جرى كل شيء بشكل سريع، كما في الأفلام الهندية أو المسلسلات التركية، بلى، ربما في الحياة ما هو أغرب من الأفلام والمسلسلات التلفزيونية.

“ماذا يعني كل هذا؟” سألت حواء المؤمن نفسها، “لماذا أنا باردة المشاعر هكذا؟ لماذا لا أشعر بأي شيء، لا بالحزن ولا بالرضى، لا بالألم ولا بالأمل، لا بالخسران ولا بالفقدان؟ بل أشعر وكأنني تخلصت من عبء جريمة كان يمكن أن أقترفها. لا أعرف، أحس كأنني تخلصت من مأساة كان يمكن أن تدمر حياتي. هل كل هذا كان مقدراً لي! ربما من الأفضل

أن الأمور جرت هكذا. ماذا لو كانا قد ضغطنا عليّ لإسقاط الجنين المشوه وقبلت؟ ماذا لو كان قد ولد ومات أمام عينيّ؟ لربما كنتُ قد شعرت بالثكل والفقدان والانكسار، بينما ما جرى الآن كان حكمة ربانية خلصتني من الألم الذي كان ينتظرني. بحركة ربانية بسيطة، امحّى كل ما كان نجسًا ومحرّمًا في حياتي! ربما هذه رسالة ربانية لي، لأعني ما اقترفته من دناءة بحق زوجي الدكتور آدم التائه، الذي دمّرت حياته، بحيث لا أدري أين استقر به المقام؟! ربما كان عقابًا ليس لي وحدي، وإنما لآدم اللبناني الذي تزوجني من أجل مصلحته، مدمرًا حياة إنسان بريء؟! هل كان ذلك ذنب آدم اللبناني؟ لا. لا. كان هذا ذنبي أنا، أنا وحدي التي ركضت كالكلبة وراء شهوتها. وربما كان هذا الحادث عقابًا لقابيل؟ على أي حال، عليّ ألاّ أحزن، ولأنتظر ما سيأتي دونما أي أمل بالنجاة، فربما نجوت لأبدأ فترة قضاء العقوبة؟! نعم. نعم. بدأ العقاب! بدأ السير في وادي الظلمات!“ قالت هي لنفسها.

آدم البغدادي: لماذا أنهيت حياة آدم اللبناني وقابيل عشيق حواء المؤمن بهذه السرعة؟ هل لأنخلص من الاستطراء الروائي وأوجه الرواية للتركيز على حواء المؤمن؟ ربما. ولكن لماذا؟ لا أدري، فهذه الشخصية صارت لغزًا بالنسبة لي!

علق آدم المحروم على الهامش قائلاً لنفسه: لماذا يعذب هو نفسه هكذا؟ ليرتك الأمر للآخرين. للقراء، للنقاد، أيريد أن يكون ناقدًا نفسه؟

الهبوط إلى الوداي

مرّ شهر على الحادث. انقلبت حياة حواء المؤمن خلال هذه الفترة. لم يستطع الأطباء إيجاد أي تفسير علمي للحالة التي هي فيها، إذ تم فحصها مرات عدة، واتضح أن أي جزء من جهاز العين لم يتأثر بالحادث، وبالتالي لم يعد لدى أطباء جراحة العين سوى تسجيل الحالة بكامل تفاصيلها باعتبارها حالة غريبة واستثنائية، وتم تحويل سير علاجها لدى الأطباء النفسانيين، الذين رحبوا بمعالجتها كحالة نموذجية في تفسير الصدمات النفسية وتأثيرها على فلسجة الأعصاب! لكنهم وجدوا في الأمر صعوبة لكون حواء المؤمن كانت طبيعية ولم يد عليها أي أعراض نفسية غير طبيعية، ومن ثمّ فإنهم كانوا أيضًا عاجزين عن تقديم العون المباشر لها، لكنهم كانوا يعتقدون بأن عودة بصرها ربما مرتبط بتحول نوعي يشبه الصدمة إذا ما تعرضت له في المستقبل، لكن ما طبيعة الصدمة التي يمكن أن تعيد بصرها إليها، هذا ما كانوا أيضًا عاجزين عن تحديده.

وبما إن وضعها الصحي كان كما يرام، وتمت معالجة التهابها ولم يبق من آثار الحادث سوى فقدانها لبصرها، اضطرت إدارة المستشفى أن تخاطب الجهات الرسمية الأخرى، كالشرطة، وبلدية (نوي كولن) للنظر في وضعها. وبالتالي تم الاتفاق على أن تنقل إلى شقتها في شارع (هيرمان شتراسه)، على أن تكون معها في الأيام الأولى مرافقة لخدمتها وتعويدها الحركة داخل البيت، باعتبارها من ذوي الاحتياجات الخاصة! وفعلاً، قدمت إحدى الباحثات الاجتماعيات إلى المستشفى أول الأمر، وتحدثت مع حواء

المؤمن، لكنها لم تخرج بنتيجة مرضية، كون حواء المؤمن لا تجيد اللغة الألمانية بشكل جيد، لكنها أدركت بأنها لا تستطيع أن تدير شئونها بنفسها، وأنها تحتاج لشخص يرافقها. وهذا ما جرى، إذ تم نقلها إلى شقتها. وكانت طوال اليوم تعيش معها امرأة تم تخصيصها من قبل الباحثة الاجتماعية، كي تدربها على الحركة داخل البيت بحيث تقوم هي بنفسها في ما بعد لإنجاز ما تحتاجه من أشياء بسيطة، إلى أن يتم تخصيص شخص ثابت معها يتم تعيينه من قبل دائرة الشؤون الاجتماعية. وكان على هذه المرأة أن تقدم تقريرها عن وضع حواء النفسي.

حواء المؤمن كانت من الناحية الصحية طبيعية جداً. صموتة لا تتحدث إلا نادراً، لم تكن حزينة، لا على زوجها الذي مات في الحادث، ولا على جنينها الذي أجهضته أيضاً، ولا على فقدانها لبصرها، ولم تكن قلقة على مستقبلها، ولم تشك من شيء، بل إن معنوياتها لم تكن هابطة كما افترضت الباحثة الاجتماعية، إذ كانت تستقبل الحياة باسترخاء واستسلام نادر. بل إنها تمكنت خلال أيام قليلة من أن تقوم وحدها بالحركة السليمة داخل الشقة.

كانت حواء المؤمن ترى الأشياء بعين الذاكرة، فهي تعرف تفاصيل الشقة، وأين تقع الأشياء، وتعرف المسافة بينهما، لذا لم يكن صعباً عليها أن تتحرك إلى المطبخ، لا سيما وأن الباحثة الاجتماعية سهّلت عليها بعض الأمور، فبدل أن تغلي الماء في الدورق على الطباخ الغازي اشترت لها الدورق الكهربائي لغلي الماء، فما عليها إلا أن تضع الماء فيه وتضغط على زر التشغيل حتى يغلي الماء بعد دقائق. وكذا مع المواد التي هي أكثر استخداماً من قبلها مثل الشاي والقهوة، حيث وضعت هذه المواد على الطاولة في المطبخ، لكن هذا ليس كل شيء، إذ كان عليها مراجعة الأطباء، وشراء الحاجات، والتجول قليلاً كرياضة، ومراجعة البنك، أو أي دائرة حكومية عند الحاجة، وبالتالي قامت الدوائر المتخصصة بمساعدة

ذوي الاحتياجات الخاصة بالبحث عن امرأة تجيد العربية والألمانية لتعيينها كمساعدة لها، وتكون مسئولة عن تسهيل أمورها اليومية أمام دائرة المساعدات الاجتماعية. وهذا ما تم، إذ تم تعيين امرأة عراقية مساعدة لها، وتم تبليغ حواء المؤمن من قبل الباحثة الاجتماعية بأن امرأة عراقية مثلها ستكون مساعدة لها في كل شئونها، ويمكن أن تعيش معها إذا لزم الأمر، لا سيما وأن الشقة هي لشخصين، وأنه لا يحق لها قانوناً أن تعيش بشقة كبيرة بالنسبة لشخص واحد مثل هذه، وبالتالي، فما دام هناك غرفة أخرى من غير غرفة نومها، فيإمكان المساعدة لها أن تنام في هذه الشقة أيضاً.

تلك الليلة لم تستطع حواء المؤمن أن تستلقي في فراشها. ظلت جالسة على الصوفا الجلدية في الردهة. لم يكن يربطها بالعالم سوى الأصوات. كانت قد بدأت تفك شيفرة الأصوات، وتعرف مصدرها، وتتعرف على أصحابها. في منتصف الليل كانت تسمع صوت وقع أقدام حذاء نسوي يصعد السلم، ويقرب شيئاً فشيئاً، إلى أن يصل إلى الطابق الثاني الذي تعيش فيه. يتوقف قليلاً، بعدها تسمع قلقله المفاتيح التي تفتح قفل الباب المقابل لشقتها، فتعرف أن هذه هي جارتها التي تسكن في الشقة المقابلة! بل بدأت تحدد الوقت، وذلك من خلال الهدوء الذي يعم شارع هيرمان شتراسه، حيث يخفت الضجيج، وكلما اختفت الأصوات كلما أدركت بأن الوقت صار متأخراً ليلاً.

كانت تنهض صباحاً، وغالباً، على صوت الضجيج الذي يغمر العالم وأصوات السيارات التي تمر في الشارع العام. تنهض بهدوء. تتوجه إلى غرفة الحمام الملحقة بغرفة النوم، تقضي حاجتها، وتغسل وجهها، وتخرج إلى الصالة، تذهب بهدوء إلى المطبخ، تتلمس أدوات المطبخ التي تعرف مكانها جيداً، تغلي الماء في الدورق الكهربائي، تأخذ ملعقة أو اثنتين من

أكياس النسكافيه الجاهزة والممزوجة مع الحليب، تضعهما في الكوب وتصب الماء وتمزجه بالملعقة. فكان إعداد القهوة الجاهزة أسهل عليها. كانت تكتفي بالنسكافيه إلى أن تأتي المساعدة لتعد لها الفطور.

لكن منذ أن أخبرتها المساعدة الاجتماعية بأنهم وجدوا لها مساعدة دائمة تعرف العربية والألمانية وستكون معها طول الوقت بدأت تفكر بالرغم من إرادتها. ظلت حواء المؤمن جالسة في مكانها كأنها تمثال حجري لكنه يتنفس. كانت تعرف أن الوقت قد تأخر جدًا، فلا صوت لأي سيارة يُسمع منذ وقت ليس بالقصير.

كل شيء كان يدور داخل جمجمتها. كانت الأشياء تمر على شاشة الذاكرة كفيلم سينمائي، وكانت تشعر أنها موجودة لكن في اللا مكان، موجودة في الزمن فقط، إذ انتفى المكان بالنسبة لها ما دامت لا تراه بالرغم من أنها موجودة فيه ويحيطها من كل الجهات.

فجأة سمعت أصواتًا تتحدث بهمس، أصواتًا مختلطة، تأتي من جهة الشارع، أصواتًا يتداخل الحوار فيها، أصواتًا تتحدث بلغة ألمانية، وأخرى بلغات لم تستطع أن تتيقن منها، وأصوات نساء. من تراهم هؤلاء؟ ظلت الأصوات تخفت شيئًا فشيئًا، إلى أن هيمن الصمت على اللا مكان مرة أخرى. وعلى غير توقع سمعت صوت إحدى الراهبتين تتحدث، ويبدو أنها تتحدث لهذا الجمع الذي علت جلبة أصواته، ثم خفت، سمعت صوتًا، فميزته مباشرة، إنه صوت الراهبة المسنة:

- اسمعوني جميعًا. سنكون في ضيافتكم، وسنصلي من أجل أن تهدأ أرواحكم المنسية المضطربة.

قال صوت:

- نريد أن نتجول قليلًا في الشوارع الفارغة، نزر أهلكنا النائمين الآن، وسنعود قبل طلوع الفجر.

- ولكنكم سترعون أهاليكم! قالت الراهبة المسنة.
- لن نتحدث معهم. ننظر إليهم فقط. قال صوت.
- إذن. اذهبوا وعودوا فجرًا قبل طلوع الشمس. سمعت صوت الراهبة المسنة.
- جرت ضوضاء، وحركة دفع لحجارة، وطقطة عظام، ثم جاء صوت الراهبة الشابة هذه المرة وهي تخاطب مجموعة ما:
- وأنتم لماذا بقيتم؟
- لقد تهدم بيتنا وبنوا مكانه متجرًا، وانتقلت عائلتي إلى مدينة أخرى. قال صوت ما.
- وأنا ليس لي أحد. انتقلت عائلتي إلى مدينة أخرى بعد رحيلي. قال صوت آخر.
- ونحن ليس لدينا أحد في هذه المدينة. جئنا إلى هنا بالصدفة، أنا ورفيقتي، وبقينا هنا. قال صوت ثالث.
- كانت حواء المؤمن تسمع هذا الكلام بوضوح شديد ولم تفهم شيئًا مما يجري. سألت نفسها عن علاقة الراهبتين بهذه الجموع الغفيرة، من هم؟ وإلى أين هم يذهبون؟
- ظلت حواء المؤمن جالسة على الصوفا دون أيما حركة. كانت مثل الرادار الذي يلتقط الأصوات. ظلت تستمع لرواح ومجيء الأصوات التي كانت تأتيها من النافذة.
- لا تدري حواء المؤمن كيف جاءها النوم، إذ استيقظت على حركة في الصالة وصوت أقدام لأكثر من شخص، بينما كانت هي قد مالت بجذعها الأعلى على الصوفا، أي أنها نامت وهي في جلستها على الصوفا الجلدية، حينما كانت تسمع أصوات الراهبتين والجموع تأتي من النافذة المطلة على الشارع.
- شعرت أن هناك من يتنفس في الصالة. أحست بوجود شخص ما، بعدها بشوان سمعت صوت الباحثة الاجتماعية تتحدث مع شخص آخر لكن

الصوت يأتي من المطبخ. خمنت أن الباحثة الاجتماعية أطلت عليها فرأتها نائمة فانسحبت لتتحدث مع الشخص الآخر في المطبخ، وخمنت حواء المؤمن بأن الآخر ربما المساعدة العراقية الجديدة.

استقامت بجسدها، فانتبهت الباحثة الاجتماعية لها، فأقبلت عليها بالترحاب، وقامت بتقديم المساعدة الجديدة لها، وهي تقول:

- هذه هي السيدة حواء المظلوم. وهي عراقية مثلك، وتحدث لغتك، وستكون من اليوم معك مساعدة في كل شيء.
- أهلاً وسهلاً. قالت بالألمانية.

وسمعت المساعدة الجديدة تقول لها بالعربية وباللهجة العراقية، وهي تأخذ يدها بكف وتصافحها بالكف الأخرى:

- أنا اسمي حواء المظلوم، عراقية، أتكلم باللهجة العراقية كما ترين. وسأكون معك مثل أخت لك، وإن شاء الله سأكون عوناً لك.
- شكرًا.

قالت المساعدة بالألمانية لحواء المؤمن:

- السيدة حواء المظلوم ستكون معك. وهي من اليوم قد باشرت عملها. أنا شخصياً سأترككما. ويمكنكما الاتصال بي في أي وقت، وأنتما تعرفان مكاني. وقبل أن تغادر سألتها حواء المؤمن، بهدوء، ودونما انفعال:
- ماذا فعلتم بالجثث الأخرى؟

تأثرت الباحثة الاجتماعية الألمانية من سؤالها، وقالت لها بطيبة وتعاطف:

- لا تقلقي، لقد تم دفنهم على الطريقة الإسلامية. لا سيما وأن أحدهم كان محترقاً، لقد استدعينا أحد شيوخ المساجد الأتراك، ثم قيل لنا إن هناك جمعية عربية في (زونن آليا) فذهبنا إليهم وجئنا بشيخ عربي قام بمراسيم الدفن، وتم دفنهم في مقبرة الأتراك القريبة من هنا.

ظلت حواء المؤمن صامته. لم تعلق على ما قالته الباحثة الاجتماعية التي انتظرت للحظات كي تسمع رأيها ثم غادرت المكان. نظرت حواء المظلوم إليها في حيرة وسألتها:

- لِمَ بقيت صامته ولم تقولي شيئاً بصدد مراسيم الدفن، وكأن الأمر لا يخصك.

- ليس لدي ما أقول بهذا الشأن، خيرًا فعلوا حينما دفنوهما، على الأقل المقابر هنا أنظف من المقابر في بلداننا. بالمناسبة، من أي مدينة أنت من مدن العراق؟

- لنجلس أولاً، وسأحكي لك كل شيء عني. هل تريدان أن أعد لك الفطور؟
- سأعد الفطور معك. أنا أضع الماء في إبريق الكهربائي وعليك الباقي. ياه. كان حملاً ثقيلاً انزاح عني. وأخيراً أستطيع أن أتكلم بالعربية.

ومضتا إلى المطبخ. كانت حواء المؤمن تعرف أين مكان الإبريق الكهربائي، فأخذته مباشرة وملأته بالماء ووضعه على قاعدته وضغطت على الزر، بينما قامت حواء المظلوم بفتح الثلاجة وإخراج ما فيها من جبن ومربى، وعلبة الشكولاته التي كان آدم اللبناني يحبها كثيراً.

شربتا الشاي، وفطرت حواء المظلوم معها للمجاملة، بينما اكتفت حواء المؤمن بقطعة صغيرة من الجبن لفتها بقطعة صغيرة من الخبز. كانت حواء المؤمن مرتبكة، فهي غير متعودة أن تأكل بينما ثمة من ينظر إليها، لذلك ألحت على حواء المظلوم أن تأكل معها، فكانت تلتقم أشياء صغيرة جداً، كي ترضي حواء المؤمن، لكنها شربت معها الشاي لمرات عدة. كانت حواء المؤمن مرتبكة، ولكي تزيل عنها الارتباك، بدأت حواء المظلوم تتحدث عن نفسها بنبرة سلسلة ومرحة.

كانت حواء المؤمن تستمع إلى حواء المظلوم بهدوء، وتنتبه إلى منعطفات النبر في صوتها، لذا حلت مع نفسها كل ما صدر عنها خلال لحظات سريعة، وفكرت: "لقد بدأت بنبرة مرحة، لكن صوتها تلون في ما

بعد بالألم و المرارة حينما أخذت تتحدث عن زوجها، وكذلك كان الألم والفرح يمتزجان معًا حينما تحدثت عن ابنها. وكان صوتها صادقًا وحنونًا حينما سألتني عن وضعي، وعن استعدادها أن تكون لي كالأخت. يبدو أنها إنسانة طيبة. لكن ماذا أحدثها عن نفسي؟ هل أحدثها عن كل شيء أم عن الذي حصل لي هنا في برلين؟ ولكن ماذا لو سألتني عن أصلي وفصلي في العراق؟ لا، هي كما يبدو ليست خبيثة. حتى لو حدثها عن كل شيء فستفهم ذلك، لأنها نفسها قد مرت بطريق صعب جدًا، جدًا. على أي حال، لدينا الوقت الكافي للحديث“.

فجأة تذكرت ما سمعته فجراً من أحاديث جاءت من الشارع عبر نافذة الردهة المطلة عليه، فسألت:

- هل يمكنك أن تطلّي من النافذة لتنظري إلى الشارع وتصفني لي الجهة المقابلة منه؟ فأنا لم أتمكن من التعرف إلى المنطقة، فلم أخرج من البيت إلا للطبيب أو إلى المطعم، ويوم الحادث. ولم أتمكن فعلاً أن أعرف ماذا يوجد مقابل الشقة على الجهة الأخرى.

استغربت حواء المظلوم طلبها، وانتقالها المفاجئ لموضوع ليس له علاقة بحديثهما. قامت ونظرت وهي تقول:

- لا يوجد شيء محدد. ماذا تريد أن أصف لك؟
- كل شيء. ماذا يوجد في المقابل، بيوت، محلات، مطعم، فندق، ماذا يوجد؟
- لا شيء. ثمة مقبرة كبيرة تمتد لأكثر من مئة متر عرضاً.
- مقبرة؟

- نعم مقبرة، وكذلك ثمة أشجار كثيفة تكاد تغطي السياج فلا نرى كل القبور. كما توجد ما يشبه الغرفة ذات قبة ما، ربما هي مكان للصلاة أو لغسل الميت أو شيء من هذا القبيل.

- هل بوابة المقبرة أمامنا؟

- نعم. هي في الوسط، نقابلها تقريبًا، لكن لماذا تسألين؟
- ظلت حواء المؤمن صامته. عادت حواء المظلوم فجلست بالقرب منها. نظرت إليها. استغربت أنها عمياء، إذ لا يبدو على حواء المؤمن أي ملمح إلى أنها فاقدة للبصر، ملامحها الجميلة والمثيرة، وأنوثتها الطاغية، وعيناها اللتان ترمشان بشكل طبيعي، ونظراتها التلقائية، وليست الجامدة كما العميان الآخرين، بحيث من الصعب على الذي لا يعرف أنها عمياء أن يظنها كذلك! أرادت حواء المظلوم أن تعرف الغاية من سؤالها عمّا يوجد على الجهة المقابلة للمبنى، فسألته بشكل عفوي:
- لماذا أردت أن تعرفي ماذا يوجد على الجهة المقابلة، هل حدث شيء ما؟
- صمتت حواء المؤمن للحظات، ثم قالت:
- لا أدري إذا ما قلت لك ماذا رأيت أو أرى، هل تصدقيني أو لا؟ زوجي لم يكن يصدقني، بالرغم من أنني قدمت له الدليل على صحة ما أرى لكن الآن لم أعد أرى طبعًا، الآن أسمع فقط، وليلة البارحة، أو الأصح فجر هذا اليوم سمعت أشياء غريبة.
- قولي، سأصدقك.
- صمتت حواء المؤمن، نظرت ناحية حواء المظلوم، وكانت تبدو للناظر إليها وكأنها تراها، بل هذا الإحساس راود الأخرى في تلك اللحظة، لكن حواء المؤمن كانت تنظر في اللا مكان، ليس أمامها سوى شريط ذكرياتها التي تضيء في ذاكرتها، قالت:
- منذ أن كنت في مدينتي الأولى في غرب ألمانيا، مررت بحالة عصيبة فأقدمت على الانتحار.
- ماذا؟
- نعم، حاولت الانتحار في حالة يأس. عندما نقلوني إلى المستشفى، رأيت زوجي الدكتور آدم التائه مسجى في إحدى غرف العناية المركزة.

استغربت حواء المظلوم ما سمعت فسألت بدهشة:

- هل زوجك دكتور؟

ابتسمت حواء المؤمن بحزن، وقالت:

- ليس هذا الذي مات في الحادث، وإنما زوجي الأول، العراقي.

فازدادت دهشة حواء المظلوم، وسألت:

- أكان لديك زوج آخر، وعراقي؟

ابتسمت حواء المؤمن بحزن، وقالت بنبرة ودودة:

- إذا كنتِ ستسأليني على كل كلمة فلن أستطيع أن أتحدث.

- لا. لا. أكملني.

- في المستشفى رأيت راهبتين ألمانيتين، واحدة شابة وأخرى كبيرة في العمر.

وكنت، حينما أراهما تأتيني قدرة عجيبة على التحدث والتفاهم معهما بالألمانية.

وكانتا تحنوان عليّ جدًّا، لكنني حينما زارني زوجي الثاني آدم اللبناني.

قاطعتها حواء المظلوم لا إرادياً سائلة:

- زوجك الثاني آدم اللبناني؟ أكنت متزوجة الاثنين في وقت واحد؟

- كيف أشرح لك؟ كنت متزوجة من الأول لكنني كنت على علاقة مع

الثاني، وحينما رأني زوجي الأول معه طلقني، فانتحرت. المهم، لا تسأليني

كثيراً، دعيني أروي لك الحكاية. في اليوم الثاني أخبرت آدم اللبناني، الذي

صار زوجي لاحقاً، فاستفسر من الإدارة التي قالت له بأنه لا توجد راهبات

في المستشفى وليس فيها قسم للعناية المركزة. بعد ذلك، انتقلت إلى مدينة

أخرى، فرأيتهما في المحطة. وكذلك حينما انتقلت إلى برلين رأيتهما،

لكنهما جاءتا إلي هنا، في هذه الشقة.

- يا ربي. قالت حواء المظلوم خائفة.

- كنت حينها حاملاً، ولم أكن أعرف ماذا كان ينتظرنني، ففي اليوم الذي

ذهبت فيه إلى الطيبية النسائية، لم أعرف ماذا كانت قد أخبرت زوجي، وإنما

أرسلتنا إلى مستشفى تحليلي آخر. المهم، جاءت الراهبتان إلي هنا في هذه الشقة، وجلستا حيث نجلس نحن الآن، وقالتا لي بأني حامل بطفل مشوه، وسيطلبون مني أن أسقطه عن طريق الطلق الاصطناعي. وحينما فاتحت زوجي بما سمعته منهن، اعترف لي ولجارنا قابيل، صديقه، بأن الطيبة فعلاً قالت له الأشياء نفسها، وكذلك المختبر أكد ذلك، وحينما سألتني عن مصدر معرفتي بكل هذه التفاصيل قلت له، من الراهبتين، فلم يصدقني. لم يصدقني أحد. وحينما انقلبت سيارتنا ووقعنا من فوق الجسر، رأيتهما فوق رأسي وأنا جريحة، وحينما أجهضت وسقط الجنين، كانتا معي في غرفة المستشفى. وهما أخبرتاني بكل التفاصيل عن موت زوجي وصديقه. وليلة البارحة، سمعت ضجة أصوات تأتي من الجهة المقابلة، وسمعتهما يتحدثان إلى آخرين، كانت الأصوات تأتي من الجهة المقابلة.

- بدأت أخاف منك. قالت حواء المظلوم بنبرة صادقة.

- أتخافين مني؟

- لا أقصدك أنت، إنما أخاف من الذين يتحدثين عنهم؟ كيف ترين أرواحًا ولا تخافين؟

- لو رأيتهما لما خفت منهما أبدًا، فأحدهما رائعة الجمال اسمها إيفا بيرغمان، والأخرى، الأكبر سنًا، كأنها أم، اسمها إيفا مارتا، وهي تتحدث بكل محبة وأمان وحنان. كنت أخاف أول الأمر، لكنني صرت على العكس أحسهما وكأنهما حارستاي الأميستان.

نظرت حواء المظلوم إليها بخوف وسألتها:

- هل يزورانك في البيت؟

- لا. لقد قامتا بذلك مرة واحدة، حينما كنت حاملًا. وقد جاءتا لهذا السبب، كما قالتا لي. لكني الآن لست حاملًا، لذا فإنهما ذهبتا عني. ليتهما تعيشان معي هنا.

- بدأت أخاف منك أختي حواء، الذي تقولينه يشعرني بالخوف، ومن التواجد معك في هذه الشقة، أخاف أن أعيش بين الأرواح والأشباح.
- صمتت حواء المؤمن للحظات، ثم قالت لها وكأنها تتحدث مع نفسها:
- الحياة نفسها مليئة بالأشباح، بل والأسوأ من الأشباح! إنها مخيفة. نعم، الحياة مخيفة. هناك بشر يخيفون أكثر بكثير من الأشباح والأرواح. أنا الآن أعيش في عالمي الخاص. لقد قطعت كل رابطة لي بالحياة. أديرين يا حواء، لقد كنت أحلم طوال حياتي بأن يكون لي طفل. ولا أدري لماذا كُتِب علي بأن أتزوج من رجل رائع، مثقف، مهذب، لكنه لا يستطيع أن يكون أباً. وحينما انزلت، ولهت وراء شهوتي، وأقمت علاقة مع جارنا آدم اللبناني، حملت منه، ولأني لم أشأ أن يكون لي ابن زنا، قررت أن أنفصل عن زوجي الدكتور آدم التائه.
- وماذا جرى بعد ذلك؟ سألت حواء المظلوم بفضول.
- خييتي كانت كبيرة، لقد دمرت حياتي بنفسي، ركضت لاهثة وراء متعتي، فدمرت حياة رجل لم يسيء إلي قط، ولا أعرف ما جرى له. سمعت أنه أصيب بجلطة قلبية، لكنه نجا منها. المهم، ما الذي جنيته؟ مشكلتي أنني كنت ضعيفة أمام شهوتي. لم أكن أشع من الجنس. ومع أنني أصلي، ومتحجبة، إلا أنني أنهار حينما يمسنني رجل من أي منطقة حساسة في جسدي. لكن عقوبة الحياة كانت قوية، فحملت بطفل مشوه، طفل مسخ.
- صحيح أنني لم أره، لكن الراهبتين قالتا لي ذلك. ثم في المستشفى بعد الحادث وإجهاضي للجنين، أخبروني بأنه كان مشوهاً. أنا اعتبرها عقوبة من السماء! حتى هذا العماء الذي جرى لي الآن، هو عقوبة من السماء.
- عيناى لم تتضررا أبداً، وكل جهازى البصرى سليم، لكنى بالرغم من ذلك لا أستطيع الرؤية؟! حارَ الأطباء فى حل هذا اللغز، لكنى شخصياً أعرف الجواب: إنها عقوبة إلهية! فما معنى حياتى الآن؟ شخصياً لست سعيدة، لكنى أيضاً لست تعيسة. لقد عشت حياتى كلها شبه صامتة، أحياناً كانت

تمر أيام لا أتحدث فيها أي كلمة. كنت أقوم بكل أعمالى المنزلية صامتة. أحياناً أسأل نفسي: هل سكنتنى الشياطين؟ ولا أجد الجواب. الشهوة أعمت بصيرتى. جسدى يسخن وكأننى مصابة بالحمى. فما إن يمسنى الرجل، أى رجل، حتى ينفجر جسدى كالبركان.

- لكنك كنت متزوجة، فلماذا دخلت فى علاقة غرامية أخرى، ألم يكن زوجك يرضيك؟ سألت حواء المظلوم بتردد.

- لا، كان والحق يُقال، رجلاً محترماً، ووسيمًا، ولديه خبرة فى الجنس والمعاشرة، ولم يكن ضعيفاً أبداً، بل كان يمتعني جداً. ثم هل تعتقدين أن النساء اللاتي يبحثن عن الشهوة فى الخارج هن متعطشات للجنس فقط؟ الأمر ليس دائماً هكذا أبداً. أحياناً يبدأ من رغبة فى التغير لا أكثر، لكنه يتحول إلى عادة، بل أحياناً المشكلة تكمن فى طبيعة الجسد. أنا شخصياً، فى أى مكان أو زمان، إذا مسنى رجل فى مواضع محددة من جسدى فأنى أشتعلى، وتتأجج شهوتي. الأمر ليس بيدي أو بإرادتي. هل تعتقدين أنى كنت موافقة على علاقتى بجارنا اللبنانى؟

- إذا لم تكونى موافقة على علاقتك به، فكيف صرت زوجته؟ سألت حواء المظلوم بنبرة فيها فضول واضح.

- بدأ الأمر كنزوة، عندما رأيته تذكرت أول حبيب لى عندما كنت مراهقة، لكن ليس هذا هو السبب وحده، وإنما جرأته أعجبتنى أيضاً. فذات مرة سحبني من يدي إلى شقته التي كانت مقابل شقتنا، وحصرني عند الباب، ومد يده إلى منطقة الشهوة فى جسدى فشعرت بالانهيار. لكنه بدأ بالاغتصاب، بيد أنى كنت أتمنى فى أعماقى أن يغتصبني لأننى لا أستطيع أن أمنحه نفسى طائعة. وهذا ما حدث. بعد المرة الأولى شعرت بالغضب منه ومن نفسى، لكنى كنت مستمتعة بالفعل. وقررت مع نفسى ألا ألتقي به، لكنى فى نفس الوقت كنت أحوم حوله. وتكرر الأمر. وصرت ما إن يمد يده على جسدى

حتى أغفر له كل شيء، وأتناسى كل ما وضعته لنفسى من موانع. لذا كنت أهرب منه إليه. إلى أن حملت منه. وفاجأنا زوجي في وضع مخزٍ. فألقى عليّ يمين الطلاق، وهكذا حينما طلقني زوجي، هربت إليه، وقد تزوجني هو من أجل الحصول على الإقامة، وقد حصل عليها، لكن كم ساذج هو الإنسان، يضع لنفسه الخطط الطويلة، ويرسم لوحات ولوحات للمستقبل، ولكن خلال دقائق ينتهي كل شيء. كل شيء. وها أنا الآن أنظر في المرأة فلا أرى نفسى. وهو صار تحت التراب!

أحست حواء المظلوم بالتعاطف الإنساني والأنثوي معها، لا سيما في بعض لحظات وصفها لحالتها، أحست وكأنها تتحدث عنها أيضًا. لا سيما في الحديث عن زواجها هي. أحست بمرارة الخيبة مثلها، والشعور العميق، الداخلي، غير المعترف به، بالهزيمة والانسحاق والتفاهة، والمكابرة على مواصلة الحياة، لكن ساورها بعض الشك في وضعها النفسى، وأخذت الأسئلة تنهمر في داخلها: «ما معنى هذا الحديث عن الراهبتين، ورؤيتهما لهما، وزيارتها لهما. وهذا الحديث عن الموتى الذين نهضوا من المقبرة المقابلة. هل هي مجنونة؟ لا يبدو عليها ذلك. هل ستخبر الباحثة الاجتماعية عن هذا الأمر؟ لا. لماذا تخبرها، فهذا الأمر يخص حواء المؤمن وحدها، وربما هو وليد العمى الذي هي فيه لكنها قالت إن ذلك حدث لها سابقًا أيضًا، قبل أن تصاب بفقدان البصر؛ ربما هذا هو شيء من العزاء بالنسبة لها، لكنني أخاف الأرواح، هل سأواصل معها أم أرفض؟ لأنتظر بعض الوقت وأقرر بعدها».

كانت حواء المؤمن صامتة، وكأنها تعرف أن حواء المظلوم تتحدث مع نفسها، وأنها خائفة من حديثها عن الراهبتين. وسألت نفسها إن كانت قد فعلت الصواب حينما حدثتها عن الراهبتين؟ وربما لم تصدقها، وربما اعتبرتها مجنونة، أو مريضة نفسيًا تصنع لنفسها عالمًا خاصًا بها، عالمًا وهميًا، وتفرضه على واقعها باعتباره حقيقة واقعة، بل وربما نظرت إليها

باعتبارها امرأة سيئة خانت زوجها وكانت تلهث وراء شهوتها لكن هذه هي الحقيقة، وربما هي عاشت مثلها أيضًا لكنها لم تكشف عن ذلك بعد! كانت حواء المؤمن تحاور نفسها أيضًا. وهكذا كلتاهما قررت أن تنظر إلى الأخرى لترى ما ستكشف عنه الأيام القادمة.

فجأة سمعتا رنين جرس الباب. نهضت حواء المظلوم واتجهت لتفتح الباب. ظلت حواء المؤمن جالسة. سمعت صوتًا نسويًا يلقي التحية بالألمانية:

- نهارك سعيد.

- نهارك سعيد.

- أنا إيفا أومسك. جارتك التي تعيش في الشقة المقابلة.

- أهلاً وسهلاً، لكنني لست صاحبة الشقة، إنها في الداخل تفضلي.

- عفواً. أنا لم ألتق جارتني من قبل، لذا ظننتك أنت، عفواً.

أحست حواء المؤمن بحضور جارتها من خلال وقع الأقدام، ومن خلال تنفسها، فهي تسمع أنفاس الآخرين أيضًا حتى وإن لم يتكلموا أو يأتوا بحركة، كما شمّت عطرها الطيب. فوجئت إيفا أومسك بالحضور الأنثوي الجميل لحواء المؤمن. تقدمت منها ومدت يدها مصافحة، فلاحظت أن حواء المؤمن لم تستجب مباشرة، ونظرت إلى حواء المظلوم التي أشارت بإصبعها إلى عينيها دلالة على أنها عمياء، فارتسم الحزن على وجه إيفا أومسك مباشرة، وانحنى لتأخذ يدها بنفسها مباشرة، وهي تقدم نفسها:

- نهارك سعيد. أنا جارتك إيفا أومسك، من روسيا.

ابتسمت حواء المؤمن ابتسامة حزينة لكنها طيبة ومليئة بالصدقة، وقالت:

- وأنا حواء المؤمن. أهلاً وسهلاً، أنا أسمعك وأنت تصعدين ليلاً، حتى صرت أعرفك من وقع خطواتك. أهلاً وسهلاً بك. أعذرني على وضعي فأنت تشاهدين ذلك بنفسك.

أحست إيفا أومسك بدفق من الحنان والمودة تجاهها مباشرة، وانحنى عليها لتقبل رأسها وتقول:

- لا عليك. أنت تبصرين بعين قلبك. وهذا أفضل بكثير من الذين يرون بعيونهم لكن قلوبهم عمياء. أنا سعيدة بالتعرف عليك، واعتبريني صديقة لك إذا تكرمت بذلك، وشقتي مقابلة لشقتك. وأنا كما تعرفين أرجع في وقت متأخر، لذا فلا تتحرجي من الدق على بابي في أي لحظة تشائين.

شعرت حواء المؤمن بسعادة حينما غمرتها هذه المرأة وقبلها حواء المظلوم بهذا الدق من الحنان والمودة، فقالت وعلى شفيتها ابتسامة رقيقة:

- أنا لن أكرم بمنح الصداقة الحقيقة للآخرين، وإنما الصداقة هي تكريم إلهي، نادر. إنها نعمة إلهية، هبة من السماء، يكرمنا الله بها، بإرسال صديق لنا. تشرفني صداقتك. أهلاً وسهلاً.

كانت حواء المظلوم تنظر لهذا المشهد، لكنها كانت في ذهول من تجاوب حواء المؤمن وكلامها، كانت كمن يكتشف ما وراء الستارة. أحست أن في شخصية حواء المؤمن شيئاً من الهيبة، لكنها أيضاً أحست بشيء من الغيرة الخفية للحفاوة التي منحتها حواء المؤمن لجارتها. نظرت إيفا أومسك إلى حواء المظلوم وسألت:

- وأنت؟ هل أنت قريبتها؟

- أنا مساعدتها.

- أهلاً وسهلاً.

- أنا جئت لأطلب شيئاً من الملح. فقد نفذ ما عندي، وقد سلقت البيض، لكنني أفتقد الملح، وليس لدي الرغبة في أن أنزل إلى المحل، فقلت أسألكم شيئاً من الملح.

- غالي والطلب رخيص (قالتها لإيفا أومسك باللهجة العراقية وهما تتجهان إلى المطبخ).

- ما هذا؟ وبأي لغة؟

- هذا بالعربية، ومعناها أنت غالية جداً علينا وما تطلبي منه رخيص أمامك.

- شكرًا. شكرًا. لدينا بالروسية أمثال مشابهة.
- أعطتها حواء المظلوم شيئًا من الملح في ورقة صغيرة من المناشف الورقية. عادت إلى الصالة. التفتت إيفا أو مسك إلى حواء المؤمن وهي تودعها بركة:
- تشرفت بمعرفتك. واعتبرني صديقة لك. وأرجوك أن تلغي الرسميات بيننا.
- أهلاً وسهلاً بك. لكن كما ترين أنا لا أستطيع التحرك بحرية. يمكنك المجيء في أي وقت، فأنا أسهر الليل كله تقريبًا.
- ألا يضايك ذلك؟ أقصد أن أزورك ليلاً.
- أبدًا. سيكون ذلك رائعًا.
- اتفقنا. نهاركما سعيد.
- نهارك سعيد.
- خرجت الجارة الروسية. بقيتا وحدهما. أحست حواء المؤمن برغبة في معرفة جارتها أكثر فسألت حواء المظلوم:
- كيف هو شكل جارتنا هذه، هل يمكنك أن تصفها لي؟
- إنها جميلة، شقراء، طويلة القامة، نحيلة، لكن بجسم متناسق. تبدو حزينة بالرغم من أنها تسعى ألا تبدو كذلك. التعب واضح على ملامحها. فيها بعض ملامح مريم العذراء في الصور المنتشرة عنها. لا أعرف ماذا أصف لك أيضًا؟ ترتدي ملابس فيها شيء غير محتشم.
- ماذا تقصدين؟
- أقصد أنها كانت ببجامتها الضيقة التي تبرز تفاصيل جسمها من الأسفل، وترتدي بلوزة مفتوحة الأزرار تكشف عن مرتفعات نهديها.
- وماذا في ذلك؟ إنها في بيتها، عساها تمشي عارية.
- هذا صحيح، لكن ماذا لو كان يعيش رجل هنا بدلاً عنك؟ أليس هذا اللبس مثيرًا ومغريًا ويعطي تفسيرات عديدة حينها؟

- ربما. على أي حال، يبدو أنها إنسانة طيبة.
- نعم. يبدو أنها طيبة. بالمناسبة، هل تحتاجين لشيء ما أستطيع أن أشتريه لك؟
- لا أدري. انظري بنفسك في المطبخ وحددي الأشياء التي نحتاجها. جبن، زيت، بيض، زيتون، سكر، مربى، شاي، خبز، حليب، أوراق الكليمنكس، أوراق للحمام، مواد لغسيل الصحون. لا أعرف أي شيء تقررينه أنت.
- طيب. سأشتري هذه الأشياء، وبعدها نتحاسب، سأرى بنفسى ما تحتاجينه وأنزل لشرائه من المحل في الأسفل.
- طيب.
- توجهت حواء المظلوم إلى المطبخ. سمعت حواء المؤمن صوت الثلاثة وهي تُفتح. خمنت أن حواء المظلوم تفتش في المطبخ عما تحتاجه هي. وبعد لحظات، سمعتها تقول لها:
- سأرجع بعد قليل.
- الباب يفتح ثم يغلق، فأدركت أن حواء المظلوم قد خرجت.

آدم البغدادي: لماذا أضفي على حواء المؤمن هذه الهالة من الرقة والهيبة، بينما أنا أنوي أن أقودها إلى أعماق المتاهة؟ أقودها إلى القاع الذي لا فكاك منه إلا بالخروج من هذه الحياة؟ هل ستمرد على مخططي الروائي أيضًا؟ ثم أنني أريد لمساعدتها حواء المظلوم أن تتحدث عن حياتها وزواجها. ومجيئها إلى ألمانيا، أريدها أن تتحدث عن متاهتها أيضًا! كلنا ندور في المتاهة، ربما نلتقي في بعض منعطفاتها، لكننا نمشي كل في دربه ومتاهته.

انتبه آدم المحروم لتعليق آدم البغدادي، لكنه ما إن قرأ عنوان الفصل الجديد "اعتراقات إيفا أو مسك" حتى باشر في مواصلة القراءة.

اعترافات إيفا أومسك

حينما غادرت حواء المظلوم مساءً أحست حواء المؤمن بالوحشة لأول مرة، ولأول مرة شعرت بنفسها تشناق للحديث مع الآخرين. تمتّ لو أن جارتها الروسية إيفا أومسك كانت معها، إذ أحست بها قريبة منها. صحيح أنها شعرت بالراحة لحواء المظلوم أيضًا، لكنها حواء المظلوم لديها ما يكفي من الأحزان والآلام التي مرت بها، وبالتالي لن تدهشها وتثير شفقتها وتعاطفها كثيرًا، لكن هل يا تُرى هي تحتاج للتعاطف من قبل الآخرين؟ صحيح أنها ظاهريًا لا تريد ذلك لكنها في أعماقها تحتاج إلى التعاطف، ليس الشفقة وإنما التعاطف الذي ينبع من مشاعر الرحمة والطيبة، لأن في الشفقة شيئًا من الاستضعاف لها، وهي لا تريد أن يُنظر لها كضعيفة.

هي لم تجرب التخاطر الروحي والفكري، لكنها استغربت من نفسها جدًّا، ففي اللحظات التي كانت هي فيها تفكر بجارتها الروسية إيفا أومسك، سمعت رنين جرس الباب. ظنت مع نفسها أنها حواء المظلوم، ربما جاءت لتقول شيئًا أو ربما نسيت شيئًا، أو اشترت شيئًا رآته في طريقها وجاءت به قبل أن تذهب إلى بيتها، لكنها فُكّرت أيضًا، بأن حواء المظلوم لديها نسخة من المفتاح، وبالتالي يمكنها أن تدخل دون أن تضغط على جرس الباب. نهضت وأخذت العصا الرفيعة التي أعطتها إياها الباحثة الاجتماعية متجهة إلى الباب الخارجية. وقفت قرب الباب من الداخل وسألت بصوت خافت:

- مَنْ هناك؟

- أنا إيفا، إيفا أومسك، جارتك.

فتحت حواء المؤمن الباب بسرعة ولهفة، ولم تحس إلا والأخرى تحتضنها وتقبلها، وهما تدخلان. أرادت إيفا أن تمسك حواء المؤمن من يدها لتساعددها على إيجاد طريقها، فقالت لها حواء مبتسمة:

- في البيت أعرف طريقي جيدًا. شكرًا. لقد كنت أفكر فيك قبل لحظات. قالت ذلك وهما تتجهان إلى الصالة. جلست حواء المؤمن على الصوفا وقبلتها جلست إيفا أومسك. كانتا تواصلان الحديث وهما تجلسان:

- أنا أيضًا كنتُ أفكر فيكِ وقلتُ لنفسي، ما دمْتُ لا أخرج الليلة إلى العمل، فلأزر جارتِي الجميلة!

- شكرًا. وماذا تعملين، لو لم يكن في ذلك حرج لك؟ صمتت إيفا أومسك قليلًا. نظرت إلى حواء المؤمن وهي لا تستطيع أن تصدق لحد الآن أنها عمياء، بالرغم من أنها متأكدة، في الوقت نفسه، من ذلك. قالت إيفا أومسك بنبرة فيها ارتباك وحرج:

- شغل متعب، لكنه على أي حال شغل. أعيش منه.

- ولماذا هو في الليل دائمًا؟

- ومن أين عرفت أنه في الليل دائمًا؟

- لقد قلت لك إنني أسمع وقع خطواتك على السلم كل ليلة، ثم أسمعك حينما تفتحين الباب.

- صحيح. صحيح.

- إذا كان في ذلك حرج. يمكنك ألا تقولي أي شيء. المهم أنا سعيدة بوجودك معي. أتصدقين، أحسست وكأنني أعرفك منذ زمن بعيد؟!

- وأنا أيضًا. لقد فكرت فيكِ، هل يحررك لو سألت كيف صرت هكذا؟ أقصد لا تستطيعين البصر. هل ولدت هكذا؟

- لا. لقد كنت طبيعية مثل بقية الناس، لكنني فقدت البصر نتيجة حادث سيارة. يقول الأطباء إنها نتيجة الصدمة.

- هل كان هذا منذ زمان؟
- لا. قبل شهرين أو أكثر بقليل.
- يعني أنك كنت تبصرين؟ سألت إيفا أومسك بدهشة.
- نعم.
- وحينما انتقلتِ إلى هنا كنت تبصرين؟
- نعم.
- وهل رأيته قبل الحادث؟ سألت بفضول طفولي.
- لا. مع الأسف. كنت أسمعك وأنت تصعدين، لكنني لم أفتح الباب أو أنظر من خلال العين الساحرة في الباب إليك.
- خسارة.
- لماذا؟ سألت حواء المؤمن مستغربة.
- لكنني على الأقل تعرفيني. ألا ترين الأشياء بذاكرتك؟
- نعم أرى كل شيء عرفته خلال حياتي، وأستطيع تخيل الأشياء التي رأيته، لكنني طبعًا لا أستطيع تخيل الوجه التي لم أرها. لكنني سألت حواء المظلوم عنك، فوصفتك لي، وقالت إنك جميلة جدًا؟ طويلة، وشقراء، وناحلة نوعًا ما، لكن جسمك متناسق جدًا وجميل. وتشبهين مريم العذراء أم المسيح.
- أوه. شكرًا لكما. قالت إيفا أومسك بخجل.
- لكن قالت أيضًا إنك تبدين متعبة وحزينة. هل هذا صحيح؟
- هل قالت ذلك أيضًا؟
- نعم.
- صمتت إيفا أومسك للحظات، ثم قالت بنبرة حزينة:

- حياتي يا صديقتي حزينة جداً. الحزن يطوقني من كل الجهات. ماضي حزين، وحاضري حزين، ولا أشك أبداً من أن مستقبلي سيكون حزيناً أيضاً.
- الحزن أحياناً يصيرنا بشراً، إنه يهذب الروح.

- لكن لا بد لقليل من الفرح في هذه الحياة. من الصعب أن تنظر إلى كل الجهات ولا ترى غير الغيوم المدلهمة السواد، تحيط بك، وتندرك بالمصير المظلم المرعب. أحياناً، حينما أرجع آخر الليل إلى شقتي تعباً ومليئة بالقرف والاشمئزاز، أجلس وحدي، في سريري، أحس وكأنني في لجة دوامة مياه سوداء عميقة، وفي ليل شديد السواد، وعمة مليئة بالغموض والأسرار، فأشعر بالرعب، برعب حقيقي، وأحياناً أهرب من الشقة وأجري في الشوارع، إلى أن يبدأ الناس بالحركة في الشوارع.

أحسّت حواء المؤمن للحظات بالرعب أيضاً، فكأن إيفا أو مسك كشفت عن طبقات خفية من مشاعرها هي، بل وأجبرتها على أن تنظر إلى أعماق نفسها. ولكي تقطع على نفسها مواصلة التفكير في نفسها، سألتها بهدوء وحزن:

- يبدو أنكِ عانيت كثيراً؟

- عانيتُ وأعاني، وسأعاني كما يبدو.

- كيف؟ سألت حواء المؤمن بنبرة مليئة بالخوف والتعاطف.

- إنها قصة طويلة. سأرويها لك لو شئت، لكنها قصة حزينة ومؤلمة، ومقززة. لكن هل أنت مستعدة لكي تضيفي لأحزانك أحزاناً جديدة؟

- يقال إن المرء حينما يستمع لأحزان الآخرين ينسى أحزانه، أو لنقل إنه يجد فيها بعض المواساة. قالت حواء المؤمن بحزن.

- ربما.

- إذا لم ترغبي في الحديث فلا تجبري نفسك على ذلك.

- لا. لا بد أن تعرفيني جيداً إذا أردت أن تكوني صديقتي.

- بدون أن أعرف شيئاً أنت صديقتي.
- نعم. لكن ربما إذا سمعت قصتي فلربما ستفرضين أن تكوني صديقة لواحدة مثلي. وربما ستفرضين استقبالي في بيتك!
- ماذا تقولين؟ قالت حواء المؤمن بخوف.
- نعم. اسمعي إذن. أنا. أنا. أنا التي أمامك، جارتك إيفا أومسك، التي تقولين عنها إنها صديقتك، هذه التي تعتبرينها صديقتك هي: مومس.
- ماذا؟ أنا لا أعرف معنى هذه الكلمة جيداً.
- أنا مومس، يعني أنا أعمل عاهرة في محل للعروض الجنسية والبغاء. أعطي جسدي مقابل المال.
- كانت إيفا أومسك تنظر في وجه حواء باحثة عن أي رد فعل يمكن أن يتجسد عليه لما قالته لها. لكن وجه حواء كان جامداً. لم يتأثر بما قالت. بالرغم من أن حواء المؤمن كانت تمور في داخلها بتيارات متصارعة من الانفعالات والأحاسيس العنيفة، وبالرغم من ذلك، قالت لها بصوت باهت، لا مبالٍ، وحزين:
- وماذا بعد؟
- ألا يشكل لك هذا شيئاً، أن أكون أنا مومساً؟
- إذا كانت الدعارة تعني بيع شيء ما منا مقابل ثمن، فكلنا نمارس الدعارة بهذا الشكل أو ذاك. أكملني.
- وقبل أن تبدأ إيفا أومسك بالحديث عن نفسها، رن جرس الباب. كانت حواء المؤمن شبه متأكدة من أن القادم هي حواء المظلوم. قامت إيفا أومسك لتفتح الباب.
- ما إن فتحت إيفا أومسك الباب حتى تجمد الدم في عروق حواء المؤمن، إذ سمعت صوت إحدى الراهبتين تسلم على إيفا أومسك، وسمعت صوت

الأخرى تسأل إن كانت هي في البيت، ولم تنتظرا أن تقوم إيفا أومسك بإخبارها بوصولهما، إذ دخلتا مباشرة وكأن البيت بيتهما. سلمتا على حواء المؤمن التي، بالرغم من فقدانها للبصر فأنها وقفت لهما احترامًا. طلبتا منها الجلوس، وسألناها عن وضعها، فشكرت الله على كل شيء.

جلسوا جميعًا على الصوفا والمقاعد المتقابلة. هيمن جو من الألفة السريعة بين النساء الأربع الجالسات. كانت حواء المؤمن على يقين داخلي بأنهما جاءتا من أجل إيفا أومسك، وليس من أجلها هي، لأن الراهبة المسنة إيفا مارتا سألتها مباشرة:

- أنتِ جارتها التي تعيش في الشقة المقابلة أليس كذلك؟
- نعم.
- وكم مضى على وجودك في ألمانيا؟
- أكثر من أربع سنوات.
- أأنت من روسيا؟ من أين بالضبط؟
- أنا من مدينة اسمها أومسك، وتقع في سيبيريا؟
- من سيبيريا؟
- نعم. من مدينة أومسك التي عاش فيها الكاتب دوستوفسكي حينما عوقب بالاعتقال في سيبيريا.
- آه. فيودور دوستوفسكي.
- نظرت الراهبة الشابة إيفا بيرغمان إليها، وسألتها:
- هل قرأت شيئًا له، أقصد من رواياته، هل قرأتِ “الأبله”؟ هل تعرفين الأمير ميشكين؟ هل قرأتِ “الجريمة والعقاب”؟
- استغربت إيفا أومسك من هذه الراهبة الفاتنة التي تعرف دوستوفسكي، وتعرف الأمير ميشكين، “الأبله”، وقرأتِ “الجريمة والعقاب”. فأحست

بالقرب النفسي منهما، وقالت وهي تبسم:

- نحن نقرأ دستوفسكي في المدرسة الثانوية، كما شاهدنا الفيلم المأخوذ من الرواية، لكنني أحب دستوفسكي ورواياته أكثر من الأفلام المأخوذة عنها.

ظلت حواء المؤمن صامتة طوال الوقت، فهي من ناحية لا تعرف الرجل الذي يتحدثون عنه، ومن جهة أخرى كانت على يقين بأن مداخلتها ستعيق مهمة هاتين الراهبتين، لذا صمتت وكأنها غير موجودة. كانت تستمع للحوار فقط. سمعت الراهبة المسنة تسألها:

- ولماذا أراك متعلقة بدستوفسكي إلى هذا الحد؟

ارتبكت إيفا أومسك، صمتت للحظات ثم قالت وكأنها تدلي باعتراف ما:
- لا لشيء. لكن ربما لو كان حيًّا في زماننا لكتب عني أيضًا. أحيانًا أحس أنني إحدى شخصيات رواياته. إنه ينتشل المذلين والمهانين والمسحوقين من الحضيض، ويمنحهم الكثير من شفقتة وحبه ورحمته، حتى حينما تقرأين عنهم في رواياته تتعاطفين مع آلامهم. أحيانًا أفكر أنا ربما خرجت من إحدى رواياته، ربما أنا «سونيا ميرملادوفا» في رواية «الجريمة والعقاب». أو «ناتاشا» في روايته «مذلون مهانون»، لا أدري. فحياتي ليست بسيطة أبدًا.

نظرت الراهبتان لبعضهما البعض، ثم نظرتا كليهما إلى إيفا أومسك بحنان شديد وبتعاطف واضح، وقالت الراهبة الشابة لها:

- إنك لحد الآن تتحدثين عن أشخاص في روايات هذا الكاتب، بينما أنت تريدين أن تتحدثي عن نفسك، يمكنك أن تتحدثي لنا. نحن راهبتان، يمكننا أن نستمع لروحك المثقلة بالعذاب.

أحست إيفا أومسك بنبرة الحنان في صوتها، وفيض الشفقة التي تشع من عينيها، فأومضت في روحها فكرة أن تعترف لهما بكل شيء مرت به، بكل تفرزه. نظرت لهما وقالت بما يشبه القرار:

- أود أن أروي لكما شيئاً عن حياتي. هل أنتما مستعدتان لسماع اعترافاتي المرعبة والمقززة؟

- نحن هنا لنستمع لاعتراك يا إيفا أومسك، وليغفر الرب لك ولنا.

- ابتسمت حواء المؤمن ابتسامة داخلية في الأعماق، لأنها عرفت أنهما جاءتا لسماع اعترافات إيفا أومسك. لكنها لم تأت بأي حركة تعكر صفو هذا الطقس الروحاني المهيّب. أحسّت أنها خارج المكان حينما بدأت إيفا أومسك تسرد قصة حياتها المرعبة.

- كنت الوحيدة لأمي. أبي ترك أمي وذهب مع امرأة أخرى. كنت حينها في الخامسة من عمري. لا أذكر أبي، بالرغم من أمي تحتفظ بصوره، لا أعرف لماذا طلق أبي أمي؟ سألت أمي لكنها رفضت الحديث عن ذلك، إلّا في لحظات معينة كانت تبدي شيئاً من الأسباب حينما كانت تلعن الرجال والنساء، وتتحدث عن خيانة الصديقات، وكيف أن أعزّ صديقاتها سرقت زوجها منها! وهكذا عرفت شيئاً من مشكلتها مع أبي؛ بل وحتى حينما بلغت النضوج وحاولت أن أستدرجها فقد كانت ترفض الحديث عن ذلك. لكنها كما أتذكر ظلت تبكي لسنوات بعد رحيله عنها. بقيت لسبع سنوات زاهدة بالرجال، فلم أتذكر أنها كانت ذات علاقة مع رجل بعد أبي، بالرغم من أنها كانت امرأة جميلة بل ومثيرة. ويبدو أنها كانت قد تزوجته عن حب عميق، لكنه كان أصغر منها بخمس سنوات، وكان رجلاً يحب الحياة ومسالماً، بينما أمي امرأة حازمة، مليئة بالطاقة، تحب السيطرة عليه، تحب الترتيب والنظام في كل شيء، بحيث كانت تخلق له مشكلة إذا ما أكل ونسي صحن الطعام على المائدة. المهم، كانت أمي في منتصف الثلاثين حينما هجرها أبي، لكنها بعد سنوات، حينما صرّت في الثانية عشرة من عمري، تزوجت أمي رجلاً يكبرها بعشر سنوات، ظناً منها بأن الرجل الذي يكبر الزوجة بهذا المقدار من السنين سوف يتمسك بزوجه الأصغر سناً منه، ولن يهجرها!

كانت هي في الثانية والأربعين وهو في بداية الخمسين من عمرهما، وبالتالي فهي كانت تعتقد بأنها ستعيش حياة مستقرة، لا سيما وأن زوجها الجديد ثري، ووسيم أيضًا، ولديه مكانة حزبية جيدة في الحزب الشيوعي السوفيتي، ولديه منصب جيد، وسيارة، وشقة كبيرة. كان من أثرياء الحزبيين. لكنها لم تعلم أنه تزوجها ليغطي على سلوكه الشاذ أمام الدوائر الحزبية المرتبط بها، بينما هي أرادت أن تثبت لنفسها ولأبي بأنها ستجد من هو أحسن منه.

- ما معنى أنه أراد أن يغطي سلوكه الشاذ؟ كيف عرفت ذلك؟ سألتها الراهبة الشابة.

- كان شاذًا في علاقاته الجنسية، ويبدو أن شائعات دارت حوله، فأراد أن يتزوج كي يقضي على هذه الشائعات. ولقد اكتشفتُ أنا ذلك حينما وجدته مع شاب جميل جدًا أكبر مني بضع سنين. كان ذلك في شقته الكبيرة التي انتقلنا إليها أنا وأمي.

- وأين كانت أمك؟ سألت الراهبة المسنة.

- أُمِّي كانت موظفة في وزارة الثقافة، وفي الهيئة الخاصة بالسينما. كانت موظفة بدرجة مديرة قسم، لذا كانت تذهب إلى الدوام يوميًا، وتنشغل باجتماعات لا أول لها ولا آخر.

- وكيف اكتشفت أنت ذلك؟

- كانت أُمِّي، كعادتها، في العمل. أنا كنت في المدرسة الإعدادية، لكنني شعرت بألم الدورة التي جاءتني بشكل مفاجئ وأنا في المدرسة، فعدت إلى البيت. كان لدي مفتاحي الخاص، وحين فتحت الباب بهدوء، سمعت صوت آهات يأتي من غرفة الحمام. كان هناك حمامان، واحد ملحق بغرفة نومهما، وآخر بجانب غرفتي، وهو يستخدم للضيوف. حين استغربت تلك الأصوات. فكرت بأن أُمِّي وأبي ربما يمارسان الجنس، لكن لم أسمع أي صوت أنثوي، مشيت بهدوء لأرى. كان واضحًا أنه صوت رجل. ارتعبتُ

حينما نظرت في الحمام من الزاوية الضيقة المفتوحة من فتحة الباب. وجدت زوج أمي عاريًا بالكامل وهو منحني يحضن شابًا عاريًا أيضًا من الخلف. نظر الشاب وهو منحني تحته إليّ من خلال فتحة الباب الضيقة، حيث كنت بعيدة عن الباب تقريبًا. كنت متأكدة من أنه رأي. لا أعرف ما جرى! لقد هربت بسرعة فائقة. دخلت غرفتي وأخذت شيئًا من لفافات العادة. غادرت الشقة بأسرع ما يمكن بحيث أنني وضعت لفافاتي، كي لا ألوث ثيابي وأنا تحت الدرج قبل أن أخرج عائدة إلى المدرسة، حينها كنت قد فكرت بأنني إذا لم أرجع إلى المدرسة فسيظن أنني كنت في الشقة فعلاً، وكنت مطمئنة بأن الشاب لا يعرفني. الناظرة استغربت رجوعي، وجدت لها عذراً بأنني نسيت المفتاح ولم أحمله معي، لذا فضلت الرجوع إلى المدرسة بانتظار عودة أمي من الدوام! عند نهاية الدوام، في ذلك اليوم، وجدت زوج أمي ينتظرني عند باب المدرسة، وكان نادراً جداً أن يأتي مع أمي لأخذي. اطمأن زوج أمي بأنني لست أنا التي كنت في الشقة، وربما ظن أن الشاب يكذب عليه، أو أنه توهم ذلك. طبعاً لم أقل أي شيء لأمي خوفاً منه!

أحسّت حواء المؤمن بأن جسدها أخذ يرتعش، وينكمش، وسرت رعشة باردة في جسدها نتيجة ما سمعت من إيفا أو مسك، لكنها لم تشأ أن يكون لوجودها بينهم أي حضور يعكّر انسياب هذه الاعترافات المرعبة، حيث سمعت إيفا أو مسك وهي تواصل اعترافاتهما:

- الغريب، ذات يوم رأيت ذلك الشاب الوسيم ينتظرني قرب منعطف الشارع، حيث نسكن. وعرف أيضاً المدرسة التي أدرس فيها. كان يتبعني كل يوم تقريباً، ذات يوم كان ماشياً خلفي، ثم بدأ يكلمني. لم أشأ أن أكلمه أول الأمر، كنتُ أخاف من زوج أمي لأنه كان مسؤولاً حزبياً كبيراً، وكثيراً ما كان يزورنا العديد من المسؤولين الحزبيين والعسكريين الذين نراهم في الاحتفالات الوطنية وفي برامج التلفزيون، لذلك كنت أخاف من أن يراني

زوج أمي معه. وراودني شك بأنه ربما هو الذي أرسله. إلى جانب أنني كنت مشمئزّة من هذا الشاب، لأنني رأيته في وضع مقزز مع زوج أمي. كان الشاب وسيماً جداً. وبدأ الشاب يعتذر لي، ويؤكد لي بأنه ليس بالشاب السيئ الذي أظنه، وأكد بأن زوج أمي كان قد هدّده، حينما التقاه في مكان ما ذات مرة، وتعرف عليه، ثم دعاه بلطف إلى شقته. بعد ذلك أغدق عليه بالمال والشراب الغالي الثمن، نعم، فقد أعطاه مبلغاً كبيراً كان يحلم أن يحصل عليه. لقد فكّر هو حينها بأنه سيقدم على ذلك لمرة واحدة، ولم يكن الأمر كذلك أول مرة، لأن زوج أمي في المرة الأولى طلب من الشاب أن يلوط به، لذا لم يشعر الشاب بمشكلة كبيرة، لكنه في مرة من المرات، وفي شقته الخاصة التي، كما وضح الشاب لي، ليست الشقة الحالية التي نعيش فيها، وإنما شقة أخرى في مبنى خاص للمسؤولين. في تلك المرة طلب زوج أمي أن يلوط هو بالشاب، الشاب رفض، لكنه، وهذا ما أقسم الشاب عليه بأغلظ الأيمان، بأن زوج أمي سحب عليه مسدساً وهدده بأنه سيقتله، ويدعي أنه جاء ليسرق وقتله دفاعاً عن النفس. ولن يشك أحد به؛ فهو مسئول حزبي كبير، فاضطر الشاب أن يوافق على طلبه، ومنذ ذلك الحين يقوم بالفعل فيه، لكنه يعطيه كل مرة الكثير من المال، ولا يدري لماذا طلب منه اليوم أن يوافيه في هذه الشقة، فعادة هو يلتقيه في شقته الأخرى، حينها شعرت بالشفقة على الشاب، وبدأت بيننا علاقة عاطفية. كانت في البداية حول أوضاع كل منا ثم تطور الأمر بيننا.

الراهبة الشابة أشارت بيدها كعلامة للسؤال، وسألتها بتعاطف، بالرغم من علامات القلق التي ارتسمت على وجهها:

- لحظة، هل كانت أمك تعرف شيئاً عن سلوك زوجها؟
- لا أعتقد ذلك.
- أكملني يا ابنتي، كان الله في عونك. أكملني. قالت الراهبة المسنّة.

- صمتت إيفا أومسك للحظات وكان واضحًا أنها تعاني، وأن هناك مشاهد مرعبة تمر في أعماقها، لكنها واصلت:

- تكرررت لقاءاتي بهذا الشاب. إلى أن دعاني ذات يوم إلى شقته التي يعيش فيها مع أمه المطلقة أيضًا. وكان وحيدًا لأمه، وهي تعمل بائعة في سوبر ماركت كبير تابع للدولة. وهناك، في تلك الشقة عرفت أنوثتي الحقيقية، وعرفت الجنس لأول مرة. كنت في منتصف الخامسة عشر حينما تعرفت عليه. كنت خائفة، لم يمسنني أي شاب قبله. فكما قلت كانت أمي شديدة الطبع، بل ومتحفظة. فلم أكن أجرب القبله من الشفاه. كنت أرى ذلك في الأفلام فقط. كان صديقي ذا خبرة في هذه الأمور، كان يداعبني بإصبعه، وبلسانه، ومنه تعرفت على كل الألعاب الجنسية. وتكررت اللقاءات في شقته، إلى أن صرت في السادسة عشرة، وحينها أردت أن أجرب معه بشكل طبيعي، لكنه لم يسيطر على نفسه. وهكذا منذ السادسة عشر صرت أعيش كامرأة بالغة. ويبدو أن زوج أمي اكتشف علاقتي بهذا الشاب، الذي يبدو لي أنه لم يقطع علاقته به، حتى عندما كان معي، لكنه كان يلتقيه في شقته الأخرى على الأرجح، بالرغم من أنني كنت أسأله دائمًا، ودائمًا كان ينكر ذلك، لكنني كنت أخمن ذلك من المال الدائم الذي كان في جيبه، ومن ملابسه، ونفقاته التي هي أكثر بكثير من مصاريف شاب أمه بائعة بسيطة في محل. المصيبة بعد فترة سنة ونصف اختفى صديقي الشاب فجأة، ولا أدري لحد الآن أين اختفى؟ حتى بعد أن تغير النظام عندنا.

- أين اختفى؟ سألت الراهبة المسنة.

- لا أدري.

- هل بحثت عنه، أو سألت عنه من أمه؟ سألت الراهبة المسنة مرة أخرى.

- لا طبعًا، لكنني عرفت أن أمه ذهبت للشرطة وقدمت بلاغًا، وكانت صورته موجودة في مركز شرطة منطقتهم باعتباره مفقودًا.

- هل كان لزوج أمك علاقة بالأمير؟
- أعتقد ذلك، لأن هذا الشاب كما عرفت من زوج أمي لاحقاً، كان يريد الانتقام منه، من زوج أمي. فنصب الشباك لأمي، عرف مكان عملها، وأخذ يتحجج لزيارة مكان عملها، ثم أخذ يفتعل المناسبات ليكون أمامها بعد انتهاء الدوام، أو في مخزن ما. المهم كان يطاردها، ثم بدأ يغازلها، إلى أن وقعت في شباكه. لم أكن أعرف طبيعة علاقة أمي بزوجها، لكن مهما تكن جيدة فإن المرأة كائن عاطفي، فهي تغامر بسعادتها الزوجية، وبكل شيء من أجل حفنة من الكلمات الرقيقة التي تبالغ بجمالها، وبأنها أجمل ما في الكون من النساء، وحتى لو كانت المرأة تعرف أن الرجل المقابل يكذب عليها، ويبالغ في كلامه، فهي تحب هذه الأكاذيب. ونحن نساء ونعرف ذلك. المهم، تعمقت علاقة صديقي بأمي، ولا أدري كيف أغواها بالذهاب معه. ويبدو أنه كان يأخذها ليضاجعها في شقة زوج أمي التي كانت له في مبنى المسؤولين، وكان قد أعطاه نسخة من المفتاح، ويبدو أن زوج أمي عرف بطريقة ما، ربما من البوابين الذين هم في البنايات الخاصة بالمسؤولين الحزبيين يكونون عادة من المخابرات، أو من خلال علاقاته الخاصة عرف بأن الشاب الذي كان معروفاً بالنسبة للبوابين باعتباره من أصدقاء زوج أمي، يأتي ومعه امرأة ما. ويبدو أنه عرف، حينما سأل عن أوصاف المرأة التي تأتي مع الشاب، أنها أمي. لأنني رأيت في ما بعد صوراً لها مع الشاب في أوضاع جنسية شاذة، إذ كان يفعل معها ما كان زوج أمي يفعل به.
- وأنت، كيف عرفت كل هذا؟ سألت الراهبة الشابة.
- عرفت كل ذلك لاحقاً من زوج أمي نفسه.
- كيف، هل اعترف لك بذلك؟ واصلت الراهبة الشابة سؤالها.
- صمتت إيفاً أومسك للحظات. كانت تحديق بعينين مترعتين بالحزن والغضب في نقطة بعيدة، ثم قالت:

- نعم. ذات يوم كنت في البيت وحدي بعد أن ذهبت أُمِّي إلى العمل. وكان هو نائمًا. كنت أظنه قد خرج أيضًا، لكنه كان في غرفته. أخذت حمامًا ساخنًا بعد أن استيقظت من النوم. وكنت ضجرة وملتهبة وقلقة على وضعي، أفكر في صديقي الذي اختفى فجأة. خرجت من الحمام، الذي كان مرتبطًا بغرفتي تقريبًا. دخلت غرفتي، كنت عارية، وأحاول أن أشد منشفتي على جسدي. فجأة دخل هو غرفتي، كان في برنس الحمام، فوجئت بوجوده، اقترب مني جدًا، سحب المنشفة التي كنت أحاول أن أغطي جسدي بها، فصرت عارية أمامه. نظر إليّ برغبة واضحة مُطلقًا من شفتيه صغيرًا إعجابًا بجسدي، وبدون شعور مني وضعت يدي ما بين فخذي لأغطي نفسي، لكنه دفعني على السرير وألقى بثقل جسده علي. وقال لي: حرام أن يتمتع ذلك الشاب الغبي بكل هذا الجمال، ثم بحركة سريعة منه صار في وسطي تمامًا، ويده القوية دفع فخذيّ ودخل فيّ. كنت أريد أن أصرخ. أخذت أتحرك لأدفعه، لكن كلما كنت أتحرك يزداد دخوله فيّ وتزداد سيطرته على جسدي. أثناء ذلك، هددته بأن أخبر أُمِّي، فهددني بدوره بأنني لو نطقت حرفًا فإنه سيرسلني وأُمِّي إلى ما وراء الشمس، وفجأة وبدون أن أنتبه، أدارني على بطني، وأركعني بقوة، ولا أدري إن كان قد خطط لكل ذلك، لأنه أخرج دهنا ذا رائحة طيبة جدًا، فلطخ أستي وأولجه فيّ من الخلف. كما كان يفعل مع ذلك الشاب. وكان يصرخ بي أن أُمِّي تحب ذلك جدًا. لكنها تحبه مع ذلك الشاب العبيط. وكان يشتم أُمِّي بأقذع الكلام، لأنها ترفض أن تفعله معه، وهو زوجها، بحجة أنه مقزز، ومؤلم، بينما هي تتوسل الشاب العبيط، حينما تنتهي معه من الأمام، أن يفعله بها من الخلف. كنت أتقزز من ذلك. مما فعله بي ومن سماع شتائم القدرة ضد أُمِّي. وبعد أن انتهى مني، طلبت منه أن يثبت لي كل ما قاله عن أُمِّي.

- وهل فعل؟ سألت الراهبة المسنة.

- نعم. رأيت صورًا، من كاميرا خفية كان قد وضعها في شقته، ويبدو أنه قد أعدّ كل شيء لذلك. إذ كانت لديه صور لأمي في أوضاع داعرة مع صديقي الشاب، بل أسمعني صرخاتها على شريط كاسيت وهي تتأوه، وتصرخ متوسلة بعشيقها بكلام لم أتوقع أن يصدر من أمي، تلك الحازمة، المتحفظة، الصارمة؛ لأنني كنت أنظر إليها كشيء مقدس. كنت أتذكر كيف تحمّلت السنين بعد غياب أبي ووفرت لي كل شيء، كنت أتذكر أنها لم تكن لعبًا برغم جمالها، إلى أن تزوجت من هذا المسئول الحزبي، لذلك ما سمعته ورأيتة صدمني، ولم أعد أوّمن بأي شيء. أحسست بسقوط المقدس، فكل شيء دنس وملوث، ومبتذل مهما بدا لك متساميًا.

رسمت الراهبتان علامات الصليب الأربع، بينما هما تستمعان لهذه الاعترافات المرعبة، لكنهما كانتا تنظران بشفقة لهذه الآثمة التي تنوء بثقل كل هذا العذاب الروحي. نظرت الراهبة الشابة إليها وسألتها بحنان:

- وماذا جرى بعد ذلك، كيف عشت كل هذا يا ابنتي؟

- لم أعد أهتم لغياب صديقي، بل نشأ لدي تعاطف مع زوج أمي، شعرت إنه مخدوع بزوجته المصون مثلي، تعاطفت معه ربما انتقامًا من أمي، التي حطمت مثالي الأعلى الذي كانت تجسده أمامي، وانتقامًا من صديقي الذي كان يضاجعني ويضاجع أمي في الوقت نفسه، المهم، صرت لا أحقد على زوج أمي، بل صرت عشيقته. كان يضاجعني يوميًا تقريبًا. من كل الجهات وكل الفتحات الموجودة في الجسد ويمكن الدخول فيها. وذات مرة سألته، عن الذي رواه لي صديقي من أنه فعل فيه أول الأمر، فلم ينكر ذلك، وقال إنه أراد أن يجربه فقط. واستمر الحال مع زوج أمي هكذا لسنة ونصف تقريبًا، الغريب في الأمر أنني صرت أنافس أمي على زوجها، بل كنت أحتق منها إذا ما صادف وأن التقينا على المائدة، حيث كنت أحاول حينها أن أكون أنا الأثيرة لدى زوج أمي وليست هي، لا شيء سوى من أجل إغاضتها لا أكثر.

غريبة طبيعة المرأة. كنت لا أعرف نفسي، كنت أتصرف مدفوعة بضغط قوة غامضة، لكننا نحن البشر دائماً نتصرف بوعي ثم نقول إننا كنا تحت ضغط هذا الأمر أو ذاك! باختصار، لأعد إلى الحكاية المملة، إذ يبدو أن أُمي لم تستطع أن تتحمل غياب عشيقها، الذي كان عشيقِي أيضاً، إذ بدأ الشجار بينها وبين زوجها، ويبدو أنها تعودت على الممارسة من الخلف واستطابته، لذا وافقت على أن يمارس معها من الخلف، وأخبرني هو ذات مرة بأنها صارت تطلبه منه، مرت السنوات. أنهيت أنا دراستي الإعدادية ودخلت الجامعة، وأخذت أدرس اللغة الروسية وآدابها، لكن حياتنا في البيت كانت تسير وفق الخطة السابقة المعتادة، كان هو في الليل معها، لكنه في النهار أو في لحظة غيابها معي، وأحياناً كان يأخذني بسيارته فنخرج إلى الغابات المحيطة بالمدينة لنفعل ما نفعل هناك. إلى أن حَلَّت به كارثة كبيرة، حينما حصل الانقلاب في السلطة، وتم حل الحزب الشيوعي، وتمت إحالته على التقاعد.

- هل كانت أُمك، يا ابنتي، تعرف علاقته بك؟ سألت الراهبة المسنة.
- لا أدري، ربما، لأن الأمر برمته انتهى بكارثة عائلية حقيقية، وأعتقد أن ذلك مرتبط باكتشافها للأمر.
- كيف؟ سألت الراهبة المسنة.
- كنت حينها في السنة الثانية في الجامعة. وذات يوم رجعت إلى البيت، فرأيت سيارات الإسعاف والشرطة، وهي تغادر المنطقة. وحينما وصلت البناية التي نسكن فيها، عرفت من الجيران بأن أُمي انتحرت بإلقاء نفسها من شرفة شققنا التي كانت في الطابق التاسع، وماتت على الفور. وحينما دخلت الشقة، رأيت زوجها، عشيقِي، جالساً، وحيداً، منكسراً. لكنه ما إن رأيته حتى رجعت الحياة إليه، فاحتضني متظاهراً بالبكاء، وهو يقول لي: لم يبق لنا أحد سوانا لبعضنا. سألته عن سبب انتحار أُمي، فأنكر أنه يعرف شيئاً عن السبب، وأكد لي بأنها لم تتحرق وإنما سقطت بينما كانت تنشر بعض الغسيل

في الشرفة. لكنني رأيت بعد أسبوع في خزانها وبين أشياءها صورها مع ذلك الشاب الذي اختفى، صورًا لها في أوضاع داعرة كنت قد شاهدت بعضها سابقًا. ويبدو أنهما تشاجرا، وأثناء ذلك كشف لها عن صورها، وربما أسمعتها الكاسيت، وربما أخبرها بأنني أعرف ذلك أيضًا، وأنا شاهدت هذه الصور وسمعت الكاسيت، فلم تستطع أن تتحمل أن تراني، فانتحرت. أخمن ذلك، لا أدري، فنحن النساء، نفعل أبشع الأشياء وأحطها، وأكثر ابتذالًا، نفعلها بوعي كامل، لكننا لا نريد أن يعرف عنها أحد. نريد أن تبقى في السر، وحينما تظهر إلى العلن لا نستطيع تحمل مواجهتها، ومواجهة عارها.

- يا ابنتي، ليغفر لك الرب. واصلي يا ابنتي، ألقى الحمل عن روحك المنهكة. ماذا حدث بعد ذلك؟ كيف صرت هنا في ألمانيا؟ سألت الراهبة المسنة.

- لم أكمل دراستي الجامعية، فبعد سقوط الاتحاد السوفيتي، صار بالإمكان السفر إلى أوروبا. طلبت منه أن أسافر لتغيير الجو، لم يقبل، لكنني كنت قد تجاوزت الثامنة عشر وصار بإمكانني أن أحصل على جواز السفر بنفسني، وأخذت ما استطعت أن أحصل عليه من المال، وسافرت إلى ألمانيا، ولم يكن يهمني إلى أين، المهم أردت أن أرى العالم، ويبدو أن القدر قادني إلى ألمانيا.

- هل كنت تعرفين أحدًا هنا؟ سألتها الراهبة الشابة.

- لا أحد، كانت مغامرة، كنت أريد أن أنسلخ عن حياتي السابقة كما تنسلخ الأفعى من جلدها! المهم. تعرفت في الطائرة على رجل من القوميات السوفيتية السابقة كان يجلس إلى جانبي. كان لديه مخزن كما قال لي، وشقة، وسيارة. وحينما سألتني عن وضعي أخبرته بأنني أسافر لأول مرة، فعرض عليّ أن يريني برلين كلها، وأنه يمكنني السكن لأيام عنده، مع عائلته. ترددت أول الأمر، لكنني فكّرت بأنني سوف أوفر شيئًا من المال إذا سكنت عندهم، لا سيما وأن عائلته معه.

- وماذا بعد، أيتها الابنة المعذبة. ماذا بعد؟ قالت الراهبة الشابة.

- لم تكن لديه عائلة. أقصد، نعم لديه عائلة، لكنها ليست في برلين وإنما في جمهوريته المستقلة حديثاً، وهو يعيش وحده في شقته ببرلين، وحينما سألته لماذا كذب علي، أجابني لأنه لو قال لي إنه يعيش وحده لما وافقت على المجيء معه، ولأنه أراد أن يساعدني بتوفير أجور الفندق فكذب علي حتى أوافق. ولكن يمكنني القول، إنه اعتنى بي جيداً أول الأمر، ولم يطلب مني مباشرة أن أنام معه، بل تركني عدة أيام بحريتي، وكان يدلّني في كل شيء. كنا نخرج في وقت الفطور لكي نأكل في أحد المطاعم، ولم تمض وجبة لم نأكلها في غير المطعم. زرت جميع المطاعم لجميع الشعوب تقريباً، وجميع الأماكن الجميلة في برلين، إلى أن اطمأن له قلبي. وذات ليلة رجعنا متأخرين، وكنت قد شربت بعض كؤوس الشمبانيا، فملتُ لأنكى عليه، وبلا شعور قبلي وقبلته، بل كنت متلهفة له، حتى أنني كدت أفعلها معه في المصعد، ولم نستطع الانتظار، إذ أننا فعلنا كل شيء على أرضية الشقة، لكن كان هذا مثل شهر العسل. صرت أعشقه، وصرت لا أستطيع أن أتحمل غضبه مني أو حتى انشغاله عني لوقت بسيط. إلى أن أخذ يحدثني ذات يوم عن مستقبلتي، وماذا أخطط لنفسني، وهل أريد الرجوع إلى ديارتي، فرفضت أن أبتعد عنه. كنت مجنونة به، قلت له افعل بي أي شيء، وبما تشاء، لكن لا تبعديني عنك. فسألني حينها: أفعل بك أي شيء، وما أشاء؟ فأكدت له ذلك. فسألني ضاحكاً هل سأفعل لو رغب مني أن يرى شخص آخر يضاجعني أمامه؟ فقلت له لو كانت هذه رغبتك، وتريحك، سأفعلها من أجلك. وفعلاً اتصل بشخص ما، وبعد ساعة كان ثمة رجل من الجمهوريات السوفيتية المستقلة حديثاً، رجل مفتول العضلات، في شقتنا! لم أصدق أنه يطلب ذلك، لكنني كنت أمام امتحان عسير حينها لأثبت له أنني أعني ما أقول. لم أستطع أول الأمر، فقلت له، أريد أن أسكر، فأعطاني كأساً مليئة بالفودكا، شربتها وكأني أشرب السم، لكنني أحسست بالحرارة والخدر في جسدي، وذهبتنا ثلاثتنا إلى

الغرفة. كان هو جالسًا أيضًا، والآخر قد تعرى ولم يبق إلا سرواله، وكان هو يمسك بيدي، بينما الآخر كان يعريني. صرت عارية تمامًا. بينما أخذ الرجل يقبلني من صدري، نازلاً إلى ما بين فخذي. كنت أنظر لعشيقتي، بينما كان الآخر قد دخل في. أحسست بتيارات هائلة من اللذة. وحينما انتبهت لنفسي، أخذت دموعي تنزل من عيني دون إرادة مني، أحسست أنني أضيع، وقد ضيعني معه، ولم أتذكر بعد ذلك شيئاً. وحينما صحوت، وجدت نفسي عارية في السرير مع الرجل الآخر. نهضت مذهولة. فتشت وأنا عارية عن عشيقتي فلم أجد له أثرًا في الشقة، فجأة نهض الرجل الغريب، وحينما رأيته، جاء فأخذني إلى السرير، وأخذ يداعبني، ويضاجعني بعنف. كنت مستسلمة كالذبيحة، سألته عن عشيقتي، فقال لي إنه اشتراني منه. تصوري ما قال: اشتراني منه. لقد سلمه جواز سفري وكل أشيائي، وأنا الآن ملكه، بل وأوضح لي بأن هذه الشقة هي له أيضًا وليست لعشيقتي، وأن عشيقتي هو قواد متمرس، وهو وعشيقتي، محميان من قبل المافيا. هو لديه محلات للجنس، للدعارة، ولبيع الألعاب الجنسية والمجلات وما شابه، وأنه سبتركني معه لبضعة أيام، ثم علي النزول إلى العمل. سألته: أي عمل؟ فأجابني بكل صرامة وثقة: قحبة، مومس، هذا عملك، هل تجددين غيره؟ وقال لي إن هذه المهنة لا تحتاج لأي مهارة خاصة مني، سوى مهارة الإغواء وإراحة الزبون. وهكذا، وبعد مرور أيام قليلة، شبع مني، وأرسلني لزيارته. كانوا يأتون أول الأمر إلى الشقة، ثم أخذني إلى شقق أخرى، وشيئًا فشيئًا، دخلت هذا العالم، لقد أوضح لي بأن الأشهر الستة الأولى سيقبض كل الواردات، إلى أن يسترجع ما دفعه لعشيقتي السابق كثمان لي، وبعد ذلك سيعطيني خمسين بالمئة من الواردات. والأشهر الستة صارت سنة، لأنه أخبرني بأني ما زلت هاوية ولا أستطيع أن آتي بالزبائن كثيرًا، لكن بعد سنة صارت لي نسبة من الأرباح، أخذ يعطيني خمسين بالمئة، فاستأجرتُ لنفسني هذه الشقة، لكنني أذهب يوميًا من بعد الظهر وحتى منتصف الليل، وأحيانًا أكثر، إلى دكان الجنس، الموجود في

مارتن لوثر شتراسه. أقدم جسدي لما لا يقل عن عشرة أشخاص في اليوم، وعليّ أن أكون جاهزة، ومرحة، وأبدي تعطشي للجنس واستمتاعي بما يفعله بي الزبون. هذه أنا بكل بساطة، وبدون رتوش أخلاقية.

رسمت الراهبتان علامة الصليب على صدرهما مرات عدة، وكأنما أرادت أن تتطهرا مما سمعتا من هذه الخاطئة التي تحمل صليبيها الحجري أنّي اتجهت. ساد صمت ثقيل للحظات. كانت إيفا أومسك قد روت حكايتها بلا أي انفعال واضح. كانت وكأنما آلة تسجيل تروي حكاية ما بكل حيادية، وكأنها تروي كيف ذهبت إلى السوق، أو إلى العيادة، أو تتحدث عن الغسيل. كان وجه إيفا أومسك قد استرخى، وكأنها قد تخلصت من عبء ثقيل جدًا. نظرت بهدوء مشوب بتساؤل إلى الراهبتين، ثم إلى حواء المؤمن التي وكأنما الآن انتبهت لوجودها طوال سردها لهذه الاعترافات. لقد كانت صادقة في كل ما قالت، إذ حاولت جاهدة أن ترسم الخطوط العريضة لعثراتها في وادي الظلمات التي قادتها إلى هنا، ولا تعرف لماذا روت كل ذلك! كان بإمكانها ألا تروي أي شيء، لكنها أحسّت بشيء من الراحة حينما عرّت ذاتها أمام الراهبتين وبحضور حواء المؤمن. أحسّت بنشوة روحية وهي تذلل نفسها بهذه الصورة المرعبة.

ظلت الراهبتان صامتتين، مثلما ظلت حواء المؤمن صامتة. لم تعلق على اعترافاتها بشيء، بل أخرجت كل منهما من جيب ثوبها الكنسي سبحة، وأخذتا تتمتمان بأدعية وصلوات غير مسموعة.

كانت إيفا أومسك تنتظر منهما أي رد فعل على اعترافاتها، لكنها لم تسمع أي تعليق. نظرت إلى أفق بعيد خارج جدران الشقة، أفق لا يحده البصر، أفق في الأعماق السحيقة لنفسها، وتابعت هذه المرة بصوت حزين: - أحيانًا أسترجع ما جرى لي في حياتي، لا سيما حينما أرجع في آخر الليل، أرى كل شيء، لكنني لا أستطيع أن أصدق أن كل هذا جرى لي أنا، بالرغم

من أي أعرف جيداً أن هذا قد جرى لي فعلاً. أفكر أحياناً، أي حياة هذه؟ أنا جبانة، ليست لدي قدرة على الانتحار، لذا أستمّر بالحياة لأني جبانة، ولأني أخاف أن أموت. أريد الحياة حتى ولو في أسفل درك من الحضيض. في قاع القاع. أليس هذا جبناً؟ أتدرون لماذا أخاف الانتحار؟

نظرت الراهبتان إليها بعيون جاحظة مفتوحة، وهما تتمتتان بالصلوات، فاستمرت إيفا أومسك بالكلام:

- لأني مؤمنة، أنا أعرف أن الله يحرم قتل النفس، ومن ينتحر يذهب إلى الجحيم، وبالرغم من أنني أعيش في بؤرة الرذيلة، لكنني أشعر أن الله سيرحمي، أكثر مما لو أنني انتحرت. ربما أنا نعجة ضالة، لكنني لست مجرمة ولا قاتلة. الله وحده يعرف كم أتعذب. الله وحده يعرف أنني إنسانة تؤمن به، وتحبه، وأنا أحمل صليبي الثقيل وحدي. وأن كل دمعة أذرفها ندمًا، وألمًا، وحسرةً، كل ليلة هي أشبه بالصلاة. وبالمناسبة، أنا أذهب أحياناً إلى الكنيسة الخاصة بالمسيحيين الأرثوذكس وأشعل شمعة للعدراء هناك كل أحد. هل تصديق لو قلت لك، إنني سجدت ذات مرة أمام صورة للعدراء وهي تحمل يسوع الصغير، وبكيت، ونُحت أمامها، وشكوت ضعفي وقلة حيلتي من أجل الخروج مما أنا فيه، فرأيتُ دمتين نزلتا من مقلتي العذراء، حينها عرفت أنها تسامحني على ما أنا فيه.

ترقرقت الدموع في عيني الراهبتين، أما حواء المؤمن فاستمرت في صمتها، لكنها وبشكل لا إرادي مدّت يدها باحثة عن يد إيفا أومسك، التي عرفت أنها تريد كفها، فمدت يدها إليها، وأحست بكف حواء المؤمن تضغط بشدة عليها، تلك الشدة التي تمنح القوة والعزيمة والتضامن والمحبة، فنزلت دمتان من مقلتيها، ضغطت هي بدورها على كف حواء المؤمن استجابة منها لمشاعرها التي لم تستطع أن تعبر عنها بالكلمات. نظرت الراهبتان لحركة حواء المؤمن فابتسمتا لبعضهما البعض وعيونهما مليئة بالحنان والتسامح. في هذه اللحظة بالذات قامت الراهبتان. وقفت إيفا أومسك أيضًا. شعرت حواء المؤمن بوقوف الجميع فوقفت. توجهت الراهبتان للخروج، بينما قالت الراهبة الشابة لحواء المؤمن:

- سنمر عليك في وقت قريب أيضًا. نحن نسكن هنا بالقرب منك. ليحفظكما الرب. وأنت يا إيفا، حسن فعلتِ باعترافك. ستشعرين بالراحة، إنها راحة النعجة الضالة حينما تعود أخيرًا إلى حظيرتها مع بقية الأغنام. نحن نعاج الرب التائهة. ليحفظك الرب، وليتقدس اسمه.

أوصلتهما إيفا أومسك إلى الباب، خرجتا. ظلت هي واقفة عند الباب. أحست بشيء غريب في هاتين الراهبتين، أرادت أن تتابعهما بنظرها، لكنهما اختفيتا فجأة من أمام نظرها. خرجت لتتابع نزولهما على درجات السلم لكنها لم تر شيئًا. سمعت أصوات أقدام تهبط، لكن لم يكن هناك أحد. استغربت ذلك، لكن ذهنها لم يذهب بعيدًا في تتبع ذلك. رجعت إلى الصالة، فرأت حواء المؤمن ساهمة تنظر في اللا مكان. جلست على المقعد الجلدي. أحست بشيء غير طبيعي يتفاعل في داخلها. نظرت إلى وجه حواء المؤمن الجميل، فانتبهت لمسحة الحزن التي زادت وجهها جمالًا. فجأة سألت:

- من أين تعرفين هاتين الراهبتين؟
- أعرفهما منذ أن كنت في مدينتي الأولى بغرب ألمانيا.
- هما طيبتان جدًا، لكن أشعر بغربة أمرهما. لا أعرف، أحس بغربة الأمر كله. كيف تمكنتا أن تدفعاني إلى الاعتراف؟
- إنكِ أردتِ أن تحكي لي قبل وصولهما أصلًا.
- هذا صحيح، لكنني لم أكن أفكر أن أروي كل هذه التفاصيل، فكيف مارستا تأثيرهما عليّ كي تدفعاني إلى الاعتراف؟ على أي حال أشعر براحة كبيرة الآن. لكنني أريد أن أسألك شيئًا.
- أسألي.

- هل أنتِ مؤمنة يا حواء؟ أنا أعرف أنكِ مسلمة، لكن ليس كل مسلم مؤمن، مثلما ليس كل مسيحي مؤمن، لأننا لا نختار ديانتنا، نحن نتوارثها من والدينا، فهل أنتِ مؤمنة؟

برقت عينا حواء المؤمن، وارتجفت شفتاها، وقالت بحزن:

- حينما انحرف عن الطريق السليم، الطريق الذي يقودنا إلى الله، حينما انحرف عن هذا الطريق تحتفي الملائكة، ولا نجد سوى الشياطين التي تترصدنا، وتتربص بنا، وتجربنا بغواية في كل منعطف، وزاوية، وتقودنا بعيداً بعيداً، في دهاليز مظلمة، تقود إلى وادي الظلمات. وحينما نلتفت إلى الوراء نرى دائرة الضوء تكاد تختفي، لكننا في أكثر الأحيان نكون قد تعبنا، بل ونكون نحن قد أنهكنا أجسادنا بملذات الطريق العابرة، بحيث عندما نرغب بالعودة لا نجد القدرة على ذلك، فنظل في وادي الظلمات نتعثر بأخطائنا، ولا ينقذنا سوى ما تبقى من نور في أعماقنا. نعم. نحن نولد وفي أعماقنا شمعة مضيئة، نور يقودنا في ليل الطريق، لكننا حين انحرف عن الطريق ونتوغل في منعطفات وادي الظلمات نكون قد استنفدنا الكثير من هذا النور، وكلما ابتعدنا في أعماق الظلام ذبلت الشعلة في أعماقنا، لذا علينا أن نحذر كل الحذر من انطفاء هذه الذبالة من الشعلة المتبقية في أعماقنا، لأنها لو انطفأت، يكون الإنسان قد مات في أعماقنا، ونتحول إلى مجرد وحوش آدمية، شياطين من لحم ودم.

- لكنك لم تجيبي عن سؤال، هل أنت مؤمنة؟ سألت إيفا أومسك ثانية.

- وكيف يمكن للإنسان أن يعيش بلا إيمان؟ أنا لا أعرف كيف يجروُ البعض على ألا يؤمن؟ أنا لا أقصد الدين، وإنما أقصد الإيمان بالله. إن من يرى الأديان، وما يفعله رجال الدين، بل ومعظم الناس باسم الدين فلا يجد أمامه سوى أن يكفر بكل الأديان، ويلعن الأديان جميعها. لكن الدين شيء، والإيمان بالله شيء آخر.

- خفت أن يكون ما جرى لك، قد هزَّ إيمانك!

- بلى. لقد انطفأ بصري، لكن نور الشمعة في داخلي لم ينطفئ بعد، بل اشتد وهجه، لكن أود أن تحدثني عن عالمك. أقصد عن هذا العالم الذي تعيشه يومياً. أريد أن أعرف ما هو عمل المومس، أقصد، تفاصيل عملك. كيف تشعرين وأنت تلتحمين مع رجال عديدين يومياً؟

- سأحكي لك كل شيء بالتفصيل الممل. لكن دعينا نعد لأنفسنا عشاءً، أم أنت لست جائعة؟
- بلى. لكن لا أعرف ماذا يعجبك.
- هل تحبين أن تأكلي المشويات، أم البيتزا؟
- أي شيء يعجبك أنت، فلا فرق عندي.
- دعيني أحجز بالتليفون من المطعم اللبناني القريب ليحمل لنا المشويات والمقبلات، فأنا أشتهي الليلة أن أكل شيئاً لذيذاً.
- نهضت أيفاً أومسك، لكنها انتبهت إلى أنها نسيت جهاز الهاتف النقال في شقتها، فقالت:
- نسيت هاتفني في البيت، سأطلب لنا عشاءً، وآتيك. سأترك الباب مفتوحاً، لأنني لن أتأخر سوى دقائق.
- ولماذا لا نعد عشاءنا هنا؟
- لا. سيأتي العشاء جاهزاً. أنا أدعوك الليلة.
- ولكن أنت عندي ويفترض أنا التي أدعوك.
- لا فرق.

وقامت خارجة لتأتي بهاتفها النقال، شعرت حواء المؤمن بالخرج، لكنها كانت متلهفة، تدفعها رغبة داخلية خفية لمعرفة عالم المومسات، وتفاصيل عملهن، ومشاعرهن، وكانت تنتظر عودة إيفاً أومسك لتحكي لها عن هذا العالم الذي يكاد يكون منطقة مظلمة في أعماقها. وكأن هناك رغبة خفية في أن تكون مومساً، أو أنها اعتبرت نفسها مومساً منذ منحت نفسها لأب زوجها الدكتور آدم التائه ذات ظهيرة صيف عراقي لاهب!

آدم البغدادي: أعتقد أن اعترافات إيفاً أومسك جنحت بالرواية إلى منطقة خطيرة. فهي مكشوفة وصریحة، وفيها شيء من الفضائحية. وربما ستعرضها

للنقد الجارح. وربما ستزعج بعض السياسيين العقائدين، لكن من ناحيتي يجب أن أكون أميناً للشخصيات وشطحاتها. ربما يمكن النظر إلى كل ما روته إيفا أومسك باعتباره اعترافات لراهبتين، وفي الاعترافات الدينية لا يتم الحديث إلا عن الخطايا والآثام.

صحيح هناك من سيبتسم ويقول كفى هذه الألعاب الروائية، فأنت في كل الأحوال كاتب هذه الكلمات، ولو لم تشأ لما كتبتها، لكن لا أحد سيصدق بأن الشخصيات أحياناً تتمرد على المؤلف. عموماً، أنا أجد أن اعترافات إيفا أومسك شيء طبيعي لامرأة أوروبية. لقد كانت إيفا أومسك تشعر وكأنها أمام قديسة في كنيسة. وكان يمكن أن يكون ذلك فعلاً أمام كرسي الاعتراف. ما الفرق؟ لقد كانت إيفا أومسك تعترف بخطاياها لتتخفف منها، لكنها لم تعلم بأنها لم تفعل سوى أن ألقت بحملها على قلب حساس وروح جريئة وقلقة مثل حواء المؤمن. فحواء المؤمن ليست كاهناً أو راهباً، أو أباً أو أختاً في كنيسة. إنها روح في البرزخ ما بين الواقع واللا واقع.

حينما قرأ آدم المحروم هذا الفصل ذهل من جرأة صديقه آدم البغدادي في ذكر كل هذه التفاصيل الجنسية التي تخللتها اعترافات إيفا أومسك. وحينما قرأ الهامش الذي كتبه في نهاية الفصل ابتسم مع نفسه، وفكر أن آدم البغدادي يحاول أن يجد تبريراً أدبياً لجرأته في كتابة هذه الاعترافات على لسان إيفا أومسك، وقد أحضر الراهبتين عمداً ليصور الأمر وكأنها اعترافات أمام الرب. شعر آدم المحروم بنفسه مزدحماً بالأحلام الجنسية. تذكر أنه رأى مثل هذه المشاهد في بعض الأفلام، لكنه لا يعرف بالضبط أي الأفلام، لكنه ومن خلال تجربته، أقر ببعض هذه التفاصيل. انتبه إلى أنه لم يبق الكثير من هذه المخطوطة. وضع الأوراق التي قرأها في جانب من الحقيبة، وما تبقى في الجانب الآخر كي يستطيع سحبها بسهولة. فكر أنه مقبل على مغامرة جبارة. غداً سيسافر الآب، وسيبقى وحيداً مع حوائه.

تحولات الكائن العجيبة

فَرَّ آدم المحروم على صوت انفجارات عديدة هزّت البيت. أحس أنه لم يأخذ كفايته من النوم. نهض بقلق. ألقي نظرة إلى خارج الغرفة من النافذة التي تطل على الحديقة الصغيرة، فأدرك أن الوقت ما زال مبكرًا. وخلال تلك اللحظات سمع دوي انفجارات أخرى، لكن يبدو أنها وقعت في أماكن بعيدة متفرقة من بغداد. كان الغبش قد سحب شاله الفضّي من سماء المدينة المحاصرة بالأحقاد التي تحرق الأرواح، والسماء صافية، وبدأ نور الصباح يضيء الكون. تذكر أنه، حينما كان صغيرًا بل وحتى في مراهقته، كان يصحو على زقزقة العصفير على أغصان سدر الجيران، وعلى نواح الحمام، وصياح الديكة. لكنه صار لا يسمع زقزقة العصفير بل ولم يعد يراها في سماء بغداد! سأل نفسه إن كان الأب قد خرج مسافرًا، إذ هو يستيقظ دائمًا للصلاة، ولو كان موجودًا لفَرَّ على صوت هذه الانفجارات المدوية، التي كان اثنان منها قرييين من منطقتهما.

أحس برغبة في التبول، لبس بنطاله وقميصه، توجه بهدوء إلى المرافق الصحية، بعد ذلك عاد إلى الصلاة. أراد أن ينام ثانية لكنه لم يستطع. ظل لدقائق يحاول النوم لكنه على عكس ذلك، فقد شعر بنشاط لا يتناسب مع قلة ساعات النوم التي أخذها. أراد أن يتمشى قليلاً في الحديقة، وأحس برغبة في أن يذهب لشراء الخبز من المخبز القريب ما دام صاحبًا.

ما إن همّ بالخروج حتى سمع وقع خطوات خلفه، وصوت حواء الزاهد تلقي عليه تحية الصباح. التفت إليها فوجدها تنظر بفزع، ففهم على الفور بأنها

فَزَّتْ على صوت دوي الانفجارات التي هزت صباح بغداد الشاحب. كانت نظراتها وكأنها تستفهم منه سبب خروجه الآن. ودون أن تسأله قال لها:

- أردت أن أذهب إلى المخبز لشراء الخبز. لقد طار النوم من عيني بعدما استيقظت فزعًا على دوي الانفجارات. وفكرت في الذهاب لشراء الخبز.

قاطعته حواء الزاهد قائلَةً، بعد أن أحست بشيء من الراحة لجوابه:

- لقد اشتريت الخبز أنا فجراً، إذ حضّرت الفطور لأبي، وعندها خرجتُ لشراء الخبز الحار.

- هل سافر الحاج؟

- نعم.

- ولماذا لم توقظاني لوداعه وتوصيله إلى الكراج؟

- لم يقبل هو ذلك. قال لندعك تنام، فأنت تحتاج للراحة.

أحس آدم المحروم بمشاعر متناقضة، بالاكبار لموقف الأب آدم الزاهد، وبالفرح الخفي لأنه سافر، وأنه الآن وحده مع ابنته. شعر كلاهما بالهرج، وكأنهما كانا يفكران في هذا الأمر في اللحظة ذاتها. جلس على الكنية. ظلت هي واقفة. كانت لا تعرف ماذا تفعل، فهي لا تريد أن تغادر الغرفة، وتريد أن تتحدث معه، لكنها لا تعرف كيف تواصل الحديث أو تجد مبرراً لوجودها معه في هذا الوقت في الصلاة. سألته:

- هل تريد أن أعد لك الفطور؟

- لا أريد أن أضايقك.

- أبداً، يسعدني ذلك. هل تريد أن أحمل الفطور لك إلى هنا أو إلى غرفة المكتبة؟

انتبه إلى أنها تشير إلى أن يذهب إلى غرفة المكتبة التي لم تطرأ على ذهنه أبداً أن يختلي بها هناك، «ربما هي أرادت ذلك كي لا يفاجئنا ابنها الذي ينام معها في سريرها في الغرفة المقابلة للمطبخ»، فكّر مع نفسه. نظر إليها

فأحس أنها مثارة في هذا الفجر البغدادي. لا سيما وأن طعم قبلاتهما مساء أمس ما زال يوقظ الرغبة في جسديهما. ابتسم لها ابتسامة ذات مغزى وكأنها تؤكد على ما بدأه في المشتمل مساء أمس، وقال لها:

- هناك أفضل طبعًا. هل الملاك الصغير نائم؟

ارتسمت ابتسامة جذابة على وجهها الجميل، وكأنها فهمت مغزى إشارته، وقالت:

- إنه لا يستيقظ الآن، ربما بعد ساعة أو ساعتين.

- إذن. سأصعد قبلك إلى هناك.

غادرت هي الصالة مرتبكة بالرغم من أن عينيها اتقدتا بالفرح والرغبة الجارفة، بينما صعد هو إلى الأعلى بخطوات خفيفة، وكأنه لص لا يريد إيقاظ أهل الدار.

كانت حواء الزاهد مرتبكة جدًا. دلفت إلى غرفة الحمام ونظرت إلى وجهها في المرآة. وبراحة كفها أخذت تفرك وجتيها لتحمرا قليلاً، ويصعد الدم لوجهها. شفتاها لا تحتاجان لأي أحمر كي تمنحهما اللون القاني. رجعت ثانية إلى المطبخ. كانت تستعجل النار لكي تعجل بغلي الشاي، قبل أن ترفعه عن عين الطباخ المتقدمة. وضعت رغيف خبز ما زال يحتفظ ببعض دفئه، ووضعت صحنين للقشطة وللعلس، ووضعت كل ذلك في صينية كبيرة وأخذت تصعد الدرج بهدوء.

وقفت عند باب غرفة المكتبة مترددة. كانت تعرف أن شيئًا كبيرًا سيحصل بينهما، فهي لم تنس جرأته مساء أمس، حينما قبلها وداعب كل مناطقها الحساسة. أخذت ترتجف من الرغبة والخوف. أرادت أن ترجع نازلةً. فأصدرت صوتًا خفيًا، التقطته أذناه اللتان كانتا تنصتان، فقام فاتحًا لها الباب، فاسحًا لها الطريق كي تدخل إلى غرفة المكتبة.

لا تعرف هي بالضبط كيف جرت الأمور. ما إن دخلت حتى قبض على يديها. أخذ الصينية منها، ووضعها جانباً، وبدون أي مقدمات أخذها بين أحضانها. لم تعلقه العباءة كما في الأمس، لأنها كانت في ثوب بيتي عريض فضفاض، ولا حقيته الجلدية التي يحملها دائماً. كانت هي متهتئة، كانت سهلة. أخذ يقبلها من شفتيها، ويمصهما. وينحدر إلى رقبتها، بينما يده تقبض على وسطها الأسفل. وبدون تردد ألقاها على الكنبه القصيرة في إحدى الزوايا. كانت هي تعرف أنها تنزلق إلى الهاوية. عقلها يمنعها من ذلك لكن جسدها لا يستجيب لعقلها. أخذ يقبلها من عنقها وأذنيها اللتين أشعلتا النار في جسدها، لم تعرف مثل هذه القبل سابقاً. كان كل شيء يجري بصمت، إذ كانا بالرغم من هيجانهما يحاولان الكتمان كي لا يوقظا الصغير. فتح هو حزام بنطاله، فارتعبت من حركته، لكنه لم يمنحها فرصة لأي رد فعل عقلي، إذ أراد أن يشل إرادتها. ألقى بنفسه عليها فأحست بثقله الذي بعث الخدر في أوصالها. ومد يده إلى نهديها. سحب ثوبها من أحد جانبيه ليبرز القسم الأكبر من نهدها، وليكبل يدها وكتفها، وبذلك شل حركة يدها. أخذ يمص حلمتي نهديها، بينما يده تفك أزرار بنطاله، ثم سحب ثوبها إلى الأعلى. كانت هي تشعر بأنها تغرق في طوفان اللذة التي لم تعرفها سابقاً قط. أحس بلحم فخذها الأملس الطري. فجأة أحست بيده هناك. في موضع أسرارها، في نبعها الرطب. أحست وكأنه سيغمى عليها، ثم أحست به يفرج فخذها ويصير هناك، بينهما، وها هي تغرق. أحست بعضوه يخترقها. كانت تهتز وترتجف من تيارات اللذة الجارفة. كانت وكأنها تشعر بطعم الرجل لأول مرة في حياتها. كان آدم المحروم يصعد وينزل فيها بعنف. كانت تشعر أنه لها، وأنها صارت ملكه هو، هو وحده، وأنها تولد من جديد. أحست أنها تودع تلك الحواء التي كانت. إنها الآن تشعر وكأنها امرأة أخرى. وفي لحظة ما، أحست به يدفعها بكل قوة وعنف، بينما كان رحمها ينقبض ويرتجف من الذروات المتكررة، وأحست به يغمرها بمائه. فزّت، إذ فجأة

فكرت بالحمل، لكنها طمأنت نفسها بأنها أول أمس كانت قد غسلت نفسها من الطمث. ظلت ترتجف من اللذة حتى بعد أن هدأ هو فيها.

ظل هو فيها للحظات ثم انسحب عنها. غطت نفسها مباشرة إذ سحبت الثوب للأسفل. صمت كلاهما. كانا لا يعرفان ماذا يقولان لبعضهما. مدت يدها فاحتضنها، وأجلسها على الكنبه. ألقت رأسها على صدره، وكأنها تستنجد به. كانت غير نادمة، كانت تحت تأثير النشوة التي وصلتها مرات عدة خلال هذا التواصل القصير. كانت قد أطلقت كثافة من الرغبة العميقة في أعماقها للفعل الجنسي ظل حبيسًا لسنوات. لذا لم تكن مرعوبة مما قامت به وإنما شبه مخدرة، لكنها بالرغم من ذلك سألته بارتباك:

- هل ما قمنا به صحيح؟
- ولماذا لا يكون صحيحًا؟
- أنا امرأة متزوجة.
- ثم ماذا؟ أنتِ امرأة شابة متزوجة، لكنك محرومة من الزوج منذ سنوات، هل تعتبرين نفسك متزوجة؟
- نعم متزوجة، وزوجي في السجن.
- لكنك لا تحبينه.
- ثم ماذا؟ هذا لا يبرر ما أفعله.
- لكنك كنت تتعذبين بدون رجل.
- نعم. هذا صحيح. بل، وبصراحة، هذه أول مرة أعرف فيها معنى الذروة، والعرشة.
- لقد أحسست ذلك.
- لكن هذا الفعل هو زنا.
- هكذا يسمى في الأديان.

- وفي القانون. أيضًا.
- لكننا نحب بعضنا.
- أنحب بعضنا حقًا؟ أو أنها الشهوة التي تزين لنا ذلك فنطلق عليها اسم الحب؟
- ما هذا الذي تقولين؟
- لا تخف، أنا لا ألوّمك أنت، فأنا التي طاوعتك على ذلك.
- لكنني أحبك.
- وهل تعتقد حقًا أنك تحبني، بينما أنت لم تراني سوى مرات قليلة؟
- ماذا بك؟ هل أنت نادمة؟
- لا. لست نادمة. أحس أنني صرت أخف. لكنني أخشاك أنت.
- تخشيني؟!
- نعم. ربما الأمر بالنسبة إليك لا يتعدى نزوة عابرة، وإغواء امرأة محرومة من الجنس.
- أنت تسيئين فهمي يا حواء.
- أتمنى ذلك. لأنزل، علي أن أذهب لأغتسل.
- ولم تنتظر أي رد منه. خرجت وتركته في حيرة، لكنه كان في أعماقه يشعر باسترخاء كبير وبشوة الانتصار. فكر مع نفسه أنه أخيرًا استطاع ترويض هذه اللبوة الشرسة التي بدت له كحصن منيع عالي الأسوار لا يمكن اقتحامه، لكنها تهاوت أمام محاولاته، أو بشكل أدق أمام شهوتها الجامحة. التفت إلى صينية الفطور. مد يده إلى دورق الشاي متلمسًا فوجده ما زال ساخنًا. أحس بجوع شديد ورغبة في الأكل، فأحاط بالصينية وأخذ يلتهم الطعام الشهي.

انتظر لأكثر من ساعة فلم تصعد إليه. أحس بأن ثمة شيئًا غير طبيعي. نزل ببطء شديد إلى الأسفل، إذ كان مع كل خطوة يتوقف متنصتًا عسى أن

يسمع شيئاً، لكنه لم يسمع أي شيء! حينما وصل إلى أسفل السلم نظر إلى أعماق غرفة نومها فلم يرَ أي أثر لها، لكنه رأى الصبي غارقاً في نومه البريء. توجه بخفة نحو المطبخ فلم تكن موجودة. فجأة سمع صوت انهمار الماء في غرفة الحمام التي كان بابها ليس مغلقاً بشكل نهائي. دفع الباب قليلاً، فهاله ما رأى. كانت حواء عارية تماماً، وهي تقف تحت الدش. كانت مثل لوحة لأفروديت التي شاهدها في إحدى ألبومات اللوحات الفنية الموجودة في متحف اللوفر، أو تلك اللوحة الشهيرة لحواء وآدم وهما تحت الشجرة، سوى أن حواء ذات شعر أسود وشفاه حمراء كالكرز. ما هذا الجمال المذهل؟! انتهت هي لوجود أمام فرجة الباب. فوضعت دون إرادة منها يدها على فرجها المشعر ويدها الأخرى مدتها لتغطي نهديها. لم يستطع هو أن يقاوم نفسه بالامتناع عن الدخول. فتح الباب ووقف منذهلاً أمام أنوثتها الطاغية. تقدم نحوها فرفعت يدها التي كانت تغطي بها أسفل بطنها ومدتها في إشارة له بأن يتوقف. كانت هي في وسط البانيو. أوقفت انهمار الماء بتحريك مقبض أنبوب الماء. تقدم نحوها بالرغم من إشارتها له بالتوقف. كانت هي مسلوبة الإرادة. لا تستطيع الصراخ خوفاً من أن توظ ابنها، وفي الوقت نفسه كانت تخاف من نفسها، لأنها أخذت تحس أنها تنجرف في تيار اللذة والمتعة المحرمة، كما خافت من جرأته المجنونة.

وصل هو إلى حافة البانيو. جثا على ركبتيه، فصار رأسه قريباً من وسطها. وبدون شعور، وبصورة مباغته ضمّها من وسطها إليه دافئاً رأسه أسفل بطنها، مقبلاً إياها من هناك. كانت هي مندهشة من هذا التصرف العجيب من قبله. لم تكن تتصور بأن الرجل يمكن أن يقبل المرأة من ذلك الموضع. أحست بنشوة تسري في جسدها. ضمت رأسه بكفيها. وبصوت خافت، ومتوسل طلبت منه أن يخرج فربما يستيقظ ابنها. رجته متوسلة، أن يخرج قبل أن

يصحو ابنها، ووعدته بأن تأتيه ما إن تنتهي، إلا أنه لم يكن يسمعها. جمد كلاهما حينما سمعا صوت الابن الصغير يناديها. رفع رأسه عن جسدها. دفعته جانباً وقفزت خارج البانيو. أخذت ثوبها العريض وارتدته مباشرة دون أن تلبس أي شيء تحته. واندفعت إلى غرفة النوم، لكنها لم تتسّ وهي تخرج من غرفة الحمام أن أشارت له بأن يبقى إلى أن تدخل هي إلى الغرفة وتنيمه ثانية. كل هذا أوضحته له بإشارات سريعة، واختفت.

دخلت حواء الزاهد غرفة نومها وأغلقت بابها بطريقة انتبه هو لها بأنها تتيح له الخروج بأمان من غرفة الحمام، فخرج صاعداً إلى غرفة المكتبة كاللص، وحينما صار هناك شعر وكأنه تخلص من فخ عظيم، أحس بهول ما اقترفه، ومن جنونه العجيب مع النساء. فكر أنها هائلة الفتنة حقاً. أحس نحوها بحب كبير، وفكر بأنه لا بد أن يتزوجها.

صحيح هي لا تعرف أن زوجها قد مات، لكنها لا بد أن تعرف ذلك بعد عودة الأب. وبعد مرور أشهر العدة لا بد أن يفتح أباها، وبالتأكيد سيسألها وستقبل. فكر أنه لا بد له أن يستغل هذه الأيام التي يغيب فيها الأب لكي يجعلها لا تستطيع أن تبتعد عنه. عليه أن يقودها في مملكة اللذة، عليه أن يعلمها كل الأوضاع الممكنة، ومناطق اللذة التي لم تتعرف عليها بسبب الحياء والتقاليد الاجتماعية والتحفظ الديني. وفجأة، تذكر رواية صديقه الكاتب آدم البغدادي (مناهة حواء وادي الظلمات) عليه أن يجعلها تعيش عالمًا آخر، بحيث تبقى أسيرته هو. لكن هل سيقضي اليوم كله في البيت معها؟ ألم يتفقا على أن تذهب معه لشراء أثاث للمشتغل الذي استأجره! نعم، فهناك سيكون أكثر حرية، ثم أن الأب ربما يتصل، بالرغم من أنه يشك في أنه سيتصل لأنه لا يريد أن يخبرها وهو هناك بمصير زوجها إلا بعد

عودته. وأثناء تفكيره أحس برغبة كبيرة في أن يراها. ما الذي يجري معه؟ سأل نفسه، إنه هو الذي صار لا يستطيع مفارقتها وليست هي.

أخذ الصينية وخرج بها نازلاً. وبحركة واضحة لكي تنتبه أنه ينزل. حين صار في أسفل السلم دخل إلى المطبخ ووضع الصينية هناك، ثم خرج إلى الصالة. انتبه إلى أن قميصه كان مبللاً قليلاً نتيجة ضمه لجسدها العاري والمبتل. جلس هناك على الكنب في الصالة، وبعد لحظات سمع صوت فتح الباب، وفجأة ركض الصبي الملاك إليه، فأخذه بأحضانه وأخذ يقبله ويشمه، وظهرت هي عند الفتحة التي تربط الصالة مع بقية البيت. نظرت إليه بحب. التفت إليها قائلاً:

- أعتقد أننا اتفقنا أن نشترى بعض الأثاث اليوم، أليس كذلك؟
- صحيح. لكن الوقت الآن مبكر. لنشرب الشاي ومن ثم نخرج جميعنا.
- أنا شخصياً فطرت.
- اشرب الشاي إذن.
- لا مانع. لكن أفطرا أنتما.
- نظرت إليه بغنج وقالت جملة لم يكن يتصور أنها ستنطقها، إذ نظرت إليه بنظرة ذات مغزى وقالت:
- أنا أيضاً فطرت، لكن أي فطور.
- كيف كان؟ سأل بخبث وهو يبتسم.
- لم تجب وإنما أخففت بصرها حرجاً مع ابتسامة تنم عن دلال أنثوي فيه غنج فطري.
- ستفطرين عليه يومياً وفي كل وقت.
- لم تقل شيئاً وإنما نظرت إليه نظرة امتزج فيها الحياء بالغواية، ومضت وهي تلقي كلمتها قائلة:
- سنرى.

دخلت هي وابنها إلى المطبخ، بينما ظل هو وحيداً في الصالة. فكّر مع نفسه في تحولات الكائن العجيبة. هذه المرأة التي كانت حتى الأمس امرأة متدينة، مكبلة بقيود الدين والتقاليد، والخوف الاجتماعي، تتصرف اليوم وكأنها امرأة أخرى، وكأنما كل ما كان هو قناع لها ولشخصيتها، وها هي الآن تنزعه وتظهر على حقيقتها الشهوانية، الداعرة، المتهتكة!

مملكة الشيطان المؤمن

كان ذلك اليوم مكتظاً بالأشغال بالنسبة لهما. فقد خرجا مع الملاك الصغير، حيث مروا على محل الأثاث المستعملة، واشترى ما يحتاجه، غرفة نوم بسيطة، تتألف من سرير عريض لشخصين، ظلا يتبادلان النظرات ويتسلمان ابتسامة ذات مغزى وهما يتفحصانه، وخزانة تتألف من أبواب عدة، مع عدة صغيرة من طاولات وطقم كنبات بسيط، واتفقا مع صاحب المحل على النقل والتركيب، ولم تكن غالية الثمن، كما مروا على محل الكهربائيات فاشترى جهاز تلفزيون متوسط الحجم، وغلاية كهربائية للماء من أجل إعداد الشاي، وثلاجة، واتفقا أيضاً مع صاحب المحل على نقلها، وحينما انتهيا من الشراء اتفقا على أن يذهب هو إلى المشتمل ليبقى هناك وليساعد العمال عند الضرورة بينما هي تعد الغداء.

عملية تجهيز المشتمل قربت بينهما جداً، إذ أحسّت هي وكأنها زوجته، تهتم بكل كبيرة وصغيرة، بل لقد أبدت موهبة خلال التعامل على الأسعار مع صاحب محل الأثاث، بحيث أنزلت السعر إلى نصفه، وكذا الأمر مع صاحب الأدوات الكهربائية حيث أخفضت من السعر المكتوب على جهاز التلفزيون رבעه تقريباً. انتبه كلاهما إلى أنهما كانا يتصرفان أمام أصحاب المحلات وكأنهما زوجان، وهذا ما بث الفرحة في نفسيهما، وحتى حينما افترقا لإنجاز بقية الأعمال، توادعا بسهولة وبدون رسميات. وبينما كان هو في المشتمل مع العمال الذين كانوا يجهزون الغرفة ويركبونها، وبقية العمال

الذين نصبوا التلفزيون وأخذوا يجربون البث، قامت هي بجولة سريعة في الأسواق التي في رأس شارعهم، ومن هناك اشترت الصحون والملاعق وكل ما يتعلق بأدوات المطبخ بأعداد قليلة لا تتعدى الأربع أو نصف درزين من كل أنواع الصحون والأقداح. لكنها لم تذهب بها إلى المشتل بل أبقتها في بيتها، وكانت قد اشترتها من مالها دون أن يعرف. أرادت أن تقدم له هدية. شعرت حواء الزاهد منذ صباح ذلك اليوم بأنها تحب لأول مرة في حياتها، وأدركت لماذا يتحدث الشعراء عن الحب، ولماذا يبكي العشاق من حرمان الحبيب وهجرانه. الآن أخذت الأشياء تأخذ معنى آخر بالنسبة لها. شعرت أن هذا الرجل الحبيب صار جزءاً أساسياً من حياتها.

استغربت أن ضميرها لم يعذبها كثيراً، فقد مرّت سنوات على اعتقال زوجها، التي لم تشعر يوماً ما نحوه بعاطفة، بل ولم يستطع أن يفجر ينباع اللذة في جسدها، حتى كادت تنسى أنها متزوجة أصلاً. الآن، ليس في عالمها سوى هذا الرجل الجديد، الجريء، الذي عرف كيف يروضها، وكيف يفرض نفسه عليها، ويقتحمها، ويدخل فيها بكل قوة. لأول مرة تعرف اللذة، وهذه النشوة السماوية، والارتعاشات الكهربائية التي تكاد يغمى عليها من قوة سريانها في جسدها. بدأت تدرك لماذا يتصارع العالم كله من أجل النساء، ولماذا أخرج الله أبانا آدم من الجنة، ولماذا يسعى الرجال إلى السلطة، لأنها تعني المزيد من النساء، ولماذا وضعت الأديان التي أسسها الرجال الحدود للنساء، بحيث تقيد حركتهن، لأنهن أكثر إدراكاً لأهمية الجنس في الحياة.

أول الأمر شعرت بشيء من الخجل حينما تذكرت ما جرى صباح اليوم في الحمام، وكيف أنه قبلها من تلك المنطقة التي كانت تخفيها بيديها، وكيف شعرت أنه كاد يغمى عليها من اللذة حينما أحست لسانه هناك، لكن كلما تنوغل في الاستذكار واسترجاع المشهد ينقشع عنها الخجل،

وتتصاعد في أعماقها الرغبة من جديد، وترحل في تخيل مشاهد أخرى من صنع مخيلتها، لذا فهي تتمنى عودته سريعاً، لكن ماذا ستفعل مع ابنها؟ كيف يمكنها أن تعيش حياتها دون أن ينتبه هذا الصغير حتى ولو كان في الخامسة من عمره؟ إذن عليها أن تنتظر إلى الليل وبعد أن ينام الصغير.

كان الوقت مساءً حينما كانت هي مستغرقة في تخيلاتها الشبقية. في المشتمل كان العمال قد انتهوا من إنجاز كل شيء. أعطاهم بعض النقود كإكرامية لهم على جهودهم، بالرغم من أن التركيب والنقل كان ضمن السعر. وحين عاد إلى البيت كان الظلام قد حلّ على المدينة المنطوية على ذاتها. كان جائعاً فعلاً، فوجد أنها قد أعدت له الأرز مع الفاصوليا التي تعرف أنه يحبها، وعلى الرغم من أنها كانت سعيدة سعادة حقيقة بعودته إلى البيت إلا أن شيئاً من القلق كان يرسم على وجهها. أخذ هو الصغير بالأحضان والقُبُل. كانت عيناها تبرقان وتشعان بالفرح والامتنان والسعادة الحقيقية، لكن ما إن تنقل نظراتها عنهما حتى تشع عينها بشيء من القلق، فسألها بود ظاهر:

- هل حدث شيء؟ هل هناك شيء؟

ارتبكت لأنه لمح قلقها، فقالت:

- لقد اتصلت بأبي لكن تليفونه كان مغلقاً.

- ربما لم يصل بعد، فالبصرة بعيدة جداً، ومن هناك عليهم أن يتجهوا إلى الفاو، ومن ثم إلى المنطقة القريبة من سجن بوكا. لذلك حتى لو كان قد وصل فإن التعب لن يترك له مزاجاً لكي يتصل، وأكد أنه سيتصل.

- ليست المشكلة أنه لم يتصل، المشكلة هو أنني اتصلت لكن هاتفه النقال كان مغلقاً.

- هوني عليك يا ح...

أراد أن يقول لها يا حبيبي، لكنه أمسك، لأنه خاف من أن يفهما الملاك الصغير. ابتسمت لأنها عرفت أنه أراد أن يقول لها يا حبيبي. نظرت إليه بعيني عاشقة، لكنها سرعان ما فكرت مع نفسها بأنه ربما أراد أن يذكر اسمها «حواء»، ولم يكمل. نظرت لصغيرها وقالت له:

- انزل يا حبيبي، عمو تعبنا، خيلنا نأكل وبعدين نلعب.

أنزل الصغير من حضنه وجلس على الكنية المقابلة للشباك وأخذ الريموت كونترول فضغط على زر التشغيل فبدأ التلفزيون ييث من إحدى القنوات العراقية برنامجاً توجيهياً في الشريعة، وكانت إحدى النساء المنتقبات تتحدث عن الحجاب، وتشدد على أن ضحكة المرأة عورة، بينما كان المذيع يسألها أن تشرح له معنى ذلك، فأخذت تؤكد بأن المرأة حينما تضحك وتثير بصورتها الرجل فكأنها قد كشفت عن عورة لها. لم يتحمل سماع كل هذه الشعوذة الدينية، وفكر بهذه البلاد التي تتجه إلى المجهول، فأخذ يتنقل بين القنوات، واستقر على قناة تبث أفلاماً بالإنكليزية لكنها مترجمة إلى العربية. خلال ذلك ذهب حواء الزاهد ومعها الصغير إلى المطبخ.

لا يدري آدم المحروم عن سبب الحزن الذي هاجمه فجأة، إلا أنه سمع تلك المرأة التي هي عضو في برلمان بلاده تتحدث عن ضحكة المرأة كعورة. تذكر هجمة بعض أعضاء مجلس العاصمة بالتوجه لإغلاق البارات ومحلات بيع المشروبات الروحية، وإغلاق المطاعم أو النوادي الليلية في الفنادق، بل وتوجهوا إلى اتحاد الأدباء والكتاب العراقيين أيضاً لإغلاق مطعمه وناديه الذي يرتاده بعض الشعراء والكتاب والصحافيين، وعلى الرغم من أنه لا يشرب ولا يدخن، بل أحياناً متباعدة يشرب كأساً من النبيذ، لكنه رفض ذلك باعتبار أن هذه الإجراءات هي ضمن خطة مدروسة وممنهجة لتحويل العراق إلى أفغانستان ثانية. فكر مع نفسه، إلى أين هم يتجهون؟ ومن أي كهف خرج كل هؤلاء القادة فجأة، بينما لم يسمع أحد عنهم سابقاً؟ وكيف جاءت بهم

أمريكا إلى سدة الحكم، بل وتعارض أي توجه لإزاحتهم؟ أهذه هي بلاده التي خاضت معركة تحرير المرأة منذ حوالي قرن من الزمان؟ ألم يكن الزهاوي يغرد بقصيدته التي حفظها حينما كان في الثانوية: اسفري فالسفور للناس صبح زاهر، والحجاب ليل بهيم! أهذه هي بلاده التي استمدت منها العلوم والحضارة؟ وبدون شعور، بدأ يدندن مع نفسه، لكن بصوت مسموع، قصيدة للشاعر عبد الوهاب البياتي، وشيئاً فشيئاً تعالى صوته بحيث صار مسموعاً لمن يكون في الغرفة، كان آدم المحروم يحس بأنه مخنوق، ومتشائم ولا يعرف لماذا كل هذه المشاعر قد هجمت عليه فجأة؟ لكنه استمر بالدندنة الغنائية، ظناً منه أن حواء الزاهد وابنها لا يسمعانه:

مُدُنٌ بلا فجرٍ تنامُ
ناديتُ باسمك في شوارعها، فجاءتني الظلام
وسألتُ عنكَ الريحَ وهي تَتَنَّى في قلبِ السكون
ورأيتُ وجهَكَ في المرايا والعيون
وفي زجاجِ نوافذِ الفجرِ البعيدِ
وفي بطاقاتِ البريدِ
مُدُنٌ بلا فجرٍ يُغَطِّبُها الجليدُ
هجرتُ كنائسَها عصافيرُ الربيعِ
فَلِمَنْ تُغَنِّي؟ والمقامي أوصدتُ أبوابَها
وَلِمَنْ تُصَلِّي؟ أيها القلبُ الصَّديعِ
والليلُ ماتَ
والمركباتُ
عادتُ بلا خيلٍ يُغَطِّبُها الصَّقيعُ
وسائقوها ميتون

أهكذا تمضي السنون؟
ونحنُ مِنْ مَنْقَى إلى مَنْقَى ومن بابٍ لبابٍ
نَذْوِي كَمَا تَذْوِي الزَّنَابِقُ فِي التُّرَابِ
فُقَرَاء، يا قَمَرِي، نَمُوت
وقطارُنا أَبَدًا يَمُوت

كانت حواء الزاهد تهمّ بالدخول عليه حاملة صينية الطعام حينما بدأ صوته الشجي يتعالى ويُسمع، فوقفت عند الباب تستمع إليه. لا تدري لماذا أحست وكأن قلبها يهبط من مكانها في صدرها؟ أحسّت بحشرة الحزن تخنقها. لم تسمع كلمات عذبة وحزينة، وألمّا يصاحبها بهذا الشكل. رجعت إلى المطبخ مسرعة، أراد ابنها أن يذهب إلى الصلاة فمسكته وهمست في أذنه ألا يذهب حالياً. خرجت من المطبخ ووقفت عند المدخل إلى الصلاة وهي تنصت إليه وهو يغني، لكن أدركت أن ما تسمعه ليس غناءً وإنما لواعج حزن، عن مدن بلا فجر تنام. وعن العمر الذي يدوي، وعن العربات التي تمضي وسائقوها ميتون. عن الموت فقراً، وعن القطارات التي تمضي ولا نلحق بها. ياه. من أين يأتي بكل هذا الحزن؟ ولماذا هو حزين لهذه الدرجة؟ كم تتمنى أن تسعده وتبعد عنه كل هذا الحزن.

حين توقف البوح الحزين لأدم المحروم رجعت إلى المطبخ وأعطت لصغيرها قطعة النايلون فركض بها إلى الصلاة.

دخل الصبي وبيده قطعة النايلون التي تمد على الأرض، ثم دخلت حواء الزاهد وهي تحمل الصينية التي فيها الطعام. جلس آدم المحروم على الأرض ليأكل وطلب من الصغير أن يأكل معه، بينما ادّعت هي بأنها قد أخذت وجبة الغداء قبل فترة طويلة. غادرت هي الصلاة كي لا تربكه حين يأكل. أعدت الشاي في المطبخ، بقيت هناك لفترة قدرت فيها أنه ربما انتهى

من طعامه، وحين دخلت الصالة ثانية كان هو فعلاً قد انتهى من الأكل، أما الصبي فقد كان يعبث بالملقعة في صحن الطعام.

ما إن دخلت حتى أثنى على طبخها وطعمه اللذيذ. همّ آدم المحروم بحمل الصينية فلم تدعه يفعل ذلك، إذ حملت الصينية، بينما حمل الصغير قطعة النايلون. جلس على الكنبه المواجهة للنافذة، وحين عادت جلستُ هي على الكنبه المقابلة له. فجأة وبدون أي رابط للوضع قال الصبي بصوته البريء:

- ماما كانت تبكي عندما كنت تغني.

أحسّت الأم وكأنه كشف سرها، فهي لم تشأ أن تحدثه عن ذلك أصلاً، وإنما تسعى لعلاج روحها الحزينة. نظر إليها نظرة استفهام واستفسار، لم يسألها بالقول لأنه نفسه كان مندهشاً بأنها سمعته، فقالت بصوت مرتبك:

- لا أبداً. استوحشتُ غياب والدي، فهو دائماً معنا ولم يغب عنا منذ أن خرج من السجن.

- لماذا كل هذا القلق. هل أنت خائفة لعدم وجوده؟

- لا. على العكس، لكن بصراحة سمعت صوتك. أنت حزين والكلمات حزينة جداً، وحتى طريقة الغناء أو اللحن كما يقال حزين جداً.

- هذه قصيدة للشاعر عبد الوهاب البياتي. هل تعرفينه؟

- سمعت به. كانت له قصيدة في كتاب النصوص الأدبية بالمتوسطة.

- هذا شاعر عراقي جميل، إلى جانب طبعاً بقية شعراء آخرين. هل تحبين الشعر؟

- نعم. قرأت معظم الدواوين الموجودة في مكتبة أبي. كل التراث العربي.

- أوه. هذا يعني أنك ضليعة بالتراث.

- ليس لهذه الدرجة. لكنني أحببت شعراء الغزل والحكمة، وأحياناً أحب المراثي.

- المراثي؟

- نعم المراثي، وأحفظ أبياتاً من بعضها؛ كمرثية مالك بن الريب ومرثية

أبي ذؤيب الهذلي التي رثى بها أولاده، والتي يقول فيها:

أَمِنَ الْمُنُونِ وَرَيْبِهَا تَتَوَجَّعُ وَالدهرُ لَيْسَ بِمَعْتَبٍ مَنْ يَجْزَعُ
قَالَتْ أُمَيْمَةُ مَا لَجَسْمِكَ شَاحِبًا مِنْذِ ابْتَدَلَتْ وَمِثْلُ مَا لَكَ يَنْفَعُ
أُمُّ مَا لَجَبْنِكَ لَا يُلَاثِمُ مُضْجَعًا إِلَّا أَقْضَى عَلَيْكَ ذَاكَ الْمَضْجَعُ
فَأَجَبْتُهَا أَنْ مَا لَجَسْمِي أَنَّهُ أَوْدَى بَنِيَّ مِنَ الْبِلَادِ وَودَّعُوا
أَوْدَى بَنِيَّ وَأَعْقَبُونِي حَسْرَةً بَعْدَ الرَّقَادِ وَعِبْرَةً لَا تُقْلَعُ
وَإِذَا الْمُنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ

كان ينظر إليها مندهشًا، إذن فهي ليست تلك المرأة الساذجة التي ربما لا تفهم كل ما يقوله، فقال وعلى وجهه ابتسامة حزينة، لكن عينيه برقنا بفرح خفي:

- إذن. ما رأيك بطرفة بن العبد؟
- أحب أبياته التي يتحدث فيها عن نفسه، وفهمه للحياة، على الرغم من أنني لا أتفق معه فيها، لكن يعجبني حينما يقول: أرى الدهر كثرًا ناقصًا كل ليلة... وما تنقص الأيام والدهر ينفد
- وأخبرته بأنها قد اندهشت حينما قرأت بأنه قُتل وهو في بداية العشرين من عمره.

- وماذا يعجبك أيضًا؟
- ماذا. هل تمتحنني بالأدب؟ قالت باسمه.
- لا أبدًا. لكن وكأني أكتشفك من جديد
- ألم تكتشفني بعد؟
- لا. كل ساعة بل وكل دقيقة أكتشف فيك شيئًا مندهشًا.

كانت سعيدة بهذا النقاش بالرغم من أنها كانت تتهيب أن تخوض فيه معه، لكنها حاولت أن تكشف عن معارفها، فعادت للإجابة على سؤاله:

- لا أعرف بالضبط ماذا يعجبني. أحيانًا أحب أبياتًا قليلة من قصيدة طويلة جدًّا، ولا تهمني شهرة الشاعر. فمثلًا أحب الأبيات التالية لقصيدة بن الوردي التي يقول فيها:

لا تقل: أصلي وفصلي أبداً إنما أصل الفتى ما قد حصل
ليس يخلو المرء من ضدٍّ وإن حاول العُزلة في رأس الجبل
نظرت إليه محاولةً أن ترى تأثير ما قرأته عليه، ثم واصلت:

- أحياناً أفكر في نفسي وفي ضدي الذي في داخلي. كثيراً ما أفكر في معنى
الضد، لكنني وجدت في نفسي شخصاً آخر ضدي، شخص يرفض كل ما أنا
عليه، لكن الشخص الآخر هو أنا أيضاً.

شعر آدم المحروم أن حواء بدأت تعي تناقضها، أو أنها في توق شديد
للتحرر من معتقداتها التي تعيق شخصيتها الأخرى. وأدرك أنه يحبها،
بل يعشقها، فهي إلى جانب جمالها الهائل وشبقها العنيف، روح متمردة
ومشاعر متقدة. نظر إليها وقال لها بهدوء:

- لكن أتدري أن الضد الآخر، الشخص الآخر في داخلنا ليس بالضرورة
جيداً، لكنه يبقى الوجه الآخر لنا. أتعرفين أن أبا العلاء المعري قد قال في
إحدى لزومياته:

مهجتي ضدُّ يحاربني، أنا، مِنِّي، كيفَ أحترسُ.

- الله. كم جميل هذا الذي يقوله المعري.

- المعري لديه أيضاً قصائد، أو كما تقولين أنتِ أبيات رائعة.

كان الصبي قد ضاق بحوارهما الذي لا يفهمه. كان يخرج من الصالة
ويذهب إلى داخل البيت ويأتي فلا يتتبع إليه أحد فيذهب ثانية، لكن هذه
المرّة عاد ويده قطعة كبيرة من الشكولاته. رأته الأم فقامت وهي تبتسم:

- لقد نسيت الشاي على الطباخ.

غادرت الغرفة، وبعد لحظات عادت وهي تحمل صينية صغيرة وفيها
إسككسانان مليان بالشاي. جلست قبالتها. كان الصبي قد أخذ يلعب داخل
غرفة النوم. قالت له بحياء:

- اليوم اشتريت لك كل ما تحتاجه من صحن وأدوات مطبخ.
- لكنني لم أعطكِ أي نقود! كم بلغ سعر هذه الأشياء؟
- فقالت باستحياء:
- إنها هدية مني لك.
- هدية منك؟
- نعم. مني. ألا يحق لي أن أهديكِ شيئاً؟
- بلى. أقصد طبعاً، ولكن أنتِ لا تعملين. وبالتالي.
- أرجو ألا تعتبرني غريبة، لأنني أحس وكأن هذا من واجبي. ثم.
- ارتبكت. لم تكمل جملتها، فسألت عن شيء آخر، قائلة:
- هل أنجز العمال كل شيء؟ أقصد غرفة النوم والأفرشة، والتلفزيون؟
- نعم. غرفة النوم الآن جاهزة.
- كان ينظر إليها بحب ورغبة حينما قال جملته الأخيرة. ارتبكت. نظرت إلى الأرض وعلى وجهها ابتسامة من أدرك مغزى الجملة، فقالت:
- أتمنى ألا تتركنا الآن ونذهب لتنام هناك.
- ابتسم لها، وقال بشكل أكثر جرأة:
- كيف أتركك الآن؟ هذا بيتي وهناك بيتكِ أيضاً. الآن لدينا مكان خاص بنا، لكن ما دمت وحدك سأكون معك، بعدها سأكون هناك، لكن سيكون هو مكانك أيضاً.
- صمت كلاهما. الجو بينهما أصبح مكشوفاً، ومتوتراً بالرغبة والشبق الذي يجتاح أعماقهما، قال لها:
- أين سأنام الليلة. هنا أم في غرفة المكتبة؟
- لا أدري. مثلما تحب.

- أليس من الأفضل أن أنام الليلة في المكتبة؟
 - مثلما تحب. طبعًا سيكون أفضل.
 - طيب متى ينام الملاك الصغير؟
 - بعد قليل. سأذهب معه إلى الفراش.
 - أنا سأصعد إلى غرفة المكتبة، وحينما ينام سنواصل النقاش هناك.
 - طيب.
 - لكن لا تتأخري.
 - لا. لا أتأخر.
- قامت لتغادر الصالة، وقبل أن تختفي، قال لها بصوت خافت:
- أنا سأفرش على الأرض كما في كل ليلة، لكنني سأصعد إلى غرفة المكتبة، فلربما يأتي الصغير إلى الصالة.
- نظرت إليه وابتسمت وقالت:
- أنت تخطط لكل شيء، وتضع كل الاحتمالات.
- خرجت. ففكر هو مع نفسه، وابتسم ابتسامة داخلية في أعماقه قائلاً لنفسه:
- لو تدرين كم خططت لكي أحصل عليك!
- مرت أكثر من ساعة وهو في غرفة المكتبة، لا يهدأ له بال، متهيّجًا، لكن لا يعرف ماذا يفعل، إذ عليه التزام الصمت كي لا يثير شك أحد، لا سيما الطفل الملاك، فهو الشاهد البريء على كل ما يدور بينه وبين أمه. وبينما كان هو يتصفح ديوان المعري، سمع وقع خطوات سريعة على السلم. ولمحها تدلف إلى الغرفة. كانت في ثوبها الأسود العريض من الكتفين. لم يتبادلا أي كلام بل أُلقت نفسها في أحضانه، فأخذها مباشرة ضامًا إياها إلى صدره، ورفع وجهها بين يديه وأخذ يقبل شفتيها. كانت تلهث، لكنها فجأة قالت له:

- انتظر. علينا أن نفرش على الأرض.

قالت ذلك وخرجت من الغرفة وفتحت بهدوء غرفة أبيها المقابلة، ومن هناك حملت بعض الأفرشة التي كانت تستخدم للضيوف. فرشتها على الأرض، فأخذها مباشرة. أجلسها على الفراش، ثم أخذ ينزع قميصه. شعرت بالخجل وطلبت منه أن يطفئ الضوء، فقال لها بأنه يريد أن يراها عارية، يريد أن يرى مفاتنها، فقالت لتترك الباب مفتوحاً فيضيء ضوء السلم الغرفة أيضاً، فأطفأ النور، نزع عنها ثوبها، كما نزع هو بنطاله. لم تكن ترتدي شيئاً تحت ثوبها الذي نزعها عنها، فبدت وكأنها تمثال من المرمر ينبض بالحياة والرغبات. أخذ يقبلها من شفتيها، وأذنيها، ورقبتها. فجأة ابتعدت عنه وأوقفته وهي تقول بتردد:

- أنا أشعر بالذنب والخوف.

- لماذا تشعرين بالذنب؟

- لا أدري. لكن ما نفعله خطأ.

- اسمعي يا حواء. أنتِ امرأة فاضلة، عفيفة، صبورة، وأم رائعة، وابنة مطيعة. لم تفعلي بحياتك شيئاً سيئاً لأي أحد، وحتى هذا الأمر أنت لستِ مسئولة عنه، إذ وجدت نفسك في وضع صعب، وأمام غواية مهلكة. أنتِ بريئة مما تفعلين، أنتِ لم تؤذي أحداً، ولا أحد يعرف ما تقومين به، أنتِ امرأة عاشقة، امرأة تحب رجلاً ما، وهي تمنح نفسها له باسم الحب وليس باسم أي شيء آخر. أنتِ امرأة فاتنة، لم أجد في حياتي أجمل منك، بل وها أنا أراك عارية أمامي، لم أجد في كل لوحات العالم، ولوحات الفنانين العظام من رسم جسداً أجمل من جسدك. أنتِ امرأة قامت بكل ما عليها من واجبات، ومن حقها أن تتلمس ولو لحظات نفسها. يجب ألا يراودك شعور بأنك تقومين بشيء خاطئ. أنتِ إنسانة رائعة، وأنا أحببتك لطهرتك، ولصبرك، ولجمالك المذهل.

كان كلامه يمنحها اللذة، ويدفع عنها الشعور بالإثم، بل كانت تشعر وهي تمنحه جسدها وكأنها قديسة تقوم بتقديم أضحية ما. أخذته بين أحضانها راضية ومقتنعة بأن فضيلتها لا تُخدش بهذا الفعل.

لأول مرة أحست بجسده العاري على جسدها العاري، فأخذ يهبط بقبالاته إلى نهديها وبطنها، كانت لا تستطيع السيطرة على نفسها من فرط الرغبة، وبدون أن تتوقع ذلك، فتح فخذيها ودخل برأسه إلى هناك. قبلها وراح يمرر لسانه على زهرتها الوردية الملساء جدًا. لم تسيطر على نفسها فجلست لتسحب إليه، فأحس أنها جاهزة، فسألها إن كانت تريد منه أن يدخله فيها، فأومأت برأسها أن نعم، لكنه أراد أن يمارس سلطته الذكورية عليها، فقال لها: أريد أن أسمعك تقولين ذلك. كانت مترددة، ولم تكن تستطيع أن تقول ذلك. أراد أن يعذبها من خلال إثارتها أكثر دون أن يليي رغبته. أصرّ أن تقول ذلك بنفسها، لكنها لم تكن تستطيع أن تصبر، فقالت بصوت خافت: أدخله. فقال لها: أريدك أن تقولها بصوت أعلى، فلم تستطع الصبر أكثر، فقالت بصوت مسموع: أدخله، لا أستطيع أن أصبر أكثر. أدخله أرجوك. فأولججه فيها. كانت هي تلهث بصوت مسموع، وترتجف، وكان هو يتفنن في مضاجعتها، فقال لها مرة أخرى ممارسًا سلطته عليها، بأن تخبره إن كان يعجبها هذا، فأخذت تهمس بصوت مسموع: يعجني. يعجني. أموت عليك. موتني. وأخذت تلهث وتردد الكلمات الشبقية. أخذها بعنف وبتفنن، فصارت تصرخ به: أنا عبدتك. افعل بي ما تشاء. أنا مجنونة بك. ماذا فعلت لي؟ هل سحرتني؟ أنا الآن مجنونة بك، أنا زوجتك أنت، حبيبتك أنت، عشيقتك أنت، عبدتك أنت. شعر أنها في ذرى نشوتها، فهمس في أذنها الملتهبة: هل أنت عبدتي؟ فقالت مؤكدة: نعم أنا عبدتك. فقال لها: هل أفعل بك ما أشاء؟ قالت وهي تلهث شهوة: افعل بي ما تشاء، فقال لها وهو يلهث أيضًا: ومن أين ما أشاء؟ فصمتت لبرهة، وفهمت ما يقصده، فقالت: ومن

أين ما تشاء. فقال لها: أريد أن أفجر اللذة في كل زوايا جسدك، فتمتعت: فجرها يا حبيبي. أنا كلي لك. فقال لها وهو يلهث شبقاً: عليك أن تجري كل شيء. فقالت وهي تلهث: معك سأجرب كل شيء، كل شيء. قال لها: أعرف بعض الأشياء ربما تكون غريبة عليك، لكنك يجب أن تجربها كلها ومن ثم تختارين أفضلها وأمتعها لك، فقالت وهي ترتجف تحته: سأجرب كل شيء معك، كل شيء معك ممتع. أخذ يدفعه فيها بقوة ويقول: أريد أن تجري من ثقبك الآخر أيضاً. صمتت للحظة وقالت بخفوت: سنجرب، لكن ليس الآن، أرجوك. فقال: لا. أريدك الآن. كانت هي ترتعش من اللذة، وكانت قد تعرضت لتيار اللذة مرات متكررة. كانت تمنى نفسها بأن يستمر هذا طوال الليل كله، لكنها فهمت أنه يريد لها من الخلف، وهذا شيء كرهه بالنسبة لها، فقالت متوسلة وهي تلهث: أتوسل إليك، لتؤجل هذا إلى المرة القادمة. لا أستطيع تخيل الأمر، لكنني سأجربه معك في المرة القادمة.

أحس هو بأنه انتصر عليها بالكامل. أخذ يمارس معها كل فنون الجماع وأوضاعه التي أعجبها منه ثلاثة فقط، أخبرته بها لاحقاً.

مرت ثلاث ساعات وهما في حمى الشبق الجنسي، إلى أن تعبوا ولم يعد يقدر هو على المواصلة، بينما كانت هي ما زالت تهتز من أي لمسة وتستيقظ فيها الرغبة. وأخيراً تمددا على الفراش، وهو يحضنها ويده تقبض على واديهما من الأسفل.

بينما هما مستلقيان باسترخاء على الفراش سمعا صوت باب غرفتها في الأسفل يُفتح، وصوت الطفل الصغير يناديها. قفزت مباشرة وارتدت ثوبها بسرعة. أشعلت الضوء في غرفة المكتبة. ونزلت مسرعة إليه. كان الصغير ما زال في حالة النوم، أي أنه لم يستيقظ بالكامل وإنما كان قد تفقد مكان أمه فلم يجدها، فنهض منادياً لها. لم يطرأ في ذهنه البريء أين كانت في تلك الساعة. المهم أنها جاءت إليه واحتضنته، وذهبت به إلى الغرفة وأغلقت الباب.

لبس آدم المحروم ملابسه على عجل، وحينما أحس بأنها دخلت مع ابنها الغرفة ثانية، طوى الأفرشة وحملها بسرعة إلى غرفة الأب، ونزل إلى الصالة. كان الوقت مبكرًا بالنسبة له لكي ينام، ولم يكن بمقدوره أن يواصل معها فقد أنهكته. تمدد على فراشه مسترخيًا. فكر للحظة بسحر التملق والمديح الذي يمكن أن يغوي الرجل به أي امرأة مهما كانت، سواء كانت قديسة أم نبية، زعيمة، ملكة، سجانة، قاتلة، ملكة جمال، أو حتى الساحرات الشريرات، فالتملق والمديح هو السلاح الذي تعجز المرأة عن مقاومته.

مدّ يده إلى الحقيبة الجلدية ليوصل قراءة رواية صديقه القليل آدم البغدادي. سحب الأوراق المتبقية، وقرأ عنوان الفصل: مملكة اللذة المظلمة.

مملكة اللذة المظلمة

مرّ أسبوع على زيارة إيفا أومسك لجارتها حواء المؤمن، بينما كانت حواء المظلوم تأتي يوميًا، مؤديةً دوامها الرسمي، بالرغم من أنها كانت تبقى معها لساعات أطول من ساعات الدوام، لكنها اتفقت معها بأنها لن تستطيع المبيت لديها لأن لديها ابنًا يجب أن ترعاه، ووافقت حواء المؤمن على ذلك. وكانت حواء المظلوم لا تعتبر نفسها تعمل في وظيفة إلا أمام الجهات الرسمية الألمانية، إذ تعمقت علاقتها مع حواء المؤمن، وأحست برغبة صادقة في مساعدتها لتيسير تفاصيل حياتها اليومية، وأنها قررت مع نفسها الاستمرار في ذلك، حتى لو تم تسريحها من هذه الوظيفة.

كانت تأتي ما بين الثامنة والتاسعة صباحًا. تفتح باب الشقة بنفسها، إذ لديها نسخة من المفتاح. تقوم بإعداد الشاي والفطور الصباحي، الذي إما أن يكون جنبًا أو بيضًا، وأحيانًا يكون لحمًا بالعجينة، تشتريه من المحلات اللبنانية أو التركية المنتشرة في المنطقة. بعد ذلك تقوم بتحضير ما تريده لفترة الغداء؛ كتنظيف الأرز ووضعه في دورق مع بعض الماء بعد غسله، وإخراج اللحم من الثلاجة كي يذوب ويكون أكثر طراوة حين تقبل على إعداد وجبة الغداء، وكثيرًا ما كانت تعد في بيتها بعض الأكلات العراقية الشهيرة؛ كالدولمة، وكبة البرغل، والكبة المصلاوية، وكبة حلب. ويحصل أحيانًا أن تستيقظ حواء المؤمن مبكرة نتيجة أرق أو سبب ما، فتجدها حواء المظلوم جالسة في الصالون تنتظرها ناظرة إلى اللا مكان.

لقد عرفت الكثير من تفاصيل حياة حواء المؤمن العامة. إذ كانتا تتحدثان

خلال الأيام الماضية عن تفاصيل كثيرة في الحياة، لكنها شخصياً لم تتحدث عن نفسها، لأن حواء المؤمن لم تسألها عن ذلك، بالرغم من أنها أحبّت أن تسألها، بل تضايقت في بعض اللحظات من عدم رغبة حواء المؤمن بالتعرف على حياتها وتفصيلاتها، واعتبرت ذلك عدم اهتمام بها وبحياتها، لكنها سرعان ما مسحت هذه الأفكار وبررت ذلك بأن حواء المؤمن لديها ما يكفيها من الأحزان، وربما هي لا تريد أن تضايقها بالسؤال وتبدو في نظرها امرأة فضولية، أو أنها تود سماع كل شيء عنها لكنها تخجل من أن تسألها عن حياتها الشخصية، فربما هناك أشياء محرّجة لا تود البوح بها.

راق حواء المظلوم استنتاجها الأخير فقررت أن تبادر هي بإيجاد طريقة ما لتحدثها عن نفسها، فهي تحس بنفسها تكاد تنفجر إذا كتمت كل ما تعانیه في داخلها، ولا تجد مَنْ تشكو له وضعها وهمومها. إنها تحتاج لمن تشكو له ذلك. صحيح أنها تتمنى أن تجد رجلاً تشكو له معاناتها، بحيث يخفف عنها ويأخذها إلى صدره، أو تضع رأسها على كتفه، فلمسة مواساة الرجل مختلفة. لكن لا ضير إن لم يتواجد الرجل أن تكون هناك امرأة، فبال تأكيد أنها مهما أرادت أن تتحدث للرجل عن حياتها فإنها لا تستطيع أن تتوغل كثيراً في الشؤون الأنثوية بينما تستطيع ذلك لو تحدثت لامرأة.

حدث ذات مرة عندما لم تستطع حواء المظلوم أن تنام ليلتها، فبعد رجوعها في حدود الثامنة والنصف إلى بيتها، الذي يبعد عن شقة حواء المؤمن محطتين بمترو الأنفاق، وبحدود نصف الساعة مشياً على الأقدام. حينها لم تجد ابنها الذي يبلغ السادسة عشر من العمر في البيت، بل وجدت ورقة كتب فيها بأنه خرج مع أصحابه إلى الديسكو وربما سيتأخر. انقبض قلبها حينما قرأت تلك الأسطر. إنها لا تحب أن يخرج ابنها مساءً يوم السبت ليسهر في الديسكو، فهي لا تأمن للشوارع ليلاً، لا سيما وأنها تسمع عن شجارات بين الشبيبة الألمانية المعادية للأجانب والشبيبة الأجنبية، يصل

الأمر أحياناً إلى الطعن بالسكاكين. وعلى الرغم من أن هذه الأحداث نادرة، لكنها تحصل، ومعظمها يحصل ليالي السبت بعد الخروج من الحانات والديسكو؛ لذا فهي تشعر بالقلق عندما يخرج مع أصدقائه، لكن تفكر أيضاً أنها لا تستطيع أن تمنعه، فهو شاب في مقتبل العمر ولا يمكنها أن تبقى في البيت، لا سيما في يوم عطلة.

حينما كان صغيراً كانت تمنى نفسها بأنه سيكبر وسيعتمد على نفسه، وها هو الآن شاب في السادسة عشر من عمره ولا يحتاج لرعايتها الشخصية، لكنها صارت تقلق عليه أكثر مما كان صغيراً. كثيراً ما تسأل نفسها ماذا ستفعل لو حصل له مكروه؟ ما إن تتخيل ذلك حتى تنهار، وتنهمر الدموع من عينيها، وتبدأ بالدعاء لكي يحفظ الله ابنها. إنها لا تطلب منه شيئاً سوى أن يحفظ ابنها من أي مكروه.

ظلت حواء المظلوم تنتظر ابنها ساهرةً حتى الواحدة بعد منتصف الليل. لقد اتصلت به عشرات المرات لكنه لم يرد على اتصالاتها. أرسلت له رسائل إلكترونية لكنه لم يجبها أيضاً. كانت تغلي من الغضب والرعب والعجز، وكانت قد أقسمت مع نفسها أن تحاسبه حساباً عسيراً إذا ما رجع، لكنها ما إن سمعت حركة المفتاح في الباب، ورأته داخلاً، حتى أحسّت وكأنما ثمة أمطار أطفأت كل نار غضبها. وبالرغم من ذلك لم تشأ أن يمر هذا الأمر بدون حساب، فبدأت توبخه على عدم الإجابة على اتصالاتها ورسائلها، فاعتذر بأنه قد أعدّ الجهاز على وضع الصامت، ولم ينتبه لأي اتصال. أخذت تصرخ به وتهمة ببلادة الإحساس وعدم التفكير في أمه التي يعرف أنها لن تنام إذا ما تأخر، وتوتر الجو بينهما، ومضى كل منهما إلى غرفته. ظلت هي سهرانة حتى ساعات متأخرة بعد منتصف الليل. وحينما بدأت النوم هجمت عليها الكوابيس. هربت من النوم، كي لا ترى كوابيس. ظلت جالسة في الصلاة. تمددت على الصوفا الطويلة وأخذت الريموت

كونترول فضغطته، وبدأت تقلب التلفزيون، فتوقفت عند محطة تبث أفلام توم وجيري الكارتونية. توقفت عندها لتتابع هذه القصص التي ترسم البسمة على الشفاه ولا تحتاج إلى اللغة. ألغت الصوت بالضغط على الريموت كونترول، واستمرت بالمشاهدة. كانت الساعة تشير إلى الرابعة بعد منتصف الليل. ولا تدري كيف صحت عند السادسة. كان توم وجيري مستمرين في مطاردة بعضهما البعض.

حاولت أن تنام ثانية لكنها لم تستطع. قامت إلى المطبخ. فتحت الثلاجة فرأت أن البيض والجبن والحليب كلها موجودة، فاطمأنت إلى أن ابنتها سيصحو وحده ويجد كل شيء. وبالرغم من أنها أرادت ألا تخرج قبل أن تتصلح معه، لكنها فكرت بأن اليوم هو الأحد وليس لديه مدرسة لذا فإنها تستطيع أن تراه لاحقاً. لتتركه يشبع من النوم اللذيذ. نزلت إلى المطبخ التركي القريب. اشترت منه خبزاً حاراً وست قطع من اللحم بالعجين، واتجهت إلى شقة حواء المؤمن.

صارت حواء المؤمن بالنسبة لها شيئاً مهماً وأساسياً في حياتها. ليس الأمر متعلقاً بأن في خدمتها يكمن مصدر رزقها الذي تتقاضاه من دائرة العمل، وإنما لأن هذا المرأة التي اسمها حواء المؤمن هي كائن مليء بالألغاز والغموض، وهي تحب أن تحل لغز هذا الكائن. صارت متعلقة بها، وتتمنى أن تعيش معها ليلاً ونهاراً؛ بالرغم من أنها عمياء، وقليلة الكلام، لكنها امرأة مثيرة، جميلة، وطيبة، بل إنها امرأة مؤمنة، صالحة، فيها شيء من سمو القديسات، علماً أنها لا تصلي.

جاءت هذا اليوم مبكرة. كانت تتوقع أن ترى حواء المؤمن جالسة في الصالة. حينما دخلت الشقة لم تجد أحداً ينتظر، فأحست بشيء من الإحباط. فكرت أن توقفها لتفطرا معاً، ما دامت قطع اللحم بالعجين ساخنة، لكنها فكرت أن تدعها تنام لبعض الوقت، بينما قامت هي بإعداد

الشيء. وحينما أعدت كل شيء، واتجهت إلى الصلاة، رأت حواء المؤمن تخرج من غرفتها. ألقت عليها تحية الصباح بمرح واستعجلتها كي تظفر معها قبل أن تبرد قطع اللحم بالعجين اللذيذة.

انتهتا من الفطور. بقيت قطعتان من اللحم بالعجين لم يمسهما أحد، لأن كلا منهما أكلت قطعتين. حملت حواء المظلوم بقايا الطعام والصحون إلى المطبخ. رتبت الأشياء هناك وقامت بتنظيف المطبخ، ثم بدأت بتنظيف الشقة والغرف بالمكنسة الكهربائية التي تعالي هديرها. كانت في الغرفة الثانية التي تركت للضيوف، بالرغم من أنه لم يحصل أن جاء ضيف قط. فجأة توقف الهدير المنبعث من المكنسة، وجاءت حواء المظلوم إلى الصلاة ويدها ملف متوسط الضخامة فيه رزمة من الأوراق، ومعنون عليها بخط عريض (نشيد المتاهة). توجهت إلى حواء المؤمن، وهي تقول:

- هل هذه الرزمة من الأوراق تعود إليك؟
- أي رزمة؟

قالت حواء المظلوم متفاجئة:

- لا أعرف، مكتوب عليها (نشيد المتاهة).

- لا أعرف عنها شيئاً. لكن انتظري، ربما هي للمرحوم زوجي، فقد كان ينوي أن يكتب رواية.

- لا أعرف ماذا أقول لك. فهي لا تحمل أي اسم على صفحتها الأولى.

- هل لك أن تقرأي لي منها؟

- بكل سرور.

جلست على الصوفا القريبة، فتحت الرزمة، وأخذت تقرأ لها بصوت محايد:

نشيد المتاهة

أمرعاًلق

إلى التائهة حواء المؤمن وهي تسير مثلي في هذه المتاهة

القسم الأول

أنا آدم. أنا الإنسان المارق.

جئت هذه البلاد هرباً من متاهة الخيبة والدم المسفوح هدرًا.

هربت من تجار الحروب، وسماسرة الأديان، وملوك الطوائف.

ومن العاهرات المثقفات، اللاتي يتحدثن عن الحرية كما يتحدثن عن المودة
والملابس الجديدة في شارع الحمرا.

من السياسيين القوادين الذين يتحدثون عن العدالة، والربيع العربي،
وأسلمة العالم، ونظرية المؤامرة.

هربت من بلاد اللعنة والخيبة والأحلام مكسورة الجمجمة.

لقد عرفتُ ثواراً قديسين دخلوا مغارات الفكر ولم يخرجوا منها إلى النور أبداً.

عرفت مناضلين لم يعرفوا الحب يوماً،

وحينما أحبوا في خريف العمر كانوا ينطقون كلمات الحب بنبرة حقودة.

عرفتُ قادةً حزينين كانوا يتحدثون عن بطولات عجزوا عنها.

عرفتُ الكثير الكثير عن حقارات البشر، رجالاً ونساءً.

أنا لستُ ملاكاً. أنا حقير مثلهم، أو مثل الكثيرين من أبناء هذا الزمان.

قلبي مليء بالقيح منهم. إنه بالون أصفر مليء بالصديد.
أنا وغدّ جبان مسكون بالشياطين. بل بشيطان واحد.
شيطان قادر على غواية الجميع. شيطان حكيم، نعم إنه شيطان حكيم لا رجيم،
إنه يغويني، ثم يسخر مني، إذ يبين لي تفاهة وحقارة ما قمت به.
أأظلم نفسي حينما أتحدث عنها هكذا؟ لا أعتقد.

أنا أكره التواضع المزيف، فهو قناع لكبرياء شخصيات مريضة،
لا تملك الشجاعة أن تكشف عن نفسها فتلبس قناع التواضع الأحمق.
التاريخ تفاهة، وكتّابه سماسرة الدم والرذيلة. ديوثون بملابس مهرجين حمقى.
أكره القادة، بكل أصنافهم ومجالاتهم، لا سيما القادة العسكريين
والسياسيين،

لأنهم يستمدون مجدهم التافه وخلودهم المقيت من موت الملايين.
ملايين النكرات، ملايين البشر اللا شيء.
الملايين الذين يمثلون الشعب.
أكره الشعب لأنه لا شيء، لأنه غبي، وتافه،
ولا يتعظ من كتاب التاريخ الدموي،
فيعيد الحماقات واحدة بعد أخرى.
أكره أن أُلعب دور الضحية.

هناك مَنْ يعيش تمثيل دور الضحية طوال حياته،
حتى يتلبسه الدور، فيعتقد أنه ضحية حقًا،
فبيكي بحرقة لأنه يشعر بأن هناك مَنْ ظلمه وغدر به حقًا،
بينما هو في الواقع يقوم بأحط أنواع الغدر والمكر والتزييف،

مبررًا لنفسه كل الأعمال القذرة، لا لشيء، فقط لأنه يشعر بأنه ضحية.
هؤلاء يحبون المنخفضات والمناطق الواطئة، وسيبقون واطئين مهما ارتقوا
من مواقع.

الحياة علّمتني بأن الصراحة حماقة،
والتملّق طريق النجاة للوضيعين.
هل تعرف معنى أن تنوء عن الطريق؟
معنى ذلك أن تختفي الملائكة الرحيمة،
ولا تجد سوى الشياطين التي تحيطنا وتربص بنا في كل زاوية ومنعطف!
هل تعرف ماذا تحس حينما تجد نفسك في مستنقعات رخوة تبتلعك؟
هكذا كانت حياتي. كابوسًا مرعبًا طويلًا طويلًا.
أحيانًا أشعر أنني كالدئب محكومٌ عليّ بالركض والهرب، الهرب إلى اللا أين.
نعم. إلى اللا مكان، إلى اللا اتجاه.
أركض وأركض وأركض، وحينما أجد ثمة شجرة أجلس تحت ظلها،
لكنني، أنتبه، فجأة، إلى أن ثعبانًا يلتف على غصنها المتدلي نحوي.
ثعبان ينظر إليّ، لكنه لا يهجم عليّ، وإنما ينتظر اللحظة المناسبة له لينقض عليّ.
أشعر وكأنّي ميت في كل لحظة. الرعب يشلني. الحر والرطوبة وهجير الصحراء.
هكذا هي الحياة. صحراء على مدّ البصر، وغابات كثيفة ملتفة الأغصان،
ودوامات مظلمة مخيفة.

أنا آدم، سيد العزلة. لا. الله هو الأعزل العظيم.
أحيانًا أفكر بهول العزلة وقسوتها، وثقلها الذي يسحق القلب والعظام

والوجود،

وأفكر في الله.

أفكر في عزلته. وحده.

ياه. وحده في عزلته المطلقة.

كم كان أعزل قبل خلق الكون!

ربما خلق الكون ليُذهب عن نفسه وحشة العزلة؟ لا أدري!

التهمتُ الكتب وألفتُ المكتبات. أنا مجموعة كتب تمثي.

لم يكن لدي ما أشتري به الكتب الغالية، فكنت أشتريها من بعض الشبيبة العراقيين الذين كانوا معنا في معسكرات المقاومة، وحينما تركوا المقاومة جاءوا إلى بيروت، لكنهم عاطلون، لذا كانوا يعتاشون من سرقة الكتب. هم يسرقونها من المكتبات ويبيعونها بنصف السعر أو بربعة أحياناً. وأحياناً كانوا يسألونني إن كنت أحتاج لكتاب معين، فكنت أذهب معهم إلى المكتبات وأشير إلى الكتب التي أريدها، فكانوا يأخذونها بكل سهولة ويضعونها تحت قمصانهم أو بلوزاتهم، ويتصرفون بكل تلقائية تبعد عنهم أي شك، بينما كنت أنا الذي لا أقوم بذلك أرتجف ويشحب وجهي. إلى أن صرت أنا أيضاً سارقاً للكتب. بل وصل الأمر بي إلى أن أسرقها ثم أبيعها بعد أن أقرأها.

أنا لص الكتب. هذا ما تعلمته من الثورة والمقاومة.

وأعتقد أنه درس عظيم.

غيري تعلم زراعة الحشيش وبيع المخدرات، والبعض تحول إلى قاتل محترف. بينما أنا خرجت رومانسياً مريضاً.

أذكر أول محاولاتي في كتابة الأشعار والمقالات الصحفية.

حينما رجعت إلى بيروت من مواقعنا في أقصى الجنوب، من النبطية، بدأت أنشر في الصحافة الفلسطينية واللبنانية.

أذكر أنني كتبتُ مقالاً عن كتاب (ربيع أسود) لهنري ميلر، وعدني محرر الصفحة الثقافية بنشره، إلا أن رئيس التحرير اعترض على المقال. هذا ما أخبرني به محرر الصفحة الثقافية، وحينما سألته عن السبب، قال لي: إن رئيس التحرير علّق على النص، قائلاً: شوها المثالة عن هالمنيك؟ يقصد أن هنري ميلر منيوك ومأفون.

فلنسبح للثورات.

فلنسبح لحرية الفكر.

فلنسبح للأنتليجنسيا الثورية. هَلُّلُويا للثورات. هَلُّلُويا.

رأيت الخياناتِ أمامي.

الخيانات بكل أنواعها.

الخيانات الأدبية، الخيانات السياسية، الخيانات الوطنية، الخيانات الجنسية، الخيانات الأخلاقية، لا. طز بالأخلاق.

رأيت القتلة في اجتماعات سرية مع قادة الثورات.

رأيتُ الليلَ يزحف على المدينة بعيون غاضبة.

كنت أحب الشمس وهي تنزل ببطء على أفق البحر.

كنت أحب الروشة، وصخرتها العظيمة.

أحب بيروت ست الدنيا، وكنت أحزن لمصاها الأليم.

لا، ليست القدس من أدخلوا كل زناة العالم إلى حجرتها كما يقول العراقي مظفر النواب، وإنما بيروت.

بيروت التي اجتمع عليها كل قوادي العالم للمتاجرة بها في مواخير السياسة.
هذا زمن القوادين.

رأيت الذئب تنهش يوسف، وهو يستنجد بأخوته العاجزين.
رأيت شيوخاً لم يعرفوا من الإسلام سوى حق الزواج بأربع، وما ملكت
أيمانهم.

رأيت أبناءً اتخذوا من زوجات آبائهم عشيقات لهم.
رأيت ثوريات يبدلن العشاق مثلما يبدلن سراويلهن الداخلية.
ورأيت ما رأيت.

رأيت قائداً عسكرياً يطلب من جنوده أن يفعلوا به، وإلا سيحيلهم
لمحكمة ثورية.

ورأيت عشاقاً للحلم وللثورة المستحيلة، فلم يجدوا حياةً أفضل من أن
يصيروا شهداء.

هللّوا للشهداء المغدورين،

للشهداء الحالمين بعالم نظيف يليق بالبشر. يليق بي أنا آدم.

قرأت في نشيد الأنشاد أن: “اجْعَلْنِي كَحَاتِمٍ عَلَى قَلْبِكَ، كَحَاتِمٍ عَلَى
سَاعِدِكَ.

لَأَنَّ الْمُحِبَّةَ قَوِيَّةٌ كَالْمَوْتِ.

الْغَيْرَةُ قَاسِيَةٌ كَالْهَلاوِيَةِ.

هَبِيهَا هَبِيبُ نَارٍ لَطَى الرَّبِّ.”

وقد جربتُ المحبة فوجدتها قوية كال موت،

وكذلك جربتُ الغيرة فوجدتها قاسية كالهواية.
لقد أردتُ أن أجربَ قوة نفسي.
لكنني كنتُ قبل ذلك مهوَّسًا بالضعف البشري.
رأيتُ جارتي المحجبة. جارتي الجميلة.
جارتي التي لم تكن محجبة لكنني ذات يوم رأيتها قد تحجبت.
فعرفت أنها قاومت محاسن الدنيا وفكرت بما بعد الموت!
أردت أن أختبر قوة إيمانها، فبدأت بمغازلتها بعيني، ثم بلساني،
فارتبكت مثل غزال أحس بالنمر المختفي في الأكمة، وهو عند نبع الماء.
كنتُ أعتقد أنني الخاسر، فهي متزوجة، وليست محرومة، وزوجها رجل
نبيل، ووسيم.

كنت يائسًا من إيماني بأن جميع البشر ضعفاء،
لكن المرأة المؤمنة والمحجبة، ما إن مسستها حتى انهارت.
كانت ضعيفة وسهلة.
لم تكن سوى بركان يضع حجابًا.
وأحببتها محبة قوية كالموت،
لكن أخي وصديقي قابيل كرر لعبتي القديمة معها، ومنحته كل شيء
بدون سبب، رأيت ذلك.
نهشتني الغيرة، والغيرة كانت قاسية كالهواية.

أنا أيوب.
قد كرهت نفسي. أسيبُ شكواي.
أتكلم في مرارة عن نفسي، قائلاً لا تستذنبني، فهمني لماذا تخاصمني؟

ألك عينا بشرٍ أم كنظرِ الإنسان تنظرُ؟
أأيامك كأيامِ الإنسانِ أم سنواتك كأيامِ الرجلِ حتى تبحثُ عن إثمي
وتفتشُ على خطيئتي؟

أنا أيوب يا ربي.

ألم يخاطبك أيوبك في الإصحاح العاشر مثلما أخاطبك الآن؟!

لماذا أخرجتني من الرحم؟

كنتُ قد أسلمتُ الروحَ ولم ترني عينٌ، فكنتُ كأني لم أكن. أليستُ أيامي قليلةً؟
أترك. كفَّ عني قليلاً قبل أن أذهبَ ولا أعود إلى أرضٍ ظُلْمةٍ وظلِّ الموتِ؟
أرض ظلامٍ مثل دُجى ظل الموتِ، وبلا ترتيبٍ، وإشرافها كالدُجى!

أنا آدم. نبي اليأس. المبشر بالخراب،

المبشر باللا يقين.

أنا آدم. أقول لكم: إن في أعماق الإنسان مستنقعات من الرجس،
وغابات تلتف على أغصانها أفاعي الخيانة.

أنا آدم.

جئت لأكشف عن وجوهكم أقنعة الغدر الزاهية.

هَلِّلُوكِيا للإنسان الغادر.

أنا آدم، وقايل ابني، لكنه هنا في هذا الفصل من المسرحية صديقي.

وعشيق زوجتي.

عفوًا، زوجة جاري المؤمنة والمحجبة التي لا تهدأ إلا إذا اخترقها رجل.

هذه المرأة الساحرة، أم ابني المسخ.

زوجة خائنة.

هَلِّلُويَا لِلخَائِنَاتِ. هَلِّلُويَا لِأَبْنَاءِ الزَّنا.

قابيلُ كان ثورِيًّا، ومقاتلاً كان في المقاومة مثلي.

في ليلةٍ ما، وعند الفجر، تسلل إلى موضع رفيقة لنا، زوجة أحد المقاتلين الذين كانوا قد خرجوا في مهمة،

تسلل إلى حيث تنام، وكنتم أنفاسها، واضعًا الحربة على عنقها إن همست أو صرخت.

وأجبرها على أن تنزع بنطالها، وتفك حزامه هو أيضًا، وتنزعه عنه للأسفل، وأن تأخذ لسانه السفلي لتضعه في فمها الأسفل، في مكانه الحقيقي بين فخذيها. وحينما انتهى منها لم تدعه يذهب، راقها أن تُغتصب.

ظل يأتيها كلما سنحت له الظروف، وأحيانًا كانت تزوره لموقع حراسته في ساعات الفجر الأولى ليضاجعها.

هَلِّلُويَا للمغتصابات، للواتي يعشقن الاغتصاب.

وحينما حَمَلْتُ، وبدأ الكلام المسموم ينتشر في المعسكر، كيف تحمل وزوجها غائب، فهي ليست مريم العذراء.

هرب إلى بيروت، ومنها إلى تركيا، وهو الآن، يعيش على تاريخه الثوري، وبييع المخدرات، ويتعامل مع المافيا التركية والروسية والشيخانية.

وبالغ في إغواء زوجتي، التي صارت تتظاهر بمضايقتها منه، لكنها تلهث وراءه ككلبة الصيد السلوقية.

هَلِّلُويَا للثوريين بائعي المخدرات.

هَلِّلُويَا للمغتصبين والمغتصابات.

كنت أنوي أن أكتب رواية. رواية عن حبيتي ابنة أبي العبد بائع الترمس في الفاكهاني. عن أم نبيل صاحبة المقهى المثيرة. عن مطعم التوليدو. عن حلويات أبو علي. عن الجامعة العربية التي تباع الشهادات بالليرات. عن جسر الكولا. عن صبرا وشاتيلا وبرج البراجنة. عن الأوزاعي، وكورنيش المزرعة والرملة البيضاء. عن البربير، وفردان. عن شارع الحمرا؛ وما أدراك ما شارع الحمرا!

أردت أن أكتب رواية عن الأصدقاء العراقيين الذين تم اغتيالهم على أرضة بيروت الغربية.

عن المقاومة الفلسطينية وشعراء الرصيف.

عن سينما التياترو التي كانت تعرض الأفلام الجنسية عند خط التماس.

السينما التي كانت تمتلئ بالفدائيين وبعض الشيوعيين.

السينما التي كانت رائحة المني تزكم الأنفاس من جراء ممارسة العادة السرية أثناء مشاهدة الأفلام فيها.

هَلَلُولِيَا للعادة السرية.

للعادة المكشوفة للعلن منذ خروجي من الفردوس.

كنت أنوي كتابة رواية.

كنت أنوي أن أتكلم عن مرارة نفسي.

لكن نفسي كرهت حياتي، لذا كرهت أن أكتب الرواية.

ولأني مثل الجامعة، قد وجهت قلبي لمعرفة الحكمة ولمعرفة الحماقة والجهل.

فعرفت حينذاك أن هذا أيضًا قبضُ الريح.

لأنَّ في كثرة الحكمة كثرة الغم.

والذي يزيد علمًا يزيد حُزنًا.

كما علمت، مثل الجامعة، أن لكل شيء زمانًا، ولكل أمرٍ تحت السماوات

وقتٌ.

للولادة وقتٌ وللموت وقتٌ.

للغرس وقتٌ ولقلع المغروس وقتٌ.

للقتل وقتٌ وللشفاء وقتٌ.

للهدم وقتٌ وللبناء وقتٌ.

للبكاء وقتٌ وللضحك وقتٌ.

للمنوح وقتٌ وللمرقد وقتٌ.

لتفريق الحجارة وقتٌ ولجمع الحجارة وقتٌ.

للمعانقة وقتٌ وللانفصال عن المعانقة وقتٌ.

للكسب وقتٌ وللخسارة وقتٌ.

للمصانة وقتٌ وللطرح وقتٌ.

للتمزيق وقتٌ وللتخييط وقتٌ.

للسكوت وقتٌ وللتكلم وقتٌ.

للحب وقتٌ وللغضّة وقتٌ.

للحرب وقتٌ وللصلح وقتٌ.

فأيُّ منفعةٍ لمن يتعبُ مما يتعبُ به.

لأنّ ما يحدثُ لبني البشر يحدثُ للبهيمةِ وحادثةٌ واحدةٌ لهم.

موتٌ هذا كموتٌ ذاك، ونسمةٌ واحدةٌ لكلِّ فليس للإنسانِ مزيةٌ على
البهيمةِ، لأنّ كليهما باطلٌ.

يذهب كلاهما إلى مكانٍ واحدٍ.

كان كلاهما من الترابِ وإلى الترابِ يعود كلاهما.

كلُّ ما تجدهُ يدك لتفعله، فافعله بقوتك.

لأنهُ ليس من عملٍ ولا اختراعٍ ولا معرفةٍ ولا حكمةٍ في الهاوية التي أنتَ
ذهبتُ إليها.

هَلُّوليا للهاوية التي ستبتلعنا جميعًا.

القسم الثاني:

ما إن همّت حواء المظلوم بقراءة القسم الثاني حتى رأت إشارة التوقف
من يد حواء المؤمن التي كانت شاحبةً جدًّا، والتي تمتمت بهدوء وبصوت
مختنق: كفى.

استغربت حواء المظلوم رد فعل حواء المؤمن، لأنها لم تفهم ما كتبه
آدم اللبباني. أحست أنها هلوسات شخص مجنون، لكنها عرفت أن حواء
المؤمن تأثرت جدًّا بما قرأته لها.

لقد أدركت حواء المؤمن بأن زوجها آدم اللبباني كان يعرف بطبيعة علاقتها
بصديقه قابيل، ومنه عرفت أنه كان يبيع المخدرات. كما عرفت أنه يائس جدًّا،
وشعرت بتمزقه لأنه أدرك كم هي تافهة، وكم هي خائنة، وكأن الخيانة تسري
في دمها، فقد خانت زوجها العراقي الدكتور آدم التائه معه، وخانته هو زوجها
الثاني مع صديقه قابيل، وربما لو استمرا في الحياة لخانت قابيل أيضًا مع
شخص ثالث، أهذه هي حقًا؟ عاهرة مبتدلة تنتقل من رجل إلى آخر لاهثة
وراء قطعة من اللحم تدخل فيها؟ تأثرت جدًّا لكثافة الألم والتمزق الذي كان
يعانيه، تألمت لأنها لم تستطع أن تفهمه، أو تحس به، لماذا لم تجد هذه الرزمة
من الأوراق حينما كان هو حيًّا، وحينما كانت هي بصيرة؟

طلبت من حواء المظلوم أن ترزم الأوراق من جديد وتضعها في غرفتها.
تحت وسادتها. قامت حواء المظلوم بذلك بكل سرور. فجأة. سُمع رنين
الجرس. خرجت حواء المظلوم مسرعة من غرفة نوم حواء المؤمن واتجهت
نحو الباب الخارجية. فتحتها، فمرقت إيفا أو مسك داخله وهي تلقي تحية

الصباح عليهما، ثم انحنى على حواء المؤمن وقبلتها من جبينها. ابتسمت حواء المؤمن لها وهي تحاول أن تكتفم حزنها، قائلة:

- أكيد أنك لم تفطري بعد.

- هذا صحيح.

- إذن جئت في الوقت المناسب، لدينا لحم بالعجين. كانت حواء بنت المظلوم قد اشترت ست قطع، أكلنا أربع وبقيت اثنتان.

- هذا شيء شهى حقاً.

وبدون أي إشارة أو توجيه قامت حواء المظلوم بحمل القطعتين المتبقيتين في صحن إلى إيفا أو مسك التي شكرتها على ذلك، ثم جاءت لها بكوب من الشاي أيضاً، فأحست إيفا بالدفء والصدقة، وتجلت ذلك في الفرح الذي كان يشع من عينيها.

رن جهاز الهاتف النقال الخاص بحواء المظلوم. نظرت إلى الرقم، وقالت لهما:

- إنه ابني.

انزوت جانباً لتجيبه. توجهت إلى المطبخ كي لا تزعج الآخرين لأن صوتها صار يعلو وكأنها كانت تتشاجر معه. حينما عادت من المطبخ كانت عصبية المزاج، وقالت لحواء المؤمن بنبرة فيها رجا:

- سأذهب إلى البيت لساعة من الزمان. فحضرة جناب ابني الموقر الذي جاء في الواحدة بعد منتصف الليل. يتصل الآن بي لأنه لا يعرف أن يطهي لنفسه بيضاً في الدهن، كما لا يستطيع كي قميصه الذي غسلته له أمس، ويريدني أن آتي له ببعض الحلوى التركية من المحل التركي، ولفة شاورما. ابتسمت لها حواء المؤمن قائلة وهي تواسيها:

- هوني عليك. هو شاب، كما أعتقد أنك السبب في كل تصرفاته هذه، لأنك ربيته على الدلال والاعتماد الكامل عليك، لذا نشأ كسولاً لا يعرف

أن يعمل لنفسه أي شيء. لكن هوني عليك. كل شيء سيكون على ما يرام. ويمكنك أن تبقي هناك إلى أي وقت تشائين. أنا لا أحتاج إلى أي شيء، وإذا احتجت لشيء فهذه إيفا موجودة.

انحنت حواء المظلوم عليها وقبّلت رأسها، وألقت التحية على إيفا أومسك وخرجت، لكنها أكدت أنها سترجع بعد ساعة أو أكثر بقليل.

بقيتا وحدهما. كانت إيفا أومسك تدرك بأنها وعدت حواء المؤمن بأن تشرح لها طبيعة عملها، وربما هي تنتظر منها أن تقوم بذلك. نظرت إليها، واستغربت، كما في كل مرة تنظر إليها، كيف أنها لا تستطيع الإبصار. فلامحها، وحيوية نظراتها، وطبيعة حركة جفניה لا تشيان بذلك. مدت يدها وأمسكت بكف حواء المؤمن التي وضعت كفها على كف إيفا أومسك أيضًا. ابتسمت لها قائلة:

- اليوم أراك مبكرة.

- لا أدري يا صديقتي العزيزة. أشعر بأني خفيفة جدًا منذ أن اعترفت للراهبتين. أود اليوم أن أذهب إلى الكنيسة. اليوم الأحد، وسيقام القداس في حدود الحادية عشرة والثانية عشرة. أريد أن أذهب اليوم وأشعل شمعة للعدراء.

ابتسمت حواء المؤمن لها بطيبة، وقالت لها:

- كم أتمنى لو أنني أستطيع أن آتي معك. وبالرغم من أنني لست مسيحية لكن بودي أن أشعل شمعة للعدراء.

- ولماذا لا تأتين معي اليوم؟

- لا. ليس اليوم، في المرة المقبلة. أحس أنني غير مهيئة لذلك اليوم.

- مثلما تحبين.

- ظننتك لا ترغيبين بالعمل أكثر في هذا المجال.

نظرت إيفا أومسك إليها نظرة تأمل وكأنها تفكر بماذا يجب عليها أن

تقول قبل أن تجيبها، فقالت:

أتدريين يا حواء. سأحدث بلغة بسيطة حتى تفهميني أسرع. منذ اليوم الأول لي في هذا العمل، أي منذ أن أخذني القواد الذي اشترايني من عشيقتي، كنت أحلم، ولمدة أربع سنوات، أن يأتي اليوم الذي أتخلص فيه من هذا العمل. كنت أفكر أول الأمر بأنه ما إن تنتهي فترة الأشهر الستة، التي قال لي القواد صاحب العمل بأنها ستكون كافية لتسديد المبلغ الذي اشترايني به، حتى يمكنني بعدها أن أترك العمل نهائياً. ولكن هذا الحقيق، صاحب العمل، مدد فترة العقد، الذي أعمل وفقاً له لمدة ستة أشهر مجاناً كي أسترده حريتي ويعطيني جوازي، لمدة ستة أشهر أخرى بحجة أنني لم أكن أعمل جيداً، ولم يستطع هو جمع المبلغ الذي اشترايني به. لكن الغريب، بعد انتهاء المدة، وحصولي على جوازي وأوراقتي، لم أترك هذا العمل!

- لماذا؟ سألت حواء المؤمن.

- القلق النفسي اليومي والمستمر خلال سنة من الزمان، والتهيج العصبي الدائم، والهواء المحبوس في تلك الأماكن الخافتة الضوء وكأن الإنسان يعيش في كهف، كل ذلك هدم روحي، ولم أجد وسيلة لنسيان كل هذا سوى العودة مرة أخرى والانغماس في هذا العمل، حتى لا يعد لدي وقت للتفكير. الغريب أيضاً، أنه اتسعت دائرة أصحابي، أو لأكن أكثر دقة، دائرة عشاقتي.

- عشاقك؟

- نعم. عشاقتي. هل تعرفين أننا معشر المومسات لدينا عشاق أيضاً، ونقصد بهم هؤلاء الرواد الذين يأتون إلى الماخور، أو المكان الذي نعمل فيه، لكي يضاجعوا واحدة محددة من المومسات، التي تعودوا أن يكونوا معها؟ ثم بدأت أتعرف على هذا العالم من زاوية أخرى، إذ أخذت أعمل لحسابي، أي صاحب المحل يأخذ مني خمسين بالمئة ويعطيني خمسين بالمئة. ثم أخذت أعمل في أماكن عدة.

- كيف؟

سألت حواء المؤمن وهي تنصت باهتمام شديد وشغف.

- في برلين هناك أربع شركات كبرى مختصة بالدعارة؛ شركات تنتج الأفلام الجنسية، وتطبع المجلات، وتبيع أجهزة الجنس المطاطية ومستلزماته، وأيضًا تعرض الأفلام، وكذلك الأجساد العارية من خلال الكابينات، وأيضًا لديها بيوت خاصة للدعارة، ممتازة، حيث يمكن هناك الدخول في إحدى الغرف مع أي واحدة يختارها الزبون. وهناك تقنيات كمبيوترية لتنظيم هذا العمل وكتالوجات، وألبومات صور توزع على الزبائن، فيها صورة العاملات في هذا المجال مع معلومات عنهن وأسعارهن. ولهذه الشركات فروع في أكثر من مئتين وخمسين مدينة بألمانيا.

- لكنك لست إنسانة خلقت لهذا الشيء فأنت كنت طالبة جامعية، ثم ماذا يقول الناس عنك من الذين يعرفونك بأنك تعملين في هذا المجال؟

- هل تقصدين تلك المبادئ حول الفضيلة والعفة وما شابه؟ من يهمه ذلك؟ أتدري أن النساء أمثالي لديهن الخطوة في الكثير من الدوائر الاجتماعية المغلقة؟ بل دعيني أقل لك شيئًا، نحن اللاتي نعمل بشكل رسمي، وندفع الضرائب على عملنا، لا تمنع الدولة أن تسجلنا كمرافقات اجتماعيات، أو عاملات خدمة، بينما الدولة تعرف جيدًا ما معنى ذلك، وأي عمل يُمارَس تحت ذلك التوصيف. المهم لدى الدولة نسبة الضرائب التي تستحصلها منا، وهي نسبة عالية، إذا ما نظرنا للدخل اليومي، ولعددعاملات في هذا المجال. أتدري أنه يوجد هناك ربما أكثر من ثلاثة أضعاف رقمنا الرسمي من النساء اللاتي يمارسن عملنا أنفسه، لكنهن إما ربات بيوت، وإما موظفات، أو فتيات لا يكفيهن مرتبهن؟ إنهن يعملن بالتليفون، بمعنى توجد صورهن في بيوت الدعارة الرسمية، وأرقام هواتفهن، فإذا ما رغب أحد بواحدة منهن، يتصل بالمكتب الذي ينظم كل شيء، حيث يتصل بالسيدة المعنية والتي تم اختيارها، فتذهب إما على عنوان الزبون وإما يتم الاتفاق بأن يأتي الزبون

والمرأة المختارة إلى إحدى البيوت الخاصة بالدعارة. طبعًا يتم كل شيء سرًا. وإذا ما التقيتِ بواحدة منهن صدفة، فربما ترينها مع زوجها أو صديقها أو ابنتها أو ابنها، ولا يمكنك أو أي أحد أن يتصور أنها مومس حالها حالي. بينما أنا أعمل بشكل يومي، وهي تعمل حسب الطلب. وطبعًا أنا أحصل أكثر. بعض أولئك النساء يلجأن إلى هذا العمل لأنهن في حاجة دائمة إلى المال، لأنهن يفتقدن لشراء حاجاتهن التي لا يسمح مصروفهن أو مرتبهن لشرائها. بعضهن، وهذا يحصل أحيانًا أيضًا، لا يحتجن للمال، لكنهن يمارسن هذا الشيء أحيانًا لإشباع حاجتهن الجنسية، ولأنهن لا يُردن علاقة عاطفية مع رجل محدد، لأن ذلك يسبب لهن حرجًا اجتماعيًا، فهن يردن المتعة، المتعة الجنسية فقط، وليست العاطفة، لذا يأتين تحت أسماء وهمية ليتمتعن ويذهبن.

- غريب!

- ما هو الغريب؟

- نساء يأتين ليصبحن مومسات مجهولات الاسم، فقط من أجل الجنس؟
- نعم. لماذا تستغربين ذلك؟ بعض النساء يأتين ليمارسن أشياء جنسية، أوضاع وممارسات، لا يستطعن ممارستها مع أزواجهن. أنا أعرف قصصًا غريبة جدًا. حتى أنا الروسية المتحررة والتي أعمل مومسًا أستغريها.

- مثلاً؟ سألت حواء المؤمن بفضول لا يتناسب مع حالتها!

- بعض الرجال يأتون إلينا من أجل أن نضربهم ونجلدهم. بعضهم يدفع لنا الكثير من أجل أن يمارس معنا من الخلف لأنه لا يستطيع أن يمارس ذلك مع زوجته المصون. بعضهم يأتي ليتحدث معنا لا أكثر، يدفع المال من أجل أن يجد من يستمع لقصصه عن نفسه وطفولته. الناس هنا يعيشون في عزلة رهيبة يا حواء، إنهم يتبادلون الزوجات أحيانًا، بل أنا أعرف أن أحد الرجال يأتي بزوجته لشخص أفريقي، مرة كل أسبوع، يتركها لديه اليوم كله، وفي نهاية النهار يأتي زوجها ليأخذها. يحدث ذلك أسبوعيًا، وطبعًا يدفع مبلغًا

كبيرًا للأفريقي. وهذه المرأة موظفة، وزوجها موظف كبير في شركة، لكنه عاجز جنسيًا، ولأنه يحب زوجته، ولا يريد أن ينفصل عنها، وهي تحبه أيضًا، ولأنها لا تريد أن تتخذ عشيقًا، لذلك اتفقا على أن يأتي بها لكي تستمتع أسبوعيًا بكل أنواع الممارسة الجنسية. نحن المومسات أيضًا لدينا عالمنا. أحيانًا نسمح لمن يعجبنا بأن يتجاوز الفترة الزمنية بقليل، أو نؤدي له بعض الخدمات الجنسية غير العادية.

- لا أفهم؟

- يعني المتفق عليه هو عشرين دقيقة للممارسة العادية، ومن الأمام والموضع الطبيعي طبعًا، وبدون قُبلات أو أي شيء آخر من الخدمات. وإذا زادت الفترة إلى نصف ساعة أو ساعة، فلكل فترة سعرها. القواد الذي يتعامل معنا يأخذ نسبته على الممارسة الاعتيادية، لكن يحدث أن يأتي زبون ويريد أن يُقبلنا من الفم، وهذا ما لا نسمح به، لأن قُبلة الفم في عُرف المومسات لا نمنحها إلا لمن نحبه، أو أن يطلب منا أن نأخذ عضوه بفمنا، أو أن يأتينا من الخلف، وكل هذه الأشياء تعتبر خدمات إضافية عليه أن يدفع مقابلها، لكن يحدث أحيانًا أن نتعود على شخص ما من كثرة تردده علينا فتصبح بيننا علاقة أشبه بالصدقة، فنسمح له بهذه الخدمة أو تلك مجانًا، يعني هناك أشياء في هذا العالم الخاص لا يعرفها إلا الذين يعيشون فيه.

- لدي سؤال. لكني لا أعرف كيف أسأله.

- أسألي ولا تتحرجي.

- هل تستمتعين بذلك، أقصد كم مرة يحصل لك في اليوم، وهل تستمتعين بذلك؟

- لا. لا أستمتع. لكنني أصطنع الاستمتاع. نحن المومسات نقوم ببعض الحركات والتأوهات وكأن هذا الزبون هو البطل الوحيد الذي يثيرنا. هذا الأمر يعجب الرجال، لذا يعاود المجيء ثانية، لأننا لو منحنا جسدنا ببرود

فإنه من المحتمل لن يختارني، بل سيذهب لواحدة أخرى تمنحه الشعور برجولته القوية، مهما كان هو ضعيفاً.

- لكن أنت. أنت امرأة شابة وتحتاجين ذلك؟

- نعم أحتاجه لكن مع شخص أحبه. لذلك إذا أردت أن أمارس الجنس فسيكون مع رجل لا يقايض جسدي بالمال. لكن في عملنا لا نسمح لأنفسنا بالوقوع في الحب، وكثير من الفتيات كن عشيقات للقوادين، مثلما أنا تنازلت لعشيقتي بأن يستخدمني، وحصل الذي حصل. هل تصدقين أننا نمتع أنفسنا بأنفسنا أحياناً. وبعضنا اخترن أن يمارسن حياتهن الجنسية مع نساء أخريات. وبعضنا أصابتهن لوثة العشق، فتحب أحد زبائنهن، فتعطيه كل ما تحصل عليه. نحن نساء معذبات.

- ألا تحنين للاستقرار وتكوين عائلة؟

- بلى. أنا امرأة، أفكر بترك العمل، لقد جمعت مبلغاً محترماً ربما سأفتح لنفسي مشروعاً تجارياً. لا تستغربي فالكثير من سيدات المجتمع كن مومسات سابقات، أتمنى أن تولد في أعماقي مشاعر الحب تجاه رجل، أتمنى أن يخفق قلبي له، لكن ذلك لم يحصل لي، بعد أن دخلت مملكة اللذة المظلمة.

- ما إن انتهت إيفا أو مسك من سرد تفاصيل عالمها حتى انتهت إلى أن حواء المؤمن كانت في حالة غير طبيعية. إذ كان وجهها شاحباً يميل إلى الخضرة، وكانت ثمة تشنجات تظهر وتختفي على عضلات وجهها، خدها وجبينها، وكانت ثمة رجفة على طرفي فمها. ارتعبت إيفا أو مسك، فمسكت يدها وسألتهما بخوف:

- ماذا بك يا صديقتي؟

- كانت يد حواء المؤمن ترتجف، بل كل جسدها كان يرتعش. تحركت حواء وكأنها تريد أن تتمدد على الصوفا، وقالت بصوت متعب:

- أريد أن أرتاح قليلاً. أحس وكأن قلبي قد هبط من صدري بين ضلوعي، وأن جسدي لا يقوى على المقاومة. أريد أن أتمدّد قليلاً. لا تخافي يا إيفا. يحدث هذا معي منذ فترة، أي ما بعد الحادث. تمر الحالة لدقائق وتمضي.
- سأتصل بالطوارئ. لا بد من نقلك إلى المستشفى، فربما هذه ذبحة صدرية!
- لا داعي يا عزيزتي. أنا بخير. ستمضي هذه الحالة بعد دقائق. فقط لا تقلقي أرجوك.
- هذا كله بسببي. أنا رويت لك عن هذه العوالم التي تقبض على القلب وتعصره عصرًا.
- لا أبدًا يا إيفا. هذا الأمر يحصل لي للمرة الرابعة. سيمر بعد دقائق.
- نهضت إيفا أومسك من مكانها واتجهت إلى المطبخ. فتحت الثلاجة وأخرجت قنينة الماء. صبت الماء في كأس وجاءت بها إلى حواء المؤمن، جلست إلى جانبها، أسندت رأسها بحضنها ووضعت الكأس على شفتيها. ارتشفت حواء المؤمن بعض رشقات من الماء. وضعت إيفا الكأس على الطاولة الزجاجية، وأخذت تفرك كفي حواء المؤمن، ثم تمسّد جبينها. وبعد دقائق عادت حواء المؤمن إلى حالتها الطبيعية. ابتسمت لترأها إيفا أومسك قد عادت لوضعها الطبيعي. قالت لها إيفا بخوف واضح في النبوة:
- لقد ارتعبت من أن يحصل لك ما يعرض حياتك للخطر.
- لا عليك. كم الساعة الآن؟
- في حدود العاشرة.
- لقد قررت أن آتي معك إلى الكنيسة. أحس أنني مهيئة الآن لذلك. أريد أن أشعل شموعًا عدة للسيدة العذراء، أنا أحبها بالرغم من أنني لست مسيحية. أحس أنها عانت كثيرًا. عانت من رجال زمانها، من أقاويلهم وإشاعاتهم. أحس أنها قرية من كل المظلومين والتعساء في هذا العالم، من النساء التبعسات والمظلومات.

- نظرت إيفا أومسك إليها بحنان والدمع يترقرق في عينيها، وقالت:
- إنها كذلك. إنها شفيعة كل التعساء والمظلومين والمذلين والمهانين في هذا العالم. لكن ماذا عن حواء المظلوم؟
- ماذا بها؟
- ماذا لو جاءت ولم تجدنا؟
- لا تخافي. ستنتظرنا.
- هل أنت متأكدة من أنك تريدين أن تأتي معي؟
- سأتي معك.
- إذن، سأكون في غاية السرور. وستسر العذراء أيضًا بوجودك. إذن علينا أن نذهب قبل وقت القداس، ليتسنى لنا أن نشعل الشموع.
- كان وجه حواء المؤمن شاحبًا، لكنه كان يتألق بحزن شفيف. كانت وكأنها تنتظر شيئًا خارقًا سيحدث.

- شعر آدم المحروم بالخوف من تطور أحداث الرواية بهذا الاتجاه، واستغرب سعة معرفة صديقه الكاتب بعالم الدعارة في ألمانيا. فكر مع نفسه، من تشبه حواء الزاهد بين كل هذه الشخصيات؟ وضع رزمة أوراق المخطوطة جانبًا.
- ظل يحرق في سقف الغرفة وهو مستلقٍ على فراشه، فكر أن ينهض ليطفئ الضوء وينام، وما إن همَّ بذلك حتى رأى حواء الزاهد واقفة تنظر إليه. فوجئ بوجودها، فسألها بصوت خافت:
- هذه أنت؟ منذ متى تقفين هنا؟
- منذ عشر دقائق. كنت أنظر إليك وأنت تقرأ في الأوراق التي لديك ومستغرق في القراءة فلم أشأ أن أزعجك، ثم أنني كنتُ مستمتعة فعلاً وأنا أراك تقرأ، وكنت أتوقع أن تنتبه لوجودي، لكنك لم تنتبه.

- صحيح. كنت مستغرقاً في قراءة رواية صديقي القليل آدم البغدادي، لكن لماذا تقفين هكذا؟

- لم تجبه وإنما توجهت مباشرة إلى حيث زر الكهرباء فأطفأت النور، ثم مشت إلى حيث يتمدد فتمددت إلى جانبه. مدّ هو الغطاء عليهما فصارا تحت الغطاء ولم يبرز منهما سوى رأسيهما. كانا يشعران بالحميمية في العلاقة. كانت هي سعيدة بمغامرة الحب هذه. احتضنها. مدّ يده إلى تحت ثوبها وأخذ يمرر كفه على فخذيها الملساوين. وشيئاً فشيئاً رفع كفه إلى الأعلى. فتحت هي ساقها لتسهل له مداعبتها. أخذ هو بدوره كفها ووضعها على عضوه. شعرت بالخجل فسحبت يدها، لكنه أصر في الظلمة أن تمسكه. مسكته، وشيئاً فشيئاً أخذت تداعبه. قالت له وهي مثارة، وفي نبرات صوتها فحيح رغبة تتصاعد:

- أنت جريء، بل وفاسق. يبدو أن لديك تجارب كثيرة مع النساء، أليس كذلك؟
- أحس أنها سترجع لطبيعتها الأنثوية بالنش في تجربته مع النساء وتاريخ علاقاته، لكنه أحس بإمكانية الاستفادة من هذا السؤال، فقال لها:
- لقد تعلمت من النساء الكثير. هناك أشياء تمارسها النساء مع الرجل، تعلمته منهن.

- مثلاً؟ أي شيء تفعله النساء الأخريات؟
- أتريد أن تعرفي فقط أم أن تفعلين أيضاً؟
- أنا لا أعرف أصلاً ما هو ذلك الشيء حتى أقرر!
- وبدون كلام نزع عنه كل ما كان يلبسه. صار عارياً تحت الغطاء. كان متهيئاً. أحسّت به، لكنها تفاجأت به وهي يأخذ رأسها ويسحبه إلى الأسفل، إلى حيث كفها تمسك في الأسفل. وقال لها بصوت متهيج:

- أدخله بفمك، مصيه.
- فجاءه صوتها متهيجًا لكنه متردد:
- لا أستطيع ذلك.
- قلت لك جريه أولاً، بعدها ستعرفين إن كنت تستطيعين أم لا؟
- أحس بها وهي تتلمسه بشفتيها، لكنها رفعت رأسها تحت الغطاء وتمتمت:
- لا أستطيع.
- واصلني.
- أخذته في فمها. أحس بها مترددة في أول الأمر، لكنها شيئاً فشيئاً أخذت تتفنن في ما تقوم به. وأخيراً أزاحت الغطاء، وقامت بكامل جسدها، ومدت إحدى ساقها حول جسده، وجلست هناك بالضبط. كانت متهيجة، وكان هو في أعماقها، بل وأعماق أعماقها. كانت هي ترتجف وتهتز من تيارات اللذة التي هجمت عليها. ومن شدة تهيجها تضاعفت رغبته، فبالرغم من أنه كان متعباً، إلا أنه تحرك بكامل جسده، ثم التف عليها وطواها تحته، رافعاً ساقها. كانت هي مبتلة بكثافة. وبحركة مباغتة وغير متوقعة قلبها على بطنها، ومد جسده فوقها.
- كانت الظلمة شاهدة على رغباتهما المشتعلة، بينما بدأ الغش يرش حليبه شيئاً فشيئاً على سماء الحديقة. مرت ساعة ونصف عليهما. كان جسدهما متعرقين. جلست هي على الفراش. أخذت ثوبها ولبسته. وقالت له:
- سأتركك ترتاح يا حبيبي.
- هل ارتحت؟
- جداً، وأنت هل ارتحت؟

- نعم. هل أعجبتك الأشياء الجديدة؟
- سأذهب الآن.
- تصبحين على خير.
- وأنت من أهله.
- واختفت في العتمة، في تلك الفتحة التي تفصل بين الصالة وأعماق البيت، وكأنما غابت في الظلام. بينما أغمض هو عينيه ولم يعرف كيف جاء النوم إلى جفنيه.

شمعة للشفيع العذراء، شمعة لقبر حواء

ساحل رملي غارق في الضباب. لا يبدو من البحر غير أفق حليبي وضباب كثيف. آدم المحروم في ملابس بيضاء، وحذاء أبيض. يقف على حافة قطع جبلي ينظر إلى الساحل. لمح قطعة سوداء هناك. لم يتبين ما هي. فجأة، وجد نفسه يمشي على الساحل الرملي. توجه حافي القدمين على الرمل المبتل من حركة الأمواج نحو الكتلة السوداء التي اتضح له إنها بيانو رويال سوداء، من الخشب الصاج. تقدم نحوها فتحول البيانو إلى باب خشبي أسود. دفع الباب فوجد نفسه في قصر أبيض، يفتح على البحر من خلال شرفة زجاجية كبيرة. الصالة بيضاء. جدرانها مطلية باللون الأبيض. أثاثها كله باللون الأبيض. الشموع التي تتقد على الطاولات الفضية بيض.

انتبه إلى أنه الآن يلبس حذاء أبيض. دخل إلى غرفة بيضاء، تتوسطها امرأة صافية زئبقية البياض، توجه إلى المرأة، نظر إلى نفسه في المرأة فلم يرَ شيئاً. مدَّ يده إلى المرأة فأحس أنها طرية. مد يده فدخلت في المرأة. سحب يده بسرعة. سمع هسيساً في الصالة. أراد أن يعرف مصدر الصوت. فتح الباب فوجد الصالة تشتعل بالنيران. النيران تتصاعد لكن دونما دخان. النيران في كل جوانب الصالة، حتى في المواضع التي لا توجد فيها شموع، لكن النار كانت باردة ولا تبعث أي حرارة في المكان ولا تلتهم الأشياء. أغلق الباب وعاد لينظر في المرأة فرأى صورةً للنار في المرأة. لم ير نفسه، ثم فجأة وكأنما لوحة تبديل. صارت المرأة صافية واختفت النيران ثم تكشفت المرأة

عن ضباب كثيف. اختفى الضباب. نزل دم من أعلى المرأة إلى أسفلها ومن جانبها الأيمن إلى الأيسر. مد إصبعه إلى الدم ليتأكد منه، فلم يمس إصبعه شيئاً. قَرَب وجهه من المرأة فلم يَر شيئاً، فجأة امتدت قبضة يد فضية خرجت من المرأة، قبضت على ياقته وسحبته بسهولة إلى داخل المرأة.

فرَّ آدم المحروم من نومه. نظر نحو النافذة فعرف أنه لم ينم سوى دقائق قليلة. أحس بالخوف من الحلم الذي أمسك بخناقه في النوم. لا لم يكن حلمًا بل كابوسًا. غابت رغبته في النوم. أحس بنشاط مفاجئ. حاول أن يضغط على نفسه لكي ينام، لكنه لم يستطع. قام بهدوء وضغط على الزر الكهربائي فأنازل الغرفة. أراد أن يسترجع ما رآه في النوم، فلم يستطع سوى استعادة بعض تفاصيله. أراد أن يجد تفسيرًا لذلك فلم يستطع. ما الذي عليه أن يفعله الآن؟ فكر أن حواء الزاهد ربما تحتاج لساعتين أو ثلاث على الأقل لتستيقظ ثانية. مدَّ يده إلى حيث وضع ما تبقى من رزمة المخطوطة وأخذها ليقرأ. توقف مُفكِّراً مرة أخرى بالكابوس الذي رآه، لكنه لم يجد له أي تأويل. وليهرب من قلقه أخذ يقرأ في رواية (متاهة حواء وادي الظلمات) من حيث توقف، قبل أن تأتيه حواء لتمنحه كل مفاتيحها ومغاراتها وكنوزها.

شمعة للشفاعة العذراء

جلست حواء المؤمن في مقدمة السيارة إلى جانب إيفا أومسك التي كانت خلف المقود. كانت إيفا أومسك تنظر بإعجاب إلى هذه المرأة المسلمة التي تود الذهاب إلى الكنيسة من أجل إيقاد شمعة للعذراء. وجه حواء المؤمن كان مليئاً بالترقب. كانت صامته. فكرت بأن العذراء أم المسيح من المؤكد ستتفهم خطاياها التي ارتكبتها طوال حياتها. أحست بشيء من العزاء الروحي لهذه الفكرة. أدارت إيفا أومسك محرك السيارة، وقبل أن تنطلق قالت لحواء المؤمن شارحة:

- بالنسبة لنا، نحن المسيحيين الأرثوذكس لدينا عدد من الكنائس في برلين، لكن لنا نحن الروس خمس من بينها، والبقية للإغريق والصرب والبلغار وغيرهم، ومن بين هذه الكنائس أنا شخصياً أزور الكنيسة الواقعة في "هوهن سولرندام". هناك أحس بالراحة أكثر. لا أعرف لماذا! ربما لأنني صرت أعرف الوجوه هناك أكثر. لنذهب إذن.

- لا ضير. كلها بيوت الله. وإن وجه الله موجود أين توجه الإنسان.

- علقت حواء المؤمن على كلامها.

- هذا صحيح.

تمتعت إيفا أومسك، وانطلقت السيارة نحو الكنيسة. قاطعة طرق برلين الهادئة نوعاً ما أيام الأحد. وفي الطريق التفتت إيفا أومسك إلى حواء المؤمن قائلة وكأنها تدلي باستنتاج مهم:

- أتدريين يا حواء أنك إنسانة طيبة جدًا وذات قلب كريم. وأنا شخصيًا أحتاج لأصدقاء ذوي قلوب كريمة. مَنْ ينظر إليك يعرف أنك عانيت كثيرًا، وعرفت آلامًا رهيبية؛ وبالرغم من أن الآلام تدفع الناس إلى الشر والحقد والكراهية، لكنك بقيت ذات قلب طيب، بل إنك من معدن هؤلاء البشر الذين كلما مروا بالآلام أكثر، تطهروا أكثر، وبان وجههم الإنساني أكثر. مثل المعادن النفيسة كلما اشتدت النار تخلصت من الشوائب والخبث العالق.

- أنا إنسانة عادية جدًا.

- علقت حواء المؤمن بتواضع، بالرغم من أن عينيها تألقتا حينما سمعت إيفا أومسك تتحدث عنها. وبدون أن تلتفت إلى أي جهة، قالت لإيفا أومسك:

- أنت أفضل مني.

- أنا؟ أنا المومس؟

- نعم أنت. أنت تألمت كثيرًا أيضًا. أنا تألمت كثيرًا حقًا. هذا صحيح. لكنني لم أمر بالجحيم الذي مررت خلاله أنت.

- نظرت إيفا أومسك نظرة خاطفة إذ عليها الانتباه للطريق، وقالت بحزن:

- أنا ما زلت في الجحيم يا حواء.

- لكنك ما زلت طاهرة القلب. أنت من طيبة قلبك، ومن كبرياء قلبك الكريم، تعتبرين نفسك آثمة، وخاطئة، ودنسة، بينما هناك الكثيرون ممن يعيشون في بيئة أخرى نظيفة، ويلبسون الثياب الأنيقة والغالية، ويتبوؤون المناصب الإدارية الرفيعة، لكنهم من القذارة والوساخة بحيث أن نعالك أظهر منهم. وبالرغم من ذلك فأنت لا تحرصين على نفسك ولا على شخصك.

ترقرقت الدموع في عيني إيفا أومسك عندما سمعت كلمات حواء المؤمن، ثم قالت:

- لقد كنت، منذ لحظة اغتصابي من من قبل زوج أُمي أرى نهايتي المخيفة، لكنني واصلت الطريق، مشيت في ذلك الطريق الأثم، وكنت أتوقع أن تتغير النهاية، أن يأتي البطل المنقذ، الذي ينقذني من هذه النهاية، لكن لم يأت أحد ولا أحد سيأتي. أشعر دائماً بانقباض في صدري، وتمتلئ نفسي بالخوف والقلق حينما أنظر لما أنا فيه. وحين أكون وحدي أضطرب كثيراً. أبكي. أفكر بالانتحار لكنني سرعان ما أستبعد الفكرة. أشعر أنني جبانة للقيام بتلك المحاولة. أنا مؤمنة وأخاف الانتحار. نعم. شعوري بالإثم يدمرني ويهز ثقتي بنفسي. أتدريين يا حواء. سأخبرك عن شيء ما؟

- ما هو؟

- صحيح أنني عاشرت زوج أُمي، ومنحت ثقتي لرجل باعني، منحت ثقتي لقواد. وصحيح أنني صبرت على القواد لأيام عدة وهو يتلذذ من جسدي، لكن حينما أخذني هذا القواد لأول مرة للعمل، وأدخلني بيت الدعارة، وفتح لي غرفتي الخاصة بي، وأجبرني على لبس أزياء المومسات في ذلك المكان، وأخبرني بأن الزبون الأول سيدخل عليّ بعد دقائق. أتدريين ماذا حصل لي؟ كنتُ أرتجف من الخوف، فلأول مرة كنت أبيع جسدي مقابل النقود. كل ما مضى معي سابقاً كان شهوة مني ورغبة في أن أكون مع رجل، بهذا الشكل أو ذاك، لكنني حينها صرت أعمل، أقوم بعمل مقابل المال! كنت أرتجف! الغريب، أن الرجل الأول لم ينتبه إلى أنه كان الأول وأني أقوم بذلك لأول مرة، كان لطيفاً معي، وهادئاً، لاطفني أول الأمر، ثم أخذني برفق. حينها استسهلت الأمر! فليس الأمر صعباً إلى هذه الدرجة كما تتصور بعض النساء، فكثيراً ما كان زوج أُمي يأخذني، وبدون رغبتني، بعنف أكبر. المهم. تعودت. بعد ذلك دخل عشرات بل مئات، وصاروا عبر السنين آلاًفاً، لكنني ما زلت أذكر الرجل الأول الذي دفع لي، بل صار يأتينني مرات عدة، حتى حينما انتقلت وغيّرت أماكني كان يزورني. كأنه كان يعرفني، فأحياناً

كثيرة كان يأتي ليس لرغبة فيّ، وإنما ليحدثني عن مشاكله ومصاعبه في العمل والحياة العامة، وعائلته أيضًا.

صمتت حواء المؤمن للحظات. كانت تريد أن تفهم عالم صديقتها، فسألتها:

- هل أحببته؟

- لا أعتقد، ربما نشأت بيننا صداقة ما. إنه كان يدفع حتى في المرات التي لم يفعل فيها معي شيئًا، يدفع مبلغ ساعة من الزمان ونجلس لتحدث، أي حديث مدفوع الثمن! كان يجلس ليحدثني عن مشاكله فقط، فهو لم يسألني أبدًا عن مشاكلي، ولم يطرأ في ذهنه يومًا أن يدعوني لمكان ما، بل فكّرت ذات مرة أن أدير الحديث عن حياتي، فلم يتجاوب معي. وقال لي إنه يدفع لي من أجل أن أسمعته هو لا أن أسمعني! لذلك بدأت أدرب نفسي على سحق عواطفني ومشاعري تجاه الآخرين.

- أنت إنسانة طيبة، بل وتعيّسة أيضًا.

- الناس الطيبون لا يصلحون لشيء. بداية الأمر كنت أفكر أنه متعلق بي، وربما ستفتّح هذه العلاقة عن شيء ما، لاحقًا، لكنني أدركت أنه صار يأتيني بحكم العادة، وأنه ربما لم يجد من يتحدث له عن مشاكله غيري، بالرغم من أنه يدفع لذلك. فحتى بعض المومسات يرفضن أن يأتي الزبون ولا يفعل شيئًا، حتى وإن كان قد دفع ما عليه من مبلغ مقرر، لأنهن لا طاقة لهن لسماع مشاكل الآخرين، فيكفيهن ما لديهن من مشاكل وآلام نفسية! إلى جانب أن البعض الآخر منهن يفسرن ذلك بأنهن غير جذابات ولا يستحقن عناء مضاجعتهن، وهذا يجرح كبرياءهن. تصوري هذا هو كبرياء المومسات!

كان هذا الحديث عن هذا العالم جديدًا على حواء المؤمن، لكنها وصلت إلى مرحلة وكأنها خبرت مثل هذه الأحاسيس، فقالت بنبرة فيها خيبة واضحة:

- القبول بالمهانة والذل يحتاج لقوة نفسية كبيرة أحياناً.

بعد نصف ساعة وصلنا إلى المكان المقصود. كانت الكنيسة تقع في وسط مكان مسيَّج ومحاط بالأشجار، وكانت هناك مساحة كبيرة خصصت كموقف لسيارات زوار الكنيسة. ركنت إيفا أومسك السيارة هناك، وحينما نزلت من السيارة شبكت ذراعها مع ذراع حواء المؤمن وسارتا نحو الكنيسة. حين هممتا بالدخول إلى الكنيسة أحست حواء المؤمن بشيء من الرهبة. لم تشعر بالتردد ولا بالخوف ولم تفكر بأنها تعمل شيئاً ضد إرادتها أو قناعاتها، على العكس، وإنما كانت تشعر بالرهبة والخشوع.

حين دخلت باحة الكنيسة أحست أنها فارقت العالم الخارجي ودخلت إلى موضع ليس له علاقة بإيقاع الحياة اليومية. احتضنت إيفا أومسك يدها كي لا ترتبك عند المشي، لأنها لم تأخذ معها عصاها. كان هناك عدد كبير من النساء الروسيات المسنّات، وبعض الشابات، وعدد من الرجال المسنين، وعدد قليل جداً من الرجال متوسطي العمر. وكانت النساء المسنّات يضعن الفوطة على الرأس، بل والكثير من الشابات أيضاً، حتى إيفا أومسك أخرجت من حقيبتها شالاً خفيفاً وضعتته على رأسها وكتفيتها كاحترام للمكان ولقدسيته.

ازدحمت النساء عند المذبح وأمام أيقونات القديسين والحواريين المتراففة جنباً إلى جنب، تتوسطها أيقونة يطغى عليها اللون الذهبي، مستنسخة عن أيقونة شهيرة لفنان الأيقونات الروسي المعروف "أندريه ريبيلوف". النساء وقفن في صف طويل تقريباً من أجل أن يُشعلن الشموع أمام أيقونة العذراء، وحينما اقتربت إيفا أومسك وحواء المؤمن، همست إيفا في أذنها أن تنوي وتطلب ما تشاء في سرّها من العذراء، لأن الأم المقدسة، السيدة العذراء، ستشفع لها من أجل تحقيقه.

رائحة البخور المخدرة والشمع الذائب، يرافقه تصاعد موسيقى الأرغن، قد
مسّ شغاف قلب حواء المؤمن التي تقدمت بصحبة إيفا أومسك، والتي أمسكت
يدها لتشعل الشمعة ولتضعها في الأماكن المخصصة لها. بعض النساء انتبهن
لما قامت به إيفا أومسك، وسألنها بالروسية، بخفوت وتعاطف واضح:

- ماذا. ألا تستطيع هذه الشابة أن ترى؟
- لا، إنها لا تبصر، كما أنها ليست مسيحية، لكنها جاءت لتشعل شمعة
للعذراء.
- لتساعد العذراء، أمنا المقدسة، ولتفتح لها قلبها وتعيد لها بصرها،
ولتشفع لها لتحقيق أمنيتها.
- علقت امرأة بالروسية وبصوت مسموع، لكن حواء المؤمن لم تعرف أن
الحديث كان يدور عنها.
- يا للخسارة. هذا الجمال كله ولا ترى.
- علّقت أخرى.
- اسكتن. دعوا المرأة في الهم الذي هي فيه. صلوا من أجلها، لتشفي
العذراء بصرها وتحقق لها طلباتها. علقت امرأة أخرى.
- أخذت إيفا أومسك بيد حواء المؤمن وتوجهتا إلى المقاعد الخلفية،
حيث يجلس رعايا الكنيسة، للاستماع لموعظة الأب راعي الكنيسة
وليشاركوا في طقوس القدّاس. سرت مهمة بين بعض النساء في الصفوف
الخلفية عن الشابة المسلمة التي جاءت لتشعل شمعة للعذراء أم المسيح.
بعضهن التفتن نحو الخلف يبحثن عنها، ولم تكن هي تعرف ما يدور، لكن
إيفا أومسك كانت متنبهة لكل شيء.

حينما بدأت مراسم القدّاس وقف الجميع. وقفت حواء المؤمن أيضًا
بإشارة حركية من إيفا أومسك التي كانت تمسك بذراعها. ولأول مرة تمت

هي لو كانت ترى بعينها الآن ما يجري، فهي منذ الحادث، لم تتأسف على فقدانها البصر وتقبلته كعقاب إلهي، لكنها الآن تمنّت لو أنها ترى ما يدور حولها. أرادت أن ترى ما يدور هنا، هل هو مثل الأضرحة المقدسة في العراق، والتي كانت تزورها سنويًا تقريبًا؟ وبالرغم من أنها لم تفهم اللغة الروسية التي كانت ترافق مراسيم القداس، لكنها أحست بالقشعريرة تسري في جسدها، من طريقة تلاوة الأدعية والصلوات! مالت برأسها على إيفا أومسك وسألتها بخفوت:

- ماذا يقول؟

- إنه يسبح لله وللروح المقدسة. إنه يقوم بمراسيم الصلاة والقداس. همست إيفا أومسك.



انتهت مراسيم القداس. وبدأ رعايا الكنيسة يمضون في صف باتجاه الأب راعي الكنيسة الذي يضع قطعة صغيرة من الخبز الخفيف جدًا في فم كل منهم. أخذتا مكانهما في الصف الطويل، وقبل أن تصلا إلى الأب راعي الكنيسة همست إيفا أومسك في أذن حواء المؤمن بأنه يجب أن تفتح فمها حينما يصلان إلى الأب المقدس ليضع قطعة من خبز القداس في فمها. لم تفهم حواء المؤمن معنى ذلك، ولم تستطع أن تسأل عن تفاصيل هذا الأمر، كما أن إيفا أومسك فاتها أن تشرح لها تفاصيل الطقس والقداس قبل أن تأتيا إلى الكنيسة.

حين وصلتا إلى حيث يقف الأب المقدس، فتحت إيفا أومسك فمها فوضع نيافته قطعة صغيرة من خبز القداس في فمها، وتحركت جانبًا لكي تكون حواء المؤمن أمامه. ضغطت هي على ذراع حواء المؤمن كي تفتح فمها. نظر الأب المقدس إلى إيفا أومسك، فبدا لها وكأنه عرف أنها لا ترى، فهزّت هي رأسها له بالإيجاب. وضع الأب قطعة خبز القداس في فمها. وتحركتا. نظر الأب إليهما وهما تتحركان. كانت عيناه مليئتين بالحنان والطيبة.

كانت حواء المؤمن تعيش مشاعر روحية عميقة. مشاعر تتجاوز الأديان والمعتقدات بين البشر. أحسّت أن الله واحد وهو لجميع البشر، ولكل دينه، لكن الهدف هو نفسه، الله يفيض نوره في كل القلوب.

حين خرجتا من حرم الكنيسة، شعرت حواء المؤمن إنها خفيفة، وكأنها قد تم تخفيف أثقالها النفسية، لكنها في الوقت نفسه راودها إحساس وكأنها لا تنتمي لهذه الدنيا بعد الآن. شعور غريب راودها وهما تتجهان إلى السيارة. في السيارة، وهما في طريق الرجوع إلى البيت، كانت حواء المؤمن صامتة. كان ثمة سكون وسلام داخلي يغمرها. حاولت إيفا أومسك أن تحدثها أول الأمر، لكنها انتبهت إلى أنها غارقة في عالمها الداخلي فلم تشأ أن تزعجها. فجأة؛ شحب وجه حواء المؤمن، انتبهت إيفا أومسك لذلك، فلم تجد إلا أن تسأل:

- ماذا بك؟ هل حصل شيء؟ هل تشكين من شيء؟
- لا أبداً، لا أشكو من شيء. لدي شعور بأنني سأغادر هذا العالم قريباً. سألتها إيفا أومسك قلقة:
- ماذا تقولين؟ هل تحسين بشيء، بعارض صحي أم مجرد تفكير؟
- ردت حواء المؤمن بهدوء وسكينة داخلية واضحة:
- إنها رؤيا. هاجس. شعور داخلي.
- كانت إيفا أومسك قلقة عليها، فسألتها:
- هل تريدين أن نذهب إلى المستشفى؟
- لا. لا. أي مستشفى؟ أريد أن أصل إلى البيت فقط.
- لم تتبادلا الحديث أكثر. لكن إيفا أومسك ظلت تنظر إليها بين فترة وأخرى، إلى أن وصلت إلى البيت.

شمعة لقبر حواء

حينما دخلتا إلى الشقة كانت حواء المظلوم جالسة وهي في حالة نفسية صعبة. ما إن سمعت الباب وهو يُفتح حتى قفزت إليهما، هي تتكلم بما يشبه الصراخ، لكن بنبرة في توسل وتختلط فيها الألمانية بالعربية:

- قولاً لي ماذا أفعل بهذه المصيبة؟ قولاً لي ماذا أفعل؟
لم تفهما ماذا تقصد، وما الذي حدث لها، لذا سألتها إيفا أومسك بالألمانية، بقلبي:

- ماذا حصل قولاً لنا؟ ماذا حصل؟

- ابني. ابني سيضيع مني.

- ماذا به ابنك؟ هل حصل له شيء؟ سألتها حواء المؤمن بالعربية.

- لا.

- إذن ما حصل؟

- اجلسا أولاً. وسأحكي لكما مصيبتني.

جلستا مباشرة، وبقلبي تنتظران منها أن تشرح الموقف. نظرت إليهما. أحسّتا أنها أفلقتهما بهذا الاستقبال، فقالت بالألمانية:

- اعذراني لأنني استقبلتكما هكذا، لكنني مضطرة. أنا أم. ابني وبعض من أصدقائه تشاجرا مع بعض الشباب الشيشان، وتحدّث كل مجموعة المجموعة الأخرى، واتفقت المجموعتان أن تلتقيا اليوم للمواجهة بينهما، وابني ذهب مع مجموعته إلى هناك.

صمت الجميع عند سماع هذا الخبر. تفهمتا قلقها. سألتها حواء المؤمن بصوت هادئ لا يتناسب مع شدة انفعال ولهفة حواء المظلوم:

- ألم تستطيعي أن تمنعيه من أن يخرج؟
- حاولت لكنه لم يمتنع، وقال لي إن لم أذهب فسأظل في أعين أصدقائي جبانًا، ولا أستطيع بعدها النظر في عيونهم. سأذهب مهما كانت النتائج.
- هل تعرفين العنوان، أقصد أين سيلتقون؟ سألت إيفا أومسك.
- لا. لم يقل لي أين سيلتقون.
- لو كنا نعرف لأخبرنا الشرطة بالهاتف وشرحنا القضية، فربما كانوا يتخذون بعض الإجراءات التي تمنع حدوث أي مكروه.
- ماذا سأفعل، قولا لي، ماذا سأفعل؟
- ظلنا صامتتين. كانت إيفا أومسك تنظر إلى حواء المظلوم بقلق واضح، بينما قالت حواء المؤمن بهدوء وبالعربية:
- ليس أمامك سوى الانتظار والصبر، والاتصال الدائم به. كل خمس دقائق اتصلي به لتعرفي الوضع. لا تقلقي. هؤلاء الشباب لا يجلبون لأمهاتهم سوى القلق. اذكرى الله، فذكر الله تطمئن القلوب.
- قامت حواء المظلوم مباشرة إلى الغرفة الثانية وأخذت تتصل به، وسمعتا صوتها يتعالى، ثم أقبلت عليهما، وهي عصبية، لكنها أهدأ قليلًا وليست خائفة كما كانت حين استقبلتهما، وقالت:
- يقول إنه مع أصدقائه يجلسون الآن في المقهى، والمجموعة الأخرى لم تأت حسب الموعد المقرر، وسيعود إلى البيت بعد ساعة من الآن.
- الحمد لله. قالت إيفا أومسك بالألمانية.
- الحمد لله الذي طمأن قلبك. قالت حواء المؤمن بالعربية.

لم تجد حواء المظلوم أمامها إلا أن تقوم وتقبلهما، لكنها بالرغم من أنها

اطمأنت من أن أي شجار بين المجموعتين لن يحدث، إلا أنها ظلت شاردة البال. حواء المؤمن قدّرت الحالة التي هي فيها، فقالت لها:

- يمكنك الذهاب يا حواء. أنا أعرف أنك لن ترتاحي إلى أن يعود إلى البيت. اذهبي الآن، وربما ستصلان البيت معًا. أنا أعرف أنك سوف تنتظرينه على نار حارقة. اذهبي وانتظريه في البيت. لا تقلقي.

كانت حواء المظلوم محرّجة على مغادرتها الشقة لكنها تعرف أن حواء المؤمن سوف تدفعها دفعًا للذهاب لملاقة ابنها. بقيت إيّفا أومسك معها، ولكي تقضي وقتًا أطول مع صديقتها البصيرة قامت لتعدّ لنفسيهما شيئًا من الطعام، فلم تجد سوى أن تعدّ سندويتشين لهما، كما أعدت الشاي.

ظلّت حواء المؤمن صامته طوال الوقت. أكلتا وشربتا الشاي بعد ذلك. كانت إيّفا أومسك قد بدأت تحس بالحرج من صمت حواء المؤمن المستمر، فأرادت أن تخفف عنهما ثقل هذا الصمت، فسألتهما عن زيارة الكنيسة وانطباعاتها عنها:

- ماذا تشعرين اليوم بعد زيارتك للكنيسة، وإشعالك شمعة ليسوع المسيح وأمه العذراء؟

- أحسست بالهدوء والطمأنينة.

- لكن أما أحسست بشيء من التردد وأنت امرأة مسلمة؟ ألا يخالف ذلك تعاليمكم الدينية؟

صمتت حواء المؤمن للحظات، ثم قالت:

- لا أعرف الكثير في علوم الدين، لكنني أعرف أننا جميعًا نصلي لله خالق هذا الكون، وأن الطرق إلى الله متعددة بعدد البشر. كل إنسان له طريقه للوصول إلى الله. اليوم أحسست بالطمأنينة والسلام النفسي، وكأنما كنت أرى مريم العذراء حينما أوقدت الشمعة، بالرغم من أنني عمياء لا أرى، بل والأكثر من ذلك لقد ابتسمت لي.

فوجئت إيّفا أومسك. برقت عيناها من الحنان والخشوع، وقالت:

- صحيح؟
- نعم. هكذا تصورت، فكما تعرفين أنا عمياء.
- أنا أيضًا شاهدتها ذات مرة، وكنت في حالة يائسة، كانت تذرف الدمع شفقة ورأفة بي.
- صمتنا ثانية. وعلى غير توقع سألت حواء المؤمن سؤالاً غريباً، إذ قالت:
- هل حواء المظلوم جميلة؟
- فوجئت إيفا أومسك من السؤال. أحست بالارتباك، وقالت:
- ماذا؟ لا أعرف ماذا أقول. نعم إنها لطيفة. يمكن القول إنها جميلة. الأمر نسبي، لكن لماذا؟
- لا شيء. الجمال لغز!
- أنت تتحدثين مثل دستوفسكي.
- مثل من؟
- دستوفسكي. كاتب روسي، عاش في مدينتي التي أحمل اسمها، «أومسك» عندما كان منفيًا. فهو أيضًا كتب ذات مرة بأن الجمال لغز، وأن الجمال يمكن أن ينقذ العالم.
- صمتت حواء المؤمن للحظات، ثم قالت:
- نعم. سمعتك تذكرين اسمه عندما تحدثت مع الراهبات. لكنني أعتقد أن الجمال يمكنه أن يدمر العالم ويجره إلى المآسي أيضًا. أنت مثلاً، لولا جمالك لما اغتصبك زوج أمك، بل ولما استمر معك، ولما أخذك صديقك الذي تعرفت عليه في الطائرة إلى شقيقته، ولما اشتراك الآخر.
- لكن هذا هو الجمال الخارجي، المهم الجمال الروحي. تمتعت إيفا أومسك بحزن.
- ومن يرى الجمال الروحي؟ الناس تنظر لجسدك، لمظهرك الجميل وجسدك المشير، أما الجمال الروحي فلا ينفع مع القباحة، بل ومن يلهث وراء

الجمال الخارجي ليس لديه الوقت للتفكير والبحث عن الجمال الروحي كما تقولين. الجمال الروحي يأتي من خلال العشرة، والعيش المشترك، فربما يمكن أن يكتشف الإنسان جمال الشخص الآخر الذي يعيش معه بمرور الوقت، عندها حتى إذا زال الجمال الخارجي فالجمال الروحي هو الضمان. كانت إيفا أومسك تستمع إليها بدهشة. لم تكن تتوقع أن تفكر جارتها العمياء بهذه الطريقة:

- اسمعي، أنا لم أعرف أنك فيلسوفة أيضًا. ما تحدثين عنه أحيانًا صادفته في كتب الفن والفلسفة التي قرأتها!
- لست فيلسوفة ولا تلك القارئة النهمة. أنا تلميذة الحياة والآلام والتجارب القاسية. ومنها تعلمت ذلك.

كانتا تتبادلان الحوار حينما اتصلت حواء المظلوم بإيفا أومسك، التي تبادلت معها أرقام الهاتف، فأخبرتها بأن كل شيء تمام، فقد عاد ابنها إلى البيت وهي تعدّ له الطعام. كانت حواء المؤمن تسمع كلام إيفا أومسك التي كانت تردد ما تقوله حواء المظلوم كي تسمعه. وبعد انتهاء المكالمات أرادت أن تخبر حواء المؤمن بمضمونها فابتسمت وقالت:

- لقد سمعت كل شيء، وفهمت أن ابنها عاد إلى البيت، وهي تعدّ له الطعام.

- ظلت إيفا أومسك عند حواء المؤمن إلى وقت متأخر من المساء، وحينما أرادت أن تترك حواء المؤمن كي ترتاح قالت لها الأخرى قبل أن تخرج:
- تعالي كي أقبلك فربما لا أراك بعد اليوم.
 - فوجئت إيفا أومسك بكلامها وقالت بقلق:
 - ما هذا الذي تقولينه؟ لا. أنا أزعل من هذا الكلام.
- ثم حاولت أن تكسر هذا الجو المتوتر والمفاجئ، فقالت بمرح:

- كيف تتركيني وحدي؟ أنت تعرفين أنني لا أثق بأحد غيرك!

ابتسمت حواء المؤمن وقالت بنبرة ملغزة:

- لن أتركك. فحتى لو رحلت عن هذا العالم فلن أتخلى عنك، والآن قبّليني.

لم تعلق إيفا أومسك شيئاً فقد ماتت الكلمات على شفثتها. انحنت عليها وشدتها لصدرها وقبلتها من خديها وجبينها. ترقرت الدموع في عينيها. نظرت إلى حواء المؤمن نظرة متأملة وخرجت.

لا تدري حواء المؤمن ما الذي أصابها، فهي منذ لحظة خروجها من الكنيسة يراودها شعور بأنها سترحل عن هذا العالم قريباً جداً. ثمة ارتجافات وانقباضات في القلب والصدر والظهر، في الجهة المقابلة للقلب، وثمة تدفق هائل من الذكريات التي لم تفكر أن تستعيدها سابقاً تستيقظ اليوم في ذاكرتها. ظلت بعد خروج إيفا أومسك جالسة لساعات عدة. كانت تشعر بأن شيئاً خارقاً ما سيحدث الليلة.

قامت من مكانها في الصالة وتوجهت ببطء شديد إلى غرفة نومها. هناك جلست على سريرها. ظلت جالسة على السرير لفترة طويلة. جالسة كالتمثال. مدت يدها بصورة لا إرادية إلى تحت الوسادة فسحبت رزمة الأوراق التي كانت تحتها. وضعتها في حجرها. إنها تعرف بأن في هذه الأوراق ما خطته أنامل زوجها الثاني آدم اللبناني، وأنها منذ البارحة تحس بتمزق كبير بعد أن قرأت لها حواء المظلوم القسم الأول مما كتب.

اغرورقت عيناها بالدموع. انقبض قلبها، وتعرق جبينها. راودها شعور بأنها تنهار جسدياً، لكنها ظلت على جلستها دون أن تتحرك. وفجأة؛ أحست من خلال الدموع ببصيص ضوء يبرق. أحست بأنه ليس الضوء الذي يضيء في ذاكرتها وإنما هو ضوء حقيقي. وشيئاً فشيئاً بدأ المشهد يتكشف لها.

حين مدت يدها لتمسح الدمع المتجمع في عينيها رأت ظل يدها تمتد وتمسح جفنيها. بدأت الأشياء مشوشة خلال الثواني الأولى فقط، لكن كل شيء اتضح بشكل صاف بعد لحظات. إذن حصلت المعجزة، وعاد إليها البصر.

ظَلَّتْ حواء المؤمن جامدة في مكانها. تصوّرت أول الأمر أنها ربما كانت تحلم بأن معجزة ستحصل وأنها ستبصر، لكنها الآن تأكدت من أن المعجزة قد حدثت. فحين أَلْقَتْ نظرة على الأوراق التي تمسك بها، قرأت الصفحة الأولى التي كتب العنوان عليها بخط عريض: نشيد المتاهة. إذن عاد إليها البصر. حصلت معجزة السيدة العذراء.

لم تكن تعرف ماذا ستفعل. هل تذهب لجارتها أولاً. لا. لا. ليس الآن. فما يجري شيء غير طبيعي. لقد حدثت المعجزة. معجزة لها علاقة بكل هذا الشعور الذي راودها منذ الخروج من الكنيسة. عليها أن تترث. عليها أن تهتدأ أولاً.

فجأة. انتبهت إلى الأوراق التي بين يديها. إنها تستطيع قراءتها الآن بوضوح. قرأت الإهداء. القسم الأول الذي سمعته بصوت حواء المظلوم. تلفتت فرأت معالم غرفتها. فكّرت مع نفسها، ربما هي إشراقة الموت التي تدفع بالأجساد البشرية إلى التألق والتوهج قبل الانطفاء النهائي!

وضعت رزمة الأوراق جانباً، قامت بهدوء متوجهة إلى الصلاة، وقفت عند الباب. نظرت إلى الأشياء كلها وكأنها تحييها بنظرتها أو تودعها لآخر مرة. توجهت إلى المطبخ فرأت كل شيء. التفتت إلى جهة الصلاة فوق بصرها على النافذة. مشت إليها بهدوء وألقت نظرة على المقبرة المقابلة. فجأة، فزت وتراجعت خطوة عن النافذة إلى الورا! كانت الراهبتان تقفان في الجهة المقابلة للنافذة وتنظران إليها. كانت كل منهما تحمل شمعة كبيرة بيدها، واليد الأخرى يرفعانها ويحركانها بالتحية لها!

نظرت مرة أخرى فرأتها ما تزالان في موقفهما مقابل النافذة على الرصيف من جانب المقبرة. عادت إلى غرفتها. أخذت رزمة الأوراق التي تحمل عنوان “نشيد المتاهة”. وضعت أوراق القسم الأول على جهة إذ كانت قد سمعته عندما قرأته لها حواء المظلوم. نظرت إلى الأوراق المتبقية وكانت قليلة جداً. فبدأت تقرأ:

نشيد المتاهة

!حمين تط! حمه"ظف

أنا آدم الأحق.

جميعتي تطن بالذكريات المجنونة.

ذبلت زهرة الأمل في المزهريّة وتعفنت، بل وانبعثت منها عفونة اليأس.

أنا أكثر فتوة من الألم، لكنني في أعماقي عبوز هرم.

رغبتي أشدّ بريقاً من عين نسر محنط في متحف للكواسر والخراتيت
والماموثات الوحشية.

ذكرياتي الحزينة تقودني من أنفي مثل دب حزين ألسوه ثياب مهرج.

أنا الذي أواجه المجهول مثل نحت شامخ وبارز في مقدمة سفينة مهجورة.

إننا أموات. ونحاول أن نتظاهر بأننا أحياء.

أنا آدم، ملاك رجيم يطل على حافة الجحيم.

أنا المنسي من الرب مثل ظلال منسية في خرائب ضائعة.

أصمتُ عن خيانات حواء وكأنا شركاء في جريمة.

أليس من الحماقة أن أكتب عن كل هذا الألم والتعاسة؟

كلانا، أنا وهي، ناجيان من زلزال مدينة دفنت تحت الرماد.

خطواتنا العمياء تقودنا إلى نفق مظلم لا نرى آخره.

نسمع خشخشة الفئران وأصوات مياه مظلمة،

وسقوف يقطر منها الماء أو الدم،

لا نعرف شيئاً.

خطواتنا كما يبدو تقودنا إلى الهاوية المربعة.

أمسك الهواء الخانق من عنقه وأخنقه بقبضتي الحقودة.

غير أن الريح تأتي لتلقي بنفسها عليّ وتلوي ذراعي

وتكبلني مثل مجرم.

قبل أن تتلو عليّ حقوقي في الصمت.

ظلي يتجول سكران في الطرقات.

بينما أنا الأعمى

أرى أيامي تسير في النوم بعينين مغمضتين.

في غرفتي الوحيدة التي تتوسط الصحراء

أرى برابرة في سريري.

ألم نكن كلنا بانتظار البرابرة؟

دائماً، دائماً أفتش عن مفاتيحي الضائعة.

مفاتيحي التي سقطت مني في بئر النسيان.

لأعود بعدها إلى البيت لأجد الخيانة في انتظاري.

أسمع أنفاسها التي تشبه فحيح الأفعى.

“ترنمي أيتها العاقِر التي لم تلد.

أشبيدي بالترنم أيتها التي لم تمخض لأن بني المستوحشة أكثر من بني ذات البعل”

هكذا قال الرب لأشعيا في الإصحاح الرابع والخمسين.
لا تخافي ولا تحجلي لأنك لا تستحينَ
فإنك تنسينَ خزي صباكِ
وعار ترثلكِ لا تذكرينه بعدُ
لأن بعلك هو أنا آدم المجنون.

ثمّة رائحة للكارى ورائحة للقرنفل والفانيليا.
في حالة وجدي وشطحي للعدم، أحرق ما حملته
من بخور وأعشاب من جزر الخيبة.
وأقول للوجود: طز فيك يا وجود.
ما الذي قوّس ظهرك يا روحي؟
لماذا أنت حدياء يا روحي؟
وفوق كل هذه العاهات يسألونني عنك.
فأقول إنك ابنة العدم العظيم.
فلنسبح للعدم العظيم.

أي معجزة يمكنها أن تمنحني الأمل؟
كيف لي أن أعزف وأصابعي مقطوعة؟
أي أوهام تعصف بذاكرة التمثال؟
لستُ شمعة، لا ولا قلب الظلام أنا.
كيف لي أن أجعل الذئب

يكفّ عن الركض في الوهاد؟
هل أفتح القبور كي يخرج الموتى إلى مقاهي المدينة
ويتجولون بقاطرات المترو متصفحين جرائد المساء؟
أريد أن أصرخ، لكن الصرخة تموت عند حدود شفاهي الجريحة.
من يهتم لصرختي، من يهتم بي أصلاً؟
لا أحد.

إذن. طز فيكم.
طز في الرجل الذي يموت وحيداً،
بعد أن هجرته زوجته العجوز مع أبنائها.
طز في المرأة العجوز وأبنائها أيضاً.
طز في الأنهار التي تجري ولا يعرف أي أحد عنها شيئاً.
طز للأس الذي ترك لونه الأصفر وصار أزرق!
طز في الأيديولوجيات الثورية وغير الثورية.
طز في بيكاسو وإيلوار.

طز بالمتنبي،
ذلك المترلف الأحق الذي
لا يصلح لإدارة قرية عميان في صحراء.
طز بالتاريخ الأور.
طز لي أيضاً.

نشيد المتاهة
القسم الثالث
الصمت

قرأت كتب التنزيل كلها.
قرأت كتاب الموتى الفرعوني،
قرأت ريغ فيدا والأوبانيشادات،
وقرأت لاوتزو،
والأفيسا، والتوراة قرأتُ والأنجيل والقرآن،
وقرأت ما قرأت.
قرأت الباب بهاء الدين، وقرأت لماركس وأنجلز ولينين.
وقرأت. وقرأت. وقرأت.
لكني لم أجدها تنفع مع الإنسان.
الإنسان ليس أفعى، الإنسان عقدة من الأفاعي ملتفة على بعضها وتبلع
إحداها الأخرى في حركة مرعبة.
كل هذه الكتب والفلسفة والأفكار لم تستطع أن تبعد الشك عني.
اللهم باسمك خلّصني من شكي وبقوتك احكم لي.
اسمع يا الله صلاتي
وأصغ إلى تجديدني.
يتحدثون عن الفردوس وكأنه متنزه أو حديقة في وسط المدينة.
وكذا يتحدثون عن الجحيم وكأنهم من زبانيته وتقاعدوا عن العمل فيها.
يتحدثون عن عذاب القبر وعن الأفاعي والوحوش المرعبة التي تدخل فيه،
وكانهم ليسوا أتقياء وإنما هم أبالسة الجحيم.
وكان القبر سيرك وليس حفرة يطمر فيها الجسد ويهال عليه التراب!
وماذا عن هنودك وهم يحرقون الجثث، ويذرون رمادًا في النهر المقدس؟

اسمعني يا الله.
أنا أشك حتى في نفسي،
أشك حتى في شكي.
الموت. الموت. الموت هو هدف الحياة ونهاية دورتها العبثية،
فلماذا جئنا إذا كان الرحيل هو الهدف؟
أي لعبة تلعبها معنا أيها الخالق؟
لماذا جئنا ولماذا نرحل؟
ندور وندور مثل جرذ في قفص دوار
الجرذ يركض والقفص يدور،
لكن ما جدوى السؤال عن معنى الأشياء!
إذا كنا لا نحظى بالجواب منك نفسك أيها الخالق،
وإنما من بعض البشر الذين نصبوا أنفسهم لينطقوا باسمك.
ربما النساء هن الأقرب إلى الخالق من الرجال،
لكن لماذا لم نعرف نبيات وإنما أنبياء فقط؟
النساء. النساء هن الأقرب إلى اللا متناهي،
الأقرب إلى روح العدم.
ربما سيأتي من سيقراً هذه الأوراق،
وسيدرك كم أنا ساذج وأحمق،
فالكلام فضيحة، الكلام هروب من العزلة.
الصمت، الصمت وحده مليء بالأسرار والمفاجآت.
الصمت بطولة.

في الصمت وحده أعيش حرיתי

لذا لن أكتب شيئاً.

الصمت هو اللا نهائي.

انتهت الصفحات المكتوبة بالرغم من وجود عدد من الأوراق البيض الأخرى ضمن الرزمة التي مسكتها حواء المؤمن للقراءة. أحسّت بالخوف من هذه الوريقات التي بين يديها. لم تفهم شيئاً واضحاً مما قرأت، أكان آدم اللبناني مؤمناً بالخالق أم لم يكن؟

أحست بنغصات في قلبها. راودها إحساس، في لحظة، بأنها مذنبه تجاهه، وأنها لم تفهمه. تصورته رجلاً مستهتراً. يحب النساء والجنس. انتهازياً. تزوجها من أجل الحصول على الإقامة. ربما هذا كل ما عرفته عنه من خلال سلوكه معها أو مع الآخرين، لكنها لم تفهم وحشته، ولم تفهم أنه كان يعيش معها ومع الآخرين حياة، ومع نفسه يعيش كل هذا اليأس والشك والمرارة واللا ثقة واللا يقين!

ازدادت التشنجات في صدرها وظهرها وكفيها. نهضت بهدوء وبيدها الأوراق المكتوبة التي تحمل عنوان "نشيد المتاهة". خرجت إلى الصالة وهي تخطو ببطء وبصعوبة واضحة. توجهت إلى المطبخ. وقفت أمام حوض الغسيل. أخذت الولاة وبدأت بحرق الأوراق ورقة بعد أخرى. فتحت حنفية الماء على الورق المحروق، ثم حملته بيدها ووضعت في جردل النفايات. غسلت يديها، ثم أخرجت من أحد الدواليب شمعتين. أشعلتهما. أطفأت النور. خرجت إلى الصالة فأطفأت النور أيضاً. اقتربت من النافذة وبيدها شمعتها. ألقت نظرة إلى الشارع، فرأت الراهبتين ما زالتا تقفان على رصيف

المقبرة المقابل، وبدون شعور رفعت هي الشمعتين إلى الأعلى إشارة منها لتحيتهما، فرفعت كل راهبة منهما الشمعة التي بيدها ردًا لتحيتهما.

أحست حواء المؤمن بأنها سترحل عن هذا العالم. صارت على يقين من ذلك. أخذت تستعد بهدوء لهذا الرحيل. دخلت غرفتها. وضعت شمعة على كل جانب من السرير. تمددت على السرير، تمتمت مع نفسها بصوت مسموع:

بسم الله الرحمن الرحيم.

قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفواً أحد.

بسم الله الرحمن الرحيم

إذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا. وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا. وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا. يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا. بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا. يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيرُوا أَعْمَالَهُمْ. فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ.

بسم الله الرحمن الرحيم

والعصر. إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ. إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ.

بسم الله الرحمن الرحيم

وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ.

أغمضت حواء المؤمن عينيها. أحست ببرودة تسري في جسدها بدأت تصعد من قدميها. صارت متأكدة من أنها لن تستطيع الحركة والمشي. وكلما تصعد البرودة تحس أن الجزء الذي تتخطاه يصير وكأنه ليس منها، فلا تشعر به.

في تلك اللحظات القليلة مرّت حياتها كشريط سينمائي سريع أمام عيني ذاكرتها. رأت طفولتها. أمها المسكينة. رأت نفسها وهي تلعب مع بقية

الفتيات ألعاب ذاك الزمان. رأت أول يوم لها وهي تطمئ. رأت أول صلاة لها. رأت أول إفطار رمضاني لأول يوم صوم لها. رأت كيف الزمان يتجسد في مشاهد، كل مرحلة من عمرها تجسدت في لقطة صغيرة، لقطة متحركة، ملونة، لكنها صامتة. رأت مشهد أول قبلة لها، وأول فعل جنسي. رأت يوم ضربها أخوها لأن ابن عمها رآها مع حبيبها. رأت وجه أم حبيبها تغادر البيت وتتركهما وحدهما. رأت ليلة زفافها على ابن عمها. رأت يوم طلاقها. رأت مشهد لقاءها مع حبيبها بعد الطلاق. رأت يوم زواجها الثاني من الدكتور آدم التائه. رأت تلك الظهيرة التي دخل والد زوجها عليها في غرفتها. رأت وجهه الآن وهو يقبلها. رأت زوجها وهو يناقشها حول روايته "متاهة آدم المرأة المجهولة". رأت الجنى الأزرق في غرفة النوم. رأت نفسها في المشهد الذي دخل زوجها فرآها مع آدم اللبناني. رأت نفسها تلقتي بالراهبتين في المستشفى. رأت نفسها وهي تبكي في غرفة العناية المركزة. رأت الراهبتين وهما تدخلان عليها في شقتها هذه في برلين. رأت لحظة انقلاب السيارة من الجسر إلى الأرض. رأت نفسها في المستشفى. فجأة رأت نفسها اليوم في الكنيسة. رأت كل شيء، رأت الأيقونات، رأت الذين حضروا القداس. رأت وجه حواء المظلوم القلقة على ابنها. رأت وجه إيفا أومسك، بالرغم من أنها لم ترهما أبداً. أحست بالدمع ينساب من جانبي عينيها.

فجأة سمعت حركة ما في الصلاة. بصعوبة حركت رأسها تجاه باب الغرفة قليلاً. أدهشها دخول الراهبتين عليها. ابتسمت، أو حاولت الابتسام؛ لأنها شعرت أن شفتيها لا تطاوعانها بالحركة.

وقفت الراهبة الشابة عند جهة القدمين بينما وقفت الراهبة المسنة عند أحد الجانبين. نظرت إليهما نظرات شاكرا مليئة بالحب والعرفان والصدقة. عرفتا أن بصرها عاد إليها. ولم يستغربا الأمر إذ أنهما اعتبراه أمراً طبيعياً.

تحركت الراهبة الشابة وجلست على جانب السرير، وجلست الراهبة
المسنّة من الجانب الآخر. كل منهما أمسكت بكف لها بين كفيهما. وهما
تبتسمان لها ابتسامة تعزية، وتمتعت لها الراهبة المسنّة بصوت حنون:

لا تخافي يا ابنتي. نحن هنا معك. وستكونين قريباً معنا. لا تخافي؛ إنه
عالم النور والصفاء والصمت الأبيض. لا تخافي.

شعرت حواء المؤمن بالبرودة تصعد شيئاً فشيئاً إلى صدرها، ثم بدأت
تصعد إلى عنقها ورأسها. فجأة، أزيح شيئاً ما أمام عينيها، وكأنما ستارة
كانت تحجب عنها الرؤية. ها هي ترى ضباباً أبيض. صمّتاً أبيض. صمّتاً لا
نهائي. بياضاً لا نهائي. ولم تعد ترى شيئاً. لم تعد هي موجودة!

قبر حواء

في صباح اليوم. دخلت حواء المظلوم بمزاج رائق ومعنويات عالية، وهي تحمل طبقاً من الدولة العراقية الشهية، وكيساً بلاستيكيّاً فيه بعض المخلل العراقي. استغربت حين لم تجد حواء المؤمن في الصلاة، إذ أنها تأخرت هذا اليوم، فالساعة قد تجاوزت التاسعة بقليل. وضعت ما جاءت به في المطبخ واتجهت إلى غرفة حواء المؤمن.

ما إن دخلت إلى الغرفة حتى جمدت في مكانها. انتبهت إلى طريقة نوم حواء المؤمن. فقد استلقت على الأفرشة والشرشف. كان الحجاب حول رأسها. وقد شبكت يديها، كفّاً على كف على بطنها قريباً من الصدر. وكان وجهها جامداً، لكنه، برغم شحوبه، تحيطه هالة من القداسة، وكأنها قد أغمضت عينها لتفكر بشيء عظيم. استغربت وجود شمعتين على كل جهة من السرير. كانتا ما تزالان تتقدان!

أدركت حواء المظلوم بأن أمراً جليلاً قد حدث. اقتربت بتوجس من السرير. نادى بصوت مبحوح بالكاد يُسمع:

- أختي حواء. أختي حواء!

لم ترَ أي رد فعل يصدر عنها. نظرت إلى صدرها فوجدته جامداً لا يشي بأي حركة للتنفس. بتوجس أكبر مدّت يدها إليها لتمسها من جانب ذراعها وهي تهزها وتناديها بصوت أقرب للصراخ:

- أختي حواء. أختي حواء!

مدت كفها لتلمس كفها. لتوقظها. ارتعبت حينما مست يدًا باردة كالثلج. ومن رعبها أخذت تهزها من جانب جسدها بقوة، فلم يصدر منها صوت، بل كان الجسد باردًا. نظرت إلى وجه حواء المؤمن فرأته وكأنه يبتسم لها ويخاطبها بصمت قائلاً لها ألا تخاف.

هرولت حواء المظلوم إلى الصلاة ومنها مباشرة إلى الباب الخارجي، فتحت الباب وأخذت تطرق باب شقة إيفا أومسك المقابلة. فتحت إيفا أومسك الباب قلقة من الطرق المتواصل المجنون. كانت خائفة، وبدا من مكياجها بأنها كانت مستعدة للخروج إلى مكان ما، فلم تسمع سوى صراخ حواء المظلوم المتقطع والخائف:

- حواء. حواء. أعتقد أنها ماتت.

وبدون أي تفكير قفزت إيفا أومسك معها ودخلتا إلى الشقة. كانت إيفا أومسك أكثر ثباتًا من حواء المظلوم، إذ أخذت كف حواء المؤمن لتجس نبضها. لم يكن هناك أي أثر للحياة. اتصلت مباشرة بالمستشفى التي أرسلت سيارة إسعاف فورية. لا تدرين كيف أخذتا باللبكاء على حواء المؤمن. أحسّتا أنهما فقدتا إنسانًا غاليًا وعزيزًا. جلستا في الصلاة وهما تنتحبان. وبين لحظة وأخرى تقوم واحدة منهما لتذهب باكية إلى غرفة نوم حواء وترجع وهي أكثر انتحابًا.

بعد ربع ساعة كان رجال الإسعاف في الشقة. حاولتا أن تكونا أكثر تماسكًا فقد أحسّتا بأن واجبهما الآن تجاه صديقتيهما أن تكونا متماسكتين. قام الطبيب بفحصهما مع مساعديه، أكد للجميع بأن حواء المؤمن قد فارقت الحياة فجر ذلك اليوم، ونقلت إلى المستشفى.

اتصلت حواء المظلوم بدائرة الأجنبي لإعلامهم بالأمر. أرسلوا ممثلًا عنهم إلى المستشفى ليتفاهم مع إدارة المستشفى، ويستعلم منهم عن سبب

الوفاة. جاءت الباحثة الاجتماعية إلى الشقة فرأت حواء المظلوم وإيفا أومسك. استعلمت الباحثة الاجتماعية من حواء المظلوم عن إيفا أومسك وعلاقتها بحواء المؤمن، فأخبرتها بأنها جارتها وصديقتها المقربة، ثم سألتها إن كان لدى حواء المؤمن أي أقارب في برلين أو ألمانيا أو حتى العراق. فأجابت بأنها امرأة وحيدة، ليس لديها أي قريب في ألمانيا، وليس لديها أي صلة بأي شخص في بلادها.

وبالرغم من حزن المصاب إلا أن الأمور الإدارية كانت أكثر تعقيداً عند الوفاة، والبيروقراطية أكثر جموداً في تلك الحالات. تابحت حواء المظلوم مع الباحثة الاجتماعية عن مسألة الدفن، وشرحت لها بأنه إكراماً للمرحومة حواء المؤمن، باعتبارها امرأة مسلمة، يفضل أن تدفن في مقابر المسلمين، إذ هناك مقبرة للمسلمين قريبة من السكن، في “كولومبيا دام” على امتداد “دودن شتراسه”. ثم اتصلت بجمعية إسلامية تقوم بأعمال الدفن في منطقة “نوي كولن”، وسألت عن تفاصيل الدفن فأكدوا لها بأن الأمر يختلف قليلاً مع المرأة، وعلى كل حال عليهم دفع مبلغ حدده صاحب الجمعية.

نقلت هي ما عرفته عن الدفن إلى الباحثة الاجتماعية، التي أكدت بأن دائرة العمل لا تدفع هذا المبلغ لأنه كبير جداً، وبينما هما في هذا الحديث دخلت الراهبتان إلى الصالة. رحبت بهما إيفا أومسك لأنها تعرفهما وقدمتهما إلى البقية باعتبارهما من أصدقاء المرحومة.

كانت الراهبتان هادئتين، أبدأت على الفور عن استعدادهما الكامل لإيجاد قبر لها في المقبرة المحصورة بين “كارل ماركس شتراسه” و “هيرمان شتراسه” حيث تعيش، أي في المقبرة المقابلة التي كانت حواء المؤمن تطل عليها من النافذة. كما أبدأت استعدادهما إلى تحمل كافة النفقات، لكن حواء المظلوم أصرت على دفنها في مقبرة المسلمين التي أيضاً ليست بعيدة عن ذلك المكان، والتي تقع في “كولومبيا دام”. نظرت الراهبتان لبعضهما، ووافقتا أيضاً على ذلك احتراماً لصديقتهما وأيضاً أكدتا استعدادهما لتحمل كافة النفقات.

وبينما كان الجميع يتناقشون عن طريقة ومكان دفنها، كانت جثة حواء المؤمن ملقاة، وحيدة، عارية، لكنها مغطاة بشرشف أبيض، على مصطبة حجرية، في قاعة باردة، تفوح منها روائح المواد المعقمة، بالمستشفى الذي نُقلت إليه.

في تلك اللحظة بالذات فتحت جثة حواء المؤمن عينيها، فرأت نفسها تنظر إلى نفسها من فوق سقف القاعة. كانت حواء المؤمن تعرف أن تلك، التي ترقد وحيدة في هذه القاعة، إنما هي نفسها. لكن من هي إذن هذه التي تنظر من عل؟ أهي الروح التي تبقى حية بعد أن تتحرر من قفص الجسد؟ أهذا هو الموت!

رأت كم كانت هي وحيدة ومعزولة في هذا العالم القاسي. ها هي الآن قد أنهت رحلتها الغريبة في الحياة، وحيدة، لا أهل ولا وطن. فهل عليها أن تأسف على مغادرة هذا العالم؟ لا. لكنها أشفقت على نفسها، على جثة حواء المؤمن الغريبة، الوحيدة، المعزولة، التي لم تعرف سوى العذاب في حياتها، فانحدرت دمعتان، لكن من عيني الجثة النائمة.

كانت حواء المؤمن تسمع وترى، وهي في قاعة التشريح الباردة، هناك في المستشفى الذي يبعد عن شقتها كثيرًا، النقاشات التي كانت تدور بين الباحثة الاجتماعية وحواء المظلوم وإيفا أومسك حول مسألة دفن جثمانها. فرحت حينما رأت الراهبتين، وانحدرت دمعتان من عيني الجثة الملقاة في المستشفى. أحسّت أنها تفهمهما جدًّا الآن، وأنها سعيدة لصادقتها معهما. ومن الآن فصاعدًا ستلتقيهما بحرية أكبر!

ارتسمت ابتسامة حزينة على وجه حواء المؤمن الروح، حينما سمعت الحوار عنها باعتبارها الآن صارت جثة عليهم دفنها والتخلص منها. بل إنهم الآن يستعجلون الخلاص من مسألة دفنها، فقد أرادت كل من حواء المظلوم وإيفا أومسك أن تعبّرا عن حبهما وإخلاصهما لها من خلال إكرام جثمانها والقيام بدفنها بطريقة لائقة. أهذا هو الإنسان؟

وبينما روح حواء المؤمن كانت تنظر لجثتها الراقدة، من مكانها العالي القريب من سقف القاعة، لاحظت دخول الراهبتين إلى القاعة وتوجههما إلى حيث ترقد على المصطبة الحجرية. رفعت إحدهما جانب الشرف الأبيض الذي يغطي وجهها، وسحبته إلى صدرها. ظلتا واقفتين بهدوء وهما تطبقان كفيهما على بعضهما وتضعانهما في وضع يشبه وضع الهنود واليابانيين حين يحيون الآخرين. بينما شفتاهما تتمتان بالصلاة. استمر الحال لدقائق قليلة، ثم رفعتا رأسيهما إلى السقف، نحوها وكأنهما كانتا تعرفان أنها تنظر من الأعلى، من سقف القاعة إليهما. ابتسما فابتسمت لهما. ثم غادرتا القاعة.

بعد يومين من موت حواء المؤمن تمت مراسيم الدفن في مقبرة المسلمين في "كولومبيا دام" ببرلين. جاء شيخ عربي فقرأ القرآن عند قبرها، كما جاء بعض العرب والأتراك الذين كانوا يزورون موتاهم في ذلك اليوم حيث يُدفن جثمانها، وقامت حواء المظلوم مع إيفا أومسك والباحثة الاجتماعية بالقيام بكل الإجراءات الرسمية المتعلقة بالدفن وتبعاته الإدارية.

وفي يوم الدفن أخذت إيفا أومسك إجازة من عملها متذرة بموت أختها، وبقيت في شقتها ببرلين وحيدة تفكر بلغز حواء المؤمن التي رأت فيها قديسة، ورائية، هجست أنها ستموت فودعتها في آخر لحظة، وهذا أمر لا يحدث إلا للناس المباركين من الرب.

لم يمض على دفن حواء المؤمن سوى أيام قليلة حتى انتشرت شائعة بين الأوساط التركية، والعربية، والأجنبية المسلمة بشكل عام، بأن هناك امرأة مباركة قد دفنت في تلك المقبرة. وروى حارس المقبرة بأنه يرى كل ليلة

امرأتين تأتيان إلى قبرها فتوقدان شمعتين من تلك الشموع التي أشبه ما تكون وكأنها في قارورة زجاجية حتى لا يمكن للريح أن تطفئ ليهيما. امرأتان لا يعرف حارس المقبرة كيف تدخلان، لأنه يقفل باب سياج المقبرة ليلاً، وقد انتبه لذلك، أول مرة، من ضوء الشمعتين في هذه المقبرة المظلمة ليلاً. وحينما قرر ذات ليلة تتبع المرأتين، أضاع أثرهما بين الأشجار هناك. وحينما تحدث مع الشيخ التركي وبعض المقربين منه، قرروا جميعاً أن يسهرُوا وأن يتبعوا المرأتين، وقد قاموا بذلك فعلاً، لكنهم فقدوا أثرهما عندما رأوا أنهما تدخلان إلى مقبرة أخرى قريبة من مقبرتهما، مقبرة تقع ما بين "هيرمان شتراسه"، حيث كانت تعيش حواء المؤمن، و"كارل ماركس شتراسه".

لم يمض سوى شهر واحد حتى قامت النساء التركيات بدفع وتحريض أزواجهن وأخوتهن وآبائهن ببناء قبة إسلامية الطراز، متواضعة الحجم، على قبر حواء المؤمن، وتحويله إلى ضريح مزار مبارك.

بعد مرور ثلاثة أشهر تحول قبر حواء المؤمن إلى مزار للنساء المسلمات وغير المسلمات، للنساء اليائسات، والغربيات، والمفجوعات برجالهن أو أبنائهن أو أهاليهن أو حتى بحبهن، اللاتي يأتين للتبرك بها، ويذرفن الدموع على هذه الغريبة التي ماتت بالغربة، لكن روحها تكرم كل ليلة. تحول قبر حواء المؤمن إلى واحد من المعالم الغريبة في برلين.

آدم البغدادي: لا أدري كيف كتبتُ ما كتبت! كنت أكتب مأخوذاً بفكرة الخلاص، وفكرة الروح، وسرها ومسألة الروح والجسد. لكن كيف أفسر هذا التحول عند حواء المؤمن؟ ولماذا لم أبرز على آدم اللبناني هذه القدحات والشطحات الفكرية أثناء حياته اليومية مع حواء المؤمن؟ ولماذا لم أتركه يكتب اسمه على نشيد المتاهة؟ ألم يتوقع أنه سيموت بهذه السرعة

وبهذه الطريقة العبيثة؟ ولماذا أحرقت حواء المؤمن مخطوطة نشيد المتاهة؟ هل وجدت فيها شيئاً سيئاً؟ هل أنا يا ترى مؤمن بكل ما قاله آدم اللبباني في نشيد المتاهة؟ أم أنا أؤمن بما تؤمن به حواء المؤمن؟

ما الذي أردتُ أن أقوله في "متاهة حواء وادي الظلمات"؟ ولماذا تركت زوجها الدكتور آدم التائه لمصيره؟ لماذا أقصيته عن مسار الأحداث اللاحقة؟ أترى سأعود إليه لاحقاً في رواية أخرى؟ ماذا سيحصل لحواء المظلوم وابنها؟ ماذا سيكون مصير إيفا أومسك؟ هل ستستمر الراهبتان بالمجيء إلى إيفا أومسك؟ ولماذا لم أدع أحداً يعرف بمعجزة عودة البصر إلى عينيها قبل موتها؟ لا أدري. ربما علي كتابة فصول أخرى، أو رواية أخرى أتابع فيها بقية المصائر والأرواح المعذبة! على الأرجح سأكتب رواية أخرى عن مصير زوجها الأول آدم التائه وما جرى معه من أحداث منذ لحظة انفصاله عن زوجته حواء المؤمن.

حين انتهى آدم المحروم من قراءة بقية المخطوطة، وقرأ تعليق آدم البغدادي، راودته الأسئلة ذاتها التي طرحها آدم البغدادي على نفسه. لكنه أيضاً فكر في المسئول عن كل هذه المآسي؟ سواء التي تحصل للعراقيين أو لشعوب الأرض قاطبة؟ هل عليه أن يعطي المخطوطة لحواء الزاهد كي تقرأها أيضاً؟

الشيء المهم الذي فكر فيه آدم المحروم هو أنه لا يستطيع أن يفصل الواقع عن اللا واقع! من حيث إن الراهبتين تتجليان في كل مكان واقعي في الحياة؟ بل اقترحتا دفع نفقات الدفن! من تراهما هاتان الراهبتان؟ ولماذا اختار آدم البغدادي راهبتين، وليس راهبين، أو راهب وراهبة؟

فكر مع نفسه ربما هناك مخطوطات أخرى في هذه الحقيقة. انتبه آدم

المحروم إلى أن الفجر كان قد حلّ، لكن معه بدأ دوي الانفجارات التي صارت من طقوس الصباحات البغدادية.

بدأ دوي الانفجارات مختلفاً في شدته لقربه وبعده عن البيت. عد آدم المحروم حينها أربعة انفجارات متتالية بينها دقائق لا أكثر. فكّر مع نفسه عن هذه اللعنة التي حلت بوادي الظلمات هذا. حينما طوى المخطوطة، دوى انفجار اهتز له البيت كله.

يقظة حواء

ما إن وضع آدم المحروم المخطوطة في حقيبتة حتى دخلت حواء الزاهد وابنها مرعوبين إلى الصلاة. رأت آدم المحروم مستيقظاً ومتوجساً. سألت مباشرة دون أن تلقي التحية من صدمة الانفجار:

- ما هذا؟ إنه قريب جداً؟ الله يستر.

التفت إليها وعلى وجهه علامات غضب مكتوم:

- الانفجار قريب جداً. وقد حصلت عدة انفجارات هذا الصباح، انفجارات متلاحقة. والله لا نعرف إن كانت هذه تسمى حياة؟ منذ الاحتلال ولحد اليوم جرت آلاف الانفجارات ومات الآلاف فيها وبسببها لكننا ما سمعنا أن انفجاراً وقع في المنطقة الخضراء. إنهم يعيشون وينامون آمنين بينما الناس يقتلون كالذباب هنا في شوارع بغداد! ومن يفتح فمه يلقموه رصاصة أو يلقوا به في السجون بتهمة الإرهاب.

لم تعلق حواء على كلامه. كانت خائفة وغاضبة، ولم تكن تفكر بمعارضة الحكم بهذه الطريقة، وإنما كانت تحقد على الإرهابيين، فقالت:

- هؤلاء الإرهابيون هم أصل البلاء.

التفت إليها وقال بغضب مكتوم:

لا خلاف إن الذين يقومون بهذا هم الإرهابيون، لكن هؤلاء الحكم إذا كانوا عاجزين عن مواجهتهم فليتنحوا عن الحكم. مرّت سنوات على سقوط الصنم بينما البلاد تعيش في الظلمة. الدكتاتور المقبور أنتج الكهرباء

بجهود ذاتية بعد ستة أشهر من انتهاء حرب الكويت، وأعاد بناء الجسور، بينما هؤلاء لم يفعلوا شيئاً سوى السرقات والتصفيات الجسدية. السجون مليئة وأكثر منهم الأبرياء. البطالة، وانعدام الخدمات، وعدم وجود كهرباء وهذا الوضع الأمني، ولنكن صريحين، هؤلاء طائفون ...

قاطعته بخوف وارتابك قائلة:

- هذا كلام الشيوعيين. أبي دائماً كان يعلق على هؤلاء الذين كانوا يتحدثون بمثل كلامك بأن هؤلاء يساريون أو شيوعيون أو علمانيون.
- أنا لستُ شيوعياً، ربما أفكار ييسارية، لكن هل قول الحقيقة صار عنواناً لليسار والشيوعيين والعلمانيين فقط؟ هذا شرف كبير لهم. إن ما يجري لدينا لو جرى بأي دولة في العالم لتم تقديم كل رئاسة الحكومة وكل طاقمها للمحاكمة. لكن هذه البلاد التي تسمى وادي الرافدين ليست سوى وادٍ للظلمات. بلد للمقهورين والمظلومين والتائمين.

انتبه إلى أنها قد صُدمت من كلامه، فقال لها بطريقة توضيحية وهادئة:

- اسمعيني يا حواء. أنت إنسانة مخلصة لأبيك وللфكر الذي تعذب من أجله وسجن لسنوات. أعرف ذلك. وأن جماعة أبيك هم الآن يحكمون، لكن إخلاصك يحملك على الولاء لأناس لا يستحقون الولاء. صدقيني هؤلاء الناس أساءوا للفكر الذي تعذب من أجله ومات الآلاف. هؤلاء عار تاريخي على أولئك الأبطال الذين قارعوا الدكتاتورية. لقد عم الفساد في البلاد. إننا نستنشق الفساد في الهواء. إننا نعيش في مستنقع.

نظرت بتوجس وقالت بنبرة فيها الكثير من عدم الرضا والعتاب:

- لكن هؤلاء أيضاً ناضلوا، وتشردوا، وبعضهم كان في السجن.

نظر إليها كأنه يريد أن يقول إنها واهمة، وقال:

- هؤلاء الذين تعتقدين أنهم ناضلوا وتشردوا، تحولوا إلى عملاء. إنهم مقرفون. إن الشيء المحير فعلاً هو ماضيهم الذي يتاجرون به. إنهم باعوا

هذا الشرف منذ سنوات حينما كانوا في المنفى. هؤلاء الذين يحكمون البلاد، من مختلف القوميات والطوائف لا يصلحون أن يكونوا موظفين بسيطين في بلدان أخرى. هؤلاء دفعوا الناس إلى الترحم على الدكتاتور، والبعض بدأ يفاضل بين الزمنين، يا حواء، هناك آلاف من الناس الشرفاء يتحلون بالنقاء والطيبة ويمنحون هذه العصاة الولاء، بالرغم من أنهم يعيشون في مستنقع آسن وتتن.

- أنا أخاف عليك. لا تقل مثل هذا الكلام أمام أحد. حتى ولا أمام أبي.
- لقد تحدثت مع أليك بمثل هذا الكلام. وهو يعرف رأيي في هؤلاء الأوغاد الذين يتجارون بالدين. وأزيدك علمًا أنه يتفق معي في الكثير من آرائي. انظري إليه وفكري، ماذا حصل منهم وهو الرجل المناضل؟ لم يحصل منهم سوى النفور والكراهية، بل أراد البعض اتهمه بالعمالة لنظام الدكتاتور. ولولا تدخل البقية الباقية من الطيبين، لكان أبوك الآن في بوكا، أو تحت التراب.

فوجئت هي بهذه المعلومات عن أبيها، فهي لم تدرك قط بأنه واجه أعضاء الحزب الديني الذي كان ينتمي إليه بهذه الصراحة، ولا تعرف بمحاولاتهم إلصاق التهم إليه لإسكاته أو التخلص منه. إنه لم يتحدث قط عن سبب اعتكافه في زاوية لبيع الشاي بينما أصحابه صاروا وزراء ومستشارين وأصحاب نفوذ ومال وسطوة، لكن من يؤكد أن الذي يقوله آدم المحروم هو الصحيح؟

كان دوي صفارات الإسعاف يصم الأذان، بالرغم من اختلاف شدتها، فإذا صمتت الصفارات القريبة، جاء صغير البعيدة. كان الصغير يمسك بساق أمه وينظر إلى آدم المحروم بعينين متسائلتين، إذ هو لم يفهم لماذا هو غاضب، ولم يعرف معنى كل هذا الكلام. فجأة انتبه آدم المحروم له، أحس بشعور الذنب، لأنه ربما أزعج الصغير بغضبه الواضح. ابتسم له ومد

ذراعيه مرحبًا به، فترك الصغير أمه وألقى بنفسه في حضنه باسمًا. كان منظر آدم المحروم وهو يحتضن ابنها يملؤها سعادة، وكانت تحس أنها وابنها صارا جزءًا من حياته، وهو صار أساس حياتها. ابتسم آدم المحروم للملاك الصغير سائلًا:

- أنت لا تخاف الانفجارات ولا صوت سيارات الإسعاف أليس كذلك يا حبيبي؟
- أي. أنا لا أخاف.
- طيب حبيبي خلينا نفطر الآن. نأكل قيمر وخبز وشاي وعسل. زين؟
- زين.
- ابتسمت هي لهما، وانتهت أنها لم تسلم عليه، فقالت معذرة:
- الخوف لم يتركني أن ألقى تحية الصباح عليك، فاعذرني.
- لا عليك. المهم. سنرى بعد قليل بالتلفزيون عاجل الأخبار. ودائمًا يكذبون ويخففون من الخسائر.
- سأحضر الفطور.
- هل تحتاجين لمساعدة؟
- لا، المطبخ للنساء.
- ومن قال ذلك؟
- الرجل لا يدخل المطبخ، خاصة إذا كانت لديه...
- لم تكمل كلامها وإنما ابتسمت، فابتسم هو بدوره وسأل:
- إذا كانت لديه ماذا؟
- إذا كانت هناك امرأة في البيت.
- ما هذه الأفكار؟ أنا لا أؤمن بها. يمكن للرجل أن يتعاون مع المرأة بغض النظر إن كانت أمه أو أخته أو زوجته أو حبيبته.
- إنك متحرر أكثر من اللزوم، وهذا كلام العلمانيين.

- هل تعتقدين أن هذا الأمر خطأ؟
- لا. إنه يسعد المرأة حينما تجد رجلاً يساعدها. هذا من احترامه لها، ولا أعتقد أن ذلك يقلل من قيمة الرجل.
- يا عيني على المتحررة.
- ابتسمت له بحب وقالت:
- أنا في داخلي إنسانة متحررة، لكنني لم أجد من يشجعني على التعبير عن أفكارني ونفسي.
- فقال مبتسمًا، وبنبرة فيها الغاز:
- أنت لست متحررة فقط، وإنما متحررة جدًا.
- انتبهت لما يرمي إليه، وقالت مبتسمة وهي تشاكسه:
- ماذا تقصد؟ ألم يعجبك تحرري؟
- بلى، لكنني لم أصدق أنك تمارسين حريتك بهذه السرعة، فالكثير من الناس يخافون الحرية ويهربون منها!
- وماذا فعلت أنا؟ قالت بدلال وبمشاكسة.
- فعلت الأحوال أيتها السيدة!
- ألم يعجبك ذلك؟
- أعجبني جدًا، وأنت؟
- أنا أيضًا أعجبني، ولم أصدق أنني أستطيع أن أفعل كل هذه الأشياء أبدًا، لكن ماذا أفعل إذا كان معلمي أستاذًا في هذه الأمور.
- ضحك مقهقهًا، وقال بطريقة مشاكسة:
- أنا أخاف أن تحولي أنت إلى الأستاذة. عندها لا أجد ما أعلمك به!
- ضحكت هي بحب، وقالت:

- عندها أنا سأقوم بتعليمك أشياء، لم تخطر على بالك.
- فقهقها كلاهما، بينما كان الملاك الصغير مبتهجاً لأنه يراهما فرحين.
- وقبل أن تذهب إلى المطبخ قال لها:
- لم أستطع النوم، بقيت صاحياً إلى الآن.
- نظرت إليه نظرة مستفسرة، لكنها لم تشأ أن تسأل شيئاً بوضوح كي لا يفهم الصغير شيئاً، فقالت:
- لماذا؟ هل حصل شيء؟
- لا أبداً. بعد أن. بعد أن بقيت وحدي، رأيتُ حلمًا مرعبًا.
- خيرًا يارب؟
- الحقيقة لم يكن حلمًا وإنما كابوس. رأيت نفسي وحيداً، على حافة قطع جبلي حاد، ثم رأيت بيانو عند الساحل الرملي، ثم تحول البيانو إلى باب خشبي، فُتح على قصر، كل شيء فيه أبيض، ثم رأيت شموعاً في قاعة. دخلت غرفة ليس فيها سوى امرأة كبيرة زئبقية. نزل دم من المرأة. مسسته بيدي فلم أجد دمًا. سمعت هسيساً في الصالة، وحين ذهبت، رأيتُ القاعة تشتعل من جميع جوانبها. عدت إلى حيث المرأة فخرجت منها يد سحبني إلى داخلها.
- أحسْتُ حواء الزاهد بالخوف من هذه الرؤيا. سرت قشعريرة داخلها.
- راودها حدس بأن ثمة شيئاً سيئاً قد يحدث، فهنا خسائر من كل الجهات.
- حريق في القاعة. دم في المرأة. قبضة تأخذه إلى أعماق المرأة. لكنها لم تشأ أن توصل له خوفها وهواجسها، فقالت:
- هذه كوابيس، ربما جاءتك من الكتاب الذي تقرأه. وعلى أي حال يمكنك اليوم ألا تخرج إلى أي مكان وتبقى في البيت.
- ممكن. فلا شيء عندي يستوجب الخروج. ثم أنني انتهيت من قراءة مخطوطة الرواية، وهناك مخطوطتان أخريتان، لكن بودي أن تقرأني هذه المخطوطة، فصديقي هذا مجنون. لا يضع حدًا بين الواقع واللا واقع.

- إذن أعطني إياها لأقرأها اليوم، قبل أن يصل أبي، فأنت تعرف أنه يتحسس من قراءة الكتب غير الدينية.

- هذا صحيح. يجب ألا يراك وأنت تقرأينها، لأنه ربما سيأخذها منك لقراءتها، وفي هذه الرواية الكثير من الأشياء التي لا يستطيع رجل مثله أن يتقبلها.

- ماذا تقصد؟

- أقصد فيها الكثير من الكشف عن الوجه الحقيقي للإنسان. الوجه الذي هو في أعماقه، وليس الوجه المقنع الذي نرتديه يوميًا، ناهيك أنه كشف عن رغباتنا الخفية بكل صراحة. عن تلك اللغة التي نتحدث بها في أعظم لحظاتها حميمية لكننا نخجل حتى من ترديدها في حياتنا العادية. لغة ومفردات نلتفظها بكل لذة في لحظات معينة، لكنها تفقد معناها خارج تلك اللحظات. مفردات ولغة يستنكف الأدب أن يقترب منها، إلا البعض القليل والنادر من الكتاب الملعونين.

- لقد شوقتني لقراءتها.

- بلا شك.

مضت هي إلى المطبخ بينما ضغط على الريموت كونترول، وأخذ ينتقل بين المحطات، وتوقف عند محطة تبث من خارج البلاد، والتي تصلها الأخبار قبل أن تبث القنوات العاملة داخل البلاد. تحدثت الأخبار في الشريط العاجل عن عشرة انفجارات وقعت في أوقات متقاربة في بغداد وحدها، وخمسة انفجارات في محيطها.

حين دخلت وهي تحمل الصينية التي فيها الفطور المعتاد، أشار لها بأن تقرأ الخبر العاجل. بدا الخوف والدهشة على وجهها الفاتن. لم تعلق شيئًا. غادرت الغرفة ثم عادت ويدها صينية صغيرة فيها دورق الشاي وعدته الكاملة، وفي

اليد الأخرى قطعة النايلون الصغيرة. نزل الصبي عن حجر آدم المحروم وأخذ قطعة النايلون وفرشها على الأرض. وضعت هي صينية الفطور عليها، وكذلك صينية الشاي. جلس هو والصغير على الأرض، التفت إليها قائلاً:

- ألا تجلسي معنا؟

- لا. أنا أفطر في المطبخ.

نظرت إليه وإلى الطفل الملاك، ففهم أنها تتجنب ذلك. لم يقل شيئاً. غادرت بينما بدأ هو والصغير فطورهما.

ظل هو في البيت يلعب مع الصغير في الصالة. كانت هي تعد وجبة الظهر. والساعة قد قاربت العاشرة صباحاً. وبالرغم من الجو العائلي الحميم. شعر برغبة خفية عارمة في أن يخرج ليتمشى قليلاً. فكّر مع نفسه في أن يذهب إلى السوق القريب. استيقظت في نفسه رغبة في أن يبعث الفرحة في نفسها، لذا سيشتري لها باقة من الورد.

حين دخلت هي إلى الصالة ثانية رآته يهيم بالخروج. استغربت ذلك، فقد اتفقا على أن يبقى في البيت، شعر بالحرَج، كان الملاك الصغير يقف وفي عينيه رغبة بأن يأخذه معه في جولته. قال لها موضعاً قبل أن تفتح فمها بشيء، ففي نظراتها كانت هي قد سألته:

- أحسُّ برغبة في التمشي قليلاً. ربما أذهب إلى السوق القريب. سأرجع بعد قليل.

التفت إلى الملاك الصغير مبتسماً، وأضاف:

- وسأخذ الملاك الجميل معي أيضاً، أليس كذلك يا بطل؟

ابتسم الصغير وألقى بنفسه في أحضانه، فتلقفه بين ذراعيه. عجزت عن قول أي شيء، واجتاحها فرح غامر، فكلما ترى حبيبها وهو يحتضن ابنها بكل هذا الحنان تشعر أنها أسعد مخلوق على الأرض. لم تقل شيئاً سوى أنها علقت:

- سأكون أنا بانتظاركما. أرجو ألا تتأخر، فأنا هنا وحدي.
- نظر إليها بحنان وفرح خفي، وقال:
- وهل نستطيع أن نترك وحدك؟ سنعود بعد قليل. الحقيقة هنا وفيها المخطوطات. تستطيعين أن تقرأي منها ما تشائين. هناك مخطوطة رواية "مأثرة حواء وادي الظلمات"، وهي الرواية التي انتهت منها فجراً، وكذلك مخطوطات أخرى.
- سأحاول أن أبدأ بواحدة منها، وسأحاول أن أقرأها كلها قبل وصول أبي.
- على أي حال. أستودع الله في بغداد لي قمراً بالكرخ...
- قاطعته قبل أن ينهي البيت الشهير لابن زريق البغدادي، معلقة:
- نحن في الرصافة يا شاعري.
- لا ضمير. المهم نحن في بغداد.
- ابتسما لبعضهما. ظلت هي واقفة أمام الباب الذي يفضي إلى الحديقة وهي تراه يمشي حاملاً الملاك الصغير في حضنه. حين وصل إلى الباب الخارجي نظر إليها وشعر بفخر رجولي في أن هذا الجمال المهيب وهذه المرأة الشامخة هي حبيبته.
- ظلت هي للحظات واقفة في مكانها حتى بعد اختفائهما من أمام نظرها. تمت لو أنه قال ذلك قبل أن تبدأ بالطهور، لكانت قد خرجت معهما.
- دخلت ثانية إلى الصالة. جلست على إحدى الكنبات. أخذت الريموت كونترول وبدأت تتنقل بين القنوات. كانت معظم المحطات العراقية تنقل الأخبار العاجلة عن التفجيرات الإرهابية التي جرت صباحاً. توقفت عند إحدى المحطات الخليجية التي كانت تعيد مسلسلاً تركياً. أعجبها شكل الممثلة التركية التي كان واضحاً أنها بطلة المسلسل لتتابع المشاهد المتعلقة بدورها. استمرت بمتابعة المسلسل، وكانت تتحرك ما بين الصالة والمطبخ.

لأول مرة تحس بالاسترخاء وهي تتابع مسلسلًا أجنبيًا عن العشق والهوى والصراعات الأسرية. كان المسلسل يتحدث عن فتاة جميلة جدًا، أرملة كما فهمت، ولديها طفل صغير بعمر ابنها. ولأنها لم تكن قد تابعت المسلسل سابقًا، فإنها فهمت بأن هناك من يحب هذه الفتاة وهناك من يحاول أن يضع العراقيل بينها وبين رجل وسيم يبدو هو حبيبها البطل.

شيئًا فشيئًا اندمجت هي في أحداث المسلسل. انشدت للأحداث، لا سيما وأن توترًا بدا بين البطلة وحبيبها، وبين صديقه وشريكه في الشركة وحبيبته التي تعمل مهندسة في الشركة، وصارت حواء لا تتحرك من أمام الشاشة إلا في فترة الإعلان فتركض إلى المطبخ لتتابع الطبخ، وتسرع أحيانًا لتتأكد من أن المسلسل لم يبدأ بعد فترجع راضية إلى المطبخ، وما إن تنتبه لانتهاؤ الفاصل الإعلاني حتى تترك كل شيء وتأتي إلى الصالة لمتابعة المسلسل.

بعد انتهاء المسلسل عرفت من خلال الإعلان عن الحلقة القادمة وأوقات عرضها بأن الحلقة التي شاهدها قبل قليل كانت الحلقة الثامنة والخمسين. حفظت في ذاكرتها تاريخ البث والإعادة وانتبهت لاسم القناة الخليجية، إذ قررت مع نفسها متابعة المسلسل يوميًا. حمدت الله مع نفسها أن أوقات الإعادة هي الأوقات التي لا يتواجد الأب خلالها في البيت.

فجأة انتبهت إلى أنها لم تفكر في أبيها كعادتها اليومية وهو في بغداد، بل هو الآن مسافر بينما في أعماقها رغبة عميقة لا واعية في أن يؤخر عودته. أحست بالارتباك من هذا التحول، وانتقدت نفسها لأن هذا الأمر جديد عليها، ومرتبط بعلاقتها الجديدة والآثمة مع آدم المحروم.

تخيلت أباها الطبيب، النحيل، وملامح التعب والإنهاك بادية عليه خلال سفرته هذه. شعرت بالذنب. ذهبت إلى غرفة النوم. أخذت الهاتف النقال الذي كانت قد وضعت في الشاحن على المنضدة قرب السرير، وضغطت على رقم هاتف والدها. ظلت ممسكة بالهاتف إلا أن الهاتف كان لا يرن،

وكان صوت مندوبة شركة الموبايل يكرر بأن الهاتف المطلوب حاليًا إما مغلق وإما خارج نطاق الخدمة. يرجى الاتصال مرة أخرى لاحقًا.

لم ترتح لهذا الوضع، فليس من المعقول أن يغلق هاتفه لمدة يومين كاملين، بل ولم يبادر هو للاتصال والسؤال عنهما. إنها تعرف كم يحبها ويحترم مشاعرها، وكم حريص هو على ذلك، فليس من المعقول أنه يتركها لهذا القلق الذي هي فيه، ثم أنه لا يستطيع أن يتعد عن حفيده، فكيف به وهو الآن على سفر ولا يشتاق لسماع صوته. أحست بأن ثمة شيئًا ما غير مريح في هذا الأمر. فجأة، تذكرت الكابوس الذي رآه آدم المحروم فجر هذا اليوم. تشاءمت من ربط هذا الكابوس مع بُعد والدها. أحست بوخزة في صدرها. راودها قلق قوي ومفاجئ.

تذكرت فجأة إلى أنها لم تسأل والدها عن تفاصيل سفرته، بل كانت، من شدة فرحها لسفره كي تخلو مع آدم المحروم، تستعجل سفره فورًا، وكانت مترددة في فتح سيرة السفر كي لا يستصعب سفره ويؤجل السفر أو يعتذر من أخي زوجها. ما الذي دهاها بحيث إنها لم تفكر سوى بنفسها وبمشاعرها؟ وها هي الآن يأكلها الندم على ذلك، بل وتتمنى الآن أن تسمع صوته الحنون فقط.

انتبهت مستغربة بأن والدها يسافر لمقابلة زوجها السجين بناء على طلب أحد أخوته، ولم تسأله عن سبب هذه الزيارة، ولماذا يذهب هو إذا كانت الزيارة فقط لرؤيته؟ بل استغربت أنها لم تفكر خلال كل تفكيرها بالسفر وبأبيها، أنها لم تفكر بزوجها قط؛ هل لأنها لا تحبه؟ استغربت من نفسها أنها لم تسأل نفسها هذا السؤال أبدًا، إلا بعد اللقاء بآدم المحروم.

هي الآن تعرف جيدًا أنها لا تحب زوجها ولا تريد العيش معه، بل إن حياتها معه لم تكن سعيدة أبدًا، لكنها لا تريد أن تفكر فيه بشكل سلبي ومضاد لأنه الآن في السجن، وليس لها سوى أن تدعو له بالسلامة، والخروج من السجن، فهو في كل الأحوال والد ابنها. لكن الغريب أنها لم تسأل والدها

أي سؤال عنه حينما قال لها بأنهما سيزورانها في السجن، بل تذكرت الآن أنها لم تطلب منه أن يبلغه سلامها، هل انتبه والدها لهذا الأمر؟ ربما نعم. وربما لا؛ لأن والدها نفسه كان غريباً في تصرفاته، إذ كان لا يرغب في الحديث عن سفرته هذه؟

تذكرت أنه في المرة السابقة قبل ستة أشهر ذهب مع الصغير إلى الاستوديو لأخذ صورة لحفيده كي يهديها لأبيه في سجن بوكا، لكنه هذه المرة لم يطلب ذلك. سألت نفسها حائرة: لماذا؟

مرة أخرى حاولت الاتصال به، وكالمرة السابقة جاء صوت مندوبة الشركة: إن الهاتف المطلوب مغلق حالياً أو خارج نطاق الخدمة. حاول الاتصال في وقت لاحق.

حملت هاتفها معها واتجهت إلى الصالة، وظلت تطلب الرقم لأكثر من خمس مرات، وكأنها تجد مواساة وتخفيفاً لقلقها كلما طلبت رقمه. فجأة تذكرت أن رقم آدم المحروم لديها، فلماذا لا تتصل به لتطمئن عليه وعلى ابنها؟ حركت الهاتف النقال على جهة الأسماء، وضغطت على الهاتف. أحست بالقلق حينما جاء صوت مندوبة الشركة وهي تكرر بأن الهاتف المطلوب حالياً إما مغلق وإما خارج نطاق الخدمة. يرجى الاتصال مرة أخرى لاحقاً.

لم تستطع أن تجلس في مكانها، كانت تنتقل ما بين المطبخ والغرفة والصالة. وبعد أن تأكدت من أن الطعام جاهز، أطفأت الطباخ. ظلت تدور ما بين غرفة النوم والصالة. جاءت فكرة مفاجئة في أن تصعد إلى سطح الدار. صعدت السلم. فتحت باب غرفة المكتبة. تذكرت أول لقاء جسدي بينها وبين آدم المحروم. انتهت إلى أنه أفرغ ماء ناره فيها، وكان ماؤه غزيراً وبذوره وفيرة. أحسّت بالرعب من أنها ربما ستحمل. فكرت بأنها في المرحلة الآمنة من الناحية البايولوجية، لكن ليس الأمر مضموناً دائماً. انتهت إلى أنها تفتح على نفسها أبواب القلق. دخلت الغرفة المقابلة

ونظرت إلى سرير أبيها. خرجت إلى السطح، وبدأت تعيد الاتصال به مرة، و
بآدم المحروم مرة تالية، وعلى كلا الرقمين يأتيها إشعار الشركة بأن الهاتفين
إما مغلقان وإما خارج نطاق الخدمة حالياً.

فجأة سمعت حركة خارجية تأتي من الصالة، وقبل أن تهبط السلم كان
صوت ابنها يأتي منادياً:
- ماما. ماما. نحن هنا.

أخذت تقفز السلم قافزة كل درجتين في الخطوة، حتى أنها كادت من
لهفتها وفرحها بمجيئهم تتعثر على السلم. استقبلت ابنها بالحضن وهي ما
تزال على السلم، ونزلت وهي تحضنه.

حين دخلت الصالة كادت تلقي بنفسها عليه من الشوق واللهفة والقلق.
إلا أن وجود ابنها في حجرها حال بينها وبين نفسها من أن تقوم بهذه
الحركة. لم تقل شيئاً، إذ كانت لغة العيون كافية لإيصال ما أرادت قوله
بالكلمات وربما أكثر بلاغة. كان هو واقفاً بمواجهتها وإحدى يديه خلف
ظهره. وضعت ابنها على الأرض وهي تقول بعتاب وغضب مكتوم:
- أين كنتما؟ لقد اتصلت بكما على رقم هاتفك لكنه كان مغلقاً. لقد قلقت
عليكما جداً.

نظر إليها بحب وقال بهدوء:

- لماذا قلقت؟ لقد قلت لك إنني سأتحول قليلاً في السوق القريبة.
- لكن الهاتف كان مغلقاً وأردت أن أخبركما بأن الغداء جاهز، فلا تتأخرا.
ابتسم لها وسأل:

- هل كان هذا هو السبب الرئيسي حقاً؟
- نعم. الحقيقة أنا اتصلت بأبي فلم أنجح بالاتصال إذ كان هاتفه مغلقاً.
اتصلت بك فكان هاتفك مغلقاً أيضاً. والحقيقة لأنني تذكرت الكابوس الذي
رأيتَه فجراً. تشاءمت منه كثيراً.

فجأة وبدون أن يقول شيئاً، سحب يده من خلف ظهره فإذا به يحمل باقة ورد جميلة، مجموعة مختلفة الألوان من زهرة الجوري. وقدمها لها. كان الطفل الصغير يتنقل بنظره ما بين وجه أمه وباقة الورد. شئت السعادة من عينيها، واسترخت ملامحها وأشرق وجهها الجميل عن ابتسامة شكر ساحرة. مدت يدها بتردد، وهي تقول:

- هذه الورد لي؟ يا لجمالها! إنها باقة جميلة جداً. شكراً لك.

- أعجبتك؟

- كيف لا تعجبني وهي منك؟ لكن ليست لدينا في البيت أي مزهرية! أين سنضعها الآن؟

- أوه. هذه مشكلة فعلاً. هل لديكم قناني فارغة؟

- قناني فارغة؟!

- نعم، قناني فارغة، قنينة ماء. إذ يمكننا أن نضع كل وردة أو وردتين في القنينة ونوزعها في الغرفة.

- فكرة لطيفة.

قالت ذلك وخرجت مبتهجة. أحست أنها أسعد امرأة في الدنيا، ونسيت قلقها على أبيها للحظات. ذهبت إلى المطبخ تفتش عن قناني زجاجية وبلاستيكية فارغة. تبعتها ابنها. وزعت باقة الزهور على أربع قناني وضعت فيها ما بين زهرتين إلى ثلاث. حملت قنيتين منها وحمل الصغير قنينة. ووضعت الرابعة في غرفة نومها. أخرجت لابنها حلويات كان جده قد اشتراها له، كما أخرجت له لعبة لينشغل بها في غرفة النوم.

كان هو يتابعها بنظراته صامتاً وهي تدخل الصالة يتبعها ابنها ثم تخرج، ثم تعود، ثم تخرج. رأى في وجهها انعكاساً لانفعالات متداخلة. كانت مشغولة مع نفسها. أما هي فقد كانت تفكر فعلاً في بادرتة الرقيقة، وكان عدم

وجود مزهرية لحفظ الورد قد أيقظ فيها أسئلة عن خواء حياتها من أي لمسة للجمال. لم يهدأ أحد ما وردًا بل ولم تلمس الورد إلا حينما كانت صغيرة وتذهب إلى حديقة الزوراء، أو كانت تراه في محلات الزهور، لكن لم يفكر أحد من المحيطين بها أن يشتري لها أو لهم بشكل عام أي باقة ورد. فجأة ظهر والدها في مخيلتها. ماذا لو عاد أبوها ووجد هذه الزهور؟ كيف ستبرر هدية آدم المحروم لها؟ وعاد إليها قلقها على أبيها الذي لم تعرف عنه أي شيء منذ يومين. لا بد أن تتصل به مرة أخرى عسى أن يجيبها.

حين عادت إلى الصلاة وجلست على المقعد المقابل له أحس أنها تريد أن تقول شيئًا. لكنها ظلت صامتة. بادر هو إلى دفعها لتقول ما لديها، فسألها:

- هل هناك شيء حواء؟ هل أخطأت بإهدائك باقة الورد؟

نظرت إليه بمحبة، وشعرت بالأسى لأنها كسرت خاطره بينما أراد هو أن يفرحها بهذه الهدية الجميلة التي بلا شك قد كلفته مالًا أيضًا. لكن أرادت أن ترتاح من هذه الضغوط النفسية التي تشوش عليها فرحتها، فقالت:

- أنا أسفة إذ خيبت أملك. أنا فرحة جدًا بباقه الورد، لكنني حزينة في الوقت نفسه، لأنها كشفت لي عن جفاف حياتي. دفعتني إلى أن التفت إلى حياتي السابقة والحالية بعينين مفتوحتين على آخرهما. تصور أنا خائفة من أن يأتي أبي ويسألني عن باقة الورد هذه؟! فأنا لم أشتري وردة في حياتي، ولم يهديني أحد وردة ذات يوم! حتى في زفافي كان الورد اصطناعيًا من القماش والورق والبلاستيك! بدأت أفكر بحياتي الحالية، إنها حياة سطحية وتافهة. اليوم شاهدت لأول مرة مسلسلًا تركيًّا. أنا لا أتابع غير القنوات الدينية. أبي يتابع الأخبار، أما أنا فأتابع المحاضرات الدينية وأحيانًا المسلسلات الدينية الإيرانية إن وجدت وتم عرضها على القنوات العراقية الدينية، وما أكثرها ما شاء الله. المسلسل نقلني إلى عالم آخر. بدأت أتفهم غضبك من

الوضع الذي نعيشه. أبي يحاول أن يعوضني بحبه عن هذا الحصار الذي أعيشه، والدوامه التي أنا فيها. ربما من غير اللائق أن أقول هذا، لكنني أريد أن أصرخ، أن أعبر عن نفسي. هل تدري أنني أتمنى أن يتأخر أبي في سفره لأيام أخرى؟ أتدري لماذا؟

- لماذا؟

كان آدم المحروم منذهلاً في أعماقه من انفجار غضبها، بل وتفتق وعيها لذاتها. فكر في ثوانٍ سريعة عن السبب الذي دفعها لفتح هذه البوابة، أمن المعقول أن تكون باقة الورد وحدها هي السبب؟ أم علاقتها الجسدية بي؟ انتظر أن تفسر له هذه الرغبة الغريبة. عاد إلى التواصل معها حينما سمعها تقول:

- لأنني ببساطة أريد أن أكون أنا. أريد أن أستمتع بوجود هذه الورود في بيتي. أريد أن أجد الطريقة لكي يتعود أبي على وجود الورود في البيت أيضًا. انظر إلى حديقتنا الصغيرة؛ ليس فيها ورد، إنما عشب محروق. لأن أبي قضى أكثر من ثلاث عشرة سنة في السجن، وحينما خرج كان لا يستطيع أن يتواصل مع الحياة. فابنه الفتى قد قتل، وابنته الطفلة التي تركها حين دخل السجن وجدها متزوجة حينما خرج، ووجد نفسه لا يعرفها جيدًا. صلته بالحياة كانت من خلال أمي التي ماتت بعد خروجه بسنة. واليوم. اليوم فقط عرفت منك لماذا اختار العزلة، وتجنب رفاق الأمس. إنه لم يتحدث معي بمثل هذه الأمور. بيدي أحياناً عدم رضاه عما يجري لكنه لا يتذمر. ولكي يعوضني عن وفاة أمي ومقتل أخي وغياب زوجي في السجن، صار يداري مشاعره، ويحاول جهد الإمكان أن يشرح لي بعض الكتب، ويناقشني عن التراث والشعر. ومن الناحية المادية يبذل جهده كي لا نشعر بالحاجة إلى شيء، حتى خطوط الكهرباء فقد اشترك بمبلغ كبير، إلى جانب شراء مولدة الكهرباء التي لا تدعنا نشعر بالظلام. أنا في حيرة من نفسي.

انتبه هو إلى طريقة حديثها عن نفسها. كانت تمتلك قدرة على التوقف

عند أمور بسيطة لتمنحها بُعدًا فكريًا أو تبني عليها موقفها، إذ لم يطرأ في ذهنه أبدًا أن إهداءها باقة ورد بسيطة سوف تدفعها للنظر إلى حياتها، وتثير لديها كل هذه الأسئلة! أحس أن عليه ألا يتركها في دوامتها هذه وأن يقف إلى جانبها، فقال لها بنبرة هادئة ونبرة من يريد مخلصًا أن يتفهم الذي هي فيه:

- لماذا أنت محتارة يا حواء؟ أنا أعتقد أنك تعين ذاتك بشكل جيد، وتعين الوضع الذي أنت فيه. ليس بمقدور الكثيرات أن يصلن إلى هذا الوعي بالأشياء كما أنت الآن.

نظرت إليه وكأنها تبحث عن تأثير كلامها فيه. انتبهت إلى أنه تفهم ما قالته، وسرّها أنه يحاول مساعدتها مخلصًا، فقالت له:

- دعنا من ذلك الآن. لقد أزعجتك بكلامي. لتتناول وجبة الغداء، فهو جاهز.
- سنتحدث لاحقًا. اهدأي الآن ولا تضغطي على نفسك كثيرًا. سنتحدث بهدوء عن كل شيء. وسنجرّب الاتصال بالوالد.

أحست وكأنه ذكرها بقضية أخرى مهمة، إذ تحولت إلى تلك البنت القلقة الخائفة من كل شيء، ومن الأقدار العنيفة العمياء التي تعصف بالبشر فجأة، فقالت له:

- حاولت الاتصال مرات عديدة لكن هاتفه مغلق أو خارج نطاق الخدمة. بدأت أقلق جدًا. أنت تعرف أن هذه السفرة غريبة جدًا!
- كيف؟

أراد أن يعرف إن كانت قد علمت شيئًا عن هدف هذه السفرة، لكنه سرعان ما استبعد معرفتها لأي شيء ما دام أنها لم تتصل بوالدها، فسّر بأن والدها قد أغلق هاتفه النقال متقصداً كي لا يضعف ويخبرها بما جرى لزوجها في السجن، وكي يجنب نفسه الكذب عليها بالادعاء بأنه رآه أو قابله أو أي شيء من هذا القبيل. أما هي فقد فسرت له استغرابها من هذه السفرة قائلة:

- كل مرة حينما يسافر أبي إلى البصرة ليقابل زوجي، وهي عادة تجري كل ستة أشهر، فإنه يصور له ابني، ويأخذ صورته معه ليرينا لأبيه. لكنه لم يفعل في هذه المرة! كما أنه كان يتصل في كل موقف خلال الطريق. كان يتصل حين يصلون إلى مفرق الكوت حيث تتوقف السيارات التي تلتف متجهة إلى البصرة هناك ليستريح الركاب أو ليأكلوا أو يشربوا، وحينما يصلون إلى العمارة كان يتصل أيضًا، وحين يصل إلى البصرة يتصل لحظة وصوله، وحينما يصل إلى الفاو قبل التوجه إلى السجن يتصل، وفي الرجوع أيضًا. هذه المرة لم يفعل أي شيء من هذه الأشياء؛ لذا فإني قلقة فعلاً من سفرته هذه.

- لا تقلقي أكيد أن هناك عائقاً لا يسمح له بالاتصال. ربما عطل هاتفه النقال مثلاً. كما أن الاتصالات في العراق سيئة جداً، ولا أحد يحاسب تلك الشركات المخادعة.

- لا. لا. هناك سر في هذه السفرة.

- هل الصغير هنا؟

انتبهت هي إلى أنه طرح سؤالاً غريباً، فمن الطبيعي أن ابنها في البيت. إلا أنها فهمت إلى أنه يتهرب من شيء، أو من الحوار في هذا الموضوع أصلاً. فكرت مع نفسها: «ربما هو يعرف شيئاً أنا لا أعرفه، وربما هو لم يسافر إلى البصرة أصلاً، وإنما إلى مكان آخر». وقفت، وقبل أن تذهب إلى المطبخ لتأتي بالطعام، نظرت إلى عينيه بشكل مباشر وسألته بمودة وعطف:

- هل تعرف شيئاً ما عن هذه السفرة؟ هل هو سافر إلى البصرة حقاً؟ من المؤكد أنك تعرف كل التفاصيل عن هذه السفرة، فهو يحبك من كل قلبه، ويرتاح لك، وربما أخبرك عن كل شيء؟

ارتبك هو لثانية وحاول تجنب النظر إليها، وهو يجيبها:

- أنا لا أعرف عن هذا أكثر مما تعرفين.

صمتت وهي تنظر إلى وجهه الذي ارتبك لثانية ثم استعاد براءته. لم تقل شيئاً، لكنها كانت متأكدة من أن ثمة شيئاً وراء هذه السفرة، ووراء هذا الصمت المريب من قبل والدها. ووراء ارتباك حبيبها آدم المحروم!

انتهوا من وجبة الغداء. هذه المرة قد تجرأت بالجلوس على الأرض وتناولت طعامها معهما. وبرغم عادية وطبيعية مثل هذا الحدث الإنساني اليومي، إلا أنه كان بالنسبة لكليهما يحمل دلالات كبيرة، خاصة بالنسبة لها. لقد كانت تدرك بأن تغييراً ما حدث في كيانها النفسي وفي طريقة تفكيرها وفي نظرتها للأشياء، وتكشفت لها تفاصيل أخرى لم تنتبه إليها سابقاً في حياتها اليومية، سواء من خلال تجربتها الجسدية والعاطفية مع آدم المحروم أو من خلال الأحاديث التي جرت بينهما.

حين بدأت بحمل الصحون وبقايا الطعام نهض آدم المحروم ليساعدها فلم تعترض كالسابق، إذ وجدت في هذا التصرف شيئاً من اللطف والرقّة العاطفية نحوها. كان الطفل الصغير مستغرباً ينظر إلى آدم المحروم وهو يحمل صحنين، فهو لم ير جده يفعل ذلك، لكنه لصغر سنه لم يفسر الأمر تفسيراً مريباً. وبينما ركض الطفل إلى الصالة ليأتي بما تبقى، اقترب هو منها في المطبخ، قائلاً بصوت حنون وملئ بالحب والرغبة:

- أحبك.

ارتسمت على وجهها ابتسامة مغناج وقالت له:

- وأنا أحبك أيضاً. لكن انتبه فالصغير قادم. أماننا الليل بطوله. اذهب الآن إلى الصالة. ساعد الشاي وآتي إليك.

صار وجود الصغير في حضورهما يشكل مصدرًا مريبًا يجب الانتباه إليه. صحيح أنه ما زال صغيراً، ولا يفهم في طبيعة علاقة الرجل بالمرأة،

وصحيح أنه يحب آدم المحروم جدًا لأنه يعوضه عن حنان الأب الغائب الذي لا يعرفه، إلا أنهم كانا يخافان براءته. يخافان أن يتكلم بشكل عفوي عندما يرجع الأب فيقول أشياء لا يعرفان ما سيكون وقعها على الأب، وماذا سيستشف الأب من خلالها. فأخذتا يتحدثان حديثًا مشفرًا، ظل الصغير يقلب النظر بينهما لأنه لا يفهم شيئًا. ولكي تلهيه الأم وتبعد تركيزه عنهما قامت إلى الغرفة الثانية وجاءت بلعبه إليه ولبعض الشكولاته التي يوفرها جده له دائمًا. أخذ الصغير آدم لعبه وجلس بعيدًا نوعًا ما عنهما بينما كانا هما يشربان الشاي ويتحاوران. سألته سؤالًا كان مفاجئًا بالنسبة له ولم يتوقعه:

- لا أريد أن أكون فضولية ولكن لدي سؤال يحيرني: لماذا لم تتزوج لحد الآن؟ مثلك يفترض أنهم قد تزوجوا وخلفوا، فأنت كما أضمن قد تجاوزت الخامسة والثلاثين كما انتبهت لما مكتوب في هويتك حينما أردنا تسجيل عقد إيجار المشتمل!

لم يجد ما يقوله لأول وهلة، فالسؤال كان مباغتًا له. صمت لحظات كي يجد الجواب المناسب، وقال:

- سؤالك وجيه، لكن وأقولها لك بصراحة، لم أجد الإنسانية التي تفهمني، وتشاركني فوضاي وهوسي بالفن والفكر، إلى جانب أنا لا أجد ما أستطيع أن أعيش به بشكل كريم؛ فكيف أتحمل معيشة امرأة في مثل هذا الوضع الصعب، ناهيك أننا في وضع سياسي صعب جدًا.

- لكن هذا لا يعني أنك كنت بلا علاقات نسوية ومغامرات عاطفية. انتبه إلى أنها تسوق الحديث بدوافع غيرة نسوية، وهي تريد أن تعرف عنه أكثر، لا سيما في ما يخص علاقاته العاطفية. نظر إليها وكأنه يقرأ أفكارها، وقال:

- أنت تقودين الحوار لتعرفي تجربتي العاطفية، أليس كذلك؟

ابتسمت هي بارتباك، وقالت:

- ليس هذا بالضبط، ولكن ليكن هذا الجانب من ضمنها أيضًا.
- اسمعيني يا حواء. أنا قبل أن أراك كنت ضائعًا. كنت أبحث عن امرأة ما في ذهني، لكنني حين رأيته أحببتك. ربما أول نظرتي إليك كانت إعجابي بجمالك وشكلك وجسدك الذي أثارني جدًا، لكن يومًا بعد يوم بدأت أتعرف عليك أكثر وعلى شخصيتك الرائعة، فأحببتك أكثر، وبعد ما اقتربنا أكثر والتحمنا، صرت لا أستطيع تصور الحياة بدونك.
- عينها تألفتا وهي تسمعه، لكنها سرعان ما صار وجهها جديًا، وقالت بنبرة فيها تساؤل وشك:
- لكنني لست بمستواك الثقافي، وأنا لا أشارك أفكارك وهوسك وفوضاك بعد، لأنني ببساطة لا أفهم كثيرًا في هذه الأمور، إلى جانب أنني متزوجة، ولدي طفل.
- لا يهمني هذا. أنا أحبك وأحب الملاك الصغير آدم أيضًا.
- لكنني متزوجة!
- أعرف. لكنني أريدك، وأريد أن أتزوجك. ولا بد أن أتزوجك.
- نظرت إليه وكأنها لا تفهم شيئًا من هذا الكلام، فقالت له:
- أقول لك إنني متزوجة فتقول لي لا بد أن أتزوجك، هل لك أن تفهمني معنى هذا الكلام؟ هل تقصد أن أطلب الطلاق من زوجي وأتزوجك؟ هل تدرك معنى ما تقول؟ بدأت أخاف منك!
- أحس آدم المحروم أنه تسرع في الكشف عما يقصده، وخاف أن تتببه لما وراء هذا القول، إذ أنه كان يعرف بأن زوجها قد مات في السجن، وأنه بعد مرور أشهر العدة ربما سيتقدم لها ويطلبها من أبيها، الذي يعتقد بأنه لن يمانع، لكنه لا يستطيع الآن أن يقول لها ذلك، فقد اتفق مع أبيها بأنه هو الذي سيتصرف ويخبرها بوفاة زوجها.

كانت هي تنظر إليه بإمعان محاولة أن تعرف بماذا يفكر. انتبه هو إلى ذلك فقرر تهدئة الحوار، فقال:

- أنا أدرك ما أقول. أنا أحبك. لا أستطيع العيش بدونك. ولا أريد أن أتزوج غيرك. وبما أنك متزوجة، فإني لن أتزوج.

- هذا كلام يقوله الرجال ليسلبوا به عقول النساء.

- ألا تؤمنين بالحب؟

- بالحب؟

- نعم. بالحب!

فكرت لحظة، ثم قالت:

- أنا لم أجرب الحب سابقاً، ولم أعرفه، ربما كنت أحب الحب نفسه، ولكن لا أحب شخصاً بعينه. حين تقدم زوجي لطلب يدي أخبرت أمي بأني لا أعرفه ولا أحبه، لكنها قالت لي بأنها أيضاً لم تكن تحب أبي، لكنها أحبته بعد الزواج، وحينما رأيت زوجي في الخطوبة لم أحبه أيضاً، إذ لم يعجبني كرجل، لكنني كنت أقنع نفسي بأن الحب يأتي بعد الزواج. وبعد الزواج لم يأت الحب. حاولت أن أحب زوجي بحكم الدين والتقاليد، لأنني لا أعرف غيره من الرجال، لكنني وجدت أنني لا أتقدم خطوة في طريق الحب، على العكس، كنت قبل الزواج أطيّر مع أحلامي، لكنني بعد الزواج أصبح هذا الأمر بمثابة خطيئة، ولا أتجرأ على الإقدام على الحلم بالحب. إلى أن ولدت ابني الحبيب، الذي منح حياتي معنى. لا أدري أين يكمن السبب! ربما يحدث أن يأتي الحب بعد الزواج، لكنه في حالتي لم يأت بل حول حياتي إلى جحيم! بعد تعرفي عليك، وما جرى بيننا بدأت أفكر بأن الأمر، ربما، له علاقة بالتوافق الجنسي والخبرة الجنسية! فلو كان زوجي يعرف أن يتعامل معي ومع جسدي، فلربما نشأ بيننا نوع من الحب؟! لكنه كان يأخذني دون أن يفكر بمشاعري، بل ولا يعرف سوى وضع أو وضعين للتعامل معي،

لا أدري ماذا أقول؟ لكنني أعتقد بأن الحب ينشأ حينما يتوق الجسد إلى الآخر، وإلا فإن التجاوب لا ينشأ حتى لو كانت هناك علاقة جسدية. هل تتفق معي أم لا؟

كان آدم المحروم يصغي إليها مستغرباً هذا التحليل العميق منها، وكأنها قد قرأت عشرات الكتب لعلماء التحليل النفسي الذين انتبهوا لدور العامل الجنسي في حياة البشر. فكر مع نفسه بأنها قد توصلت إلى كل هذا لأنها إنسانة مخلصة وصادقة مع نفسها. نظر إليها قائلاً:

- أنا مندهش فعلاً من تحليلك العميق هذا. هل قرأت لفرويد، يونغ وهربرت ماركوزه؟

- مَنْ هؤلاء؟ لم أسمع بهم إلا الآن منك. من هؤلاء؟

- هؤلاء يا سيدتي، ببساطة شديدة وبدون تعقيد نظري، علماء في التحليل النفسي، يعتقدون، لا سيما المؤسس لهذا العلم سيجموند فرويد، بأن للجنس الدور الأساس والمهم والمُوجّه للكثير من تصرفات وأفعال الإنسان السلوكية، ووضعوا تصوراتهم للحياة الجنسية السليمة، والمنحرفة، ودور الإشباع الجنسي في تنظيم وتطوير الشخصية، وتوقفوا عند الكبت الجنسي، وحلّلوا آثاره السلبية على شخصية الإنسان وتعقيداته، ووضعوا النفسي والعصبي. وحينما سمعتك تتحدثين عن علاقة الحب بالجنس ظننتك قد قرأت لهم شيئاً في هذا المجال.

نظرت إليه وهو يشرح، وابتسمت، ثم قالت:

- هل اكتشفت كم أنا بعيدة عن عالمك؟ وأني ساذجة قياساً إليك، وأني أيضاً لست التي يمكن أن تفهمك!

- لا أبداً، على العكس من ذلك، إنك إنسانة مخلصة وصادقة مع نفسك، وتمتلكين الشجاعة للنظر إلى الأشياء، وأن ظروفك ربما هي السبب، وإلا لو كانت قد توفرت لك مصادر أخرى للمعرفة فربما كنت شيئاً آخر.

- أحس بأنني مخنوقة. معك بدأت أنففس. وكم أتمنى أن أكون معك دائماً. لقد فتحت ذهني على أشياء جديدة، منك سمعت بأسماء ومصطلحات لم أسمعها، بل دفعتني لطرح الأسئلة على نفسي، لكنني أعرف بأنني ضيعت الكثير من عمري بقراءة أشياء أغلقت عليّ أفق التفكير. كما لم أقابل مَنْ أستطيع أن أناقشه أو على الأقل يحترم رأيي. حتى أبي لا يأخذني بمأخذ جاد، فأنا ما زلت بالنسبة له ابنته الصغيرة، وهو لا يريد أن أتفتح أكثر، لأنه يخاف علي، لا سيما وأن زوجي في السجن، لذا ليس أمامي سوى تلك الكتب التي شاهدتها. أنا أختنق، ولولاك ربما كنت سأجن دون أن أحس.

- أنت معي. وستكونين معي دائماً.

نظرت إليه بقلق وتساؤل وقالت:

- إنك إنسان غريب. لا أعرف كيف تفكر. ولا أدري ما الذي تقصده بهذا الكلام؟ كيف سأكون معك دائماً؟

في هذه اللحظة بالذات سمعا طرقاً على الباب الخارجي. وقف آدم المحروم ليرى من النافذة فرأى صاحبة المشتمل. خرجت حواء الزاهد إليها مرحبة، بينما ركض الملاك الصغير إلى الخارج أيضاً. وحين دخلت إلى الصلاة سلمت على آدم المحروم، وهي تبرر مجيئها:

- لقد احتجت بعض الأشياء من البيت، فمررت فلم أجد أحداً، ففكرت بأنك من المؤكد ستكون هنا.

ارتبك آدم المحروم قليلاً، وتمنى لو كان حقاً في البيت، لأنه انتبه لنبرة خفية تمسه وتمس حواء في كلامها. فقال لها:

- لقد كنت في البيت طوال الوقت، ولم آتِ إلى هنا إلا قبل نصف ساعة. لم أخرج طوال اليوم من البيت.

أحست المرأة بأنها ربما تسرعت في الكلام، فقالت لتصحيح ما غمزت به، في ما صدر منها قبل ذلك:

- والله صحيح. اليوم الانفجارات هزت بغداد منذ الصباح. الله يستر علينا جميعاً.

- الله يلعن الإرهابيين. علقت حواء الزاهد.

- الله يلعن الذي يسمح لهم بأن يمروا دون حساب. كل مئة متر تجدين نقطة للتفتيش. إذا كيف تمر كل هذه السيارات الملعومة. يا أختي هذه دولة اللصوص والحرامية. هناك أناس منهم وفيهم، أقصد من الحكومة، هم يريدون هذه الفوضى لكي تبقى الناس دائخة بالقتلى والجرحى، وبهمومها ولا تفكر سوى بنجاتها من هذا الموت. اللعنة يجب أن تنصب على هذه الحكومة التي لا تعبأ بأرواح الناس وإنما يتاجرون بدمائهم.

قالت صاحبة المشتمل ذلك وهي تنظر إليهما، بالرغم من معرفتها بالاختلاف الطائفي بينهما. آدم المحروم أكد ما قالته، فقال:

- كلامك صحيح. لولا وجود هؤلاء اللصوص في الحكومة، وهذه النفوس الضعيفة التي تسهل مرور السيارات من أجل المال، ولولا ضعف إدارة البلاد لوجود أناس لا تهمهم حياة العالم وإنما التفكير بالتهب والسلب، لما جرى الذي جرى بنا، والقادم أشد وألعن.

- الله هو الساتر. علقت حواء الزاهد.

- على أي حال حاولت أن آخذ بعض الأشياء، فهل يمكنني ذلك؟

- طبعاً. أكيد. قال آدم المحروم.

- أما تفضل معي؟ أفضل أن أدخل بوجودك.

وبينما همّ هو بالقيام، قالت لها حواء الزاهد:

- اشربي الشاي أولاً، فهو جاهز، ثم نذهب جميعاً، لأننا نريد أن نحمل أواني المطبخ والصحون أيضاً.

لم تجد صاحبة المشتمل سوى أن تنتظر، لتشرب الشاي، وكأنها انتبهت إلى أن حواء الزاهد تعرف غايتها، لا تريدها أن تنفرد به.

المواجهة

بالرغم من مرور ستة أيام على سفر الأب آدم الزاهد إلا أن ابنته حواء لم تفلح في مكالمته؛ هاتفه النقال كان مغلقاً أو خارج نطاق الخدمة، هكذا كان يأتيها صوت فتاة البدالة المسجل.

إيقاع الحياة هو ذاته. تقارب جسدي وسفر في أقاليم اللذة واكتشاف للقرارات المخفية والمحرمة، وحميمية روحية تحت ظلال الرومانسية، وحوارات فكرية ونظرية تتجه نحو اليسار بشكل واضح.

لم تخرج خلال تلك الأيام إلا لشراء الخبز من المخبز القريب أو الخضراوات، أو الذهاب لترتيب المشتل، أو لمجرد تغيير الجو، حيث كانت تترك الصغير يلعب في الصالة، بينما هي تتحاور مع آدم المحروم. وفي الليل كانت تشاركه الفراش. لكن بالرغم من ذلك فقد كانت حواء الزاهد متوترة جداً من صمت والدها المريب، لذا كانت تلوذ إلى الجنس للتخلص من هذا التوتر.

خلال هذه الأيام الستة شعرت حواء المؤمن بأنها قد تغيرت، فهي لم تعد تلك المرأة الخجولة والبسيطة التي يمكن أن تضيع ولا تجد الطريق إلى البيت بسهولة إذا ما ابتعدت عنه كيلو مترًا واحدًا، وإنما صارت تعرف الكثير عن جغرافيا العالم والشعوب، وصارت تعرف بشكل مبسط عن الفلسفة واتجاهاتها؛ المادية والمثالية، وسمعت لأول مرة باسم ماركس وأنجلز ولينين وفهد وسلام عادل، بل وتعرفت بشكل أوسع على أعمال

أدبية ومؤلفين لم تسمع بهم من قبل. عرفت أصل الملكية والعائلة والدولة. صارت تفهم معنى اليمين ومعنى اليسار، ومن أين جاءت التسمية، فقد كان لديها مرشد فكري متحرر وموهوب في تكثيف الأفكار وتبسيط أعقدها، مثل آدم المحروم.

لم تعد تنظر إلى الواقع الذي تعيشه البلاد كما كانت تنظر إليه سابقاً، حيث كانت القطة العمياء، لا ترى شيئاً، ولا يمكنها ذلك حتى لو أرادت. أحست بالشفقة والغبن لأمثال آدم المحروم من اليساريين، أن يكون بلا حول أو قوة، وأنهم تائهون في هذه الفوضى المريبة.

انتبهت إلى أن توترها المستمر تسرب جزء منه إلى نفس آدم المحروم أيضاً. شعرت باستغرابه الصامت لغياب الأب طوال هذه الفترة. لم يكن كذلك خلال الأيام الثلاثة الأولى، لكنها وبعد اليوم الرابع لمحت استغرابه ثم توتره الذي يسعى لإخفائه. مرت ستة أيام وها هم الآن في الليل. وسيدخلون اليوم السابع.

حاول آدم المحروم الاتصال به لمرات عديدة، خلال الأيام الماضية دون علمها في معظم الأحيان، لكن بدون جدوى. كان هو أيضاً قلقاً لكنه كان يحاول ألا يكشف قلقه بشكل واضح أمامها.

أحس آدم المحروم أن حواء ابنة آدم الزاهد تكشف عن قمة قلقها في اللقاء الجسدي الليلي، حين ترحف ببطء إلى فراشه بعد أن ينام صغیرها، حينها كانت تبدأ بحديثها القلق عن سبب صمت والدها وإغلاقه للهاتف النقال، ثم ما إن يحاول تهدأتها ويلتصق بها حتى تشتعل، فيتفجر بركان جسدها، ومعه يتفجر كل توترها النفسي. انتبه إلى أنها كلما كانت قلقة كانت كثافة اللذة لديها عالية، بل انتبه لحالتها النفسية بالتلذذ بالمعانة والألم.

وانتبه إلى أنها هي التي صارت تبادر إلى الحركة والتفاعل، وليس كما كان حالها في الأيام الأولى حيث كان هو يقودها إلى آخر الشوط.

آدم المحروم هذه الليلة ليس على عادته. كان مستلقيًا بهدوء. ترك نفسه وجسده بين يديها، بدأت هي بإثارتها، لم يستجب أول الأمر فأخذت تقوم بأشياء لم يكن يتوقع أن تقوم بها بهذه السرعة، فأثارتها حقًا. لم يجد أمامه سوى أن يفجر عنف رغبته معها، وكأنه كان أيضًا يهرب من توتره النفسي وقلقه، فانتبه إلى أنها تستمتع بالعنف معها أيضًا، بأن يضربها على وركها مثلاً، بأن يعصر نهديه بقوة. ووصلًا إلى ذرى اللذة بكثافة. وحينما همد الجسد، انسحبت بسرعة لتذهب إلى الحمام كي تغتسل.

حين رجعت من الحمام لم تستلق إلى جواره في الفراش. جلست على الكنبه المقابلة للنافذة. استغرب هو ذلك، لكنه عرف بأنها تود أن تتحدث. في ظلمة الصالة سألته بصوت ثابت، محاولة أن تخفضه جهد الإمكان:

- ماذا بك؟ هل بدأت تضجر مني؟

استغرب سؤالها، إذ كان يعتقد بأن لديها شيئًا تود قوله. أجاب على سؤالها بسؤال:

- ماذا بك؟ من أين جاءتك هذه الفكرة اللعينة؟

- جاءتني منك. فأنت لم تكن راغبًا فيّ، لولا ما قمت أنا به لإثارتك لنمت!

ابتسم، لكنها لم تكن ترى ابتسامته وإنما عرفت من نبرة صوته أنه يقول ذلك مرحًا، إذ جاء جوابه:

- يا ليتك تستمرين هكذا، فقد كنت هائلة.

- لا تتهرب من الموضوع بهذا الكلام. لم تكن معي. ماذا بك؟

صمت آدم المحروم للحظات، ثم فجأة أحس برغبة في أن يتخلص من توتره وقلقه، فقد تعب، وعليه أن يكشف لها جانبًا من الحقيقة، فقال بعد صمت لدقيقة تقريبًا:

- عليّ غدًا أن أذهب إلى أهل زوجك، أقصد إلى من يقوم مقام أخي زوجك في المطعم وأسأله عنهما. لماذا تأخرًا إلى هذا الحد. لم يكن اتفاقنا هذا. كان عليهما أن يرجعا بعد ثلاثة أو أربعة أيام.

انتهت لكل كلمة صدرت منه، فسألته بشكل مباغت:

- اتفقت مع من؟

ارتبك قليلًا، لكنها لم ترَ ارتباكها، فقال بعد لحظة:

- لقد اتفقت مع أليك ألا يطوّل سفرته، فأكد لي بأنها لن تستمر لأكثر من ثلاثة أيام وفي اليوم الرابع سيكونان هنا في أقصى الأحوال. بينما غدًا سيكون قد مضى أسبوع على سفرهما. لذا لا بد من التأكد من سلامتهما.

- هل هناك شيء تخبئه يا آدم؟

أحس أن الظلمة قناع يساعد جددًا في إخفاء ارتباكها، وفي مواصلة الحوار، لذلك حاول التماسك أمام هذا الذكاء الحاد الذي لم يتوقعه من حواء أم الملاك. فقال لها:

- ما الذي يمكن أن أخبئه عنك؟

لم تجبه. نهضت فأضاءت المصباح الكهربائي، ورجعت لتجلس في مكانها وهي تقول:

- إنك لا تستطيع أن تكذب. حين لا تقول شيئًا صحيحًا، أو لا تريد أن تفصح عن شيء فأنت غير ماهر فيه لأن وجهك يفضحك مباشرة. ربما هذا الأمر جيد لأنك إنسان طيب ومستقيم ولا تعرف الكذب، لكن من ناحية

أخرى يدفعك لأن ترتبك حينما تريد إخفاء شيء. لذا أريد أن أرى ذلك على وجهك في النور وأنت تتحدث. وها أنا أسألك السؤال نفسه مرة أخرى: هل هناك شيء تخفيه عني؟ أجبني لكن انظر في وجهي رجاءاً!

فكر آدم المحروم سريعاً بما يجب أن يقوله لها، بينما هو يراها تتعذب قلقاً على أبيها، لكن ماذا يقول لها؟ فكر بأن يقول لها وليكن ما يكون، لكن عليه أن يكسب بعض الوقت ليفكر بما سيقوله، ليحاول تأجيل ذلك إلى الصبح على الأقل كي يتجنب ردود فعلها، فهو لا يعرف كيف ستتصرف إذا ما سمعت بالقصة كاملة، بأن زوجها قد مات، لذا نظر إليها وقال لها:

- اسمعيني جيداً يا حواء. ربما ما ستسمعيه مني يزعجك. أنا أعرف شيئاً، وقد أخبرني به أبوك قبل سفره، ودفعني للقسم بأغلظ الإيمان ألا أخبرك مهما حصلت من أمور إلى أن يأتي هو خلال ثلاثة أيام أو أربعة ليخبرك بنفسه. لكنه تأخر وها نحن قد دخلنا فجر اليوم السابع. وعلي أن أذهب غداً لأستفسر، فإن لم يأت غداً سأخبرك. لكن أعطني مهلة إلى الغد ربما سيأتي غداً ويخبرك بنفسه.

أحس أنها كانت تسمع ليس بأذنيها فقط وإنما بكل حواسها ما قاله كلمة فكلمة. نظرت إليه وسألته سؤالاً واضحاً:

- ماذا تعرف يا آدم؟ ولماذا لم يخبرني أبي بما لديه؟
- لا أعرف. أراد هو بنفسه أن يخبرك. قلت له ليخبرك قبل أن يسافر، فقال: لا، سأخبرها أنا حينما أرجع. وأنت تعرفين علاقتي بأبيك، فأنا أحترمه جداً، وحين طلب مني ألا أخبرك، وأجبرني على القسم، فلم يكن أمامي أن أخالفه؛ لذا أرجو أن تفهمي وضعي. إذن، إلى العصر، إذا لم يأت سأخبرك. اتفقنا.
صمتت لحظات ثم قالت وهي تنهض متجهة إلى غرفة نومها:

- اتفقنا. لكن لحد العصر. بعدها عليك أن تخبرني وأنا بنفسني سأشرح لوالدي بأني ضغطت عليك جدًّا من أجل أن تقول لي.

- اتفقنا.

- إذن تصبح على خير.

- وأنت من أهله. تصبحين على خير.

وقبل أن تغادر الصلاة أطفأت المصباح. فغرقت الصلاة في الظلام ثانية. ظل آدم المحروم يفكر في الوضع الذي وجد نفسه فيه، والورطة التي هو فيها، كيف سيخبرها بذلك؟ لكن في الوقت نفسه كان قلقًا بشكل حقيقي بسبب تأخر الأب آدم الزاهد، إذ لم يجد أي تفسير يمكن أن يبرر هذا الغياب. ظل يفكر في الطريقة التي يمكنه أن يخبر حواء عبرها. وأخذ يضع الاحتمالات حول ردود فعلها. لم يستطع أن ينام تلك الليلة حتى اقترب الفجر.

حين دخلت هي غرفتها وألقت نفسها على السرير إلى جانب ابنها الغارق في نومه البريء أخذت تفكر في المعلومات التي يعرفها آدم المحروم ولا تعلمها هي، وسألت نفسها كيف أن والدها قد أبلغه أشياء تخص حياته وحياتها بينما لم يخبرها هي عن أي شيء، لماذا يا ترى؟ ولماذا بدا لها هو قلقًا جدًّا لغياب أبيها؟ ولماذا قرر الانتظار لحين العصر؟ ما معنى ذلك؟

ظلت الأسئلة تنهال عليها وتنبعث من منطقة مجهولة في أعماقها إلى أن تعبّت من التفكير، وغفت دون رغبة في النوم.

نهضت حواء الزاهد مرعوبة من نومها على صرخات ابنها وهو يقول لها بقلق بريء:

- ماما. ماما. عمو ما موجود في البيت.

نهضت من السرير بسرعة. كانت منهكة من الأسئلة والتفكير المستمر وأحست أنها لم تنم كفاية. مضت بسرعة إلى الصالة، فوجدت الفراش مطويًا. داهمها حزن مفاجئ لرؤية المكان خاليًا. أحست بتأنيب ضمير مباشرة، وفكرت ربما أنها ضغطت عليه كثيرًا ليلة أمس أو بالأحرى فجرًا، ووجد نفسه محرجًا أمامها فقرر الاختفاء عن الأنظار، لكن إلى متى؟ هل سيختفي بشكل نهائي؟ لكن كان عليه أيضًا أن يتفهم دوافعها من وراء كل ذلك الضغط، أن يتفهم قلقها على أبيها؟ لم تجد تفسيرًا منطقيًا لمغادرته البيت في هذا الوقت المبكر دون أن يقول شيئًا، ودون أن يشرب الشاي ويأكل لقمة على الأقل.

نظرت إلى الساعة الحائطية فوجدتها تشير إلى التاسعة صباحًا. ربما نهض مبكرًا، ولما وجد أنها ما تزال نائمة خرج دون أن يزعج أحدًا. ليس أمامها سوى الانتظار. فكرت أن تتصل به تليفونيًا. رجعت إلى غرفة النوم وأخذت هاتفها النقال وبدأت تطلب رقمه. سمعت صوت فتاة البدالة يؤكد بأن الهاتف مغلق أو خارج نطاق الخدمة. أحست بحرق خفي لأنه قد أغلق هاتفه.

مضت إلى المطبخ وأعدت الفطور لابنها. أحست بانقباض في صدرها، وأنها لو استمرت هكذا فستصاب بصداع قاتل، لذا فكرت بأن أفضل طريقة للتخلص من هذا الوضع هو النوم.

مضت إلى غرفة نومها وألقت بنفسها على السرير، لكنها لم تستطع النوم. أرادت أن تنام قليلًا لتستريح من عناء هذا القلق الذي أخذ ينمو بسرعة مزعجة. لكنها لم تستطع أن تنام ولو لدقائق بالرغم من رغبتها الحقيقية في النوم.

وبينما هي غارقة في لجة أفكارها الفلقة، رن هاتفها النقال. نهضت بسرعة فقرأت اسمه على شاشة الهاتف الصغيرة، أحست بنشاط مفاجئ

ودفق من القوة النفسية واليقظة، وردت بما يشبه الصباح:

- ألو.

فجاء صوته حنوناً عبر الهاتف مشوباً بشيء من التوتر:

- صباح الخير.

- صباح الخير. أين أنت؟ لماذا تفعل هذا بي؟

انتبه لنبرة القلق والحنان والعتاب الذي يشي بقوة الحب في صوتها، فقال لها بما يشبه الاعتذار:

- الحقيقة لم أستطع النوم، بقيت صاحياً إلى الصباح، ولم أرد أن أوقظك لأنني أحسست أنك لم تأخذي كفايتك من النوم، ليليال متعددة. لذا فكرت بأن أخرج دون أن أوقظك. لقد جئت إلى المطعم العائد لنسييكم لأسأل هنا إن كانوا يعرفون شيئاً، لكنني وجدت المطعم مقفلاً.

- هل ستأتي إلى البيت؟ عموماً لا تأكل خارج البيت. اتفقنا.

- لا داعي لذلك، يمكنني أن أكل أي شيء في المطاعم المنتشرة هنا.

- انتبه لحالك فالوضع غير آمن.

- لا تخافي. سأنتبه.

- سأكون بالانتظار.

- إلى اللقاء إذن. مع السلامة حالياً.

حين أغلقت جهاز الهاتف النقال. أحسْتُ بتدفق تيارات الحنان والدفع في أعماقها. التفتت إلى ابنها الذي كان ينظر إليها وكأنه ينتظر أن تشرح له مضمون الاتصال. لم تجد أمامها سوى أن تحمله محتضنة إياه إلى صدرها، غامرة وجهه وعينييه بالقبل الدافئة والحنونة، بينما كان الملاك الصغير يطلق كركاته البريئة.

فكر آدم المحروم أن يعود إلى البيت. تجول في شارع السعدون. دخل إلى إحدى المكتبات. أخذ يتصفح العناوين الجديدة. تجول في أقسام الشعر والرواية، والفلسفة، والعلوم السياسية. أراد كتباً مفيدة ومتنوعة ومبسطة لحبيته، لكنه احتار في الشراء، لأنه يعرف أن والدها لا يقبل أن تقرأ الروايات. فكّر أن يشتري تلك الكتب ويتركها في مكتبته، وهي تأتي لتقرأها عنده، ما دام البيت قريباً جداً. أخذ مجموعة من الكتب: فصول من تاريخ الإسلام السياسي لهادي العلوي، اليمين واليسار في الإسلام لأحمد عباس صالح، تاريخ الحركات السرية في الإسلام لبندلي جوزي، شخصيات قلقة في الإسلام لعبد الرحمن بدوي، وروايتي أنا كارنينا لتولستوي، ومدام بوفاري لفلوبير. وعشيق الليدي شاترلي للورنس، ومرتفعات وذرينغ لأيميلي برونتي. وحين وصل إلى البيت كانت الساعة قد تجاوزت الثانية بعد الظهر.

حواء الزاهد كانت حانقة لتأخره، وفسّرت الأمر بأنه يتعمد التأخر، لكنها ما إن رأت أنه وهو يحمل كيس الكتب حتى شعرت بأن كل شيء من حنقها قد تلاشى. فكرت مع نفسها للحظة: كم أحب هذا الإنسان، كيف أعيش بدونه؟ ماذا لو خرج زوجي من السجن؟ ما الذي يجري معي؟ أحس أنه ملكي، ماذا لو تخلى هو عني؟ لا. لا. هذا غير ممكن، أحسه يحبني جداً. وأنا لا أستطيع تصور الحياة بدونه!



حين دخل الصالة ووضع كيس الكتب جانباً، أخذ الصغير إلى أحضانه وقبّله. جلست قبالة هي وكأنها تنتظر أن يخبرها. عرف هو ما تنتظره، فبدأ يسحب الكتب من الكيس كتاباً كتاباً. ومع كل كتاب كان يتحدث قليلاً معرفاً بالمؤلف وبموضوع الكتاب. انبهرت بالكتب، فكل كتاب كانت له فرحته الخاصة ولهفة القراءة، إلا أنه قال لها:

- لا أدري ماذا سيكون موقف الوالد حينما سيرى هذه الكتب؟ أنا متأكد من أنه لن يقبل أن تقرأها، لأنها كتب تنسف كل ما بنى هو عقيدته أو ذاكرته التاريخية عليه.

- وماذا سأفعل؟ كيف سأقرأها إذن؟ قالت هي تسأل.

- ستكون هذه الكتب محفوظة عندي. ستأتين عندي لقراءتها كتابًا كتابًا، لأنه سيتنبه لو بقيت كلها لديك. وحتى الكتاب الذي تأخذه للقراءة يجب الاحتفاظ به في غرفتك بحيث لا تقع عينه عليه، بل ويمكنك أن تقرأ كل هذه الكتب عندي. ثم لا تنسي بأن لديك الآن مخطوطة (مناهة حواء وادي الظلمات) وهي رواية صديقي المغدور آدم البغدادي. إلى جانب مخطوطاته الأخرى. بالنسبة لي سأقرأ بقية المخطوطات، ويمكن بعد أن تنتهي من قراءة المخطوطة أن تواصلني قراءة بقية المخطوطات.

- ربما سيكون من الأفضل، إذن، أن تكون جميع الكتب لديك، إلى أن أنتهي من قراءة المخطوطات.

- سيكون هذا أفضل.

انتبه هو إلى أنه لم يحمل معه شيئًا للصغير الذي كان ينتظره أن يخرج شيئًا من الكيس ليقدمه له، فكل شيء كان للأم. التفت هو إلى الصغير وقال باسمًا وكأنه يعتذر:

- حبيبي. بعد الغداء. عند العصر سأخذك لأشتري لك ما تشتهي من السوق القريب، هذه الكتب لماما. لكن بعد الغداء سنذهب أنا وأنت فقط لأشتري لك ما تشاء. اتفقنا.

هز الطفل رأسه مبتسمًا ومستبشرًا.

بعد أن انتهوا من وجبة الغداء سعى هو جاهداً للخروج مع الصغير وفي نفسه أن يكسب بعض الوقت كي لا يخبرها بما وعدّها أن يخبرها به عصر هذا اليوم، فعسى أن يصل الأب ويجنبه هذا الموقف، بينما كانت هي تتمنى أن يمضي الوقت سريعاً كي يصير العصر ويتحتم عليه الإدلاء بما يعرفه عن هذه السفرة الغامضة لأبيها.

ما إن انتهوا من شرب الشاي حتى نهض آدم المحروم مشيراً إلى الصغير بأن يذهب معه، قائلاً له بحب:

- قم يا حبيبي. دعنا نذهب إلى السوق معاً لأشتري لك ما تحب.

نظرت هي إليه نظرة استفهام ممزوج بالرضى، فهي تشعر بسعادة خفية حينما تراه يغمر ابنها بالحنان الأبوي المفقود، لكن بالرغم من ذلك كانت تتمنى لو اقترح أن تذهب معهما أيضاً، فهي حينما تكون معه ومع ابنها تشعر وكأنهم عائلة، وأنه زوجها، وهي تخصه هو لا غيره. لكنه لم يدعها لأنه يتجنب الحديث معها الآن، لا سيما وأن الوقت يمضي سريعاً.

خرجوا من البيت. ظلت هي وحدها مع نفسها. جلست على الكنية في الصالة وأخذت تقلب الكتب التي أهداها هولها. لم تكن تعرف بأي الكتب تبدأ، لا سيما وهو قد طلب منها قراءة المخطوطة. فتحت حقيبته الجلدية وأخرجت مخطوطة "متاهة حواء وادي الظلمات" منها. قرأت في الصفحة الرئيسة والمقدمة:

متاهة حواء

وادي الظلمات

"إني أفضلُ الحيوان على الأحق، وأفضلُ الرجل الرقيق الشعور على الرجل المرهف العقل، وأفضل المرأة الحنون على المرأة الذكية، وأفضل السداجة على التصنع، وأفضل القسوة على التملق، وأفضل بل وأحب قبل كل شيء وفوق كل

شيء البساطة والطيبة، ولا سيما الطيبة؛ فهي الفضيلة التي يجب أن يتحلى بها الجميع، فالطيبة هي محبة الروح، وبهذه الفضيلة نحب كل ما يتألم وكل ما هو تعيس.

ستندال، من كتاب (حياة روسيني)

فكرت مع نفسها عن معنى (روسيني). ماذا يعني (حياة روسيني). لقد حدثها آدم المحروم عن هذا الكاتب الذي اسمه ستندال. أعجبت بالنص الذي استشهد به المؤلف. فهي فعلاً تفضل الرجل رقيق الشعور على الرجل مرهف العقل. كما أنها فعلاً تضع الطيبة فوق جميع الفضائل. الطيبة هي ينبوع الرحمة. وخلال ثوان وبلا إرادة منها فكّرت في آدم المحروم، وقالت في نفسها إنه رقيق الشعور وفي نفس الوقت مرهف العقل وهو طيب جداً. وبدأت بقراءة "متاهة حواء وادي الظلمات"، للكاتب القليل آدم البغدادي.

اندمجت في القراءة بلهفة كبيرة. هي لم تقرأ في حياتها أي رواية حديثة في كتاب، لذا أعجبتها القصة والوصف الدقيق والتفصيلي للأشياء، فكأنها ترى الأشياء بعين عقلها، ومن شدة اندماجها لم تنتبه لمرور الوقت، بل ولم يطرأ غيابهما على بالها.

مرت أكثر من ساعتين على خروج آدم المحروم والصغير، وكانت قد قرأت عدة فصول من المخطوطة. انتهت لمرور الوقت حينما بدأ الظلام يزحف على الصالة من النافذة، وحينما سمعت المولد الكهربائي الذي يغطي بيوت المنطقة بدأ بالهدير، قامت بهدوء فأضاءت الغرفة بنور المصباح الكهربائي. انتهت إلى أنهما قد تأخرا، لكنها عادت لتواصل القراءة. أعجبتها الرواية وأحست أن هذه المرأة التي اسمها حواء المؤمن تائهة في عالم غريب بالنسبة لها. تأسفت أنها لم تعرف ما كان في رواية "متاهة آدم

المرأة المجهولة“، لأن هناك ملاحظات من قبل المؤلف تشير إلى أن هذه الرواية “متاهة حواء” هي امتداد لتلك الرواية.

فجأة، اهتزت الدار والمنطقة كلها من شدة انفجار هائل، قريب جداً. وبعد لحظات بدأ صوت إطلاق الرصاص يدوي، وبعد دقائق بدأت صافرات سيارات الإسعاف تسمع من بعيد.

انكمش قلبها. وضعت أوراق المخطوطة جانباً. أرادت أن تنهض وتخرج إلى حيث الباب الخارجي لتعرف شيئاً من السابلة عن مصدر الانفجارات، لكنها أحست بتشنج في عضلات فخذيها، بحيث لم تستطع الوقوف بشكل مباشر وإنما احتاجت لبعض الوقت كي تنهض بشكل كامل وتبدأ بالحركة. داهمها رعب مفاجئ على ابنها وعلى آدم المحروم، وأخذت تسأل نفسها بقلق حارق: أين هما الآن؟

حين وصلت الباب الخارجي أطلت من فتحته قليلاً ونظرت باتجاه السوق. تعالى صوت صافرات الإنذار التي تطلقها سيارات الإسعاف، فعرفت بأن السيارات قد وصلت إلى مكان الانفجار. رأت بعض نساء الجيران يتجهن إلى مكان الانفجار. سمعت إحدى النساء وهي تولول مرعوبة، وتقول:

- يمه. أولادي. كلهم خارج البيت. كلهم. ثلاثهم. أولادي. أولادي.

كانت المرأة تولول بالرغم من أنها لم تكن متأكدة من أي شيء قد حدث لأبنائها، إلا أن معرفتها بأن أولادها يجلسون في المقهى القريب الموجود عند رأس الشارع، وأن الانفجار حدث هناك تقريباً جعلها مرعوبة على حياة أبنائها. لا تعرف حواء الزاهد كيف وجدت نفسها، لا شعورياً، ترجع بسرعة إلى داخل الدار لتضع عباءتها السوداء على رأسها وتخرج مثل بقية نساء الشارع اللاتي كن يُسرعن الخطى مرعوبات إلى السوق القريب.

ليل بهيم

حين وصلت حواء الزاهد إلى منطقة الانفجار رأت المكان مزدحمًا بالنساء والرجال الباحثين عن أفراد عوائلهم، أحببتهم، ومواطني منطقتهم، ممن يتوقعون وجودهم في المكان. كان المكان مسلخًا بشريًا كارثيًا. هنا حيث رائحة الدخان الخائقة ممتزجة برائحة المطاط المحترق والذائب، ورائحة حديد السيارات المحترقة وأصباغها ممتزجًا برائحة المقاعد الصوفية المحترقة، ورائحة المواد الكيميائية والغازات المستخدمة في إطفاء الحرائق ممتزجًا برائحة عفونة المجاري التي تفجرت بفعل قوة الانفجار.

رائحة اللحم البشري المحترق ننته. رائحة الأجساد التي احترقت داخل السيارات تطلق عفونة مريعة. رأت سيارة تشتعل والناس داخلها ولا أحد يقترب منها. وأخرى لا تزال تشتعل ورجال الإطفاء يطلقون الغاز عليها. حاول أحدهم أن يسحب الشخص الجالس خلف المقعد في السيارة التي يتم إطفاء حريقها. لم يستطع، بل كاد يسقط لأن ذراع الشخص المتفحم داخل السيارة انخلعت عن الجسد بيده، ففرع الرجل المنقذ وألقى بالذراع المحترقة وهروا هاربًا. الجثة التي في السيارة انفجرت وتداعت رمادًا على بعضها وفي مكانها. ثمة جثة متفحمة قرب إحدى السيارات يبدو أنها لامرأة تحضن طفلًا متفحمًا معها أيضًا. ركض رجال الإطفاء إلى السيارة الأخرى التي لا تزال تشتعل!

رائحة الدم الزنخة تزكم الأنوف والنفوس وتبعث على الغثيان. الأعضاء البشرية المتمزقة متناثرة في أرجاء المكان بشكل فوضوي، أرجل مهشمة،

أكف ممزقة، سيقان كاملة تنزف دمًا بالرغم من أنها تلبس الأحذية. جثث متفحمة تبعث رائحة نتنه!

رأت حواء الزاهد كيف أن هذا المكان لم يعد شارعًا عامًا، وملتقى للمطاعم والمقاهي، وسوقًا عامة على الرصيف، وإنما هو الآن مسلخ بشري حقيقي أسوأ من مسالخ الإبل، فهناك بقايا جلدة وجه إنسان مسلوخة عن الجمجمة، وهناك فروات رأس، جلد وعليه بقايا شعر، منزوعة عن رؤوس أصحابها، هنا تتناثر الأحشاء البشرية التي اختلط برازها بدمها وشحمها المهروس، وبقايا الأدمغة المسحوقة والمتناثرة مثل مخاط أوقيء، وبقايا الوجوه والرؤوس والجماجم المهروسة والفارغة، وبقايا الأجساد البشرية، وأنصاف الأجساد البشرية التي بدون أطراف أو بدون رؤوس.

كانت حواء تنظر بعينين مفتوحتين على آخرهما. رأت خليطًا عجيبًا من حطام المخازن، والدكاكين، والمقاهي، ومحلات العطور، وبساطيات بائعي القمصان، وكاسيتات الفيديو المستنسخة، والعطور الرخيصة. كل هذه الفوضى امتزجت بصراخ الجرحى، وصفارات سيارات الإسعاف وعويل بعض النساء، وصراخ رجال الحرس الوطني، ورجال الإسعاف، ورجال إطفاء الحرائق، مع الضوضاء التي تصدر عن تراحم الناس الذين صار هذا المشهد جزءًا من حياتهم اليومية.

لم تشهد حواء الزاهد في حياتها مشهدًا حيًا ومباشرًا للخراب الإنساني، وانفلات العنف الوحشي مثل هذا المشهد.

راودتها رغبة غريبة في أن تحصي عدد الجثث، لكنها لم تستطع لأن سيارات الإسعاف وسيارات الحمولة أيضًا كانت تنقل الجثث والجرحى. كل شيء كان يجري سريعًا. بعض سيارات الإسعاف كانت قد مدت خراطيمها لتطفئ النيران وتغسل الدماء، وكأنها تريد أن تخفي معالم الجريمة أو تخفف من هولها للناظر.

أحست بانقباض في صدرها وارتجاف في قلبها. وبدون إرادة منها بدأت تبحث عن ابنها وعن حبيبها آدم المحروم. لم تكن تعرف بأن الكثير من الجثث والجرحى كان قد تم نقلها إلى المستشفيات القريبة. أخذت تحدد في بقايا الجثث التي كان من بينها جثث لأطفال. التفتت إلى جهة ما، فرأت بعض رجال الإسعاف يجمعون في كيس نايلون أسود بقايا الأدمغة المتناثرة والأحشاء المنتزعة، والأكف أو الأصابع، أو الأقدام المقطوعة، لينظفوا المكان منها.

رأت بعض النساء اللواتي افترشن الأرض وبدأن بالنذب والنواح والدعاء على الظالم، وعلى الحكومة والإرهابيين معًا. فتشت في المكان عن أي أثر يشي بوجود ابنها وآدم المحروم فلم تجد، وفتشت في وجوه الموجودين فلم تعثر عليهما. أين هما إذن؟

وكلما استمر وجودها في المكان أكثر، ازداد قلقها وإحساسها بالانهيار الجسدي. كانت هي تتمنى ألا تراهما في هذا المكان، لأنه لا أحد كان في هذا المكان ونجا.

حين تعبت من البحث، وبدأ المكان يخلو من الزحام، حيث ذهبت سيارات الإسعاف بالجرحى وبالجثث وبقايا الجثث، وانسحبت سيارات الشرطة والأمن، ووصلت سيارات تابعة للحكومة بنقل حطام السيارات، ظلت هي واقفة كالصنم في مكانها الذي كانت تحدد منه إلى الخراب.

كانت تنظر إلى من تبقى من ذلك الحشد. انتبهت لوجود بعض الشباب المراهقين الذين أخذ أحدهم يتحدث عن الانفجار وكأنه كان في تلك اللحظة قرب السيارة. وبالرغم من أنها مع نفسها لم تصدق روايته للانفجار إلا أن هاجسًا راودها كي تسأله إن كان قد شاهد رجلًا وطفلاً كانا في السوق عندما حدث الانفجار.

حين همت بالعودة إلى البيت أحست بتشنج وألم في عضلات فخذيها. كان ما يشبه الشلل قد أعاقها، وحين تحركت شعرت بألم في أعصاب فخذيها، لكنها ما إن استمرت قليلاً في المشي حتى تلاشى الألم.

مشت بهدوء وكأنها مريضة، وكان الغم يقبض على صدرها. كانت كل خطوة تؤذيها، لكنها كانت تشعر بشيء من التحسن كلما ابتعدت عن المكان، وكأن كل شيء صار خلفها. حين وصلت البيت وأغلقت الباب، انتبهت إلى أنها لم تأخذ جهاز هاتفها النقال حينما خرجت، لذا ما إن دخلت الصالة حتى هرعت مسرعة إلى الهاتف النقال، لكن الخيبة واجهتها حينما لم تجد أي مكالمات فائتة.

أخذت الهاتف النقال وبدأت تطلب رقم هاتف آدم المحروم. استبشرت حينما بدأ الهاتف يرن. ظل الهاتف يرن وما من جواب، إلى أن انتهت الفترة المخصصة لرنين المكالمات. اتصلت دون انقطاع تقريباً، لكن لا أحد يجيب، فازداد قلقها وتوترها.

جلست على إحدى الكنبات وأخذت الريموت كونترول فبدأت شاشة التلفزيون تبث الصور، فأخذت تنتقل بين القنوات الفضائية، فقرأت الشريط العاجل عن الانفجار على شاشات معظم الفضائيات العراقية، لكنها استغربت بأن القنوات تختلف في تقدير أعداد الضحايا، منهما من ذكرت أن الشهداء خمسون والجرحى ثمانون، وأخرى ذكرت بأن الضحايا من الشهداء والجرحى بلغوا الأربعين، أما قناة الحكومة فلم تذكر أي شيء عن الانفجار، وإنما كانت تعيد بث لقاء مع رجل دين يتحدث فيه عن الكتب في مكتبته. وبلا وعي انتقلت إلى القناة التي شاهدت فيها تلك الحلقة من المسلسل التركي، فانتبهت إلى أن المسلسل قد بدأت للتو. لم تستطع أن تشاهد المسلسل. أحست أنها تكاد تختنق بالكامل، ولا تستطيع التنفس، فخرجت إلى الحديقة، لكن الجو كان خانقاً جداً، فرائحة الحرائق كانت قد عمت المنطقة كلها.

لم تستطع أن تبقى طويلاً في الحديقة. مشت إلى الباب الخارجي وأطلت برأسها إلى الشارع تلتفت إلى جانبيه عسى أن تراهما مقبلين. لكن دون جدوى. لم تكن تعرف ماذا تفعل. فجأة، استيقظت في أعماقها مشاعر التأنيب، إذ أحست بأنها السبب الذي دفعه للخروج من البيت. أخذت تفكر بأبيها مرة أخرى، فحاولت الاتصال به لكن هاتفه كان مغلقاً.

وفي فوضى مشاعرها وأفكارها برقت في ذهنها فكرة أفلقتها جدّاً، فماذا لو كان والدها قد ذهب إلى البصرة ليصحب زوجها الذي سيخرج، فربما كان يحتاج لكفيل أو أي شيء من هذا القبيل، وأنه أراد أن يفاжئها بدخوله مع زوجها؟ لأول مرة بدأت تواجه نفسها وتحقق بعينها الداخلية للوضع الذي هي فيه. بدأت تقارن بين زوجها وبين آدم المحروم. أحست بالرعب لمجرد التفكير في ذلك، فماذا لو أن زوجها فعلاً في طريقه إلى البيت؟ كيف ستقرر؟ وماذا تختار؟ وكيف ستصرف؟ ألن ينتبه زوجها لعلاقتها بآدم المحروم؟ كيف ستعيش مع زوجها؟ هل ستستمر في علاقتها مع آدم المحروم؟ كيف سيكون رد فعله إذا ما عرف بتواجهه في البيت، ومبيته عندهم، ألا يشك؟ هل ستستمر معه في علاقة جسدية وهي قد عرفت معنى الجنس والمتعة واللذة مع آدم المحروم؟ هل ستطلب الطلاق؟ عند فكرة الطلاق أحست بأنها ترتجف من الخوف، وثمة ارتعاشة تسري في جسدها وخفقان قلبها بدأ يعلو نبضه، حتى وكأنها صارت تسمع دقاته. وبالرغم من أنها تعرف بأن زوجها اتهم ظلمًا، وأنها تتمنى له أن يخرج من ذلك السجن المقيت والمرعب، إلا أنها أحست بأمينة آثمة، في ألا يتحقق ذلك الآن على الأقل.

مرت ساعة أخرى، تصاعد خلالها توتر حواء الزاهد النفسي كثيرًا. صارت عصبية. وجهها توتر ونظراتها لا تستقر على شيء محدد. كانت

تحس نفسها عدوانية مثل لبوة شرسة في قفص، لا تدري ماذا تفعل ولا إلى أين تتجه. كانت شبه منهارة من الغضب والعصبية. فجأة، انتبعت من خلال النافذة المطلة على الحديقة بأن الباب الخارجي يُفتح ورأت آدم المحروم داخلاً، حاملاً الملاك الصغير على صدره، والذي كان يغط في النوم. قفزت من مكانها وفتحت الباب الداخلي. تفجر غضبها. كانت عنيفة جداً، وبالرغم من أنها حاولت السيطرة على نفسها إلا أنها لم تستطع إيقاف غضبها العارم وانفجاره في وجهه حين قالت له:

- أين كنتما؟ لماذا تفعل هذا بي؟ كم أنت قاس!

نظر هو إليها بعتاب لهذا الاستقبال الذي قابلته به. دخل إلى الصالة دون أن يقول شيئاً. صرخت به بعصبية:

- يجب أن تجينني. أنا أتحدث معك. أين كنتما؟ لماذا لم تتصل بي؟

لم يجبها أيضاً، وإنما توجه إلى غرفة نومها مع الصغير ووضع الصغير على السرير العريض. وخرج إلى الصالة. تبعته. كانت تعرف أنها قد تجاوزت حدود علاقتهما عند صراخها في وجهه بهذا العنف، لكنها أحسّت بأنه من غير الممكن أن تتراجع. غضب هو من نبرتها العالية. فانتقلت غاضبة إلى موضوع آخر، إذ سألته:

- لقد وعدتني أن تخبرني لماذا سافر والدي لكنك تهربت.

التفت إليها غاضباً. وقال لها بصوت جاف:

- أتريد أن تعرفي؟ إذن اسمعي السبب: أبوك سافر لأن زوجك مات في السجن!

ما إن نطق آدم المحروم بهذه الجملة حتى أحس بأنه أخطأ. لم يكن عليه أن يقول لها، وليس بهذه الطريقة اللئيمة في كل الأحوال. في نفس الوقت استغرب ردة فعلها التي لم يكن يتوقعها، إذ قالت بغضب:

- ماذا تقول؟ أي إنسان أنت؟ مضت أيام وأنت تعرف ذلك، وخلال كل هذه الأيام تنام معي ولا تقول لي أي كلمة عن ذلك؟!

وبدون أن تعرف من أين هطلت عيناها بالدمع. أحست بشعور بشع، أحست بالعار. كيف لم تفهم هذا الأمر؟ صمتت للحظات ثم رفعت رأسها إليه وفي عينيها غضب هائل. قالت وفي صوتها نبرة حنق ظاهر:

- أرجوك اخرج من هنا. عليك أن تنام في المشتمل الليلة!

نظر إليها للحظات، ودون أن يقول شيئاً غادر الصالة. ظلت هي واقفة لا تعرف كيف قالت له ذلك. أحسّت أنها اقترفت أكبر خطأ في حياتها. سمعت اصطفاق الباب وهو يخرج. ركضت مسرعة ودخلت إلى غرفة الحمام. أغلقت الباب على نفسها ووقفت تحت دش الماء بكامل ملابسها وفتحته على آخره. لم تكن تستطيع البكاء والنحيب بصوت عال، كي لا توظف ابنها النائم.

كانت تبكي بصمت. وتضرب على وجهها بيديها. أخذت تفكر في نفسها وتطلق الشتائم على نفسها بصمت، فكرت كم هي فاسقة داعرة، بينما كان زوجها يعذب في السجن كانت هي تزني وتمارس الجنس بشكل داعر! كم هي مهتكة وفاسقة، وكم كان هو فاسق وعديم الأخلاق! كيف تجرأ على ذلك! لو لم يكن يعرف شيئاً لغفرت له كل ما فعله معها، لكن أن يعرف أن زوجها مات تحت التعذيب في سجن بوكا، وأن أباهما سافر إلى هناك مع أحد أخوته لإحضار الجثة، بينما كان هو يمارس معها مستغلاً تعطشها للحب وجوعها للجنس! لكنه ليس المذنب الوحيد. هي أيضاً. هي أيضاً فاسقة. فلولا قبولها لما صار الذي صار!

ظلت تحت الماء لوقت طويل. جلست في البانيو. نزعَتْ عنها ثيابها. ظلت تبكي لفترة طويلة، إلى أن تعبت من البكاء. انتبهت إلى أن ثيابها سدت

مجرى نزول الماء فامتلاً البانيو بالماء. حركت مقبض الدش فتوقف الماء. ظلت جالسة في الماء الدافئ. هدأت أعصابها. فهمت الآن لماذا لا يجيها والدها؟ ولماذا أغلق التليفون؟ خلال جلستها تلك في البانيو راجعت مسيرة حياتها. فجأة راودها إحساس بأنها تخففت من شيء كان يجثم على صدرها، لم تشأ أن تفكر في أنها تحررت، لكن هذا الإحساس راودها بالرغم من ذلك! راودتها أحاسيس متضاربة، هل ترى كان طردها لآدم المحروم من البيت صحيحاً، أو أنها استعجلت ذلك؟ لماذا كانت قاسية معه هكذا؟ إنه يحبها وهي متأكدة من ذلك، وهي تحبه أيضاً. بل إنها ربما تحبه أكثر مما هو يحبها. كما أن ابنها يحبه أيضاً وهو يحب ابنها الصغير، فلماذا تصرفت معه هكذا؟ تذكرت أنه قال لها بأنه يريد أن يتزوجها. لقد فهمت قصده الآن، لأنه كان يعرف أنها صارت أرملة! انتبهت إلى أنها تفكر فيه بينما سمعت لثوها خبر موت زوجها، هل هي إنسانة سيئة لهذه الدرجة؟

لم تكن تعرف ماذا تفعل. ظلت جالسة في البانيو لساعات حتى أحست بأن الماء صار باردًا. كان رأسها يضحج بالأفكار. كانت متعبة من البكاء وجسدها مسترخياً من المتعة. نهضت بهدوء عارية، وفتحت الماء الدافئ على نفسها. بسملت تحت الماء ثلاث مرات. وخرجت من البانيو. رفعت الثياب المتكدسة فيه فانساب الماء من فتحة في طرفه. وبهدوء فتحت الباب متجهة لغرفة النوم المظلمة. توجهت للخزانة وأخرجت ثوباً طويلاً، وسروالاً، وبلوزة سوداء.

بعد أن ارتدت ثيابها، أشعلت مصباحاً صغيراً على جانب السرير، فأضاءت الغرفة بضوء شاحب. أخذت سجادة الصلاة عن الطاولة في جانب الغرفة، وأخذت تصلي لروح زوجها. انتبهت أنها منذ أن بدأت علاقتها مع آدم المحروم، تركت الصلاة. ففي الأيام الأولى كانت تقيمها ثم تقلصت،

ومنذ أن قبلها أول مرة أحست أنها ضائعة، ولا فائدة من ذلك، ثم تركت الصلاة. لكنها الآن تحس برغبة قوية في أن تصلي لروح زوجها.

أثناء صلاتها كانت الأفكار تتقاذفها هنا وهناك. لماذا تأخر والدها؟ أين سيكون الدفن؟ وأين ستكون الفاتحة؟ هل ستكون هنا في هذا البيت أم عند أهله وأخوته؟ ولماذا لم يأت أي من أهل زوجها إليها ليخبرها بذلك؟ وكيف عرفوا بالخبر، بينما هي زوجته لم يبلغها أحد؟ وفي كل مرة كانت تتوه في عدد الركعات. ظلت تصلي لروح زوجها حتى الساعات الأولى من الفجر. وأخيرًا استلقت على السرير محتضنة ابنها، مغرورة العينين بالدمع على مصير هذا الطفل الصغير الذي لم يعرف أباه وتيتم وهو في صغره. شعرت بشفقة عارمة قبضت على قلبها وهي تفكر في صغيرها، وقررت مع نفسها بآلا تشعره بأي شيء. لكن الأفكار لم تنقطع تعذيبها حول مصير ابنها الوحيد، تُرى أي مصير سيبتظره؟ كيف ستربيه؟ إلى متى سيبقى أبوها الرجل المسن على قيد الحياة؟ كيف ستواجه الحياة وحدها؟ وجدت نفسها في متاهة لم تفكر فيها سابقًا.

في صباح اليوم الثاني نهض الصغير كعادته مرحًا، وركض إلى الصلاة فلما لم يجد آدم المحروم، ركض إلى أمه يخبرها بذلك، فقالت له بأن عمو سافر. شعرت وكأنها عادت إلى إيقاع حياتها السابقة، لكنها صارت لا تطيق هذه الحياة الساكنة التي كانت قبل علاقتها بآدم المحروم تعيشها. كانت لا تعرف كيف تقضي وقتها. أخذت تتصل طوال الوقت بأبيها لكن دون جدوى. أرادت أن تتصل بآدم المحروم، لكنها ضغطت على نفسها ألا تفعل ذلك، فهي على الأقل في أيام العدة الواجبة فلا يجوز لها أن تكلم شخصًا غريبًا. وكانت تضغط على نفسها ألا يتنبه ابنها إلى أي شيء، وهذا ما كان صعبًا عليها لأن

إنها كان يلعب بكل براءة ويريدها أن تلعب معه. فأحياناً كانت تستجيب له وأحياناً أخرى تراوغ كي لا تشاركه ضحكته وكرراته الطفولية.



مر يومان على ذلك المساء الذي أخبر فيه آدم المحروم حواء الزاهد عن سبب سفر أبيها إلى البصرة. لكنه ما زال متأثراً جداً من ردة فعلها المهينة بالنسبة له، حيث فهم وكأنها طردته، بالرغم من أنها كانت باحت له بحبها وبعدم تصور الحياة بدونه! “كل النساء يقلن ذلك حينما يرغبن بالرجل”، قال لنفسه حينها.

أحس أنه لم يفهمها جيداً، أو أنها شخصية مزدوجة، فما معنى كل هذا التحرر في العلاقة معه، بينما تتصرف وكأنها امرأة عفيفة. متحفظة؟! أدرك أنه فقدوها، لكنه بالرغم من ذلك فهو يحبها فعلاً، كان على يقين بأنها ستصطدم بالخبر، وتتأثر قليلاً ولفترة ما، لكنها في النهاية ستطمئن إلى أنهما سيعيشان معاً ويتزوجها بعد مرور العدة بفترة قصيرة. كان مطمئناً إلى أن والدها لن يعترض عليه، بل وربما سيسهل هو الأمر. لكنه كان مستاءً من ردة فعلها. وكان يعذبه طريقتها في حذفه بهذه السهولة من حياتها.

لقد كان يود أن يساعدها في تقبل الأمر، والتفكير بشكل هادئ بكل التفاصيل، وكيف سيواجهان كل الاحتمالات، لكنها لم تدع له أي مجال للتواصل. وها قد مر يومان على ذلك دون أن يسمع عنها أي شيء. لقد اتصل مرات عدة بالهاتف النقال لوالدها لكن الهاتف كما يبدو مغلقاً. لم يفهم سر ذلك. كما أنه لا يستطيع أن يتصل بها بعد ما جرى بينهما.

فكر مع نفسه بأن والدها لو كان قد رجع فمن المؤكد كان سيمر عليه. لكن لا أحد قد اتصل به. كان قلقاً عليها، وعلى الصغير، ولا يدري كيف كان

وضعها خلال هذين اليومين. قرّر أن يخرج إلى الشارع ويمر من أمام الدار ليعرف الحال على الأقل.

كان الشارع مظلمًا وفارغًا. ليست هناك سوى بعض الأضواء الكهربائية التي تأتي من نهاية الشارع العام. مر بهدوء من أمام الدار. تلفت حوله إن كان هناك من يراقبه في الشارع. لم يكن ثمة أحد في الشارع في مثل هذا الوقت. نظر إلى الدار فاستغرب عدم إضاءة في الردهة. لقد كان حينما يأتي مع والدها ليلاً، يرى الصالة مضاءة، فيعرفان بأنها تنتظرهما. لكن ما الذي جرى؟ هل هي في غرفة نومها؟

أراد أن يطرق الباب عليها، لكنه تردد في ذلك. أخرج الهاتف النقال من جيبه، أراد أن يتصل بها، لكنه تردد أيضًا. تقدّم من الباب الحديدي الخارجي، وبهدوء شديد أراد دفعه، لكنه كان مغلقًا من الداخل. فجأة. انتبه إلى دخول سيارة إلى زقاقهم. فابتعد عن الباب وواصل طريقه باتجاه الشارع العام، حين مرت السيارة من جانبه، نظر إلى من كان داخلها، فرأى ثلاثة رجال يلبسون الأسود، أو هكذا تراءى له، إذ كانت السيارة مضاءة بمصباح داخلي شاحب الضوء.

حين ابتعد ما يقارب الثلاثين مترًا التفت إلى الخلف فوجد أن السيارة واقفة أمام الدار لكن في منتصف الشارع. ظل هو واقفًا أيضًا ليرى ماذا سيحدث، ومن هؤلاء، أيمن أن يكون الأب قد وصل؟ لكن لا أحد نزل من السيارة، ثم تحركت السيارة مواصلة سيرها.

استغرب آدم المحروم الأمر، ولم يجد له تفسيرًا. ولا يدري أي شعور دفعه ليلتفت ثانية إلى الخلف نحو السيارة، فوجد أنها وقفت أمام المشتمل

أيضاً، لكن للحظات قليلة ثم واصلت السير. فكّر مع نفسه، ربما هم ضيوف على أحد ما لكنهم لا يعرفون الدار بالضبط. واصل سيره نحو الشارع العام.

في ذلك الوقت بالضبط سمعت حواء الزاهد صوت سيارة وقفت قرب الباب، ظنت أن والدها قد وصل. وقفت في الصالة المظلمة تنظر إلى الباب، لكن لم يجرئ أي شخص. إذ بعد قليل تحركت السيارة من أمام الباب، وانتبهت أنها توقفت على مبعدة قليلة. ظنت ربما أراد والدها أن يذهب إلى آدم المحروم قبل أن يأتي إليها، لكن السيارة تحركت بعد لحظات. وبالرغم من ذلك ظلت واقفة في الصالة المظلمة لساعة تقريباً دون أن يظهر أي شيء، لكنها انتبهت قبل ذلك لوجود رجل وقف عند الباب قليلاً ومضى!

راودها إحساس داخلي إلى أنه آدم المحروم، لكن هذا يعني أن من كان في السيارة ليس أباه، بل ربما أشخاص غرباء كانوا في زيارة لأحد معارفهم في الزقاق. كانت على يقين بأن الشخص الذي بدا في العتبة قرب الباب الخارجي هو آدم المحروم، لكنها لم تذهب لتفتح له، لأنه لم يطرق الباب كي تكون مضطرة لفتحه له، لكن هل كانت ستذهب لتفتح الباب حتى لو كان قد طرقها؟ لم تجد أي إجابة على سؤالها، لكنها غريزياً كانت تتمنى لو أنه كان قد طرق الباب! ظلت هي واقفة أمام النافذة غارقة في ظلمة الصالة، تنظر إلى العتبة والظلام في الخارج.

حين تحركت السيارة نحو الزقاق من الطرف الآخر، لم يستمر آدم المحروم في تجواله كثيراً، إذ عاد بعد قليل راجعاً إلى بيته، لكنه قبل أن يصل بيته توقف عند باب بيت آدم الزاهد. أراد أن يطرق الباب إلا أنه لم يفعل، وإنما توجه لمنزله.

لم يكن يعرف ماذا يفعل. كان متضايقًا جدًا. توجه لغرفة نومه، أشعل المصباح الكهربائي. تمدد على سريره. نظر إلى الكتب التي اشتراها لها واحتفظ بها لديه كي تأتي لتقرأها عنده. أخذ يتصفحها دون أيما رغبة في القراءة.

كان يحس بالاختناق. تذكر أنه ترك حقيبته الجلدية عندها في البيت. فجأة راوده شعور بأن أيام اللذة والنشوة الجنسية قد انتهت، لكن عليه ألا يفقد حواء الزاهد، فهو يحبها جدًا. وبدون أيما تفكير أخذ الهاتف النقال وكتب لها رسالة من كلمة واحدة: أحبك.

أحس بالذعر من تصرفه هذا. ظل ينتظر ردها. كان قلبه يخفق بقوة في صدره. انتظر طويلاً دون أن يصله أي رد. فكّر مع نفسه في أي رد، مهما كان سيئاً، هو بمثابة تواصل معها، لكن ألا ترد يعني أنها رفضته نهائياً، أو أنها لا تزال غاضبة منه.

لا يعرف آدم المحروم كيف نام.

فجر أسود

فرّ آدم المحروم على طرقات خفيفة على باب المشتمل الداخلي. مَنْ تراه جاء ليترك الباب عليه في مثل هذا الفجر؟ أَيْكون الأب آدم الزاهد قد وصل تَوًّا فأراد أن يمر عليه قبل أن يواجه ابنته؟ أم ترى هي حواء الزاهد جاءت لتعتذر له بطريقتها؟

كان قد نام عاريًّا إلا من سرواله الداخلي. لبس البنطلون الذي كان عند قدميه، ولبس قميصه أيضًا، وخرج ليرى من الطارق؟

لم يتح له باب المشتمل الخشبي من رؤية مَنْ خلف الباب، كما أن النافذة التي تطل على الباب الخارجي لم تكشف الطارق لأن باب الصلاة كان جانبياً. أحس برجفة تسري في جسده، فسأل بهدوء محاولاً ألا يظهر التوجس والخوف في نبرته:

- مَنْ هناك؟

لم يسمع جواباً وإنما جاء الرد بطرق آخر على الباب. خَمَّن ربما هي ولا تريد أن يسمع صوتها أحد، لكنه للاحتياط سأل مرة أخرى:

- مَنْ هناك؟

فجاء صوت رجالي، محاولاً أن يكون هادئاً:

- افتح. نحن من طرف الحاج آدم الزاهد.

ارتجف قلبه وازداد نبضه، ففتح الباب سريعاً، متوقعاً بأن شيئاً ما قد حدث.

ما إن فُتح الباب حتى دخل أربعة رجال ملتحمون بلحى خفيفة، وبوجوه سمر، وملامح خشنة متجهمة. تفاجأ آدم المحروم بهذا العدد وتوجس شراً. فجأة باغته اثنان من الرجال من الخلف وقبضا عليه بإحكام، وبينما أراد هو أن يصرخ طالباً النجدة، أخرج أحدهم شريطاً لاصقاً، يبدو أنه كان قد أعدّه في جيبه، ولصقه على فمه مباشرة كي لا يترك له فرصة للصراخ والاستغاثة. وبدون أن يضيّع هؤلاء الوقت، بل ولم يتركوا له فرصة أن يستوعب المشهد الذي هو فيه، سحبوه إلى أعماق البيت، وحين انتبهوا لغرفة النوم دخلوها ساحبين إياه معهم.

كانت الغرفة معتمة. ضغط أحدهم على زر الكهرباء ليضيء المصباح إلا أنه لم يكن هناك أي تيار كهربائي. كان آدم المحروم فزعاً، لم يستطع أن يتحرك لأن الآخرين قد شلّوا حركته، لم يظهر منه سوى الفرع الهائل في عينيه. ألقوا به على السرير العريض. وبسرعة اللصوص المرتبكين مدوه على السرير فجلس أحدهم على ساقيه ليشل حركته، ومسك رجلان بذراعيه، كل واحد من جهته، بينما جلس الرابع على صدره، حيث أخرج سكيناً كبيراً من سكاكين المطبخ، وبينما هو يقربها من عنق آدم المحروم، حاول الأخير أن يطلق ما لديه من قوة مدافعاً عن نفسه. أراد أن ينطح الذي يجلس على صدره فنجح في إزاحة السكين قليلاً من يد المهاجم فجرحته جرحاً بسيطاً، ولم يكن من ردة فعل الرجل الذي يقبض على السكين إلا أن، وبدون أي كلام، وبسرعة خاطفة، يمرر نصل سكينه على عنق آدم المحروم، فطفر الدم على الحائط وعلى وجه القتال. حاول آدم المحروم مرعوباً أن يرفس إلا أن الآخرين كانوا قد أحكموا على أطرافه بكل قوتهم. نفر الدم من عنقه غزيراً. ولم تمض إلا دقائق حتى تسربت الحياة من جسده. أسلم الروح. امتلأت الوسادة والشرشف بالدم.

تلوث السرير من جهة الرأس. تلوث الحائط. تركوه ملطخاً بدمه، وغادروا الغرفة والمنزل بسرعة.

فزّت حواء الزاهد على طرقات قوية على الباب الداخلي للصالة. مدّت يدها، في عتمة الغرفة، إلى المصباح الصغير إلى جانبها على طرف السرير. أضاءت الغرفة بنور المصباح الشاحب. أول ما طرأ في ذهنها أنه والدها. لكن، وخلال ثانية أجابت نفسها بأن والدها لديه مفتاح الباب الداخلي ولا يحتاج إلى أن يطرق الباب بهذا الشكل. فكّرت ربما يكون آدم المحروم، لكنها أيضاً أجابت نفسها بأنه لا يتجرأ أن يفعل ذلك، فهو مهذب، وهو يحافظ عليها وعلى سمعتها. قفزت، وهي في خضم هذه الأسئلة والأجوبة، إلى خارج الغرفة.

حين صارت في وسط الصالة أُلقت نظرة من النافذة جانبياً إلى الطريق، لم تجد أحداً، لكنها انتبهت لوجود مجموعة من الأشخاص. أحست برعب شديد. راودها إحساس غامض بأن هؤلاء لهم علاقة بسفر والدها. لكن لماذا جاءوا في مثل هذا الوقت؟

عادت مسرعةً إلى غرفة نومها، وأخذت العباءة السوداء، تلفحت بها، ثم خرجت إلى الطارقين. وقفت عند الباب من الداخل وسألت بخوف:

- مَنْ الطارق؟

جاء صوت أحدهم قائلاً بشكل واثق:

- أنا الحاج هايل. أنا أخو المرحوم، زوجك.

فتحت الباب مرعوبة. لا سيما حين سمعت كلمة "المرحوم زوجك". اندفع الرجال إلى الداخل. كانت وجوههم في ذلك الغبش مرعبة. توجهوا

إلى داخل الدار. كانت هي مرعوبة. وبدون أي استئذان دخلوا الصلاة.
كانت حواء الزاهد مذهولة من طريقة دخولهما إليها مع غرباء، لا سيما
وأنها المرة الأولى التي يأتي فيها الحاج هايل الأخ الأكبر لزوجها مع أخيه
الأصغر إلى هذا البيت، كما انتبهت للطريقة الغريبة من التعامل الخشن.
انتبهت إلى نظرات الأخوين المليئة بالتساؤل والغموض والفرع. لم
يسلما عليها. توزع الرجال جالسين على المقاعد الموجود في الصلاة.
انتبهت إلى أنهم فرعون جدًا، وكأنهم مطاردون، إذ كانوا جميعهم ينظرون
بتوجس إلى الباب الخارجي. كما انتبهت إلى أن أحدهم مجروح اليد، وإلى
آخر بدا قميصه ملوّنًا بالدم. وعلى وجه أحد الأخوين قطرات دم. نظر الحاج
هايل إليها شزّاءً، وقال لها:

- اذهبي إلى مكانك هناك، واسمعي ما سنقوله لك.
وأشار بيده إلى جهة المطبخ وداخل البيت. لم تفهم هي ما وراء هذا
الكلام، لكنها بالرغم من ذلك توجهت إلى هناك حيث صارت بعيدة عن
أنظارهم، وجاء صوت الأخ الكبير حاسمًا وقاسيًا، مع نبرة تجعله مرتجفًا:
- اسمعي يا بنت الناس. أخونا، الذي هو زوجك، مات تحت التعذيب في
سجن بوكا. وأخونا الآخر سافر مع أبيك إلى هناك. لكنهما لم يصلا، حيث
تم اختطافهما عند مدينة الصويرة، على الطريق العام بين بغداد والكوت،
وتم ذبحهما وإلقاء جثتهما على الشارع مع بقية ركاب الباص الذي كانا فيه.
أحسّت حواء الزاهد وكأن قلبها سيتوقف، وأنها بالكاد تتنفس، إلا أن
الحاج هايل واصل كلامه دون أن يعيرها أي اهتمام:

- الشرطة قبل يومين جاءت بهوبيتهما. كانا مقطوعي الرأس. جئنا نخبرك.
لكننا لم نستطع ذلك، لأننا رأينا شخصًا غريبًا خرج من البيت. شاب في

منتصف الثلاثينات من عمره. كما شاهدناه مع ابن أخينا. أنت الآن وحيدة. لقد قمنا بما يمليه علينا شرفنا، وشرف أخينا، وعاقبناه. وإذا تأكدنا بأنك أسأت لنا ولشرفنا مع أي رجل آخر فسيكون جزاؤك قاسياً؛ عندها سنأخذ ابن أخينا وسنعاقبك.

غادروا مسرعين، ولم تسمع سوى ضجة، واصطفاق باب الردهة، وأصوات هرولة، وبعد لحظات ارتفع صوت محرك سيارة، وصوت سيارة تنطلق بسرعة.

منذ سماع حواء الزاهد، للجمل الأولى التي انطلقت من فم الحاج هابيل، أدركت أن كارثة قد حلت بالجميع. وحينما سمعت ما جرى لوالدها أحست بنزول قطرات من البول منها لا إرادياً، أمسكت فمها بكفها كي لا تنطلق صرختها. وما إن تحدثوا عن الشخص الغريب حتى عرفت بأنهم هم الذين كانوا يراقبونها. وربما كانوا هنا قبل ذلك ولمحوا آدم المحروم. وحين سمعت ما قالوه عمّا أملاه عليهم شرفهم، والعقاب، تذكّرت القميص الملوّث بالدم، وجرح كف أحدهم، ونقاط الدم على وجه الأخ الكبير. أحسّت بنفسها تنهار، وكاد تنفسها ينقطع، ولم تعد رجلاها قادرتين على حملها فأقّعت على الأرض دون إرادة منها.

فراغ كبير اجتاحتها. فراغ هائل ليس له قرار. لم تكن تقوى على التركيز في كل ما سمعت. كانت مشوشة. خائفة. تحس بأنها ليست هي نفسها. لم تكن تستطيع التركيز على شيء محدد مما سمعت، بزوجها الذي مات تحت التعذيب؟ بأيها الذي دُبح وقُطعت رأسه؟ بحبيبها التي صارت متأكدة الآن أنه تعرض لأذى كبير، لكنها تخاف أن تفكر بنوع الأذى الذي تعرض له؟ فجأة انطلقت منها صرخة هائلة جسّدت كل ألمها ويأسها وعجزها وهول مصابها.

انتبهت لبكاء ابنها الذي فزَّ فزعاً على صرخة أمه المخيفة. وحين خرج الصغير من الغرفة رأى أمه ملقاة على الأرض. جالسة بانهايار. مائة ساقها إلى الأمام باستسلام، ومتكئة على جدار الغرفة عند بداية السلم. أخذ الطفل يبكي بصوت عال. رفعت عينيها إليه واحتضنته باكية أكثر. ازداد فرع الطفل الصغير، واحتضن أمه باكيًا. ظلت الأم والطفل يبكيان. كانت هي تبكي، وتعرف لماذا تبكي، بينما آدم الملاك الصغير، كان يبكي لبكاؤها فقط! ظلا هكذا لوقت طويل، إلى أن أحست بالإنهاك. انتبهت لانهايار ابنها تقريباً، إذ أن نظراته كانت مرعوبة وملامح وجهه تعكس خوفاً مجهولاً، فخافت أن يمسه شيء بسبب المشهد المفزع الذي هما فيه. أخذت تفكر بابنها، بيتمه، وبأن عليها الآن أن تعيش من أجله. ولا إرادياً وبطريقة غامضة وجدت نفسها تفكر بشكل عملي في ما عليها أن تقوم به.

أحست بهدوء مفاجئ وغريب بحيث لا يتناسب مع الحالة التي هي فيها، وكأن المشهد قد اتضح أمامها، فأخوة زوجها ربما راقبوها فعلاً، وانتبهها لوجود آدم المحروم في بيتهم حتى بعد سفر والدها، وربما فعلاً أن ما جرى لأبيها كان قبل أيام، وأنهما جاءا لإخبارها فانتبهها لوجود آدم المحروم، لدخوله وخروجه، لذا انتقموا منه في هذا الفجر وجاءوا لينذروها.

ما إن تذكّرت آدم المحروم حتى أحست بهول الكارثة التي حلت بها. راودها إحساس أشبه باليقين بأنهم آذوه، نعم. هل ذبحوه؟

أحست بقلبها ينهار، وجسدها يرتعش بالرغم من أنها جالسة على الأرض. قررت مع نفسها بأن تذهب إليه لتتأكد من وضعه، بالرغم من تحذيراتهم لها، التي كانت واضحة الإشارة بمعرفتهم بعلاقتها به. لكن أليس الأولى بها الآن أن تتأكد من قضية والدها؟ وأن تعرف تفاصيل ذلك؟ وكل ما له علاقة بمقتله؟ ودفنه، وإقامة الفاتحة؟ لمن تذهب وهي وحيدة لا أهل ولا أقارب لديها؟

هل هم سيقيمون الفاتحة له مع أخيه الذي قتل معه؟ لقد أحست بأن أكثر ما ألمها في مقتل والدها هو تلك الطريقة البشعة في قتله، ذبحه وقطع رأسه، وهو ذلك الرجل المسن، المسالم. كانت تضرب رأسها بالحائط وهي تتخيل مشهد أبيها وهو يذبح. وكان الصغير يبكي وهو يراها تفعل ذلك.

ما إن كفت عن النحيب حتى كف الطفل أيضًا عن البكاء. تعب الطفل فغفا سريعًا في حجرها. نظرت إليه بألم كبير، وهي تشفق عليه من الأيام التي تنتظره بدون جده، أما هي فأحسّت بأنها تنتمي لأدم المحروم أكثر مما تنتمي إلى هؤلاء الذين اقتحموا عليها عالمها في هذا الفجر البغدادي الغامض.

عليها أن تكون قوية، ليس من أجلها فقط، وإنما من أجل هذا الملاك الصغير الذي ليس له من الدنيا سواها الآن. هكذا قررت مع نفسها. شعرت وهي في جلستها تلك بأنها بدأت تتصلب، وبأن قلبها بدأ يتحجر، وأنها تقبّلت كل ما جرى وكأنه مصير متوقع، وأن عليها الآن أن تواجه الحياة بقوة، فلا مجال للدموع والنحيب. عليها أن تفكر بشكل يحميها، وفي نفس الوقت لا تسمح لهؤلاء بأن يدمروا حياتها بأخذ صغيرها منها، كما هددوها فجر اليوم. قامت بهدوء محتضنة ابنها، فوضعتة على السرير، إلا أنه فرّ حينما أرادت أن تفك ذراعيها عنه. بكى، فانحنت عليه وقبلته. اطمأن الصغير حينما وجدها لا تبكي. وسكت. ذهب هي إلى المطبخ لتعد له طعامه. كان وجهها متجهماً. غاضباً. ويكشف عن إرادة سوداء.

ما إن انتهت حواء الزاهد من إطعام ابنها الصغير الذي عاد لهدوءه وبراءته، حتى تعالى دوي الانفجارات في أنحاء مختلفة من بغداد، تبعها دوي صفارات الإسعاف التي تقبض على القلب. أحد الانفجارات كان قريباً من منطقتهم، هكذا أحست حينما رافق الانفجار إطلاق رصاص سمعته.

بعد أن هدأت قليلاً قررت أن تتصل بآدم المحروم. صحيح أنها استلمت منه ليلة أمس رسالة كتب فيها: أحبك. إلا أنها لم تشأ أن ترد عليه. وربما حسناً فعلت، لأنها لو كانت قد استجابت له فربما كانا قد تصالحا وربما جاء لينام عندهم، ولو كان قد حدث ذلك، لكانت فضيحة ما بعدها فضيحة أمام أخوة زوجها. وبالرغم من أن لديها إحساساً يقبض على نفسها إلا أنها تحاول الآن ألا تفقد أملها نهائياً.

اتصلت به مرات عدة. كان الهاتف النقال يرن لكنه لا يجيب. أرادت أن تقنع نفسها بأنه ربما في الحمام. انتظرت لعشر دقائق واتصلت مرة أخرى. كان الهاتف يرن لكن أيضاً بدون إجابة. فكرت في أن تكتب له رسالة، وفعلاً كتبت: أجبني بسرعة. حدثت كارثة. قتل أبي. لا أعرف ماذا أفعل؟ أجبني أرجوك.

مضت أكثر من نصف ساعة على إرسالها الرسالة، وكررت اتصالها به مرات أخرى، لكن دون أي رد فعل. شعرت بأن عليها أن تذهب إلى المشتمل بنفسها، لأن هاجساً غامضاً أسود يقبض على روحها.

ارتدت عباؤها وقالت لابنها الصغير، محاولة أن تجنبه أي مكروه غير متوقع، بلهجة أمومية حنونة:

- حبيبي آدم. آني رايحة هنا. خمس دقائق وأرجع. أنت اجلس بغرفة النوم والعب هناك.

أخذته من يده إلى غرفة النوم، وأخرجت لعبه له، ففرح الصغير بها، وحينما همت بالخروج، فكرت أنه من الأفضل لها أن تأخذه معها. فأخذت بيده الصغيرة وقالت له:

- تعال معي. بعد ذلك تستطيع اللعب.

خرجت من الصلاة. كانت تحس بخفقان قلبها يتصاعد مع كل خطوة. خرجت إلى الشارع. تلفتت يمينًا ويسارًا فلربما أخوار زوجها ومن كان معها ما زالوا هنا يراقبونها.

كانت الشمس قد بدأت ترسل أول أشعتها. مشت إلى منزل آدم المحروم كمن يُساق إلى المشنقة. كان الصغير لاهيًا، مستكينًا، مطمئنًا لأنه مع أمه. حين وصلت حواء الزاهد مع ابنها إلى المنزل انتهت إلى أن الباب الخارجي مفتوح. دخلت وفي قلبها انقباض وانبطاط وتساعد في النبض بحيث أخذت تشعر بالاختناق. حين ولجت البيت، واتجهت إلى أعماق المنزل، انتهت إلى الباب الداخلي مفتوح على مصراعيه، ورائحة زنخة تأتي من أعماق المنزل. وقفت عند باب الصلاة ونادت:

- آدم. أستاذ آدم.

لم يجبها أحد. دخلت مرعوبة. نظرت في الصلاة فلم تجد ما يشي بأي شيء غير طبيعي. نظرت لصغيرها الذي أراد أن يدخل معها، أرادت أن تقول له بآلا يدخل معها إلى الصلاة إآلا أن الكلمات ماتت على شفثتها من الخوف، فأشارت له أن يبقى خارجًا.

دخلت إلى أعماق المنزل. أرادت أن تناديه لكن الكلمات لم تطاوعها. حينما اقتربت من غرفة النوم وجدت ثمة عتمة على السرير. اقتربت أكثر برعب. دخلت الغرفة فهاها المنظر. كان آدم المحروم مذبحًا على سريريه، غارقًا في دمه الذي أغرق الفراش ولوث الجدار بل وسال على الأرض. فجأة أحست بالتيقؤ. أمسكت فمها بيدها وهرعت هاربة من المنزل.

ما إن خرجت من الصلاة حتى أخذت ابنها وهربت من المشتمل. حين صارت في الزقاق لمحت أحد أبناء زقاقهم وهو يحاول أن يصعد سيارته.

أشارت إليه بيدها. فانتبه لها. ظل واقفاً عند باب السيارة ولم يدخل إليها. حين وصلت إليه، كانت شاحبة كالموتى، وبالكاد كانت الكلمات تخرج من فمها، كانت تشير بيدها إلى المشتمل، والدموع تنزل دون بكاء من عينيها، وهي تقول كلمات متقطعة:

- ذبحوه. الكلاب ذبحوه!

لم يفهم الرجل ما تقول، لكنه فهم بأن ثمة أمراً جليلاً قد حدث، فسأل:

- ذبحوه. من ذبح من؟

فأشارت إلى المشتمل. في تلك اللحظة مر رجل آخر وزوجته، فأشار الرجل إليهما، قائلاً:

- الأخت تقول ثمة رجل مذبوح في تلك الدار.

انتبه الرجل وزوجته لهما وقال الرجل متحمساً، وبشهادة العراقيين، لا سيما وأنه مع زوجته:

- تعال لنرى.

كانت زوجته تلكزه وهي تهمس له:

- لماذا تورط نفسك في المشاكل، ما لنا وله؟

نظر زوجها إليها شزراً قائلاً:

- ماذا؟ ألم تبقى رحمة في قلوب الناس؟ صاروا حينما يسمعون بشخص مذبوح يخافون الاقتراب!

توجه الرجلان تتقدمهم حواء الزاهد وهي تمسك بيد ابنها، وكذلك المرأة زوجة الرجل الآخر. دخلوا المشتمل.

بعد دقائق خرجوا جميعاً. اتصل أحد الرجلين بالشرطة. وبينما كانوا

ينتظرون الشرطة، سألها الرجل الأول:

- هل تعرفينه؟
 - نعم. إنه ابن عمي.
 - وهل تعرفين من ذبحه؟
 - نعم. أخوا زوجي ورجلان آخران كانا معهما.
 - آها. وكيف عرفت ذلك؟
 - لأنهم جاءوا صباحًا عندي، وكان قميص أحدهم ملوثًا بالدم، ويد أحدهم مجروحة، وعلى وجه أحدهم نقاط دم. وهددوني.
 - لا تخافي. قل لي كل ما تعرفين للشرطة.
 - سأقول كل شيء. أنا لا أخافهم بعد الآن.
- في تلك اللحظات جاءت سيارة الإسعاف مع سيارتين للشرطة. انشغلوا جميعًا بالحدث. جاء المخططون، والمحققون، وأخيرًا حملوا الجثة. واتفق المحققون معها على أن يتم استجوابها في بيتها أول الأمر.

فتحت لهم باب صالة بيتها. وخلال كل ذلك الوقت، كانت هي في أعماقها قد قررت أن تنتقم من أخوي زوجها ومن كان معهما بأي شكل، حتى لو تطلّب ذلك أن تبالغ في الأشياء. جلست هي وجلس اثنان من المحققين معها. وبينما كان صغيرها في حجرها أخذت تتحدث هي عن الحاج هايبيل وأخيه، والرجلين الآخرين. وعن أبيها آدم الزاهد وحببيها آدم المحروم، وما جرى خلال هذا الفجر البغدادي الأسود.

٢٠١٢ - ٢٠١٣

برلين

